

التفسير المحرر
للقرآن الكريم

سورة يس و سورة الصافات

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع والعشرون

الدرر السنية

www.dorar.net





التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يس وسورة الصافات)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد السابع والعشرون – سورة يس وسورة الصافات/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٧٠٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٩٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١– القرآن – سورة يس – تفسير ٢– القرآن – سورة الصافات – تفسير

أ– العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٨٣٧٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨٣٧٤

ردمك: ٩-٩٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ – ٢٠٢١ م





للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يس وسورة الصافات)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

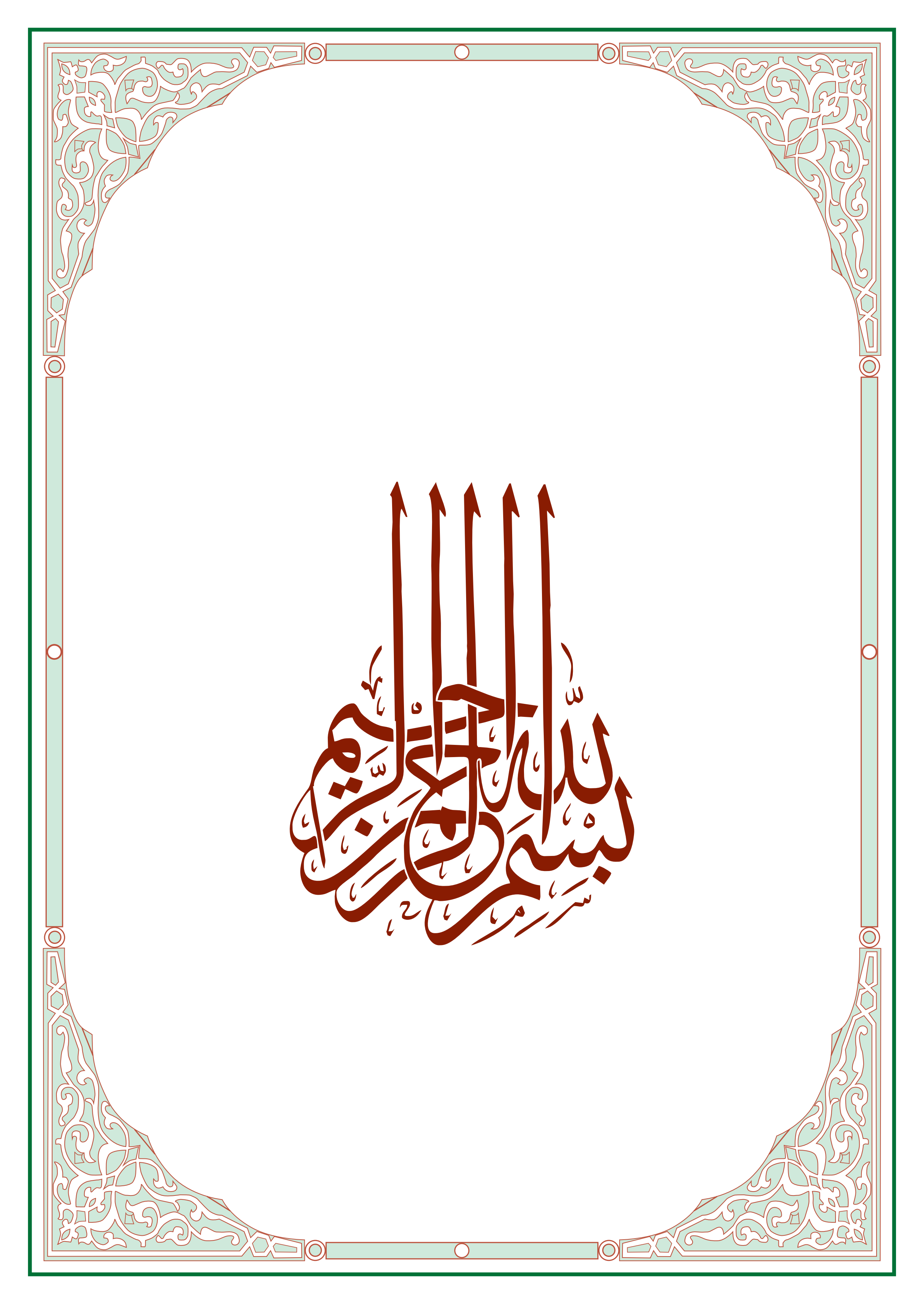
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

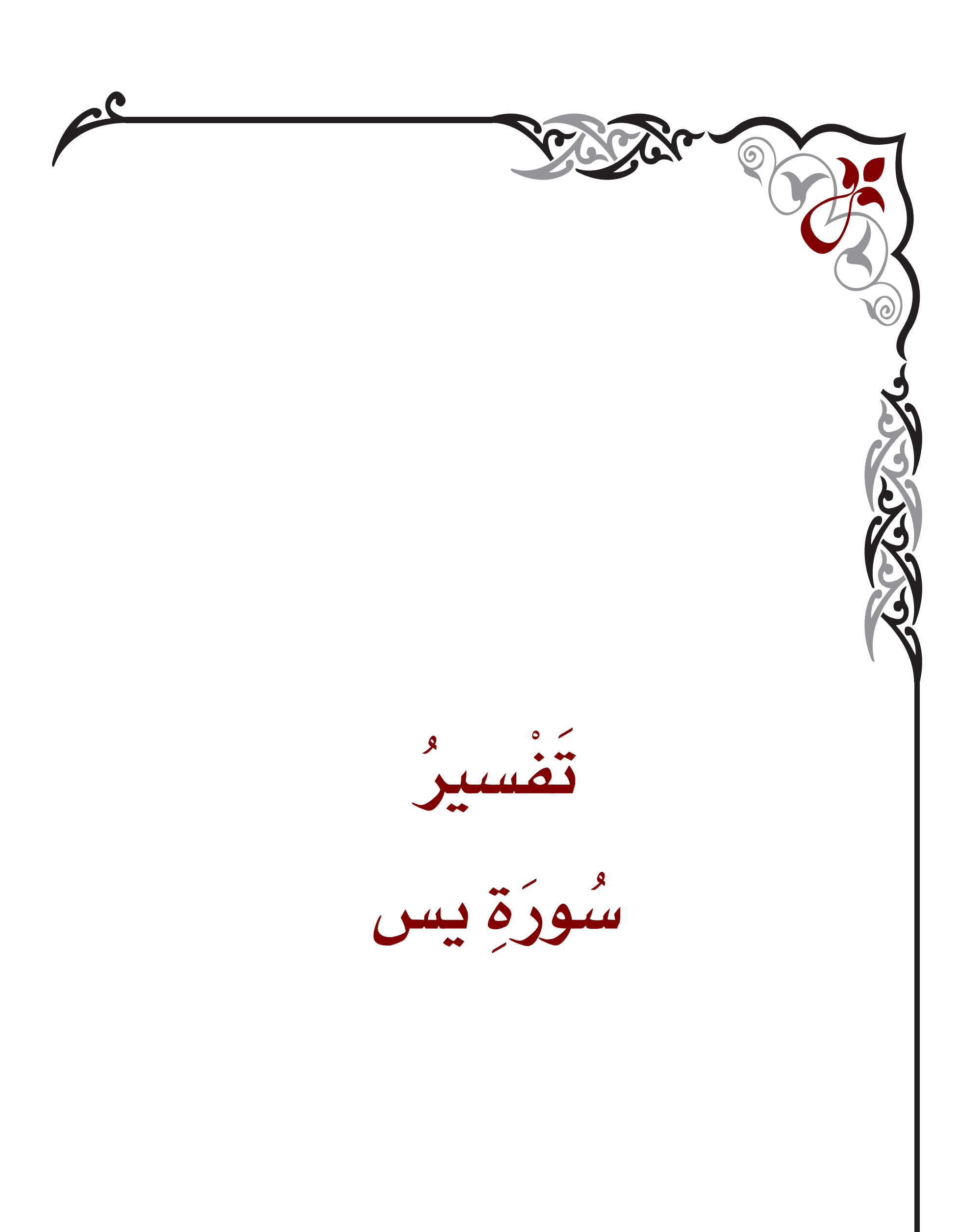
الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع والعشرون

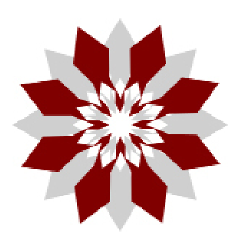


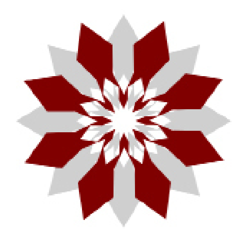

بسم الله الرحمن الرحيم

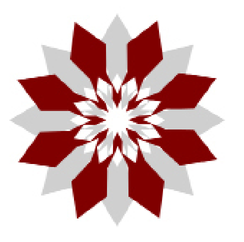


تَفْسِيرُ

سُورَةِ يس







سورةُ يس

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (يس)[1].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (يس) مَكِّيَّةٌ[2]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[3].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تقريرُ أمَّهاتِ أُصولِ الدِّينِ: وَحدانيَّةِ اللهِ ربِّ العالَمينَ، والبَعثِ والجَزاءِ، والوَحيِ والرِّسالةِ[4].

---

(١) سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بـ (يس)؛ لأنَّ اللهَ تعالى افتَتَحها بها، وقد انفرَدت هذه السُّورةُ بافتتاحِها بهذَينِ الحرفَينِ، فمُيِّزَت بهما عن بقيَّةِ السُّوَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤١).

ويُنظر ما رُويَ في تسميتِها بهذا الاسمِ في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧).

(٢) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً منها، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ...﴾ [يس: ٤٧]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥).

وقيل: آيةُ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٠٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦٣).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، والقُرطبيُّ، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٩).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- التَّأكيدُ على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإثباتُ رِسالتِه.

٢- ذِكرُ قِصَّةِ أصحابِ القريةِ، وما جرَى بيْنَهم وبينَ الرُّسُلِ الَّذين أرسَلَهم اللهُ إليهم.

٣- بيانُ بعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ونِعَمِه على عِبادِه.

٤- الإخبارُ ببَعضِ دَعاوى المُشرِكينَ الباطِلةِ، مع الرَّدِّ عليهم، وبَيانُ مَشهَدِ خُروجِهم مِن قُبورِهم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ.

٥- بيانُ ما أعدَّه اللهُ تعالى للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ، وما أعدَّه للكافِرينَ، وشَهادةِ جَوارِحِهم عليهم.

٦- تنزيهُ القرآنِ عن أن يكونَ مُفترًى، وتَبرِئةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا اتُّهِمَ به مِن نَظمِ الشِّعرِ، وتَسليتُه عمَّا أصابَه، مع بيانِ وظيفتِه، وهي البَلاغُ والإنذارُ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بتقريرِ البَعثِ، والرَّدِّ على أحدِ مُنكِريه.



الآيات (١-١٢)

﴿يسٓ ١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ١٢﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿صِرَٰطٍ﴾: أي: طريقٍ واضحٍ واسعٍ سهلٍ، قيل: أصلُ الصَّادِ فيه سينٌ؛ مِن قولِهم: سرطْتُ الطَّعامَ؛ إذا أسرعتَ بلعَه[١].

﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾: أي: وجَب العذابُ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ، وصِحَّتِه[٢].

﴿أَغْلَٰلًا﴾: أي: سَلاسِلَ، جَمْعُ غُلٍّ، وهو طَوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُقِ، وأصلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٩)، ((الوجوه والنظائر)) لأبي هلال العسكري (ص: ٢٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص:٤٠٧، ٤٨٣)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧).

(غلل): يدُلُّ على إحاطةٍ وثَباتٍ[١].

﴿مُّقۡمَحُونَ﴾: أي: مَرفوعو الرُّؤوسِ[٢] مع غضِّ الأبصارِ، مِن قَولِهم: بعيرٌ قامِحٌ: وهو الرَّافِعُ رأسَه مِن الإبِلِ عندَ الشُّربِ؛ امتِناعًا منه، والإقْماحُ: رفْعُ الرَّأْسِ وغَضُّ البصَرِ[٣].

﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾: أي: أعمَيْناهم، وغَطَّيْنا أبصارَهم، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٤].

﴿وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾: أي: خُطاهم، وما استُنَّ به بَعْدَهم مِن سُنَنِهم، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[٥].

﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾: أي: أثْبَتْناه وكَتَبْناه، والإحصاءُ: التَّحصيلُ بالعددِ، مِن لفظِ الحصى، واستِعمالُ ذلك فيه مِن حيثُ إنَّهم كانوا يَعتمِدونَه بالعدِّ، وأصلُه هنا:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

(٢) قال العُلَيمي: (لأنَّ مَن غُلَّت يدُه إلى ذَقَنِه، ارتفَع رأسُه). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩).
وقال ابن جُزَي: (والمعنى: أنَّهم لَمَّا اشتدَّتِ الأغلالُ حتَّى وصلتْ إلى أذقانِهم، اضطُرَّتْ رؤوسُهم إلى الارتفاعِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٣)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٦).

العَدُّ والإطاقةُ[١].

﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي: اللَّوحِ المحفوظِ، والإمامُ: الكِتابُ، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمرجِعِ، وسُمِّي اللَّوحُ المحفوظُ بذلك لِكَونِه أصلَ كلِّ ما كُتِب مِن كُتُبٍ وصُحُفٍ، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشَّيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَنزِيلَ﴾: بالنَّصبِ على المصدَرِ، مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ محذوفٍ، على معنى: نزَّل اللهُ ذلك تنزيلًا مِن العزيزِ الرَّحيمِ، ثمَّ أُضيفَ المصدَرُ إلى فاعِلِه فصار معرفةً، كما قال تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، أو هو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: أعني، أو أمدَحُ. وقُرِئَ بالرَّفعِ[٣] على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو تنزيلُ[٤].

قَولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١، ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٦).

(٣) قرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ بنصبِ اللَّامِ. وقرأ الباقون بالرَّفعِ. يُنظر: ((السبعة في القراءات)) لابن مجاهد (ص: ٥٣٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٦).

﴿وَكُلَّ﴾: مفعولٌ به لفِعلٍ محذوفٍ يُفسِّرُه ما بعدَه، أي: وأحْصَيْنا كلَّ شيءٍ أحْصَيناه(١).

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿يسٓ﴾، وهو من الحُروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَت بها بعضُ السُّوَرِ القُرآنيَّةِ؛ للإشارةِ إلى إعجازِ القُرآنِ الكريم، ثمَّ أقسَمَ تعالى بالقُرآنِ الحَكيمِ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من رُسُلِ اللهِ، وأنَّه على طريقٍ مُستقيمٍ يُوصِلُ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ هذا القُرآنَ تَنزيلٌ مِن اللهِ العزيزِ الرَّحيمِ؛ لِيُنذِرَ به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قومًا لم يُنذَرْ آباؤُهم مِن قَبْلِه؛ فهم غافِلونَ عن الحَقِّ.

لكنْ مِن هؤلاء الَّذين بُعِث فيهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لإنذارِهم مَن ردَّ دعوتَه، ولم يَقبَلْ النِّذارةَ، وهم الَّذين يقولُ الله فيهم: لقد وجَبَ عذابُ اللهِ على أكثَرِ مُشرِكي العَرَبِ، فهم لا يُؤمِنونَ حتَّى يأتيَهم الموتُ، فإنَّا جعَلْنا في أعناقِهم قُيودًا فهي واصِلةٌ إلى أذقانِهم، فهم مرفوعةٌ رُؤوسُهم لا يستطيعونَ خَفْضَها، وجعَلْنا مِن بيْنِ أيديهم حاجِزًا ومِن خَلفِهم حاجِزًا، فجعَلْنا على أبصارِهم غِشاوةً وأغطيةً، فلا يَرونَ شَيئًا، وإنذارُك وعدَمُه عندَهم سواءٌ، فهم لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الَّذي جِئتَهم به -يا محمَّدُ-!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى مَن هم أهلٌ للتَّذكيرِ، فيقولُ: إنَّما تُنذِرُ إنذارًا نافِعًا مَنِ اتَّبَع القُرآنَ، وخاف اللهَ بالغَيبِ؛ فَبَشِّرْ هذا الصِّنفَ مِن النَّاسِ بمَغفرةٍ عَظيمةٍ وثَوابٍ حَسَنٍ.

ثمَّ يؤكِّدُ الله سبحانَه أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّ الجزاءَ حقٌّ، فيقولُ: إنَّا نحن نَبعَثُ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٩٦)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (٣/ ٨٩).

الموتَى يومَ القيامةِ؛ لكي نُحاسِبَهم على أعمالِهم، ونكتُبُ أعمالَهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وآثارَهم الَّتي تَرَكوها بعدَ مَوتِهم، سواءٌ أكانت صالِحةً أمْ غيرَ صالحةٍ، وكُلَّ شَيءٍ أثبَتْناه في كتابٍ موضِّحٍ لكلِّ شيءٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يسٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَتْ بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

قال الشوكاني: (واختُلِف في معنى هذه اللَّفظةِ؛ فقيل: معناها: يا رجُلُ، أو يا إنسانُ... وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ وغَيرُه: هو اسمٌ مِن أسماءِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ دليلُه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ... قال الواحديُّ: قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرون: يريدُ: يا إنسانُ -يعني: محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم. وقال أبو بكرٍ الوَرَّاقُ: معناه: يا سيِّدَ البَشَرِ. وقال مالكٌ: هو اسمٌ مِن أسماءِ الله تعالى، رَوى ذلك عنه أشهَبُ. وحكى أبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ عن جعفرٍ الصَّادِقِ أنَّ معناه: يا سَيِّدُ. وقال كعبٌ: هو قَسَمٌ أقسَمَ اللهُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٩).

وقال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ ﴿يسٓ﴾ بمنزلةِ ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾، ليست اسمًا من أسماءِ النَّبيِّ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٢٦).

وقال أيضًا: (أمَّا ما يَذكُرُه العوامُّ أنَّ ﴿يسٓ﴾ و﴿طه﴾ مِن أسماءِ النَّبيِّ، فغيرُ صَحيحٍ؛ ليس ذلك في حديثٍ صَحيحٍ ولا حَسَنٍ ولا مُرسَلٍ، ولا أثَرٍ عن صاحِبٍ، وإنَّما هذه الحروفُ مِثلُ: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿الٓر﴾ ونحوِها). ((تحفة المودود)) (ص: ١٢٧). ونسَبَه الزَّجَّاجُ إلى أهلِ العربيَّةِ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿يسٓ﴾ التَّحقيقُ أنَّه مِن جملةِ الحروفِ المُقَطَّعةِ في أوائلِ السُّورِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٦).

﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي الحكمةِ، المحكَمِ المتقَنِ، فلا اختِلافَ فيه ولا خَللَ، ولا يَأتيه الباطلُ مِن بينِ يَدَيْه ولا مِن خَلفِه، الحاكمِ الَّذي يجبُ الرُّجوعُ إليه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠-١٢).

قال أبو حيان: (الحكيم: إمَّا فعيلٌ بمعنى مُفعَلٍ...، وإمَّا للمُبالَغةِ مِن حاكمٍ، وإمَّا على معنَى السَّببِ، أي: ذي حكمةٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨).

ممَّن اختار أنَّ الحكيمَ بمعنى المُحكَم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، ومكِّي، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٦).

وممَّن اختار أنَّ معنى الحكيمِ: ذو الحكمةِ: الخازنُ، والإيجي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

قال السعدي: (الحكيمُ الَّذي وَصْفُه الحِكمةُ، وهي وَضْعُ كلِّ شَيءٍ مَوضِعَه؛ وضْعُ الأمرِ والنَّهيِ في الموضِعِ اللَّائقِ بهما، ووضْعُ الجزاءِ بالخَيرِ والشَّرِّ في مَحلِّهما اللَّائقِ بهما؛ فأحكامُه الشَّرعيَّةُ والجزائيَّةُ كُلُّها مُشتَمِلةٌ على غايةِ الحِكمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

وقال الزمخشري: (﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: ذي الحِكمةِ، أو: لأنَّه دليلٌ ناطقٌ بالحِكمةِ، كالحَيِّ، أو لأنَّه كلامُ حَكيم، فوُصِفَ بصِفةِ المتكلِّمِ به). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣).

وعلى القَولِ بأنَّه بمعنى حاكم، فالمرادُ أنَّ القرآنَ حاكِمٌ على جميعِ الكُتُبِ الَّتي أنزلها اللهُ تعالى مِن قَبْلُ، يُميِّزُ صحيحَها مِن مُحَرَّفِها، مثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٢).

وقال ابنُ عُثيمين: (فالقُرآنُ حَكيمٌ بكُلِّ مَعنى الحِكمةِ، وبكُلِّ معنى الإحكامِ، وبكُلِّ معنى الحُكمِ... ذو حِكمةٍ، ومُحكِمٌ، ومُحكَمٌ، وحاكِمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١، ١٢).

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لَمِن جُملةِ المُرسلينَ إلى عبادِ اللهِ بوَحْيِه[1].

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ ﴾.

أي: على طَريقِ الهُدى المُستقيمِ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، الموصِلِ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنِ اسْتَوفَى القَسَمُ جَوابَه؛ رجَعَ الكلامُ إلى بعضِ المقصودِ مِن القسَمِ، وهو تَشريفُ المُقسَمِ به، فوُسِمَ بأنَّه[3]:

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾.

أي: نَزَّل اللهُ تعالى هذا القُرآنَ تَنزيلًا مِن ذي القَدْرِ العظيمِ، الغالبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتنِعِ مِن أنْ يَنالَه سوءٌ، ومِن عِزَّتِه الانتِقامُ ممَّن كَفَر بالحَقِّ، الرَّحيمِ بمَنْ آمَنَ به واتَّبَعه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) =



﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقسَمَ تعالى على رسالةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأقام الأدِلَّةَ عليها؛ ذكَرَ شِدَّةَ الحاجةِ إليها، واقتِضاءَ الضَّرورةِ لها[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المُرسَلَ والمُرسَلَ به والمُرسِلَ؛ ذكَرَ المُرسَلَ له، فقال[2]:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦﴾.

أي: أُنزِلَ القُرآنُ لِتُنذِرَ -يا محمَّدُ- القَومَ[3] الَّذينَ لم يُنذَرْ آباؤُهم برَسولٍ مِن

= (٢٢/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٤).

(٣) قال ابنُ عاشور: (القومُ المَوصوفون بأنَّهم لم تُنذَرْ آباؤُهم: إمَّا العَرَبُ العَدْنانيُّون؛ فإنَّهم مَضَت قرونٌ لم يأتِهم فيها نذيرٌ، ومضَى آباؤُهم لم يَسمَعوا نذيرًا، وإنَّما يُبتدأُ عَدُّ آبائِهم مِن جَدِّهم الأعلى في عمودِ نَسَبِهم الَّذي تميَّزوا به جِذْمًا وهو عَدْنانُ؛ لأنَّه جِذْمُ -أي: أصلُ- العرَبِ المُستعرِبةِ، أو أُريدَ أهلُ مكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

وقال إسماعيل حقي: (المعنى: لِتُنذِرَ قومًا لم يُنذَرْ آباؤهم الأقرَبون؛ لِتَطاوُلِ مُدَّةِ الفَترة، ولم يَكونوا مِن أهلِ الكتابِ... فآباؤهم الأقدَمون أتاهم النَّذيرُ لا مَحالةَ، بخِلافِ آبائِهم الأدنَينَ، وهم قُريشٌ، فيَكونُ ذلك بمعنى قَولِه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]). ((روح البيان)) (٧/ ٣٦٨).

وقال الرازي: (معنى قَولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: ما أُنذِروا بعدَما ضَلُّوا عن طريقِ الرَّسولِ المتقَدِّمِ، واليهودُ والنَّصارى دخَلوا فيه؛ لأنَّهم لم تُنذَرْ آباؤهم الأدنَونَ بعدما ضَلُّوا، فهذا دليلٌ على كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مَبعوثًا بالحَقِّ إلى الخَلقِ كافَّةً). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٣).

وقال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ «ما» للنَّفيِ، والمعنى: لم يُنذَرْ آباؤهم أصلًا؛ فإنَّ اللهَ تعالى ما بَعَث إلى قُرَيشٍ سِوى النَّبيِّ. =

قَبْلِك؛ فهم لذلك غافِلونَ عن الحَقِّ[١].

= والقَولُ الثَّاني: أنَّ «ما» هاهنا بمعنى الَّذي، فمعنى الآيةِ على هذا: لِتُنذِرَ قَومًا بالَّذي أُنذِرَ آباؤُهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ (ما) نافيةٌ-: الأخفشُ، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي، وذكَر الواحديُّ أنَّه قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٨٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمرقنديُّ، ونسَبَه الواحديُّ لِمُقاتلٍ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٢).

قال ابنُ عطيَّة: (اختلَف المفسِّرون في قولِه: ﴿مَّآ أُنذِرَ﴾؛ فقال عِكْرِمةُ: «ما» بمعنى: الَّذي، والتَّقديرُ: الشَّيءُ الَّذي أُنذِرَه الآباءُ مِن النَّارِ والعذابِ. ويَحتملُ أن تكونَ «ما» مصدريَّةً على هذا القولِ من أنَّ الآباءَ أُنذِروا. فالآباءُ على هذا كلِّه هم الأقْدَمون على مَرِّ الدُّهورِ، وقولُه تعالى: ﴿فَهُمْ﴾ مع هذا التَّأويلِ بمعنى: فإنَّهم، دخلَتِ الفاءُ لقطعِ الجُملةِ مِن الجملةِ. وقال قَتادةُ: «ما» نافيةٌ، أي: أنَّ آباءَهم لم يُنذَروا، فالآباءُ على هذا هم القريبون منهم، وهذه الآيةُ كقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ [سبأ: ٤٤]، وهذه النِّذارةُ المنفيَّةُ هي نِذارةُ المباشَرةِ والأمرِ والنَّهيِ، وإلَّا فدَعوةُ الله تعالى مِن الأرضِ لم تَنقطِعْ قَطُّ. وقولُه ﴿فَهُمْ﴾ على هذا: الفاءُ منه واصلةٌ بيْنَ الجُملتَين، ورابطةٌ للثَّانيةِ بالأُولى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١).

جملةُ: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ على القول بأنَّ (ما) نافيةٌ فالجملةُ متعلِّقةٌ بالنَّفيِ، أي: لم يُنذَروا فهم غافِلون، على أنَّ عدَمَ إنذارِهم هو سببُ غفلتِهم. وعلى القولِ الثَّاني في (ما) فالجملةُ متعلِّقةٌ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿لِتُنذِرَ﴾، كما تقولُ: أرسَلْتُك إلى فُلانٍ لِتُنذِرَه؛ فإنَّه غافل، أو فهو غافلٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤).



كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

أي: لقد وَجَب عذابُ اللهِ على أكثَرِ مُشركي العَرَبِ الَّذين سبَقَ في عِلمِ اللهِ أنَّهم لا يَهتَدونَ، فأكثَرُهم مُستَمِرُّونَ على الإصرارِ على كُفرِهم حتَّى يأتيَهم الموتُ وهم على ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا في أعناقِهم قُيودًا تَبلُغُ أذقانَهم(٢)، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٣، ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤، ٢٥).

قال السعدي: (إنَّما حَقَّ عليهم القَولُ بعدَ أن عَرَض عليهم الحقَّ فرفَضوه؛ فحينَئذٍ عُوقِبوا بالطَّبعِ على قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) قال الماوَرْديُّ: (وفي قَولِه: ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: في أيديهم؛ فكنَّى بالأعناقِ عن الأيدي؛ لأنَّ الغُلَّ يكونُ في الأيدي. قاله الكلبيُّ، ... الثَّاني: أنَّها في الأعناقِ حَقيقةً؛ لأنَّ الأيديَ تُجمَعُ في الغُلِّ إلى الأعناقِ. قاله ابنُ عبَّاس). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧).

ممَّن اختار الثانيَ، وهو أنَّ المرادَ: أنَّ الأيديَ مجموعةٌ بالقَيدِ مع الأعناقِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((الوجيز)) =

فهم رافعو رُؤوسِهم[١] ....

= للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٤).

قال ابن كثير: (لَمَّا كان الغُلُّ إنَّما يُعْرَفُ فيما جَمَع اليدَيْنِ مع العُنُقِ، اكتَفى بذِكْرِ العُنُقِ عن اليَدَيْنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿فَهِىَ﴾ يحتملُ أن يعودَ على الأغلالِ، أي: هي عريضةٌ تَبلُغُ بحَرفِها الأذْقانَ، والذَّقَنُ مجتمعُ اللَّحْيَيْنِ، فيُضْطَرُّ المغلولُ إلى رفعِ وجْهِه نحوَ السَّماءِ، وذلك هو الإقماحُ...، ويحتملُ -وهو قولُ الطَّبَريِّ- أن تعودَ «هي» على الأيدي وإن لم يَتقدَّمْ لها ذِكرٌ؛ لِوُضوحِ مكانِها مِن المعنى؛ وذلك أنَّ الغُلَّ إنَّما يكونُ في العُنُقِ مع اليدَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٧).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الأغلالِ: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥))، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهرُ عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿فَهِىَ﴾ إلى الأغلالِ؛ لأنَّها هي المذكورةُ والمُحَدَّثُ عنها). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الأيدي: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٩).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافِعو رؤوسِهم: القرطبيُّ، والنسفي، وابن جُزَي، والسمين الحلبي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

وممَّن اختار أنَّ معنى المُقْمَح: الرَّافعُ رأسَه الغاضُّ بَصَرَه: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن =

لا يَقْدِرونَ أنْ يُطَأْطِئُوها[1].

= قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٧٤).

قال ابنُ جرير: (والمُقْمَحُ: هو المُقْنِعُ، وهو أنْ يَحْدُرَ الذَّقَنَ حتَّى يَصيرَ في الصَّدرِ، ثُمَّ يَرْفَعَ رأسَه، في قولِ بعضِ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ مِن أهلِ البصرةِ. وفي قولِ بعضِ الكوفيِّينَ: هو الغاضُّ بصَرَه، بعدَ رَفْعِ رأسِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٥٧).

قال السمين الحلبي: (قوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ هذه الفاءُ لأحسَنِ ترتيبٍ؛ لأنَّه لَمَّا وصلَتِ الأغلالُ إلى الأذقانِ لعرضِها، لَزِمَ عن ذلك ارتفاعُ رؤوسِهم إلى فوق، أو لَمَّا جُمِعَتِ الأيدي إلى الأذقانِ وصارت تحتَها، لَزِمَ مِن ذلك رفْعُها إلى فوق، فتَرتفعُ رؤوسُهم). ((الدر المصون)) (٩/ ٢٤٨).

ممَّن اختار معنى القولِ الأوَّلِ: النَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

قال النسفي: (لأنَّ طَوْقَ الغُلِّ الَّذي في عُنُقِ المَغلولِ يكونُ في مُلتقى طَرَفَيْهِ تحتَ الذَّقَنِ حَلْقةٌ فيها رأسُ العمودِ خارجًا مِن الحَلْقةِ إلى الذَّقَنِ، فلا يُخْليه يُطأطِئُ رأسَه؛ فلا يَزالُ مُقْمَحًا). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥).

وممَّن اختار معنى القولِ الثَّاني: الأزهريُّ، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨ - ٢٩٠).

اختلف المفَسِّرون في المراد بالآيةِ؛ على قولَين: (أحدُهما: جَعْلُ الأغلالِ حَقيقةً. والثَّاني: أنَّه استعارةٌ. وعلى كُلٍّ مِن القولَين جماعةٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابِعينَ). ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧). =

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ ذلك سيَحدُثُ حقيقةً يومَ القيامة، فلمَّا أخبَرَ تعالى أنَّهم لا يؤمِنونَ، أخبَرَ عن شَيءٍ مِن أحوالِهم في الآخرةِ-: أبو حيَّان، وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩).

قال ابنُ عاشور: (فيكونُ فِعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ مُستَقبَلًا، وعبَّر عنه بصيغةِ الماضي؛ لتَحقيقِ وُقوعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠).

والقولُ الثَّاني أنَّ ذلك مَثَلٌ، وأنَّه ليس هناك غُلٌّ على الحقيقةِ، نسَبَه ابنُ الجوزي إلى أكثَرِ المحقِّقينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٧).

واختلف القائلون بهذا القولِ في الآيةِ على ثلاثةِ أقوالٍ: (أحدُها: أنَّها مَثَلٌ لِمَنعِهم عن كلِّ خَيرٍ، قاله قَتادةُ. والثَّاني: لِحَبسِهم عن الإنفاقِ في سبيلِ الله بموانعَ كالأغْلالِ، قاله الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ. والثَّالثُ: لِمَنعِهم مِن الإيمانِ بالله، قاله أبو سُلَيْمانَ الدِّمَشْقيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٧). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣).

ممَّن اختار أنَّه تمثيلٌ لِتَصميمِهم على الكُفرِ، وامتِناعِهم عن الهدى: يحيى بنُ سلام، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٧).

قال الشنقيطي: (والمُرادُ بالآيةِ الكريمةِ: أنَّ هؤلاء الأشْقياءَ الَّذينَ سَبَقَتْ لهم الشَّقاوةُ في عِلْمِ اللهِ، المذْكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، صَرَفَهم اللهُ عن الإيمانِ صَرْفًا عظيمًا مانِعًا مِن وُصولِه إليهم؛ لأنَّ مَنْ جُعِلَ في عُنُقِه غُلٌّ، وصار الغُلُّ إلى ذَقَنِه، حتَّى صار رأسُه مرفُوعًا لا يَقدِرُ أنْ يُطَأْطِئَه، وجَعَلَ أمامَه سَدًّا، وخَلْفَه سَدًّا، وجعَلَ على بَصَرِه الغِشاوةَ: لا حِيلةَ له في التَّصرُّفِ، ولا في جَلْبِ نَفْعٍ لِنَفْسِه، ولا في دَفْعِ ضُرٍّ عنها، فالَّذين أشْقاهم اللهُ بهذه المثابةِ، لا يَصِلُ إليهم خَيْرٌ. وهذا المعنَى الَّذي دَلَّتْ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ -من كَونِه جَلَّ وعلا يَصرِفُ الأشْقياءَ الَّذين سَبَقَتْ لهم الشَّقاوةُ في عِلْمِه عن الحقِّ، ويَحُولُ بيْنَهم وبيْنَه- جاء موضَّحًا في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي =

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: وجعَلْنا من بيْنِ أيديهم حاجِزًا، ومِن خَلفِهم حاجِزًا، فغَطَّينا أبصارَهم فلا يَرَوْنَ شَيئًا[1].

=ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣]. ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٨).

وقال ابن عاشور: (... فيَجوزُ أن يكونَ تمثيلًا بأن شُبِّهَت حالةُ إعراضِهم عن التَّدبُّرِ في القرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ والتَّأمُّلِ في حُجَجِه الواضحةِ بحالِ قَومٍ جُعِلَت في أعناقِهم أغلالٌ غليظةٌ ترتفعُ إلى أذقانِهم، فيَكونون كالمُقمَحينَ، أي: الرَّافِعينَ رُؤوسَهم، الغاضِّينَ أبصارَهم، لا يَلتَفِتونَ يمينًا ولا شِمالًا، فلا يَنظُرونَ إلى شَيءٍ ممَّا حَوْلَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩).

وممَّن اختار أنَّه تمثيلٌ لحبسِهم عن الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ بموانعَ كالأغلالِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧).

قال الواحديُّ: (كقولِه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء: ٢٩] معناه: لا تُمسِكْها عن النَّفَقة). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٠).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: إنَّا جَعَلْنا أيْمانَ هؤلاءِ الكفَّارِ مَغلولةً إلى أعناقِهم بالأغلالِ، فلا تَنبسِطُ بشَيءٍ مِن الخَيراتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٥، ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

قال السمين الحلبي: (قولُه تعالى هذا يحتَمِلُ الحقيقةَ والاستعارةَ). ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) (٩/ ٢٤٩).

فالقولُ الأولُ: أنَّ ذلك سيَحدُثُ حقيقةً يومَ القيامة. وممَّن استظهر هذا المعنى: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩).

والقولُ الثاني: أنَّ هذا تمثيلٌ، والمرادُ أنَّ اللهَ تعالى جعَل لهم حاجِزًا يَحجُزُهم عن الإيمانِ، ولا يُخرِجُهم مِن الضَّلالةِ، فلا يُبصِرون الهدى والحَقَّ؛ فهم بمنزلةِ مَن سُدَّ طريقُه فلا يستطيعُ الخروجَ ممَّا هو فيه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ القيِّم، والسعدي، =

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ ﴾.

أي: مُستَوٍ في حَقِّ هؤلاء الكافِرينَ الَّذين حَقَّ عليهم القَولُ: الإنذارُ وعَدَمُه؛ فسواءٌ أنذَرْتَهم العذابَ -يا محمَّدُ- أو تركْتَ إنذارَهم، فإنَّهم في كِلا الحالَينِ لا يُؤمِنونَ بك وبما جِئتَهم مِن الحَقِّ(١)!

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى المأيوسَ مِن انتفاعِهم بإنذارِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم؛ ذكَرَ الَّذين يَنتَفِعونَ به؛ تأنيسًا له بهم، وتقويةً له بظُهورِ ثَمرةِ إنذارِه فيهم(٢).

وأيضًا لَمَّا تضمَّنَ قولُه: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس: ١٠] أنَّ الإنذارَ في جانبِ الَّذين حقَّ عليهم القولُ أنَّهم لا يُؤمِنون هو وعَدَمُه سواءٌ، وكان ذلك قد يُوهِمُ انتفاءَ الجَدْوى مِن الغيرِ وبعضٍ مِن فَضلِ أهلِ الإيمانِ؛ أُعقِبَ بِبيانِ جَدْوى الإنذارِ بالنِّسبةِ لِمَن اتَّبَع الذِّكرَ وخشِيَ الرَّحمنَ بالغيبِ(٣).

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾.

= والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩، ١٨٠).

أي: إنَّما تُنذِرُ -يا محمَّدُ- إنذارًا نافِعًا مَنِ اتَّبَع القُرآنَ، فآمَنَ بأخبارِه، وعَمِل بأحكامِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: وتُنذِرُ إنذارًا نافِعًا مَن خَشِيَ اللهَ الرَّحمنَ بالغَيبِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

قيل: معنى ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: خَشِيَ اللهَ تعالى حالَ الغَيبةِ عن النَّاسِ في الخَلَواتِ. وممن قال بهذا المعنى: ابن جرير، والزجاج، ومكي، وابن عطية، وابن كثير، والعليمي، ورجَّحه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة يس)) (ص: ٣٦-٣٧).

وقيل: المرادُ: وخَشِيَ الرَّحمنَ والحالُ أنَّه لم يَرَ اللهَ. وممن قال بهذا المعنى: مقاتل بن سليمان، والواحدي، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٧٦).

قال القرطبي: (﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: ما غاب مِن عذابِه ونارِه. قاله قَتادةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨).

قال الألوسي: (أي: خشِي عقابَ الرحمنِ حالَ كونِ العقابِ ملتبسًا بالغيبِ، أي: غائبًا عنه، وحاصلُه خشِي العقابَ قبلَ حلولِه، ومعاينةِ أهوالِه). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- مَن اتَّبع القُرآنَ وخَشِيَ الرَّحمنَ بالغَيبِ: بمَغفرةٍ لِذُنوبه، وثوابٍ حَسَنٍ جَميلٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها وُجوهٌ؛ منها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن الرِّسالةَ -وهي أصلٌ مِن الأُصولِ الثَّلاثةِ: (التَّوحيدِ- الرِّسالةِ- الحَشرِ) الَّتي يصيرُ بها المكَلَّفُ مُؤمِنًا مُسلِمًا- ذكَرَ أصلًا آخَرَ، وهو الحَشرُ.

وأيضًا: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الإنذارَ والبِشارةَ بقَولِه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾، ولم يَظهَرْ ذلك بكَمالِه في الدُّنيا، فقال: إنْ لم يُرَ في الدُّنيا فاللهُ يُحيي الموتى،

= وقال البقاعي: (﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: بسببِ ما يخبرُ به مِن مقدوراتِه الغائبةِ لا سيَّما البعثِ ...، ويخشاه أيضًا خشيةً خالصةً في حالِ غيبتِه عمَّن يُرائيه مِن الناسِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

ويَجزي المُنذَرينَ، ويَجزي المُبَشَّرينَ[١].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾.

أي: إنَّا نحن نَبعَثُ الموتى يومَ القيامةِ؛ لِنُجازيَهم على أعمالِهم[٢].

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

أي: ونحن نَكتُبُ[٣] ما قدَّموه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ونكتُبُ ما تولَّدَ عن ذلك مِن آثارٍ، وما تسبَّبوا في إيجادِه مِن ذلك في حالِ حياتِهم وبعدَ وفاتِهم، ونكتُبُ آثارَ خُطاهم إلى الطَّاعةِ أو المعصيةِ، فنَجْزيهم على ذلك؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنَّ شَرًّا فشَرٌّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٣) قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا الكتابةُ فرُسُله يَكتُبونَ، كما قال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، فأخبرَ بالكتابةِ بقَولِه: ﴿نَحْنُ﴾؛ لأنَّ جُندَه يَكتُبونَ بأمْرِه). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٥، ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥،٥٦٦،٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٦).

قال الشنقيطي: (قوله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾، فيه وجهانِ من التَّفسيرِ معروفانِ عندَ العلماءِ:

الأوَّلُ منهما: أنَّ معنَى ﴿مَا قَدَّمُوا﴾: ما باشَروا فِعلَه في حياتِهم، وأنَّ معنَى آثارَهم: هو ما سَنُّوه في الإسلامِ مِن سُنَّةٍ حسنةٍ أو سَيِّئةٍ، فهو مِن آثارِهم الَّتي يُعمَلُ بها بعدَهم.

الثَّاني: أنَّ معنَى آثارَهم: خُطاهم إلى المساجدِ ونحوُها مِن فِعلِ الخَيرِ، وكذلك خُطاهم إلى الشَّرِّ، كما ثبَت عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «يا بني سَلِمةَ، دِيارَكم تُكْتَبْ آثارُكم»، يعني: خُطاكُم مِن بُيوتِكم إلى مَسجدِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٩١). =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنةً، فعُمِلَ بها بَعْدَه؛ كُتِب له مِثلُ أجرِ مَن عَمِل بها، ولا يَنقُصُ مِن أُجورِهم شَيءٌ. ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئةً، فعُمِلَ بها بَعْدَه؛ كُتِب عليه مِثلُ وِزرِ مَن عَمِل بها، ولا يَنقُصُ مِن أوزارِهم شَيءٌ))(١).

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خَلَتِ البِقاعُ حَوْلَ المَسجِدِ، فأراد بنو سَلِمةَ أن يَنتَقِلوا إلى قُرْبِ المَسجِدِ، فبلَغَ ذلك رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لهم: إنَّه بلَغَني أنَّكم تُريدون أن تنتَقِلوا قُربَ المَسجِدِ. قالوا: نعَمْ يا

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ بآثارِهم: ما سَنُّوه من سُنَّةٍ حسنةٍ أو سَيِّئةٍ، واستنَّ به مَن بَعْدَهم: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨١)، ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨).

وقال ابن كثير: (وفي قوله: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ قولان؛ أحدُهما: نَكْتُبُ أعمالَهم الَّتي باشَروها بأنفسِهم، وآثارَهم الَّتي أثَروها من بعدِهم... والقولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بذلك آثارُ خُطاهم إلى الطَّاعةِ أو المعصيةِ... وهذا القولُ لا تنافيَ بيْنَه وبيْنَ الأوَّلِ، بل في هذا تنبيهٌ ودَلالةٌ على ذلك بطريقِ الأَولى والأحْرَى؛ فإنَّه إذا كانت هذه الآثارُ تُكتَبُ، فلَأَنْ تُكْتَبَ تلك الَّتي فيها قُدوةٌ بهم مِن خَيرٍ أو شَرٍّ بطريقِ الأَوْلى، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥).

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

رَسولَ اللهِ، قد أرَدْنا ذلك، فقال: يا بَني سَلِمةَ، دِيارَكم تُكتَبْ آثارُكم[1]، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم))[2].

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ رُبَّما أوهَمَ الاقتِصارَ على كتابةِ ما ذُكِرَ مِن أحوالِ الآدَميِّينَ، أو الحاجةَ إلى الكِتابةِ؛ دَلَّ على قُدرتِه على ما لا تُمكِنُ القُدرةُ عليه لأحدٍ غيرِه في أقَلِّ قَليلٍ ممَّا ذُكِرَ، فكيف بما فَوْقَه؟ فقال[3]:

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: وكُلُّ شَيءٍ ممَّا كان أو سيَكونُ -ومِن ذلك أعمالُ العبادِ؛ خَيرِها وشَرِّها- مَحفوظٌ ومُثبَتٌ في كِتابٍ موضِّحٍ لكلِّ شَيءٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ[4].

---

(١) دِيارَكم تُكتَبْ آثارُكم: أي: الزَموا ديارَكم يُكتَبْ أجرُ خُطاكم، وثَوابُ أقدامِكم؛ لكُلِّ خُطوةٍ دَرَجةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٥٩٣).

(٢) رواه مسلم (٦٦٥).

وفي رواية الترمذي (٣٢٢٦) وابن ماجه (٧٨٥) أنَّ بني سَلِمةَ لما أرادوا الانتقالَ إلى قُربِ المسجدِ نَزَلَتْ هذه الآيَةُ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾. لكنَّ سورةَ (يس) مكيةٌ، وقصةَ بني سلِمةَ كانت بالمدينة، فقيل: السورةُ مكيةٌ، وهذه الآيةُ وحدَها مدنيةٌ، قال ابن القيم: (وأحسنُ مِن هذا أن تكونَ [أي: الآيةُ] ذُكِرتْ عندَ هذه القصةِ، ودلَّت عليها، وذُكِّروا بها عندَها إمَّا من النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وإمَّا من جبريلَ، فأُطلِق على ذلك النزولُ). ((شفاء العليل)) (ص: ٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإمامِ المُبينِ: اللَّوحُ المحفوظُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨).

وقيل: المرادُ: صحائِفُ الأعمالِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٦، ٤٧).

قال ابنُ القيم: (والإحصاءُ في الكتابِ يَتضَمَّنُ عِلْمَه بها «أي: أعمالِ العِبادِ»، وحِفْظَه لها، والإحاطةَ بعدَدِها، وإثباتَها فيه). ((شفاء العليل)) (ص: ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بَيِّنٍ واضحٍ: ابنُ أبي زمنين، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معناه: مُظهِرٌ لجميعِ الأشياءِ ممَّا كان وما سيَكونُ، مُوضِحٌ لكلِّ شَيءٍ: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وذكر ابن عثيمين أن ﴿مُّبِينٍ﴾ هنا بمعنى مُظهِرٍ وموضحٍ؛ لأنَّ المُظهِرَ جامعٌ بيْنَ الظُّهورِ بنفْسِه والإظهارِ لغيرِه، وإذا كان مُوضحًا فهو واضحٌ؛ فالمعنى أشمَلُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وقال ابن جرير: (وقيل: ﴿مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّه يُبينُ عن حقيقةِ جميعِ ما أُثْبِتَ فيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أضاف تنزيلَ القُرآنِ إلى هذين الاسمَين: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ إشارةً إلى وُجوبِ العَمَلِ بما جاء في القُرآنِ، وأنَّ مَن لم يَعمَلْ به فإنَّ أمامَه العزيزَ الَّذي يأخُذُ أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ. و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ إنزالُه مِن مُقتضى رحمتِه سُبحانَه وتعالى بخَلقِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى ما رَحِمَ خَلْقَه رحمةً أعظَمَ من إنزالِ القُرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ به الحياةَ القَلبيَّةَ والبَدَنيَّةَ، والفَرديَّةَ والاجتماعيَّةَ؛ ففي الآيةِ تهديدٌ لِلَّذين يُخالِفونَ هذا القُرآنَ بأنَّه نَزَل مِن عندِ عزيزٍ يَنتَقِمُ ممَّن خالَفه، وإشارةٌ إلى أنَّ هذا القُرآنَ مِن مُقتضى رحمتِه سُبحانَه وتعالى[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ * لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ تقومُ حُجَّةُ اللهِ على العَبدِ أوَّلًا، ويَعمَلُ هو -كاسِبًا ومُكتَسِبًا- باختيارِه ثانيًا، ويَظهَرُ لنا ما سَبَق مِن عِلمِ اللهِ فيه بعدَ أنِ اختار ما اختار ثالثًا؛ ولهذا قُدِّمَت النِّذارةُ وما يَرتَبِطُ بها على هذه الآيةِ: ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ الَّتي فيها بيانُ ما سبَقَ مِن عِلمِ اللهِ فيهم؛ فاللهُ سُبحانَه لم يُجازِ الخَلْقَ على مُقتضى عِلمِه فيهم -وهو العِلمُ الَّذي لا يتخلَّفُ- وإنَّما جعَلَ جزاءَهم على أعمالِهم؛ فهذا تعليمٌ لنا كيف تكونُ مُعامَلتُنا بعضِنا لبعضٍ، فلا نُجازي على مُجرَّدِ الظَّنِّ، بل ولا على مُجرَّدِ اليَقينِ، وإنَّما تكونُ المُجازاةُ بعدَ صُدورِ الأعمالِ؛ فرُبَّ شَخصٍ قَدَّرْتَ فيه الخيرَ أو الشَّرَّ، ففعَلَ ضِدَّ ما قدَّرْتَ! فلو جازَيْتَه قبْلَ الفِعلِ لَما طابَقَ جزاؤُك مَوضِعَه، ولَنالَ كُلٌّ ما لا يَستحِقُّه؛ فالحِكمةُ والعَدلُ والمصلحةُ في رَبطِ المُجازاةِ بالأعمالِ، وهذا ما كان مِنَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨).

في مُجازاةِ خَلقِه، وهذا ما يَنبغي أن نَربطَ به المُجازاةَ بيْننا[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ ترهيبٌ؛ فإنَّ كُلَّ ما دعا إليه الإسلامُ مِن عقائدَ وأخلاقٍ وأعمالٍ: فهو ممَّا تَقْبَلُه الفِطَرُ السَّليمةُ، وتُدرِكه العقولُ بالنَّظَرِ الصَّحيحِ، فمَن قابَلَ دعوةَ الإسلامِ بالإعراضِ والعِنادِ، وخالَف فِطرتَه، وعاكَسَ عقْلَه؛ كان حقيقًا بهذا العِقابِ الشَّديدِ مِن طَمسِ البصيرةِ، والطَّبعِ على القَلبِ؛ فذَكَر اللهُ لنا هذه العُقوبةَ بهذا التَّمثيلِ البَليغِ الَّذي صَوَّرَها في أبشَعِ صُورةٍ وأفظَعِها -على قولٍ-؛ لِيُحذِّرَنا مِن الإعراضِ عن الحَقِّ والعِنادِ له، ويُخوِّفَنا بعاقبةِ ذلك على أهلِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تحذيرُ الإنسانِ إذا لم يَنفتِحْ له بابُ الهدَى أن يكونَ مِن جِنْسِ أولئك، فإذا رأى الإنسانُ مِن نفْسِه أنَّه قد حِيلَ بيْنَه وبيْنَ الهدى، وصار لا يُبصِرُ الحقَّ؛ فلْيَعْلَمْ أنَّه على خطَرٍ، ولْيَتدارَكِ الأمرَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَذكُرُ سُبحانَه وتعالى حالةَ هؤلاء الَّذين استوَى عندَهم الشَّيءُ وضِدُّه؛ يُحذِّرُنا منها، وممَّا يؤدِّي إليها مِن إهمالِ الفِطرةِ، وتَركِ النَّظَرِ؛ فإنَّ الإنسانَ إنَّما يَمتازُ على بقيَّةِ الحيوانِ بتَمييزِه بينَ الحقائقِ بالفِطرةِ والفِكرةِ، وإدراكِه الفوارِقَ ما بيْنَها؛ فإذا سُلِبَ هذه المَزِيَّةَ الْتَحَقَ بالعَجْماواتِ، بل كانت العَجْماواتُ خيرًا منه؛ لِبَقاءِ فِطرتِها سليمةً لإدراكِ ما فيها استِعدادٌ لإدراكِه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَرتبةِ الدَّعوةِ إلى اللهِ، والهدايةِ إلى سَبيلِه بكُلِّ وَسيلةٍ وطريقٍ مُوصِلٍ إلى ذلك؛ ونزولِ دَرجةِ الدَّاعي إلى الشَّرِّ؛ الإمامِ فيه، وأنَّه أسفَلُ الخليقةِ، وأشَدُّهم جُرمًا، وأعظَمُهم إثمًا[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الحَثُّ على المَشيِ للمساجِدِ، وأنَّ الأبعَدَ فالأبعَدَ مِن المسجِدِ أكثَرُ أجرًا -كما في حديثِ قِصَّةِ بني سَلِمةَ حينَ أرادوا النُّقلةَ إلى قُربِ المسجدِ[٢]- وأنَّ الأجرَ على قَدرِ المشَقَّةِ[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ على العاقِلِ -وقد عَلِمَ أنَّه محاسَبٌ على أفعالِه وعلى آثارِ أقوالِه- ألَّا يَفعَلَ فِعلًا ولا يقولَ قَولًا حتَّى يَنظُرَ في عواقِبِه؛ فقد تكونُ تلك العواقِبُ أضَرَّ عليه مِن أصلِ القَولِ وأصلِ الفِعلِ؛ فقد يقولُ القَولَ مَرَّةً، ويَفعلُ الفِعلَ مَرَّةً، ثمَّ يَقتدي به فيه آلافٌ عديدةٌ في أزمنةٍ مُتطاوِلةٍ[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّه سُبحانَه قد أحاط بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فهو غَنيٌّ بعِلمِه عن هذه الكتابةِ، ولكِنَّه جَعَل هذا الكِتابَ إظهارًا لِعَظَمةِ مُلكِه، ولِيَعلَمَ عبادُه الضَّبطَ والإحصاءَ في جميعِ أمورِهم، ولِيُبالِغوا في مُحاسَبةِ أنفُسِهم، ولِيَعلَموا أنَّ ما أصابَهم لم يَكُنْ لِيُخطِئَهم، وما أخطأَهم لم يكُنْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٢) تقدَّم تخريجُه قريبًا.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أعظمُ النَّاسِ أجرًا في الصلاةِ أبعدُهم فأبعدُهم ممشًى ...)). أخرجه البخاري (٦٥١)، ومسلم (٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٧). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٢٠-٦٢٢) و (٢٥/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٨).

لِيُصيبَهم؛ فيَزولَ مِن قُلوبِهم الخَوفُ مِن الحوادِثِ والمخلوقاتِ، وتَعظُمَ ثِقَتُهم باللهِ، وفي ذلك أعظَمُ قُوَّةٍ في هذه الحياةِ، وأكبَرُ راحةٍ للقَلبِ مِن صُروفِها[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذا القُرآنُ الَّذي أعجَزَ البَشَرَ لم يكُنْ بِدْعًا مِن لِسانِهم، وإنَّما مِن الحُروفِ الَّتي يُرَكِّبونَ منها كَلامَهم؛ يُشيرُ إلى هذا قولُه تعالى: ﴿يسٓ﴾؛ ولهذا لا تأتي هذه الحُروفُ الهِجائيَّةُ في أوَّلِ السُّورةِ إلَّا وَجَدْتَ بعدَها ذِكرَ القُرآنِ في الغالِبِ[(٢)]؛ فهذه حروفُ تَعجيزٍ وإفحامٍ وتَقريعٍ؛ لأنَّ القُرآنَ الَّذي عَجَزوا عن مُعارَضتِه من هذه الحُروفِ وأخَواتِها؛ فمنه تركَّبَت كَلِماتُه، فكأنَّما يُقالُ لهم: «ما هذا الَّذي عجَزتُم عنه إلَّا كلامٌ مِن جِنسِ كلامِكم، وما رُكِّبَت كَلِماتُه إلَّا مِمَّا رُكِّبَت منه كَلِماتُكم»، وهذا لِعَجزِهم أفضَحُ، ولِتَقريعِهم أوجَعُ[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ عَظَمةُ القرآنِ العظيمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ به، ولا يُقسِمُ إلَّا بشيءٍ مُعَظَّمٍ، والقرآنُ الكريمُ عَظيمٌ في نفسِه[(٤)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تأكيدُ الخبرِ الهامِّ -وإنْ لم يَكُنِ المخاطَبُ مُنْكِرًا-؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه هنا يُخبِرُ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنينَ، وهم لا يُنكِرونَ ذلك؛ لكِنْ لأهمِّيَّتِه أكَّد[(٥)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ اتِّصالٌ لا يخفَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).
والقاعدةُ أنَّ القَسَمَ لا يكونُ إلَّا باسمٍ مُعظَّمٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥).

بيْنَ المقسَم به -وهو القُرآنُ الحكيمُ-، وبيْن المُقسَم عليه -وهو رِسالةُ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، وأنَّه لو لم يكُنْ لرِسالتِه دَليلٌ ولا شاهِدٌ إلَّا هذا القرآنُ الحَكيمُ، لَكفَى به دَليلًا وشاهِدًا على رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل القُرآنُ العظيمُ أقوى الأدِلَّةِ المتَّصِلةِ المُستَمِرَّةِ على رِسالةِ الرَّسولِ؛ فأدِلَّةُ القُرآنِ كُلُّها أدلَّةٌ لرِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ العنايةُ بإثباتِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ عليها، وأكَّدها زيادةً على القَسَمِ بـإنَّ واللَّامِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معنًى لطيفٌ يُعلَمُ منه فَسادُ قَولِ المُباحيَّةِ[3] الَّذين يقولون: المكَلَّفُ يصيرُ واصِلًا إلى الحَقِّ، فلا يَبقَى عليه تكليفٌ! وذلك مِن حيثُ إنَّ اللهَ بيَّن أنَّ المُرسَلينَ ما داموا في الدُّنيا فهم سالِكونَ سائِحونَ مُهتَدون مُنتَهِجون إلى السَّبيلِ المُستَقيمِ؛ فكيف ذلك الجاهِلُ العاجِزُ[4]؟!

٧- قال عز وجل: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلَ﴾ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ -يعني يَنزِلُ شيئًا فشيئًا-، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] فإنه يَنزِلُ شيئًا فشيئًا، ويُعَبَّرُ أحيانًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).

(٣) المباحيَّةُ أو أهلُ الإباحةِ: هم الَّذين يُسقِطون الأمرَ والنَّهيَ والتَّكاليفَ مطلقًا، ومنهم الباطنيَّةُ، وطائفةٌ مِن الصُّوفيَّةِ. يُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ٩٢)، ((اعتقادات فرق المسلمين والمشركين)) للرازي (ص: ٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٥، ٤٥٧)، ((الاعتصام)) للشاطبي (١/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٢).

عن القرآنِ بأنه أُنْزِلَ باعتبارِ نهايتِه، فإنَّه باعتبارِ النِّهايةِ يكونُ نَزَل كلُّه؛ وباعتبارِ التَّدريجِ في تنزيلِه يكونُ مُنَزَّلًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ؛ فالنُّزولُ لا يكونُ إلَّا من أعلَى[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هذا الدِّينَ الَّذي نزَّله الرَّبُّ الموصوفُ بالعِزَّةِ والرَّحمةِ: هو دينُ عِزَّةٍ ورحمةٍ، ومِن مُقتضى العِزَّةِ: القُوَّةُ والمَنَعةُ والرِّفعةُ، ومِن مُقتضى الرَّحمةِ: الفَضلُ والخيرُ والمصلحةُ، وهذه كُلُّها مُتجلِّيةٌ في أحكامِ الإسلامِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أنَّ القُرآنَ، بل الشَّرعَ كلَّه: مِن آثارِ رحمةِ اللهِ[٤].

١١- قد دلَّ استِقراءُ القرآنِ العظيمِ على أنَّ اللهَ جلَّ وعلا إذا ذكَرَ تنزيلَه لكِتابِه، أتْبَعَ ذلك ببعضِ أسمائِه الحسنى، المُتَضَمِّنةِ صِفاتِه العُلْيا؛ ففي أوَّلِ سورةِ (الزُّمَرِ) و(الجاثيةِ) و(الأحقافِ) قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] [الجاثية: ٢] [الأحقاف: ٢]، فلمَّا ذكَرَ تنزيلَه كتابَه، بيَّن أنَّ مَبدأَ تنزيلِه كائنٌ منه جلَّ وعلا، وذكَرَ اسمَه اللهَ، واسمَه العزيزَ، والحكيمَ، وقد تكرَّر كثيرًا في القرآنِ ذِكْرُه بعضَ أسمائِه وصِفاتِه بعدَ ذِكرِ تنزيلِ القرآنِ العظيمِ؛ كقولِه في أوَّلِ سورةِ (غافرٍ): ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩).

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ - ٣]، وقولِه تعالى في أوَّلِ (فُصِّلَتْ): ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]، وقولِه تعالى في أوَّلِ (هُودٍ): ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقولِه في (فُصِّلَتْ): ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وقولِه تعالى في صدرِ (يس): ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقولِه تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ الآيةَ [الحاقة: ٤٣، ٤٤]. ولا يَخفى أنَّ ذِكْرَه جلَّ وعلا هذه الأسماءَ الحُسْنى العظيمةَ، بعدَ ذِكرِه تنزيلَ هذا القرآنِ العظيمِ، يدُلُّ بإيضاحٍ على عَظَمةِ القرآنِ العظيمِ، وجلالةِ شأنِه، وأهمِّيَّةِ نُزولِه[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أنَّ الأمَّةَ الَّتي بُعِثَ فيها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم تكُنْ عندَها نِذارةٌ الْبَتَّةَ من أحدٍ[٢]، ولا يُعارِضُ هذا بعْثَ الأنبياءِ المتقدِّمينَ؛ فإنَّ هؤلاءِ القومَ لم يُدرِكوهم ولا آباؤُهم الأقرَبونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩).

قال ابنُ كثير: (قال غيرُ واحدٍ من العلماءِ: إنَّ اللهَ تعالى لم يَبعَثْ بعدَ إسماعيلَ نبيًّا في العربِ إلَّا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم خاتمَ الأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٥١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ومَن لم تَقُمْ عليه الحُجَّةُ في الدُّنيا بالرِّسالةِ، كالأطفالِ والمجانين وأهلِ الفتراتِ، فهؤلاء فيهم أقوالٌ أظهَرُها ما جاءت به الآثارُ: أنَّهم يُمتحَنون يومَ القيامةِ، فيُبعَثُ إليهم مَن يأمُرُهم بطاعتِه؛ فإنْ أطاعوه استحَقُّوا الثَّوابَ، وإن عصَوْه استحَقُّوا العذابَ). ((الجواب =

١٣- قولُه تعالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يَعني بهم العربَ، وذِكرُهم وَحْدَهم لا يَنفي إرسالَه إلى مَن عَداهم كما زعَمَه بَعضُ النَّصارى، كما أنَّ ذِكرَ بَعضِ الأفرادِ لا ينفي العُمومَ؛ فقد دلَّتِ الآياتُ والأحاديثُ المتواترةُ على عُمومِ بَعثتِه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ، والمرادُ بـ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: القولُ الَّذي قال -واللهُ أعلَمُ-: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقال على إثْرِه ما أزال به كُلَّ رَيبٍ، وكشَفَ كلَّ لُبسةٍ، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أفَليس قد أخبَرَ نصًّا أنَّه حالَ بيْنَهم وبيْنَ الإيمانِ والجَنَّةِ بهذه الموانعِ الَّتي ذَكَرها؟! وهل ترَكَ مُتعَلَّقًا للقوم بعدَ هذا، لولا جَهْلُهم ومُكابَرتُهم! ثمَّ أكَّدَها بتأكيدٍ ثانٍ، فقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ أكثرَ النَّاسِ هم مِن أهلِ جَهنَّمَ[3].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سؤالٌ: هل لِمَن مات على كُفرِه حُجَّةٌ بما سبَقَ مِن عِلمِ الله فيه؟

= الصحيح)) (١/ ٣١٢). ويُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٣/ ٧١٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

الجوابُ: أنَّ حُجَّةَ الله قامَت على خَلقِه بما ركَّب فيهم مِن عَقلٍ، وما مكَّنَهم مِن اختيارٍ، وما نصَبَ لهم مِن آياتٍ مُشاهَداتٍ، وما أرسَل إليهم مِن رُسُلٍ بآياتٍ بيِّناتٍ، وهذه كُلُّها أمورٌ معلومةٌ لديهم، ضروريَّةٌ عندَهم، لا يَستطيعون أن يُنكِروا شيئًا منها؛ فلا يُمكِنُهم أن يَجحَدوا ما عندَهم مِن عقلٍ ومِن اختيارٍ، ولا أن يَنفُوا ما يُشاهِدونَه مِن الآياتِ في المخلوقاتِ، ولا أن يُنكِروا مجيءَ الرُّسُلِ إليهم وما تَلَوْا عليهم مِن آياتٍ، وبهذه الأشياءِ قامت حُجَّةُ الله عليهم، وكان جزاؤُهم على ما اختاروه بَعْدَها لأنفُسِهم؛ فأمَّا ما سبَق مِن عِلم اللهِ فهو أمرٌ مُغيَّبٌ عنهم، غيرُ مؤثِّرٍ فيهم؛ لأنَّ العِلمَ ليس مِن صفاتِ التَّأثيرِ، ولا دافِعَ لهم؛ فليس لهم أن يَحتجُّوا به لأنفُسِهم؛ لأنَّهم لم يَعمَلوا لأجْلِه، كيف وهو مُغيَّبٌ منهم؟! وإنَّما عَمِلوا باختيارِهم الَّذي يَجِدونه بالضَّرورةِ مِن أنفُسِهم[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أنَّ مِن بلاغةِ القرآنِ الكريمِ تمثيلَ المعقولِ بالمحسوسِ[٢]، على أحدِ القولينِ في التَّفسيرِ.

١٨- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۞ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنَّ مانعَ الإيمانِ: إمَّا أنْ يكونَ في النَّفْسِ، وإمَّا أنْ يكونَ خارجًا عنها، ولهمُ المانعانِ جميعًا: أمَّا في النَّفْسِ فالغُلُّ، وأمَّا مِن الخارجِ فالسَّدُّ، فلا يَقَعُ نظَرُهم على أنفُسِهم فيَرَوُا الآياتِ الَّتي في أنفُسِهم -لأنَّ المُقمَحَ لا يرى نفْسَه-، ولا يقعُ نظَرُهم على الآفاقِ؛ لأنَّ مَن بيْنَ السَّدَّينِ لا يُبصِرون الآفاقَ، فلا تَتبيَّنُ لهم الآياتُ[٣]، على قولٍ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥١).

١٩- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] هذا الطَّبعُ والخَتمُ على القُلوبِ، وكذلك الأغلالُ في الأعناقِ، والسَّدُّ مِن بيْنِ أيديهم ومِن خَلفِهم، وجميعُ تلك الموانعِ المانعةِ مِن الإيمانِ ووُصولِ الخَيرِ إلى القُلوبِ: إنَّما جعَلَها اللهُ عليهم بسَبَبِ مُسارَعتِهم لتكذيبِ الرُّسُلِ، والتَّمادي على الكُفرِ؛ فعاقَبَهم اللهُ على ذلك بطَمسِ البصائرِ، والخَتمِ على القُلوبِ، والطَّبعِ عليها، والغِشاوةِ على الأبصارِ؛ لأنَّ مِن شُؤمِ السَّيِّئاتِ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُعاقِبُ صاحِبَها عليها: بتماديه على الشَّرِّ، والحَيلولةِ بيْنَه وبيْنَ الخَيرِ؛ جزاه اللهُ بذلك على كُفرِه جَزاءً وِفاقًا[1]، على قولٍ.

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان الإنذارُ وعَدَمُه سواءً؛ فلماذا الإنذارُ؟

الجوابُ مِن جِهتين:

الأُولى: أنَّه تعالى قال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وما قال: «سواءٌ عليك»؛ فالإنذارُ بالنِّسبةِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ليس كعَدَمِ الإنذارِ؛ لأنَّ أحَدَهما مُخرِجٌ له عن العُهدةِ، وسَبَبٌ في زيادةِ سيادتِه عاجِلًا، وسعادتِه آجِلًا، وأمَّا بالنِّسبةِ إليهم فعلى السَّواءِ[2].

الثَّانية: أنَّ فائدةَ الإنذارِ إقامةُ الحُجَّةِ عليهم حتَّى يُعذَّبوا بذنوبِهم، لا بمُجرَّدِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٦).

عِلم الله فيهم[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ صِحَّةُ نَفيِ الشَّيءِ إذا كان لا يُنتفَعُ به، وإن كان موجودًا؛ فإنَّ إنذارَه لغيرِهم حاصِلٌ، لكِنْ لَمَّا لم يَنتَفِعوا به صار وُجودُه كالعَدَمِ بالنِّسبةِ لهم، أمَّا المُنذِرُ فقد قام بما يجِبُ عليه[٢].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ سؤالٌ: أنَّ الآيةَ ظاهِرُها خُصوصُ الإنذارِ بالمُنتفِعينَ به، ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عموم الإنذارِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم: ٩٧]، وقَولِه: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقَولِه: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، فكيف الجَمْعُ؟

الجوابُ: أنَّ الإنذارَ في الحقيقةِ عامٌّ، وإنَّما خُصَّ في بعضِ الآياتِ بالمؤمِنينَ؛ لبيانِ أنَّهم هم المنتَفِعونَ به دونَ غيرِهم، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وبيَّن أنَّ الإنذارَ وعَدَمَه سواءٌ بالنِّسبةِ إلى إيمانِ الأشقياءِ، بقَولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٣] [البقرة: ٦].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أَتْبَعَ للقُرآنِ كان أشَدَّ تأثُّرًا به، وبهذا نَعرِفُ القاعِدةَ الَّتي ذَكَرها بعضُ العُلماءِ: «الطَّاعةُ تَجلِبُ الطَّاعةَ، والمعصيةُ تَجلِبُ المعصيةَ»[٤].

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٩).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ذُكِرَت الخَشيةُ بعدَ الاتِّباعِ؛ لأنَّها لا تَحصُلُ إلَّا به[1].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أنَّه لا يَنتَفِعُ مِن إنذارِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا مَنِ اتَّصَفَ بهذَينِ الوصفَينِ[2].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ فيه لطيفةٌ: وهي أنَّ الرَّحمةَ تُورِثُ الاتِّكالَ والرَّجاءَ، فقال: مع أنَّه رحمنٌ ورحيمٌ فالعاقِلُ لا ينبغي أن يَترُكَ الخَشيةَ؛ فإنَّ كُلَّ مَن كانت نِعمتُه بسببِ رحمتِه أكثَرَ، فالخَوفُ منه أتَمُّ؛ مَخافةَ أن يَقطَعَ عنه النِّعَمَ المتواتِرةَ. وتَكملةُ اللَّطيفةِ: هي أنَّ مِن أسماءِ اللهِ اسمَينِ يَختصَّانِ به؛ هما اللهُ والرَّحمنُ، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، حتى قال بعضُ الأئِمَّةِ: هما عَلَمانِ. إذا عرَفْتَ هذا فاللهُ اسمٌ يُنبِئُ عن الهَيبةِ، والرَّحمنُ يُنبئُ عن الرَّحمةِ، فقال في موضِعٍ: ﴿يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٢١] [الممتحنة: ٦]، وقال هاهنا: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؛ يعني: مع كَونِه ذا هَيبةٍ لا تَقطَعوا عنه رجاءَكم، ومع كَونِه ذا رحمةٍ لا تأمَنوه[3].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ التَّعبيرُ بوَصفِ «الرحمن» دونَ اسمِ الجَلالةِ؛ لِوَجهينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المُشرِكينَ كانوا يُنكِرونَ اسمَ «الرحمن» كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

الوَجهُ الثَّاني: الإشارةُ إلى أنَّ رَحمتَه لا تَقْتَضي عدَمَ خَشيتِه؛ فالمؤمِنُ يخشَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٧).

اللهَ مع عِلمِه برَحمتِه؛ فهو يرجو الرَّحمةَ[١]، وكلَّما عَظُمَتْ خشيتُك للهِ عَظُمَت رحمةُ اللهِ بك؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا خافه الإنسانُ وخشِيَه فإنَّه يَرحمُه؛ لأنَّه ما مِن إنسانٍ يخشَى اللهَ حقيقةً إلَّا سيَقومُ بأوامِرِه، ويَجتَنِبُ نواهيَه، وحينَئذٍ يكونُ مُتَعَرِّضًا للرَّحمةِ[٢].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أنَّ الخشيةَ إنَّما تكونُ خشيةً حقيقيَّةً إذا كانت بالغَيبِ، أمَّا مَن خَشِيَ اللهَ تعالى بالعلانيةِ فقد تكونُ خشيتُه مَدخولةً؛ قد يَكونُ خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ مِن أجْلِ أنَّ الناسَ يَرَوْنَه! لكنْ إذا كان بالغَيبِ كان أَدَلَّ على الإخلاصِ[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ هل تَنطَبِقُ هذه البِشارةُ على كلِّ واحدٍ بعَينِه ممَّنِ اتَّصَفَ بهذَينِ الوصفَينِ: اتِّباعِ الذِّكْرِ، وخشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغَيبِ؟

الجوابُ: لا، بل هي على سَبيلِ العمومِ، وكلُّ شَخصٍ اتَّصَفَ بما تَثبُتُ به الجنَّةُ على سبيلِ العُمومِ فإنَّنا لا نَشهَدُ له بعَينِه، ولكن يُرجَى له ذلك؛ لأنَّه في الظَّاهرِ قد انطبَقَ عليه سبَبُ الاستِحقاقِ، لكِنِ الباطِنُ لا نَعلَمُه[٤]، ولا نَدري ما يُختَمُ له به.

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ أنَّ البِشارةَ تكونُ بانتِفاءِ ما يُكْرَهُ، وبحُصولِ ما يُحَبُّ، سواءٌ حَصَل الأمْران معًا، أو حَصَل أحدُهما؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فقولُه: ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ فيه انتفاءُ ما يُكْرَه، وقولُه: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ فيه حُصولُ محبوبٍ(١).

٣١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يُحيي قَلْبَ مَن يَشاءُ مِنَ الكُفَّارِ الَّذين قد ماتت قُلوبُهم بالضَّلالةِ، فيَهديهم بعدَ ذلك إلى الحَقِّ، كما قال تعالى بعدَ ذِكرِ قَسوةِ القُلوبِ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، ووَجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر هذا بعدَ أنْ ذَكَر انقِسامَ النَّاسِ إلى: مَن يَخشَى اللهَ بالغَيبِ ويَتَّبِعُ الذِّكْرَ، ومَن لم يَكُنْ كذلكَ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَرُدَّ هؤلاء إلى الحَقِّ(٢).

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَذكُرُ نفْسَه أحيانًا بصيغةِ العَظَمةِ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وأحيانًا يَذكُرُ نَفْسَه بصيغةِ الواحدِ، مِثلُ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾، ووَجهُ ذلك: أنَّه واحدٌ عظيمٌ؛ فباعتبارِ الصِّفةِ يأتي ضميرُ العَظَمةِ، وباعتبارِ الوَحدانيَّةِ يأتي ضميرُ الواحِدِ(٣).

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَكتُبُ كلَّ شيءٍ -القليلَ والكثيرَ-؛ فإنَّ «ما» اسمُ موصولٌ، والاسمُ الموصولُ يَشْملُ الصَّغيرَ والكبيرَ، ويدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٨).

أَحْصَيْنَاهُ﴾ [الكهف: ٤٩]، ويدُلُّ عليه أيضًا في آخرِ الآيةِ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[(١)].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ؛ إذِ الإيمانُ والكفرُ والخَيرُ والشَّرُّ شَيءٌ كلُّه، فإذا كان مُحصًى في كتابِه قبْلَ الفِعلِ، فهل يَجري الفِعلُ إلَّا عليه[(٢)]؟! وذلك على القولِ بأنَّ الإمامَ هو اللَّوحُ المحفوظُ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ القَسَمُ بالقُرآنِ كِنايةٌ عن شَرَفِ قَدْرِه وتَعظيمِه عندَ اللهِ تعالى، وذلك هو المقصودُ مِن الآياتِ الأُوَلِ مِن هذه السُّورةِ، والمقصودُ مِن هذا القسَمِ تأْكيدُ الخبَرِ مع ذلك التَّنويهِ[(٣)].

- وفي تَخصيصِ القُرآنِ بالإقسامِ به أوَّلًا، وبوَصفِه بـ﴿الْحَكِيمِ﴾ ثانيًا: تَنويهٌ بشَأْنِه، وتَنبيهٌ على أنَّه كما يَشهَدُ برِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن حيثُ نَظْمُه المعجِزُ المُنطوي على بَدائعِ الحِكَمِ، يَشهَدُ بها مِن هذه الحيثيَّةِ أيضًا؛ لِمَا أنَّ الإقسامَ بالشَّيءِ استِشهادٌ به على تَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ، وتَقويةٌ لِثُبوتِه؛ فيَكونُ شاهدًا به، ودَليلًا عليه قَطْعًا[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ تأْكيدُ هذا الخبَرِ بالقسَمِ وحَرْفِ التَّأكيدِ، ولامِ الابتِداءِ: باعتبارِ كَونِه مُرادًا به التَّعريضُ بالمشركينَ الَّذين كذَّبوا بالرِّسالةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٨، ١٥٩).

فهو تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالمشركينَ؛ فالتَّأكيدُ بالنِّسبةِ إليه زِيادةُ تَقريرٍ، وبالنِّسبةِ للمعنى الكِنائيِّ لِرَدِّ إنكارِهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المقصودُ منه الإيقاظُ إلى عَظَمةِ الشَّريعةِ، وبَيانُ أنَّها أقوَمُ الشَّرائعِ وأعدَلُها، كما يُعرِبُ عنه التَّنكيرُ التَّفخيميُّ، والوَصفُ بعدَ إثباتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُرسَلٌ كغَيرِه مِن الرُّسلِ. و﴿عَلَىٰ﴾ للاستِعلاءِ الَّذي هو بمَعنى التَّمكُّنِ، وليس الغرَضُ مِن الإخبارِ به عن المخاطَبِ إفادةَ كَونِه على صِراطٍ مُستقيمٍ؛ لأنَّ ذلك مَعلومٌ حُصولُه مِن الأخبارِ مِن كَونِه أحَدَ المرسَلينَ، ولكنَّ الغرَضَ الجمْعُ بيْنَ حالِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَ حالِ دِينِه؛ لِيَكونَ العِلمُ بأنَّ دِينَه صِراطٌ مُستقيمٌ عِلمًا مُستقلًّا لا ضِمْنيًّا[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلَ﴾ مَصدرٌ بمَعنى المفعولِ؛ وعُبِّر بالتَّنزيلِ عن القُرآنِ بَيانًا لِكَمالِ عَراقتِه في كَونِه مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ كأنَّه نفْسُ التَّنزيلِ، وإظهارًا لِفَخامتِه الإضافيَّةِ بعدَ بَيانِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بوَصفِه بالحِكمةِ. وقيل: مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِفِعلِه المُضمَرِ، أي: نُزِّلَ تَنزيلَ العزيزِ الرَّحيمِ، على أنَّه استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما ذُكِرَ مِن فَخامةِ شأنِ القُرآنِ، وعلى كلِّ تَقديرٍ ففيه فَضْلُ تأْكيدٍ لِمَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿تَنزِيلَ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ ﴿تَنْزِيلُ﴾[٤] على أنَّه خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٤) تقدَّمت الإشارةُ إلى هذه القراءةِ (ص: ١١).

للعِلم به، وهذا مِن مَواقعِ حَذْفِ المُسنَدِ إليه المُسمَّى الحذْفَ الجاريَ على مُتابَعةِ الاستِعمالِ في أمثالِه؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذْفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. وعلى قِراءةِ ﴿تَنزِيلَ﴾ بالنَّصبِ على تَقديرِ: أعني -على وجهٍ-؛ فيَكونُ المعنى: أعني مِن قَسَمي قُرآنًا نَزَّلتُه، وتلك العِنايةُ زِيادةٌ في التَّنويهِ بشَأْنِه، وهي تُعادِلُ حَذْفَ المُسنَدِ إليه الَّذي في قِراءةِ الرَّفعِ[1].

- وأُضيفَ التَّنزيلُ إلى اللهِ بعُنوانِ صِفَتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنَّ ما اشتمَلَ عليه القرآنُ لا يَعْدو أنْ يكونَ مِن آثارِ عِزَّةِ اللهِ تعالى؛ وهو ما فيه مِن حمْلِ النَّاسِ على الحقِّ، وسُلوكِ طَريقِ الهُدى دونَ مُصانَعةٍ ولا ضَعْفٍ، مع ما فيه مِن الإنذارِ والوعيدِ على العِصيانِ والكُفرانِ، أو أنْ يكونَ مِن آثارِ رَحمتِه؛ وهو ما في القُرآنِ مِن نَصْبِ الأدلَّةِ، وتَقريبِ البعيدِ، وكَشفِ الحقائقِ للنَّاظرينَ، مع ما فيه مِن البِشارةِ للَّذين يَكونونَ عندَ مَرْضاةِ اللهِ تعالى، وذلك هو ما ورَدَ بَيانُه بعدُ إجمالًا مِن قولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦]، ثمَّ تَفصيلًا بقولِه: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ [يس: ٧]، وبقولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾[2] [يس: ١١].

- وأيضًا في تَخصيصِ الاسمَينِ الكَريمَينِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ المُعرِبَينِ عن الغَلَبةِ التَّامَّةِ، والرَّأفةِ العامَّةِ: حَثٌّ على الإيمانِ تَرْهيبًا وتَرْغيبًا، وإشعارٌ بأنَّ تَنزيلَه ناشئٌ عن غايةِ الرَّحمةِ، حسبَما نطَقَ به قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٤٧).

﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[١] [الأنبياء: ١٠٧].

٥- قولُه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ اقتُصِرَ على الإنذارِ؛ لأنَّ أوَّلَ ما ابتُدِئَ به القومُ مِن التَّبليغِ إنذارُهم جَميعًا بما تَضمَّنَته أوَّلُ سُورةٍ نزَلَت مِن قولِه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] الآيةَ، وما تَضمَّنَته سُورةُ (المُدثِّرِ)؛ لأنَّ القومَ جميعًا كانوا على حالةٍ لا تُرضِي اللهَ تعالى؛ فكان حالُهم يَقْتضي الإنذارَ؛ لِيُسرِعوا إلى الإقلاعِ عن ذلك[٢].

- وفُرِّعَ على قولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ قولُه: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، أي: فتَسبَّبَ على عَدَمِ إنذارِ آبائِهم أنَّهم مُتَّصِفون بالغَفلةِ وَصْفًا ثابتًا، والغفلةُ هنا كِنايةٌ عن الإهمالِ والإعراضِ عمَّا يَحِقُّ التَّنبُّهُ إليه. وقيل: مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾، أو بما يُفيدُه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، واردٌ لِتَعليلِ إنذارِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو إرسالِه بغَفْلَتِهم المُحْوِجةِ إليهما، على أنَّ الضَّميرَ للقومِ خاصَّةً، فالمعنى: فهُمْ غافلُون عنه، أي: عمَّا أُنذِرَ آباؤهم الأقدَمونَ؛ لامتِدادِ المُدَّةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا تَفصيلٌ لحالِ القومِ الَّذين أُرسِلَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيُنذِرَهم، فهُمْ قِسْمانِ: قِسْمٌ لم تَنفَعْ فيهم النِّذارةُ، وقِسْمٌ اتَّبَعوا الذِّكْرَ، وخافُوا اللهَ، فانْتَفَعوا بالنِّذارةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

- وقولُه: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ جوابُ القَسَمِ المحذوفِ، أيْ: واللهِ لقدْ ثبَتَ وتَحقَّقَ عليهم القولُ الْبَتَّةَ بسَببِ إصرارِهم على الكُفرِ والإنكارِ[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لِتَفريعِ انتفاءِ إيمانِ أكثَرِهم على القولِ الَّذي حقَّ على أكثَرِهم، والمَقولُ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ تَفريعِه عليه، والتَّقديرُ: لقدْ حقَّ القولُ أنَّهم لا يُؤمِنون فهمْ لا يُؤمِنون[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَمثيلًا؛ بأنْ شُبِّهَت حالةُ إعراضِهم عن التَّدبُّرِ في القُرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ، والتَّأمُّلِ في حُجَجِه الواضحةِ: بحالِ قَومٍ جُعِلَت في أعناقِهم أغلالٌ غَليظةٌ تَرتفِعُ إلى أذقانِهم، فيَكونونَ كالمُقْمَحينَ، أي: الرَّافِعينَ رُؤوسَهم، الغاضِّينَ أبصارَهم، لا يَلتفِتون يَمينًا ولا شِمالًا، فلا يَنظُرون إلى شَيءٍ ممَّا حَوْلَهم؛ فتَكونَ تمثيليَّةً، وذِكرُ ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾؛ لِتَحقيقِ كَونِ الأغلالِ مَلْزوزةً -أي: واصلةً- إلى عِظامِ الأذقانِ، بحيثُ إذا أرادَ المغلولُ منهم الالتِفاتَ أو أنْ يُطأطِئَ رأْسَه، وجَعَه ذَقَنُه، فلازَمَ السُّكونَ، وهذه حالةُ تَخييلِ هذه الأغلالِ، وليس كلُّ الأغلالِ مِثلَ هذه الحالةِ. وهذا التَّمثيلُ قابلٌ لِتَوزيعِ أجزاءِ المُركَّبِ التَّمثيليِّ إلى تَشبيهِ كلِّ جُزءٍ من الحالَينِ بجُزءٍ من الحالةِ الأُخرى؛ بأنْ يُشبَّهَ ما في نُفوسِهم من النُّفورِ عن الخَيرِ بالأغلالِ، ويُشَبَّهَ إعراضُهم عن التَّأمُّلِ والإنصافِ بالإقماحِ. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا ...﴾ إلخ وَعيدًا بما سيَحُلُّ بهم يومَ القِيامةِ حينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩).

يُساقُون إلى جَهنَّمَ في الأغلالِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ في سُورةِ (غافرٍ) [٧١، ٧٢]؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ مُستقبَلًا، وعُبِّرَ عنه بصِيغةِ الماضي لِتَحقيقِ وُقوعِه، كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، أي: سنَجْعَلُ في أعناقِهم أغلالًا[١].

- قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ في تنكيرِ ﴿أَغْلَٰلًا﴾ مُبالَغةٌ في تَعظيمِها، وتَهويلِ أمْرِها[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ هذا إمَّا تَتِمَّةٌ للتَّمثيلِ وتَكميلٌ له أيَّ تَكميلٍ، أي: وجَعَلْنا مع ما ذُكِرَ مِن أمامِهم سَدًّا عظيمًا، ومِن ورائِهم سَدًّا كذلك، فغطَّيْنا بها أبصارَهم؛ فهمْ بسَببِ ذلك لا يَقدِرونَ على إبصارِ شَيءٍ ما أصلًا. وإمَّا تَمثيلٌ مُستقِلٌّ؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن جَعلِهم مَحصورينَ بيْنَ سَدَّينِ هائلَينِ قد غطَّيَا أبصارَهم بحيث لا يُبصِرون شيئًا قطعًا؛ كافٍ في الكَشفِ عن كَمالِ فَظاعةِ حالِهم، وكونِهم مَحبوسينَ في ظُلُماتِ الغَيِّ والجَهالاتِ، مَحرومينَ عن النَّظرِ في الأدلَّةِ والآياتِ[٣].

- وإعادةُ فِعلِ ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ -إذا كان معنى قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ [يس: ٨]، أي: جَعَلنا حالَهم كحالِ مَن في أعناقِهم أغلالٌ، فهي إلى الأذقانِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٨).

فهمْ مُقْمَحون- تأْكيدٌ لهذا الجَعْلِ. وأمَّا إذا كانت وَعيدًا بما سيَحُلُّ بهم يومَ القِيامةِ حينَ يُساقونَ إلى جهنَّمَ في الأغلالِ: فإعادةُ فِعلِ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لأنَّه جَعْلٌ حاصلٌ في الدُّنيا، فهو مُغايِرٌ للجَعلِ الحاصلِ يومَ القيامةِ؛ فيكونُ فِعلُ (جَعَلْنا) مُستقبَلًا، وعُبِّرَ عنه بصِيغةِ الماضي لِتَحقيقِ وُقوعِه[1].

- قولُه: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تَفريعٌ على كِلا الفِعلَينِ: ﴿جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨] ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ لأنَّ في كِلا الفِعلَينِ مانعًا مِن أحوالِ النَّظرِ، وفي الكلامِ اكتِفاءٌ عن ذِكرِ ما يَتفرَّعُ ثانيًا على تَمثيلِهم بمَن جُعِلوا بيْنَ سَدَّينِ من عَدَمِ استطاعةِ التَّحوُّلِ عمَّا همْ عليه[2].

- قولُه: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الإغشاءُ: وَضْعُ الغِشاءِ، وهو ما يُغطِّي الشَّيءَ، والمرادُ: أغشَيْنا أبصارَهم؛ ففي الكلامِ حَذْفُ مُضافٍ دلَّ عليه السِّياقُ، وأكَّده التَّفريعُ بقولِه: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ؛ لإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، أي: تَحقيقِ عدَمِ إبصارِهم[3].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيانٌ لِشَأْنِهم بطَريقِ التَّصريحِ والتَّوبيخِ، إثْرَ بَيانِه بطَريقِ التَّمثيلِ، أي: مُستَوٍ عندَهم إنذارُك إيَّاهم وعدَمُه[4].

- وقولُه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استِئنافٌ مُؤكِّدٌ لِمَا قبْلَه، مُبيِّنٌ لِمَا فيه مِن إجمالِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩).

فيه الاستِواءُ، أو حالٌ مُؤكِّدةٌ له(١).

١٠- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾

- لَمَّا كان الإقبالُ على سَماعِ القُرآنِ مُفْضيًا إلى الإيمانِ بما فيه؛ لأنَّه يُداخِلُ القلْبَ؛ أُتبِعَت صِلةُ ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ بجُملةِ ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ فكان المرادُ مِن اتِّباعِ الذِّكرِ أكمَلَ أنواعِه الَّذي لا يَعقُبُه إعراضٌ، فهو مُؤَدٍّ إلى امتثالِ المتَّبِعينَ ما يَدْعوهم إليه، وهؤلاء همُ المؤمنونَ؛ تَنويهًا بشَأْنِهم وبشأنِ الإنذارِ، فهذا قَسيمُ قولِه: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ [يس: ٧]، وهو بَقيَّةُ تَفصيلِ قولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ [يس: ٦]، والغرَضُ تَقويةُ داعيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الإنذارِ، والثَّناءُ على الَّذين قَبِلوا نِذارتَه فآمَنوا(٢).

- والتَّعبيرُ بفِعلِ المُضِي (اتَّبَعَ - وَخَشِيَ)؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ الاتِّباعِ والخَشيةِ، والمرادُ: ابتِداءُ الاتِّباعِ(٣).

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ دَلَّ لَفْتُ الكلامِ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى الوَصفِ بالرَّحمانيَّةِ على أنَّ أهلَ الخَشيةِ يَكفيهم في الاتِّعاظِ التَّذكيرُ بالإحسانِ(٤).

- والقَصرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ -وهو قَصرُ الإنذارِ على التَّعلُّقِ بمَن اتَّبع الذِّكرَ وخشِيَ اللهَ- هو بالتَّأويلِ الَّذي تُؤُوِّلَ به

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٩).

معنى فِعلِ ﴿تُنذِرُ﴾ -أي: حُصولُ فائدةِ الإنذارِ- يكونُ قَصرًا حقيقيًّا، وإنْ كان فِعلُ ﴿تُنذِرُ﴾ على ظاهِرِ استِعمالِ الأفعالِ -وهو الدَّلالةُ على وُقوعِ مَصادرِها- فالقَصرُ ادِّعائيٌّ[1]، بتَنزيلِ إنذارِ الَّذين لم يَتَّبِعوا الذِّكرَ ولم يَخْشَوا مَنزِلةَ عدَمِ الإنذارِ في انتفاءِ فائدتِه، وفي ذلك كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بأنَّ الَّذينَ لم يَنتَفِعوا بالإنذارِ بمَنزلةِ الأمواتِ؛ لِعَدَمِ انتفاعِهم بما يَنفَعُ كلَّ عاقلٍ[2].

- قولُه: ﴿تُنذِرُ﴾ بصيغةِ المضارعِ أفاد تجديدَ الإنذارِ للمتَّبِعينَ[3].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثلُ: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبْتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ **فالحقيقيُّ** هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا من قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. **والإضافيُّ**: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثَرَ من احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. **والادِّعائيُّ**: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. **وقصْرُ القَلبِ**: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ مُعَيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيْدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾؛ لِترتيبِ البِشارةِ أو الأمْرِ بها على ما قبْلَها مِن اتِّباعِ الذِّكرِ والخَشيةِ[1].

- والجمْعُ بيْن ﴿تُنذِرُ﴾ و﴿فَبَشِّرْهُ﴾ فيه طِباقٌ[2]، مع بَيانِ أنَّ أوَّلَ أمْرِهم الإنذارُ، وعاقبتَه التَّبشيرُ[3].

- قَولُه: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ الأجْرُ: هو الثَّوابُ على الإيمانِ والطَّاعاتِ، ووَصْفُه بالكريمِ؛ لأنَّه الأفضلُ في نَوعِه[4].

- وذَكَر الأجرَ بعدَ المغفرةِ؛ لأنَّ التَّحليةَ بعدَ التَّخليةِ، والتَّزَيُّنَ بعدَ إزالةِ الأدْرانِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٢) الطِّباق: هو الجمْعُ بيْنَ مُتضادَّين مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ. وهو قِسْمانِ: لَفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحِك والبُكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّديَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَين بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

١١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

- لَمَّا اقْتَضى القصرُ في قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يس: ١١] نفْيَ أنْ يَتعلَّقَ الإنذارُ بالَّذين لم يَتَّبِعوا الذِّكرَ ولم يَخْشَوُا الرَّحمنَ، وكان في ذلك كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بأنَّ الَّذين لم يَنتفِعوا بالإنذارِ بمَنزِلةِ الأمواتِ؛ لِعَدمِ انتفاعِهم بما يَنفَعُ كلَّ عاقلٍ- استُطْرِدَ عقِبَ ذلك بالتَّخلُّصِ إلى إثباتِ البعثِ؛ فإنَّ التَّوفيقَ الَّذي حُفَّ بمَن اتَّبَعَ الذِّكرَ وخشِيَ الرَّحمنَ هو كإحياءِ الميِّتِ؛ لأنَّ حالةَ الشِّركِ حالةُ ضَلالٍ يُشبِهُ الموتَ، والإخراجَ منه كإحياءِ الميِّتِ[1]. وقولُه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ على ذلك استِئنافٌ ابتدائيٌّ لِقَصدِ إنذارِ الَّذين لم يَتَّبِعوا الذِّكرَ، ولم يَخْشَوُا الرَّحمنَ، وهمُ الَّذين اقْتَضاهم جانبُ النَّفيِ في صِيغةِ القصْرِ في قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ إحياءُ الموتى توفيقَ مَن آمَنَ من الناسِ إلى الإيمانِ، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[الأنعام: ١٢٢] الآيةَ؛ فتكونَ الجُملةُ امتِنانًا على المؤمنينَ بتَيسيرِ الإيمانِ لهم، ومَوقعُ الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ لِقولِه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾[2] [يس: ١١].

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ التَّأكيدُ بحَرفِ (إنَّ)، وضَميرُ الفصلِ (نحن) للتَّقويةِ، وهو زِيادةُ تأْكيدٍ، والمعنى: نُحْيِيهم للجزاءِ؛ فلذلك عُطِفَ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾، أي: نُحْصي لهم أعمالَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٤).

مِن خَيرٍ وشرٍّ قدَّموها في الدُّنيا لِنُجازِيَهم، وعَطْفُ ذلك إدماجٌ[١] للإنذارِ والتَّهديدِ بأنَّهم مُحاسَبون على أعمالِهم، ومُجازَون عليها[٢].

- والمُرادُ بكِتابةِ ما قدَّموا في قولِه: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ الكِنايةُ عن الوعدِ بالثَّوابِ على أعمالِهم الصَّالحةِ، والثَّوابِ على آثارِهم، وكِنايةٌ عن الإحصاءِ، وعدَمِ إفلاتِ شَيءٍ مِن أعمالِهم أو إغفالِه، وهذا الاعتبارُ يُناسِبُه الاستِئنافُ الابتِدائيُّ؛ لِيَكونَ الانتقالُ بابتداءِ كلامٍ مُنبِّهًا السَّامعَ إلى ما اعتبَرَه المُتكلِّمُ في مَطاوي كَلامِه[٣].

- وأخَّرَ الكِتابةَ في الذِّكرِ مع أنَّ الكِتابةَ قبْلَ الإحياءِ، فلم يَقُلْ: «نكتُبُ ما قَدَّموا ونُحييهم»؛ وذلك لأنَّ الكتابةَ مُعظِّمةٌ لأمرِ الإحياءِ؛ لأنَّ الإحياءَ إن لم يكُنْ للحِسابِ لا يُعَظَّمُ، والكِتابةُ في نَفْسِها إنْ لم تكُنْ إحياءً وإعادةً لا يبقَى لها أثَرٌ أصلًا؛ فالإحياءُ هو المُعتبَرُ، والكِتابةُ مُؤكِّدةٌ مُعظِّمةٌ لأمرِه؛ فلهذا قدَّم الإحياءَ، ولأنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ وذلك يفيدُ العَظَمةَ والجَبَروتَ،

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٥).

والإحياءُ عَظيمٌ يختَصُّ باللهِ، والكتابةُ دُونَه؛ فقَرَن بالتَّعريفِ الأمرَ العَظيمَ، وذكَرَ ما يُعظِّمُ ذلك العظيمَ(١).

- والإحصاءُ: حَقيقتُه العدُّ والحسابُ، وهو هنا كِنايةٌ عن الإحاطةِ والضَّبطِ، وعدَمِ تَخلُّفِ شَيءٍ عن الذِّكرِ والتَّعيينِ؛ لأنَّ الإحصاءَ والحسابَ يَستلزِمُ ألَّا يَفوتَ واحدٌ مِن المحسوباتِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٦).

الآيات (١٢-١٩)

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَعَزَّزۡنَا﴾: أي: قَوَّيْنا، وشَدَدْنا، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[١].

﴿تَطَيَّرۡنَا﴾: أي: تشاءَمْنا، وأصلُه: التَّفاؤُلُ بالطَّيرِ (جمعُ طائرٍ)، ثمَّ يُستعمَلُ في كلِّ ما يُتفاءَلُ به ويُتشاءَمُ، وأصلُ (طير): يدُلُّ على خِفَّةِ الشَّيءِ في الهواءِ[٢].

﴿مُّسۡرِفُونَ﴾: أي: مُفرِطونَ ومُتجاوِزونَ الحَدَّ، والسَّرَفُ: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُه يدُلُّ على تَعدِّي الحدِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٥٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقرأَ على النَّاسِ قصَّةَ أصحابِ القريةِ؛ لِيَعتَبِروا ويتَّعِظوا، فيقولُ: واذكُرْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- خبَرَ أصحابِ القَريةِ إذ جاءَها رُسُلٌ مِن اللهِ لِدَعوةِ أهلِها؛ إذ أرسَلْنا إليهم رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فقَوَّيْناهما برَسولٍ ثالثٍ، فقال الرُّسُلُ الثَّلاثةُ لهم: إنَّا رُسُلُ اللهِ إليكم. فردَّ عليهم أهلُ القريةِ: ما أنتم إلَّا بَشَرٌ مِثلُنا، وما أنزَلَ الرَّحمنُ إليكم مِن شَيءٍ مِمَّا تَدْعونَنا إليه، ما أنتم إلَّا كاذِبونَ!

فقال لهم رُسُلُهم: ربُّنا يَعلَمُ أنَّا مُرسَلونَ إليكم، وما علينا إلَّا أن نُبَلِّغَكم ما أرسَلَنا اللهُ به إليكم. قال أهلُ القريةِ لرُسُلِهم: إنَّا تشاءَمْنا بكم، لئِنْ لم تكُفُّوا عن دعوتِكم لَنَرجُمَنَّكم بالحِجارةِ، ولَيُصيبَنَّكم مِنَّا عذابٌ أليمٌ! قالت لهم رُسُلُهم: شُؤمُكم الَّذي جَلَب لكم البلاءَ معكم؛ بسَبَبِ ضَلالِكم، أئِنْ دَعَوْناكم للحَقِّ قُلْتُم هذا؟ بل أنتم قومٌ مُجاوِزون للحَدِّ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها أوجُهٌ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ [يس: ٦]؛ قال: قُلْ لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]! بل قَبْلي جاء أصحابَ القَريةِ مُرسَلونَ، وأنذَروهم بما أنذَرْتُكم، وذكَروا التَّوحيدَ، وخَوَّفوا بالقيامةِ، وبَشَّروا بنَعيمِ دارِ الإقامةِ، وذلك على أنَّ المعنى:

واضرِبْ لأجْلِهم مَثَلًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: إنَّ الإنذارَ لا يَنفَعُ مَن أضَلَّه اللهُ وكَتَب عليه أنَّه لا يُؤمِنُ؛ قال للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: فلا تَأْسَ، واضرِبْ لِنَفْسِك ولِقَومِك مَثَلًا، أي: مَثِّلْ لهم عندَ نَفْسِك مَثَلًا؛ حيث جاءهم ثلاثةُ رُسُلٍ ولم يُؤمِنوا، وصبَرَ الرُّسُلُ على القَتلِ والإيذاءِ، وأنت جِئتَهم واحِدًا، وقَومُك أكثَرُ مِن قَومِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّهم جاؤوا قريةً وأنت بُعِثْتَ إلى العالَم، وذلك على أنَّ المعنى: واضرِبْ لأجْلِ نَفْسِك أصحابَ القَريةِ لهم مَثَلًا، أي: مَثِّلْهم عند نَفْسِك بأصحابِ القَريةِ[١].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّه أعقَبَ وَصْفَ إعراضِهم وغَفْلَتِهم عن الانتِفاعِ بهَدْيِ القُرآنِ، بتَهديدِهم بعَذابِ الدُّنيا؛ إذ قد جاء في آخِرِ هذه القصَّةِ قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾[٢] [يس: ٢٩].

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾.

أي: واذكُرْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- خبَرَ أصحابِ القَريةِ الَّتي جاءها رُسُلٌ مِن اللهِ لِدَعوةِ أهلِها إلى الحَقِّ؛ فلْيَعتبِروا ويَتَّعِظوا بقِصَّتِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٧، ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٨٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٢٤٥ - ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٨).

وقد نقل الماوَرْديُّ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ هذه القَريةَ هي أنْطاكِيَةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَرَ عن كثيرٍ مِن السَّلَفِ أنَّ هذه القريةَ هي أنطاكيةُ، وأنَّ هذا القولَ لم =

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾.

أي: حينَ أرسَلْنا إلى أصحابِ القَريةِ رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فقَوَّيْناهما برَسولٍ ثالثٍ، فقال ثلاثتُهم: إنَّا رُسُلُ اللهِ إليكم[1].

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾.

= يُذكَرْ عن واحدٍ مِن مُتأخِّري المفَسِّرين غَيرُه، قال: (وفي ذلك نظرٌ مِن وُجوهٍ). وذكَرَ ثلاثةَ وُجوهٍ، ثمَّ قال: (فعلى هذا يَتعَيَّنُ أنَّ هذه القريةَ المذكورةَ في القُرآنِ العَظيمِ قَريةٌ أُخرى غيرُ أنطاكيَةَ، كما أطلَقَ ذلك غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ أيضًا، أو تكونُ أنطاكيَّةُ إن كان لَفظُها مَحفوظًا في هذه القِصَّةِ مَدينةً أخرى غيرَ هذه المشهورةِ المعروفةِ؛ فإنَّ هذه لم يُعرَفْ أنَّها أُهلِكَت؛ لا في المِلَّةِ النَّصرانيَّةِ، ولا قبْلَ ذلك، واللهُ سُبحانه وتعالى أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٣).
ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الأمرُ المنقولُ عندَ النَّصارى أنَّ هؤلاء المذكورينَ في القُرآنِ لَيسوا مِن الحوارِيِّينَ، وهذا أصَحُّ القولَينِ عندَ عُلَماءِ المُسلمينَ وأئمَّةِ المفَسِّرينَ، وذكَروا أنَّ المذكورينَ في القُرآنِ في سورةِ يس ليسوا مِن الحوارِيِّينَ، بل كانوا قبْلَ المَسيحِ، وسَمَّوْهم بأسماءِ غيرِ الحوارِيِّينَ... وهذا القَولُ هو الصَّوابُ، وأنَّ هؤلاء المُرسَلينَ كانوا رُسُلًا لله قبْلَ المسيحِ، وأنَّهم كانوا قد أُرسِلوا إلى أنطاكيةَ... ولم يؤمِنْ أهلُ المدينةِ بالرُّسُلِ، بل أهلَكَهم اللهُ تعالى كما أخبَرَ في القرآنِ، ثمَّ بعدَ هذا عَمَرت أنطاكيةُ وكان أهلُها مُشركينَ حتَّى جاءَهم مَن جاءَهم مِن الحوارِيِّينَ، فآمَنوا بالمسيحِ على أيديهم ودخَلوا دينَ المسيحِ. ويُقالُ: إنَّ أنطاكيةَ أوَّلُ المدائِنِ الكبارِ الَّذين آمَنوا بالمسيحِ عليه السَّلامُ، وذلك بعدَ رَفْعِه إلى السَّماءِ، ولكِنْ ظَنَّ مَن ظَنَّ مِن المفَسِّرينَ أنَّ المذكورينَ في القُرآنِ هم رُسُلُ المسيحِ وهم مِن الحوارِيِّينَ، وهذا غلَطٌ). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٢٤٥-٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٤، ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال الواحدي: (قال أبو إسحاق [الزَّجَّاج]: «فقَوَّيْنا وشَدَدْنا الرِّسالةَ برَسولٍ ثالثٍ». وهو قَولُ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٦٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٨٢).

أي: قال أصحابُ القَريةِ لهم: ما أنتم إلَّا أُناسٌ مِثلُنا، فكيف أُوحِيَ إليكم[١]؟!

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾.

أي: وما أنزَل الرَّحمنُ إليكم أيَّ شَيءٍ مِمَّا تَدَّعونَ[٢]!

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

أي: ما أنتم إلَّا تَكذِبونَ في دَعْواكم أنَّكم رُسُلٌ مِنَ اللهِ إلينا[٣].

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾.

أي: قالت رُسُلُهم لهم: اللهُ ربُّنا يَعلَمُ أنَّا رُسُلُه إليكم، وأنَّا صادِقونَ[٤].

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾.

أي: وما يجِبُ علينا إلَّا أن نُبَلِّغَكم ما أرسَلَنا اللهُ به إليكم بلاغًا مُبِينًا للحَقِّ، فإنْ لم تَقْبَلوا دَعوتَنا فقد أدَّيْنا ما علينا، وليس لنا مِن الأمرِ شَيءٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال الزمخشري: (قولُه: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ جارٍ مَجرى القَسَمِ في التوكيدِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٠).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾.

أي: قال أصحابُ القَريةِ لِرُسُلِهم: إنَّا تشاءَمْنا بكم[1]!

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: لئِنْ لم تَترُكوا دَعْواكم لَنَرْجُمَنَّكم[2]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢، ٣٦٣).

اختُلِفَ في سَبَبِ تطيُّرِهم؛ فقيل: تطيَّروا بهم بسببِ عُقوباتٍ حَلَّت بهم، أو بلاءٍ نزَل بهم؛ فقيل: احتَبَس المطَرُ عنهم. وقيل: لأنَّهم جاؤوهم بدِينٍ غيرِ دينِهم. وقيل: قد يكونُ تَطيُّرُهم مُجرَّدَ دعوى لا أصلَ لها. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٤، ٦٥).

قال ابنُ عطيَّة: (والأظهَرُ: أنَّ تَطَيُّرَ هؤلاء إنَّما كان بسبَبِ ما دخَلَ قَريتَهم مِن اختلافِ الكَلِمة، وافتِتانِ النَّاسِ، وهذا على نحوِ تطيُّرِ قُرَيشٍ بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى نحوِ ما خُوطِبَ به موسى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٩).

(٢) قال الماوَرْديُّ: (﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: لَنَرجُمنَّكم بالحِجارةِ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: لَنقتُلَنَّكم. قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: لَنَشتُمَنَّكم ونُؤذيكم. قاله النَّقَّاشُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢).

وقال الألوسي: (﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحِجارةِ، قاله قَتادةُ، وذُكِرَ فيه احتِمالان: احتمالُ أن يكونَ الرَّجمُ للقَتلِ، أي: لَنَقْتُلَنَّكم بالرَّجمِ بالحِجارةِ، واحتِمالُ أن يكونَ للأذى، أي: لَنُؤذِيَنَّكم بذلك). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: القتلُ رجمًا بالحجارةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والعُلَيمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٥).
=

ولَيُصيبَنَّكم مِنَّا عذابٌ مُوجِعٌ[(١)].

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾.

أي: قالت رُسُلُهم لهم: شُؤمُكم الَّذي جَلَب لكم البلاءَ إنَّما هو معكم؛ بسبَبِ ضَلالِكم، وليس بسَبَبِنا كما زعمتُم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ

= وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّكم. وممَّن اختار هذا القولَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦).

بل ذهَب الفرَّاءُ إلى أنَّ عامَّةَ ما في القرآنِ مِن الرَّجمِ المرادُ به: القتلُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٤).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (الرَّجمُ: أصلُه الرَّميُ، ... ثمَّ يُستعارُ فيُوضَعُ مَوضِعَ القَتلِ؛ لأنَّهم كانوا يَقتُلونَ بالرَّجم. ورُوِيَ أنَّ ابنَ آدَمَ قَتَلَ أخاه رجمًا بالحجارة، وقُتِلَ رَجمًا بالحجارة، فلمَّا كان أوَّلُ القتلِ كذلك سُمِّيَ رَجْمًا وإن لم يكُنْ بالحِجارة، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّكم). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩، ٥٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ هل هذا على سَبيلِ التَّنويع أو على سَبيلِ الجَمع؟ يعني: أنَّهم يَرجُمونَهم ويُعَذِّبونَهم قبْلَ الرَّجم، أو أنَّه على سبيلِ التَّنويع وأنَّ «الواوَ» بمعنى «أو»، أي: نَرجُمَنَّكم حتَّى تموتوا أو لَيَمَسَّنَّكم مِنَّا عذابٌ أليمٌ دون الرَّجمِ؟ الآيةُ تَحتَمِلُ المعنيَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤).

يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلّٞ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثٗا * مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾.

أي: أئِنْ وعَظْناكم وأمَرْناكم باتِّباعِ الحَقِّ تُقابِلونَنا بهذا الرَّدِّ[1]؟!

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٞ مُّسْرِفُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تقولون، بل أنتم قومٌ عادتُكم مُجاوَزةُ الحُدودِ، والطُّغيانُ[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ العِبرةَ تكونُ بما في القِصَّةِ مِن ضَربِ الأمثالِ؛ فليس مِنَ الضَّروريِّ أنْ يُعَيَّنَ المَثَلُ المضروبُ؛ فهنا قال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ولم يُعَيِّنِ القَريةَ، ولم يُعَيِّنْ أولئك الأصحابَ بأعيانِهم؛ لأنَّه ليس هذا محَلَّ عِبرةٍ،

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤).

قال الألوسي: (وهو إضرابٌ انتِقاليٌّ عن الإنكارِ المذكورِ إلى الإخبارِ بما أدَّى إلى ذلك، وهو اعتيادُ الإسرافِ في كُلِّ شَيءٍ، أو إلى بيانِ استِجماعِهم للعُيوبِ كُلِّها، ويَحتمِلُ أن يكونَ إضرابًا عن غيرِ مَذكورٍ، وهو ما توَهَّموه مِنَ العُذرِ في ذلك، أي: لا عُذرَ لكم فيه، بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسرافُ والخروجُ عن الحُدودِ). ((تفسير الألوسي)) (٤٠٨/٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٨).

بلِ العِبرةُ في القِصَّةِ كلِّها[١]؛ فتَعيينُ تلك القريةِ لو كان فيه فائدةٌ لَعيَّنَها اللهُ تعالى؛ فالتَّعرُّضُ لذلك -وما أشْبَهَه- مِن بابِ التَّكلُّفِ والتَّكلُّمِ بلا عِلمٍ؛ ولهذا إذا تكلَّمَ أحدٌ في مِثلِ هذا تجِدُ عِندَه مِن الخَبطِ والخَلطِ والاختِلافِ الَّذي لا يَستقِرُّ له قرارٌ: ما تَعرِفُ به أنَّ طَريقَ العِلمِ الصَّحيحِ الوقوفُ مع الحقائِقِ، وتَرْكُ التَّعرُّضِ لِما لا فائِدةَ فيه، وبذلك تَزْكو النَّفسُ، ويَزيدُ العِلمُ، مِن حيثُ يَظُنُّ الجاهِلُ أنَّ زيادةَ العِلمِ هي بذِكرِ الأقوالِ الَّتي لا دَليلَ عليها، ولا حُجَّةَ عليها، ولا يَحصُلُ منها مِنَ الفائدةِ إلَّا تشويشُ الذِّهنِ، واعتيادُ الأُمورِ المشكوكِ فيها[٢]!

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ فيه أنَّ التَّطيُّرَ كان مِن شأنِ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ[٣]، فالتَّطيُّرُ والتَّشاؤُمُ مِن صِفاتِ الكُفَّارِ، وعلى المُسلمينَ اجتِنابُه، وأن يَتوكَّلوا على اللهِ، وأن يَعلَموا أنَّ الأمورَ بيَدِ اللهِ، وأنَّ الشُّؤمَ الحقيقيَّ الَّذي يَستجلِبُ كُلَّ الضَّرَرِ هو مُخالَفةُ رَبِّ العالَمينَ جلَّ وعلا، أمَّا كُلُّ فِعلٍ لم يُخالَفْ به اللهُ فهذا لا ضرَرَ فيه ولا طِيَرةَ؛ لأنَّ اللهَ ما أباحه إلَّا لأنَّه لا ضَرَر فيه. وعلى المُسلِمِ أن يَتحَرَّزَ مِن هذا كُلِّه، ولا يَتشاءَمَ بشَيءٍ، وأن يَبنيَ الأمورَ على التَّوكُّلِ على اللهِ، ومُراعاةِ أوامِرِه ونواهيه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ جوازُ تَعَدُّدِ الرُّسُلِ مع اتِّحادِ المُرْسَلِ إليه؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَ لهذه القريةِ اثنَينِ ثمَّ عزَّزَهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٨).

بثالثٍ[١].

٢- إنَّ الَّذين يُكَذِّبون الرُّسلَ ليس عندَهم إلَّا المكابرةُ، وليس عندَهم حُجَّةٌ عقليَّةٌ أو نقليَّةٌ؛ لقولِهم: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾، فهذه الجُمَلُ الثَّلاثُ ليس فيها أيُّ حُجَّةٍ تُسَوِّغُ تكذيبَ هؤلاء الرُّسُلِ؛ فالأُولى: أنَّهم رَدُّوهم لأنَّهم بشَرٌ مثلُهم! والرَّدُّ عليها: أنَّه لا يمكِنُ أنْ يُرْسَلَ للبشَرِ إلَّا بشَرٌ مِثلُهم، حتَّى لو أُنزِلَ إليهم ملائكةٌ؛ فإنَّ الملائكةَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا على صورةِ البشَرِ، وحينَئذٍ تعودُ الشُّبهةُ. الثَّانيةُ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾، فهذا نفيٌ مُجَرَّدٌ بدون ذِكرِ حُجَّةٍ! وليس هذا بدليلٍ للخصم إطلاقًا؛ لأنَّ نفْيَ قولِ الخصم بدونِ حُجَّةٍ ما هو إلَّا مكابرةٌ. والثَّالثةُ كذلك في قولِهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ وَعْظٌ من المرسَلينَ وَعَظوا به القومَ؛ لِيَعْلَموا أنَّهم لا مَنفعةَ تَنجَرُّ لهم مِن إيمانِ القوم، وإعلانٌ لهم بالتَّبرُّؤِ مِن عُهدةِ بَقاءِ القومِ على الشِّركِ؛ وذلك مِن شأنِه أنْ يُثيرَ النَّظرَ الفِكريَّ في نُفوسِ القومِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أنَّه يَلزَمُ الرُّسُلَ أن يكونَ بلاغُهم مُبينًا مُظهِرًا للأمرِ على حقيقتِه، ويَتفرَّعُ على ذلك أنَّه لا إبهامَ في الشَّرائع، وأنَّ الشَّرائعَ كلَّها واضِحةٌ؛ فإنْ جاء إبهامٌ في نَصٍّ فهو مُبَيَّنٌ مُوضَّحٌ في نَصٍّ آخَرَ، وإن بَقِيَ الإبهامُ قائمًا فالعِلَّةُ في فَهمِ المُخاطَبِ؛ إمَّا لقُصورِه، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢).

لتَقصيرِه، أمَّا ما جاءتْ به الرُّسلُ فإنَّه يحصُلُ به البلاغُ المُبينُ المُظهِرُ لكُلِّ ما تحتاجُ إليه الرِّسالةُ؛ لِقَولِه: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أنَّ الذُّنوبَ والتَّكذيبَ للرُّسُلِ يكونُ سَببًا للمَحْقِ والبَلاءِ، وهذه هي سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في جميعِ المكذِّبينَ للرُّسُلِ: أنَّ اللهَ يَبتليهم بالعُقوباتِ؛ لعلَّهم يَرجِعونَ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ جوازُ حَذْفِ ما عُلِمَ بالسِّياقِ؛ ولا يُعَدُّ هذا نقصًا في الكلامِ وبلاغتِه! فهنا جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ لدَلالتِه عليه، ورُبَّما يكونُ الحذفُ أبلَغَ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَضرِبَ لِقَومِه مَثلًا بأصحابِ القَريةِ[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ نُسِبَ الإرسالُ إليه تعالى بِناءً على أنَّه كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٢).

بأمْرِه تعالى؛ لِتَكميلِ التَّمثيلِ، وتَتميمِ التَّسليةِ[1].

- وفي قولِه: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ إيجازٌ بالحَذفِ؛ فقد حُذِفَ مَفعولُ (عَزَّزْنا)، والتَّقديرُ: فعَزَّزْناهما بثالثٍ، وإنَّما جُنِحَ إلى هذا الحذْفِ؛ لانصِبابِ الغرَضِ على المُعزَّزِ به الثَّالثِ، وإذا كان الغرَضُ هو المرادَ، وكان الكلامُ مُنصَبًّا عليه؛ كان ما سِواه مَطروحًا[2]. وقيل: حُذِف المفعولُ -حيث لم يَقُلْ: «فعزَّزْناهما»-؛ لمعنًى لطيفٍ، وهو أنَّ المقصودَ مِن بَعثِهما نُصرةُ الحَقِّ لا نُصرتُهما، والكُلُّ مُقَوُّونَ للدِّينِ المتينِ بالبُرهانِ المُبينِ[3].

- وأكَّدوا قولَهم: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾؛ لأجْلِ تكذيبِهم إيَّاهم، فأكَّدوا الخبَرَ تأْكيدًا وَسَطًا، ويُسمَّى هذا ضَرْبًا طَلبيًّا[4]. وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَيۡكُم﴾؛ للاهتمامِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٠).

(٤) تختلِفُ صوَرُ الخبرِ في أساليبِ اللُّغةِ باختلافِ أحوالِ المُخاطَبِ، ولا يخلو المخاطَبُ مِن أن يكونَ واحدًا مِن ثلاثةٍ:

١- خالي الذِّهنِ مِن الحُكم، ومِن التَّرَدُّدِ فيه؛ فهذا يُلْقى إليه الكلامُ ساذَجًا غُفلًا مِن أدواتِ التَّوكيد. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (ابتدائيًّا)؛ نحو: محمَّدٌ سافرَ.

٢- المُترَدِّدُ في ثبوتِ الحكمِ وعدَمِه، بألَّا يَترجَّحَ عندَه هذا على ذلك، وحينَئذٍ يَحسُنُ تقويةُ الحُكمِ بمؤكِّدٍ؛ لِيُزيلَ ذلك التَّردُّدَ. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (طلبيًّا).

٣- المُنكِرُ للحُكم، وهذا يجبُ أن يؤكَّدَ له الكلامُ بقدرِ إنكارِه قوَّةً وضَعفًا؛ ذاك أنَّ المتكلِّمَ أحْوَجُ ما يكونُ إلى الزِّيادةِ في تثبيتِ خبرِه إذا كان هناك مَن يُنكِرُه ويَدفَعُ صِحَّتَه، فهو حينَئذٍ يُبالِغُ في تأكيدِه حتَّى يزيلَ إنكارَه. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (إنكاريًّا). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٥٧، ٥٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٤٩، ٥٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة الميداني (١/ ١٧٨- ١٨٢).

بأمْرِ المُرسَلِ إليهم[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى لمُوسى عليه السَّلامُ في سُورةِ (القصصِ): ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [القصص: ٣٥]، فذكَرَ المفعولَ، ولم يَذكُرْه هاهنا في قولِه: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾، مع أنَّ المقصودَ هناك أيضًا نُصرةُ الحقِّ؛ ووَجْهُه: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ كان أفضَلَ مِن هارونَ، وهارونُ بُعِثَ معه بطَلَبِه حيثُ قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ [القصص: ٣٤]؛ فكان هارونُ مَبعوثًا لِيُصَدِّقَ مُوسى فيما يقولُ، ويَقومَ بما يأمُرُه، وأمَّا هما فكُلٌّ واحدٍ مُستقِلٌّ ناطقٌ بالحقِّ، فكان المقصودُ في سُورةِ (القصصِ) تَقويةَ مُوسى وإرسالَ مَن يُؤنِسُ معه -وهو هارونُ-، وأمَّا هاهنا فالمقصودُ تَقويةُ الحقِّ؛ فظهَرَ الفرْقُ[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾

- اختيارُ وصْفِ الرَّحمنِ في حِكايةِ قَولِ الكفَرةِ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ قيل: فيه إشارةٌ إلى الرَّدِّ عليهم؛ لأنَّ اللهَ لَمَّا كان رَحمنَ الدُّنيا، والإرسالُ رَحمةٌ؛ فكيف لا يُنزِلُ رَحمتَه وهو رَحمنٌ[(٣)]؟!

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ قَسَمٌ؛ لأنَّه استِشهادٌ باللهِ على صِدقِ مَقالتِهم، واضطَرَّهم إلى شِدَّةِ التَّوكيدِ بالقَسَمِ ما رأَوا مِن تَصميمِ كَثيرٍ مِن أهلِ القريةِ على تكذيبِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦١).

ويُسمَّى هذا المقدارُ مِن التَّأكيدِ ضَرْبًا إنكاريًّا[١].

- وفي هذه الآياتِ يَبْدو التَّأكيدُ بأروَعِ صُوَرِه للخبَرِ؛ فقد قال أوَّلًا: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فأورَدَ الكلامَ ابتدائيَّ الخبَرِ، ثمَّ قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فأكَّده بمُؤكِّدينِ، وهو (إنَّ) واسميَّةُ الجُملةِ، فأورَدَ الكلامَ طَلبيًّا، ثمَّ قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فترَقَّى في التَّأكيدِ بثَلاثةٍ، وهي (إنَّ)، واللَّامُ، واسميَّةُ الجُملةِ، فأورَدَ الكلامَ إنكاريَّ الخبَرِ جوابًا عن إنكارِهم. وقيل: إنَّ في قولِه: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ تأْكيدًا رابعًا، وهو إجراءُ الكلامِ مُجرى القسَمِ في التَّأكيدِ به، وفي أنَّه يُجابُ بما يُجابُ به القسَمُ. وفي هذه الآيةِ ائتلافُ الفاصِلةِ مع ما يدُلُّ عليه سائرُ الكلامِ؛ فإنَّ ذِكرَ الرِّسالةِ مَهَّدَ لِذِكْرِ البلاغِ والبَيانِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- لَمَّا كانوا -لِمَا يَرَون على الرُّسلِ مِن الآياتِ وظاهِرِ الكراماتِ ممَّا يَشهَدُ ببَركتِهم، ويُمْنِ نُفوسِهم وأفعالِهم- إذا ذَمُّوهم توَقَّعوا تَكذيبَ النَّاسِ لهم؛ أكَّدوا قولَهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[٣].

- وقولُهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ...﴾ استأنفوه استِئنافَ النَّتائجِ على سَبيلِ التَّأكيدِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦١، ٣٦٢). وسبق تعريفُ الإخبارِ الإنكاريِّ قبْلُ.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٧).

إعلامًا بأنَّ ما أخبَروا به لا فَتْرةَ لهم عنه[١].

- ولَمَّا كان الإنسانُ قد يَفعَلُ ما لا يُوجدُ أثرُه، فقالوا مُعبِّرينَ بالمَسِّ دونَ الإمساسِ: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا﴾، أي: عاجلًا، لا مِن غيرِنا، كما تقولونَ أنتم في تَهديدِكم إيَّانا بما يَحُلُّ بنا ممَّن أرسَلَكم عذابٌ أليمٌ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ حُكِيَ قَولُ الرُّسلِ بما يُرادِفُه ويُؤدِّي معناهُ بأُسلوبٍ عَرَبيٍّ؛ تَعريضًا بأهْلِ الشِّركِ مِن قُرَيشٍ الَّذين ضُرِبَت القَريةُ مَثَلًا لهم؛ فالرُّسلُ لم يَذْكُروا مادَّةَ الطِّيَرةِ والطَّيرِ، وإنَّما أَتَوا بما يدُلُّ على أنَّ شُؤمَ القومِ مُتَّصلٌ بذَواتِهم، لا جاء مِن المرسَلينَ إليهم؛ فحُكِيَ بما يُوافِقُه في كَلامِ العربِ؛ تَعريضًا بمُشْركي مكَّةَ، وهذا بمَنزلةِ التَّجريدِ[٣] لِضَرْبِ المثَلِ لهم؛ بأنْ لُوحِظَ في حِكايةِ القصَّةِ ما هو مِن شُؤونِ المُشبَّهينَ بأصحابِ القصَّةِ[٤].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ داخلٌ على (إنِ) الشَّرطيَّةِ؛ فهو استِفهامٌ على مَحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ، وقُيِّدَ ذلك المحذوفُ بالشَّرطِ الَّذي حُذِفَ جوابُه أيضًا؛ استِغناءً عنه بالاستفهامِ عنه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذاتُ الواحدةُ ذاتَينِ؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلك الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٣، ٣٦٤).

والتَّقديرُ: أتتَشاءمُون بالتَّذكيرِ إنْ ذُكِّرْتُم[(١)]؟!

- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ قيل: هو إضرابٌ عمَّا تَقْتضيه الشَّرطيَّةُ -﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾- مِن كَونِ التَّذكيرِ سَببًا للشُّؤمِ، أو مُصحِّحًا للتَّوعُّدِ، أي: ليس الأمرُ كذلك، بل أنتُم قَومٌ عادتُكم الإسرافُ في العِصيانِ؛ فلذلك أتاكُم الشُّؤمُ، أو في الظُّلْمِ والعُدوانِ؛ ولذلك تَوعَّدتُم وتَشاءَمْتُم بمَن يجِبُ إكرامُه والتَّبركُ به[(٢)].

- وفي ذِكرِ كَلمةِ ﴿قَوۡمٞ﴾ إيذانٌ بأنَّ الإسرافَ مُتمكِّنٌ منهم، وبه قِوامُ قَوميَّتِهم[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤، ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥).

الآيات (٢٠-٢٧)

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَقۡصَا﴾: أي: آخِرِ، وأصلُ (قصي): يدُلُّ على البُعدِ[(١)].

﴿فَطَرَنِي﴾: أي: خَلَقَني، وأصلُ الفَطرِ: الشَّقُّ، فكُلُّ مَن أظهَرَ أمرًا اختَرَعه على غيرِ مِثالٍ يُقالُ: قد فطَرَه، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وإبرازِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وجاء رجُلٌ مُؤمِنٌ مِن أبعَدِ مَوضِعٍ في المدينةِ مُسرِعًا إلى القَومِ الَّذين كذَّبوا الرُّسُلَ الثَّلاثةَ، قال: يا قَومِ اتَّبِعوا هؤلاء الرُّسُلَ؛ اتَّبِعوا مَن لا يَسألُكم أجرًا على البلاغِ، وهم على الحَقِّ مُهتَدونَ.

ثمَّ بيَّن الأسبابَ الَّتي حمَلَتْه على الإيمانِ، فقال: وما لي ألَّا أعبُدَ اللهَ الَّذي خلَقَني مِن العدَمِ، والَّذي إليه وَحْدَه تُرجَعونَ؟! أأتَّخِذُ مِن دونِ اللهِ آلِهةً لا تَدفَعُ عنِّي ضُرًّا إن أراده بي الرَّحمنُ، ولا يُخلِّصونَني من هذا الضُّرِّ؟! إنِّي إن فعَلْتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

ذلك لَفي ضلالٍ مُبينٍ.

ثمَّ أعلَن إيمانَه بكلِّ صراحةٍ وقوَّةٍ، فقال: إنِّي آمَنتُ برَبِّكم فاسمَعوا قَولي.

قيل لهذا الرَّجُلِ المؤمِنِ حينَ قتَلَه قومُه: ادخُلِ الجنَّةَ. قال: يا لَيْتَ قَومي يَعلَمونَ بمَغفْرةِ رَبِّي لي، وجَعْلِه لي مِن المُكرَمينَ بدُخولِ جنَّتِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾.

أي: وجاء رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن طَرَفِ المدينةِ؛ مِن أبعَدِ مَوضِعٍ فيها، مُسرِعًا إلى القَومِ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ الثَّلاثةَ[1].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

أي: قال: يا قَومِ اتَّبِعوا هؤلاءِ الرُّسُلَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ إليكم[2].

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾.

أي: اتَّبِعوا مَن لا يَسألُكم على تبليغِ رِسالةِ اللهِ أيَّ أجرٍ دُنيويٍّ، وهم مُتَّصِفونَ بأنَّهم ثابِتونَ ومُستَقيمونَ على الحَقِّ الَّذي يَدْعونَكم إليه؛ فاتَّبِعوهم تهتَدوا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧١، ٧٢).

قال ابن جرير: (ذلك أنَّ أهلَ مَدينتِه هذه عزَموا واجتمَعَت آراؤُهم على قَتلِ هؤلاء الرُّسُلِ الثَّلاثةِ، فيما ذُكِرَ، فبلَغ ذلك هذا الرَّجُلَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم =

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وما الَّذي يَمنَعُني مِن عبادةِ اللهِ الَّذي خلَقَني مِن العَدَمِ، والَّذي إليه وَحْدَه تُرجَعونَ، فيُجازيكم على أعمالِكم(1)؟!

كما قال تعالى حكايةً عن قَولِ هودٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى حِكايةً عن قَولِ سَحَرةِ فِرعَونَ: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

أي: أأتَّخِذُ مِن دونِ اللهِ مَعبودًا سِواه؟! كلَّا؛ فإنَّ الرَّحمنَ إنْ أراد إصابَتي بضُرٍّ، فلا تمنَعُ هذه الآلِهةُ عنِّي أيَّ ضَرَرٍ(2).

= الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يحتمِلُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، وهو الأقرَبُ؛ لبيانِ حالِ هؤلاء الدُّعاةِ أنَّهم على هدًى، ويحتمِلُ أن تكونَ للحالِ، أي: لا يَسألونكم أجرًا مع كَونِهم مُهتدينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) =

﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ أن تخلِّصَني مِن الضَّرَرِ إن وقَعَ علَيَّ[1].

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾.

أي: إنِّي إنِ اتَّخذتُ آلهةً هذه صِفتُها فإنِّي إذَنْ لَفي ضلالٍ مُبينٍ[2].

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾.

أي: إنِّي آمَنتُ برَبِّكم فاسمَعوا قَولي[3].

= للشنقيطي (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٨٠، ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧١).

قيل: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: ظاهرٍ بيِّنٍ واضحٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملة: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٣).

وقيل: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: واضِحٍ في نَفْسِه لمن لم يكُنْ مظروفًا له، ومُوضِّحٍ لكُلِّ ناظرٍ ما هو فيه مِن الظَّلامِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٠).

قال الرازي: (في المخاطَبِ بقولِه: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ وُجوهٌ؛ أحَدُها: هُم المرسلُونَ، قال المفَسِّرونَ: أقبَلَ القومُ عليه يُريدونَ قَتْلَه، فأقْبَل هو على المرسَلينَ، وقال: إنِّي آمَنْتُ برَبِّكم فاسْمَعوا قولي، واشْهَدوا لي. وثانيها: هم الكفَّارُ، كأنَّه لَمَّا نَصَحَهم وما نَفَعَهم، قال: فأنا آمَنْتُ فاسمَعونِ. =

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ ﴾.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾.

أي: قيل لهذا الرَّجُلِ المؤمِنِ حينَ قتَلَه قَومُه: ادخُلِ الجنَّةَ[١].

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الطَّبعُ البَشَريُّ داعيًا إلى محبَّةِ الانتقامِ ممَّن وقَعَ منه الأذى؛ بيَّن سُبحانَه أنَّ الأصفياءَ على غيرِ ذلك الحالِ، فقال مُستأنِفًا[٢]:

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾.

أي: قال: يا لَيْتَ قَومي يَعلَمونَ بمَغفِرةِ رَبِّي لِذُنوبي، وجَعْلِه لي مِنَ الَّذين

= وثالثُها: برَبِّكم أيُّها السَّامِعونَ فاسْمَعونِ. على العُمومِ، كما قُلْنا في قولِ الواعظِ حيثُ يقولُ: يا مسكينُ، ما أكثَرَ أمَلَك! وما أنزَلَ عَمَلَك! يُريدُ به كُلَّ سامِعٍ يَسْمَعُه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٣، ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٠).

قال ابنُ جُزي: (واختُلِفَ: هل دخَلَها حينَ مَوتِه كالشُّهداءِ؟ أو هل ذلك بمعنى البِشارةِ بالجنَّةِ ورُؤيتِه لِمَقعدِه منها؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١).

وممَّن اختار الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

قال الشوكاني: (قيلَ له ذلك؛ تكريمًا له بدُخولِها بعدَ قَتلِه، كما هي سُنَّةُ اللهِ في شُهَداءِ عبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤).

أكرَمَهم بدُخولِ جنَّتِه؛ وذلك بسَبَبِ إيماني باللهِ ورُسُلِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ﴾ تَبصِرةٌ للمُؤمِنينَ وهدايةٌ لهم؛ ليَكونوا في النُّصحِ باذِلينَ جُهدَهم[٢]، فوَصْفُ الرَّجُلِ بالسَّعيِ يُفيدُ أنَّه جاء مُسرِعًا، وأنَّه بلَغَه هَمُّ أهلِ المدينةِ برَجمِ الرُّسُلِ أو تعذيبِهم، فأراد أن يَنصَحَهم؛ خشيةً عليهم وعلى الرُّسُلِ. وهذا ثَناءٌ على هذا الرَّجُلِ يُفيدُ أنَّه ممَّن يُقتدَى به في الإسراعِ إلى تغييرِ المُنكَرِ[٣]، فيَنْبغي للإنسانِ أن يَنتهِزَ الفُرَصَ في إنذارِ قومِه ومُناصَحتِهم، وألَّا يَتَوانَى، بل يُبادِرُ بالنَّصيحةِ والموعظةِ[٤].

٢- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ معنًى لطيفٌ؛ فإنَّه يُنبِئُ عن إشفاقٍ عليهم وشَفَقةٍ؛ فإنَّ إضافتَهم إلى نفْسِه بقَولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ يُفيدُ أنَّه لا يريدُ بهم إلَّا خيرًا[٥]، فيَنبغي التَّلطُّفُ بالقَولِ في دعوةِ الغَيرِ؛ فإنَّ هذا يَستوجِبُ

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩١-٩٣).

قال ابنُ كثير: (مَقصودُه أنَّهم لو اطَّلعوا على ما حَصَل من هذا الثَّوابِ والجزاءِ والنَّعيم المقيم، لَقادهم ذلك إلى اتِّباعِ الرُّسُلِ، فرحِمَه اللهُ ورَضِيَ عنه؛ فلقد كان حريصًا على هدايةِ قَومِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

اتِّباعَه، وقَبولَ نُصْحِه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا ﴾ دَليلٌ على نَقصِ مَن يأخُذُ أجرًا على شَيءٍ مِن أفعالِ الشَّرعِ الَّتي هي لازِمةٌ له؛ كالصَّلاةِ(٢).

٤- قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا ﴾ فيَنبغي للدَّاعيةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يَترفَّعَ عن أخْذِ ما في أيدي النَّاسِ مِن الأموالِ -حتَّى وإنْ أَعْطَوه-؛ لأنَّه رُبَّما تَنْقُصُ مَنزِلتُه إذا قَبِلَ ما يُعْطَى مِن أجْلِ دعوتِه وموعظتِه(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ أنَّه يجبُ على مَن دعا إلى اللهِ أن يكونَ على بَصيرةٍ وعلى عِلمٍ؛ لأنَّ هذا هو وَصْفُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهم يَدْعونَ إلى اللهِ على هُدًى منه، وأمَّا مَن يدعو على غيرِ هدًى فإنَّه قد يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِحُ؛ لأنَّ الَّذي يدعو على غيرِ عِلمٍ رُبَّما يَجعَلُ الشَّيءَ الحرامَ حلالًا والحلالَ حرامًا وهو لا يدري، فيَحصُلُ بذلك فَسادٌ في الدِّينِ والعَقيدةِ(٤)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إذا دعا إلى الحقِّ أن يَذكُرَ ما في لُزومِه مِن الفَضائلِ، وأنْ يَذكُرَ ما في مُخالَفتِه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

ولا يُستفادُ مِن الآيةِ عدَمُ جوازِ أَخْذِ رزقٍ مِن بيتِ المالِ للدَّعوةِ والإرشادِ، وإن كان التَّنزُّهُ عن ذلك أَوْلى. يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٩).

الضَّلالِ والسُّوءِ؛ حتى يَجمَعَ بيْنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أنَّ عابدي الأصنام يُمَوِّهُونَ على النَّاسِ بعبادتِهم؛ فيَدَّعُون أنَّهم يَعبُدونَها لِتكونَ شفيعًا لهم عندَ اللهِ! وهذا عندَما يَسْمَعُه السَّامعُ يَظُنُّ أنَّهم يَجعلون الآلهةَ في مَرتبةٍ دونَ اللهِ -لأنَّ مرتبةَ الشَّافعِ دونَ مرتبةِ المَشفوعِ إليه-؛ فيَقولون: «إنَّهم شُفعاءُ لنا إلى اللهِ»، والحقيقةُ أنَّهم لم يَجعلوهم شُفعاءَ، بل جعَلوهم شُركاءَ للهِ؛ لأنَّهم يَعبُدونَهم كما يَعبُدونَ اللهَ. فيُستفادُ منه الحذَرُ مِن التَّلبيسِ في الأسماءِ أو بالتَّسميةِ، وأنَّ صاحبَ الباطلِ قد يُسمِّي نفْسَه بما يقتضي أنْ يكونَ على حقٍّ، وليس كذلك[٢]!

٨- قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ في هذه الآياتِ تَنبيهٌ عَظيمٌ، ودَلالةٌ على وُجوبِ كَظمِ الغَيظِ، والحِلمِ عن أهلِ الجَهلِ، والتَّرَؤُّفِ على مَن أدخَلَ نفْسَه في غِمارِ الأشرارِ وأهلِ البَغيِ، والتَّشَمُّرِ في تخليصِه، والتَّلَطُّفِ في افتِدائِه، والاشتِغالِ بذلك عن الشَّماتةِ به والدُّعاءِ عليه. ألَا ترى كيف تمنَّى الخيرَ لقَتَلتِه، والباغينَ له الغوائِلَ، وهم كفَرةٌ عبَدةُ أصنامٍ[٣]؟!

٩- قال قَتادةُ: (لا تَلْقَى المؤمِنَ إلَّا ناصِحًا، لا تَلْقاه غاشًّا؛ لَمَّا عايَنَ ما عايَنَ مِن كرامةِ اللهِ: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾، تمنَّى على اللهِ أن يَعلَمَ قومُه ما عايَنَ مِن كرامةِ اللهِ له، وما هجَمَ عليه!)[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠).

(٤) أخرجه ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٩/ ٤٢٥). =

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أنَّ إكرامَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَختَصُّ بهذا الرَّجُلِ، بل هناك عالَمٌ يُكرِمُهم اللهُ تعالى؛ ففيه حَثٌّ على أنْ يَفعَلَ الإنسانُ كفِعلِه؛ لِيَنالَ ما ناله؛ فالإكرامُ مَوجودٌ لكُلِّ مَن قام بعَمَلٍ كعَمَلِه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ مع قَولِه سُبحانَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]: دَلالةٌ على أنَّ القريةَ تُسمَّى مدينةً، والمدينةَ أيضًا تُسمَّى قريةً؛ فمكَّةُ سمَّاها اللهُ تعالى قريةً، وهي أمُّ القُرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، فالقريةُ ليست هي البلدَ الصَّغيرَ -كما يَظُنُّ كثيرٌ من النَّاسِ- بلِ القريةُ تكونُ مدينةً؛ وذلك لأنَّ أصلَ القريةِ معناه مأخوذٌ مِن القَرْيِ، وهو التَّجمُّعُ؛ فإنَّ النَّاسَ يَجتمِعونَ فيها، فإنْ كانت بلدةً كبيرةً سُمِّيت في عُرفِ النَّاسِ مدينةً، وإنْ كانت دونَ ذلك سُمِّيتْ في عُرفِ النَّاسِ قَريةً؛ فالتَّفريقُ بيْنَ القريةِ والمدينةِ ما هو إلَّا اصطلاحٌ عُرفيٌّ فقط(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ بَلاغةٌ باهِرةٌ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا جاء مِن أقصَى المدينةِ رجُلٌ -وهو قد آمَنَ- دَلَّ على أنَّ إنذارَهم وإبلاغَهم بلَغَ إلى أقصى المدينةِ(٣).

= قال ابنُ عثيمين: (هذا الرَّجُلُ ناصِحٌ في حياتِه وبعدَ مماتِه؛ في حياتِه دعا قَومَه إلى توحيدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأن يُؤمِنوا ويَتَّبِعوا الرُّسُلَ، وبعدَ مماتِه تمنَّى أنَّ قَومَه يَعلَمونَ بغُفرانِ اللهِ له؛ مِن أجْلِ أن يُؤمِنوا ويَتَّبِعوا الرُّسُلَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٢).

٣- في قَولِه تعالى -عن صاحبِ ياسينَ على سبيلِ الرِّضا بهذه المقالةِ، والثَّناءِ على قائلِها، والإقرارِ له عليها-: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ رَضِي اللهُ عنهم؛ ووجْهُه: أنَّ كلَّ واحدٍ من الصَّحابةِ لم يَسألْنا أجرًا، وهم مُهتَدونَ؛ بدليلِ قَولِه تعالى -خِطابًا لهم-: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، و«لَعَلَّ» مِن اللهِ واجبةٌ[١].

٤- إنَّ اللهَ سُبحانَه يَحتَجُّ على فَسادِ مَذهَبِ مَن عَبَد غيرَه بالأدلَّةِ العَقليَّةِ الَّتي تَقْبَلُها الفِطَرُ والعُقولُ، ويَجعلُ ما رَكَّبه في العُقولِ مِن حُسنِ عبادةِ الخالقِ وَحْدَه، وقُبحِ عبادةِ غيرِه؛ مِن أعظَمِ الأدلَّةِ على ذلك؛ فتأمَّلْ هذا الخطابَ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ كيف تَجِدُ تحتَه أشرَفَ مَعنًى وأجَلَّه، وهو أنَّ كَوْنَه سُبحانَه فاطِرًا لِعبادِه يقتَضي عبادتَهم له، وأنَّ مَن كان مَفطورًا مخلوقًا فحَقيقٌ به أنْ يَعبُدَ فاطِرَه وخالِقَه، ولا سيَّما إذا كان مَرَدُّه إليه؛ فمَبدَؤُه منه ومَصيرُه إليه، وهذا يُوجِبُ عليه التَّفرُّغَ لعبادتِه، ثمَّ احتَجَّ عليهم بما تُقِرُّ به عقولُهم وفِطَرُهم مِن قُبحِ عبادةِ غيرِه، وأنَّها أقبَحُ شَيءٍ في العَقلِ وأنكَرُه، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، أفلا تَراه كيف لم يَحتَجَّ عليهم بمُجرَّدِ الأمرِ، بل احتَجَّ عليهم بالعَقلِ الصَّحيحِ، ومُقتضَى الفِطرةِ[٢]؟!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ الإرشادُ إلى وُجوبِ الإخلاصِ في العبادةِ؛ لقولِه: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ فإنَّ اللهَ تعالى مُنْفَرِدٌ

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨).

بفَطْرِ الخَلْقِ؛ فيَجِبُ أنْ يُفْرَدَ بالعبادةِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أنَّ مِن كَمالِ الدَّعوةِ والتَّعليمِ قَرْنَ الحُكْمِ بدَليلِه أو عِلَّتِه؛ فإنَّ هذا كالتَّعليلِ لِقَولِه: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ﴾؛ ولهذا عَدَلَ عن قَولِه: «ما ليَ لا أعبُدُ اللهَ» إلى قَولِه: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ لِيَكونَ هذا كالدَّليلِ والتَّعليلِ لوُجوبِ إفرادِه سُبحانَه بالعبادةِ، وهذا في القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ كثيرٌ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تنبيهٌ لهم على مُوجِبِ الشُّكرِ، وتهديدٌ على ارتِكابِ الكُفرِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى الخَوفِ والرَّجاءِ، كما قال: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ وذلك لأنَّ مَن يكونُ إليه المرجِعُ يُخافُ منه، ويُرجَى[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ فضيلةُ هذا الرَّجُلِ بإعلانِه الإيمانَ باللهِ عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]؛ فقد أعْلَن أنَّه من المسلِمينَ، ولم يَخَفْ أحدًا سوَى اللهِ تعالى[٥].

١٠- الرُّبوبيَّةُ نَوعانِ: ربوبيَّةٌ عامَّةٌ، وربوبيَّةٌ خاصَّةٌ؛ ففي قولِه: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ -مع كَونِهم مشركينَ كفَّارًا- بيانُ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى العامَّةِ، وفي قَولِه: ﴿بِمَا غَفَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

لِي رَبِّي ﴾ إثباتُ الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الجنَّةَ مخلوقةٌ الآنَ[(٢)]، وقد دلَّ على ذلك آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والإعدادُ بمعنى التَّهيئةِ[(٣)].

١٢- إثباتُ نعيمِ القبرِ؛ لقولِه: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾، مع أنَّ السَّاعةَ لم تَقُمْ بَعْدُ، ولم يَدْخُلِ النَّاسُ الجنَّةَ[(٤)].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ أرواحَ المؤمِنينَ تَدخُلُ الجنَّةَ مِن حينِ المَوتِ، وإنَّما قال هذا بعدَما قتَلوه، ورأى ما أعدَّ اللهُ له[(٥)].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ فيه أنَّه لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا برَحمةِ اللهِ، وإن كان مُحسِنًا[(٦)].

١٥- أنَّ التَّخليةَ قبْلَ التَّحليةِ؛ لِقَولِه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ وهذا تخليةٌ وإزالةٌ، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ هذا تحليةٌ[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٢، ٩٥، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٥).

(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٠٩)، ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) لابن رجب (ص: ١١٢).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ هذا عَطْفٌ على قِصَّةِ التَّحاوُرِ الجاري بيْنَ أصحابِ القريةِ والرُّسلِ الثَّلاثة؛ لِبَيانِ البَونِ بيْنَ حالِ المعانِدينَ مِن أهلِ القريةِ وحالِ الرَّجُلِ المؤمنِ منهم الَّذي وَعَظَهم بمَوعظةٍ بالغةٍ، وهو مِن نفَرٍ قليلٍ مِن أهْلِ القريةِ(١).

- قولُه: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾ المرادُ بالمدينةِ هنا نفْسُ القريةِ المذكورةِ في قولِه: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾[يس: ١٣]، وعُبِّرَ عنها هنا بـ (المدينةِ) تَفنُّنًا(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾، وقال في سُورةِ (القَصصِ) في قِصَّةٍ أُخرى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ ﴾[القصص: ٢٠]؛ فقدَّمَ قولَه: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ على ﴿رَجُلٞ ﴾ -الَّذي هو الفاعلُ- في سُورةِ (يس)، وأخَّرَه في سُورةِ (القَصَصِ)؛ ووَجْهُه: أنَّ ذِكْرَ الأوصافِ قبْلَ ذِكْرِ الموصوفِ أبلَغُ في المدحِ مِن تقديمِ ذِكْرِه على وصْفِه، فإنَّ النَّاسَ يقولون: «الرئيسُ الأجَلُّ فُلانٌ»، فالَّذي زِيدَ في مَدْحِه -وهو صاحبُ يس- أمَرَ بالمعروفِ، وأعانَ الرُّسلَ، وصبرَ على القتلِ؛ والآخَرُ إنَّما حَذَّرَ موسى مِن القتلِ، فسَلِمَ موسى بقَبُولِه مَشورتَه؛ فالأوَّلُ هو الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكَرِ، والثَّاني هو ناصحُ الآمرِ بالمعروفِ؛ فاستحقَّ الأوَّلُ الزيادةَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) والمناسبةُ المذكورةُ لابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

وجْهٌ آخَرُ: أنْ يُقالَ: إنَّ الفاعلَ في المَوضعَينِ لَمَّا كان نَكِرةً فالمعنى: جاءَ جاءٍ، وقد دلَّ الفِعلُ على (جاءٍ)، ولا يكونُ الجائي مِن أقصى المدينةِ في الأعمِّ الأغلبِ إلَّا رجُلًا، وكان الَّذي يُفادُ المخاطَبُ أنْ يَعلَمَ أنَّه جاء مِن مَكانٍ بَعيدٍ إلى مُجتمعِ النَّاسِ في القريةِ، وحيث لا يَقرُبُ مِن مَجاري القصَّةِ، ولا يَحضُرُ مَوضعَ الدَّعوةِ ومَشهدَ المعجزةِ؛ فقُدِّمَ ما تَبْكيتُ القومِ به أعظَمُ، والتَّعجُّبُ منه أكثَرُ، فقال: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ يَنصَحُ لهم ما لا يَنصَحون مِثلَه لأنفُسِهم، ولا يَنصَحُ لهم أقْربوهم، مع أنَّه لم يَحضُرْ جميعَ ما يَحضُرونه، ولم يُشاهِدْ مِن كلامِ الأنبياءِ ما يُشاهِدونَه! فحَثَّهم على اتِّباعِ الرُّسلِ المبعوثينَ إليهم، وقَبولِ ما يأْتون به مِن عندِ مُرسِلِهم. وأمَّا الآيةُ في سُورةِ (القصص) فإنَّ المرادَ: جاء مَن لا يَعرِفُه مُوسى مِن مكانٍ لم يكُنْ مُجاورًا لمكانِه، فأعلَمَه ما فيه الكفَّارُ مِن ائتِمارِهم به، فاستوى حُكمُ الفاعلِ والمكانِ الَّذي جاء منه؛ فقُدِّمَ ما أصْلُه التَّقديمُ -وهو الفاعلُ-؛ إذ لم يكُنْ هنا تَبكيتٌ للقومِ بكَونِه مِن أقصى المدينةِ كما كان ذلك في آيةِ سُورةِ (يس)[1].

وجْهٌ آخَرُ: أنَّ تقَديمَ المجرورِ ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مُشيرٌ إلى إحرازِ معنًى جليلٍ مُطلعٍ على حُكمِ السَّوابقِ مِن إيمانِ مَن بَعُدَ مَسافةً عن داعيةٍ إلى الهدايةِ، فلمْ يَضُرَّه بُعْدُ الدَّارِ، وكُفرِ مَن باشَرَ الرُّسلَ وشافَهَهم، فلمْ يَنتفِعْ بقُرْبِ الدَّارِ، وحاصلُ الإخبارِ مِن هذه الآياتِ مِثالٌ لحالِ كُفَّارِ قُريشٍ مِن أهلِ مكَّةَ، وحالِ الأنصارِ مِن أهلِ المدينةِ، حينَ جاء هؤلاء وآمَنوا به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع بُعدِ دارِهم، وعانَدَ عُتاةُ قُريشٍ فكَفَروا مع الالتحامِ في النَّسبِ واتِّحادِ الدَّارِ، ويُوضِّحُ هذا أنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، وإنَّما افتُتِحَت بذِكرِ قُريشٍ، وهم المَعْنِيُّون بقولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ١٠٨٣).

فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦] إلى ما بَعْدُ مِن الآياتِ، فمَجيءُ الرَّجُلِ مِن أقْصَى المدينةِ مِثالٌ لِمَن بَعُدَ فلمْ يَضُرَّه بُعْدُه، وذِكرُه المُراجِعينَ للرُّسلِ مِن أصحابِ القَريةِ مِثالٌ لِمَن قَرُبَ، وطالَت مُباشَرتُه، وشاهَدَ الآياتِ، فلمْ يَنفَعْه قُرْبُه(١).

- وجْهٌ آخَرُ: أنَّ وَجْهَ تَقديمِ ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ على ﴿رَجُلٞ﴾؛ للاهتمامِ بالثَّناءِ على أهْلِ أقْصى المدينةِ، وأنَّه قد يُوجَدُ الخَيرُ في الأطرافِ ما لا يُوجَدُ في الوسَطِ، وأنَّ الإيمانَ يَسبِقُ إليه الضُّعفاءُ؛ لأنَّهم لا يَصُدُّهم عن الحقِّ ما فيه أهلُ السِّيادةِ مِن تَرَفٍ وعَظَمةٍ؛ إذ المُعتادُ أنَّهم يَسكُنون وسَطَ المدينةِ، وأمَّا قولُه تعالى في سُورةِ (القَصَصِ) [٢٠]: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ فجاء النَّظمُ على التَّرتيبِ الأصليِّ؛ إذ لا داعيَ إلى التَّقديمِ؛ إذ كان ذلك الرَّجُلُ ناصحًا، ولم يكُنْ داعيًا للإيمانِ(٢). وقيل: تَقدَّمَ قولُه: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وتأخَّرَ في (القَصَصِ)؛ تَفنُّنًا في البلاغةِ(٣).

- قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ افتتاحُ خِطابِ الرَّجلِ إيَّاهم بنِدائِهم بوَصفِ القَوميَّةِ له، قَصَدَ منه أنَّ في كلامِه الإيماءَ إلى أنَّ ما سيُخاطِبُهم به هو مَحْضُ نَصيحةٍ؛ لأنَّه يُحِبُّ لِقَومِه ما يُحِبُّ لِنَفْسِه؛ ففيه تأليفٌ لِقُلوبِهم واستِمالَتُها(٤).

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ رِسالةِ المرسَلينَ حَثٌّ لهمْ على اتِّباعِهم(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال الرَّجُلُ هنا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((التحرير والتنوير)) (٢٢/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣).

وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]؛ والفرْقُ بيْنَهما: أنَّ هذا الرَّجُلَ جاءَهم، وفي أوَّلِ مَجيئِه نَصَحَهم، وما رأَوا سِيرتَه، فقال: اتَّبِعوا هؤلاء الَّذين أظْهَروا لكم الدَّليلَ، وأوضَحُوا لكمُ السَّبيلَ، وأمَّا مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ فكان فيهم، واتَّبَعَ مُوسى، ونصَحَهم مِرارًا، فقال: اتَّبِعوني في الإيمانِ بمُوسى وهارونَ عليهما السَّلامُ، واعْلَموا أنَّه لو لم يكُنْ خيرًا لَمَا اختَرْتُه لِنَفْسي -وأنتم تعلَمون أنِّي اختَرْتُه-، ولم يكُنْ للرَّجُلِ الَّذي جاء مِن أقْصى المدينةِ أنْ يقولَ: أنتُم تَعلَمون اتِّباعي لهم[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾

- جُملةُ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ مُؤكِّدةٌ لِجُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وتَتميمٌ لها، مع زِيادةِ الإيماءِ إلى عِلَّةِ اتِّباعِهم بلَوائحِ عَلاماتِ الصِّدقِ والنُّصحِ على رِسالتِهم؛ إذ همْ يَدْعون إلى هُدًى، ولا نفْعَ يَنجَرُّ لهم مِن ذلك، فتَمحَّضَتْ دَعوتُهم لِقَصدِ هِدايةِ المرسَلِ إليهم. أي: اتَّبِعوا مَن لا تَخسَرون معهم شيئًا مِن دُنياكم، وتَربَحون صِحَّةَ دِينِكم[(٢)].

- وقدَّم بقولِه: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ الرِّسالةَ وَصْفٌ يَقتضي وُجوبَ قَبولِ المُرسَلِ؛ ثمَّ قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ فهذا مِن بابِ الكمالِ، وينبغي أنْ يُقدَّمَ الوَصْفُ الموجِبُ للقَبولِ قبْلَ الوصفِ المُفَضِّلِ للقَبولِ[(٣)].

- قولُه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ قُدِّمَ في الصِّلةِ عدَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

سؤالِ الأجرِ على الاهتِداءِ؛ لأنَّ القَومَ كانوا في شَكٍّ مِن صِدقِ المرسَلينَ، وكان مِن دَواعي تَكذيبِهم اتِّهامُهم بأنَّهم يَجُرُّون لأنفُسِهم نفْعًا مِن ذلك؛ لأنَّ القومَ لَمَّا غلَبَ عليهم التَّعلُّقُ بحُبِّ المالِ، وصاروا بُعَداءَ عن إدراكِ المقاصِدِ السَّاميةِ؛ كانوا يَعُدُّون كلَّ سَعيٍ يَلُوحُ على امْرِئٍ إنَّما يَسْعى به إلى نَفْعِه؛ فقُدِّمَ ما يُزيلُ عنهم هذه الاستِرابَةَ، ولِيَتهَيَّؤوا إلى التَّأمُّلِ فيما يَدْعُونهم إليه، ولأنَّ هذا مِن قَبيلِ التَّخليةِ بالنِّسبةِ للمُرسَلينَ والمرسَلِ إليهم، والتَّخليةُ تُقدَّمُ على التَّحليةِ؛ فكانَتْ جُملةُ ﴿لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ أهَمَّ في صِلةِ الموصولِ[1].

- والأجْرُ يَصدُقُ بكلِّ نفْعٍ دُنيويٍّ يَحصُلُ لأحدٍ مِن عمَلِه؛ فيَشملُ المالَ والجاهَ والرِّئاسةَ، فلمَّا نُفِيَ عنهم أنْ يَسألوا أجْرًا فقدْ نُفِيَ عنهم أنْ يَكونوا يَرْمون مِن دَعوتِهم إلى نفْعٍ دُنيويٍّ يَحصُلُ لهم. وبعدَ ذلك تَهيَّأَ الموقعُ لِجُملةِ ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، أي: وهمْ مُتَّصِفون بالاهتداءِ إلى ما يأْتي بالسَّعادةِ الأبَديَّةِ، وهمْ إنَّما يَدْعُونكم إلى أنْ تَسيروا سِيرتَهم، فإذا كانوا همْ مُهتدينَ، فإنَّ ما يَدْعونكم إليه مِن الاقتِداءِ بهم دَعوةٌ إلى الهُدى؛ فتَضمَّنَت هذه الجُملةُ بمَوقعِها بعْدَ الَّتي قبْلَها ثَناءً على المرسَلينَ وعلى ما يَدْعون إليه، وتَرغيبًا في مُتابَعتِهم[2].

- وجاءتِ الجُملةُ الأُولى مِن الصِّلةِ فِعليَّةً مَنْفيَّةً ﴿لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾؛ لأنَّ المقصودَ نَفْيُ أنْ يَحدُثَ منهم سؤالُ أجرٍ فضْلًا عن دَوامِه وثَباتِه، وجاءتِ الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ اسميَّةً؛ لإفادةِ إثباتِ اهتدائِهم ودَوامِه، بحيث لا يَخْشى مَن يتَّبِعُهم أنْ يكونَ في وَقتٍ مِن الأوقاتِ غيرَ مُهتدٍ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٦٨).

- وخِتامُ هذه الآيةِ بقولِه: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ لم يكُنْ مُجرَّدَ زيادةٍ، بل كان لتَوقُّفِ المَوعظةِ عليها، وكان قولُه: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ كالتَّوطئةِ له(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لِقَصْدِ إشعارِهم بأنَّه اتَّبَعَ المرسَلينَ، وخلَعَ عِبادةَ الأوثانِ. وأبرَزَ الكلامَ في صُورةِ استِفهامٍ إنكاريٍّ، وبصِيغةِ: (ما ليَ لا أفعَلُ)، الَّتي شأْنُها أنْ يُورِدَها المتكلِّمُ في رَدٍّ على مَن أنكَرَ عليه فِعلًا، أو ملَكَه العجَبُ مِن فِعلِه، أو يُورِدَها مَن يُقدِّرُ ذلك في قلْبِه؛ ففيه إشعارٌ بأنَّهم كانوا مُنكِرينَ عليه الدَّعوةَ إلى تَصديقِ الرُّسلِ الَّذين جاؤوا بتَوحيدِ اللهِ؛ فإنَّ ذلك يَقْتضِي أنَّه سبَقَهم بما أمَرَهم به(٢).

- وهذا الخبَرُ أيضًا ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بهم، كأنَّه يقولُ: وما ليَ لا أعبُدُ، وما لَكمْ لا تَعبُدون الَّذي فطَرَكم؟! بقَرينةِ قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ إذ جعَلَ الإسنادَ إلى ضَميرِهم تَقويةً لمعنى التَّعريضِ(٣).

- وإنَّما ابتدَأَ في قولِه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بإسنادِ الخبَرِ إلى نفْسِه؛ لإبرازِه في مَعرِضِ المُناصَحةِ لِنفْسِه، وهو مُريدٌ مُناصَحتَهم؛ لِيَتلطَّفَ بهم، ويُدارِئَهم فيُسمِعَهم الحقَّ على وَجهٍ لا يُثيرُ غضَبَهم، ويكونَ أعْوَنَ على قَبولِهم إيَّاه حينَ يَرَون أنَّه لا يُرِيدُ لهم إلَّا ما يُرِيدُ لِنَفْسِه، والمرادُ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٦٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تقريعُهم على تَرْكِهم عِبادةَ خالقِهم إلى عِبادةِ غَيرِه؛ ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مُبالَغةً في التَّهديدِ(١).

- قولُه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ قالَهُ الجائي مِن المدينةِ، وأضافَ الفِطرةَ إلى نفْسِه، والرُّجوعَ -الَّذي هو البعثُ- إليهم، مع عِلمِه بأنَّ اللهَ فَطَرَهم وإيَّاه، وإليه يَرجِعُ هو وهمْ، فلَمْ يَقُلْ: (الَّذي فطَرَنا وإليه نَرجِعُ)، أو (فطَرَكم وإليه تُرجَعون)؛ لأنَّ الخَلْقَ والإيجادَ نعمةٌ مِن اللهِ تعالى تُوجِبُ الشُّكرَ، والبعثَ بعدَ الموتِ للجزاءِ وَعيدٌ مِن اللهِ يُوجِبُ الزَّجرَ، فأضاف ما يَقْتضي الشُّكرَ لِنفْسِه؛ لأنَّه ألْيَقُ بإيمانِه، وما يَقْتَضي الزَّجرَ إليهم؛ لأنَّه ألْيَقُ بكُفْرِهم(٢).

وقيل: في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ احتِباكٌ(٣)، حَذَف «وإليه أَرجِعُ» أوَّلًا لَمَّا دَلَّ عليه ثانيًا، وإنكارَه عليهم ثانيًا بما دَلَّ عليه أوَّلًا مِن إنكارِه على نَفْسِه؛ استِجلابًا لهم بإظهارِ الإنصافِ، والبُعدِ عن التَّصريحِ بالخِلافِ(٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧١، ٤٧٢).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١١).

شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

- جُملةُ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ رُجوعٌ إلى طَريقةِ التَّعريضِ، وهي استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لاستِشعارِ سُؤالٍ عن وُقوعِ الانتفاعِ بشَفاعةِ تلك الآلهةِ عندَ الَّذي فطَرَه. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، أي: أُنكِرُ على نَفْسي أنْ أتَّخِذَ مِن دُونِه آلهةً، أي: لا أتَّخِذُ آلهةً، والاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِن الأخْذِ، وهو التَّناوُلُ، والتَّناوُلُ يُشعِرُ بتَحصيلِ ما لم يكُنْ قبْلُ، فالاتِّخاذُ مُشعِرٌ بأنَّه صُنِع، وذلك مِن تَمامِ التَّعريضِ بالمخاطَبينَ؛ أنَّهم جَعَلوا الأوثانَ آلهةً وليست بآلهةٍ؛ لأنَّ الإلهَ الحقَّ لا يُجعَلُ جَعْلًا، ولكنَّه مُستحِقٌّ الإلهيَّةَ بالذَّاتِ[1].

- قولُه: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ أي: يُرِدْنِ اللهُ عزَّ وجلَّ، والتَّعبيرُ بوَصْفِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ؛ لأنَّ المشركينَ كانوا يُنكِرون اسمَ الرَّحمنِ، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]. وللإشارةِ كذلك إلى أنَّ رَحمتَه لا تَقْتضي عدَمَ خَشيتِه؛ فالمؤمنُ يَخْشى اللهَ مع عِلمِه برَحمتِه، فهو يَرْجو الرَّحمةَ. وأيضًا ذكَرَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ لأنَّه اسمٌ يدُلُّ على الرَّحمةِ، ولَمَّا كان الضُّرُّ قد يَفهَمُ منه مَن يَفهَمُ مِن النَّاسِ انتفاءَ الرَّحمةِ عن المُريدِ؛ ذكَرَ ذلك باسمِ (الرَّحمن) لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أو يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ هذا الوهمَ: أنَّ إرادةَ اللهِ الضُّرَّ للإنسانِ تُنافي الرَّحمةَ؛ لأنَّ إرادةَ الضُّرِّ بالإنسانِ قد يكونُ مِن رَحمةِ اللهِ بالإنسانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، فما يُصيبُ الإنسانَ من الضُّرِّ له نتائجُ حَميدةٌ، وهي الرُّجوعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والاعتبارُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤، ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٨١).

- وجاءَ وصْفُ الآلهةِ المزعومةِ المفروضةِ الاتِّخاذِ بجُملةِ الشَّرطِ ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، والمقصودُ به التَّعريضُ بالمخاطَبينَ في اتِّخاذِهم تلك الآلهةَ بعِلَّةِ أنَّها تَشفَعُ لهم عندَ اللهِ، وتُقرِّبُهم إليه زُلْفى[1].

- وقد عُلِمَ مِن انتفاءِ دَفْعِهم الضُّرَّ أنَّهم عاجِزونَ عن جَلْبِ نَفْعٍ؛ لأنَّ دَواعيَ دَفعِ الضُّرِّ عن المولى أقْوَى وأهَمُّ، ولِحاقَ العارِ بالوليِّ في عَجْزِه عنه أشَدُّ، وإذ قد نُفِيَ عن شَفاعتِهم النَّفْعُ للمَشفوعِ فيه، فقد نُفِيَ عنهم أنْ يَشفَعوا بطَريقِ الالتِزامِ؛ لأنَّ مَن يَعلَمُ أنَّه لا يُشَفَّعُ لا يَشفَعُ، فكأنَّه قال: أأتَّخِذُ مِن دُونِه آلهةً لا شَفاعةَ لهم عندَ اللهِ؟! لإبطالِ اعتِقادِهم أنَّهم شُفعاءُ مَقبولو الشَّفاعةِ. وإذ كانت شَفاعتُهم لا تَنفَعُ -لِعَجزِهم، وعدَمِ مُساواتِهم للهِ الَّذي يَضُرُّ ويَنفَعُ في صِفاتِ الإلهيَّةِ-؛ كان انتفاءُ أنْ يُنقِذوا أَولَى. وإنَّما ذُكِرَ العُدولُ عن دَلالةِ الفَحوى[2] إلى دَلالةِ المنطوقِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَصريحٍ؛ لِتَعلُّقِه بالإيمانِ، وهو أساسُ الصَّلاحِ[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ جوابٌ للاستِفهامِ الإنكاريِّ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؛ فحرْفُ (إذًا) جزاءٌ للمَنفيِّ لا للنَّفْيِ، أي: إنِ اتَّخَذْتُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

(٢) دَلالة الفَحوى أو فحوى الخطابِ: هو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نوعانِ: تنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنهيِ عن قولِ (أفٍّ) على النهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

دونِ اللهِ آلهةً أكُنْ في ضلالٍ مُبينٍ[١].

- وأُكِّدَت الجملةُ بمؤكِّدَينِ: «إنَّ» و«اللامِ»؛ لأنَّ المُخاطَبَ منكِرٌ، فهو يُخاطِبُ قومَه الَّذين اتَّخَذوا مع اللهِ آلهةً[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ خِطابٌ مِن الرَّجُلِ المؤمنِ للرُّسلِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بطَريقِ التَّلوينِ، وإنَّما أكَّدَه بـ (إنَّ)؛ لإظهارِ صُدورِه عنه بكَمالِ الرَّغبةِ والنَّشاطِ، وأضافَ الرَّبَّ إلى ضَميرِهم؛ رَوْمًا لِزيادةِ التَّقريرِ، وإظهارًا للاختِصاصِ والاقتداءِ بهم، كأنَّه قال: بربِّكم الَّذي أرْسَلَكم، أو الَّذي تَدْعُونَنا إلى الإيمانِ به. وقِيل: الخِطابُ للكَفَرةِ؛ شافَهَهم بذلك إظهارًا للتَّصلُّبِ في الدِّينِ، وعدَمِ المُبالاةِ بالقتلِ، وإضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِهم؛ لِتَحقيقِ الحقِّ، والتَّنبيهِ على بُطلانِ ما همْ عليه مِن اتِّخاذِ الأصنامِ أربابًا[٣].

- وأيضًا هذه الجُملةُ ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ واقعةٌ مَوقعَ الغايةِ مِن الخِطابِ، والنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ. وهذا إعلانٌ لإيمانِه، وتَسجيلٌ عليهم بأنَّ اللهَ هو ربُّهم، لا تلك الأصنامُ. وأكَّدَ الإعلانَ بتفريعِ ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾؛ استِدعاءً لِتَحقيقِ أسماعِهم إنْ كانوا في غَفلةٍ؛ فالأمْرُ على جِهةِ المبالَغةِ والتَّنبيهِ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لِمَا يَنتظِرُه سامعُ القِصَّةِ مِن مَعرفةِ ما لَقِيَه مِن قَومِه بعْدَ أنْ واجَهَهم بذلك الخِطابِ الجَزلِ، وهلْ اهتَدَوا بهَدْيِه، أو أعْرَضُوا عنه وتَرَكوه، أو آذَوْه كما يُؤذَى أمثالُه من الدَّاعينَ إلى الحقِّ، المُخالِفينَ هَوى الدَّهْماءِ؛ فيُجابُ بما دَلَّ عليه قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وهو الأهمُّ عندَ المسلمينَ، وهمْ مِن المقصودينَ بمَعرفةِ مِثلِ هذا؛ لِيَزْدادوا يَقينًا وثَباتًا في إيمانِهم، وأمَّا المشركون فحَظُّهم مِن المثَلِ ما تَقدَّمَ وما يأْتي مِن قولِه: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾[1] [يس: ٢٩].

- وفي قولِه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ كِنايةٌ عن قتْلِه شَهيدًا في إعلاءِ كَلمةِ اللهِ؛ لأنَّ تَعقيبَ مَوعظتِه بأمْرِه بدُخولِ الجنَّةِ دَفْعةً بلا انتِقالٍ يُفيدُ بدَلالةِ الاقتضاءِ أنَّه مات، وأنَّهم قَتَلوه لِمُخالَفتِه دِينَهم، وأنَّ هذا الرَّجُلَ المؤمنَ قد أُدخِلَ الجنَّةَ عقِبَ مَوتِه؛ لأنَّه كان مِن الشُّهداءِ[2].

- والقائِلُ: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هو اللهُ تعالى -على قَولٍ-، والمَقولُ له هو الرَّجُلُ الَّذي جاء مِن أقْصَى المدينةِ، قيل: وإنَّما لم يُذكَرْ ضَميرُ المَقولِ له مَجرورًا باللَّامِ؛ لأنَّ القولَ المذكورَ هنا قولٌ تَكوينيٌّ لا يُقصَدُ منه المُخاطَبُ به، بل يُقصَدُ حِكايةُ حُصولِه؛ لأنَّه إذا حصَلَ حصَلَ أثَرُه، كقولِه تعالى: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠][3]. أو لم يأْتِ التَّركيبُ: (قِيلَ له)؛ لانصبابِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

الغَرَضِ إلى المَقولِ وعِظَمِه، لا إلى المَقولِ له، مع كَونِه معلومًا[١].

- وإذ لَمْ يُقَصَّ في المثَلِ أنَّه غادَرَ مَقامَه الَّذي قام فيه بالموعظةِ، كان ذلك إشارةً إلى أنَّه مات في مَقامِه ذلك، ويُفهَمُ منه أنَّه مات قتيلًا في ذلك الوقتِ أو بإثْرِه. وإنَّما سُلِكَ في هذا المعنى طَريقُ الكِنايةِ، ولم يُصرَّحْ بأنَّهم قتَلوه؛ إغماضًا لهذا المعنى عن المشركينَ؛ كَيْلا يَسُرَّهم أنَّ قَومَه قتَلوه، فيَجْعَلوه مِن جُملةِ ما ضُرِبَ به المثَلُ لهم وللرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَطْمَعوا فيه أنَّهم يَقتُلون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهذه الكِنايةُ لا يَفهَمُها إلَّا أهلُ الإسلامِ الَّذين تقرَّرَ عندَهم التَّلازُمُ بيْنَ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ ودُخولِ الجنَّةِ، أمَّا المشرِكون فيَحسَبون أنَّ ذلك في الآخرةِ. وقد تكونُ في الكلامِ البليغِ خَصائصُ يَختَصُّ بنَفْعِها بعضُ السَّامِعينَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بائتلافِ الفاصلةِ[٣] مع ما يدُلُّ عليه سائرُ الكلامِ؛ فإنَّ ذِكرَ الجنَّةِ مهَّدَ لِفاصِلَتِها، وهو جُملةٌ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ ماذا قال حينَ غَمَره الفرَحُ بدُخولِ الجنَّةِ، والمعنى: أنَّه لم يُلْهِه دُخولُه الجنَّةَ عن حالِ قَومِه؛ فتَمنَّى أنْ يَعلَموا ماذا لَقِيَ مِن ربِّه؛ لِيَعلَموا فَضيلةَ الإيمانِ فيُؤمِنوا، وما تَمنَّى هَلاكَهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) ائتلافُ الفاصلةِ أو التمكينُ: هو أن يُمَهَّدَ قبلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصلةُ مُمَكَّنةً في مكانها، مُستقِرَّةً في قرارِها، مُطمئِنَّةً في موضعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تَعلُّقًا تامًّا، بحيثُ لو طُرِحتْ لاختلَّ المعنى، واضطرَب الفَهمُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

ولا الشَّماتةَ بهم؛ فكان مُتَّسِمًا بكَظمِ الغَيظِ، وبالحِلمِ على أهْلِ الجهلِ[(١)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ أي: بأيِّ شَيءٍ غَفَرَ لي ربِّي، يُرِيدُ به تَفخيمَ شأنِ المُهاجَرةِ عن دِينِهم، والمُصابَرةِ على أذيَّتِهم[(٢)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ أُدخِلَت الباءُ على مَفعولِ ﴿يَعْلَمُونَ ﴾ السَّابقِ؛ لِتَضمينِه معنى: (يُخبَرون)؛ لأنَّه لا مَطمَعَ في أنْ يَحصُلَ لهم عِلمُ ذلك بالنَّظرِ والاستِدلالِ[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١).

الآيات (٢٨-٣٢)

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿خَٰمِدُونَ﴾: أي: مَيِّتونَ هالِكونَ، وأصلُ (خمد): يدُلُّ على سُكونِ الحَركةِ، والسُّقوطِ(١).

﴿يَٰحَسۡرَةً﴾: الحسرةُ: التَّلهُّفُ والاغتِمامُ على ما فاتَ ولا يمكِنُ ارتجاعُه، وهي أشدُّ النَّدامةِ، وأصلُ (حسر): كشْفُ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ(٢).

﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقَرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المَقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غير مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شَيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨١) و(١٨/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

(كم) هنا خَبَرِيَّةٌ في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، والتَّقديرُ: كثيرًا من القرونِ أهلَكْنا. وهي مُعَلِّقةٌ لـ﴿يَرَوْا﴾ عن العمَلِ ذَهابًا بالخَبريَّةِ مذهَبَ الاستِفهاميَّةِ. وقيل: (كم) استفهاميَّةٌ، وعلى كُلٍّ فالجُملةُ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ سَدَّت مَسَدَّ مَفعولَي ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنَّ الرُّؤيةَ عِلميَّةٌ، و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مَصدَرٌ مُؤوَّلٌ في موضعِ نَصبٍ، بَدَلٌ من محلِّ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على تقديرِ: ألم يَرَوا أنَّ القُرونَ الَّذين أهلَكْناهم أنَّهم إليهم لا يَرجِعونَ. وقيل: المصدرُ المؤوَّلُ في محلِّ نَصبٍ على نزعِ الخافِضِ متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: بأنَّهم، وكأنَّه قيل: أهلَكْناهم بأنَّهم لا يَرجِعونَ، أي: بهذا الضَّربِ مِن الهلاكِ. وقيل: المصدَرُ المؤوَّلُ مَعمولٌ لِفعلٍ محذوفٍ دَلَّ عليه السِّياقُ، والمعنى: قَضَيْنا وحَكَمْنا أنَّهم لا يَرجِعونَ(١).

قَولُه تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

(إنْ) نافيةٌ، و﴿كُلٌّ﴾ مُبتدأٌ وتنوينُه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى (إلَّا) الاستثنائيَّةِ، و﴿جَمِيعٌ﴾ خبَرُ المبتدأِ ﴿كُلٌّ﴾، و﴿لَّدَيْنَا﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(١) يُنظر: ((الكتاب لسيبويه)) (٣/ ١٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٥)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٣/ ٣٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٦٠)، ((مغني اللبيب- مع حاشية الأمير)) (١/ ١٥٧، ١٥٨)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٥).

بـ﴿جَمِيعٌ﴾؛ لأنَّه بمعنى مَفعول، أي: مجموعونَ، أو مُتعَلِّقٌ بـ (مُحضَرون)، و (مُحْضَرُونَ) خبَرٌ ثانٍ لـ (كُلٌّ)، أو نعتٌ لـ ﴿جَمِيعٌ﴾ وجُمِعَ على المعنى، والمعنى: ما كُلُّهم إلَّا مجموعونَ لدينا، مُحضَرون للحِسابِ والجزاءِ. وقُرِئَ ﴿لَمَا﴾ بالتَّخفيفِ[1]؛ وعليه فـ (إنْ) مُخفَّفةٌ مِن الثَّقيلةِ، واللَّامُ في ﴿لَمَا﴾ فارقةٌ، و(ما) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: وإنَّ الشَّأنَ كُلٌّ لَجميعٌ لدينا مُحضَرونَ، وهذا مَذهَبُ البصريِّينَ، وذهب الكوفيُّونَ إلى أنَّ (إنْ) نافيةٌ، واللَّامُ في ﴿لَمَا﴾ بمَعنى (إلَّا)، و (ما) مزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى كما في قِراءةِ التَّشديدِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما نزَل بأصحابِ القريةِ مِن عذابٍ أهلَكهم: وما أنزَلْنا على قَومِ ذلك الرَّجُلِ المؤمِنِ -بعدَ أن قتَلوه- ملائكةً من السَّماءِ لإهلاكِهم، وما كُنَّا مُنزِلينَ؛ فما كانت عُقوبتُهم إلَّا صَيحةً واحِدةً، فإذا هم ميِّتون هامِدونَ! يا حَسرةً على العِبادِ؛ فما يأتيهم في الدُّنيا مِن رَسولٍ إلَّا استَهزؤوا به!

ألم يَرَوْا أنَّا أهلَكْنا كثيرًا مِن الأُمَمِ السَّابقةِ عليهم؛ بسَبَبِ إصرارِهم على كُفرِهم، واستِهزائِهم برُسُلِهم، وأنَّ هؤلاء المُهلَكينَ لا يَرجِعون إليهم؟! وما مِن أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا وستُحضَرُ إلينا يومَ القيامةِ؛ لِنُحاسِبَها على أعمالِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾.

(١) قرأها بالتَّشديدِ: ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ، والباقون بتخفيفِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٩٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّن تعالى حالَ النَّاصحِ الشَّهيدِ، ودُخولَه الجنَّةَ- أردَف ذلك ذِكرَ حالِ المتخَلِّفينَ المُخالِفينَ له(١).

وأيضًا فهو رُجوعٌ إلى قِصَّةِ أصحابِ القريةِ بعدَ أن انقَطَعَ الحديثُ عنهم بذِكْرِ الرَّجُلِ المؤمنِ الَّذي جاءَ مِن أقصَى المدينةِ ناصحًا لهم، وكان هذا الرُّجوعُ بمُناسَبةِ أنَّ القومَ قومُ ذلك الرَّجُلِ(٢).

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وما أنزَلْنا على قَومِ الرَّجُلِ المؤمِنِ -مِن بَعدِ قَتلِهم له- مَلائِكةً مِنَ السَّماءِ لإهلاكِهم، وما كُنَّا مُنزِلينَ لهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٨)، ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨، ٩٩).

قيل: ما أنزَلَ الله جُندًا مِن السَّماءِ لإهلاكِهم؛ لأنَّهم أهْوَنُ مِن ذلك وأحقرُ، والأمرُ كان أيسَرَ مِن ذلك. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٩).

وقال الشوكاني: (﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾... لِسَبْقِ قَضائِنا وقَدَرِنا بأنَّ إهلاكَهم بالصَّيحةِ لا بإنْزالِ الجُنْدِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢١).

وقيل: معنى الآيةِ: ما أنزَلْنا عليهم مِن رسالةٍ مِن السَّماءِ ولا نَبيٍّ بعدَ قَتلِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢١).

قال ابنُ جُزَي: (ولَفظُ الجُندِ ألْيَقُ بالمعنى الأوَّلِ [أي: إنزالِ ملائكةٍ لإهلاكِهم]، وكذلك ذِكرُ الصَّيحةِ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١).
=

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾.

أي: ما كانت عُقوبةُ أصحابِ القَريةِ إلَّا صَيحةً واحِدةً بلا تكرارٍ؛ فإذا هم مَيِّتونَ هامِدونَ[1].

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾.

أي: يا حَسرةً على العِبادِ[2]؛ فإنَّهم لا يأتيهم في الدُّنيا رَسولٌ مِن رُسُلِ اللهِ إلَّا

= وقال ابن جرير: (وذلك أنَّ الرِّسالةَ لا يُقالُ لها جُنْدٌ... وأنَّ الرُّسُلَ مِن بني آدمَ لا يُنْزَلونَ مِن السَّماءِ، والخبرُ في ظاهرِ هذه الآيةِ عن أنَّه لم يُنْزِلْ مِن السَّماءِ بعدَ مَهْلِك هذا المؤمنِ على قومِه جُندًا، وذلك بالملائكةِ أشْبَهُ منه ببَني آدَمَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨) بتصرف يسير.

وقال أبو حيَّان: (وأخبَرَ تعالى أنَّه لم يُنْزِلْ عليهم لإهلاكِهم جُندًا مِنَ السَّماءِ، كالحجارةِ والرِّيحِ وغيرِ ذلك). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٩).

وقال أبو السعود: (﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما صحَّ في حِكمتِنا أنْ نُنزِلَ لإهلاكِ قَومِه جُندًا من السَّماءِ؛ لِما أنَّا قَدَّرْنا لكلِّ شيءٍ سَبَبًا؛ حيثُ أهلَكْنا بعضَ مَن أهلَكْنا من الأُمَمِ بالحاصبِ، وبعضَهم بالصَّيحةِ، وبعضَهم بالخَسفِ، وبعضَهم بالإغراقِ، وجعَلْنا إنزالَ الجُندِ مِن خصائصِك في الانتِصارِ مِن قَومِك. وقيل: (ما) موصولةٌ مَعطوفةٌ على ﴿جُندٍ﴾، أي: وما كنَّا مُنزِلينَ على مَن قَبْلَهم مِن حِجارةٍ وريحٍ وأمطارٍ شديدةٍ وغيرِها). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦).

(٢) قال الشوكاني: (قال ابنُ جرير: المعنى: يا حسرةً مِن العبادِ على أنفُسِهم، وتَنَدُّمًا وتَلَهُّفًا في استهزائِهم برُسُلِ اللهِ، ... وقال الضَّحَّاكُ: إنَّها حَسرةُ الملائكةِ على الكُفَّارِ حينَ كذَّبوا الرُّسُلَ. وقيل: هي مِن قَولِ الرَّجُلِ الَّذي جاء مِن أقصى المدينة. وقيل: إنَّ القائلَ: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ هم الكُفَّارُ المكَذِّبونَ، والعِبادُ: الرُّسُلُ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا رأَوُا العذابَ تحسَّروا على قَتلِهم، وتَمَنَّوُا الإيمانَ. قاله أبو العاليةِ، ومجاهِدٌ. وقيل: إنَّ التَّحسُّرَ عليهم هو مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بطريقِ الاستِعارةِ؛ لتعظيمِ ما جَنَوْهُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: يا ندامةً للعبادِ في الآخرةِ على أنفُسِها في استهزائِهم برُسُلِ اللهِ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير =

وَقَعوا في الاستِهزاءِ به[1]!

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سبحانَه حالَ الأوَّلينَ؛ نبَّه الحاضِرينَ[2]، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

= مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٧).

وقيل: المرادُ: أنَّ التحَسُّرَ واقعٌ عليهم مِن غيرِهم؛ فطِباعُ كُلِّ بشَرٍ توجِبُ عندَ سماعِه حالَهم وعذابَهم على الكُفرِ وتضييعِهم أمرَ اللهِ تعالى: أن يُشفِقَ ويتَحَسَّرَ على العبادِ؛ فهم أحِقَّاءُ بأن يَتحسَّرَ عليهم المتحَسِّرون، ويتلهَّفَ على حالِهم المتلَهِّفون. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٢).

وقيل: هو مِن كلامِ اللهِ تعالى، واقعٌ موقعَ الرِّثاءِ للأُمَمِ المكَذِّبةِ لرُسُلِها. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

قال ابن عثيمين: (وقيل: إنَّ التَّحَسُّرَ من اللهِ عزَّ وجَلَّ، لكِنْ ليس معناه أنَّه يتَّصِفُ به، بل المعنى أنَّه يُبيِّنُ حَسرةَ العبادِ على أنفُسِهم، يقولُ: يا حَسرةً واقِعةً على العِبادِ؛ فتكونُ «على» قريبةً من معنى «مِن»، يعني: أنَّ اللهَ تعالى يُبيِّنُ أنَّ هؤلاء العبادَ المكَذِّبينَ سوف يَتحَسَّرون على تكذيبِهم، وهذا أقرَبُ إلى السِّياقِ؛ لِقَولِه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ فالكلامُ كلامُ اللهِ، لكِنْ لَمَّا كان التَّحَسُّرُ نَدَمًا وألَمًا صار اللهُ تعالى مُنَزَّهًا عنه؛ فوجَبَ أن يكونَ المرادُ: يا حسرةً واقِعةً عليهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٦).

وقيل: لا مُتَحَسِّرَ أصلًا في الحقيقةِ؛ إذِ المقصودُ بيانُ أنَّ ذلك وقتُ طلَبِ الحسرةِ حيث تَحَقَّقَتِ النَّدامةُ عندَ تَحقُّقِ العذابِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٥).

أي: ألم يَرَوْا[١] الأُمَمَ الماضيةَ الكثيرةَ الَّتي أهلَكْناها؛ بسَبَبِ تكذيبِهم، أو استِهزائِهم برُسُلِ اللهِ: كيف لم تكُنْ لهم رَجعةٌ إليهم[٢]؟

(١) ممَّن اختار أنَّهم كفَّارُ مكَّةَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٠).
وقيل: المرادُ: أهلُ مكَّةَ وغيرُهم مِن مُشرِكي العربِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: يحيى ابنُ سلام، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٢).
واختار ابنُ عاشور أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى العِبادِ كما يقتضيه تَناسُقُ الضَّمائرِ، ويَتعيَّنُ أن تُخَصَّ منه أوَّلُ أُمَّةٍ كذَّبَتْ رَسولَها، وهم قومُ نوحٍ؛ فإنَّهم لم يَسبِقْ قَبْلَهم هلاكُ أُمَّةٍ كذَّبَتْ رسولَها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٣).
قيل: معنى ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أنَّ المُهلَكينَ لا يَرجِعونَ إلى الدُّنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: يحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٣).
قال الرازي: (قَولُه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أُهلِكوا إهلاكًا لا رُجوعَ لهم إلى مَن في الدُّنيا.
وثانيهما: هو أنَّهم لا يَرجِعونَ إليهم، أي: الباقونَ لا يَرجِعونَ إلى المُهلَكينَ بنَسَبٍ ولا وِلادةٍ، يعني: أهْلَكْناهم وقَطَعْنا نَسْلَهم، ولا شكَّ في أنَّ الإهلاكَ الَّذي يكونُ مع قطعِ النَّسلِ أتَمُّ وأعَمُّ. والوجهُ الأوَّلُ أشهرُ نَقْلًا، والثَّاني أظهرُ عقلًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١).
وقيل: المعنى: أنَّهم إلى رُسُلِ اللهِ -الَّذين استَهزؤوا بهم- لا يَرجِعونَ عن مذاهِبِهم الخبيثةِ، ولا يَخصُّونهم بالاتِّباعِ، فالمعنى: ألم يَرَ المكذِّبون المستهزِئون بالرُّسُلِ أنَّ القرونَ الكثيرةَ الَّتي أهلكها اللهُ بسبب ذلك: لا يَرجِعون إلى رُسُلِهم فيتَّبِعونهم، ويَترُكون تكذيبَهم والاستهزاءَ =

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كثيرٌ مِن أهلِ الجَهلِ وذَوي الحَميَّةِ والأنَفةِ لا يُبالون بالهَلاكِ في مُتابعةِ الهوى؛ اعتمادًا على أنَّ مَوتةً واحِدةً في لحظةٍ يَسيرةٍ أهْوَنُ مِن حَملِ النَّفْسِ على ما لا تُريدُ، فيكونُ لهم في كُلِّ حينٍ مَوتاتٌ- أخبَرَ تعالى أنَّ الأمرَ غيرُ مُنقَضٍ بالهلاكِ الدُّنيويِّ، بل هناك مِن الخِزيِ والذُّلِّ والهَوانِ والعُقوبةِ والإيلامِ ما لا يَنقضي أبدًا، فقال[١]:

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: إنَّ كُلَّ الأممِ ستُحضَرُ يومَ القيامةِ عندَ اللهِ مُجتَمِعينَ للحِسابِ والجَزاءِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَنظُرَ ويَعتبِرَ؛ بحيثُ إذا نَظَرَ في عواقبِ النَّاسِ اتَّخَذَ مِن ذلك عِبرةً؛ لأنَّ الاستِفهامَ هنا -مع كَونِه للتَّقريرِ- مُفيدٌ للتَّوبيخِ؛

= بهم، أفلا يَخْشَوْنَ أن يَقَعَ بهم مِن الهلاكِ مِثلُ ما وقع للسَّابقينَ؛ لِمُخالفتِهم لِرُسُلِهم؟ قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١١٨-١٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤، ٥٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢١، ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٦).

قيل: كَلِمةُ ﴿ كُلٌّ ﴾ تُفيدُ أنَّ الإحضارَ مُحيطٌ بهم بحيث لا يَنفلِتُ فريقٌ منهم، وكلمةُ ﴿ جَمِيعٌ ﴾ تُفيدُ أنَّهم مُحضَرونَ مُجتَمِعينَ؛ فليست إحدى الكَلِمَتينِ بمُغْنيةٍ عن ذِكرِ الأُخرى. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٦).

لأنَّ الواجِبَ على مَن نَظَر في عاقبةِ المكذِّبينَ أن يَرتدِعَ عن الكَذِبِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وُجوبُ الاستِعدادِ لهذا اليوم؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يُخبِرْنا به لمجرَّدِ الاطِّلاعِ، ولكِنَّه أخبَرَنا به مِن أجْلِ أن نستعِدَّ له حتَّى نكونَ على أُهْبةٍ لِمَا سنُحاسَبُ عليه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ الملائكةَ مَحَلُّهُم السَّمَواتُ -وهذا هو الأصلُ-، لكنَّهم قد يَنْزِلُون إلى الأرضِ، كما في قولِه تعالى في لَيلةِ القَدْرِ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، وكالملائكةِ الَّذين يَحفظون بني آدمَ، والَّذين يَكتُبون أعمالَهم، والَّذين يَكتُبون المُتَقَدِّمينَ إلى الجُمُعةِ -على أبوابِ المساجِدِ-، وما أشْبَهَ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، وقولُه: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إنزالَ الجُنودِ مِن عَظائمِ الأمورِ الَّتي لا يُؤهَّلُ لها إلَّا مِثلُ النَّبيِّ محمَّدٍ الَّذي أُنزِلَت له الملائكةُ يومَ بَدْرٍ والأحزابِ، وهذا إشارةٌ إلى تَفضيلِ اللهِ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بكلِّ شَيءٍ على كِبارِ الأنبياءِ وأُولي العَزْمِ مِن الرُّسلِ، فَضلًا عن غَيرِهم[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ بيانُ ذُلِّ كُلِّ شيءٍ لِعَظَمتِه سُبحانَه؛ بحيثُ لا يُكرِّرُ ولا يُعيدُ ما أرادَه؛ لهذا أكَّدَها بـ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ لبيانِ أنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

لم يَحتاجوا إلى إعادةِ الصَّيحةِ مرَّةً ثانيةً، وهكذا جميعُ ما أمَرَ اللهُ تعالى به كَوْنًا؛ فإنَّه لا يَحتاجُ إلى إعادةٍ؛ لِقَولِه تعالى في سورةِ (القمرِ): ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[1] [القمر: ٥٠].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ نَصٌّ صريحٌ في تكذيبِ الأُمَمِ لجَميعِ الرُّسُلِ؛ لِما تقرَّر في الأصولِ مِن أنَّ النَّكِرةَ في سياقِ النَّفيِ إذا زِيدَتْ قبْلَها «مِن» فهي نَصٌّ صريحٌ في عُمومِ النَّفيِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ردٌّ على القائلينَ بالرَّجْعةِ[3]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ السَّامعَ يَتشوَّفُ إلى مَعرفةِ ما كان مِن هذا الرَّجُلِ المؤمنِ الَّذي جاء مِن أقْصى المدينةِ ناصحًا لِأهْلِها، ومِن أمْرِ قَومِه الَّذين نَصَحهم فلمْ يَنتصِحوا؛ فلمَّا بُيِّن للسَّامعِ ما كان مِن أمْرِه، عُطِفَ عليه بَيانُ ما كان مِن أمْرِ القومِ بعْدَه، وافتتاحُ قِصَّةِ عِقابِهم في الدُّنيا بنَفْيِ صُورةٍ مِن صُوَرِ الانتقامِ، تَمهيدٌ للمَقصودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٠).

والرَّجعةُ: مذهبٌ يؤمِنُ بالرُّجوعِ إلى الدُّنيا بعدَ الموتِ، أو برُجوعِ الإمامِ بعدَ مَوتِه أو غَيبتِه، أوَّلُ مَن قال به عبدُ اللهِ بنُ سَبَأٍ. يُنظر: ((مقالات الإسلاميين)) للأشعري (١/ ٣٢، ٥٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ٨٦٢).

وقد اعترَض البِقاعي على الاستِدلالِ بالآيةِ على ذلك. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٩).

مِن أنَّهم ما حلَّ بهم إلَّا مِثلُ ما حلَّ بأمثالِهم مِن عَذابِ الاستئصالِ[١]. أو كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لاحتقارِ أمْرِهم، أي: لا حاجةَ إلى إرسالِ جُنودٍ لهم؛ فأقَلُّ شَيءٍ كافٍ لإبادتِهم، واستِئصالِ شأْفَتِهم[٢].

- وأسنَد الفعلَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ إلى نفْسِه بلفظِ التَّعظيمِ؛ لأنَّ العذابَ هو مِن بابِ الهَيبةِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ صِلةٌ في الظَّرفِ؛ لِتأكيدِ اتِّصالِ المظروفِ بالظَّرفِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِن جُندٍ﴾ مُؤكِّدةٌ لِعُمومِ ﴿جُندٍ﴾ في سِياقِ النَّفيِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيَّةٌ، وفي الإتيانِ بحَرْفِ (مِن) ثلاثَ مرَّاتٍ مع اختلافِ المعنى مُحسِّنُ الجِناسِ[٤].

- وفي هذا تَعريضٌ بالمشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ إذ قالوا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، أي: تأْتيَ باللهِ الَّذي تَدَّعي أنَّه أرسَلَك ومعه جُندُه مِن الملائكةِ؛ لِيَثأرَ لك، فجُملةُ ﴿وَمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥، ٦).

والجِناسُ: هو تشابُهُ لَفظَينِ في النُّطقِ، واختلافُهما في المعنى، وهو مِن المحاسنِ اللَّفظيَّةِ، وفنٌّ بديعٌ في اختيارِ الألفاظِ الَّتي تُوهِمُ في البَدْءِ التَّكريرَ، لكنَّها تُفاجِئُ بالتَّأسيسِ واختِلافِ المعنى. ويَنقسِمُ الجِناسُ إلى نوعَينِ: لَفظيٍّ، ومعنويٍّ، وكلٌّ منهما يَندرِجُ تحتَه أنواعٌ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٠ - ٤٥٢)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٥، ٤٩٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٥ وما بعدها).

﴿ كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ نَوعَيِ العِقابِ المنفيِّ والمُثبَتِ؛ لِقَصدِ الرَّدِّ على المشركينَ بأنَّ سُنَّةَ اللهِ تعالى لم تَجْرِ بإنزالِ الجُنودِ على المكذِّبينَ، وشأْنُ العاصينَ أدْوَنُ مِن هذا الاهتمامِ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ الصَّيحةُ: المرَّةُ مِن الصِّياحِ، بوَزنِ فَعلةٍ؛ فوَصْفُها بـ﴿ وَاحِدَةً ﴾ تأْكيدٌ لِمَعنى الوَحدةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المُرادَ الجِنسُ المفرَدُ مِن بيْنِ الأجناسِ[(٢)].

- وأكَّدَ أمْرَ الصَّيحةِ، وحقَّقَ وَحْدتَها بقولِه: ﴿ وَاحِدَةً ﴾، أي: لِحَقارةِ أمْرِهم عِندَنا، ثمَّ زادَ في تَحقيرِهم ببَيانِ الإسراعِ في الإهلاكِ بقولِه: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾، أي: ثابتٌ لهم الخُمودُ، كأنَّهم ما كانتْ لهم حَرَكةٌ يومًا مِن الدَّهرِ[(٣)].

- قولُه: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ مَجيءُ (إذا) الفُجائيَّةِ في الجُمْلةِ المُفرَّعةِ على ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾؛ لإفادةِ سُرعةِ الخُمودِ إليهم بتلك الصَّيحةِ، وفيه إيجازٌ بَديعٌ يُشيرُ إلى حَدَثٍ عظيمٍ حدَثَ بأهْلِ تلك القريةِ عَقِبَ دَعوةِ المرسَلينَ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ شبَّهَهم بالنَّارِ الخامدةِ الَّتي صارتْ رَمادًا؛ رَمْزًا إلى أنَّ الحيَّ كالنَّارِ السَّاطعةِ في الحَرَكةِ والالتهابِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٦ - ١١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

والمَيتَ كالرَّمادِ[١]. وفي ذلك تَوعُّدٌ لِقُريشٍ أنْ يُصِيبَهم ما أصابَهم؛ إذ هم المَضروبُ لهم المثَلُ[٢].

- وذُكِرَت الصَّيحةُ مرَّتينِ؛ في قولِه: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾، وقولِه: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وليس بتَكرارٍ؛ لأنَّ الأُولى هي عقوبةُ أهلِ القريةِ، والثَّانيةَ هي النَّفخةُ الَّتي يَحْيا بها الخلْقُ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تَذْييلٌ، وهو مِن كَلامِ اللهِ تَعالى -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ- واقعٌ مَوقعَ الرِّثاءِ للأُمَمِ المُكذِّبةِ الرُّسُلَ، شامِلٌ للأُمَّةِ المقصودةِ بِسَوْقِ الأمثالِ السَّابقةِ مِن قَولِه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [يس: ١٣]، واطِّرادِ هذا السَّنَنِ القَبيحِ فيهم؛ فالتَّعريفُ في العِبادِ تَعريفُ الجِنسِ المُستعمَلِ في الاستِغراقِ، وهو استِغراقٌ ادِّعائيٌّ رُوعِيَ فيه حالُ الأغلَبِ على الأُمَمِ الَّتي يَأتيها رسولٌ؛ لعَدَمِ الاعتدادِ في هذا المَقامِ بقِلَّةِ الَّذين صدَّقوا الرُّسُلَ ونَصَروهم، فكأنَّهم كُلَّهم قد كذَّبوا[٤].

- قَولُه: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ...﴾ حرْفُ النِّداءِ للتَّنبيهِ على خَطَرِ ما بعْدَه؛ لِيُصْغيَ إليه السَّامِعُ، وهو أَوْكَدُ وأبلَغُ لِتَنبيهِ المُخاطَبِ بالنِّداءِ على المَطْلوبِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي =

- والتَّنكيرُ في قَولِه: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ دلَّ على شِدَّةِ تَحَسُّرِ العِبادِ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ -وذلك على قولٍ-؛ وأنَّها حَسرةٌ عَظيمةٌ؛ لأنَّ التَّنكيرَ يُفيدُ أحيانًا التَّعظيمَ والشِّدَّةَ[1].

- وجُملةُ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ...﴾ كَلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لِتَعليلِ التَّحسُّرِ عليهم؛ لأنَّ قَولَه: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ وإنْ كان قد وَقَعَ بعدَ ذِكْرِ أهْلِ القَريةِ؛ فإنَّه لَمَّا عُمِّمَ على جَميعِ العِبادِ حدَث إيهامٌ في وَجهِ العُمومِ، فوَقَعَ بيانُه بأنَّ جميعَ العِبادِ -على أحد الأقوالِ- مُساوونَ لِمَن ضُرِبَ بهم المَثَلُ ومَن ضُرِبَ لهم في تلك الحالةِ المُمثَّلِ بها، ولم تَنفَعْهم المَواعظُ والنُّذُرُ البالِغةُ إليهم مِن الرَّسولِ المُرسَلِ إلى كُلِّ أُمَّةٍ منهم، فهَلَكوا؛ فعُلِمَ وَجْهُ الحَسْرةِ عليهم إجْمالًا مِن هذه الآيةِ، ثمَّ تَفصيلًا مِن قَولِه بعدُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

= على الكشاف)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨).

قال الزَّجَّاجُ: (إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحسرةِ، والحسرةُ ممَّا لا يُجيبُ؟ فالفائدةُ في مُناداتِها كالفائدةِ في مُناداةِ ما لا يعقلُ؛ لأنَّ النِّداءَ بابُ تنبيهٍ. إذا قلتَ: يا زَيْدُ، فإن لم تكُنْ دَعَوْتَه لِتُخاطِبَه لِغيرِ النِّداءِ فلا معنى للكلامِ، إنَّما تقولُ: يا زَيدُ، فتُنَبِّهُه بالنِّداءِ، ثمَّ تقولُ له: فعَلْتَ كذا وافعَلْ كذا، وما أحبَبْتَ ممَّا له فيه فائدةٌ، ألَا ترى أنَّك تقولُ لِمَن هو مُقْبِلٌ عليك: «يا زَيدُ، ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!»، ولو قلتَ له: «ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!» كنتَ قد بلَغْتَ في الفائدةِ ما أفهَمْتَ به، غيرَ أنَّ قولَك: «يا زَيدُ» أوْكَدُ في الكلامِ، وأبلَغُ في الإفهامِ. وكذا إذا قلتَ للمُخاطَبِ: «أنا أعجَبُ ممَّا فَعَلْتَ» فقد أفَدْتَه أنَّك مُتعجِّبٌ، ولو قلتَ: «واعَجَباه ممَّا فعلْتَ، ويا عَجَباه أتَفْعَلُ كذا وكذا!» كان دعاؤُك العجَبَ أبلَغَ في الفائدة، والمعنى: يا عَجَبُ أقْبِلْ؛ فإنَّه مِن أوقاتِك، وإنَّما نداءُ العَجَبِ تنبيهٌ لِتمكُّنِ عِلمِ المُخاطَبِ بالتَّعجُّبِ مِن فِعلِه. وكذلك إذا قلتَ: «وَيْلٌ لِزَيدٍ، أو: وَيلَ زَيدٍ لِمَ فعَلَ كذا وكذا؟!» كان أبلَغَ. وكذلك في كتابِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ [هود: ٧٢]، وكذلك: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وكذلك: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٨).

أَهۡلَكۡنَا ﴾ [يس: ٣١] إلخ[(١)].

- وقيلَ: قَولُه: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ تَمثيلٌ لِقُريشٍ، وهُم الَّذين عاد عليهم الضَّميرُ في قَولِه: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا ﴾[(٢)].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالرَّسولِ المُشعِرِ باستِفظاعِ الاستِهزاءِ به مع تأتِّي الفاصلةِ بهذا التَّقديمِ، فحَصَلَ منه غَرَضانِ: مِن علمِ المعاني، ومِن علمِ البَديعِ[(٣)]؛ فالتَّقديمُ والتَّأخيرُ مِن المعاني، والرِّعايةُ على الفاصلةِ مِن البديعِ.

٤- قولُه تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ ﴾ بيانٌ لِجُملةِ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠]؛ لِما فيها مِن تَفْصيلِ الإجمالِ المُسْتفادِ منه؛ فإنَّ عاقِبةَ ذلك الاستِهزاءِ بالرَّسولِ كانت هَلاكَ المُستَهزِئينَ، فعَدَمُ اعتبارِ كُلِّ أُمَّةٍ كذَّبتْ رسولَها بعاقِبةِ المُكذِّبينَ قَبْلَها يُثيرُ الحَسْرةَ عليها وعلى نُظَرائِها كما أثارَها استِهزاؤُهم بالرَّسولِ، وقِلَّةُ التَّبصُّرِ في دَعْوتِه ونِذارتِه ودَلائِلِ صِدقِه[(٤)].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ إنكاريًّا، ونُزِّلتْ غَفلَتُهم عن إهْلاكِ القُرونِ مَنزلةَ عَدَمِ العِلمِ، فأُنكِرَ عليهم عَدَمُ العِلمِ بذلك، وهو أمْرٌ مَعلومٌ مَشهورٌ. ويجوزُ كَونُ الاستِفهامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨، ٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَقريريًّا، بُنِيَ التَّقريرُ على نَفيِ العِلمِ بإهلاكِ القرونِ؛ استِقصاءً لِمَعذِرَتِهم حتَّى لا يَسَعَهم إلَّا الإقرارُ بأنَّهم عالِمونَ، فيَكونَ إقرارُهم أشَدَّ لُزومًا لهم؛ لأنَّهم استُفْهِموا على النَّفيِ، فكان يَسَعُهم أنْ يَنفُوا ذلك[١].

- قَولُه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ (كَمْ) مُفادُها كَثرةٌ مُبهَمةٌ فُسِّرتْ بقَولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾، وقولُه: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ قيل: بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُمْلةِ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، وفائِدةُ هذا البَدَلِ تَقريرُ تَصْويرِ الإهْلاكِ؛ لزِيادةِ التَّخويفِ، ولاستِحضارِ تلك الصُّورةِ في الإهْلاكِ، أي: إهْلاكًا لا طماعيةَ معه لِرُجوعٍ إلى الدُّنيا؛ فإنَّ ما يَشتمِلُ عليه الإهلاكُ مِن عَدَمِ الرُّجوعِ إلى الأهْلِ والأحبابِ ممَّا يَزيدُ الحَسْرةَ اتِّضاحًا[٢].

- قولُه: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَرۡجِعُونَ﴾، وقُدِّم على مُتعلَّقِه؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ بَيانٌ لرُجوعِ الكُلِّ إلى المَحْشرِ، بعدَ بَيانِ عَدَمِ الرُّجوعِ إلى الدُّنيا[٤].

- وهو مَعطوفٌ على جُمْلةِ ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [يس: ٣١]، واقعٌ مَوقعَ الاحتِراسِ مِن توهُّمِ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ أنَّ قَولَه: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ مُؤيِّدٌ اعتِقادَهم انتِفاءَ البَعْثِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١).

- وجاءتْ هذه الجُملةُ بعدَ ذِكرِ الإهْلاكِ تَبْيينًا أنَّه تعالى ليس مَن أهْلَكَه يُتْرَكُ، بل بعدَ إهْلاكِهم جَمْعٌ وحِسابٌ، وثَوابٌ وعِقابٌ؛ ولذلك أُعقِبَ هذا بما يدُلُّ على الحَشرِ مِن قَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ وما بعدَه مِن الآياتِ[(١)].

- قَولُه: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: كُلُّ القُرونِ مُحضَرونَ لدينا مُجتَمِعينَ، أي: ليس إحضارُهم في أوْقاتٍ مُختلِفةٍ، ولا في أمْكنةٍ مُتعدِّدةٍ؛ فكلمةُ (كُلٌّ) أفادتْ أنَّ الإحضارَ مُحيطٌ بهم بحيث لا يَنفلِتُ فريقٌ منهم، وكلمةُ ﴿جَمِيعٌ﴾ أفادتْ أنَّهم مُحضَرونَ مُجتمِعينَ، فليست إحدى الكلمتَينِ بمُغْنيةٍ عن ذِكرِ الأُخرَى، ألَا ترى أنَّه لو قيلَ: وإنَّ أكثَرَهم لَمَّا جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ، لَمَا كان تَنافٍ بيْنَ أكثَرِهم وبيْنَ (جَميعِهم)، أي: أكثَرُهم يَحضُرُ مُجتمِعينَ، فارتَفَعَ ﴿جَمِيعٌ﴾ على الخَبَريَّةِ[(٢)].

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿لَّدَيْنَا﴾ على ﴿مُحْضَرُونَ﴾؛ لمُراعاةِ الفَواصِلِ[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١ - ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

الآيات (٣٣-٣٦)

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَءَايَةٌ﴾: أي: عَلامَةٌ، ودليلٌ، وحُجَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ، وكمالِ قدرتِه، وتُطلَقُ الآيةُ أيضًا على العَجيبةِ، وأصلُ (أيي): النَّظَرُ[1].

﴿وَفَجَّرْنَا﴾: أي: أنْبَعْنا، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، يُقالُ: فَجَرْتُه فانْفَجَر، وفَجَّرْتُه فتفَجَّرَ، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تفتُّحٍ في الشَّيءِ[2].

﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: أي: الأجناسَ والأصنافَ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٥) و(١٩/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١). قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَقُ إطلاقَين: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا من آياتِه، جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الرَّبُّ وحْدَه، المعبودُ وحْدَه، كقولِه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: لَعلاماتٍ ودَلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الرَّبُّ المستحِقُّ أنْ يُعبَدَ وحْدَه. الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَقُ الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشَّرعيَّةِ الدِّينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، =

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى الأدلَّةَ الدَّالَّةَ على وحدانيَّته وقدرتِه، فيقولُ: ومِن العَلاماتِ الواضِحةِ لهؤلاء المُشرِكينَ على قُدرتِنا على إحياءِ الموتى: أنَّا نُنزِّلُ الماءَ على الأرضِ الجَدباءِ، فتَحيا وتُخرِجُ ألوانًا وأصنافًا مِن الحُبوبِ الَّتي يأكُلونَها، وأنَّنا جعَلْنا فيها بَساتينَ مِن النَّخيلِ والأعنابِ، وفجَّرْنا فيها مِن عُيونِ الماءِ؛ ليأكُلوا مِن الثِّمارِ الَّتي جعَلْناها لهم، ولم تَصنَعْها أيديهم؛ أفلا يَشكُرُ النَّاسُ رَبَّهم الَّذي أوجَدَ لهم تلك النِّعَمَ.

تَنزَّهَ اللهُ -تعالى- عمَّا لا يَليقُ به؛ الَّذي خلَقَ الأنواعَ والأصنافَ كُلَّها، مِن النَّباتاتِ، ومِن النَّاسِ، وممَّا لا يَعلَمونَه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال: ﴿ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ ﴾ [يس: ٣٢] كان ذلك إشارةً إلى الحَشرِ، فذكَرَ ما يدُلُّ على إمكانِه؛ قَطعًا لإنكارِهم واستِبعادِهم، وإصرارِهم وعِنادِهم، فقال: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا ﴾ كذلك نُحيي الموتى(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ حالَ المُرسَلينَ وإهلاكَ المكَذِّبينَ، وكان شُغلُهم التَّوحيدَ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ عليه، وبدأ بالأرضِ؛ لِكَونِها مكانَهم، لا مُفارقةَ لهم منها عندَ الحَركةِ والسُّكونِ(٢).

= ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٢).

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لكفَّارِ قريشٍ[١] دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه على بَعثِ الموتَى، وعلى غيرِ ذلك، وهي إحياءُ اللهِ الأرضَ المُجدِبةَ، وإخراجُه منها أنواعًا مِن الحُبوبِ الَّتي يتغذَّى النَّاسُ عليها[٢].

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ -الَّتي كانت مَيْتةً فأحْيَيْناها- بَساتينَ مِن أشجارِ النَّخيلِ والأعنابِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٩].

﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الجنَّاتُ لا تَصلُحُ إلَّا بالماءِ، وكان مِن طَبعِ الماءِ الغَورُ في التُّرابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٣).

قال أبو حيَّان: (والضَّميرُ في ﴿لَهُمُ﴾ عائدٌ على كُفَّارِ قُريشٍ ومَن يجري مَجراهُم في إنكارِ الحشرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

والرُّسوبُ بشِدَّةِ السَّريانِ إلى أسفَلَ؛ فكان فَورانُه إلى جِهةِ العُلُوِّ أمرًا باهِرًا للعَقلِ، لا يكونُ إلَّا بقَسرٍ قاسرٍ حكيمٍ- قال[١]:

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾.

أي: وفجَّرْنا في الأرضِ مِن عُيونِ الماءِ[٢].

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: لِيَأكُلَ النَّاسُ مِن ثَمَرِه[٣]، ....

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) قيل: الضَّميرُ في ﴿ثَمَرِهِ﴾ يعودُ إلى الله تعالى، فهو مِن فِعْلِه وخَلْقِه. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّمخشريُّ، والنَّسفيُّ، وذكر الرَّازيُّ أنَّه القولُ المشهورُ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٤).

وقيل: يعودُ إلى الماءِ الَّذي فجَّره اللهُ تعالى مِن الأرضِ، أي: ليأكُلوا مِن الثَّمَرِ الحاصِلِ بالماءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

وقيل: المعنى: مِن ثَمَرِ ما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الجنَّاتِ والنَّخيلِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ جرير، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٠).

وما[1] ....

(١) قيل: (مَا) هنا اسمٌ موصولٌ بمعنى الَّذي، أي: لِيَأكُلوا أيضًا ممَّا صنَعَتْه أيديهم، بالغَرسِ والحَفرِ والزِّراعةِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ بما عَمِلَتْه أيديهم: ما يُتَّخَذُ مِن الثَّمَرِ؛ كالعصيرِ والدِّبْسِ وغيرِهما. وممَّن اختاره: البيضاوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩).

وجمَعَ الشَّوكانيُّ بين المعنيَينِ السابقين؛ فقال: (أي: لِيَأْكُلوا مِن ثَمَرِه، ويأْكُلوا مِمَّا عَمِلَتْه أيْديهم كالعصيرِ والدِّبْسِ ونحوِهما، وكذلك ما غَرَسوه وحَفَروه، على أنَّ «ما» موصولةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣).

وقيل (مَا) نافيةٌ، والمعنى: ليست تلك الثِّمارُ مِن صُنعِ أيديهم، وليست بحَولِهم وقوَّتِهم، ولكِنْ هي مِن فِعلِ اللهِ رحمةً بهم. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٥).

وقيل: الآيةُ صالحةٌ للمَعنيَينِ: أن تكونَ (ما) بمعنى (الَّذي)، وأن تكونَ نافيةً، ولا مانِعَ مِن حَملِها عليهما؛ فيَشمل قولُه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ما يَصْنَعُه النَّاسُ بأيديهم؛ كالعصيرِ والخبزِ وغيرِ ذلك، والمعنى الثَّاني: أنَّ أيدينَا لم تعملْ هذه الثَّمَراتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢١).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ «مَا» في قَولِه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ مَوصولةً مَعطوفةً على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، أي: ليأكُلوا مِن ثمَرِ ما أخرَجْناه، ومِن ثمَرِ ما عمِلَتْه أيديهم... وضميرُ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على هذا عائدٌ إلى اسمِ الموصولِ. ويجوزُ أن يكونَ «مَا» نافيةً، والضَّميرُ عائدٌ إلى ما ذُكِرَ مِن الحَبِّ والنَّخيلِ والأعنابِ، والمعنى: أنَّ ذلك لم يَخلُقوه... ويجوزُ أن يكونَ مِن حَذفِ المفعولِ؛ =

عَمِلَتْه أيديهم(١).

﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: أفلا يَشكُرُ النَّاسُ رَبَّهم الَّذي أوجَدَ لهم تلك النِّعَمَ(٢)؟

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرهم الله تعالى بالشُّكرِ، وشُكْرُ الله تعالى بالعبادةِ، وهم ترَكوها وعبَدوا غيرَه وأشرَكوا؛ قال تعالى(٣):

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾.

أي: تَنَزَّهَ اللهُ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ وجَميعِ النَّقائِصِ؛ الَّذي خلَقَ الأصنافَ كلَّها ممَّا تُنبِتُه الأرضُ مِن النَّباتاتِ والزُّروعِ والثِّمارِ والحبوبِ(٤).

= لإرادةِ العُمومِ، والتَّقديرُ: وما عَمِلَت أيديهم شيئًا مِن ذلك. وكِلا الحذفَينِ شائعٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤، ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

قال ابن عثيمين: (الشُّكرُ هو: القيامُ بطاعةِ المُنعِم، وصَرْفُ نِعَمِه فيما جعَلَها اللهُ له... والشُّكرُ مُتعَلَّقُه ثلاثةُ أشياءَ: القَلبُ، واللِّسانُ، والجوارِحُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: ومِن النَّاسِ أنفُسِهم، فخَلَق منهم ذُكورًا وإناثًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وممَّا لا يَعلَمُه النَّاسُ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكرِ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ وَبَّخَ مَن لا يَشكُرُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلُّ شَيءٍ يَنمو ويَتزايدُ تُسمِّيه العَرَبُ حَيًّا؛ ولذا يُسَمُّونَ النَّباتَ حَيًّا؛ لأنَّه

= قال القرطبي: (نزَّه نَفْسَه سُبحانَه عن قَولِ الكُفَّارِ؛ إذ عَبَدوا غيرَه مع ما رأَوْه مِن نِعَمِه وآثارِ قُدرتِه، وفيه تقديرُ الأمرِ، أي: سَبِّحوه ونَزِّهوه عمَّا لا يَليقُ به. وقيل: فيه معنى التَّعجُّبِ، أي: عَجبًا لهؤلاء في كُفرِهم مع ما يُشاهِدونَه مِن هذه الآياتِ! ومَن تعجَّبَ مِن شَيءٍ قال: سُبحانَ اللهِ!). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٧).

يَنمو، ويُسَمُّونَ اليابِسَ منه -الَّذي لا يَنمو- مَيْتًا، ومِن هنا كانوا يقولون للأرضِ الجَدْبةِ القاحِلةِ: مَيْتةً؛ لأنَّ نباتَها يابسٌ لا ينمو، فإذا نبَتَ فيها النَّباتُ الأخضَرُ النَّامي سَمَّوها: حيَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ * وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ * لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ أنَّه إنْ قُلْنا: إنَّ الآيةَ مَذكورةٌ للاستِدلالِ على جوازِ إحياءِ الموتى، فكان يَكفي قَولُه: ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾، فما الفائِدةُ من قَولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾؟

الجوابُ: له فائِدةٌ بالنِّسبةِ إلى بيانِ إحياءِ الموتى؛ وذلك لأنَّه لَمَّا أحيا الأرضَ، وأخرَجَ منها حبًّا، كان ذلك إحياءً تامًّا؛ لأنَّ الأرضَ المُخضَرَّةَ الَّتي لا تُنبِتُ الزَّرعَ ولا تُخرِجُ الحَبَّ دونَ ما تُنبِتُه في الحياةِ؛ فكأنَّه قال تعالى: الَّذي أحيا الأرضَ إحياءً كامِلًا مُنْبِتًا للزَّرعِ: يُحيي الموتى إحياءً كامِلًا[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ الاستِدلالُ بالشَّاهِدِ على الغائِبِ؛ فإنَّ إحياءَ الأرضِ بعدَ الموتِ مُشاهَدٌ، ويُستَدَلُّ بها على إحياءِ اللهِ الموتى عندَ بَعثِهم يومَ القيامةِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ * وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ * لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قال عندَ ذِكرِ الحَبِّ: ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾، وفي الأشجارِ والثِّمارِ قال: ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾؛

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٤).

وذلك لأنَّ الحَبَّ قُوتٌ لا بدَّ منه؛ فقال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: هم آكِلوه، وأمَّا الثِّمارُ فليست كذلك، فكأنَّه تعالى قال: إنْ كُنَّا ما أخرَجْناها كانوا يَبقَون من غيرِ أكلٍ، فأخرَجْناها لِيأكُلوها[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ بيانُ حاجةِ العبدِ لربِّه، وكأنَّ هذا الحصرَ فيه إشارةٌ إلى تحدِّي الإنسانِ أنَّه لا يمكنُ أنْ يأكلَ إلَّا مِن هذا الَّذي أخرجَه اللهُ له -وهذا مِن فوائدِ الحصرِ-، كأنَّه يقولُ: إنْ كنتَ قادرًا فأخرِجْ لِنَفْسِك ما تأكُلُه؛ إنَّك لنْ تأكُلَ إلَّا ممَّا أخرَجْناه لك[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه نَفْعٌ كُلُّه؛ خَشَبُه، ولِيفُه، وشُعَبُه، وخُوصُه، وعراجينُه، وثمَرُه؛ طَلْعًا، وجُمَّارًا[٣]، وبُسْرًا، ورُطَبًا، وتَمْرًا؛ ولذلك -واللهُ أعلَمُ- أتَى فيه بصيغةِ جمعِ الكَثرةِ، كـ﴿الْعُيُونِ﴾[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خَصَّص النَّخيلَ والأعنابَ بالذِّكرِ مِن سائرِ الفواكِهِ؛ لأنَّ ألَذَّ المطعومِ الحَلاوةُ، وهي فيها أتَمُّ، ولأنَّ التَّمرَ والعِنَبَ قُوتٌ وفاكِهةٌ، ولا كذلك غيرُهما، ولأنَّهما أعَمُّ نَفعًا؛ فإنَّها تُحمَلُ مِن البلادِ إلى الأماكِنِ البعيدةِ. فإنْ قيل: فقد ذكَرَ اللهُ الرُّمَّانَ والزَّيتونَ في (الأنعامِ)، والقَضْبَ والزَّيتونَ والتِّينَ في مواضِعَ؟

نقول: في (الأنعام) وغيرِها المقصودُ ذِكرُ الفواكهِ والثِّمارِ؛ ألا ترَى إلى قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ...﴾ [الأنعام: ٩٩]، وإلى قَولِه: ﴿فَلْيَنظُرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٤).

(٣) الجُمَّارُ: قلْبُ النَّخلِ، واحدتُه جُمَّارةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٩٤)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).

ﵟٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓﵞ [عبس: ٢٤]؟ فاستوفى الأنواعَ بالذِّكرِ، وهاهنا المقصودُ ذِكرُ صِفاتِ الأرضِ؛ فاختار منها الألَذَّ الأنفعَ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﵟسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَﵞ أنَّ بني آدمَ على أصنافٍ متنوِّعةٍ، كما كان ذلك أيضًا فيما تُنبتُه الأرضُ، بل وفي الأرضِ نفْسِها؛ قال اللهُ تعالى: ﵟوَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞﵞ [الرعد: ٤]، فإثباتُ التَّجاوُرِ لها يقتضي أنَّ كلَّ واحدٍ منها يُخالِفُ الآخَرَ؛ لأنَّ الجارَ غيرُ جارِه، وكذلك هنا ﵟمِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُﵞ يدُلُّ على أنَّ في الأرضِ أصنافًا مُنوَّعةً مِن النَّباتاتِ، كذلك ﵟوَمِنۡ أَنفُسِهِمۡﵞ فيما خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِن بني آدمَ أصنافًا: ذكرًا وأنثى، أسْوَدَ وأبيضَ، طويلًا وقصيرًا، شقيًّا وسعيدًا، ذكيًّا وبَليدًا، عاقِلًا وسَفيهًا... وهكذا؛ لِيَعتبرَ الإنسانُ قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ على خَلقِ هذه الأشياءِ المُتضادَّةِ(٢).

٩- قال الله عزَّ وجلَّ: ﵟسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَﵞ في قَولِه: ﵟوَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَﵞ إشارةٌ إلى أسرارٍ مُودَعةٍ في خَلقِ أنْواعِ الحَيَوانِ وأصْنافِه هي الَّتي ميَّزَتْ أنْواعَه عن بَعضٍ، وميَّزَتْ أصْنافَه وذُكورَه عن إناثِه، وأُودِعَتْ فيه الرُّوحُ الَّذي امتازَ به عن النَّباتِ بتَدبيرِ شُؤونِه على حَسَبِ استِعدادِ كُلِّ نَوعٍ وكُلِّ صِنفٍ، وأشرَفُ أنواعِه هو نَوعُ الإنسانِ، فمَعنى و(مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ): ممَّا لا يَعلَمونَه تَفصيلًا، وإن كانوا قد يَشعُرونَ به إجمالًا، فإنَّ المتأمِّلَ يَعلَمُ أنَّ في المخلوقاتِ أسرارًا خَفيَّةً لم تصِلْ أفهامُهم إلى إدراكِ كُنْهِها، ومِن ذلك الرُّوحُ؛ فقد قال تعالى: ﵟقُلِ ٱلرُّوحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٣).

مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقد يَتفاضَلُ النَّاسُ في إدراكِ بَعضِ تلك الخصائِصِ إجمالًا وتفصيلًا، ثمَّ يَستوُونَ في عدَمِ العِلمِ ببَعضِها، وقد يمتازُ بعضُ الطوائِفِ أو الأجيالِ بمعرفةِ شَيءٍ مِن دقائقِ الخَلقِ بسَبَبِ اكتِشافٍ أو تجربةٍ أو تَقَصِّي آثارٍ لم يكُنْ يَعرِفُها غيرُ أولئك، ثمَّ يَستوون فيما بَقِيَ تحتَ طَيِّ الخَفاءِ مِن دقائِقِ التَّكوينِ؛ فبهذا الشُّعورِ الإجماليِّ بها وقع عَدُّها في ضِمنِ الاعتِبارِ بآيةِ خَلقِ الأزواجِ مِن جميعِ النَّواحي[(١)].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾، ولم يَقُلْ: (الحمدُ لله الَّذي خلق الأزواجَ)، بل قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾؛ لأنَّ كَونَ كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إلى ازدواجيَّةٍ: يدُلُّ على كَمالِ الواحِدِ المتفَرِّدِ الَّذي لا يماثِلُه شَيءٌ مِن مخلوقاتِه؛ فبنو آدَمَ لا بدَّ مِن ازدواجيَّةِ ذكرٍ وأُنثَى[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ إعلامُه بكثرةِ مخلوقاتِه: يدُلُّ على اتِّساعِ مُلكِه، وعِظَمِ قُدرتِه[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ آيةٍ على البَعثِ والتَّوحيدِ[(٤)]. وقيل: عَطفٌ على قِصَّةِ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [يس: ١٣]؛ فإنَّه ضرَبَ لهم مَثَلًا لحالِ إعراضِهم، وتَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما تَشتمِلُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٦).

تلك الحالُ مِن إشراكٍ، وإنْكارٍ للبَعثِ، وأذًى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعاقِبةِ ذلك كُلِّه، ثم أُعقِبَ ذلك بالتَّفْصيلِ؛ لإبطالِ ما اشتَمَلَتْ عليه تلك الاعتقاداتُ مِن إنْكارِ البَعثِ، ومِن الإشراكِ باللهِ، وابتُدِئَ بدَلالةِ تَقريبِ البَعثِ؛ لمُناسَبةِ الانتِقالِ مِن قَولِه: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢]، على أنَّ هذه لا تَخلو مِن دَلالتِها على الانفرادِ بالتَّصرُّفِ، وفي ذلك إثباتُ الوَحْدانيَّةِ[١].

- وقيلَ: إنَّ قولَه: ﴿وَءَايَةٌ﴾ خَبَرٌ مُقدَّمٌ؛ للاهتِمامِ به، وتَنكيرُها للتَّفخيمِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ...﴾ بَدَأَ بالأرضِ؛ لأنَّها مُستَقَرُّهم، حَرَكةً وسُكونًا، حَياةً ومَوتًا[٣].

- وجُملةُ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، وهي حالٌ مُقيِّدةٌ؛ لأنَّ إحْياءَ الأرضِ هو مَناطُ الدَّلالةِ على إمْكانِ البَعثِ بعدَ المَوتِ، أو يَكونُ جُملةُ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بَيانًا لِجُملةِ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ لبَيانِ مَوقعِ الآيةِ فيها، أو بَدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾، أو استِئْنافًا بيانيًّا؛ كأنَّ سائِلًا سَألَ: كيف كانتِ الأرضُ المَيْتةُ[٤]؟

- قَولُه: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إخراجُ الحَبِّ مِن الأرضِ: هو إخْراجُه مِن نَباتِها، فهو جاءَ منها بواسِطةٍ، وهذا إدْماجٌ[٥] للامتِنانِ في ضِمنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢).

(٥) سبق تعريفه (ص: ٥٥).

الاستدلالِ؛ ولذلك فُرِّعَ عليه ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[1].

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿فَمِنْهُ﴾ على ﴿يَأْكُلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحَبَّ هو الشَّيءُ الَّذي يَتعلَّقُ به مُعظَمُ العَيشِ؛ فتَقديمُ صِفةِ الأكْلِ تُفيدُ الاختِصاصَ، وقد عُلِم أنَّ المَأْكولَ غيرُ مُختَصٍّ به، لكنْ قُدِّمَ الحَبُّ لِيَدُلَّ على أنَّه الأصْلُ في الارتِزاقِ، والمَأْكولاتُ تابعةٌ له، فإنَّه إذا قَلَّ نزَلَ القَحطُ، وإذا حُصِر جاء الهلاكُ؛ فالدَّوَرانُ معه؛ فإرادةُ التَّخْصيصِ على المُبالَغةِ والادِّعاءِ، نحوُ إطلاقِ اسْمِ الجِنسِ على فَردٍ مِن أفرادِه، كحاتِمٍ الجَوادِ. ويجوزُ أنْ يُقدَّمَ رِعايةً للفَواصِلِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ - قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي: مِن أنْواعِ النَّخلِ والعِنبِ؛ ولذلك جُمِعَا دُونَ الحبِّ في قولِه: ﴿حَبًّا﴾؛ فإنَّ الدَّالَّ على الجِنسِ مُشعِرٌ بالاختِلافِ، ولا كذلك الدَّالُّ على الأنواعِ[3]. فالجمعُ في النَّخيلِ والأعنابِ دونَ الحَبِّ فيه دَلالةٌ على كثرةِ اختِلافِ الأصنافِ في النَّوعِ الواحِدِ؛ الموجِبِ للتَّفاوُتِ الظَّاهِرِ في القَدرِ والطَّعمِ وغَيرِ ذلك[4].

- قَولُه: ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ في المواضِعِ التي ذَكَر اللهُ فيها الفواكِهَ لم يَذكُرِ التَّمْرَ إلَّا بلَفظِ شَجَرتِه -وهي النَّخلةُ-، ولم يَذكُرِ العِنبَ بلَفظِ شَجَرتِه، بل ذكَرَه بلَفظِ العِنَبِ والأعنابِ، ولم يَذكُرِ الكَرْمَ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ العِنَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣، ١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).



شَجَرتُه بالنِّسبةِ إلى ثَمرتِه حقيرةٌ قليلةُ الفائدةِ، والنَّخلَ بالنِّسبةِ إلى ثَمرتِه عظيمةٌ جَليلةُ القَدرِ، كثيرةُ الجَدوى[١]، فهو يختصُّ بمَزيدِ النَّفعِ، وآثارِ الصُّنعِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (جَعَلْنا)، وتَأخيرُه عن تَفْجيرِ العُيونِ؛ لأنَّه من مَبادِئِ الإثْمارِ، أي: وجَعَلْنا فيها جنَّاتٍ مِن نَخيلٍ، ورَتَّبْنا مَبادِئَ إثمارِها؛ لِيأكُلوا مِن ثَمَرِ ما ذُكِرَ مِن الجنَّاتِ والنَّخيلِ -على قَولٍ في التَّفسيرِ-؛ بإجراءِ الضَّميرِ مُجرَى اسمِ الإشارةِ[٣]؛ فالثِّمارُ لا تَتِمُّ إلَّا بالأنهارِ، ولا تصيرُ الأشجارُ حامِلةً للثِّمارِ إلَّا بعدَ وُجودِ الأنهارِ؛ فلهذا أُخِّرَ، بيْنَما قال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، فقال عَقِيبَ ذِكرِ الحَبِّ: (فَمِنْهُ يَأْكُلونَ)؛ وذلك لأنَّ الحَبَّ قُوتٌ، وهو يَتِمُّ وُجودُه بمياهِ الأمطارِ؛ ولهذا يُرى أكثَرُ البلادِ لا يكونُ بها شَيءٌ مِن الأشجارِ، والزَّرعُ والحِراثةُ لا تَبطُلُ هناك؛ اعتِمادًا على ماءِ السَّماءِ، وهذا لُطفٌ مِن اللهِ؛ حيثُ جَعَل ما يحتاجُ إليه الإنسانُ أعَمَّ وُجودًا[٤].

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ قيلَ: الضَّميرُ في قولِه: ﴿ثَمَرِهِ﴾ للهِ تَعالى بطريقِ الالتِفاتِ، وأصْلُه: (مِنْ ثَمَرِنَا)، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾؛ فنُقِلَ الكَلامُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ على طَريقةِ الالتِفاتِ، والإضافةُ إليه؛ لأنَّ الثَّمَرَ بخَلْقِه، والمَعْنى على ذلك: لِيَأكُلوا ممَّا خلقَه اللهُ مِن الثَّمرِ، وممَّا عَمِلَتْه أيْديهم مِن الغَرْسِ والسَّقيِ والتلقيحِ وغَيرِ ذلك مِن الأعمالِ إلى أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

بلَغَ الثَّمَرُ مُنتهاهُ، يعني: أنَّ الثَّمَرَ في نفْسِه فِعلُ اللهِ وخَلْقُه، وفيه آثارٌ مِن كَدِّ بَني آدَمَ[١].

- وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ عائِدٌ على الماءِ؛ لدَلالةِ العُيونِ عليه، ولكَونِه على حَذْفِ مُضافٍ، أي: مِن ماءِ العُيونِ، وقيلَ: على النَّخيلِ، واكْتُفِيَ به للعِلم في اشتِراكِ الأعيانِ فيما عُلِّقَ به النَّخيلُ مِن أكْلِ ثَمَرِه. أو يُرادُ: من ثَمَرِ المَذْكورِ، وهو الجنَّاتُ[٢].

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ (ما) نافيةً، على أنَّ الثَّمَرَ خَلْقُ اللهِ، ولم تَعمَلْه أيْدي النَّاسِ، ولا يَقدِرونَ على خَلْقِه، وهذا أوفَرُ في الامتِنانِ، وأنسَبُ بسياقِ الآيةِ مَساقَ الاستِدلالِ. ويجوزُ أنْ تكونَ (ما) في قَولِه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ مَوصولةً مَعْطوفةً على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، أي: لِيَأكُلوا مِن ثَمَرِ ما أخْرَجْناهُ، ومِن ثَمَرِ ما عَمِلَتْه أيْديهم؛ فيَكونَ إدْماجًا للإرشادِ إلى إقامةِ الجنَّاتِ بالخِدْمةِ، والسَّقيِ، والتَّعهُّدِ؛ لِيَكونَ ذلك أوفَرَ لأغْلالِها، وضَميرُ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على هذا عائِدٌ إلى اسْمِ المَوْصولِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ قِراءةُ الجمهورِ بإثْباتِ هاءِ الضَّميرِ عائِدًا إلى المَذْكورِ مِن الحَبِّ، والنَّخيلِ، والأعْنابِ، وقَرَأَ حَمزةُ والكِسائيُّ وأبو بَكرٍ عن عاصِمٍ وخَلَفٌ: ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾ بدُونِ هاءٍ[٤]، وكذلك هو مَرْسومٌ في المُصحَفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٠٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٩٨)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣).

الكُوفيِّ، وهو جارٍ على حَذفِ المَفْعولِ إنْ كان مَعْلومًا، ويجوزُ أنْ يكونَ مِن حَذفِ المَفْعولِ لإرادةِ العُمومِ، والتَّقديرُ: وما عَمِلَتْ أيْديهم شيئًا مِن ذلك[(١)].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ تَقْريعٌ وتَوبيخٌ وإنكارٌ واستقباحٌ لعَدَمِ شُكرِهم للنِّعَمِ المَعْدودةِ، والفاءُ للعَطفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المَقامُ، أي: أيَرَونَ هذه النِّعَمَ أو أيَتنعَّمونَ بها، فلا يَشْكُرونَها[(٢)]؟!

- وفُرِّعَ هذا الاستِفهامُ الإنكاريُّ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ على قَولِه: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لِبَيانِ عَدَمِ شُكرِهم بأنِ اتَّخذوا للَّذي أوجَدَ هذا الصُّنعَ العَجيبَ أندادًا[(٣)]!

- وجِيءَ بالمُضارعِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾؛ مُبالَغةً في إنْكارِ كُفرِهم بأنَّ اللهَ حَقيقٌ بأنْ يُكرِّروا شُكرَه، فكيف يَستمِرُّونَ على الإشراكِ به[(٤)]؟!

٤- قولُه تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ...﴾ الجُملةُ مُستأْنَفةٌ مَسوقةٌ لِتَنزيهِه تَعالى عمَّا لا يَليقُ به، وعمَّا فَعلوهُ مِن تَركِ شُكرِه على آلائِه المَذْكورةِ، واستِعظامِ ما ذُكِر في حَيِّزِ صِلةٍ مِن بَدائعِ آثارِ قُدرتِه، وأسرارِ حكمتِه، ورَوائعِ نَعْمائِه الموجبةِ للشُّكرِ، وتَخصيصِ العبادةِ به، والتَّعجُّبِ مِن إخلالِهم بذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤، ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحالةُ هذه[١].

- وأيضًا قَولُه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُمْلةِ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [يس: ٣٣] وجُمْلةِ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ ﴾ [يس: ٣٧]؛ أثارَه ذِكرُ إحياءِ الأرضِ، وإخراجِ الحَبِّ والشَّجَرِ منها؛ فإنَّ لذلكَ أحْوالًا وإبْداعًا عَجيبًا، يُذَكِّرُ بتَعظيمِ مُودِعِ تلك الصَّنائعِ بحِكمتِه؛ وذلك تَضمَّنَ الاستِدلالَ بخَلقِ الأزواجِ على طَريقةِ الإدْماجِ[٢].

- و﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ عَلَمٌ للتَّسبيحِ الَّذي هو التَّبعيدُ عن السُّوءِ اعتقادًا وقَولًا، أي: اعتقادَ البُعدِ عنه والحُكمَ به، مِنْ سبَحَ في الأرضِ والماءِ؛ إذا أبعَدَ فيهما وأمْعَنَ، ومنه فَرَسٌ سَبُوحٌ، أي: واسِعُ الجرْيِ، و﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ هنا لإنشاءِ تَنزيهِ اللهِ تعالى عن أحوالِ المُشرِكينَ تنزيهًا عن كلِّ ما لا يليقُ بإلهيَّتِه، وأعْظَمُه الإشراكُ به. وانتِصابُه على المصدريَّةِ، ولا يَكادُ يُذكَرُ ناصِبُه، أي: أُسبِّحُ سُبْحانَه، أي: أُنزِّهُه عمَّا لا يَليقُ به عَقْدًا وعَمَلًا، تَنزيهًا خاصًّا به حقيقًا بشَأنِه، وفيه مُبالَغةٌ مِن جِهةِ الاشتِقاقِ مِن السَّبْحِ، ومِن جِهةِ النَّقلِ إلى التَّفعيلِ، ومِن جِهةِ العُدولِ عن المَصدَرِ الدَّالِّ على الجِنسِ إلى الاسمِ الموضوعِ له خاصَّةً، لا سيَّما العَلَمُ المشيرُ إلى الحَقيقةِ الحاضرةِ في الذِّهنِ، ومِن جِهةِ إقامتِه مُقامَ المَصدَرِ مع الفِعلِ. وقيلَ: هو مَصدرٌ كغُفرانٍ، أُريدَ به التَّنزُّهُ التَّامُّ، والتَّباعُدُ الكُلِّيُّ عن السُّوءِ؛ ففيه مُبالَغةٌ من جِهةِ إسنادِ التَّنزُّه إلى الذَّاتِ المُقدَّسةِ، فالمَعْنى: تَنزَّهَ بذاتِه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به تنزُّهًا خاصًّا به؛ فالجُملةُ على هذا إخبارٌ مِن اللهِ تَعالى بتَنزُّهِه وبَراءتِه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مَّما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

وتقدم تعريف الإدماج (ص: ٥٥).

فَعَلوه وما تَرَكوه، وعلى الأوَّلِ حُكمٌ منه عزَّ وجلَّ بذلك، وتَلقينٌ للمُؤمِنينَ أنْ يَقولوهُ ويَعتقِدوا مَضمونَه، ولا يُخِلُّوا به، ولا يَغفُلوا عنه(١).

- وإجراءُ المَوْصولِ على الذَّاتِ العَليَّةِ في قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ إنشاءِ التَّنزيهِ والتَّعظيمِ(٢).

- وجيءَ بضَميرِ جَماعةِ العُقلاءِ في قَولِه: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ تَغليبًا لنَوعِ الإنسانِ؛ نَظَرًا لكَونه المَقْصودَ بالعِبْرةِ بهذه الآيةِ، وللتَّخلُّصِ إلى تَخْصيصِه بالعِبْرةِ في قَولِه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

- وفي هذه الآياتِ خَصَّ الحقُّ سُبْحانه بالذِّكرِ أصْنافَ النَّباتِ؛ لأنَّ بها قِوامَ مَعاشِ النَّاسِ ومَعاشِ أنعامِهم ودَوابِّهم، وأصنافَ أنفُسِ النَّاسِ؛ لأنَّ العِبْرةَ بها أقْوى، ثمَّ ذُكِر ما يَعُمُّ المَخْلوقاتِ ممَّا يَعلَمُه النَّاسُ وما لا يَعلَمونه في مُختلِفِ الأقطارِ والأجيالِ والعُصورِ، وقُدِّمَ ذِكرُ النَّباتِ إيثارًا له بالأهمِّيَّةِ في هذا المقامِ؛ لأنَّه أشْبَهُ بالبَعثِ الَّذي أَوْمأَ إليه قَولُه: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢]. وتَكريرُ حَرفِ (مِن) بعدَ واوِ العَطفِ للتَّوكيدِ(٤).

- وفي قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالتَّناسُبِ بيْنَ المعاني أو صِحَّةِ التَّفسيرِ(٥)، ....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٧).

(٥) هو أنْ يأتِيَ المُتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يَستقِلُّ الفَهمُ بمَعرفةِ فَحواهُ؛ إمَّا أنْ يكونَ مُجْمَلًا يحتاجُ إلى تَفصيلٍ، أو مُوجَّهًا يَفتقِرُ إلى تَوجيهٍ، أو مُحتملًا يحتاجُ المُرادُ منه إلى تَرجيحٍ =

وقد أتَتْ صِحَّةُ التَّفسيرِ في هذه الآيةِ مُقترِنةً بصِحَّةِ التَّقسيمِ(١)، واندَمَجَ فيهما التَّرتيبُ(٢) والتَّهْذيبُ(٣)؛ فكان فيها أربَعةُ فُنونٍ؛ فقد قدَّمَ سُبحانه النَّباتَ، وانتَقَلَ على طَريقِ البَلاغةِ إلى الأعْلى، فثَنَّى بأشرَفِ الحَيَوانِ، وهو الإنسانُ؛ لِيَستلزِمَ ذِكرُه بقيَّةَ الحَيَوانِ، ثم ثلَّثَ بقولِه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فانتَقَلَ من الخُصوصِ إلى العُمومِ؛ لِيَندرِجَ تحتَ العُمومِ(٤).



= لا يَحصُلُ إلَّا بتَفسيرِه وتَبْيينِه، ويقعُ التَّفسيرُ بعدَ الشَّرطِ أو بعدَ ما فيه معنَى الشَّرطِ، أو بعدَ الجارِّ والمجرورِ، أو بعدَ المُبتدأِ الَّذي التَّفسيرُ خبَرُه. يُنظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٨٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣١).

(١) التَّقسيمُ الصَّحيحُ أو صِحَّةُ الأقسامِ: هو استيفاءُ المُتكلِّمِ أقسامَ المعنى الَّذي هو آخِذٌ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، أو: أن يُقسِّمَ الكلامَ قِسمةً مستويةً تحتوي على جميعِ أنواعِه، ولا يَخرُجُ منها جِنسٌ مِن أجناسِه. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٣٤١)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الأصبع (ص: ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٥، ٤٥٧).

(٢) التَّرتيبُ الَّذي تستدعيه البلاغةُ هو الانتقالُ في نَظْمِ الكلامِ ورَصْفِه مِن الأدنى إلى الأعلى. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٥٤).

(٣) لأنَّ مُفرداتِ ألفاظِها مَوصوفةٌ بصِفاتِ الحُسنِ، وكلَّ لَفظةٍ سهلةُ مخارجِ الحروفِ، سَلِمَتْ مِن المحذورِ الَّذي يَقتضي تهذيبَها؛ كالتَّنافُرِ والغرابةِ ومُخالَفةِ القياسِ، بل وُضِعَتْ على أصحِّ ترتيبٍ، وأسهلِ تهذيبٍ، وحصَلَ التَّهذيبُ في نَظْمِها بحُصولِ حُسنِ التَّرتيبِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٠١)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٨) و(٦/ ٣٧٨) و(٩/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٧، ١٩٨).

الآيات (٣٧-٤٠)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَسۡلَخُ﴾: أي: نُخرِجُ ونَنزِعُ، وأصلُ (سلخ): يدُلُّ على إخراجِ شَيءٍ عن جِلدِه[1].

﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾: أي: جعَلْنا سَيْرَه بقَدَرٍ، والتَّقديرُ: يُطلَقُ على جَعلِ الأشياءِ بقَدَرٍ ونِظامٍ مُحكَمٍ، وعلى تحديدِ المقدارِ، مِثلُ تقديرِ الأوقاتِ، والكَمِّياتِ من الموزوناتِ والمعدوداتِ، وأصْلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[2].

﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾: العُرجُونُ: عُودُ العِذْقِ من النَّخلةِ، فإذا قَدُم وعَتُق، يَبِسَ وتقوَّس واصفَرَّ، وأصلُ العُرجونِ: مِنَ الانعراجِ، وهو الانعطافُ[3].

﴿فَلَكٖ﴾: الفَلَكُ: القُطبُ الذي تَدورُ به النُّجومُ، ومجرَى الكواكِبِ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استِدارةٍ في شَيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾

قَولُه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ القَمَرَ: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ[1] بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه المذكورُ، والتَّقديرُ: وقَدَّرْنا القَمَرَ قَدَّرْناه. وقُرِئَ: ﴿وَالقَمَرُ﴾ بالرَّفعِ[2]: مُبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ مُقَدَّمٍ، والتَّقديرُ: وآيةٌ لهم القَمَرُ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً خَبَرُه ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾.

قَولُه: ﴿مَنَازِلَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه ظَرفٌ، أي: قَدَّرْنا مَسيرَه في مَنازِلَ. الثَّاني: أنَّه حالٌ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، تقديرُه: ذا مَنازِلَ. الثالثُ: أنَّه مَفعولٌ ثانٍ بتَضمينِ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ معنى: صَيَّرْنا. الرَّابعُ: أنَّه مَفعولٌ به لـ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾، والأصلُ: (قَدَّرْنا له منازِلَ)، فحُذِفَ الجارُّ، وأُوصِلَ الفِعلُ إلى الضَّميرِ فانتَصَبَ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا بعضَ دَلائِلِ وَحدانيتِه، وعَظيمِ قُدرتِه: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم أيضًا دالَّةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى: اللَّيلُ؛ حيثُ ينزِعُ اللهُ عنه النَّهارَ؛ فيصيرُ النَّاسُ في لَيلٍ مُظلِمٍ، والشَّمسُ تَجري بقُدرةِ اللهِ تعالَى إلى مَكانِ قَرارِها الَّذي قَدَّرَه اللهُ لها، ذلك تَقديرُ اللهِ العزيزِ الذي لا يَغلِبُه

(١) الاشتغال في مصطلَح النحاة معناه: إذا تَقدَّم اسمٌ على فِعلٍ صالحٍ لأنْ يَنصِبَه لفظًا أو محلًّا، وشُغِلَ الفِعلُ عن عملِه فيه بعمَلِه في ضميرِه، صحَّ في الاسمِ أنْ يُنصَبَ بفِعلٍ لا يَظهَرُ، مماثلٍ للظاهِرِ أو مُقارِبِه. وله أحوالٌ في إعرابِه. يُنظر: ((شرح ألفيَة ابن مالك)) لابن الناظم (ص: ١٧٢)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد الأزهري (١/ ٤٤١).

(٢) قرأه بالرفع: ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو وروحٌ، وقرأه الباقونَ بالنَّصبِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٨٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٥٣) (٩/ ٢٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦).

غالِبٌ، العَليم بكُلِّ شَيءٍ.

ثمَّ يَذكرُ اللهُ تعالَى آيةً أُخرَى، فيَقولُ: وقدَّرْنا سَيْرَ القمَرِ في منازِلَ؛ بأنْ يَنزِلَ في كُلِّ ليلةٍ في مَنزلٍ، فإذا صارَ في آخِرِ منازِلِه أصبحَ في دِقَّتِه وتَقوُّسِه كعُرجونِ النَّخلةِ اليابسِ المتقَوِّسِ.

ولا يَصِحُّ ولا يَتأتَّى للشَّمسِ أنْ تُدرِكَ القَمَرَ في مَسيرِه، فتجتَمِعَ معه باللَّيلِ، وكذلك لا يَصِحُّ ولا يَتأتَّى للَّيلِ أنْ يَسبقَ النَّهارَ، فيُزاحِمَه في مَحلِّه أو وَقتِه، وإنَّما كُلٌّ واحدٍ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ: يَدورُ في فَلَكِ السَّماءِ فيَسيرُ في هذا الكَونِ بنِظامٍ بَديعٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعْدَ أنْ بيَّنَ سُبحانَه مَظاهِرَ قُدْرتِه عن طَريقِ التَّأمُّلِ في الأرضِ الَّتي نَعيشُ عليها، عقَّبَ ذلك ببَيانِ مَظاهِرِ قُدْرتِه عن طَريقِ التَّأمُّلِ في تَقلُّبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وتَعاقُبِ الشَّمسِ والقَمرِ، فقال[1]:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى، وعلى غيرِ ذلك: اللَّيلُ؛ حيثُ نَنزِعُ عنه النَّهارَ، فإذا النَّاسُ قدْ صاروا في ظُلمةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٣١)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الوَقتينِ؛ ذكَرَ آيتَيهِما، فقال:

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾.

أي: والشَّمسُ[1] -التي سُلِخَ النَّهارُ مِن اللَّيلِ بغَيبوبتِها- تَجري بقُدرةِ اللهِ تعالَى إلى مَوضِعِ قَرارِها الَّذي قدَّرَه اللهُ لها[2].

---

(١) قيل: يحتَمِلُ أنْ تكونَ الواوُ للعَطفِ على اللَّيلِ، والتقديرُ: وآيةٌ لهم الشَّمسُ. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ ابتدائيةً، والشَّمسُ: مبتدأ، وما بعدَها الخبَر، ويكونُ الكلامُ مُستأنَفًا مُشتَمِلًا على ذِكرِ آيةٍ مُستقلَّةٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٥-١٣٧).

قولُه: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾ فيه أقوالٌ؛ منها: إلى مَوضِعِ قَرارِها. ومنها: أنَّ مُستَقَرَّها مَغرِبُها، لا تُجاوِزُه، ولا تُقصِّرُ عنه؛ قاله مُجاهِدٌ. ومنها: لوَقتٍ واحِدٍ لا تَعْدوه؛ قاله قَتادةُ. ومنها: لوَقتٍ لها إلى يومِ القيامةِ؛ قاله مُقاتِلٌ. ومنها: تَسيرُ في مَنازِلِها حتَّى تَنتَهيَ إلى مُستَقَرِّها الَّذي لا تُجاوِزُه، ثمَّ تَرجِعُ إلى أوَّلِ مَنازِلِها؛ قاله ابنُ السَّائبِ. ومنها: إلى مُستقَرٍّ لها، ومُستَقَرُّها: أقْصَى مَنازِلِها في الغُروبِ؛ وذلك لأنَّها لا تَزالُ تَتقدَّمُ إلى أقْصى مَغارِبِها، ثمَّ تَرجِعُ؛ قاله ابنُ قُتَيْبةَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٣، ٥٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٩)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٣، ٥٢٤).

قال ابنُ كَثيرٍ: (في مَعنى قولِه: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾ قَوْلانِ:
أحَدُهما: أنَّ المُرادَ: مُستَقَرُّها المَكانيُّ، وهو تحتَ العَرشِ... كما جاءَت بذلك الأحاديثُ...
والقولُ الثَّاني: أنَّ المُرادَ بمُستَقَرِّها هو: مُنْتَهى سَيْرِها، وهو يومُ القِيامةِ، يَبطُلُ سَيْرُها، وتَسكُنُ حَرَكتُها وتُكَوَّرُ، ويَنْتَهي هذا العالَمُ إلى غايَتِه، وهذا هو مُستَقَرُّها الزَّمانيُّ. قال قَتادةُ: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾، أي: لوَقْتِها، ولأجَلٍ لا تَعْدُوه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦). =

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي ذَرٍّ حِينَ غَرَبتِ الشَّمسُ: أَتدري أينَ تَذهَبُ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: فإنَّها تَذهَبُ حتَّى تَسجُدَ تحتَ العَرشِ فتَستأذِنَ، فيُؤذَنُ لها، ويُوشِكُ أنْ تَسجُدَ فلا يُقبَلَ منها، وتَستأذِنَ فلا يُؤذَنَ لها؛ يقالُ لها: ارجِعي مِن حَيثُ جِئتِ، فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، فذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾))[(١)].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾؟ قال: مُستقَرُّها تحتَ العَرشِ))[(٢)].

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

أي: ذلك[(٣)] تَقديرُ العَزيزِ الذي بعِزَّتِه قَهَرَ المخلوقاتِ العَظيمةَ كالشَّمسِ؛

= وقال ابنُ جُزَيٍّ: (وفي الحَديث: «مُستقَرُّها تحتَ العَرشِ تَسجُدُ فيه كلَّ لَيلةٍ بعدَ غُروبِها»، وهذا أصَحُّ الأقْوالِ؛ لوُرودِه عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحَديثِ المَرْويِّ في البُخاريِّ عن أبي ذَرٍّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٢)، ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤).

(١) رواه البخاريُّ (٣١٩٩) واللفظ له، ومسلمٌ (١٥٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٠٣)، ومسلمٌ (١٥٩).

(٣) قيلَ: الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى جَرْيِ الشَّمسِ؛ أي: ذلك الجَرْيُ على ذلك التَّقْديرِ. وممَّن قال بهذا المَعنى في الجُملةِ: ابنُ جَرير، والزَّمَخْشريُّ، والبَيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، والرَّسْعَنيُّ، وأبو السُّعود، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٤).

وقيل: الإشارةُ إلى ما ذُكِرَ من أمْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ. وممَّن قال بهذا: القُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

فهو القاهِرُ الغالِبُ سُبحانَه، وهو العَليمُ المحيطُ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ، الَّذي يُدبِّرُ الأمْرَ، فيطَّرِدُ على نِظامٍ عَجيبٍ، ونَهجٍ بديعٍ، لا يَعتريه وَهَنٌ، ولا يَلحَقُه خَلَلٌ[(١)].

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ آيةَ النَّهارِ -وهي الشَّمسُ-؛ أتبَعَها آيةَ اللَّيلِ -وهي القَمرُ-[(٢)]، فقال:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: وقدَّرْنا القَمَرَ مَنازِلَ يَسيرُ فيها، ويَنزِلُ كُلَّ ليلةٍ في واحِدٍ منها، حتى يَكتَمِلَ ضَوْءُه ويَصيرَ بَدرًا، ثمَّ يَتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا حتَّى يَعودَ هِلالًا، كعُودِ عِذْقِ النَّخلةِ اليابِسِ الأصفَرِ النَّحيلِ المتقوِّسِ لِقِدَمِه[(٣)].

كما قالَ تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥].

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر الشَّمسَ والقَمَرَ، وكانتِ الشَّمسُ مُقارِنةً لِلنَّهارِ في مُخيِّلاتِ البَشَرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧، ٥٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢، ٢٣).

وكان القَمَرُ مُقارِنًا لِلَّيلِ، وكان في نِظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ مَنافعُ لِلنَّاسِ؛ اعتَرَض بذِكرِ نِظامِ الشَّمسِ والقَمَرِ في أثْناءِ الاعتِبارِ بنِظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ[1].

وأيضًا لَمَّا تقرَّر أنَّ لكُلٍّ مِن الشَّمسِ والقَمرِ مَنازِلَ لا يَعْدوها؛ فلا يَغلِبُ ما هو آيتُه ما هو آيةُ الآخَرِ، بل إذا جاء سُلطانُ هذا ذهَب ذاك، وإذا جاء ذاك ذهَب هذا، فإذا اجتمَعَا قامتِ السَّاعةُ- تَحرَّر أنَّ نتيجةَ هذه القَضايا[2]:

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: لا يُمكِنُ للشَّمسِ أن تَلحَقَ القَمَرَ؛ فهذا أمرٌ مُحالٌ ومُمتَنِعٌ[3].

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٨، ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٥).

قيل: المرادُ: أنَّه لا يمكِنُ أن يجتَمِعَا، فتكونَ الأوقاتُ كُلُّها نهارًا لا لَيلَ فيها، بل لكلٍّ منهما مجرًى قدَّره اللهُ، ولكلٍّ منهما سُلطانٌ له وَقتُه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملة: ابنُ جَرير، وابنُ تَيميَّة، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القول: أبو صالح، والضَّحَّاك، وقَتادة، وعِكرمة، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

وقيل: المرادُ: نَفيُ أنْ تصطدِمَ الشَّمسُ بالقَمرِ، خلافًا لِما يبدو من قُربِ منازِلِهما؛ فإنَّ ذلك من المُسامتةِ لا مِن الاقترابِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾.

أي: وكلٌّ يَدورُ في فَلَكِ السَّماءِ[(١)].

= (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤، ٢٥).
اختَلَفت ألْفاظُ المُفسِّرينَ في تَفْسيرِ هذه الآيةِ وإنْ كانتْ مَعانيها مُتَقارِبةً:
فمِمَّن قال: إنَّ المَعنى: ولا يُدرِكُ سَوادُ اللَّيلِ ضوءَ النَّهارِ فيَغلِبَه على ضَوئِه: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤).
وممَّن قال: إنَّ المَعنى: ولا يَدخُلُ اللَّيلُ على النَّهارِ قَبلَ انْقِضائِه: الواحديُّ، والبَغَويُّ، وجلالُ الدِّينِ المَحلِّيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥) تفسير الجلالين (ص: ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).
وممَّن قال: إنَّ المَعنى: لا يتَّصِلُ لَيلٌ بلَيلٍ، لا يَكونُ بينَهما نَهارٌ فاصِلٌ: السَّمْعانيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، وابنُ كَثيرٍ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).
وممَّن قال: إنَّ المَعنى: لا يَسبِقُه فيَفوتَه، ولكنْ يُعاقِبُه: البَيضاويُّ، وأبو السُّعود، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٥).
قال ابن قتيبة: (﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يقولُ: هما يَتعاقبانِ، ولا يَسبِقُ أحدُهما الآخَرَ: فيفوته ويَذهَب قبْلَ مجيءِ صاحبه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٣).
وقال ابنُ تيمية: (﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ لا يفوتُه ويَتقدَّمُ أمامَه حتى يكونَ بينهما برزخٌ؛ بل هو هو متَّصِلٌ به، لا هذا يَنفصِلُ عن هذا، ولا هذا يَنفصِلُ عن هذا). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٥٩٩). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٨٥).
وقيل: معنى قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾، أي: آيةُ الليلِ آيةَ النهارِ، وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ، وابنُ عَجيبة. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ٥٧١).
(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥، ٢٦).
قيل المراد: بـ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾: اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقمَرُ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٧). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ * وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ كُلُّ هذا دَليلٌ ظاهِرٌ، وبُرهانٌ باهِرٌ على عَظَمةِ الخالِقِ، وعَظَمةِ أوصافِه، خُصوصًا وَصْفَ القُدرةِ والحِكمةِ والعِلمِ في هذا الموضِعِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ فيه دلالةٌ بيِّنةٌ على ما تذهبُ إليه العربُ مِن أنَّ اللَّيلَ قبلَ النَّهارِ؛ لأنَّ السَّلخَ والكشفَ بمعنًى واحدٍ، وإذا كان ذلك، وكان الله تعالى قال: ﴿ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾، والمسلوخُ منه يكونُ قبلَ المسلوخِ، فيجبُ أن يكونَ اللَّيلُ قبلَ النَّهارِ، كما أنَّ المغطَّى قبلَ الغِطاءِ[٢].

= لكن ذكر ابنُ جُزَيٍّ أنَّه لا يُوصَفُ اللَّيلُ والنَّهارُ بالسَّبحِ في الفلَكِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١).

وقيل: المرادُ: الشَّمسُ والقمَرُ والنُّجومُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والرَّسْعني، وجلال الدِّين المحلِّي، والعُليمي، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

وقيل: المرادُ: الشمسُ والقمرُ. وممَّن اختاره: مقاتِلُ بنُ سُليمان، وابنُ أبي زَمنين، والزَّمخشريُّ، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (أتى بلفظِ «كُلٌّ»، و﴿ يَسۡبَحُونَ ﴾ وهو جمعٌ، مع أنَّ الشَّمسَ والقَمرَ اثْنانِ؛ لأنَّه أرادَ جِنسَ مَطالِعِها كلَّ يومٍ ولَيلةٍ، وهي كَثيرةٌ. قالَه الزَّمَخْشَريُّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

(٢) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص:٢١).

فالأصلُ هو الظَّلامُ، والنَّهارُ طارِئٌ عليه؛ ولهذا يُسلَخُ منه، وهو كذلك؛ فإنَّ أصلَ الضَّوءِ مِن الشَّمسِ، والشَّمسُ حادِثةٌ وواردِةٌ على اللَّيلِ، فيكونُ الأصلُ الظَّلامَ، ويأتي النُّورُ بَعدَه(١).

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ تذكيرُ الخَلْقِ بهذه النِّعمةِ؛ وأنَّه لو لا نِعمةُ اللهِ علينا بهذا النَّهارِ الذي يُسْلَخُ مِن اللَّيلِ لكُنَّا دائمًا في ظُلمةٍ، وهذا بلا شَكٍّ متعِبٌ للناسِ، وضارٌّ بهم، قال تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾(٢) [القصص: ٧١].

٤- أنَّ هذه الشَّمسَ مُقَدَّرةٌ تَقديرًا بالِغًا مُنَظَّمًا؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، ويَشهَدُ لهذا الواقِعُ؛ فإنَّ هذه الشَّمسَ مُنذُ خَلَقَها اللهُ إلى أنْ تَزولَ وهي في فَلَكِها لا تَتقدَّمُ ولا تَتأخَّرُ عن السُّنَّةِ التي أمَرَها عزَّ وجلَّ أنْ تكونَ عليها، ولا ترتفِعُ ولا تنخفِضُ، حتى قيلَ: إنَّها لو تنخَفِضُ مِقدارَ درجةٍ لأَحْرقتِ الأرضَ، ولو ارتفعَتْ مِقدارَ درجةٍ لجَمَّدتِ الأرضَ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَها على هذا التَّقديرِ البَديعِ المُحْكَمِ الذي لا يتغيَّرُ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(٣).

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أنَّ هذا القَمرَ آيةٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ هو مَوضوعٌ في فَلَكِه، ومع ذلك له مَنازِلُ يَنزِلُها كُلَّ ليلةٍ، فليس مُطلَقًا، ولكِنَّه مُقَدَّرٌ بمنازِلَ يَنزِلُها كُلَّ ليلةٍ، والحِكمةُ مِن هذه المنازِلِ هي أنْ يَعرِفَ النَّاسُ عددَ السِّنينَ والحِسابَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، حتى إنَّ العالِمينَ بمنازِلِ القمرِ يَعرفونَ اللَّيلةَ مِن الشَّهرِ -وإنْ كانوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٠).

لم يَحسِبوا مِن أوَّلِ الأمرِ- بناءً على مَعرفةِ المنازِلِ؛ لأنَّ هذه المنازلَ لا تَتغيَّرُ، وحلولَ القمَرِ فيها أيضًا لا يَتغيَّرُ، فهي مُنَظَّمةٌ مِن عِندِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ إطلاقُ القَديم على غيرِ اللهِ، خِلافًا للمُتفَلسِفةِ، أو الفلاسِفةِ الذين يقولون: إنَّ أخصَّ وَصْفِ اللهِ هو القِدَمُ، وهذا خطأٌ؛ فلو كان هذا أخَصَّ وصْفِ اللهِ لم يُوصَفْ به سِوى اللهِ! والقِدَمُ لا يدلُّ على الأزليَّةِ؛ فهذا العُرجونُ وصَفه اللهُ بأنَّه قَديمٌ، ومع ذلك فإنَّه ليس أزليًّا؛ إذْ إنَّه حادِثٌ بعد أنْ لم يكُنْ، وبه يَتبيَّنُ بُطلانُ قولِ هؤلاء الذين يقولون: إنَّ أخَصَّ وصْفِ اللهِ عزَّ وجلَّ هو القِدَمُ، ولو قالوا: أخَصُّ وَصْفٍ هو الأوَّليَّةُ لكُنَّا نُوافِقُهم على ما قالوا؛ لأنَّ اللهَ هو الأوَّلُ الذي ليس قَبلَه شيءٌ، أمَّا أنْ نقولَ: إنَّ القِدَمَ أخَصُّ وَصفِ الله، مع أنَّه يُوصَفُ به الحادِثُ؛ فهذا لا يكونُ ولا يَصِحُّ(٢).

٧- قولُه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ لَمَّا جَرَى ذِكرُ الشَّمسِ والقَمَرِ في مَعرِضِ الآياتِ الدَّالةِ على انفِرادِه تَعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وعلى صِفاتِ أُلوهِيَّتِه التي مِن مُتَعلِّقاتِها تَعلُّقُ صِفةِ القُدرةِ بآيةِ الشَّمسِ وسَيرِها، والقَمَرِ وسَيرِه، وكان الناسُ يَعرِفونَ تَقارُبَ الشَّمسِ والقَمَرِ فيما يَراه الرَّاؤونَ، وكانوا يُقَدِّرونَ سَيرَهما بأسْماتٍ مُعلَمةٍ بعَلاماتٍ نُجوميَّةٍ تُسمَّى بُروجًا بالنِّسبةِ لِسَيرِ الشَّمسِ، وتُسمَّى مَنازِلَ بالنِّسبةِ لِسَيرِ القَمَرِ، وكانوا يَعلَمونَ شِدَّةَ قُربِ المَنازِلِ القَمَريَّةِ مِنَ البُروجِ الشَّمسيَّةِ؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٤).

والقَديمُ ليس من أسْماءِ اللهِ ولا صِفاتِه، ولم يَرِدْ وَصفُ اللهِ به في شَيءٍ مِنَ القُرآنِ والآثارِ الصَّحيحةِ، وإنْ كان يصِحُّ أنْ يُخبَرَ به عنه. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٦١)، ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٢٧٦).

كُلَّ بُرجٍ تُسامِتُه مَنزِلَتانِ، أو ثَلاثُ مَنازِلَ، وبَعضُ نُجومِ المَنازِلِ هي أجزاءٌ مِن نُجومِ البُروجِ؛ زادَهم اللهُ عِبرةً وتَعليمًا بأنَّ لِلشَّمسِ سَيرًا لا يُلاقي سَيرَ القَمَرِ، ولِلقَمَرِ سَيرًا لا يُلاقي سَيرَ الشَّمسِ، ولا يَمُرُّ أحَدُهما بطَرائِقِ مَسيرِ الآخَرِ، وأنَّ ما يتَراءَى لِلنَّاسِ مِن مُشاهَدةِ الشَّمسِ والقَمَرِ في جَوٍّ واحِدٍ، وفي حَجمَيْنِ مُتَقارِبَيْنِ، وما يَتَراءَى لهم مِن تَقارُبِ نُجومِ بُروجِ الشَّمسِ ونُجومِ مَنازِلِ القَمَرِ؛ إنْ هو إلَّا مِن تَخَيُّلاتِ الأبصارِ، وتَفاوُتِ المَقاديرِ بَيْنَ الأجرامِ والأبعادِ[1].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ سؤالٌ: كيف نفَى تعالى الإدراكَ عن الشَّمسِ للقَمَرِ دونَ عَكسِه؟

والجوابُ: لأنَّ سَيرَ القمَرِ أسرعُ؛ لأنَّه يقطَعُ فَلَكَه في شهرٍ، والشَّمسُ لا تقطَعُ فلَكَها إلَّا في سَنةٍ؛ فكانتْ جَديرةً بأنْ تُوصَفَ بنفْيِ الإدراكِ؛ لبُطءِ سَيرِها، وكان القَمَرُ خَليقًا بأنْ يُوصَفَ بالسَّبقِ؛ لِسُرعةِ سَيرِه[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ جِيءَ بضميرِ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ ضَميرَ جمعٍ؛ معَ أنَّ المتقدِّمَ ذِكرُه شيئانِ هما: الشَّمسُ والقمرُ؛ لأنَّ المرادَ إفادةُ تَعميمِ هذا الحُكمِ للشَّمسِ والقمَرِ وجَميعِ الكواكبِ -على أحدِ الأقوالِ-، وهي حَقيقةٌ عِلميَّةٌ سبَق بها القُرآنُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٢).

وقال ابنُ عاشور: (وفي الكَلامِ اكتِفاءٌ، أي: لأنَّ التَّقديرَ: ولا القَمَرُ يُدرِكُ الشَّمسَ، ولا النَّهارُ سابِقُ اللَّيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

وذكَرَ البقاعيُّ أنَّ هذه الآيةَ من الاحْتِباكِ: نَفَى أوَّلًا إدْراكَ الشَّمسِ لقُوَّتِها دَليلًا على ما حُذِفَ مِنَ الثَّانيةِ من نَفيِ إدْراكِ القَمرِ للشَّمسِ، وذكَرَ ثانيًا سَبقَ اللَّيلِ النَّهارَ؛ لِما له مِنَ القوَّةِ بما يَعرِضُ مِنَ النَّهارِ، فيُغَشِّيه دَليلًا على حَذفِ سَبقِ النَّهارِ اللَّيلَ أوَّلًا. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ انتِقالٌ إلى دَلالةِ مَظاهِرِ العَوالِمِ العُلويَّةِ على دَقيقِ نِظامِ الخالِقِ فيها، مِمَّا تُؤذِنُ به المُشاهَدةُ مع التَّبَصُّرِ، وابتُدِئَ منها بِنظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِتكرُّرِ وُقوعِه أمامَ المُشاهَدةِ لِكُلِّ راءٍ[(١)].

- وجُملةُ ﴿ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ مُبيِّنةٌ لِكيفيَّةِ كَونِه آيةً[(٢)].

- وفي قَولِه: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ شَبَّهَ النَّهارَ بجِلْدِ الشَّاةِ ونَحوِها، يُغَطِّي ما تَحتَه منها، كما يُغَطِّي النَّهارُ ظُلْمةَ اللَّيلِ في الصَّباحِ، وشَبَّهَ كَشْفَ النَّهارِ وإزالَتَه بسَلْخِ الجِلدِ عن نَحوِ الشَّاةِ؛ فصارَ اللَّيلُ بمَنزِلةِ جِسمِ الحَيوانِ المَسلوخِ منه جِلدُه، وليس اللَّيلُ بمَقصودٍ بالتَّشبيهِ، وإنَّما المَقصودُ تَشبيهُ زَوالِ النَّهارِ عنه؛ فاستَتبَعَ ذلك أنَّ اللَّيلَ يَبقَى شِبْهَ الجِسمِ المَسلوخِ عنه جِلدُه، ووَجْهُ ذلك: أنَّ الظُّلمةَ هي الحالةُ السابقةُ لِلعَوالِمِ قَبْلَ خَلقِ النُّورِ في الأجسامِ النَّيِّرةِ؛ لِأنَّ الظُّلمةَ عَدَمٌ، والنُّورَ وُجودٌ، وكانتِ المَوجوداتُ في ظُلمةٍ قَبلَ أنْ يَخلُقَ اللهُ الكَواكِبَ النَّيِّرةَ ويُوصِّلَ نورَها إلى الأجسامِ التي تَستَقبِلُها، كالأرضِ والقَمَرِ[(٣)].

- وفي قَولِه: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ ما يُعرَفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠١).

في البَلاغةِ بالتَّوشيحِ[(١)]؛ فإنَّ مَن كانَ حافِظًا لِلسُّورةِ مُتفَطِّنًا إلى أنَّ مَقاطِعَ آيِها النُّونُ المُردِفةُ، وسَمِعَ في صَدرِ الآيةِ انسِلاخَ النَّهارِ مِنَ اللَّيلِ، عَلِمَ أنَّ الفاصِلةَ تَكونُ ﴿مُّظۡلِمُونَ﴾؛ لِأنَّ مَنِ انسَلَخَ النَّهارُ عن لَيلِه أظلَمَ، أي: دَخَلَ في الظُّلُماتِ ما دامَت تلك الحالُ[(٢)].

- قَولُه: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾، أي: داخِلونَ في الظَّلامِ مُفاجأةً، وفيه رَمزٌ إلى أنَّ الأصْلَ هو الظَّلامُ، والنُّورَ عارِضٌ[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ﴾ تَفصيلٌ لإجْمالِ جُملةِ ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، كما دَلَّ عليه قَولُه الآتي: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ مِن كَونِه تَفصيلًا ألَّا يَعطِفَ، فيُقالَ: (الشَّمسُ تَجري لِمُستَقَرٍّ لها)؛ فخُولِفَ مُقتَضَى الظَّاهِرِ؛ لِأنَّ في هذا التَّفصيلِ آيةً خاصَّةً، وهي آيةُ سَيرِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وآيةُ الشَّمسِ المَذكورةُ هنا مُرادٌ بها دَليلٌ آخَرُ على عَظيمِ صُنعِ اللهِ تَعالَى، وهو نِظامُ الفُصولِ الأربَعةِ، وهذا استِدلالٌ بآثارِ ذلك السَّيرِ المَعروفةِ لِلناسِ مَعرِفةً إجماليَّةً بما يَحسِبونَ مِنَ الوَقتِ، وامتِدادِ اللَّيلِ والنَّهارِ[(٤)].

---

(١) التَّوْشيحُ -ويُسمَّى أيضًا التَّشْريعُ-: أنْ يكونَ نفْسُ الكَلامِ يدُلُّ على آخِرِه، نزَلَ المَعنى مَنزلةَ الوِشاحِ، ونزَلَ أوَّلُ الكَلامِ وآخِرُه مَنزلةَ العاتِقِ والكَشْحِ اللَّذَينِ يَجولُ عليهما الوِشاحُ؛ ولهذا قيلَ فيه: إنَّ الفاصِلةَ تُعلَمُ قبلَ ذِكْرِها. وتَشتَمِلُ الزِّيادةُ على إضافةِ مَعنًى. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٩٥)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩).

- وقولُه: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ إدماجٌ لِلتَّعليمِ في التَّذكيرِ، وليس مِن آيةِ الشَّمسِ لِلنَّاسِ؛ لِأنَّ النَّاسَ لا يَشعُرونَ به(١).

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿لَّهَاۚ﴾ لامُ الاختِصاصِ، وهو صِفةٌ لـ (مُسْتَقَرٍّ)، وعَدَلَ عن إضافةِ (مُستَقَرٍّ) لِضَميرِ الشَّمسِ المُغنيةِ عن إظهارِ اللَّامِ، إلى الإتيانِ باللَّامِ؛ لِيَتأتَّى تَنكيرُ (مُستَقَرٍّ) تَنكيرًا مُشعِرًا بتَعظيمِ ذلك المُستقَرِّ(٢).

- وذَكَر صِفتَيِ العَزيزِ العَليمِ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ لِمُناسبةِ مَعناهما لِلتَّعلُّقِ بنِظامِ سَيرِ الكَواكِبِ؛ فالعِزَّةُ تُناسِبُ تَسخيرَ هذا الكَوكَبِ العَظيمِ، والعِلْمُ يُناسِبُ النِّظامَ البَديعَ الدَّقيقَ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾

- عُدِّيَ فِعلُ ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾ إلى ضَميرِ القَمَرِ الذي هو عِبارةٌ عن ذاتِه، وإنَّما التَّقديرُ: لِسَيرِه، ولكِنْ عُدِّيَ التَّقديرُ إلى اسمِ ذاتِه دونَ ذِكرِ المُضافِ؛ مُبالَغةً في لُزومِ السَّيرِ له مِن وَقتِ خَلقِه، حتى كأنَّ تَقديرَ سَيرِه تَقديرٌ لِذاتِه(٤).

- وخُصَّ القَمَرُ بذِكرِ تَقديرِ المنازِلِ دونَ الشَّمسِ وإنْ كانتْ مُقدَّرةَ المنازِلِ؛ لظُهورِ ذلك لِلحِسِّ في القَمَرِ، وظُهورِ تفاوُتِ نُورِه بالزِّيادةِ والنُّقصانِ في كُلِّ مَنزِلٍ؛ ولذلك كان الحِسابُ القَمَريُّ أشهَرَ وأعرَفَ عِندَ الأُمَمِ، وأبعَدَ مِن الغَلَطِ، وأصَحَّ لِلضَّبطِ مِن الحِسابِ الشَّمسيِّ، ويَشترِكُ فيه النَّاسُ دونَ الحِسابِ الشَّمسيِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٦).

- و(حتَّى) في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ ابتدائيَّةٌ، ومعنى الغايةِ لا يُفارِقُ (حتَّى)، فآذَنَ ما فيها مِن مَعنى الغايةِ بمُغَيًّا مَحذوف؛ فالغايةُ تَستلزِمُ ابتداءَ شَيءٍ، والتَّقديرُ: فابتَدَأ ضَوْءُه، وأخَذَ في الازديادِ لَيلةً قَليلةً، ثم أخَذَ في التَّناقُصِ حتَّى عادَ، أي: صارَ كالعُرجُونِ القَديمِ، أي: شَبيهًا به[1].

- قَولُه: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ العُرجونُ هو العُودُ الذي تُخرِجُه النَّخلةُ؛ فيَكونُ الثَّمَرُ في مُنتَهاه، وعَبَّرَ عنِ القَمرِ بهذا التَّشبيهِ؛ إذْ ليس لِضَوءِ القَمَرِ في أواخِرِ لَياليه اسمٌ يُعرَفُ به بخِلافِ أوَّلِ أجزاءِ ضَوئه المُسمَّى هِلالًا، ولأنَّ هذا التَّشبيهَ يُماثِلُ حالةَ استهلالِه كما يُماثِلُ حالةَ انتهائِه، والقَديمُ: هو البالي؛ لِأنَّه إذا انقَطَعَ الثَّمَرُ، تَقوَّسَ واصفَرَّ وتضاءَلَ، فأشبَهَ صُورةَ ما يُواجِهُ الأرضَ مِن ضَوءِ القَمَرِ في آخِرِ ليالي الشَّهرِ، وفي أوَّلِ لَيلةٍ منه. وتَركيبُ ﴿عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ صالحٌ لِصُورةِ القَمَرِ في اللَّيلةِ الأخيرةِ، وهي التي يَعقُبُها المُحاقُ، ولِصورَتِه في اللَّيلةِ الأُولى مِنَ الشَّهرِ هو الهِلالُ، وقد بُسِطَ لهم بَيانُ سَيرِ القَمَرِ ومَنازِله؛ لِأنَّهم كانوا يُتقِنونَ عِلْمَه، بخِلافِ سَيرِ الشَّمسِ[2]، ولأنَّه الأصلُ في الحسابِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ فيه افتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ النَّفيِ قَبلَ ذِكرِ الفِعلِ المَنفيِّ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّها مُسَخَّرةٌ لا يَتيَسَّرُ لها إلَّا ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٢).

أُريدَ بها، ولِيكونَ النَّفيُ مُتقرِّرًا في ذِهنِ السامعِ أقوى ممَّا لو قيلَ: الشَّمسُ لا يَنبَغي لها أنْ تُدرِكَ القَمَرَ؛ فكان في قَولِه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ خُصوصِيَّتانِ[١].

- ومعنى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ نَفيُ انبِغاءِ ذلك، أيْ: نَفيُ تأتِّيه؛ لِأنَّ الفِعلَ (انبَغى) مُطاوِعُ (بَغى) الذي هو بمَعنى طَلَب، فـ (انبَغى) يُفيدُ أنَّ الشَّيءَ طُلِبَ، فحَصَلَ لِلذي طَلَبه، يُقال: بَغاه فانبَغى له؛ فإثباتُ الانبِغاء يُفيدُ التَّمكُّنَ مِنَ الشَّيءِ، فلا يَقتَضي وُجوبًا، ونَفيُ الانبِغاءِ يُفيدُ نَفيَ إمكانِه؛ ولذلك يُكنَّى به عنِ الشَّيءِ المَحظورِ، يُقالُ: لا يَنبَغي لك كذا؛ ففَرْقٌ ما بَينَ قَولِكَ: يَنبَغي ألَّا تَفعَلَ كذا؛ وبَينَ قَولِكَ: لا يَنبَغي لك أنْ تَفعَلَ كذا. والإدراكُ: اللَّحاقُ والوصولُ إلى البُغيةِ؛ فقَولُه: ﴿أَن تُدْرِكَ﴾ فاعِلُ ﴿يَنۢبَغِى﴾؛ فأفادَ الكَلامُ نَفيَ انبِغاءِ إدراكِ الشَّمسِ القَمَرَ[٢].

- وجاء بصِيغةِ الإخبارِ عن المُسنَدِ إليه ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ بالمُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَنۢبَغِى﴾؛ لإفادةِ تَقَوِّي حُكمِ النَّفيِ؛ فذلك أبلَغُ في الانتِفاءِ ممَّا لو قيلَ: لا يَنبَغي لِلشَّمسِ أنْ تُدرِكَ القَمَرَ[٣].

- وعُدِلَ عنِ الظَّاهِرِ، وأنْ يُقالَ: (ولا القَمَرُ سابِقُ الشَّمسِ، ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ)، أي: آيةُ اللَّيلِ آيةَ النَّهارِ؛ لِيُؤذِنَ بالتَّعاقُبِ بَينَ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومَنصوصيَّةِ التَّدبيرِ على المُعاقَبةِ؛ فإنَّه مُستفادٌ مِنَ الحَرَكةِ اليَوميَّةِ التي مَدارُ تَصرُّفِ كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٢)؛ ففيه تفصيلٌ لوجه هذه الدَّلالة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واحِدٍ منهما عليها[١].

- قَولُه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾، والواوُ عاطِفةٌ؛ تَرجيحًا لجانبِ الإخبارِ بهذه الحَقيقةِ على جانبِ التَّذييلِ، وإلَّا فحَقُّ التَّذييلِ الفَصلُ -أي: عدَمُ العَطفِ-. وزِيدَتْ قَرينةُ السِّياقِ تأكيدًا بضَميرِ الجَمعِ في قَولِه: ﴿يَسْبَحُونَ﴾، مع أنَّ المَذكورَ مِن قَبلُ شَيئانِ، لا أشياءُ، وبهذا التَّعميمِ صارَتِ الجُملةُ في مَعنَى التَّذييلِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ تنوينُ (كُلٌّ) تَنوينُ عِوَضٍ عنِ المُضافِ إليه المَحذوفِ، فالتَّقديرُ: وكُلُّ الكَواكِبِ والشُّموسِ والأقْمارِ؛ فإنَّ اختِلافَ الأحوالِ يُوجِبُ تَعَدُّدًا ما في الذَّاتِ[٣]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وجُملةُ (كُلٌّ فِي فَلَكٍ) فيها مُحَسِّنُ الطَّردِ والعَكسِ؛ فإنَّها تُقرَأُ مِن آخِرِها كما تُقرَأُ مِن أوَّلِها[٤].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ غَلَّبَ ضَميرَ العُقَلاءِ -وهو الواوُ والنُّونُ في ﴿يَسْبَحُونَ﴾-؛ لِأنَّه نَزَّلَ الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ والكَواكِبَ مَنزِلةَ العُقَلاءِ؛ لِأنَّه لَمَّا وَصَفَهم بفِعْلِهم وهو السِّباحةُ -وهي مِن أوصافِ العُقَلاءِ- ساغَ ذلك[٥].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٢- ٢٠٣).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ، وأولادُ الأولادِ، مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّريَّةَ خَلْقُ اللهِ، أو لأنَّ الولدَ ذُرِئ مِن الأبِ، وقيلَ غيرُ ذلك. والذُّرِّيَّةُ أيضًا: الآباءُ؛ لأنَّ الذَّرَّ وقَع منهم، فهو مِن الأضْدادِ[1].

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السَّفينةِ، وواحِدُه وجمعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على الاستِدارةِ، ولعلَّ السفينةَ تُسَمَّى فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[2].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: المملوءِ، وأصلُ (شحن): يدُلُّ على المَلْءِ[3].

﴿صَرِيخَ﴾: أي: مُغيثَ ومُجيرَ، ويُطلَقُ أيضًا على المستغيثِ المستنجِدِ، وهو مِن الأضدادِ، والاستِصراخُ: الإغاثةُ والاستِغاثةُ؛ وذلك أنَّ المُنْجِدَ إذا صَرَخ به المستنجِدُ صَرَخ هو مُجيبًا بما يطمئِنُّ له، وأصلُ (صرخ): يدُلُّ على صَوتٍ رَفيعٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، (١٨/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي =

﴿وَمَتَٰعًا﴾: أي: انتِفاعًا، والمتاعُ والمتعةُ ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على المنفَعةِ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ(١).

المعنى الإجمالي:

يقولُ تعالَى: وعلامةٌ عَظيمةٌ لهم أيضًا دالَّةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى: أنَّا حَمَلْنا آباءَهم الأقدَمينَ -الذين آمَنوا بنوحٍ عليه السَّلامُ- في السَّفينةِ التي أمَرْناه بصُنعِها، والتي كانتْ مَملوءةً، وخلَقْنا للعِبادِ سُفُنًا أمثالَ سَفينةِ نوحٍ يَركَبونَها، وإنْ نشَأْ نُغرِقْ مَن يركَبونَ هذه السُّفُنَ في البَحرِ دونَ أن يجِدوا مَن يُغيثُهم أو مَن يُنقِذُهم مِن الغَرَقِ سِوى رَحمتِنا بهم وفَضلِنا عليهم، وتمتيعِنا إيَّاهم بالحياةِ إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ تنقَضي عنده آجالُهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن عَدِّ آياتٍ في الأرضِ وفي السَّماءِ إلى عَدِّ آيةٍ في البَحرِ تَجمَعُ بينَ العِبرةِ والمِنَّةِ، وهي آيةُ تَسخيرِ الفُلكِ: أنْ تسيرَ على الماءِ، وتسخيرُ الماءِ لِتَطفوَ عليه دونَ أنْ يُغرِقَها(٢).

وأيضًا لَمَّا مَنَّ تعالَى بإحياءِ الأرضِ -وهي مكانُ الحيواناتِ-، بيَّنَ أنَّه لم

= (٤/ ١٠٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٧) و(١٥/ ٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

يقتَصِرْ عليه، بلْ بيَّن للإنسانِ طَريقًا يتَّخِذُ مِن البَحرِ، ويَسيرُ فيها كما يَسيرُ في البَرِّ، فقال[1]:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم[2] دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على فِعلِ ما يَشاءُ، وعلى غيرِ ذلك: أنَّا حمَلْنا آباءَهم[3] في السَّفينةِ المملوءةِ مِن الأمتعةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٢٤).

(٢) قيل: المرادُ بهم: كفَّارُ مكةَ. وممَّن قال بهذا: مقاتِل بن سُليمان، والسَّمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤).

وقيل: المرادُ بهم: جميعُ النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٠).

قال الشوكانيُّ: (ثُمَّ قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فكأنَّه قال: وآيةٌ للعِبادِ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّاتِ العِبادِ، ولا يلزَمُ أنْ يكونَ المرادُ بأحدِ الضَّميرَيْنِ البعضَ منهم، وبالضَّميرِ الآخَرِ البعضَ الآخَرَ، وهذا قولٌ حَسَنٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧). يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقال الماورديُّ: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحدُها: عبرةٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ اعتِبارًا. الثاني: نِعمةٌ عليهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنعامًا. الثالث: إنذارٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنذارًا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩).

(٣) ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجُملةِ، وأنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ هنا: الآباءُ الأقدمون الذين ركِبوا السَّفينةَ معَ نوحٍ عليه السَّلامُ: ثَعلب، وابنُ جَرير، والسَّمرقندي، والواحدي، والبَغوي، وابنُ كثير، وجلال الدِّين المحلي، والعُليمي. يُنظر: ((مجالس ثعلب)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥).

قال الواحديُّ: (لأنَّ مَن حُمِلَ مع نوحٍ كان هؤلاء مِن نَسْلِهم، والذُّرِّيَّةُ تَقعُ على الآباءِ كما تقعُ على الأولادِ). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤).

والسَّفينةُ على هذا القَولِ: هي سَفينةُ نوحٍ عليه السَّلامُ، ونَسَب الرَّسْعنيُّ القَولَ بذلك إلى أكثَرِ المفَسِّرين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٠). =

= قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: أراد: في سَفينةِ نوحٍ، فنَسَب الذُّرِّيَّةَ إلى المُخاطَبين؛ لأنَّهم مِن جِنسِهم، كأنَّه قال: ذُرِّيَّةَ النَّاسِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥).

وقال ابنُ جُزي: (وإنْ أراد بالفُلكِ سَفينةَ نوحٍ فيَعني بالذُّرِّيَّةِ مَن كان في السَّفينة، وسمَّاهم ذُرِّيَّةً؛ لأنَّهم ذُرِّيَّةُ آدمَ ونُوحٍ، فالضَّميرُ في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على هذا النَّوعِ لبني آدمَ، كأنَّه يقولُ: الذُّرِّيَّةُ منهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣).

وقال ابنُ عُثَيمين: (والصَّوابُ أن نقولَ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، يعني: الذُّرِّيَّةَ التي كانوا منها؛ فالإضافةُ -كما يقولُ النَّحويونَ- لأدْنى مُلابَسةٍ، فآباؤُهم بالنِّسبةِ لِنُوحٍ ذُرِّيَّةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٩).

وقال الزمخشريُّ: (قيل: الفلكُ المشحونُ: سَفينةُ نوحٍ، ومعنى حَملِ اللهِ ذُرِّياتِهم فيها: أنَّه حمَل فيها آباءَهم الأقدمين، وفي أصلابِهم هم وذُرِيَّاتُهم، وإنَّما ذكَرَ ذريَّاتِهم دونَهم؛ لأنَّه أبلغُ في الامتنانِ عليهم، وأدخَلُ في التعجيبِ مِن قُدرتِه في حمْلِ أعقابِهم إلى يومِ القِيامةِ في سَفينةِ نوحٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨).

وقال الرازيُّ: (إنْ كانَ المرادُ سفينةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ ففيه وجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ أنَّا حَمَلْنا أولادَكم إلى يومِ القِيامةِ في ذلك الفُلكِ، ولولا ذلك لَمَا بَقِي للآدميِّ نَسْلٌ ولا عَقِبٌ وعلى هذا فقولُه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدلُ قولِه: «حَمَلْنَاهم» إشارةٌ إلى كمالِ النِّعمةِ، أي: لم تَكُنِ النِّعمةُ مُقْتَصِرَةً عليكم، بلْ متعدِّيَةً إلى أعقابِكم إلى يومِ القِيامةِ، هذا ما قاله الزَّمخشريُّ. ويَحتمِلُ عِندي أنَّ يُقالَ على هذا: إنَّه تعالَى إنَّما خصَّ الذُّرِّيَّةَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الموجودينَ كانوا كُفَّارًا لا فائدةَ في وُجودِهم فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: لم يَكُنِ الحملُ حَمْلًا لهم، وإنَّما كان حَمْلًا لِمَا في أصلابِهم مِن المؤمنينَ...

الثَّاني: هو أنَّ المرادَ بِالذُّرِّيَّةِ الجِنسُ، معناه: حَمَلْنا أجناسَهم؛ وذلك لأنَّ وَلَدَ الحيوانِ مِن جِنسِه ونوعِه، والذُّرِّيَّةُ تُطلَقُ على الجنسِ... فقولُه: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: أمثالَهم، وآباؤُهم حينئذٍ تَدْخُلُ فيهم.

الثَّالثُ: هو أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ عَائدٌ إلى العِبادِ حيثُ قال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]، وقال بعدَ ذلك: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧]، وقالَ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ إذا عُلِم هذا فكأنَّه تعالَى قال: وآيةٌ للعبادِ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّاتِ العبادِ، ولا يلزمُ أنْ يكونَ المرادُ بالضَّميرِ في الموضعَينِ أشخاصًا معيَّنينَ... قولُه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾، أي: آيةٌ لكلِّ بَعضٍ منهم أنَّا حمَلْنا ذُرية كلِّ بعضٍ منهم، أو ذُرِّيَّةَ بعضٍ منهم). =

والحَيوانات: سَفينةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ[1].

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢﴾.

= ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أولادُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشري، والخازن، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٦).

قال الألوسيُّ: (واستظهَرَ حَمْلَه على الأولادِ مُطلقًا أبو حيَّان، وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يُحمَلَ على الكِبارِ؛ لأنَّهم المبعوثونَ للتِّجارةِ، أي: حمَلْناهم حينَ يَبعثونَهم للتِّجارةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٩).

وقال السَّمينُ الحلَبي: (وقيل: الأبناءُ، وذلك إذا أُريدَ بالفُلكِ جِنسُ السُّفُنِ لا سَفينةُ نُوحٍ). ((عمدة الحفاظ)) (٢/ ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: جِنسُ السُّفُنِ: الرازي، وابن جُزي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦، ٢٧).

وقال الألوسيُّ: (وإرادةُ الجِنسِ مَرويَّةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهدٍ، والسُّدِّي). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦).

وقال الرازيُّ: (هو أظهرُ؛ لأنَّ سَفينةَ نوحٍ لم تكُنْ بحضرَتِهم ولم يَعْلَموا مَن حُمِلَ فيها، فأمَّا جِنسُ الفلكِ فإنَّه ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ، وقولُه تعالَى في سفينةِ نوحٍ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، أي: بوجودِ جنسِها ومثلِها، ويؤيِّدُه قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقال ابنُ جُزي: (والأظهرُ أنَّه أراد بالفلكِ جنسُ السُّفنِ، فيعني جِنسَ بني آدمَ، وإنَّما خَصَّ ذُريتَهم بالذِّكرِ؛ لأنَّه أبلغُ في الامتِنانِ عليهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣).

وظاهرُ كلامِ ابنِ كثيرٍ الجمْعُ بينَ القَولينِ في المرادِ بالفُلكِ، حيثُ قال: (ودَلالَةٌ لهم أيضًا على قُدرَتِه تعالَى: تسخيرُه البحرَ ليحمِلَ السُّفنَ، فمِن ذلك -بل أوَّلُه- سَفينةُ نُوحٍ، عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤، ١٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

أي: وخلَقْنا للعِبادِ مِن مِثلِ سَفينةِ نوحٍ ما يَركَبونَه مِن السُّفُنِ التي علَّمْناهم صَنعتَها[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٣، ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩، ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٤-١٥٥).

والقولُ بأنَّ المرادَ أنَّ الله تعالى خلَقَ لهم سُفُنًا مِن جِنسِ سَفينةِ نوحٍ نسَبه الرازي إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٥).

وقال الزَّجَّاج: (الأكثرُ في التفسيرِ أنَّ ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ مِن مِثلِ سَفينةِ نوحٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وأبو مالكٍ، والحَسَنُ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ، والضحَّاكُ، وقَتادةُ في رِوايةٍ عنه، وابنُ زيدٍ، والسُّدِّيُّ في رِوايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

قال ابنُ القيِّم: (والأصَحُّ أنَّ المِثْلَ المخلوقَ هنا هو السُّفُنُ، وقد أخبَرَ أنَّها مَخلوقةٌ، وهي إنَّما صارتْ سُفُنًا بأعمالِ العِبادِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٥٢).

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: الإبلُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والنَّسَفي، والسَّمين الحلبي، والعُليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٥)، ((عمدة الحُفَّاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

قال السَّمين الحلبي: (وذلك أنَّها في حمْلِها الأشياءَ الثقيلةَ وصبرِها على عدمِ الماءِ والعلفِ كالسُّفنِ؛ ولذلك تُسمِّيها العربُ «سفنَ البرِّ»). ((عمدة الحفاظ)) (٤/ ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكرمةُ، وعبد الله بنُ شدَّاد، ومجاهدٌ، والحسنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

وممَّن جمَع بينَ القولين: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣٤).

ولكنْ قال ابنُ القيِّم: (أبعَدَ مَن قال: إنَّ المِثْلَ هاهنا هو سُفُنُ البَرِّ، وهي الإبلُ؛ لوجهَين: **أحدُهما:** أنَّها لا تُسمَّى مِثْلًا للسُّفُنِ لا لُغةً ولا حَقيقةً؛ فإنَّ المِثْلَين ما سَدَّ أحدُهما مَسَدَّ الآخَرِ، وحقيقةُ =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وإنْ نشَأْ نُغرِقْ مَن يركَبونَ السُّفُنَ، في البَحرِ[1]؛ فلا مُغيثَ لهم يَطلُبونَ منه النَّجدةَ، فيَمنَعُ عنهم حُدوثَ الغَرَقِ، ولا أحَدَ يُنقِذُهم فيَنتشِلُهم مِن الماءِ بعدَ غرَقِهم فيه[2].

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: إلَّا أن نُنجِّيَهم نحن مِنَ الغَرَقِ؛ رَحمةً مِنَّا بهم، ولِنُمتِّعَهم إلى مُنتهَى آجالِهم المعلومةِ عندَ اللهِ تعالَى[3].

= المماثَلةِ أنْ يكونَ بينَ فُلْكٍ وفُلْكٍ، لا بينَ جَملٍ وفُلْك. **الثَّاني**: أنَّ قولَه: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ عَقِبَ ذلك: دَليلٌ على أنَّ المرادَ الفُلْكُ التي إذا ركِبوها قَدَرْنا على إغراقِهم، فذَكَّرَهم بنِعَمِه عليهم مِن وَجهَين: أحدُهما: ركوبُهم إيَّاها. والثَّاني: أنْ يُسَلِّمَهم عندَ رُكوبِها مِنَ الغَرَقِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٥٢).

وقال أبو حيَّان: (قولُه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾: يعني الإبلَ والخيلَ والبغالَ والحميرَ، والمماثَلةُ في أنَّه مركوبٌ مُبَلِّغٌ للأوطانِ فقطْ، هذا إذا كانَ الفُلْكُ جنسًا. وأمَّا إنْ أُريدَ به سفينةُ نوحٍ، فالمماثَلةُ تكونُ في كونِها سُفُنًا مِثْلَها، وهي الموجودةُ في بني آدَمَ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠).

(١) قيل: المرادُ بهم هنا: المشركون. وممَّن قال بهذا: ابنُ جَرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٧).

وقيل: مَن يَركبون السُّفُنَ عمومًا. وهذا اختيارُ ابنِ عطيَّة، وظاهرُ اختيار ابنِ كَثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

قال الشوكانيُّ: (والضَّميرُ يَرْجِعُ إمَّا إلى أَصْحَابِ الذُّرِّيَّةِ، أوْ إلى الذُّرِّيَّةِ، أَوْ إلى الجميعِ عَلَى اختلافِ الأقوالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أنَّ في حالِ النِّعمةِ يَنبغي ألَّا يُؤمَنَ عَذابُ اللهِ تعالَى[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَنْظُرَ إلى نِعَمِ اللهِ تعالَى -بالإنقاذِ من الشَّدائدِ، أو بحُصولِ المحبوبِ- على أنَّها فَضْلٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وليستْ بكَسْبِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بما أنْعَم على هؤلاءِ بتعليمِ السُّفُنِ التي يركبونَها في البحرِ، لولا هذه السفنُ ما استطاعَ أحدٌ أنْ يَعْبُرَ مِن يابسةٍ إلى أُخرَى بينَهما ماءٌ! ولكنَّ اللهَ تعالَى أعْلَمهم بصِناعةِ هذه حتَّى وصَلوا إلى ما وصَلوا إليه[٣].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذُريَّاتِ العِبادِ -على قولٍ في التفسيرِ-، ولم يقُلْ: «حملناهم»! لأنَّ سَكَنَ الأرضِ عامٌّ لكلِّ أحدٍ يَسكنُها؛ فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ إلى أنْ قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]؛ لأنَّ الأكْلَ عامٌّ، وأمَّا الحمْلُ في السَّفينةِ فمِن الناسِ مَن لا يركبُها في عُمرِه ولا يُحمَلُ فيها؛ ولكنَّ ذُريَّةَ العبادِ لا بدَّ لهم مِن ذلك؛ فإنَّ فيهم مَن يحتاجُ إليها،

= (٢٦/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، (تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٤).

فيُحمَلُ فيها[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧]، ولم يقُلْ: (وآيةٌ لهم الفُلكُ جعَلْناها بحيثُ تحمِلُهم)، وإنَّما قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا﴾؛ وذلك لأنَّ حَمْلَهم في الفُلكِ هو العجَبُ، أمَّا نَفسُ الفُلكِ فليس بعجَبٍ؛ لأنَّه كبَيتٍ مبنيٍّ مِن خشَبٍ، وأمَّا نَفسُ الأرضِ فعَجَبٌ، ونَفْسُ اللَّيلِ عَجَبٌ؛ لا قُدرةَ عليهما لأحدٍ إلَّا اللهِ سُبحانَه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾ يُؤخذُ منه جوازُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ حمَل فلانًا، ومِثلُه في الحديثِ[٣]: ((ما أنا حَمَلْتُكم، ولكنَّ اللهَ حمَلَكم))[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أنَّ اللهَ خالِقٌ لأعمالِ العِبادِ، ووَجهُه: أنَّ السُّفُنَ إنَّما يَنجُرُ خَشَبَها ويَركبُها بنو آدمَ؛ فالفُلكُ معمولةٌ لهم، فإذا كان اللهُ قد أخبَرَ أنَّه خَلَقَ الفُلكَ المشحونَ، وجَعَلَ ذلك مِن آياتِه وممَّا أنعَمَ اللهُ به على عبادِه؛ عُلِمَ أنَّه خالِقُ أفعالِهم[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أنَّ المُماثَلةَ قدْ لا تقتَضي المساواةَ مِن كلِّ وَجهٍ؛ فليستِ السُّفُنُ الموجودةُ -التي كانتْ في عَهدِ نُزولِ القرآنِ- ليستْ كمِثلِ سَفينةِ نوحٍ مِن كلِّ وَجهٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣١٣٣)، ومسلِمٌ (١٦٤٩) واللفظ له، من حديثِ أبي مُوسى الأشعريِّ رَضيَ اللهُ عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٥).

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى قد يُنْقِذُ الإنسانَ من الهلاكِ إلى أنْ يأتيَ أجلُه؛ فالخلودَ في هذه الدنيا مُتَعَذِّرٌ ومستحيلٌ، وما كان له غايةٌ فلا بُدَّ أنْ يَنقضيَ[1].

ولقد أحسَن مَن قال[2]:

وإنْ أسْــلَمْ فمَــا أبقَــى ولكِــنْ سَـلِمْتُ مِن الحِمامِ[3] إلى الحِمامِ[4]

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ هذا انتِقالٌ من عَدِّ آياتٍ في الأرض وفي السَّماءِ، إلى عَدِّ آيةٍ في البَحرِ تَجمَعُ بَينَ العِبرةِ والمِنَّةِ، وهي آيةُ تَسخيرِ الفُلكِ أنْ تَسيرَ على الماءِ، وتَسخيرِ الماءِ لِتَطفُوَ عليه دونَ أنْ يُغرِقَها، وقد ذَكَّرَ اللهُ النَّاسَ بآيةٍ عَظيمةٍ اشتُهِرتْ حتَّى كانتْ كالمُشاهَدةِ عِندَهم، وهي آيةُ إلهامِ نُوحٍ عليه السَّلامُ صُنعَ السَّفينةِ؛ لِيَحمِلَ النَّاسَ الذين آمَنوا، ويَحملَ مِن كُلِّ أنواعِ الحَيوانِ زَوجَيْنِ؛ لِيُنجيَ الأنواعَ مِنَ الهَلاكِ والاضمحلالِ بالغَرَقِ في حادِثِ الطُّوفانِ. ولَمَّا كانتْ هذه الآيةُ حاصلةً لِفائدةِ حَملِ أزواجٍ مِن أنواعِ الحَيوانِ، جَعَلتِ الآيةُ نفْسَ الحَمْلِ إدماجًا لِلمِنَّةِ في ضِمنِ العِبرةِ، فكأنَّه قيل: وآيةٌ لهم صُنعُ الفُلكِ؛ لِنَحمِلَ ذُرِّيَّاتِهم فيه، فحَمَلناهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٨).

(٢) البيت للمتنبي، يُنظر: ((ديوانه)) (ص: ٤٨٥).

(٣) الحِمامُ: الموتُ: والمعنى: وإنْ أسْلَمَ مِن مَرضِي لم أَبْقَ خالدًا، ولكنْ سَلِمتُ مِن الموتِ بهذا المَرضِ إلى الموتِ بمَرضٍ وسَببٍ آخَرَ! يُنظر: ((الوساطه بين المتنبي وخصومه)) للجُرجاني (ص: ١٢١)، ((شرح ديوان المتنبي)) للواحدي (٤/ ١٨٢٠)، ((شرح ديوان المتنبي)) للبرقوقي (٤/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦ - ٢٧).

- وذَكَر الذُّرِّيَّاتِ في قَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ لِأنَّ ذلك أبلَغُ في الامتنانِ عليهم، وأدخَلُ في التَّعجيبِ مِن قُدرَتِه، في حَمْلِ أعقابِهم إلى يَومِ القيامةِ في سَفينةِ نُوحٍ، ولأنَّه يقتَضي أنَّ أُصولَ النَّاسِ والبَشَرِ مَحمولونَ بطَريقِ الكِنايةِ إيجازًا في الكَلامِ، وأنَّ أنفُسَهم مَحمولون كذلك، كأنَّه قيل: إنَّا حَمَلْنا أُصولَهم وحَمَلْناهم وحَمَلْنا ذُرِّيَّاتِهم؛ إذْ لولا نَجاةُ الأصولِ، ما جاءَتِ الذُّرِّيَّات، وكانتِ الحِكمةُ في حَملِ الأُصولِ بَقاءَ الذُّرِّيَّات؛ فكانتِ النِّعمةُ شامِلةً لِلكُلِّ. وقيل: الذُّرِّيَّةُ مِن أسماءِ الأضدادِ عِندَ كَثيرٍ، تُطلَقُ على الآباءِ والأولادِ، والمُرادُ هنا: الفريقانِ. وقيل: وتَخصيصُ الذُّرِّيَّةِ بالذِّكرِ؛ لِأنَّ استِقرارَهم في السُّفُنِ أشَقُّ، وتَماسُكَهم فيها أعجَبُ[1].

- وفُهِم مِن دَلالةِ قَولِه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ -صَريحًا وكِنايةً- أنَّ هذه الآيةَ مُستَمِرَّةٌ لِكُلِّ ناظِرٍ؛ إذْ يَشهَدونَ أسفارَهم وأسفارَ أمثالِهم في البَحرِ، وخاصَّةً سُكَّانَ الشُّطوطِ والسَّواحِلِ، فيُفهَم منه: أنَّا حَمَلْنا ونَحمِلُ وسنَحمِلُ أسلافَهم وأنفُسَهم وذُرِّيَّاتِهم[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ فمَنَّ عليهم بحَملِ ذُرِّيَّتِهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ فمَنَّ هناك عليهم بحَمْلِ أنفُسِهم؛ ووَجهُه: أنَّ مَن يَنفَعُ المُتعَلِّقَ بالغيرِ يَكونُ قد نَفَعَ ذلك الغيرَ، ومَن يَدفَعُ الضَّرَرَ عنِ المُتعَلِّقِ بالغيرِ لا يَكونُ قد دَفَعَ الضَّرَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨- ١٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

عن ذلك الغَيرِ، بل يَكونُ قد نَفَعَه. مثالُه: مَن أحسَنَ إلى وَلَدِ إنسانٍ وفَرَّحَه؛ فَرِح بفَرَحِه أبوه، وإذا دَفَع واحِدٌ الألَمَ عن وَلَدِ إنسانٍ يَكونُ قد فَرَّحَ أباه؛ ولا يَكونُ في الحَقيقةِ قد أزالَ الألَمَ عن أبيه، فعِندَ طُغيانِ الماءِ كان الضَّرَرُ يَلحَقُهم؛ فقال: دَفَعتُ عنكمُ الضَّرَرَ؛ ولو قال: دَفَعتُ عن أولادِكمُ الضَّرَرَ، لَمَا حَصَلَ بَيانُ دَفعِ الضَّرَرِ عنهم، وهاهنا أرادَ بيانَ المَنافِعِ، فقال: ﴿حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾؛ لِأنَّ النَّفعَ حاصِلٌ بنَفعِ الذُّرِّيَّةِ، ويَدُلُّ على هذا أنَّه هاهنا قال: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾؛ فإنَّ امتِلاءَ الفُلْكِ مِنَ الأموالِ يَحصُلُ بذِكرِه بَيانُ المَنفَعةِ، وأمَّا دَفعُ المَضرَّةِ فلا؛ لِأنَّ الفُلكَ كُلَّما كان أثقَلَ، كان الخَلاصُ به أبطَأَ، وهُنالِكَ السَّلامةُ، فاختارَ هُنالِكَ ما يَدُلُّ على الخَلاصِ مِنَ الضَّرَرِ، وهو الجَريُ، وهاهنا ما يَدُلُّ على كَمالِ المَنفَعةِ، وهو الشَّحنُ[1]، وهذا على قَولٍ في تَفسيرِ الآيتَينِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ جُملةٌ مُعتَرِضةٌ في خِلالِ آيةِ البَحرِ، اقتَضَتْها مُراعاةُ النَّظيرِ؛ تَذكيرًا بنِعمةِ خَلْقِ الإبِلِ صالِحةً لِلأسفارِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فحُكِيَتْ آيةُ الإلهامِ بصُنعِ الفُلكِ مِن حيثُ الحِكمةُ العَظيمةُ في الإلهامِ، وتَسخيرِ البَحرِ لها، وإيجادِها في وَقتِ الحاجةِ؛ لِحِفظِ النَّوعِ؛ فلذلك لم يُؤتَ في جانِبِها بفِعلِ الخَلْقِ المُختَصِّ بالإيجادِ دونَ صُنعِ الناسِ، وحُكِيَتْ آيةُ اتِّخاذِ الرَّواحِلِ بفِعلِ (خَلْقنا)؛ فما يَركَبونَ هنا يصدُقُ على الرَّواحِلِ خاصَّةً؛ لِأنَّها التي تُشبِهُ الفُلكَ في جَعْلِها قادِرةً على قَطْعِ الرِّمالِ، كما جَعَلَ الفُلكَ صالِحًا لِمَخرِ البِحارِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

- قَولُه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَخَلَقْنَا﴾ الإنشاءُ والاختِراعُ؛ فالمُرادُ الإبِلُ وما يُركَبُ، وتَكونُ (مِنْ) لِلبيانِ، وإنْ كانَ ما يَصنَعُه الإنسانُ قد يُنسَبُ إلى اللهِ خَلْقًا، وإذا أُريدَ به السُّفُنُ، تَكونُ (مِنْ) لِلتَّبعيضِ[(١)]؛ فـ (مِنْ) التي في قَولِه: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ -على أنَّ المرادَ: الإبلُ- بَيانيَّةٌ، بتَقديمِ البَيانِ على المُبيَّنِ، أو مُؤكِّدةٌ، ومَجرورُها أصلُه حالٌ مِن (ما) المَوصولةِ في قَولِه: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾، والمُرادُ المُماثَلةُ في العَظمةِ، وقُوَّةِ الحَملِ، ومُداوَمةِ السَّيرِ، وفي الشَّكلِ[(٢)]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي: ممَّا يُماثِلُ ذلك الفُلكَ من السُّفنِ فجَعَلها مَخلوقةً للهِ تَعالى، معَ كَونِها مِن مَصنوعاتِ العِبادِ؛ ليس لِمُجرَّدِ كَونِ صُنعِهم بأقدارِ اللهِ تَعالى وإلهامِه، بل لِمَزيدِ اختِصاصِ أصلِها بقُدرَتِه تَعالى، وحِكمَتِه، حَسبَما يُعرِبُ عنه قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[(٣)] [هود: ٣٧].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّرَ عن مُلابَستِهم بهذه السُّفُنِ بالرُّكوبِ في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾؛ لِأنَّها باختيارِهم، وعبَّرَ عن مُلابَسةِ ذُرِّيَّتِهم بفُلكِ نوحٍ عليه السَّلامُ بالحَملِ في قولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ لِكَونِها بغَيرِ شُعورٍ منهم واختيارٍ[(٤)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾

- جملةُ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باعتبارِ دَلالَتِها الكِنائيَّةِ على استمرارِ هذه الآيةِ. وهذه المِنَّةُ تَذكيرٌ بأنَّ اللهَ تَعالى الذي امتَنَّ عليهم إذا شاءَ جَعَل فيما هو نِعمةٌ على الناسِ نِقمةً لهم؛ لِحِكمةٍ يَعلَمُها، وهذا جَريٌ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ، وعَكسِه؛ لِئلَّا يَبطَرَ الناسُ بالنِّعمةِ، ولا يَيْئَسُوا مِنَ الرَّحمةِ، وقَرينةُ ذلك أنَّه جيءَ في هذه الجُملةِ بالمُضارِعِ المُتَمحِّضِ في سِياقِ الشَّرطِ؛ لِكَونِه مُستَقبَلًا[١].

- وهم مُعترِفونَ بمَضمونِ قَولِه: ﴿ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ ... ﴾، كما يَنطِقُ به قَولُه تَعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢]، وفي تَعليقِ الإغراقِ بمَحضِ المَشيئةِ: إشعارٌ بأنَّه قد تَكامَلَ ما يُوجِبُ إهلاكَهم مِن مَعاصيهم، ولم يَبقَ إلَّا تعلُّقُ مَشيئَتِه تَعالى به، أي: إنْ نَشَأْ نُغرِقْهم في اليَمِّ مع ما حَمَلْناهم فيه مِنَ الفُلكِ؛ فحَديثُ خَلْقِ الإبلِ حِينَئذٍ كَلامٌ جيءَ به في خِلالِ الآيةِ بطَريقِ الاستِطرادِ؛ لِكَمالِ التَّماثُلِ بَينَ الإبلِ والفُلكِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فكأنَّها نَوعٌ منه، أو مع ما يَركَبونَ مِنَ السُّفُنِ والزَّوارِقِ[٢].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يُنقَذُونَ﴾ في قَولِه: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ، وهو نَفيُ إنقاذِ أحَدٍ إيَّاهم[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴾

- قَولُه: ﴿ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴾ قيل: فيه تَقسيمٌ، أي: إلَّا رَحمةً لِمَن عَلِمَ أنَّه يُؤمِنُ فيُنقِذُه اللهُ رَحمةً، ومَن عَلِمَ أنَّه لا يُؤمِنُ يَمنَعُه زَمانًا، ويَزدادُ إثْمًا[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧١).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بسَلامةِ الاختِراعِ، وهو الإتيانُ بمَعنًى لم يُسبَقْ إليه؛ فإنَّ نَجاتَهم مِنَ الغَرَقِ برَحمةٍ منه تعالَى هي في حَدِّ ذاتِها مَتاعٌ يَستَمتِعونَ به، ولكِنَّه على كُلِّ حالٍ إلى أجَلٍ مُقدَّرٍ يَموتونَ فيه، لا مَندوحةَ لهم عنه؛ فهُمْ إنْ نَجَوْا مِنَ الغَرَقِ فلنْ يَنجوا ممَّا يُشبِهُه أو يُدانيه، والمَوتُ لا تَفاوتَ فيه[1].



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٦- ٢٠٧).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن جَهالاتِ المشركينَ، وتمادِيهم في غَيِّهم وضلالِهم: وإذا قيل لأولئك المُشركين: احْذَروا ما تقدَّم قبْلَكم مِن نِقمِ اللهِ في الأُمم الماضيةِ بكُفرِهم أنْ يحُلَّ مثلُه بكم، واحْذَروا ما أنتُم لاقُوه مِن عذابِ اللهِ تعالَى إنْ هلكْتُم على كُفرِكم وتكذيبِكم، لعلَّكم تُرحمونَ، أعرَضوا وصَمُّوا آذانَهم.

وما تأتيهم آيةٌ مِن الآياتِ التي تدُلُّ على وَحدانيَّةِ الله تعالَى وقُدرتِه، وعلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم صادِقٌ في دَعوتِه؛ إلَّا أعرَضوا عنها وصَمُّوا آذانَهم.

وإذا قِيل لأولئك الكافِرينَ: أنفِقوا ممَّا رزقَكم اللهُ على المحتاجينَ، قالوا على سَبيلِ الاستِهزاءِ والسُّخريةِ: أنُطعِمُهم نحنُ ولو شاء اللهُ لأطعَمَهم هو مِن رِزقِه؟! ما أنتُم في أمْرِكم لنا بالإنفاقِ عليهم إلَّا في ضلالٍ واضحٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عدَّد تعالَى الآياتِ بقَولِه: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ ﴾ [يس: ٣٣]، ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ ﴾ [يس: ٣٧]، ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [يس: ٤١]، وكانت الآياتُ

تُفيدُ اليَقينَ، وتُوجِبُ القَطعَ بما قال تعالَى، ولم تُفِدْهم اليَقينَ -قال: فلا أقَلَّ مِن أن يَحتَرِزوا عن العذابِ؛ فإنَّ مَن أُخبِرَ بوقوعِ عذابٍ: يتَّقيه -وإنْ لم يَقطَعْ بصِدقِ قَولِ المُخبِرِ- احتياطًا[1].

وأيضًا تَخَلَّصَ الكَلامُ مِن عَدَمِ انتِفاعِهم بالآياتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى، إلى عَدَمِ انتِفاعِهم بالأقوالِ المُبَلَّغةِ إليهم في القُرآنِ مِنَ المَوعِظةِ، والتَّذكيرِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المُكذِّبةِ أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم، وبعَدَمِ انتِفاعِهم بتَذكيرِ القُرآنِ إيَّاهم بالأدلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ سُبحانَه، وعلى البَعثِ[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥﴾.

أي: وإذا قيلَ للمُشرِكينَ[3]: احْذَروا ما تَقدَّم قبْلَكم مِن نِقمِ اللهِ في الأُمَمِ الماضيةِ بكُفرِهم أن يحُلَّ مِثلُه بكم، واحْذَروا ما أنتُم لاقُوه من عَذابِ اللهِ تعالَى إنْ هلكتُم على كُفرِكم وتكذيبِكم؛ لعلَّكم تنالونَ بذلك رحمةَ رَبِّكم- إذا قيل للمُشركينَ ذلك أعرَضوا[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٩-١٦٠).
وممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ما أصابَ مَن قَبلَكم من العُقوباتِ، ومعنى: ﴿وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾: عذابُ الآخِرةِ: مقاتِلُ بنُ سليمان، وابنُ جَرير، ومكيٌّ، وابنُ عطية، وجلال الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير الجلالين)) للمحلي (ص: ٥٨٣). =

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: وما تأتي هؤلاءِ المُشركينَ علامةٌ دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ تعالَى وصِدقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا كانوا مُعرِضينَ عنها، فلا يَكترِثون بها، ولا يَتفكَّرونَ فيها[(١)]!

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨).

وقيل: المعنى: اتَّقوا ما بيْن أيديكم مِن أمْرِ الآخِرةِ؛ فاعمَلوا لها، وما خلْفَكم مِن أمْرِ الدُّنيا؛ فلا تغترُّوا بها، واحْذَروا أنْ يُعاقِبَكم اللهُ فيها. وممَّن قال بهذا المعنى: السَّمرقنديُّ، والواحديُّ، والعُليميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، والكَلبيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٩).

وقيل: المرادُ بما بيْن أيديهم وما خَلْفَهم: ذُنوبُهم المتقدِّمة، وذُنوبُهم المتأخِّرة التي تَصدُرُ منهم في المستقبَلِ. وممَّن قال بهذا القول: الزَّجَّاج، وابن جُزي، وابن كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٩).

قال الألوسيُّ بعدَ أنْ ذكَر الخِلافَ: (وحاصلُ الأمْرِ على ما قيل: اتَّقوا العذابَ، أو اتَّقوا ما يَترتَّبُ العذابُ عليه). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨).

وقال ابنُ عُثَيمين بعدَ أنْ ذكَرَ الخِلافَ في الآيةِ: (الآيةُ إذا كانتْ تَحتمِلُ المعانيَ المقولةَ فيها بدونِ تعارُضٍ؛ فإنَّها تُحمَلُ على الجَميعِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٠).

وقال الواحدي: (وجوابُ «إذا» محذوفٌ على تقدير: وإذا قيل لهم هذا أعرَضوا، يدلُّ على المحذوف قولُه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ [يس: ٤٦] أي: عبرةٌ ودلالةٌ تدلُّ على صدقِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ إعراضَهم عن الخالِقِ؛ بيَّن قسوتَهم على المخلوقينَ[(١)]؛ فالمكلَّفُ عليه التَّعظيمُ لجانبِ اللهِ، والشَّفقةُ على خَلقِ اللهِ، وهم تَركوا التَّعظيمَ حيثُ قيلَ لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟﴾ فلم يَتَّقوا، وتَركوا الشَّفقةَ على خَلْقِ اللهِ حيثُ قِيل لهم: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ فلم يُنْفِقوا[(٢)].

وأيضًا لَمَّا كانت الرحمةُ بالرِّزقِ والنصرِ إنَّما تُنالُ بالرحمةِ للضُّعفاءِ، وكان الإنفاقُ خُلُقَ المؤمنينَ؛ قال مبيِّنًا أنَّهم انسلَخوا عن الإنسانيةِ جُملةً[(٣)]:

= كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١).

قال ابنُ الجوزي: (وفي «الآية» قولان: أحدُهما: أنَّها الآيةُ مِن القُرآنِ. والثاني: المعجزةُ، مثل انشقاقِ القمرِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٩).

وقال الواحديُّ: (المرادُ بالآياتِ: الدَّلالاتُ التي يجبُ أن يَستَدِلُّوا بها على تَوحيدِ اللهِ وصِدقِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينَهما، مع المُعجزاتِ التي أتَى بها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((البسيط)) (٨/ ١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

أي: وإذا قِيلَ للمُشركينَ: أنفِقوا ممَّا رزَقَكم اللهُ على غَيرِكم مِنَ المحتاجينَ، قال أولئك المشركونَ للمُؤمِنينَ: كيف نُطعِمُ -نحْنُ- هؤلاء الذين تأمُرونَنا بالإنفاقِ عليهم ولو شاء اللهُ لأطعَمَهم هو مِن رِزقِه[١]؟!

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: وقال المشركون أيضًا للمؤمنينَ: ما أنتُم بأمْرِكم لنا بالإنفاقِ ممَّا رزَقَنا اللهُ على المحتاجِينَ إلَّا في ضَلالٍ واضحٍ في غايةِ الظُّهورِ[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٧-١٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٧).
قيل: لَمَّا أسْلَم المُستضعَفونَ مِن أقرباءِ الكُفَّارِ ومَواليهم، قطَع الكُفَّارُ عنهم ما كانوا يُواسونَهم به، وكان ذلك بمكَّةَ أوَّلًا قبلَ نزولِ آياتِ القِتالِ، فنَدَبَهم المؤمِنونَ إلى صِلَةِ قرابَاتِهم فقالوا: أنُطْعِمُ مَن لو يَشاءُ اللَّهُ أطْعَمه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٢).
وقولُهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ قيل: يحتَمِلُ أنْ يكونَ استهزاءً. وقيل: يحتَمِلُ أن يكونَ مِن بابِ الاحتجاجِ بالقَدَرِ؛ إمَّا عنادًا ومُعارَضةً للحَقِّ، أو فِرارًا من العِتابِ واللَّومِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٧-١٦٨).
وقيل: قَصَدوا بقولِهم الإنكارَ لقدرةِ اللَّهِ، أو إنكارَ جوازِ الأمرِ بالإنفاقِ مع قُدرةِ اللَّهِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).
قال الرَّسْعني: (قَولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يحتَمِلُ وُجوهًا:
أحدُها: أنَّه مِن تمامِ كلامِهم للمُؤمنين. قاله قتادةُ.
والثَّاني: أنَّه إخبارٌ مِن الله تعالى وحُكمٌ عليهم بالضَّلالِ؛ حيث ردُّوا على المؤمنينَ هذا الجَوابَ.
الثَّالِثُ: أنَّه حكايةُ قَولِ المؤمِنينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٤).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أنَّ الإقبالَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واجتنابَ مَعصيتِه: سَبَبٌ للرَّحمةِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أنَّ بني آدمَ قد يَستكبِرونَ، فيُعرِضُون عنِ الآياتِ بدونِ نَظرٍ، والواجبُ على الإنسانِ أنْ يَنظُرَ أوَّلًا، ثمَّ يَحكُمَ ثانيًا؛ ولهذا يقالُ: «الحُكمُ على الشَّيءِ فَرعٌ عن تَصوُّرِه»[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى أمْرينِ: أحدُهما: أنَّ البُخلَ به في غايةِ القُبحِ؛ فإنَّ أبخلَ البُخَلاءِ مَن يَبخَلُ بمالِ الغيرِ. وثانيهما: أنَّه لا يَنبغي أنْ يمنَعَكم من ذلك مَخافةُ الفَقرِ؛ فإنَّ اللهَ رزَقَكم، فإذا أنفَقتُم فهو يُخلِفُه لكم ثانيًا، كما رزَقَكم أوَّلًا[(٣)].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّ البُخلَ هو من صِفاتِ الكافِرينَ، وإذا كان مِن صِفاتِ الكافِرينَ فإنَّه لا يَنبغي للمُؤمنِ أنْ يَتَّصِفَ به؛ فكلُّ ما كان من صِفاتِ الكافِرينَ -مِن اليَهودِ والنَّصارى وغيرِهم- فإنَّ اللَّائقَ بالمسلِمِ ألَّا يَفعَلَه؛ لأنَّه إذا فعَلَه صارَ مُتَشبِّهًا بالكافِرينَ في هذه الخَصلةِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أعرَضَ عن دِينِ اللهِ واستكبرَ كان عُرضَةً للعذابِ؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ، أو في الدُّنيا والآخِرةِ[(١)].

٢- قال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ فإنَّ «لعلَّ» هذه للتَّعليلِ، ولا أحدَ يُنكِرُ أنَّ للأسبابِ تأثيرًا إلَّا مَن صُرِفَ عن مُقتضى الفِطرةِ[(٢)]!

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُبيِّنُ لعِبادِه مِن الآياتِ ما يُؤمِنُ على مِثلِه البَشَرُ، ووجهُ ذلك: أنَّه لولا هذا لم يكُنْ في الآياتِ فائِدةٌ[(٣)]!

٤- إضافةُ الآياتِ إلى ربِّهم في قَولِه تعالَى: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه دَليلٌ على كمالِها ووُضوحِها، وأنَّ مِن جُملةِ تربيةِ اللهِ لعِبادِه: أنْ أوصَلَ إليهم الآياتِ التي يَستدلُّونَ بها على ما يَنفعُهم في دِينِهم ودُنياهم[(٤)].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أنفَقَ بأمرِ اللهِ تعالَى؛ فلا مِنَّةَ له على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي أعطاه[(٥)].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧٠).

﴿أَطْعَمَهُۥٓ﴾ ذَمُّ مَن يَترُكُ المأمورَ به؛ اكتِفاءً بما يَجري به القَدَرُ[١]!

٧- في قَولِهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أنَّ الإنسانَ قدْ يقولُ كَلِمةَ الحَقِّ يريدُ بها الباطِلَ؛ فنحن نُؤمِنُ بأنَّه لو شاءَ اللهُ لأطعمَ هؤلاء، لكِنَّ حِكمتَه عزَّ وجلَّ اقتضتْ أنْ يَجعَلَ هؤلاء فُقَراءَ، وهؤلاءِ أغنياءَ[٢]. فما ذكروه حُجَّةٌ باطِلةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى منَعَ الدُّنيا من الفُقَراءِ لا بُخلًا ولكِنْ ابتِلاءً، وأمَرَ الأغنياءَ بالإنفاقِ لا بحُكمِ الحاجةِ إلى أموالِهم، لكِنِ لابتلاءِ شُكرِهم[٣]، فهذا الاحتِجاجُ باطِلٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى إذا ملَّك عَبدًا مالًا، ثمَّ أوجَبَ عليه فيه حَقًّا، فكأنَّه انتَزَع ذلك القَدْرَ منه؛ فلا معنى للاعتراضِ، وقد صَدَقوا في قَولِهم: لو شاءَ اللهُ أطعَمَهم، ولكِنْ كَذَبوا في الاحتِجاجِ[٤].

٨- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ احتِجاجُهم بالمشيئةِ ممَّا يدُلُّ على جَهلِهم العَظيمِ، أو تجاهُلِهم الوَخيمِ؛ فإنَّ المشيئةَ ليستْ حُجَّةً لعاصٍ أبدًا؛ فإنَّه وإنْ كان ما شاءَ اللهُ كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ: فإنَّه تعالَى مكَّن العِبادَ، وأعطاهم مِن القُوَّةِ ما يَقدِرونَ على فِعلِ الأمْرِ، واجتنابِ النَّهيِ، فإذا ترَكوا ما أُمِروا به كان ذلك اختيارًا منهم، لا جبرًا لهم ولا قَهرًا[٥].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أنَّ المشركين يُقِرُّونَ بمشيئةِ اللهِ؛ وأنَّها نافذةٌ في كلِّ شيءٍ، والمشركون أو الكافِرون لا يُنْكِرونَ رُبوبيَّةَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

عزَّ وجلَّ؛ بل يُقِرُّونَ بها، حتى الذين تظاهَروا بإنكارِها إنَّما يُنكرونها بألْسنتِهم؛ لقولِه تعالَى عن آلِ فرعونَ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، ولقولِ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ لفرعونَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، لكنْ يُنكِرون الرُّبوبيَّةَ استكبارًا ومُكابَرةً؛ وإلَّا فإنَّ قرارةَ نُفوسِهم تَشْهَدُ بها[١].

١٠- للمُشرِكينَ أساليبُ ادِّعائيَّةٌ يَستعمِلُونها مِن قَديمِ الزَّمانِ؛ حيثُ قالوا لهؤلاء القائلينَ: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الوَصفُ المَشينُ للمُؤمِنينَ مِن الكافِرين لم يَزَلْ ولا يَزالُ موجودًا إلى يَومِنا هذا؛ فهم يَصِفونَ أهلَ الخيرِ بالأوصافِ الكَثيرةِ المُنفِّرةِ منهم، أو التي يَقصِدون بها استِعداءَ الحُكَّامِ على هؤلاء المؤمنين؛ يقولون: هؤلاء رَجعيُّون، وهؤلاء مُتخَلِّفون، هؤلاء مُتَشدِّدون، هؤلاء مُتزمِّتون! وما أشبهَ ذلك مِن الكلماتِ التي يَصِفونَ بها أولياءَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ إعراضِهم عنِ الآياتِ التَّنزيليَّةِ بَعدَ بَيانِ إعراضِهم عنِ الآياتِ الآفاقيَّةِ التي كانُوا يُشاهِدونَها، وعَدَمِ تَأمُّلِهم فيها[٣].

- وبِناءُ فِعلِ ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه؛ لِظُهورِ أنَّ القائِلَ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تَبليغِه عنِ اللهِ تعالَى، أي: قيلَ لهم في القُرآنِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠).

- وقَولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ كقولِه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ [سبأ: ٩]؛ وجهُ المشابَهةِ: إحاطةُ العَذابِ بهم من كُلِّ حَدَبٍ، وأنَّهم أينَما ساروا فإنَّه أمامَهم وخَلفَهم مُحيطٌ بهم، لا يَقدِرونَ على الخُروجِ ممَّا همْ فيه، يَدُلُّ عليه قَولُه: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۞ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [يس: ٤٣، ٤٤]؛ ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١).

- وقَولُه أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما بيْن الأيدي: يُرادُ منه المُستَقبَلُ، وما هو خَلفٌ: يُرادُ منه الماضي، وأصْلُ هذَينِ التَّركيبينِ تَمثيلانِ، فتارةً يَنظُرونَ إلى تمثيلِ المضافِ إليه بسائرٍ إلى مكانٍ؛ فالذي بيْن يَديهِ: هو ما سَيرِدُ هو عليه، والذي مِن ورائِه هو ما خَلَّفَه خَلْفَه في سَيرِه. وتارةً يَنظُرونَ إلى تَمثيلِ المضافِ بسائرٍ؛ فهو إذا كان بين يَدي المضافِ إليه فقدْ سبقَه في السَّيرِ، فهو سابقٌ له، وإذا كان خَلْفَ المضافِ إليه فقد تأخَّرَ عنه، فهو وارِدٌ بَعدَه، وقد فُسِّرَت هذه الآيةُ بالوَجهَينِ؛ فقيل: ما بيْن أيديكم مِن أمْرِ الآخِرةِ، وما خَلْفَكم مِن أحوالِ الأُمَمِ في الدُّنيا. وقيل: ما بيْن أيديكم: أحوالُ الأُمَمِ في الدُّنيا، وما خَلْفَكم: مِن أحوالِ الآخِرةِ(٢).

- وجَوابُ (إذا) في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ مَحذوفٌ، مَدلولٌ عليه بقَولِه بَعدَه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ فكأنَّه قال: وإذا قيل لهمُ: اتَّقوا، أعرَضوا؛ لِأنَّهم اعتادُوه وتمَرَّنوا عليه، ثُمَّ قال: ودَأْبُهمُ الإعراضُ عِندَ كُلِّ آيةٍ ومَوعِظةٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ واقِعٌ مَوقِعَ التَّذييلِ لِمَا قَبلَه؛ ففيه تَعميمُ أحوالِهم وأحوالِ ما يُبَلَّغونَه مِنَ القُرآنِ، فكأنَّه قِيل: وإذا قِيل لهمُ: اتَّقوا، أعرَضوا، والإعراضُ دَأْبُهم في كُلِّ ما يُقالُ لهم. وهذا التذييلُ أيضًا يُؤكِّدُ ما سبَقَ مِن حديثِ الإعراضِ[١].

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿تَأْتِيهِم﴾؛ لِلدَّلالةِ على الاستِمرارِ التَّجدُّدِيِّ، و(مِنْ) الأُولى صِلةٌ لِتأكيدِ العُمومِ[٢].

- وإضافةُ الآياتِ إلى اسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِهم ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لِتَفخيمِ شَأنِها المُستَتْبِعِ لِتَهويلِ ما اجترَؤوا عليه في حَقِّها، والمُرادُ بها إمَّا الآياتُ التَّنزيليَّةُ؛ فإتيانُها نُزولُها، وإمَّا ما يَعُمُّها وغَيرَها مِنَ الآياتِ التَّكوينيَّةِ الشَّامِلةِ لِلمُعجِزاتِ وغَيرِها من تَعاجيبِ المَصنوعاتِ التي مِنْ جُملَتِها الآياتُ الثَّلاثُ المَعدودةُ آنِفًا؛ فالمُرادُ بإتيانِها ما يَعُمُّ نُزولَ الوَحيِ، وظُهورَ تلك الأُمورِ لهم[٣].

- وكَلِمةُ ﴿عَنْهَا﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿مُعْرِضِينَ﴾، قُدِّمتْ عليه مُراعاةً لِلفَواصِلِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: ممَّا أعطاكُم بطَريقِ التَّفضُّلِ والإنعامِ مِن أنواعِ الأموالِ؛ عبَّرَ عنها بذلك تَحقيقًا لِلحَقِّ، وتَرغيبًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإنفاقِ، وتَنبيهًا على عِظَم جِنايَتِهم في تَركِ الامتِثالِ بالأمْرِ. وكذلك (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ، أي: إذا قيل لهم بطَريقِ النَّصيحةِ: أنفِقُوا بَعضَ ما أعطاكُمُ اللهُ تعالَى مِن فَضلِه على المُحتاجينَ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَرُدُّ البَلاءَ ويَدفَعُ المَكارِهَ[1].

- وفي قولِه: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أظهَرَ اسمَ الجَلالةِ ولم يُضمِرْ؛ إشارةً إلى جَلالةِ الرِّزقِ بجَلالةِ مُعطِيه[2].

- وأيضًا إظهارُ المَوصولِ مِن قَولِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في مَقامِ الإضمارِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (قالوا أنُطعِمُ...) إلخ-؛ لِنُكتةِ الإشارةِ إلى أنَّ صُدورَ هذا القَولِ منهم إنَّما هو لِأجلِ كُفرِهم، ولِأجلِ إيمانِ الذين سُئِلَ الإنفاقُ عليهم[3]؛ ففيه تصريحٌ بكُفرِ هؤلاء، وأنَّهم قالوه بسَببِ الكُفرِ؛ لا بسَببِ البخلِ! وأيضًا لإفادةِ أنَّ مِثْلَ هذه المقالةِ لا تَصْدُرُ إلَّا مِن كافرٍ؛ فيكونُ الكُفرُ عامًّا لكلِّ مَن قال هذه المقالةَ[4].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ إنكاريٌّ، وهذا الجَوابُ خَرجَ مَخرَجَ الاستِهزاءِ والتَّهكُّمِ بالمُؤمنينَ، وبما كانوا يَقولونَه مِن تَعليقِ الأُمورِ بمَشيئةِ اللهِ، أي: لا نُطعِمُ مَن لو شاءَ اللهُ لَأطعَمَهم، بحَسبِ اعتِقادِكم أنَّ اللهَ هو المُطعِمُ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٩).

- وأيضًا التَّعبيرُ في جَوابِهم بالإطعامِ في قَولِه: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ مع أنَّ المَطلوبَ هو الإنفاقُ: إمَّا لِمُجرَّدِ التَّفنُّنِ؛ تَجنُّبًا لإعادةِ اللَّفظِ؛ فإنَّ الإنفاقَ يُرادُ منه الإطعامُ، وإمَّا لِأنَّهم سُئِلوا الإنفاقَ، وهو أعَمُّ مِنَ الإطعامِ؛ لِأنَّه يَشمَلُ الإكساءَ والإسكانَ، فأجابوا بإمساكِ الطَّعامِ، وهو أيسَرُ أنواعِ الإنفاقِ، ولأنَّهم كانوا يُعيِّرونَ مَن يَشِحُّ بإطعامِ الطَّعامِ، وإذا مَنعوا المُؤمِنينَ الطَّعامَ كان مَنعُهم ما هو فَوقَه أَحْرى[1]؛ ففيه بيانُ غايةِ مُخالفتِهم؛ وذلك لأنَّهم إذا أُمِروا بالإنفاقِ -والإنفاقُ يَدخُلُ فيه الإطعامُ وغَيرُه- فلم يأتوا بالإنفاقِ ولا بأقَلَّ منه -وهو الإطعامُ-، وقالوا: لا نُطعِمُ، وهذا كما يقولُ القائِلُ لِغَيرِه: أعطِ زَيدًا دِينارًا؛ يقولُ: لا أعطيه دِرهمًا، مع أنَّ المطابِقَ هو أنْ يقولَ: لا أُعطيه دِينارًا، ولكِنَّ المبالغةَ في هذا الوَجهِ أتَمُّ؛ فكذلك هاهنا[2].

- وجُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ من قَولِ المُشرِكينَ، يُخاطِبونَ المُؤمِنينَ، أي: ما أنتُم في قَولِكم: أنفِقوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللهُ إلَّا مُتمَكِّنٌ منكم الضَّلالُ الواضِحُ، وجَعَلوه ضَلالًا؛ لِجَهلِهم بصِفاتِ اللهِ تعالَى، وجَعلوه مُبِينًا؛ لِأنَّهم يُحَكِّمونَ الظَّواهِرَ مِن أسبابِ اكتِسابِ المالِ وعَدَمِه، وهذه الجُملةُ تَعليلٌ لِلإنكارِ المُستَفادِ مِنَ الاستِفهامِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ جَوابًا مِنَ اللهِ لهم، أو حِكايةً لِجوابِ المُؤمِنينَ لهم، أو هو مِن جُملةِ جَوابِهم لِلمُؤمِنينَ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩- ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

الآيات (٤٨-٥٤)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخِصِّمُونَ﴾: أي: يَختَصِمونَ ويَتَشاجَرونَ على عادتِهم، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ[1].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ، وقيل: الصُّورُ جمْعُ صُورةٍ يَنْفُخُ فيها رُوحَها فتَحْيَا[2].

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، واحِدُها: الجَدَثُ[3].

﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، مِن النَّسَلانِ: وهو مُقارَبةُ الخَطْوِ مع الإسراعِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على انسِلالِ شَيءٍ بسُرعةٍ[١].

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾: ويل: كلمةُ دُعاءٍ بالهَلاكِ والعذابِ، وتُطلَقُ كذلك على حُلولِ الشرِّ، وتُستعمَلُ في التَّحسُّرِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

قَولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: في ﴿هَٰذَا﴾ وجهانِ؛ أظهرُهما: أنَّه مُبتدأٌ خبَرُه ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ويكونُ الوقفُ تامًّا على قَولِه: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَا﴾، ثمَّ يَبتدئُ فيَقولُ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهذه الجملةُ لا مَحلَّ لها مُستأنَفةٌ: مِن قَولِ الملائكةِ أو المُؤمِنينَ. ويَحتَمِلُ أن تكونَ مِن كلامِ الكُفَّارِ؛ فتكونَ في مَحلِّ نصبٍ بالقَولِ. والثاني: أنْ يكونَ ﴿هَٰذَا﴾ صِفةً لـ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾ في مَحلِّ جرٍّ، و﴿مَا وَعَدَ﴾ مُنقَطِعٌ عَمَّا قبلَه. و﴿مَا﴾ مَوصولٌ اسميٌّ في محلِّ رفعٍ مبتدأٌ، والخبَرُ مَحذوفٌ، أي: الذي وَعَدَه الرَّحمنُ حَقٌّ، أو خبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هذا الذي وعَدَه الرَّحمنُ. ويَصِحُّ في ﴿مَا﴾ أنْ تكونَ مَوصولًا حرفيًّا مؤولةً مع ما بعدَها بمَصدرٍ، أي: (وَعْدُ الرَّحمنِ)، وله إعرابُ ما قبْلَه نفْسُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٧٥).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُبيِّنًا إنكارَ المشركينَ للبعثِ واستبعادَهم له: ويقولُ أولئك المُشرِكون تَكذيبًا واستِهزاءً: متى يَجيءُ يومُ القِيامةِ إنْ كنتُم صادِقينَ في أنَّنا مَبعوثون فمُحاسَبون؟!

ثمَّ يردُّ اللهُ تعالَى عليهم ببيانِ بعضِ مَشاهِدِ يومِ القِيامةِ، فيقولُ: ما ينتَظِرونَ إلَّا صَيحةَ النَّفخِ في الصُّورِ عِندَ قِيامِ السَّاعةِ، فتأخُذُهم وهم يَختَصِمونَ في شُؤونِ الدُّنيا، غافِلينَ عن السَّاعةِ، فلا يَستطيعون حِينَها أنْ يُوصُوا أحدًا بشَيءٍ، ولا يَستطيعونَ الرُّجوعَ إلى أهليهم!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى حالَهم عِندَ نفخةِ البعثِ، فيقولُ: ونُفِخَ في الصُّورِ نَفخةُ البَعثِ فإذا أولئك المُشرِكونَ يَخرُجونَ من القُبورِ مُسرِعينَ إلى رَبِّهم، ويقولونَ: يا وَيلَنا مَن أحْيانَا مِن قُبورِنا؟! قال المؤمنون: هذا هو البَعثُ الذي وعَدَنا الرحمنُ إيَّاه، وقد صدَقَ رسُلُ اللهِ فيما أخبَرونا به.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه سُرعةَ حُضورِهم للحِساب، فيقولُ: ما كانت النفخةُ المذكورةُ إلَّا نَفخةً واحدةً فإذا هم قد أُحضِروا أجمعينَ؛ فيومَ القِيامةِ لا يَظلِمُ اللهُ أيَّ نَفسٍ شَيئًا ممَّا تَستَحِقُّه، ولا تُجزَونَ إلَّا جزاءَ أعْمالِكم التي عَمِلتُموها في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه ذُكِرَ عَقِبَ استِهزائِهم بالمُؤمِنينَ -لَمَّا مَنَعوهمُ الإنفاقَ بعِلَّةِ أنَّ اللهَ لو شاءَ لَأطعَمَهم- استِهزاءٌ آخَرُ بالمُؤمِنينَ في تَهديدِهمُ المُشرِكينَ بعَذابٍ يَحُلُّ بهم،

فكانوا يَسألونَهم هذا الوَعدَ؛ استِهزاءً بهم، بقَرينةِ قَولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ قِلَّةَ خَيرِهم المُستَنِدةَ إلى تهكُّمِهم باليومِ الذي ذُكِّروا به، بالأمرِ بالاتِّقاءِ والتَّعليلِ بتَرجِّي الرحمةِ؛ أتْبَعَه حِكايةَ استِهزاءٍ آخَرَ منهم، دالٍّ على عَظيمِ جَهلِهم، بتكذيبِهم بما يُوعَدونَ على وَجهِ التَّصريحِ بذلك اليومِ، والتَّصويرِ له بما لا يَسَعُ مَن له أدْنَى عقْلٍ غيرَ الانقيادِ له؛ فقال[2]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ تَكذيبًا أو استهزاءً: متى يكونُ البَعثُ يومَ القِيامةِ إنْ كنتُم صادِقينَ في دعواكم أنَّنا نُبعَثُ بعدَ مَوتِنا أحياءً[3]؟

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان استِهزاءُ الكافرينَ هذا يَسوءُ المُسلِمينَ؛ أعلَمَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنينَ بأنَّ الوَعدَ واقِعٌ لا مَحالةَ، وأنَّهم ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً تَأخُذُهم، فلا يُفلِتونَ مِن أخذَتِها[4].

وأيضًا لَمَّا كان الحازِمُ مَن لا يَتهكَّمُ بشَيءٍ إلَّا إذا استعدَّ له بما هو مُحقَّقُ الدَّفعِ؛ بيَّن سفَهَهم بإتيانِها بَغتةً، وبأنَّه لا بُدَّ مِن وُقوعِها بقَولِه[5]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٩).

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾.

أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً واحِدةً حينَ يُنفَخُ في الصُّورِ عِندَ قيامِ السَّاعةِ، فتُصيبُهم وهم يختَصِمونَ في شُؤونِ دُنياهم؛ فهم في غَفلتِهم لاهونَ عنها، لم تَخطُرْ على قُلوبِهم[(١)]!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدْ نشَرَ الرَّجُلانِ ثَوبَهما بيْنَهما فلا يَتبايعانِه ولا يَطويانِه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدِ انصرَفَ الرَّجُلُ بلَبَنِ لِقحَتِه[(٢)] فلا يَطعَمُه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه[(٣)]، فلا يَسْقي فيه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدْ رفَعَ أحَدُكم أُكْلتَه إلى فيه فلا يَطعَمُها!))[(٤)].

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٥٠﴾.

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾.

أي: فلا يَستطيعونَ حِينَها أنْ يُوصُوا أحدًا بأيِّ شَيءٍ ممَّا يُريدونَ الوَصيَّةَ به، كالأموالِ وغَيرِها[(٥)]!

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠، ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٢) اللِّقْحَةُ: النَّاقةُ التي لها لَبَنٌ يُحلَبُ. يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٧/ ١٥١).

(٣) يَليطُ حوْضَه: أي: يُصْلِحُه ويَبنيه، ويُلْصِقُ به الطِّينَ لإصلاحِه؛ ولئلَّا يَنشَفَ ماؤُه. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عِياض (٨/ ٥٠٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٠٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٩٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

أي: ولا يَستطيعونَ حِينَها الرُّجوعَ إلى أهليهم[١]!

ثم بيَّن أنَّهم بَعدَ أنْ يَموتوا يُنفَخُ في الصُّورِ النَّفخةُ الثانيةُ[٢]؛ نَفخةُ البعثِ مِن القُبورِ، فقال[٣]:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ٥١﴾.

أي: ونُفِخَ في الصُّورِ نَفخةٌ ثانيةٌ للبَعثِ يومَ القِيامةِ، فإذا هم يَخرُجونَ من القُبورِ مُسرِعينَ إلى رَبِّهم[٤].

كما قال تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩).

(٢) اختَلَفَ العُلَماءُ في عددِ النَّفَخاتِ في الصُّورِ على أقوالٍ؛ فقيلَ: هُما نَفْخَتانِ: نَفْخةُ الفزَعِ والصَّعقِ، ونَفْخةُ البَعثِ. ممَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ جَرير، والقُرطبيُّ، والسعديُّ، وابنُ باز، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٧).
وقيل: هِي ثَلاثُ نَفَخاتٍ، وهي نفْخَة الفزعِ، ونفخَة الصَّعقِ، ونفخَة البعثِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميَّة، وابنُ كَثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).
وقيل: هي أربعُ نَفَخاتٍ، وممَّن ذهَب إلى هذا: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٥٢- ٥٥٣، ٥٥٨، ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤١-١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٦).



وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرنٌ يُنفَخُ فيه))[١].

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تشوَّفت النَّفسُ إلى سَماعِ ما يقولونَ إذا عايَنوا ما كانوا يُنكِرونَ؛ استأنَفَ قَولَه[٢]:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾.

أي: قال الكافِرونَ: يا وَيلَنا[٣] مَن أحيانَا فأيقَظَنا وأقامَنا مِن مَرقَدِنا[٤]؟!

---

(١) أخرجَه أبو داود (٤٧٤٢)، وأحمد (٦٥٠٧) باختلاف يسير، والترمذي (٢٤٣٠)، والنسائي (١١٤٥٦) واللفظ لهما.
حسَّنه التِّرمذيُّ، وذكَر ثُبوتَه ابنُ كَثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٢).

(٣) قيل: هي كلِمةٌ يقولُها الواقِعُ في مُصيبةٍ، أو المتحَسِّرُ، أو النادِمُ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملة: السعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٥، ١٨٩).
قال البِقاعي: (أي: ليس بحَضرتِنا اليومَ شَيءٌ يُنادِمُنا إلَّا الويلُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٤٢-١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٦).
قيل: معنى ﴿مَرْقَدِنَا﴾: رَقدتُنا ومَنامُنا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جَرير، والسَّمرقندي، والثعلبي، والعُليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧). =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربَعون -قالوا: يا أبا هُرَيرةَ، أربعون يومًا؟ قال: أبيتُ! قالوا: أربعون شَهرًا؟ قال: أبَيتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ[١]!- ثمَّ يُنزِلُ اللهُ من السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٢]، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القِيامةِ))[٣].

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

أي: قال المؤمِنون: هذا هو البَعثُ الذي وعَدَ به الرَّحمنُ، وقد صَدَقَ رُسُلُه فيما أخبَرونا به[٤].

= وقيل: موضِعُ رُقادِنا، وهو القُبورُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كَثير، وابن عاشور، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٥).

(١) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظْمُ اللطيفُ الَّذي في أسفلِ فقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بينَ الأليتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) رواه البخاري (٤٩٣٥) ومسلم (٢٩٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١، ٥٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٦).

ممَّن اختار أنَّ هذا من كلامِ المؤمنينَ: ابنُ جَرير، وابنُ كَثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أُبيُّ بنُ كعب، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ أبي ليلى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٣).

قال الشنقيطيُّ: (الكافِرُ يدعو بالوَيلِ، والمؤمِنُ يَطمَئِنُّ للوَعدِ، ومِمَّا يدُلُّ على أنَّ الجوابَ =

كما قال تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الإخبارُ بالنَّفخِ لا يَنفي التعَدُّدَ، قال مُهوِّنًا مِن أمْرِ البَعثِ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه، مُظهِرًا للعِنايةِ بتأكيدِ كَونِها واحدةً[(١)].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾.

= مِن المؤمِنينَ لا مِنَ الملائكةِ، كما يقولُ بَعضُ النَّاسِ: ما جاء في آخِرِ السِّياقِ؛ قَولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي: كِلا الفريقينِ ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾). ((أضواء البيان)) (٩/ ٥٧).

وقيل: هذا مِن كلامِ الملائكةِ. وممَّن قال بهذا القول: مُقاتِلُ بن سُليمان، والفرَّاء، وابن قُتَيبة. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٠)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباس، وزيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١).

قال ابنُ كثير: (يقولونَ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمِنونَ -قالَه غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ- ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقال الحَسَن: إنَّما يُجيبُهم بذلك الملائكةُ. ولا مُنافاةَ؛ إذ الجَمعُ ممكِنٌ، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١-٥٨٢).

وقيل: هو مِن كلامِ الكافِرينَ، وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٤).

أي: ما كانتْ تلك النَّفخةُ المذكورةُ إلَّا نَفخةً واحِدةً، فإذا هم قدْ أُحضِروا مُجتَمِعينَ لَدَيْنا دونَ أن يتخَلَّفَ منهم أحدٌ[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان هذا الإحضارُ بسبَبِ العَدلِ، وإظهارِ جَميعِ صِفاتِ الكَمالِ؛ قال[٢]:

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ففي هذا اليومِ -يومِ القِيامةِ- لا يَظلِمُ اللهُ أيَّ نَفسٍ مِن النُّفوسِ أيَّ شَيءٍ مِمَّا تَستَحِقُّه[٣].

﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولا تُجزَونَ يومَ القِيامةِ إلَّا بحَسَبِ أعمالِكم التي كنتُم تَعمَلونَها في الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ تمامُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حيثُ كان مُجرَّدُ النفخِ يُوجِبُ أنْ يخرُجَ الناسُ جميعًا مِن قُبورِهم مُسرعينَ، ثمَّ قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كلُّهم يُحضرونَ عِندَ اللهِ عزَّ وجلَّ بصيحةٍ واحدةٍ؛ إنَّ العقلَ ليحارُ حَيرةً عظيمةً في كَمالِ قُدرةِ الله عزَّ وجلَّ، فلا تستبعِدْ شيئًا على قُدرةِ اللهِ، فإذا نزَلتْ بك حاجةٌ، أو أصابَك فقرٌ، أو ألَمَّتْ بك ضائقةٌ فادْعُ اللهَ؛ فإنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ[(١)].

٢- ميزانُ العدلِ يومَ القيامةِ مستقيمُ اللِّسانِ، تبينُ فيه الذَّرَّةُ، فيُجزَى العبدُ على الكلمةِ قالها في الخيرِ، والنظرةِ نظَرها في الشرِّ، فيا مَن زادُه مِن الخيرِ طفيفٌ، احذرْ ميزانَ عدلٍ لا يَحيفُ، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[(٢)].

٣- قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أتُراكَ بأيِّ عملٍ تُجزَى، أتُراك تُهنَّى أو تُعزَّى، قلبُك عندَ الصَّلاةِ في غَيبةٍ، ولِسانُك في الصومِ في غِيبةٍ، وما صَفَتْ لك في العُمرِ رَكعةٌ، وقد مرَّ أكثرُ الأجَلِ بسُرعةٍ، فانتَبِهْ قبْلَ أنْ يَفوتَ التدارُكُ، وفرِّغْ قلبَك قبْلَ أنْ تَفرُغَ دارُك!)[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: لا يَنتظِرونَ إلَّا الصَّيحةَ

= (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣)، ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٦/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/ ١٩٨).

(٣) ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/ ١٩٩).

المعلومةَ، ولَمَّا كانتْ هذه الصَّيحةُ لا بُدَّ مِن وُقوعِها، جُعِلوا كأنَّهم مُنتَظِروها. فإن قِيل: هم ما كانوا ينتظِرونَ، بل كانوا يَجزمون بعَدمِها؟ فالجوابُ: أنَّ الانتظارَ فِعليٌّ؛ لأنَّهم كانوا يَفعلونَ ما يستحقُّ به فاعلُه البوارَ، وتَعجيلَ العذابِ، وتَقريبَ الساعةِ، لولا حكمُ اللهِ وقُدرتُه وعلمُه[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ بيانُ حالِ هؤلاء الذين تقومُ عليهم القِيامةُ، وتأخُذُهم الصَّيحةُ، وهي: الخُصومةُ والتَّنازُعُ؛ ممَّا يدُلُّ على سُوءِ أحوالِهم، وسُوءِ أخلاقِهم، وأنَّه لا هَمَّ لهم إلَّا هذه المخاصَمةُ والمنازَعةُ؛ شُحًّا وطَمعًا في الدُّنيا، وغَفلةً عن الآخرةِ؛ ولهذا جاء في الحَديثِ الصَّحيح: أنَّ الساعةَ لا تقومُ إلَّا على شِرارِ الخَلقِ[٢]، وهؤلاء مِن المعلومِ أنَّهم يأكُلونَ ويَشربونَ، لكنْ لم يَذكُرِ اللهُ إلَّا هذا التخاصُمَ؛ لبيانِ سُوءِ حالِهم في ذلك الزَّمَنِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الساعةَ تأتيهم وهُم في غفلةٍ، وعدمِ شعورٍ بإتيانِها[٤].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إثباتُ النَّفخِ في الصُّورِ، وهو مِن الأمورِ الغَيبيَّةِ التي يَجبُ الإيمانُ بها دونَ التَّعرُّضِ لكَيفيَّتِها[٥].

٥- النفخُ في الصُّورِ إذا وَقَعَ لم يَسْتَطِعْ أحدٌ أنْ يَتكلَّمَ، ولا يَتَزَحْزَحَ من مكانِه، يُؤخذُ ذلك مِن قولِه تعالَى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾ هذا الكلامُ؛ ﴿وَلَآ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٩٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣).

إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ لا يتزَحْزحُون مِن مَكانِهم[1].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ قُدرةُ اللهِ الشَّامِلةُ، والحِكمةُ الكامِلةُ؛ حيثُ كان صوتٌ واحِدٌ يُحيي تارةً، ويُميتُ أخرى، كأنَّه رُكِّبَ فيه مِن الأسرارِ أنَّه يَكسِبُ الشَّيءَ ضِدَّ ما هو عليه مِن حَياةٍ أو موتٍ، أو غَشْيٍ أو إفاقةٍ[2].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ أنَّ جسمَ الميِّتِ يَبقَى في الأرضِ في المكانِ الذي دُفِنَ فيه إلى يوم القِيامةِ[3]. هذا مِن حيثُ الأصلُ وإلَّا فقَدْ يزولُ مِن مَوضِعِه بفِعلٍ مِن النَّاسِ، أو نبْشِ السِّباعِ أو السُّيولِ إلى غيرِ ذلك.

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿يَنسِلُونَ﴾ إثباتُ البعثِ؛ وأنَّه حَياةٌ حقيقيَّةٌ؛ لأنَّ الإسراعَ لا يكونُ إلَّا بحياةٍ حقيقيَّةٍ[4].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ دَلالةٌ على أنَّهم يَنامون نومةً قبْلَ البَعثِ، وهي نومةُ موتٍ[5]، وذلك على أحدِ القولَينِ في تفسيرِ ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾.

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ سُؤالٌ: أنَّ قولَهم ذلك سؤالٌ عن الباعِثِ؛ فكيف طابَقَه الجوابُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٦).

ﵟٱلۡمُرۡسَلُونَﵞ؟

الجوابُ: معناه: بعَثَكم الرَّحمنُ الذي وعَدَكم بالبَعثِ، وأخبَرَكم به الرَّسولُ، وإنَّما جِيء به على هذه الطريقةِ؛ تَبكيتًا لهم وتوبيخًا[(١)].

١١- قَولُه تعالى: ﵟمَّرۡقَدِنَاۜﵞ وحَّدوه؛ إشارةً إلى أنَّهم على تَكاثُرِهم وتباعُدِهم كانوا في القِيامِ كنَفسٍ واحدةٍ[(٢)].

١٢- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﵟهَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَﵞ، قَولُه تعالَى: ﵟٱلرَّحۡمَٰنُﵞ في هذا الموضِعِ ليس لمجرَّدِ الخَبرِ عن وعْدِه، وإنَّما ذلك للإخبارِ بأنَّه في ذلك اليومِ العظيمِ سيرونَ مِن رحمتِه ما لا يخطُرُ على الظُّنونِ، ولا حَسِبَ به الحاسِبون، كقَولِه تعالى: ﵟٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِﵞ [الفرقان: ٢٦]، ﵟوَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِﵞ [طه: ١٠٨] ونحوِ ذلك ممَّا يُذكَرُ فيه اسمُ الرَّحمنِ[(٣)]؛ فرحمةُ اللهِ يومَ القِيامةِ تتجلَّى تجلِّيًا أكثرَ منها في الدُّنيا، فإنَّ للهِ تعالَى مِئةَ رَحمةٍ جَعَل منها رحمةً في الأرضِ؛ فإذا كان يومُ القِيامةِ صارَ له مِئةُ رحمةٍ -التِّسعةُ والتِّسعون الباقيةُ؛ والرحمةُ الأُولى[(٤)]-، وهذا يدلُّ على تَجَلِّي رحمةِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٤) عن سَلْمانَ الفارسيِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ لله مئةَ رَحمةٍ، فمِنها رحمةٌ بها يَتراحَمُ الخلقُ بينَهم، وتِسعةٌ وتِسعونَ ليومِ القيامةِ)). أخرجه مسلِمٌ (٢٧٥٣).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضي اللهُ عنه، أنَّه قالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمةَ مِئةَ جُزءٍ، فأمْسَكَ عِندَه تِسْعةً وتِسْعينَ جُزءًا، وأنْزَلَ في الأرض جُزْءًا واحدًا؛ فمِن ذلك الجُزءِ يَتَراحَمُ الخَلقُ، حتَّى تَرفَعَ الفَرَسُ حافِرَها عن ولَدِها؛ خَشْيةَ أنْ تُصيبَه)). أخرَجه البخاريُّ (٦٠٠٠) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٧٥٢).

اللهِ تعالى في ذلك اليومِ؛ ولهذا قال هنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[١].

١٣- الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى يَنزِلُ للقَضاءِ بيْن عِبادِه؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ أي: عندَنا، والعِندُ يدُلُّ على القُرْبِ، وقد ثَبَتَ بالنُّصوصِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَنزِلُ للقَضاءِ بين عِبادِه، فيَقضي بيْنَهم[٢].

١٤- في قَولِه تعالَى: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كَونَهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ إجباريٌّ لا اختياريٌّ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ، ويُستفادُ منه: كمالُ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ لِبيانِ ضَرْبٍ آخَرَ مِن تَعسُّفِهم ورُكوبِهم مَتنَ الضَّلالةِ[٥].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ مُستعمَلٌ كِنايةً عنِ التَّهكُّمِ والتَّكذيبِ. وأُطلِقَ الوَعدُ على الإنذارِ والتَّهديدِ بالشَّرِّ؛ لِأنَّ الوَعدَ أعَمُّ، ويَتعيَّنُ لِلخيرِ والشَّرِّ بالقَرينةِ. واسمُ الإشارةِ لِلوَعدِ ﴿هَٰذَا﴾ مُستعمَلٌ في الاستِخفافِ بوَعدِ العَذابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَعقةً أو نَفخةً عَظيمةً، والمُرادُ النَّفخةُ الأُولى التي يَنقَضي بها نِظامُ الحياةِ في هذا العالَم، والأُخرى التي وُعِدوا بها تَنشَأُ عنها النَّشأةُ الثانيةُ، وهي الحياةُ الأبديَّةُ -على القولِ بأنَّهما نفختانِ-؛ فيَكونُ أُسلوبُ الكَلامِ خارجًا على الأُسلوبِ الحَكيمِ إعراضًا عن جَوابِهم؛ لِأنَّهم لم يَقصِدوا حَقيقةَ الاستِفهامِ، فأُجيبوا بأنَّ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العَذابِ هو الأجدَرُ بأنْ يَنتَظِروه[(١)].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ لِإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، وهو أنَّ الصَّيحةَ تَأخُذُهم[(٢)].

- وأيضًا في قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أمورٌ في الصَّيحةِ تدلُّ على هولِها وعِظَمِها؛ أحدُها: التَّنكيرُ؛ يُقالُ: لفُلانٍ مالٌ، أي: كثيرٌ، وله قلْبٌ، أي: جَريءٌ. وثانيها: ﴿وَٰحِدَةً﴾، أي: لا يُحتاجُ معها إلى ثانيةٍ. وثالثُها: ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾، أي: تعمُّهم بالأخْذِ، وتَصِلُ إلى مَن في مَشارِقِ الأرضِ ومَغاربِها، ولا شكَّ أنَّ مِثلَها لا يكونُ إلَّا عظيمًا[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قَولُه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ كِنايةٌ عن شِدَّةِ السُّرعةِ بيْنَ الصَّيحةِ وهَلاكِهم؛ إذْ لا يَكونُ المُرادُ مَدلولَه الصَّريحَ؛ لِأنَّهم لا يَترُكونَ غَيرَهم بَعدَهم؛ إذِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٩).

الهَلاكُ يأتي على جَميعِ الناسِ[1].

- وتَنكيرُ ﴿تَوْصِيَةً﴾ لِلتَّقليلِ، أي: لا يَستَطيعونَ تَوصيةً ما[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ البَعثِ يَومَ القِيامةِ[3].

- قَولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ...﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ الواوُ اعتِراضيَّةً، وهذا الاعتِراضُ واقِعٌ بَينَ جُملةِ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ...﴾ [يس: ٤٩]، وجُملةِ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا ...﴾ [يس: ٦٦]، والمَقصودُ منه: وَعظُهم بالبَعثِ الذي أنكَروه، وبما وَراءَه[4].

- وصِيغةُ الماضي في (نُفِخَ) مُستَعمَلةٌ في تَحقُّقِ الوقوعِ، والمَعنى: ويُنفَخُ في الصُّورِ، أي: ويَنفُخُ نافِخٌ في الصُّورِ، وهو المَلَكُ المُوكَّلُ به[5].

- قَولُه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (إذا) لِلمُفاجَأةِ، وهي حُصولُ مَضمونِ الجُملةِ التي بَعدَها سَريعًا وبدونِ تَهيُّؤٍ[6].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هاهُنا: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، وقال تَعالى في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، والقِيامُ غَيرُ النَّسَلانِ، وقَولُه في المَوضِعَيْنِ: ﴿فَإِذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦).

هُمْ﴾ يَقتَضي أنْ يَكونَا مَعًا؛ **والجَوابُ** عن هذا مِن وَجهَيْنِ؛ **أحَدُهما**: أنَّ القِيامَ لا يُنافي المَشيَ السَّريعَ؛ لِأنَّ الماشيَ قائِمٌ، ولا يُنافي النَّظَرَ. **وثانيهما**: أنَّ السُّرعةَ مَجيءُ الأُمورِ كأنَّ الكُلَّ في زَمانٍ واحِدٍ[(١)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ وَصْفَ هذه الحالِ بَعدَ حِكايةِ إنكارِهم البَعثَ، وإحالَتِهم إيَّاهُ، يُثيرُ سُؤالَ مَن يَسألُ عن مَقالِهم حينَما يَرَوْنَ حَقيقةَ البَعثِ[(٢)].

- وفي قَولِه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ حُكيَ قَولُهم بصِيغةِ الماضي -مع كونِه لم يقَعْ بعْدُ-؛ إتْباعًا لِحكايةِ ما قَبلَه بصِيغةِ المُضيِّ؛ لِتَحقيقِ الوُقوعِ[(٣)].

- قَولُه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ كَلِمةٌ يَقولُها الواقِعُ في مُصيبةٍ، أوِ المُتحسِّرُ، وإنَّما قالوا ذلك؛ لأنَّهم رَأوْا ما أُعِدَّ لهم مِنَ العَذابِ عِندَما بُعِثوا، وحَرْفُ النِّداءِ الدَّاخِلُ على (وَيْلَنا)؛ لِلتَّنبيهِ، وتَنزيلِ الوَيْلِ مَنزِلةَ مَن يَسمَعُ فيُنادَى لِيَحضُرَ[(٤)].

- قَولُه: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ (مَنْ) استِفهامٌ عن فاعِلِ البَعثِ، مُستَعمَلٌ في التَّعجُّبِ والتَّحسُّرِ مِن حُصولِ البَعثِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ لَمَّا كان البَعثُ عِندَهم مُحالًا، كَنَّوْا عنِ التَّعجُّبِ مِن حُصوله بالتَّعجُّبِ مِن فاعِلِه؛ لأنَّ الأفعالَ الغَريبة تَتوَجَّهُ العُقولُ إلى مَعرِفةِ فاعِلِها؛ لِأنَّهم لَمَّا بُعِثوا وأُزْجيَ بهم إلى العَذابِ، عَلِموا أنَّه بَعثٌ فَعَلَه مَن أرادَ تَعذيبَهم[١].

- قَولُه: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ المَرقَدُ: مَكانُ الرُّقادِ، وحَقيقةُ الرُّقادِ: النَّومُ، وأطلَقوا الرُّقادَ على المَوتِ والاضطِجاعِ في القُبورِ -على قولٍ في التفسيرِ- تَشبيهًا بحالةِ الرَّاقِدِ؛ لِأنَّ عَذابَ القَبرِ كان كالرُّقادِ في جَنبِ ما صاروا إليه مِن عَذابِ جَهنَّمَ. وقيل: الجامعُ بَينَهما عَدَمُ ظُهورِ الفعلِ؛ لِأنَّ كُلًّا مِنَ النَّائمِ والمَيِّتِ لا يَظهَرُ فيه فِعلٌ، والمُرادُ الفِعلُ الاختِياريُّ المُعتَدُّ به. وقيل: فيه تَرشيحٌ[٢]، ورَمزٌ[٣]، وإشعارٌ بأنَّهم لاختِلاطِ عُقولِهم يَظنُّونَ أنَّهم كانوا نِيامًا[٤].

- قَولُه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ؛ فقيلَ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

(٢) التَّرشيح: هو أنْ يُذكَرَ شَيءٌ يلائمُ المشبَّهَ به إنْ كان في الكلام تَشبيهٌ، كما في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أَسْرَعُكنَّ لُحوقًا بي أطْوَلُكنَّ يدًا)) [البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢)]؛ فإنَّ ((أطولكنَّ)) تَرْشيحٌ لليدِ، وهو تَعبيرٌ عن النِّعمة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٧٢).

(٣) الرَّمْزُ: هو إشارةٌ إلى المقصودِ مِن قَريبٍ مع نَوعِ خَفاءٍ، وهو كِنايةٌ قلَّت وَسائطُها مع خَفاءِ اللُّزوم، نحو: هو غَليظُ الكَبِد، كِنايةً عن القَسْوة؛ إذ ذلك تَتوقَّف على مَعرِفةِ ما كان يَعتقِدُه العربُ مِن أنَّ الكَبِدَ مَوضعُ الإحساسِ والتأثُّر، فيَلزَمُ مِن رِقَّته اللِّينُ، ومن غِلَظَه القسْوة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٩)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٢/ ١٧٧)، ((معجم مقاليد العلوم)) للسيوطي (ص: ٩٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

هو مِنَ اللهِ تعالَى، على سَبيلِ التَّوبيخِ والتَّوقيفِ على إنكارِهم. ويَجوزُ أن يَكونَ من كَلامِ المَلائكةِ، أوِ المُؤمِنينَ، يُجيبونَ به قَولَ الكُفَّارِ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؛ فهذا جَوابٌ يَتضَمَّنُ بَيانَ مَن بَعَثَهم، مع تَنديمِهم على تكذيبِهم به في الحَياةِ الدُّنيا حينَ أبلَغَهمُ الرُّسُلُ ذلك عنِ اللهِ تَعالَى، واسمُ الرَّحمنِ حِينَئذٍ من كَلامِ المَلائِكةِ؛ لِزيادةِ تَوبيخِ الكُفَّارِ على تَجاهُلِهم به في الدُّنيا[1].

وقيل: هو مِن كلامِ الكَفَرةِ المكذِّبينَ بالبعثِ، وهذا الكَلامُ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في لازِمِ الفائِدةِ؛ وهو أنَّهم عَلِموا سَبَبَ ما تَعجَّبوا منه، فبَطَلَ العَجَبُ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونوا يَقولونَ ذلك كما يَتكَلَّمُ المُتحَسِّرُ بَينَه وبَينَ نَفْسِه، وأنْ يَقولَه بَعضُهم لِبَعضٍ كُلٌّ يَظُنُّ أنَّ صاحِبَه لم يَتفَطَّنْ لِلسَّبَبِ؛ فيُريدُ أنْ يُعْلِمَه به[2].

- وأيضًا قَولُه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جَوابٌ لِسُؤالِهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، جِيءَ به على هذه الطَريقةِ تَبكيتًا لهم وتَوبيخًا، وعلى طَريقةٍ سِيئَتْ بها قُلوبُهم، ونُعِيَتْ إليهم أحوالُهم، وذُكِّروا كُفرَهم وتَكذيبَهم، وأُخبِروا بوُقوعِ ما أُنذِروا به، وكأنَّه قيل لهم: ليس بالبَعثِ الذي عَرَفتُموه -وهو بَعثُ النَّائِمِ مِن مَرقَدِه- حتى يُهِمَّكُمُ السُّؤالُ عنِ الباعِثِ، إنَّ هذا هو البَعثُ الأكبَرُ ذو الأهوالِ والأفزاعِ، وهو الذي وَعَدَه اللهُ في كُتُبِه المُنزَّلةِ على ألْسِنةِ رُسُلِه الصَّادِقينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧- ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣- ٤٧٤)، ((تفسير أبي =

- وفي قولِهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أتَوْا في التَّعبيرِ عنِ اسمِ الجَلالةِ بصِفةِ الرَّحمنِ؛ إكمالًا لِلتَّحسُّرِ على تكذيبِهم بالبَعثِ، بذِكرِ ما كان مُقارِنًا لِلبَعثِ في تكذيبِهم، وهو إنكارُ هذا الاسمِ[(١)]، وهذا على أنَّه مِن قولِ الكفرةِ.

- وجُملةُ ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهو مُستعمَلٌ في التَّحسُّرِ على أنْ كَذَّبوا الرُّسُلَ، وجَمعُ المُرسَلينَ مع أنَّ المَحكيَّ كَلامُ المُشركينَ الذين يَقولونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يس: ٤٨]؛ إمَّا لِأنَّهم استَحضَروا أنَّ تَكذيبَهم مُحمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان باعِثُه إحالَتَهم أنْ يَكونَ اللهُ يُرسِلُ بَشَرًا رَسولًا؛ فكان ذلك لِأنَّهم لا يُصدِّقونَ أحَدًا يَأتي برِسالةٍ مِنَ اللهِ، فلَمَّا تَحسَّروا على خَطَئِهم ذَكَروه بما يَشمَلُه ويَشمَلُ سَبَبَه، وإمَّا لِأنَّ ذلك القَولَ صَدَرَ عن جَميعِ الكُفَّارِ المَبعوثينَ مِن جَميعِ الأُمَمِ؛ فعَلِمتْ كُلُّ أُمَّةٍ خَطَأَها في تكذيبِ رَسولِها، وخَطَأَ غَيرِها في تَكذيبِ رُسُلِهم؛ فنَطَقوا جَميعًا بما يُفصِحُ عنِ الخَطَأَيْنِ[(٢)]، وذلك أيضًا على أنَّه مِن قولِ الكَفَرةِ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ فَذلَكةٌ[(٣)] لِجُملةِ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: ٤٩]، إلى قولِه: ﴿وَصَدَقَ

= السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلكة: من فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ كَلِمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة) مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُراد بالفذلكة النتيجةُ لِمَا سبَق من الكلام، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعد قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾[1] [يس: ٥٢].

- ووَصَفَ الصَّيحةَ بـ(وَاحِدَةً)؛ لِأنَّ ذلك الوَصفَ هو المَقصودُ مِنَ الاستِثناءِ المُفرَّغِ[2]، أي: ما كان ذلك النَّفخُ إلَّا صَيحةً واحِدةً لا يُكرَّرُ استِدعاؤُهم للحُضورِ، بلِ النَّفخُ الواحِدُ يُخرِجُهم مِنَ القُبورِ، ويَسيرُ بهم ويُحضِرُهم لِلحِسابِ[3].

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ في قُوَّةِ التَّكريرِ والتَّوكيدِ لِقَولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ [يس: ٥١]، كان ما تَفرَّعَ عليه مِن قَولِه: ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾ بمَنزلةِ العَطفِ على قَولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١]، فكأنَّه مِثلُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١]، و﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾، وإعادةُ حَرفِ المُفاجأةِ (إذا) إيماءٌ إلى حُصولِ مَضمونِ الجُملتَيْنِ المُقترِنتَيْنِ بحَرفِ المُفاجَأةِ في مِثلِ لَمحِ البَصَرِ، حتى كأنَّ كِليهما مُفاجَأٌ في وَقتٍ واحِدٍ[4].

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٢) الاستثناء المُفرَّغ -ويُعْرَف أيضًا بالاستثناءِ الناقصِ-: هو الاستثناءُ الذي حُذِف المستثْنى منه مِن أركانِه، مثل: ما جاء إلَّا طالبٌ؛ فالمسْتَثنى: طالب، والأداة: إلَّا، والمستثْنى منه مَحْذوف. وقد سُمِّي مُفرَّغًا؛ لأنَّ بهذا الأسلوبِ يَتفرَّغُ ما قبْل «إلَّا» للعَملِ فيما بعْدها ولا يَشغَلُه عنه شيءٌ، وعليه تَخرُج «إلَّا» عن الاستثناء، ولا يُعَدُّ هذا النَّوعُ استثناءً، بل هو أُسلوبٌ للتَّوكيد فقطْ. يُنظر: ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٢/ ٢٦٤)، ((شرح شذور الذهب)) للجوجري (٢/ ٤٨١)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، أي: مِن غيرِ لَبْثٍ ما طَرْفةَ عَينٍ، وفيه مِن تَهوينِ أمْرِ البَعثِ والحَشرِ، والإيذانِ باستِغنائِهما عنِ الأسبابِ التي يَنوطانِ بها فيما يُشاهِدونَه؛ ما لا يَخفَى[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ حِكايةٌ لِمَا يُقالُ لهم حِينَئذٍ؛ تَصويرًا لِلمَوعودِ، وتَمكينًا له في النُّفوسِ، وتَقريعًا لهم[2].

- قَولُه: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ (اليَوْم) ظَرفٌ، وتَعريفُه لِلعَهدِ، وهو عَهدُ حُضورٍ، يَعني يَومَ الجَزاءِ، وفائِدةُ ذِكرِه: التَّنويهُ بذلك اليَومِ بأنَّه يَومُ العَدْلِ[3].

- وجاءَتْ كَلِمَتا (نَفْسٌ) و(شَيْئًا) نَكِرتَيْنِ في سِياقِ النَّفيِ؛ لِيَعُمَّ انتِفاءُ كُلِّ ذلك عن كُلِّ نَفْسٍ، وانتِفاءُ كُلِّ شَيءٍ مِن حَقيقةِ الظُّلمِ، وذلك يَعُمُّ جَميعَ الأنْفُسِ، ولكنَّ المَقصودَ أنْفُسُ المُعاقَبينَ، أيْ: إنَّ جَزاءَهم على حَسَبِ سَيِّئاتِهم جَزاءٌ عادِلٌ، وإذْ قد كان تَقديرُه مِنَ اللهِ تَعالى -وهو العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ- كانتْ حَقيقةُ العَدلِ مُحقَّقةً في مِقدارِ جَزائِهم[4].

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ بالتَّعريضِ بأنَّهم سيَلقَوْنَ جَزاءً قاسِيًا، لكنَّه عادِلٌ، لا ظُلْمَ فيه؛ لِأنَّ نَفيَ الظُّلمِ يُشعِرُ بأنَّ الجَزاءَ ممَّا يُخالُ أنَّه مُتَجاوِزٌ مُعادَلَةَ الجَريمةِ، وهو مَعنى ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أيْ:

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠- ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلَّا على وِفاقِ ما كُنتُم تَعمَلونَ، وعلى مِقدارِه[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: إلَّا جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا على الاستِمرارِ مِنَ الكُفرِ والمَعاصي، على حَذفِ المُضافِ، وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه؛ لِلتَّنبيهِ على قُوَّةِ التَّلازُمِ والارتِباطِ بيْنَهما كأنَّهما شَيءٌ واحِدٌ، أو إلَّا بما كُنتُم تَعمَلونَه، أي: بمُقابَلَتِه أو بسَبَبِه[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢).

الآيات (٥٥-٥٨)

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَٰكِهُونَ﴾: أي: ناعِمونَ فَرِحونَ مَسرورونَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ(٣).

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: أي: السُّرُرِ الَّتي عليها الحِجَالُ(٤)، واحِدُها: أريكةٌ، وأصلُ (أرك) هنا: يدُلُّ على إقامةٍ(٥).

﴿يَدَّعُونَ﴾: أي: يَتَمَنَّوْنَ، والعربُ تقولُ: ادَّعِ علَيَّ ما شِئتَ، أي: تَمَنَّ علَيَّ ما شِئتَ(٦).

---

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٤).

(٤) الحِجَالُ جمعُ حَجَلَةٍ: وهي كالقُبَّةِ، وموضعٌ يُزَيَّنُ بالثِّيابِ والسُّتورِ للعَروسِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٨٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦).

قال ابنُ عاشور: (وزنُ ﴿يَدَّعُونَ﴾ «يَفْتَعِلونَ»، أصلُه «يَدْتَعِيُونَ» نُقِلَتْ حركةُ الياءِ إلى العينِ طَلَبًا للتَّخفيفِ... وهذا الافتعالُ لك أنْ تجعلَه مِنْ «دَعَا»، والافْتِعالُ هنا يجعلُ فعلَ «دَعَا» قاصرًا فينبَغي تعليقُ مجرورٍ به. والتَّقديرُ: ما يَدْعونَ لأنفسِهم... وإنْ جَعلْتَه مِن «الادِّعاءِ» فمعناه: أنَّهم يَدَّعونَ ذلك حقًّا لهم، أي: تتحدَّثُ أنفسُهم بذلك فيَؤُولُ إلى معنًى: ويتمَنَّوْنَ في أنفسِهم دونَ احتياجٍ إلى أنْ يَسْألوا بالقولِ فلذلك قيلَ: معنَى ﴿يَدَّعُونَ﴾: يتمنَّوْنَ). ((تفسير ابن عاشور)) =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾: مُبتدأٌ خبَرُه الفِعلُ النَّاصِبُ لـ﴿قَوۡلٗا﴾ أي: سلامٌ يُقالُ لهم قَولًا. أو التَّقديرُ: سلامٌ عليكم. أو هو مُبتدَأٌ وخبَرُه ﴿مِّن رَّبّٖ﴾، و﴿قَوۡلٗا﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ، وهو مع عامِلِه مُعتَرِضٌ بينَ المبتدأِ والخبَرِ. أو هو خبَرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، والجملةُ بعدَه صِفتُه، أي: هو سلامٌ يُقالُ قولًا مِن رَبٍّ رحيمٍ. وقيل غيرُ ذلك. ﴿قَوۡلٗا﴾ إمَّا: مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ محذوفٍ كما مضَى، وإمَّا منصوبٌ على الاختِصاصِ، والجملةُ كُلُّها استِئنافٌ بيانيٌّ لا محلَّ لها[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه بفضلِه وكرمِه للمؤمنينَ: إنَّ أهلَ الجنَّةِ اليَومَ مُشتَغِلونَ بالنَّعيمِ المُقيمِ في الجنَّاتِ، فَرِحون مَسرورون هم وأزواجُهم في ظِلالِ الجنَّةِ على سُرُرٍ مُتَّكِئون، لهم في الجنَّةِ فواكِهُ كَثيرةٌ، ولهم فيها ما يَطلُبونَ ويَشتَهونَ، ولهم سَلامٌ مِن ربٍّ رَحيمٍ بهم، يقولُه قولًا؛ مُبالَغةً في تكريمِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سبحانَه حالَ الكافرينَ؛ أتْبَعه بحكايةِ حالِ عِبادِه الصَّالِحينَ[2].

= (٢٣/ ٤٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تَعالى أهوالَ يومِ القِيامةِ؛ أعقَبَ ذلك بحالِ السُّعداءِ والأشقياءِ[1].

وأيضًا لَمَّا قَرَّر أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ شَرعَ في تفصيلِه، وبدأ بأشرَفِ الحِزبَينِ في جوابِ مَن سأل عن هذا الجزاءِ[2].

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: إنَّ أهلَ الجنَّةِ في هذا اليومِ مُشتَغِلونَ بما هم مُنغَمِسونَ فيه مِنَ اللَّذائذِ والنِّعَمِ، بلا هَمٍّ يُصيبُهم، ولا تعَبٍ يَلحَقُهم، وإنَّما هم مُتلَذِّذونَ فَرِحونَ مَسرورونَ[3].

﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦١ - ٤٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

قال الرسعني: (والمرادُ بالشُّغُلِ: افتِضاضُ الأبكارِ؛ في قولِ ابنِ مسعودٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، والحَسَنِ، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٨).

وقال ابنُ جرير بعدَ أن ذكَرَ الأقوالَ في الآيةِ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: أن يُقالَ كما قال اللهُ جَلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وهم أهلُها ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ بنِعَمٍ- بأنَّهم في شُغُلٍ، وذلك الشُّغُلُ الَّذي هم فيه: نِعمةٌ، وافتِضاضُ أبكارٍ، ولَهْوٌ، ولَذَّةٌ، وشُغُلٌ عمَّا يَلْقَى أهلُ النَّارِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦١، ٤٦٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (واختَلَف النَّاسُ في تعيينِ هذا الشُّغُلِ؛ فقال ابنُ مَسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ وابنُ المسَيِّبِ: في افتِضاضِ الأبكارِ. وحكى النَّقَّاشُ عن ابنِ عبَّاسٍ: سماعُ الأوتارِ. وقال مجاهِدٌ: معناه نعيمٌ قد شَغَلَهم. وهذا هو القولُ الصَّحيحُ، وتعيينُ شَيءٍ دونَ شَيءٍ لا قياسَ له). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت النَّفْسُ لا يَتِمُّ سُرورُها إلَّا بالقرينِ الملائِمِ؛ قال(١):

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾.

أي: هم مع أزواجِهم(٢) يَتمتَّعونَ في ظِلالِ الجنَّةِ على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها ما يَستُرُها ويُزَيِّنُها، وهم مُتَّكِئونَ عليها في راحةٍ وطُمأنينةٍ ولَذَّةٍ(٣).

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧)﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾.

أي: لأهلِ الجنَّةِ فيها فواكِهُ كَثيرةٌ مِن جميعِ أنواعِها، يأكُلونَ منها تَلَذُّذًا(٤).

كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٣].

﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾.

أي: ولهم فيها ما يَطلُبونَ ويَشتَهونَ ويتمَنَّونَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (المرادُ بأزواجِهم: الأزواجُ اللَّاتي أُعِدَّت لهم في الجنَّةِ، ومنهنَّ مَن كُنَّ أزواجًا لهم في الدُّنيا إن كنَّ غيرَ ممنوعاتٍ مِن الجنَّةِ؛ قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: ولهم نَعيمٌ آخَرُ بالسَّلامِ عليهم مِن رَبٍّ رَحيمٍ بهم، يقولُه قولًا[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ كمالُ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ؛ لأنَّه كلَّما كَمَل النَّعيمُ كَمَل التَّفكُّهُ بهذه النِّعمةِ الَّتي يَتنعَّمُ بها الإنسانُ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ إشارةٌ إلى عدَمِ الوَحشةِ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ سؤالٌ: كيف قال سُبحانَه في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ ذلك، والظِّلُّ إنَّما يكونُ لِما يقَعُ عليه الشَّمسُ، ولا شَمسَ في الجنَّةِ؛ لِقَولِه

= (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ قال ابنُ قُتَيْبَةَ: ما يَتَمَنَّوْنَ، ومنه يقولُ النَّاسُ: هو في خَيرِ ما ادَّعى، أي: ما تَمَنَّى، والعربُ تقولُ: ادَّعِ ما شِئتَ، أي: تَمَنَّ ما شِئتَ. وقال الزَّجَّاجُ: وهو مأخوذٌ مِن الدُّعاءِ، والمعنى: كلُّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه سلامُ الله تعالى عليهم؛ إكرامًا لهم. قاله محمَّدُ بنُ كعبٍ. الثَّاني: أنَّه تبشيرُ الله تعالى لهم بسَلامتِهم). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٥٧).

تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]؟!

الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الظِّلالَ في الجنَّةِ عبارةٌ عن تكاثُفِ الأشجارِ وجَودةِ المباني، وإلَّا فلا شَمسَ تُؤذي هنالك حتَّى يكونَ ظِلٌّ يُجيرُ مِن حَرِّها(١).

الثَّاني: أنَّ الظِّلَّ هو ما يَدفَعُ أذَى الحَرِّ عَن الإنسانِ، وهواءُ الجنَّةِ يُنافِي كُلَّ أذًى، فهو ظِلٌّ على هذا المعنى، وإن لم يكُنْ هناك شَمسٌ(٢).

الثَّالِثُ: أنَّ المرادَ بالظِّلالِ نَعيمُها وراحتُها، ومنه قَولُهم: عَيشٌ ظَليلٌ(٣).

الرَّابِعُ: أنَّ المرادَ به الوِقايةُ عن مَكانِ الألمِ؛ فإنَّ الجالِسَ تحت كِنٍّ لا يَخشى المطرَ ولا حَرَّ الشَّمسِ؛ فيَكونُ به مُستَعِدًّا لِدَفعِ الألمِ(٤).

الخامِسُ: أنَّه قيل: إنَّ ظِلَّ أشجارِ الجنَّةِ مِن نُورِ قناديلِ العَرشِ -أو مِن نُورِ العَرشِ-؛ لِئلَّا تَبهَرَ أبصارَهم؛ فإنَّه أعظَمُ من نورِ الشَّمسِ(٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ كمالُ راحةِ أهلِ الجنَّةِ؛ فإنَّ المُتَّكِئَ عادةً يكونُ مُستريحًا مُطمئنًّا، وكلَّما اطمأنَّ الإنسانُ ازدادتْ راحتُه، والاتِّكاءُ على الأرائكِ لا شكَّ أنَّه دليلٌ على راحةِ البالِ وعدمِ الانشغالِ(٦).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ إشارةٌ إلى أنْ لا جوعَ هناك؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٤).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٢).

التَّفَكُّهَ لا يكونُ لدفعِ الجوعِ[١]، وإنَّما يكونُ للتَّلَذُّذِ!

٦- قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ دَليلٌ على ما يَتمتَّعُ به أهلُ الجنَّةِ مِن السَّلامةِ مِن كلِّ الآفاتِ، ومِن الأمراضِ، ومِن الموتِ، ومِن غيرِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ لهم: ﴿سَلَٰمٞ﴾، وهذا اللَّفظُ الصَّادِرُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ ليس دُعاءً، ولكِنَّه خَبَرٌ مِن اللهِ، وإنَّما يكونُ مِثلُ هذا دُعاءً إذا وقَعَ مِن المخلوقِ، أمَّا إذا كان مِن الخالقِ فهو خَبَرٌ، أي: أنَّ اللهَ تعالى يُخبِرُهم بأنَّه سيُسَلِّمُهم مِن كلِّ آفةٍ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ فيه مُبالَغةٌ في تعظيمِهم؛ لأنَّ السَّلامَ وقَعَ منه تعالى بغيرِ واسِطةٍ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا﴾ إثباتُ أنَّ اللهَ تعالى يقولُ ويتكلَّمُ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم إنَّما وصَلوا إلى هذه المنزِلةِ برَحمةِ اللهِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ أحوالِ أهلِ الجَنَّةِ؛ إغاظةً للكُفَّارِ، وتَقريعًا لهم، وهذا ممَّا يُقالُ لِمَن حَقَّ عليهم العَذابُ؛ إعلامًا لهم بنُزولِ مَرتَبَتِهم عن مَراتِبِ أهلِ الجَنَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٠).

إعلانًا بالحَقائِقِ؛ لِأنَّ ذلك عالَمُ الحَقائقِ، وإدخالًا لِلنَّدامةِ والحَسرةِ عليهم على ما فَرَّطوا فيه مِن طَلَبِ الفَوزِ في الآخِرةِ؛ فإنَّ الإخبارَ بحُسنِ حالِ أعدائِهم إثرَ بَيانِ سُوءِ حالِهم ممَّا يَزيدُهم مَساءةً على مَساءةٍ، وهذا يُؤْذِنُ بأنَّ أهلَ الجَنَّةِ عُجِّلَ بهم إلى النَّعيمِ قبْلَ أنْ يُبعَثَ إلى النَّارِ أهلُها، وأنَّ أهلَ الجَنَّةِ غيرُ حاضِرينَ ذلك المَحضَرَ، وفي مِثلِ هذه الحِكايةِ زِيادةُ تَصويرٍ لِلمَوعودِ، وتَمكينٌ له في النُّفوسِ، وتَرغيبٌ في الحِرصِ عليه وعلى ما يُثمِرُه[1].

- والتَّعبيرُ عن حالِ أهلِ الجنَّةِ هذه بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ قبْلَ تَحقُّقِها بتَنزيلِ المُترَقَّبِ المُتوَقَّعِ مَنزلةَ الواقِعِ؛ لِلإيذانِ بغايةِ سُرعةِ تَحقُّقِها ووُقوعِها، ولِزيادةِ مَساءةِ المُخاطَبينَ[2].

- وفائِدةُ ذِكرِ الظَّرفِ -وهو ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾- التَّنويهُ بذلك اليَومِ بأنَّه يَومُ الفَضلِ على المُؤمنينَ المُتَّقينَ[3].

- والظَّرفيَّةُ في قَولِه: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ جَعلَتْ تَلَبُّسَهم بالشُّغُلِ كأنَّهم مَظروفونَ فيه، أيْ: أحاطَ بهم شُغُلٌ عن مُشاهَدةِ مَوقِفِ أهلِ العَذابِ، صَرَفهمُ اللهُ عن مَنظَرِ المُزعِجاتِ؛ لِأنَّ مُشاهَدَتَها لا تَخلو مِن انقِباضِ النُّفوسِ، ولِكَونِ هذا هو المَقصودَ عُدِلَ عن ذِكرِ ما يَشغَلُهم؛ إذْ لا غَرَضَ في ذِكرِه[4].

- قَولُه: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: في أيِّ شُغُلٍ، وفي شُغُلٍ لا يُوصَفُ، أي: أنَّهم مُستَقِرُّونَ في شُغُلٍ، وأيِّ شُغُلٍ، في شُغُلٍ عَظيمِ الشَّأْنِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتَنَعِّمونَ بنَعيمٍ مُقيمٍ، فائِزونَ بمُلكٍ كبيرٍ، وما ظَنُّكَ بشُغُلِ مَن سُعِدَ بدُخولِ الجَنَّةِ الَّتي هي دارُ المُتَّقينَ، ووَصَلَ إلى نَيلِ تلك الغِبطةِ، وذلك المُلكِ الكَبيرِ، والنَّعيمِ المُقيمِ، ووَقَعَ في تلك المَلاذِّ الَّتي أعَدَّها اللهُ لِلمُرتَضَيْنَ مِن عِبادِه؛ ثَوابًا لهم على أعمالِهم، مع كَرامةٍ وتَعظيمٍ، وذلك بعْدَ الوَلَهِ والصَّبابةِ، والتَّفَصِّي مِن مَشاقِّ التَّكليفِ، ومَضايِقِ التَّقْوى والخَشيةِ، وتَخطِّي الأهوالِ، وتَجاوُزِ الأخطارِ، وجَوازِ الصِّراطِ، ومُعايَنةِ ما لَقيَ العُصاةُ مِنَ العَذابِ[١]؟!

- وأيضًا في تَنوينِ ﴿شُغُلٍ﴾ تَنويهٌ بأنَّ ما همْ فيه مِن شُغُلٍ أعلَى مِن أنْ تَرْقى إليه رُتبةُ البَيانِ، أو يَستَطيعَ وَصْفَه اللِّسانُ، كما أنَّ في إبهامِه تَعظيمًا لِمَا هِمْ فيه مِنَ البَهجةِ والتَّلذُّذِ، وإيجازًا انطَوى تَحتَه ما لا يُعدُّ ولا يُحْصى مِن ضُروبِ المَلاذِّ الَّتي يَستَمتِعونَ بها في الجِنانِ، وأنَّ ما عَداها يُعَدُّ كَلَا شَيءٍ، كما أنَّ فيه تَصويرًا لِمَا أعَدَّه اللهُ لِعِبادِه المُتَّقينَ مِن ضُروبِ المُتعةِ وأفانينِ اللَّذَّةِ مِن افتِضاضِ أبكارٍ، وسَماعِ أوتارٍ، وتَزاوُرٍ في العَشايا والأسحارِ، وقد أكَّدَه بأنَّهم فاكِهونَ ناعِمونَ، لا يَشغَلُ بالَهم ما يَشغَلُ بالَ أهلِ الدُّنيا مِن تَصاريفِ الحياةِ، ومَشاغِلِ السِّنينِ، ولا يُنغِّصُ صَفوَهم هَمٌّ طارئٌ، أو غَمٌّ نازِلٌ، وأنَّ كُلَّ ما تَمتَدُّ إليه الأعيُنُ، وتُسافِرُ نَحوَه الظُّنونُ مِن صُنوفِ المَلاذِّ حاضِرٌ لَدَيهم، يَنالونَه وهمْ مُتَّكِئونَ على الأرائِكِ، مُتَمدِّدونَ تَحتَ الظِّلالِ مِمَّا وَرَدَ وَصْفُه مُجسَّدًا، وذلك كُلُّه على طَريقِ الكِنايةِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ جُملةٌ واقِعةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٤/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٨، ٢١٩).

مَوقِعَ البَيانِ لِجُملةِ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ...﴾؛ لِبَيانِ كَيفيَّةِ شُغُلِهم وتَفكُّهِهم، وتَكميلِهما بما يَزيدُهُم بَهجةً وسُرورًا مِن شَركةِ أزواجِهم لهمْ فيما هُمْ فيهِ مِنَ الشُّغُلِ والفَكاهَةِ(١).

- والضميرُ (هُمْ) في قَولِه: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ مُبتَدأً، وأنْ يَكونَ تأكيدًا لِلضَّميرِ في ﴿فِي شُغُلٍ﴾ وفي ﴿فَٰكِهُونَ﴾، على أنَّ أزواجَهم يُشارِكْنَهم في ذلك الشُّغُلِ والتَّفكُّهِ والاتِّكاءِ على الأرائكِ تَحتَ الظِّلالِ(٢).

- والجارَّانِ ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ صِلَتانِ للخَبرِ ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، قُدِّمَتا عليهِ؛ لِمُراعاةِ الفَواصِلِ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ بَيانٌ لِمَا يَتمَتَّعونَ به في الجَنَّةِ مِنَ المَآكِلِ والمَشارِبِ، ويَتلَذَّذونَ به مِنَ المَلاذِّ الجُسمانيَّةِ والرُّوحانيَّةِ بعْدَ بَيانِ ما لَهُم فيها مِن مَجالِسِ الأُنْسِ، ومَحافِلِ القُدسِ؛ تَكميلًا لِبَيانِ كَيفيَّةِ ما هُم فيه مِنَ الشُّغُلِ والبَهجةِ(٤).

- والفاكِهةُ: ما يُؤكَلُ لِلتَّلذُّذِ، لا لِلشِّبَعِ، كالثِّمارِ والبُقولِ، وإنَّما خُصَّتْ بالذِّكرِ لِأنَّها عَزيزةُ النَّوالِ لِلنَّاسِ في الدُّنيا، ولِأنَّها استَجلَبَها ذِكرُ الاتِّكاءِ؛ لِأنَّ شأْنَ المُتَّكِئينَ أنْ يَشتَغِلوا بتَناوُلِ الفَواكِهِ(٥).

- ثمَّ عَمَّمَ ما أعَدَّ لهم بقولِه: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، و﴿يَدَّعُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

مُتَصرِّفًا مِنَ الدُّعاءِ، أو مِنَ الادِّعاءِ، أي: ما يَدْعون إليه، أو ما يَدَّعونَ في أنْفُسِهم أنَّه لهم بإلهامٍ إلهيٍّ، وصِيغَ له وَزنُ الافتِعالِ؛ لِلمُبالَغةِ(١).

- وكَلِمةُ (ما) في قَولِه: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ مَوصولةٌ، أو مَوصوفةٌ، عبَّرَ بها عن مَدعُوٍّ عَظيمِ الشَّأْنِ، مُعَيَّنٍ أو مُبهَمٍ؛ إيذانًا بأنَّه الحَقيقُ بالدُّعاءِ دونَ ما عَداهُ، ثم صرَّحَ به رَوْمًا لزيادةِ التَّقريرِ بالتَّحقيقِ بعْدَ التَّشويقِ، أو هي باقيةٌ على عُمومِها، قَصَد بها التَّعميمَ بعْدَ تَخصيصِ بَعضِ المَوادِّ المُعتادةِ بالذِّكرِ، وفي ذلك دَلالةٌ على أنَّهم في أقصى غايةِ البَهجةِ والغِبطةِ. وقولُه: ﴿مَّا﴾ مُبتدأٌ، و(لَهُم) خبَرُه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ السَّابقةِ، وعدَمُ الاكتفاءِ بعطفِ ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ لِئلَّا يُتوهَّمَ كَونُ (ما) عبارةً عن تَوابعِ الفاكهةِ وتَتِمَّاتِها(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ استِئنافٌ قُطِعَ عن أنْ يُعطَفَ على ما قَبْلَه؛ للاهتِمامِ بمَضمونِه، وهو الدَّلالةُ على الكَرامةِ والعِنايةِ بأهلِ الجَنَّةِ من جانِبِ القُدُسِ، فبَعْدَ أنْ أخبَرَ بما حَباهم به مِنَ النَّعيمِ، مُشيرًا إلى أُصولِ أصنافِه؛ أخبَرَ بأنَّ لهم ما هو أسْمَى وأعْلَى، وهو التَّكريمُ بالتَّسليمِ عليهم(٣).

- وتَنكيرُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ لِلتَّعظيمِ، ورَفْعُه لِلدَّلالةِ على الدَّوامِ والتَّحقُّقِ؛ لأنَّ هذا القَولَ صادِرٌ عن رَبٍّ رَحيمٍ في مَقامِ التَّعظيمِ، وكان جَديرًا بأنْ يُفخَّمَ أمْرُه ويُعظَّمَ قَدْرُه، ويَكونَ جُملةً مُستَقِلَّةً مَفصولةً عمَّا سَبَقَ، وتَنوينُ ﴿قَوۡلٗا﴾ دالٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣، ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٤).

على التَّعظيمِ، وتَنوينُ ﴿رَبٍّ﴾ لِلتَّعظيمِ أيضًا، ولِأجْلِ ذلك عُدِلَ عن إضافةِ (رَبٍّ) إلى ضَميرِهم، واختيرَ في التَّعبيرِ عنِ الذَّاتِ العَليَّةِ بوَصفِ الرَّبِّ؛ لِشِدَّةِ مُناسَبتِه لِلإكرامِ والرِّضا عنهم بذِكرِ أنَّهم عَبَدوه في الدُّنيا، فاعتَرَفوا برُبوبيَّتِه[1].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٤).

الآيات (٥٩-٦٧)

﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ﴾: أي: انفَصِلوا وانفَرِدوا، وأصلُ (ميز): يدُلُّ على انفِصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[1].

﴿ جِبِلًّا ﴾: أي: خَلْقًا، وجماعةً، وأصلُ (جبل): يدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ في ارتفاعٍ[2].

﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾: أي: ادخُلوها، وذُوقوا حَرَّها، وأصلُ الصَّليِ: الإيقادُ بالنَّارِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

وقال ابنُ عاشورٍ: (هو مشتَقٌّ مِن الجَبْلِ -بسكونِ الباءِ- بمعنى الخَلْقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

﴿نَخۡتِمُ﴾: أي: نَطبَعُ، ونمنَعُهم مِن الكلامِ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ[(١)].

﴿لَطَمَسۡنَا﴾: أي: مَحَوْنا وأعمَيْنا، والطَّمسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسحِه[(٢)].

﴿لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾: أي: جعَلْناهم قِرَدةً وخَنازيرَ أو حِجارةً، والمَسخُ: تشويهُ الخَلقِ، وتحويلُه مِن صُورةٍ إلى صورةٍ[(٣)].

﴿مَكَانَتِهِمۡ﴾: أي: مَكانِهم، وأصلُ (مكن): يدُلُّ على الموضِعِ الحاوي للشَّيءِ[(٤)].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جزاءَ المجرمينَ وما يُقالُ لهم، فيقولُ: ويُقالُ يومَ القيامةِ للكافِرينَ: انفَرِدوا اليومَ -أيُّها المجرِمونَ- عن المؤمِنينَ، واخرُجوا مِن بَيْنِهم، لقد عَهِدْتُ إليكم -يا بني آدَمَ- عَهدًا مُؤكَّدًا على ألسِنةِ رُسُلي: ألَّا تَعبُدوا الشَّيطانَ؛ لأنَّه لكم عَدوٌّ ظاهِرُ العداوةِ، وأنِ اعبُدوني وحْدي، هذا الَّذي أمَرْتُكم به مِن إخلاصِ العبادةِ، والطَّاعةِ لي: هو الطَّريقُ الواضِحُ المُستَقيمُ. ولقد أضَلَّ الشَّيطانُ منكم خَلقًا كَثيرًا، أفلم تَعقِلوا عداوتَه فتَترُكوا طاعتَه؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢، ٧٧٣).

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى أنَّه يُقالُ لهم: هذه جهنَّمُ ماثِلةً أمامَ أعيُنِكم، ادخُلوها وذوقُوا حَرَّها اليومَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم في الدُّنيا.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن أحوالِ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: اليومَ نَطْبَعُ على أفواهِ هؤلاء الكافِرينَ فنَجعَلُها لا تَنطِقُ، وتُكلِّمُنا أيديهم، وتَشهَدُ عليهم أرجُلُهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثامِ!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه قدرتَه على هؤلاءِ الكافرينَ، وأنَّهم تحتَ تصرُّفِه، فيقولُ: ولو نشاءُ مَحْوَ أبصارِهم لَمَحَوْناها، فلو أرادوا في تلك الحالةِ المبادَرةَ إلى الطَّريقِ لِيَسيروا فيه لَما استَطاعوا ذلك، والحالةُ هذه! ولو نَشاءُ لَمَسَخْنا هؤلاء الكُفَّارَ وغيَّرْنا صُوَرَهم، وأبْطَلْنا قوَّتَهم، وهم في مكانِهم الَّذي يُقيمونَ فيه؛ فلا يَقدِرونَ أن يَمضُوا إلى الأمامِ، أو أن يَعودوا إلى الخَلفِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى جزاءَ المتَّقينَ؛ ذكَرَ جزاءَ المُجرِمين[1]، فقال:

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾.

أي: يُقالُ[2] يومَ القيامةِ: وتميَّزوا اليومَ -أيُّها الكافِرونَ- عن المؤمِنينَ، واخرُجوا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٢).

قال ابن عطية: (﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ...﴾ فيه حَذفٌ تقديرُه: ونَقولُ للكَفَرة. وهذه مُعادِلةٌ لِقَولِه لأصحابِ الجنَّةِ: ﴿سَلَٰمٌ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٩).

مِن جُملتِهم مُنفَردينَ عنهم في موقِفِ الحَشرِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المؤمِنينَ والمُجرِمين، كان لقائلٍ أن يَقولَ: «إنَّ الإنسانَ كان ظَلومًا جَهولًا»، والجَهلُ مِن الأعذارِ؛ فبَيَّن سُبحانَه أنَّه قد سَبَق إيضاحُ السُّبُلِ بإيضاحِ الرُّسُلِ، وقال: قد عَهِدْنا إليكم وتَلَوْنا عليكم ما ينبغي أن تَفعَلوه وما لا يَنبغي[(٢)].

وأيضًا لَمَّا امْتَثَلوا ما أُمِروا به مِن الامتيازِ؛ قال لهم على جهةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ[(٣)]:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى[(٤)]: ألم أُوصِكم -يا بني آدَمَ- على ألسِنةِ رُسُلي ألَّا تَعبُدوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٠-٢١٢).
قال الواحدي: (وقال السُّدِّيُّ: كونُوا على حِدَة. وهذا قَولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ، واختيارُ أبي إسحاقَ؛ قال: معناه: انفَرِدوا عن المؤمِنينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٥٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) لأبي إسحاقَ الزَّجَّاج (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧).

(٤) قال ابنُ عاشور: (إقبالٌ على جميعِ البشَرِ الَّذين جمَعَهم المحشَرُ، غيرَ أهلِ الجنَّةِ الَّذين عُجِّلوا =



الشَّيطانَ فتُطيعوه فيما أمَرَكم به؛ مِن الكُفرِ والشِّركِ بي، ومَعصيتي[(١)]؟

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى عِبادَه عن عبادةِ الشَّيطانِ؛ ذكَرَ ما يَحمِلُهم على قَبولِ ما أُمِروا به، والانتِهاءِ عمَّا نُهُوا عنه[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

= إلى الجنَّةِ، فيَشملُ هذا جميعَ أهلِ الضَّلالةِ مِن مُشرِكينَ وغَيرِهم، ولعلَّه شامِلٌ لأهلِ الأعرافِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا مَنَع عبادةَ الشَّيطانِ؛ حَمَل على عبادةِ الرَّحمنِ[١].

وأيضًا لَمَّا بكَّتَهم بالتَّذكيرِ بما ارتكَبوا -مع النَّهيِ عن عبادةِ العَدُوِّ- تقديمًا لدَرءِ المفاسِدِ؛ وبَّخَهم بالتَّذكيرِ بما ضَيَّعوا مع أخذِ العُهودِ مِن واجِبِ الأمرِ بعبادةِ الوَليِّ[٢].

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾.

أي: ألم أعهَدْ إليكم -يا بني آدَمَ- بعِبادتي وَحْدي وطاعتي، بامتِثالِ ما أُمِرتُم به، واجتِنابِ ما نُهِيتُم عنه؛ فإنَّ توحيدي وطاعتي ومَعصيةَ الشَّيطانِ: طَريقٌ مُستقيمٌ، وهو دينُ الإسلامِ القَويمُ[٣]؟!

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾.

أي: ولقد أضَلَّ الشَّيطانُ منكم خَلْقًا كثيرًا عن الصِّراطِ المُستَقيمِ، فصَدَّهم عن توحيدي وطاعتي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلم تَعقِلوا عداوةَ الشَّيطانِ لكم، وإضلالَه مَن أطاعَه مِن الأُمَمِ السَّابقةِ، وما حلَّ بهم -بسَبَبِ ذلك- مِن العذابِ والهلاكِ، فتُطيعوني، وتَترُكوا طاعةَ الشَّيطانِ[1]؟!

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ عليهم أن يَفعَلوا فِعلَ مَن لا عَقلَ له؛ قال مُتمِّمًا للخِزيِ[2]:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: يُقالُ لهم[3]: ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٣).

قيل: قائلُ ذلك هم خَزَنةُ النَّارِ. وممَّن ذهَب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير =

هذه جَهنَّمُ الَّتي كنتُم تُوعَدونَ بها في الدُّنيا[١].

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ﴾.

أي: ادخُلوها اليومَ وباشِروا نارَها، وقاسُوا حَرَّها؛ بسَبَبِ كُفرِكم في الدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ * ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣- ١٦].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كأنَّه قيل: هل يَحكُمُ فيهم بعِلمِه، أو يَجري الأمرُ على قاعدةِ الدُّنيا في العملِ بالبَيِّنةِ؟ بيَّن أنَّه على أظهرَ مِن قواعدِ الدُّنيا[٣].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

أي: اليومَ نَطبَعُ على أفواهِهم، ونمنَعُهم مِنَ الكَلامِ[٤]!

= القرطبي)) (١٥/ ٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

قال السَّمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: هذا حينَ يُنكِرُ الكُفَّارُ كُفرَهم وتَكذيبَهم رُسُلَ اللهِ، فيَختِمُ اللهُ على أفواهِهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٥).

كما قال تعالى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فضَحِكَ، فقال: هل تَدرُونَ مِمَّ أضحَكُ؟ قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: مِن مُخاطَبةِ العَبدِ رَبَّه؛ يقولُ: يا رَبِّ، ألم تُجِرْني مِن الظُّلمِ؟ قال: يقولُ: بلى. قال: فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نفْسي إلَّا شاهِدًا مني. قال: فيقولُ: كفَى بنَفْسِك اليومَ عليك شهيدًا، وبالكِرامِ الكاتِبينَ شُهودًا! قال: فيُختَمُ على فيه، فيُقالُ لأركانِه[١]: انطِقي! قال: فتَنطِقُ بأعمالِه! قال: ثمَّ يُخلَّى بيْنَه وبيْن الكَلامِ، فيقولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا! فعنكُنَّ كنتُ أناضِلُ!))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه في الحديثِ المرفوعِ الطَّويلِ، وفيه: أنَّه يُقالُ للمنافقِ يومَ القيامةِ: ((الآنَ نَبعَثُ شاهِدَنا عليك، ويَتفكَّرُ في نَفْسِه: مَن ذا الَّذي يَشهَدُ علَيَّ؟! فيُختَمُ على فيه، ويُقالُ لفَخِذِه ولَحمِه وعِظامِه: انطِقي، فتَنطِقُ فَخِذُه ولَحمُه وعِظامُه بعَمَلِه! وذلك لِيُعذِرَ[٣] مِن نَفْسِه، وذلك المنافِقُ، وذلك الَّذي يَسخَطُ اللهُ عليه))[٤].

﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ ﴾.

أي: وتُكَلِّمُنا أيديهم بما عَمِلَته[٥].

(١) المرادُ بالأركانِ هنا: الجوارحُ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم)) للقاضي عياض (٨/ ٥٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٣) لِيُعذِرَ: أي: لِيُزيلَ اللهُ عُذْرَ هذا المنافِقِ مِن قِبَلِ نَفْسِه، بكَثرةِ ذُنوبِه، وشَهادةِ أعضائِه عليه؛ بحيث لم يَبْقَ له عُذرٌ يتمَسَّكُ به. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٩).

(٤) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: وتَنطِقُ أرجُلُهم، فتَشهَدُ عليهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثامِ[1].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٢].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ إلجاءَهم إلى الاعترافِ بالشِّركِ بعدَ إنكارِه يومَ القيامةِ، كان ذلك مُثيرًا لأن يَهجِسَ في نُفوسِ المؤمنينَ أن يَتمَنَّوا لو سَلَكَ اللهُ بهم في الدُّنيا مِثلَ هذا الإلجاءِ؛ فألجأَهم إلى الإقرارِ بوحدانيَّتِه، وإلى تصديقِ رَسولِه واتِّباعِ دينِه؛ فأفاد اللهُ أنَّه لو شاء ذلك في الدُّنيا لَفَعل[2]. وهذا بناءً على قولٍ في التَّفسيرِ

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: ولو نَشاءُ لأذهَبْنا أعيُنَ الكُفَّارِ، فلا يكونُ لها وجودٌ ولا أثَرٌ، فإذا ابتَدَروا

= (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١).

مُسرِعينَ لسُلوكِ الطَّريقِ، فلن يُبصِروه والحالةُ هذه؛ فهم لا مَحالةَ هالِكونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾.

أي: ولو نَشاءُ لَمَسَخْنا الكُفَّارَ في أماكِنِهم الَّتي هم فيها؛ فبدَّلْنا خِلقَتَهم، وحوَّلْنا صورَتَهم، وأبطَلْنا قوَّتَهم؛ فلا يَستَطيعونَ الذَّهابَ أمامَهم، ولا الرُّجوعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١، ٥٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّه يقالُ ذلك تهديدًا لهم في الدُّنيا إن لم يَرجِعوا عن كُفرِهم، فيُفعل بهم ذلك عقوبةً لهم: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٩).

قال البِقاعي: (﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: الطَّريقَ الواضِحَ الَّذي ألِفُوه واعتادوه، ولهم به غايةُ المعرفةِ، ولَمَّا كان الأعمى لا يمكِنُه في مِثلِ هذه الحالةِ المَشيُ بلا قائدٍ فضلًا عن المُسابقةِ؛ سَبَّب عن ذلك قولَه مُنكِرًا: ﴿فَأَنَّىٰ﴾ أي: كيف ومن أين ﴿يُبۡصِرُونَ﴾ أي: فلم يَهتَدوا للصِّراطِ؛ لعدَمِ إبصارِهم، بل تَصادَموا فتَساقَطوا في المهالِكِ، وتهافَتوا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٥٩).

وقال السعدي: (﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ بأن نُذْهِبَ أبصارَهم، كما طمَسْنا على نطقِهم. ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: فبادَروا إليه؛ لأنَّه الطَّريقُ إلى الوصولِ إلى الجنَّةِ، ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ وقد طُمِسَتْ أبصارُهم؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

وقيل: المرادُ من ذلك: الطَّمسُ المعنويُّ، أي: أن يُذهِبَ اللهُ بصائرَهم، فلا يُبصِرونَ طريقَ الهدى.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عبَّاس رَضِيَ الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٤).

وقال مقاتلٌ: (﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ نزلَت فى كفَّارِ مكَّةَ، يقولُ: لو نشاءُ لَحَوَّلْنا أبصارَهم مِن الضَّلالةِ إلى الهدَى ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ ولو طمستُ الكفرَ لاستبقوا الصِّراطَ، يقولُ: لأبصَروا طريقَ الهدَى، ثمَّ قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾؛ فمن أين يُبصِرونَ الهدَى إن لم أُعمِّ عليهم طريقَ الضَّلالةِ؟!). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٤).

خَلْفَهم[١]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن الشَّيطانِ وإغوائِه؛ فهو يَسعى لإضلالِ بني آدمَ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فائِدةُ نُطقِ الأعضاءِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما كان عَونًا على المعاصي صار شاهِدًا؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يَصحَبَ أحدًا إلَّا لله تعالى؛ لئلَّا يَفتَضِحَ ثَمَّ بسبَبِ صُحبتِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذا القرآنُ الكريمُ مَثانٍ؛ تُثَنَّى فيه المعاني، فيُذكَرُ الشَّيءُ ويُذكَرُ ضِدُّه؛ لأنَّه لو ذُكِرَ ما يكونُ به الرَّجاءُ دونَ ما يكونُ فيه الخَوفُ لغَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢، ٥٣).

قال الشوكاني: (كرَّر التَّهديدَ لهم، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ المَسخُ: تبديلُ الخِلقةِ إلى حَجَرٍ، أو غيرِه من الجَمادِ، أو بهيمةٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: لو نَشاءُ لَمَسَخْنا الكافرين في الدُّنيا في مكانِهم الَّذي أظهَروا فيه التَّكذيبَ بالرُّسُلِ، فما استطاعوا انصرافًا إلى ما خرَجوا إليه، ولا رُجوعًا إلى ما أتَوا منه، بل لَزِموا مكانَهم؛ لِزَوالِ العَقلِ الإنسانيِّ منهم؛ بسبب المسخِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

وقال السعدي: (﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: لأذْهَبْنا حركتَهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ إلى الأمامِ ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى ورائِهم؛ ليبعدوا عن النارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٤). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٤).

على جانبِ الخَوفِ، ووقَعَ الإنسانُ في الأمنِ مِن مَكرِ اللهِ، ولو ذُكِرَ فيه جانبُ الخوفِ دونَ جانبِ الرَّجاءِ لَوَقَعَ الإنسانُ في القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ؛ فكان اللهُ عزَّ وجلَّ إذا ذكَرَ النَّعيمَ ذكَرَ ضِدَّه، وإذا ذكَرَ أصحابَ الجنةِ ذكَرَ أصحابَ النَّارِ، وهكذا، كما قال تعالى هنا: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ...﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ...﴾. وهذا أحَدُ معاني قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]، يعني: أنَّه تُثَنَّى فيه المعاني؛ حتَّى يَكمُلَ السَّيرُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى على الوجهِ المطلوبِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن قام بعملٍ أنْ يَذْكُرَ الوصفَ المناسِبَ لهذا العملِ، فهنا لَمَّا أُمِروا بالانصرافِ وطُرِدُوا نَاسَبَ أنْ يَذْكُرَ سَبَبَ ذلك، فكأنَّه قال: «امتازوا لإجرامِكم»، ولا شكَّ أنَّ ذِكْرَ سببِ الحُكْمِ يُزيلُ الشُّبهةَ واللَّبْسَ والاعتِراضَ، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّ تعليقَ الحُكْمِ بوصفٍ يدُلُّ على أنَّ هذا الوصفَ هو عِلَّةُ ذلك الحُكْمِ، فإذا قلتَ مثلًا: أكْرِمِ المجتهدَ مِن الطَّلَبةِ؛ فهنا عَلَّقَ الإكرامَ بالاجتهادِ، وهذا يُفيدُ أنَّ علَّةَ الإكرامِ هو الاجتهادُ، فهذه القاعدةُ مفيدةٌ لطالبِ العلمِ، وهي: «أنَّ تعليقَ الحُكْمِ بوصفٍ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه»، أي: أنَّه عِلَّةُ ذلك الحُكْمِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ إثباتُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالخَلقِ؛ حيثُ لم يَجعَلْ إخلاصَهم له موكولًا إلى عُقولِهم، بل عَهِدَ بذلك إليهم على ألسِنةِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، لأنَّ اللهَ لو جَعَلَ الإخلاصَ موكولًا إلى العقولِ لاختلفَتِ العقولُ في ذلك اختلافًا كثيرًا؛ لأنَّ الأهواءَ لا تَنضَبِطُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١١).

فجَعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك ممَّا تكفَّلَ به هو نَفْسُه لعِبادِه[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أنَّ الذُّنوبَ كلَّها جزءٌ مِن الشِّركِ، وهي مِن فروعِه؛ فإنَّها جميعَها طاعةٌ للشَّيطانِ واتِّباعٌ لخُطواتِه، وقال الشَّيطانُ: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[2] [إبراهيم: ٢٢].

٥- كَتَب عبدُ الملِكِ بنُ مَرْوانَ إلى سعيدِ بنِ جُبيرٍ يَسألُه عن مسائلَ... فأجابَه عنها، وفيها: (تسألُ عن العبادةِ، والعبادَةُ هي الطَّاعةُ؛ ذلك أنَّه مَن أطاعَ اللهَ فيما أمرَه به وفيما نهاهُ عنه فقد آثَرَ عبادةَ اللهِ، ومَن أطاعَ الشَّيطانَ في دينِه وعمَلِه فقد عَبَد الشَّيطانَ، ألَا ترَى أنَّ اللهَ قال للَّذين فرَّطوا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾؟ وإنَّما كانت عِبادَتُهم الشَّيطانَ أنَّهم أطاعوه في دينِهم)[3]، فمعنى ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تُطيعوه؛ بدَليلِ أنَّ المَنهيَّ عنه ليس هو السُّجودَ له فحَسْبُ، بل الانقيادُ لأمرِه، والطَّاعةُ له؛ فالطَّاعةُ عِبادةٌ، لا يُقالُ: فنكونُ نحن مأمورينَ بعبادةِ الأُمراءِ؛ حيثُ أُمِرْنا بطاعتِهم في قَولِه تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]؛ لأنَّا نَقولُ: طاعتُهم إذا كانت بأمرِ اللهِ لا تكونُ إلَّا عبادةً للهِ وطاعةً له، وإنَّما عبادةُ الأمراءِ: طاعتُهم فيما لم يَأذَنِ اللهُ فيه[4]. فمعنَى عبادتِهم للشَّيطانِ ليست أنَّهم سَجَدُوا للشَّيطانِ، ولا ركَعوا للشَّيطانِ، ولا صَامُوا للشَّيطانِ، ولا حَجُّوا للشَّيطانِ، وإنَّما عبادتُهم للشَّيطانِ: هي اتِّباعُهم ما شَرَعه مِن النُّظُمِ على ألْسِنةِ أوليائِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٣٤٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٨).

كما في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فصَرَّحَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّ مَنِ اتَّبَعَ تشريعَ إبليسَ وقال: بأنَّ المَيتةَ حلالٌ: أنَّه مشركٌ باللهِ، فالمرادُ بعبادتِه طاعتُه فيما شَرَع، واتِّباعُه في نُظُمِه وقوانينِه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ أنَّ العبادةَ لا تَختَصُّ بالرُّكوعِ والسُّجودِ، والذَّبحِ والنَّذرِ، وما أشْبَهَ ذلك، بل هي عامَّةٌ شامِلةٌ لكُلِّ طاعةٍ يكونُ فيها كَمالُ التَّذلُّلِ[٢].

٧- قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فكلُّ مَن عَبَد غيرَ اللهِ فإنَّما يعبُدُ الشَّيطانَ، وإن كان يَظُنُّ أنَّه يعبُدُ الملائكةَ والأنبياءَ؛ ولهذا تتمَثَّلُ الشَّياطينُ لمَن يعبُدُ الملائكةَ والأنبياءَ والصَّالحينَ ويُخاطِبونَهم، فيَظُنُّونَ أنَّ الَّذي خاطَبَهم مَلَكٌ أو نبيٌّ أو وليٌّ، وإنَّما هو شيطانٌ، فكلُّ مَن لم يَعبُدِ اللهَ مُخْلِصًا له الدِّينَ فلا بُدَّ أنْ يكونَ مشرِكًا عابِدًا لغيرِ اللهِ، وهو في الحقيقةِ عابِدٌ للشَّيطانِ. فكلُّ واحدٍ مِن بني آدمَ إمَّا عابِدٌ للرَّحمنِ، وإمَّا عابِدٌ لِلشَّيطانِ[٣].

٨- أنَّه ينبغي التَّخليةُ قبْلَ التَّحليةِ؛ لأنَّه قال: ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ هذا تخليةٌ، ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ تحليةٌ، أي: نفْيٌ وإثباتٌ، وهذا هو التَّوحيدُ؛ فالتَّوحيدُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٨٣).

مبنيٌّ على نفيٍ وإثباتٍ؛ لأنَّ النَّفيَ المُجرَّدَ تعطيلٌ مَحضٌ وعَدَمٌ، والإثباتَ المُجَرَّدَ لا يَمنَعُ المشارَكةَ، فلا يَتِمُّ التَّوحيدُ إلَّا بنفيٍ وإثباتٍ، ويُبْدَأُ أوَّلًا بالنَّفيِ؛ لِيَرِدَ الإثباتُ على مكانٍ خالٍ مِن الشَّوائبِ خالصٍ صالحٍ لاستقرارِ الإثباتِ فيه، وهذا في القرآنِ كثيرٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، فتبَرَّأَ أولًا من كلِّ معبودٍ، ثمَّ أثبتَ العبادةَ للهِ وحْدَه الَّذي فَطَرَه[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ مُجتازٌ؛ لأنَّه لو كان في دارِ إقامةٍ، فقَولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يكونُ له معنًى؛ لأنَّ المقيمَ يقولُ: وماذا أفعَلُ بالطَّريقِ وأنا من المُقيمينَ[٢]؟!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَن ساء تَصرُّفُه صَحَّ أنْ يُنفَى عنه العَقلُ وإنْ كان عاقِلًا عَقلًا ظاهِرًا، والعَقلُ عَقلان: عقلٌ هو مَناطُ التَّكليفِ، وهو عَقلُ الإدراكِ. وعَقلٌ هو مَناطُ المَدحِ والذَّمِّ، وهو عَقلُ التَّصرُّفِ الَّذي يكونُ به الرُّشدُ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿جَهَنَّمُ﴾ بيانُ صفةِ النارِ، وأنَّها -والعياذُ باللهِ- كلُّها ظُلْمةٌ، وكلُّها سَوادٌ؛ لأنَّها مِن الجُهمةِ، أي: الظُّلمةِ والسَّوادِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ السِّرَّ في الخَتمِ على فيه: مَنعُه من أن يَلغَطَ حالَ شهادتِها عليه، كما هو دأْبُ أهلِ العنادِ عندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).



الخِصامِ[١].

١٣- قد يُخيَّلُ تعارُضٌ بيْنَ هذه الآيةِ ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ...﴾ وبيْن قولِه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ولا تَعارُضَ؛ لأنَّ آيةَ (يس) في أحوالِ المشركينَ، وآيةَ سُورةِ (النُّورِ) في أحوالِ المنافقينَ[٢].

١٤- سُئل ابنُ عبَّاسٍ: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ﴾؟ فقال: (إنَّه ذو ألوانٍ؛ مَرَّةً يَنْطِقون، ومَرَّةً يُخْتَمُ عليهم)[٣]. فيوم القيامةِ يومٌ طويلٌ ذو مواطِنَ مُختلِفةٍ، فيَنطِقون في وقتٍ ومكانٍ، ولا يَنطِقون في آخَرَ[٤].

١٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ لا يَتنافَى مع قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؛ لأنَّ عدَمَ الكتْمِ المذكورَ هناك إنَّما هو باعتبارِ إخبارِ أيديهم وأرجُلِهم بكلِّ ما عَمِلوا عندَ الختْمِ على أفواهِهم إذا أنْكَروا شِركَهم ومَعاصِيَهم[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ أنَّ اللهَ تعالى أسنَدَ فِعلَ الختمِ إلى نفْسِه وقال: ﴿نَخْتِمُ﴾، وأسنَدَ الكلامَ والشَّهادةَ إلى الأيدي والأرجُلِ؛ لأنَّه لو قال تعالى: «نختِمُ على أفواهِهم، ونُنطِقُ أيديَهم» يكونُ فيه احتِمالُ أنَّ ذلك منهم كان جَبرًا وقهرًا، والإقرارُ بالإجبارِ غيرُ مَقبولٍ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٣) ذكره البخاري معلقًا في ((صحيحه)) قبل حديث (٤٩٣٠).

(٤) يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

فقال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ أي: باختيارِها بعدَما يُقدِرُها اللهُ تعالى على الكلامِ؛ لِيَكونَ أدَلَّ على صُدورِ الذَّنبِ منهم(١).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الختمُ لازِمُ الكُفَّارِ: في الدُّنيا على قُلوبِهم، وفي الآخرةِ على أفواهِهم؛ ففي الوقتِ الَّذي كان الخَتمُ على قُلوبِهم كان قَولُهم بأفواهِهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]، فلمَّا خَتَم على أفواهِهم أيضًا لزِمَ أن يكونَ قولُهم بأعضائِهم؛ لأنَّ الإنسانَ لا يملِكُ غيرَ القَلبِ واللِّسانِ والأعضاءِ؛ فإذا لم يَبْقَ القَلبُ والفَمُ تعيَّنَ الجوارِحُ والأركانُ(٢).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّه خلافُ العادةِ أنْ تَتكَلَّمَ الأيدي والأرجُلُ، ولكنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ ولهذا لَمَّا ذَكَر اللهُ عنهم أنَّهم ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾(٣) [فصلت: ٢١].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أنكر بَعضُهم كلامَ الجوارحِ، وقال: معنى الكلامِ وُجودُ دَلالةٍ تدُلُّ على أنَّها قد عَلِمَت ما عَمِلَت! والصَّحيحُ أنَّها تتكلَّمُ حقيقةً، وغيرُ مُستبعَدٍ كَلامُ الجوارِحِ في قُدرةِ اللهِ تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ أنَّ الإنسانَ يمكنُ أنْ يَشْهَدَ بعضُه على بعضٍ؛ لأنَّ هذا الرَّجُلَ الواحدَ تَشْهَدُ عليه أعضاؤُه بما عَمِلَ، ويَتَفَرَّعُ على هذا: أنَّ الإنسانَ -في الدُّنيا- يمكِنُ أنْ يَشْهَدَ على نفْسِه، وشهادتُه على نفْسِه هو إقرارُه على نفْسِه[1].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أنَّ العِبرةَ في العَمَلِ بما كان فيه مِن كَسبٍ، لا بمُجَرَّدِ العَمَلِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ العَمَلِ قد لا يكونُ كَسبًا، كما لو صدَرَ مِن جاهلٍ، أو صدَرَ مِن ساهٍ أو نائمٍ، أو ما أشْبَهَ ذلك[2].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ ضَرْبُ المَثَلِ عن الأشياءِ المعقولةِ بالأشياءِ المحسوسةِ؛ فإنَّ هؤلاء لو طُمِسَتْ أعينُهم ما استطاعوا أنْ يَهتَدوا إلى السَّبيلِ، فكذلك إذا طَمَسَ اللهُ بصيرةَ القَلبِ -والعياذُ بالله- لم يَستَطِعِ الوُصولَ إلى الحقِّ، ولم يَعرِفِ الحَقَّ[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عَطفٌ إمَّا على الجُملةِ السَّابقةِ المَسوقةِ لِبَيانِ أحوالِ أهلِ الجنَّةِ؛ عطَفَ قِصَّةَ سُوءِ حالِ هؤلاءِ وكَيفيَّةِ عِقابِهم على قِصَّةِ حُسنِ حالِ أولئك ووَصْفِ ثَوابِهم، وكأنَّ تَغييرَ السَّبكِ لِتَخييلِ كَمالِ التَّبايُنِ بيْنَ الفريقينِ وحالَيْهما، وإمَّا على مُضمَرٍ يَنساقُ إليه حِكايةُ حالِ أهلِ الجنَّةِ، كأنَّه قِيلَ إثرَ بَيانِ كَونِهم في شُغُلٍ عَظيمِ الشَّأنِ وفَوزِهم بنَعيمٍ مُقيمٍ يَقصُرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

عنه البيانُ: فلْيَقَرُّوا بذلك عَينًا، وامتازُوا عنهم أَيُّهَا المُجرِمون إلى مَصيرِكم[١].

- قولُه: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ فِعلُ (امتاز) مُطاوِعُ مازَهُ؛ إذا أفرَدَه عمَّا كان مُختلِطًا معه، وُجِّهَ الأمْرُ إليهم بأنْ يَمْتازوا مُبالَغةً في الإسراعِ بحُصول المَيزِ؛ لأنَّ هذا الأمْرَ أمْرُ تكوينٍ، والمرادُ: امتيازُهم بالابتعادِ عن الجنَّةِ، وذلك بأنَّ يَصِيروا إلى النَّارِ، فيَؤُولُ إلى معنَى: ادْخُلوا النَّارَ[٢].

- ونِداؤُهم بعُنوانِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ مَيزِهم عن أهْلِ الجنَّةِ بأنَّهم مُجرِمون، فاللَّامُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ مَوصولةٌ، أي: أيُّها الَّذين أجْرَموا[٣].

- وحُذِفَت أداةُ النِّداءِ؛ لا لِقُربِ الكرامةِ، بل للدَّلالةِ على أنَّهم في القَبضةِ، لا مانِعَ مِن غايةِ التَّصرُّفِ فيهم لكُلِّ ما يُرادُ؛ لأنَّه لا حائلَ دُونَهم[٤].

- وتَكريرُ كَلمةِ (اليومَ) ثلاثَ مرَّاتٍ في الحِكايةِ؛ للتَّعريضِ بالمُخاطَبين فيه -وهم الكفَّارُ الَّذين كانوا يَجحَدون وُقوعَ ذلك اليومِ- مع تأْكيدِ ذِكرِه على أسماعِهم بقولِه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ ﴾ [يس: ٥٤]، وقولِه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ﴾ [يس: ٥٥]، وقولِه: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ هو إشهادٌ على المشركينَ، وتَوبيخٌ وتَقْريعٌ لهم، وإلزامٌ للحُجَّةِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ الاستفهامُ تقريريٌّ، والجملةُ جاريةٌ مجرَى التَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ والإلزامِ. وخُوطِبوا بعُنوانِ ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾؛ لأنَّ مَقامَ التَّوبيخِ على عِبادتِهم الشَّيطانَ يَقْتضي تَذكيرَهم بأنَّهم أبناءُ الَّذي جعَلَه الشَّيطانُ عَدُوًّا له[1].

- والعهدُ: الوِصايةُ، وَوِصايةُ اللهِ بني آدَمَ بألَّا يَعبُدوا الشَّيطانَ هي ما تَقرَّرَ واشتُهِرَ في الأُمَمِ بما جاء به الرُّسلُ في العصورِ الماضيةِ، فلا يَسَعُ إنكارُه، وبهذا الاعتبارِ صحَّ الإنكارُ عليهم في حالِهم الشَّبيهةِ بحالِ مَن يَجحَدُ هذا العهدَ[2].

- وفي قولِه تعالى: ﴿أَعْهَدْ﴾ تَوالي العينِ والهاءِ، وهما حَرفانِ مُتقارِبَا المَخرجِ مِن حُروفِ الحلْقِ، إلَّا أنَّ تَوالِيَهما لم يُحدِثْ ثِقلًا في النُّطقِ بالكلمةِ يُنافي الفصاحةَ بمُوجِبِ تَنافُرِ الحروفِ؛ لأنَّ انتقالَ النُّطقِ في مَخرجِ العينِ مِن وسَطِ الحلْقِ إلى مَخرجِ الهاءِ مِن أقْصى الحلْقِ، خفَّفَ النُّطقَ بهما، وكذلك الانتقالُ مِن سُكونٍ إلى حَركةٍ زاد ذلك خِفَّةً[3].

- قولُه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ جعَلَ عِبادةَ غيرِ الله عِبادةَ الشَّيطانِ؛ لأنَّه الآمِرُ بها، والمزيِّنُ لها[4]. وعِبادةُ الشَّيطانِ: طاعتُه فيما يُوسوِسُ به إليهم ويُزيِّنُه لهم، وعُبِّرَ عنها بالعِبادةِ؛ لِزيادةِ التَّحذيرِ والتَّنفيرِ عنها في مُقابَلةِ

= السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١).

عِبادتِه عزَّ وجلَّ[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، وقد أغنَتْ (إنَّ) عن فاءِ السَّببيَّةِ[2].

- ووَصْفُ العدُوِّ بأنَّه ﴿مُّبِينٞ﴾؛ للمُبالَغةِ، أي: عَداوتُه واضحةٌ، ووَجْهُ وُضوحِها: أنَّ المرْءَ إذا راقَبَ عواقبَ الأعمالِ الَّتي تُوسوِسُها له نفْسُه، واتَّهمَها، وعرَضَها على وَصايا الأنبياءِ والحكماءِ؛ وَجَدَها عواقبَ نَحسةً، فوضَحَ له أنَّها مِن الشَّيطانِ بالوسوسةِ، وأنَّ الَّذي وَسوَسَ بها عدُوٌّ له؛ لأنَّه لو كان وَدودًا لَمَا أوقَعَه في الكوارثِ، ولا يُظَنُّ به الإيقاعُ في ذلك عن غيرِ بَصيرةٍ؛ لأنَّ تَكرُّرَ أمثالِ تلك الوساوسِ للمرْءِ ولأمثالِه ممَّن يَبوحُ له بأحوالِه يدُلُّ ذلك التَّكرُّرُ على أنَّها وَساوسُ مَقصودةٌ للإيقاعِ في المهالِكِ؛ فعُلِمَ أنَّ المشيرَ بها عَدُوٌّ ألَدُّ، ولعلَّ هذا المعنى هو المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾[3] [يس: ٦٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ عطْفٌ على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ بإعادةِ (أنِ) التَّفسيريَّةِ، فهما جُملتانِ مُفسِّرتانِ لِعَهدينِ، وعُدِلَ عن الإتيانِ بصِيغةِ قَصْرٍ؛ لأنَّ في الإتيانِ بهاتَينِ الجُملتينِ زِيادةَ فائدةٍ؛ لأنَّ من أهلِ الضَّلالةِ الدَّهريِّينَ والمعطِّلينَ، فهمْ وإنْ لم يَعبُدوا الشَّيطانَ ولكنَّهم لم يَعبُدوا اللهَ، فكانوا خائِسينَ بالعهدِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧، ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٤٨).

- قولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ في قولِه: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾[1].

- و﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي: صِراطٌ بَليغٌ في بابِه، بليغٌ في استِقامتِه، جامعٌ لكلِّ شَرطٍ يجبُ أنْ يكونَ عليه، وفي هذا تَوبيخٌ للكافرينَ مِن بني آدَمَ على العُدولِ عن الصِّراطِ المستقيمِ، والتَّفادي عن سُلوكِه، كما يَتفادَى النَّاسُ عن الطَّريقِ المُعْوَجِّ الَّذي يُؤدِّي إلى الضَّلالةِ والتَّهْلُكةِ، كأنَّه قِيل: أقَلُّ أحوالِ الطَّريقِ الَّذي هو أقْوَمُ الطُّرقِ: أنْ يُعتقَدَ فيه كما يُعتقَدُ في الطَّريقِ الَّذي لا يُضِلُّ السَّالكَ، كما يقولُ الرَّجلُ لِولَدِه وقد نصَحَه النُّصحَ البالغَ الَّذي ليس بعْدَه: هذا فيما أظَنُّ قولٌ نافعٌ غيرُ ضارٍّ؛ تَوبيخًا له على الإعراضِ عن نَصائحِه[2].

- وأيضًا تَنوينُ ﴿صِرَٰطٞ﴾ وتَنكيرُه؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ والمبالَغةِ، أو للتَّبعيضِ؛ فإنَّ التَّوحيدَ سُلوكُ بعضِ الطَّريقِ المستقيمِ، وفيه إيجازٌ يُشيرُ إلى ما عُهِدَ إليهم مِن مَعصيةِ الشَّيطانِ وطاعةِ الرَّحمنِ؛ إذ لا صِراطَ أقْوَمُ منه[3].

- وتَقديمُ النَّهيِ على الأمْرِ في قولِه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ لأنَّ حقَّ التَّخليةِ التَّقديمُ على التَّحليةِ كما هو مُقرَّرٌ، ولِيَتَّصِلَ به قولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ فإنَّه إشارةٌ إلى عِبادتِه تعالى الَّتي هي عبارةٌ عن التَّوحيدِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣، ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٩).

والإسلامِ، وهو المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[١] [الحجر: ٤١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ رُجوعٌ إلى بَيانِ مُعاداةِ الشَّيطانِ، مع ظُهورِ عَداوتِه، ووُضوحِ إضلالِه لِمَن له أدْنَى عقْلٍ ورأْيٍ[٢].

- وهو جَوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَشديدِ التَّوبيخِ، وتأْكيدِ التَّقريعِ؛ ببَيانِ أنَّ جِناياتِهم ليستْ بنَقْضِ العهْدِ فقطْ، بلْ به وبعَدَمِ الاتِّعاظِ بما شاهَدوا مِن العُقوباتِ النَّازلةِ على الأُمَمِ الخاليةِ بسَببِ طاعتِهم للشَّيطانِ؛ فالخِطابُ لِمُتأخِّريهم الَّذين مِن جُملتِهم كُفَّارُ مكَّةَ، خُصُّوا بزِيادةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ لِتَضاعُفِ جِناياتِهم[٣]. أو عطْفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ فعَداوتُه واضحةٌ بدَليلِ التَّجرِبةِ، فكانت عِلَّةً للنَّهيِ عن عِبادةِ ما يأْمُرُهم بعِبادتِهم[٤].

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أكنتُم تُشاهِدونَ آثارَ عُقوباتِهم، فلمْ تَكونوا تَعقِلون أنَّها لِضَلالِهم؟ أو فلَمْ تكونُوا تَعقِلون شيئًا أصلًا حتَّى تَرْتدِعُوا عمَّا كانُوا عليه؛ كَيْلَا يَحيقَ بكمُ العِقابُ[٥]؟

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ توبيخٌ للكافرينَ والمنكِرينَ، والاستفهامُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦).

إنكاريٌّ عن عَدمِ كَونِهم يَعقِلون، أي: يُدرِكونَ؛ إذ لو كانوا يَعقِلون لَتفَطَّنوا إلى إيقاعِ الشَّيطانِ بهم في مَهاوي الهلاكِ، وزيادةُ فِعلِ الكونِ ﴿تَكُونُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ العقْلَ لم يَتكوَّنْ فيهم، ولا هُمْ كائنونَ به[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِمُجابَهتِهم بالمصيرِ الهائلِ الَّذي يَصِيرون اليه، بعْدَ أنْ بلَغَ الغايةَ في تَوبيخِهم وتَقريعِهم، وإلْزامِهم وتَبكيتِهم[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾

- الأمْرُ بقولِه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ مُستعمَلٌ في الإهانةِ والتَّنكيلِ، وإطلاقُ الصَّلْيِ على الإحراقِ: تَهكُّمٌ[3].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ تَعريفُ العهْدِ، أي: هذا اليومَ الحاضرَ، وأُرِيدَ به جوابُ ما كانوا يَقولون في الحياةِ الدُّنيا مِن استبطاءِ الوعدِ والتَّكذيبِ؛ إذ يَقولونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، والباءُ في ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ سَببيَّةٌ، أي: بسَببِ كُفرِكم في الدُّنيا[4].

٧- قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هذه الآيةُ خاتمةٌ لِبيانِ أحوالِ المَعادِ، وهي كالتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ أحوالِ المكذِّبينَ مِن قَومِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَقريعِهم وتَوبيخِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

وهو قولُه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾[١].

- وفي ذِكرِ لفظِ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تنويهٌ بذِكْرِه بحُصولِ هذا الحالِ العجيبِ فيه، وهو انتقالُ النُّطقِ مِن مَوضعِه المعتادِ إلى الأيدي والأرجُلِ[٢].

- وضَمائرُ الغَيبةِ في (أفواهِهم- أيديهِمْ- أرجُلُهم- يَكسِبون) عائدةٌ على الَّذين خُوطِبوا بقولِه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [يس: ٦٣] على طَريقةِ الالتِفاتِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذِكرَ أحوالِهم القَبيحةِ استَدْعَى أنْ يُعرِضَ عنهم، ويَحكيَ أحوالَهم الفظيعةَ لِغَيرِهم، مع ما فيه مِن الإيماءِ إلى أنَّ ذلك مِن مُقتضياتِ الختْمِ؛ لأنَّ الخِطابَ لِتَلقِّي الجوابِ، وقد انقطَعَ بالكُلِّيَّةِ. ومواجهتُهم بهذا الإعلامِ تأْييسٌ لهم بأنَّهم لا يَنفَعُهم إنكارُ ما اطَّلَعوا عليه مِن صَحائفِ أعمالِهم[٣].

- قولُه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ...﴾ سمَّى نُطقَ اليدِ كلامًا، ونُطقَ الرِّجْلِ شَهادةً؛ لأنَّ الغالبَ في اليدِ كَونُها فاعلةً، وفي الرِّجْلِ كَونُها حاضرةً، وقولُ الفاعلِ على نفْسِه إقرارٌ لا شَهادةٌ، وقولُ الحاضرِ على غيرِه شَهادةٌ[٤]. فاليدُ تُخبِرُ عمَّا فَعَلَتْ، والرِّجْلُ تُخبِرُ عمَّا فَعَلَ غيرُها؛ لأنَّ الأصلَ في المباشَرةِ اليدُ؛ ولهذا دائمًا يُعَلَّقُ الكَسبُ باليَدِ، فيُقالُ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، أو ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ فلهذا كانت الأيدي مُباشِرةً، والأرجُلُ شاهِدةً؛ لأنَّ الشَّاهِدَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٤، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).

هو الَّذي يُخبرُ عمَّا فَعَلَ غيرُه، والفاعِلَ هو الَّذي يُخبرُ عمَّا فَعَلَه هو بنَفْسِه[1].

وقيل: في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ احتِباكٌ[2]؛ أثبتَ الكلامَ للأيدي أوَّلًا؛ لأنَّها كانت مُباشِرةً؛ دليلًا على حَذفِه مِن حَيِّزِ الأرجُلِ ثانيًا، وأثبتَ الشَّهادةَ للأرجُلِ ثانيًا؛ لأنَّها كانت حاضِرةً؛ دليلًا على حَذفِها مِن حَيِّزِ الأيدي أوَّلًا، وبقرينةِ أنَّ قَولَ المباشِرِ إقرارٌ، وقَولَ الحاضِرِ شَهادةٌ[3].

- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لَفتُ القَولِ إلى الغَيبةِ؛ إيذانًا بالإعراضِ لِتناهي الغَضَبِ[4].

- وطُوِيَ في قولِه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ...﴾ ما ورَدَ تفَصيلُه في آيٍ أُخَرَ؛ فقدْ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]؛ وإنَّما طُوِيَ ذِكرُ الدَّاعي إلى خِطابِهم بهذا الكلامِ؛ لأنَّه لم يَتعلَّقْ به غرَضٌ هنا، فاقتُصِرَ على المقصودِ[5].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) سبق تعريفه (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

- قولُه: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ... ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ... ﴾ ليس مَساقُ الشَّرطيَّتين لِمُجرَّدِ بَيانِ قُدرتِه تعالى على ما ذُكِرَ مِن عُقوبةِ الطَّمسِ والمسخِ، بلْ لِبَيانِ أنَّهم بما همْ عليه مِن الكُفرِ، ونقْضِ العهدِ، وعَدَمِ الاتِّعاظِ بما شاهَدوا مِن آثارِ دَمارِ أمثالِهم؛ أحِقَّاءُ بأنْ يُفعَلَ بهم في الدُّنيا تلك العُقوبةُ كما فُعِلَ بهم في الآخرةِ عُقوبةُ الختْمِ، وأنَّ المانعَ مِن ذلك ليس إلَّا عدَمُ تَعلُّقِ المشيئةِ الإلهيَّةِ به، كأنَّه قِيل: لو نَشاءُ عُقوبتَهم بما ذُكِرَ مِن الطَّمْسِ والمسخِ جَرْيًا على مُوجَبِ جِناياتِهم المستدعيةِ لها، لَفعَلْناها، ولكنَّا لم نَشأْها؛ جَرْيًا على سَنَنِ الرَّحمةِ والحكمةِ الدَّاعيتَينِ إلى إمهالِهم[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ إيثارُ صِيغةِ الاستِقبالِ، وإنْ كان المعنى على المُضِيِّ؛ لإفادةِ أنَّ عَدَمَ الطَّمسِ على أعيُنِهم لاستِمرارِ عَدَمِ المشيئةِ[2]، وليُتوقَّعَ في كلِّ حينٍ؛ فيَكونَ أبلَغَ في التَّهديدِ[3].

- وجِيءَ بحَرْفِ الاستعلاءِ (على)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الطَّمْسِ، وإلَّا فإنْ (طمَسَ) يَتعدَّى بنَفْسِه[4].

- قولُه: ﴿ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ الاستباقُ: افتِعالٌ مِن السَّبقِ، والافتعالُ دالٌّ على التَّكلُّفِ والاجتهادِ في الفِعلِ، أي: فبادَرُوا[5].

- وكذلك قولُه: ﴿ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ على حذْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٥٢).

الجارِّ وإيصالِ الفِعلِ، والأصلُ: (فاستَبقوا إلى الصِّراطِ)، أو يُضمَّنَ معنى (ابتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابقينَ، أي: مُسرعينَ لِمَا دَهَمَهم؛ رَجاءَ أنْ يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلم يُبصِروا الطَّريقَ[(١)].

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ (أنَّى) استِفهامٌ بمعنى (كيف)، وهو مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: لا يُبصِرون وقد طُمِسَت أعيُنُهم، أي: لو شِئنا لَعجَّلْنا لهمْ عُقوبةً في الدُّنيا يَرتدِعون بها، فيُقْلِعوا عن إشراكِهم[(٢)].

- وقَدَّم الطَّمسَ والإعماءَ على المَسخِ والإعجازِ؛ لِيَكونَ الكلامُ مُدرَجًا، كأنَّه قال: إنْ أعماهم لم يَرَوا الطَّريقَ الَّذي هم عليه، وحينَئذٍ لا يَهتَدونَ إليه، ثمَّ ارتقى وقال: فلو مسَخَهم وسَلَب قُوَّتَهم بالكُلِّيَّةِ؛ لا يَهتَدونَ إلى الصِّراطِ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ لأنَّه قد يُقالُ: إنَّ الأعمَى قد يَهتدي إلى الطَّريقِ بأماراتٍ عَقليَّةٍ أو حِسِّيَّةٍ غيرِ حِسِّ البَصَرِ؛ كالأصواتِ، والمشيِ بحِسِّ اللَّمسِ[(٣)].

- قولُه: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: مَكانِهم، إلَّا أنَّ المكانةَ أخَصُّ، فالمقصودُ مَكانُهم ومَنزِلُهم الَّذي هُمْ فيه قُعودٌ[(٤)].

- قولُه: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ كان مُقْتضى المقابَلةِ أنْ يُقالَ: ولا رُجوعًا، ولكنْ عُدِلَ إلى ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لِرعايةِ الفاصلةِ؛ فجُعِل قولُه: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ معطوفًا على جُملة ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وليس عطفًا على ﴿مُضِيًّا﴾؛ لأنَّ فِعلَ (استطاع) لا يَنصِبُ الجُمَلَ، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير روح البيان)) (٧/ ٣٣٤).

فما مَضَوْا ولا رَجَعُوا، فجَعَلْنا لهم العذابَ في الدُّنيا قبْلَ عذابِ الآخِرَة، وأَرَحْنا منهم المؤمنينَ، وتَركْناهم عِبرةً ومَوعِظةً لِمَن بعدَهم. وقيل: عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ على جُملة الشَّرطِ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ...﴾، أي: لا يَتجدَّدُ لهم بوجهٍ مِن الوجوهِ رُجوعٌ إلى حالتِهم الَّتي كانتْ قبْلَ المَسخِ؛ دَلالةً على أنَّ هذه الأمورَ حَقٌّ، لا كما يقولونَ مِن أنَّها خيالٌ وسِحرٌ، بل ثباتُها لا يُمكِنُ أحدًا مِن الخَلْقِ رفْعُه، ولا تغييرُه بنوعِ تغييرٍ، ولو قيل: (ولا رُجوعًا) لم يُفِدْ هذا المعنى النَّفيسَ[1].

- وقدَّم سُبحانَه المُضيَّ على الرُّجوعِ؛ لأنَّ الرُّجوعَ أهوَنُ مِن المُضيِّ؛ لأنَّ المُضيَّ لا يُنبِئُ عن سُلوكِ الطَّريقِ مِن قَبْلُ، وأمَّا الرُّجوعُ فيُنبِئُ عنه، ولا شَكَّ أنَّ سُلوكَ طَريقٍ قد رُئِيَ مرَّةً أهونُ مِن سلوكِ طريقٍ لم يُرَ؛ فقال: «لا يَستطيعونَ مُضيًّا ولا أقَلَّ مِن ذلك»، وهو الرُّجوعُ الَّذي هو أهونُ مِن المُضيِّ[2]!



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢، ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

الآيات (٦٨-٧٠)

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُعَمِّرْهُ﴾: أي: نَمُدَّ له في عُمُرِه، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ وامتدادِ زَمانٍ[1].

﴿نُنَكِّسْهُ﴾: أي: نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في الصِّغَرِ، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ[2].

﴿وَيَحِقَّ﴾: أي: ويَجِبَ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَما يتقدَّمُ به العُمُر: ومَن نُطِلْ في عُمُرِه نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في صِغَرِه، فنَجعَلْه ضَعيفًا بعدَ أنْ كان قَويًّا؛ أفلا يَعقِلونَ أنَّ مَن قَدَر على ذلك قادِرٌ أيضًا على بَعثِه بعدَ مَوتِه؟!

ثمَّ يَرُدُّ سبحانَه على الكافرينَ الَّذين وصَفوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه شاعِرٌ، فيقولُ: وما عَلَّمْنا محمَّدًا الشِّعرَ، وما يَنبغي له أن يكونَ شاعِرًا؛ فما القُرآنُ إلَّا ذِكرٌ وقرآنٌ واضِحٌ للنَّاسِ؛ لِيُنذِرَ الرَّسولُ بالقُرآنِ مَن كان حيَّ القَلبِ، ولِيَحِقَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٦٧).

العذابُ على الكافِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۖ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى الطَّمْسَ والمسْخَ على تَقديرِ المُشَبَّهِ؛ ذكَرَ تعالى دليلًا على باهِرِ قُدرتِه في تَنكيسِ المُعَمَّرِ، وأنَّ ذلك لا يَفعَلُه إلَّا هو تعالى(١).

وأيضًا لَمَّا قَرَّر قَطْعَ الأعذارِ بسَبقِ الإنذارِ وأتَمَّه؛ شَرَع في قَطعِ عُذرٍ آخَرَ، وهو أنَّ الكافِرَ يقولُ: لم يكُنْ لُبثُنا في الدُّنيا إلَّا يَسيرًا، ولو عمَّرْتَنا لَمَا وجَدْتَ مِنَّا تقصيرًا؛ فقال اللهُ تعالى: أفلا تَعقِلونَ أنَّكم كلَّما دخَلْتُم في السِّنِّ ضَعُفتُم، وقد عَمَّرْناكم مِقدارَ ما تتمَكَّنونَ مِن البَحثِ والإدراكِ؟! كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، ثمَّ إنَّكم عَلِمتُم أنَّ الزَّمانَ كُلَّما يَعبُرُ عليكم يَزدادُ ضَعفُكم؛ فضَيَّعتُم زمانَ الإمكانِ، فلو عَمَّرْناكم أكثَرَ مِن ذلك لَكان بعدَه زمانُ الإزمانِ، ومَن لم يأتِ بالواجِبِ زَمانَ الإمكانِ، ما كان يأتي به زمانَ الإزمانِ(٢)!

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور بعدَ أن استبعَد ما ذكَره المفسِّرون في وجهِ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبْلَها، قال: (والوجهُ عندي أنَّ لِكَونِ جملةِ ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ ﴾ عَطفًا على جُملةِ: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ ﴾ [يس: ٦٧]، فهي جملةٌ شَرطيَّةٌ عُطِفَت على جملةٍ شَرطيَّةٍ؛ فالمعطوفُ عليها جملةُ شَرطٍ امتناعيٍّ، والمعطوفةُ جملةُ شَرطٍ تعليقيٍّ، والجملةُ الأولى أفادت إمهالَهم والإملاءَ لهم، والجملةُ المعطوفةُ أفادت إنذارَهم بعاقبةٍ غيرِ محمودةٍ، ووعيدَهم بحُلولِها بهم، أي: إنْ كنَّا لم نمسَخْهم ولم نَطمِسْ على عُيونِهم، فقد أبقَيْناهم لِيَكونوا مَغلوبينَ أذِلَّةً؛ فمعنى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ ﴾ مَن نُعَمِّرْه منهم. فالتَّعميرُ بمعنى الإبقاءِ، أي: مَن نُبقيه منهم ولا نَستأصِلُه منهم، =

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾.

أي: ومَن نَمُدَّ له في عُمُرِه نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في صِغَرِه؛ ضَعيفًا في جَسَدِه وعَقلِه(١).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾.

أي: أفلا يَعقِلونَ قُدرةَ اللهِ في تَصريفِ خَلقِه كما يَشاءُ، ومن ذلك قُدرتُه على بَعثِهم(٢)؟!

= أي: مِنَ المُشرِكينَ، فجعَلَه بينَ الأُمَمِ ذليلًا، فالتَّعميرُ المرادُ هنا كالتَّعميرِ الَّذي في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر: ٣٧]، بأنَّ معناها: ألم نُبقِكم مُدَّةً من الحياةِ تكفي المتأمِّلَ؟ وهو المقدَّرُ بقولِه: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾، وليس المرادُ من التَّعميرِ فيها طُولَ الحياةِ وإدراكَ الهَرَمِ، كالَّذي في قَولِهم: فلانٌ من المعَمَّرينَ؛ فإنَّ ذلك لم يقَعْ بجميعِ أهلِ النَّارِ الَّذين خُوطِبوا بقَولِه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾، وقد طُوِيَت في الكلامِ جملةٌ تقديرُها: ولو نَشاءُ لأهلَكْناهم، يدُلُّ عليها قَولُه: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾، أي: نُبْقِه حيًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٩).

قال ابن كثير: (المرادُ من هذا -واللهُ أعلَمُ- الإخبارُ عن هذه الدَّارِ بأنَّها دارُ زَوالٍ وانتقالٍ، لا دارُ دَوامٍ واستقرارٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير =

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى الوحدانيَّةَ في قولِه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وفي قولِه: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦١]، وذكر الحشرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾ [يس: ٦٤]، وفي قولِه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [يس: ٦٥] إلى غيرِ ذلك، فلَمَّا ذكر هذينِ الأصْلَينِ وبَيَّنَهما؛ ذكر الأصلَ الثَّالثَ، وهو الرِّسالةُ، فقال[1]:

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾.

أي: وما عَلَّمْنا محمَّدًا -صلَّى الله عليه وسلَّم- الشِّعرَ، وما يَنبغي له أن يكونَ شاعِرًا؛ فنَظْمُ الشِّعرِ مُمتنِعٌ عليه[2].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾.

= القرطبي)) (١٥/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨، ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٧، ٥٨).
قال ابنُ عطية: (الضَّميرُ في ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ عائدٌ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، قولًا واحِدًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٢).
وقال أيضًا: (والضميرُ في ﴿لَهُۥٓۚ﴾ يحتملُ أن يعودَ على محمَّدٍ، ويحتملُ أن يعودَ على القرآنِ، وإن كان لم يُذكرْ لدَلالةِ المجاوَرةِ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٢).
وعلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿لَهُۥٓۚ﴾ عائدٌ إلى القرآنِ، فالمعنى: وما يَنبغي للقرآنِ أنْ يكونَ شِعرًا. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٦).

أي: ما القُرآنُ[1] إلَّا ذِكرٌ للنَّاسِ[2]، وقرآنٌ واضِحٌ مُظهِرٌ للحَقِّ، مُوضِّحٌ للنَّاسِ كُلَّ ما يَحتاجون إلى بيانِه[3].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه ﴿هُوَ﴾ المرادُ به القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابنُ الجوزي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٣).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على المعلَّم، أي: ما هذا الَّذي عَلَّمْناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾. وممَّن اختاره: ابنُ كثير، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١١١).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٠).

(٢) قيل: معنى ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: تَذكِرةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

وقيل: المعنى: شَرَفٌ ومَوعِظةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦٣).

وقيل: الذِّكرُ الَّذي وُصِفَ به القرآنُ يَتضمَّنُ عِدَّةَ مَعانٍ؛ هي: العِظةُ والتَّذَكُّرُ، وأنَّه ذِكرٌ يُذكَرُ به اللهُ تعالى، وأنَّه رفعةٌ وشرَفٌ لِمَن يقومُ ويَعملُ به. قاله ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٧-٢٥٣).

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾.

أي: لِيُنذِرَ الرَّسولُ بالقُرآنِ مَن كان حيَّ القَلبِ، يَفهَمُ ويَعقِلُ آياتِ اللهِ، ويَنتفِعُ بها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].

﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: ولِيَحِقَّ العَذابُ على الكافِرينَ باللهِ، المُعرِضينَ عن القُرآنِ بعدَ أن قامت به حُجَّةُ اللهِ عليهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

قال السعدي: (﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي: حَيَّ القلب واعيَه، فهو الَّذي يَزْكو على هذا القُرآنِ، وهو الَّذي يَزدادُ مِن العِلمِ منه والعَمَلِ، ويكونُ القرآنُ لقَلبه بمنزلةِ المطرِ للأرضِ الطَّيِّبةِ الزَّاكيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

قال الشنقيطي: (المرادُ بالقول... هو قولُه تعالَى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾، كما دَلَّتْ على ذلك آياتٌ مِنْ كتابِ اللَّه تعالَى؛ كقوله تعالَى في آخرِ سورة «هُود»: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، وقوله تعالَى في «السَّجدة»: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله تعالَى في أُخرياتِ «ص»: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧).

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَغتنِمَ فُرَصَ العُمُرِ، وقُوَّتَه وشبابَه قبْلَ أنْ يُنَكَّسَ في الخَلقِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الحَثُّ على التَّعقُّلِ والتَّفكُّرِ وحُسنِ التصَرُّفِ؛ حتَّى يكونَ الإنسانُ مِن العُقَلاءِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه سُبحانَه خَصَّ الشِّعرَ بنَفيِ التَّعليمِ مع أنَّ الكُفَّارَ كانوا يَنسُبونَ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم أشياءَ مِن جُملتِها السِّحرُ، ولم يَقُلْ: «وما عَلَّمْناه السِّحرَ»، وكذلك كانوا يَنسُبونَه إلى الكِهانةِ، ولم يَقُلْ: «وما علَّمْناه الكِهانةَ»؟

الجواب: أمَّا الكِهانةُ فكانوا يَنسُبونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم إليها عندَما كان يُخبِرُ عن الغُيوبِ، ويكونُ كما يقولُ. وأمَّا السِّحرُ فكانوا يَنسُبونَه إليه عندَما كان يَفعَلُ ما لا يَقدِرُ عليه الغَيرُ؛ كشَقِّ القَمَرِ، وتَكَلُّمِ الحَصى، وحنينِ الجِذْعِ وغيرِ ذلك. وأمَّا الشِّعرُ فكانوا يَنسُبونَه إليه عندَما كان يَتلو القُرآنَ عليهم، لكِنَّه صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم ما كان يَتحدَّى إلَّا بالقُرآنِ، كما قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] إلى غيرِ ذلك، ولم يَقُلْ: «إنْ كُنتُم في شَكٍّ مِن رِسالتي، فأنطِقوا الجُذوعَ، أو أشبِعوا الخَلْقَ العَظيمَ، أو أخبِروا بالغُيوبِ»، فلمَّا كان تحدِّيه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بالكَلامِ، وكانوا يَنسُبونَه إلى الشِّعرِ عندَ الكلامِ؛ خَصَّ الشِّعرَ بنَفيِ التَّعليمِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ سُؤالٌ عمَّا ورد عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الرَّجَزِ، نحوُ قَولِه:

((أنـا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أنـا ابـنُ عبدِ المُطَّلِبْ))[(٢)]

وقولِه:

((هـل أنـتِ إلَّا إصْبَعٌ دَميتِ وفي سَبيلِ اللـهِ ما لَقِيتِ))[(٣)]

الجوابُ: أنَّ هذا ليس بشِعرٍ عندَ الخليلِ، أو أنَّ الموزونَ بوزنِ الشِّعرِ وإن لم يكُنْ رَجَزًا: ليس بشِعرٍ عند أحدٍ؛ إذ الشِّعرُ قَولٌ مَوزونٌ مُقفًّى مقصودٌ به الشِّعرُ، والقَصدُ مُنتَفٍ فيما رُوِيَ مِن ذلك[(٤)]، فذلك ليس بشِعرٍ؛ لعدَمِ قَصدِه إلى الوزنِ والقافيةِ، وعلى هذا لو صدرَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم كلامٌ كثيرٌ موزونٌ مُقفًّى، لا يكونُ شِعرًا؛ لعدَمِ قَصدِه اللَّفظَ قَصدًا أوَّليًّا، ويؤيِّدُ ما ذكَرْنا أنَّك إذا تتبَّعتَ كلامَ النَّاسِ في الأسواقِ تجِدُ فيه ما يكونُ موزونًا واقِعًا في بحرٍ مِن بحورِ الشِّعرِ، ولا يُسمَّى المتكَلِّمُ به شاعِرًا، ولا الكلامُ شِعرًا؛ لفَقدِ القَصدِ إلى اللَّفظِ أوَّلًا. ثمَّ قَولُه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ يحقِّقُ ذلك المعنى، أي: هو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديثِ البَراءِ بنِ عازِبٍ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦) من حديثِ جُندَبِ بنِ عبدِ الله بنِ سُفْيانَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٥).

ذِكرٌ ومَوعِظةٌ؛ للقَصدِ إلى المعنى، والشِّعرُ لَفظٌ مُزَخرَفٌ بالقافيةِ والوزنِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أنَّه كُلَّما تَمسَّكَ المسلمون بهذا الكتابِ العزيزِ فإنَّهم يَزدادون عِزَّةً وشَرَفًا؛ لأنَّ المُعَلَّقَ على وصْفٍ يَقْوَى بقوةِ ذلك الوصفِ، ويَضْعُفُ بضَعْفِ ذلك الوصفِ[٢]، وذلك على قولٍ في معنى الذِّكرِ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ إثباتُ العِلَّةِ والحِكمةِ؛ تُؤخَذُ مِن لامِ التَّعليلِ[٣].

٥- إنَّ النَّاسَ انقَسَموا في هذه الدَّعوةِ إلى قِسمَينِ: قِسمٌ قَبِلَها واطمأَنَّ إليها؛ فهو حَيٌّ؛ وقِسمٌ على العكسِ مِن ذلك، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لِيَتبيَّنَ أنَّ المرادَ بالحياةِ هنا حياةُ القَلبِ، وحياةُ الإيمانِ، لا الحياةُ الجَسَديَّةُ؛ لأنَّ مُقابَلةَ الشَّيءِ بالشَّيءِ تُفيدُ مَعناه. ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ ليس حياةَ جِسمٍ، لو كانت حياةَ جِسمٍ لَقال: ويَحِقَّ القَولُ على الموتى، ولكِنْ قال: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ وبهذا عرَفْنا أنَّ كُلَّ حياةٍ في مِثلِ هذا السِّياقِ فالمرادُ بها حياةُ القَلبِ، لا حياةُ الجِسمِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ الكريمَ حُجَّةٌ على الكافِرينَ؛ لأنَّه لن يَحِقَّ عليهم القَولُ إلَّا بعدَ أنْ تَقومَ عليهم الحُجَّةُ، ويكونَ كُفرُهم عن عِنادٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٥). ويُنظر أيضًا: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لاستِعراضِ حالِ الإنسانِ؛ كيف يَستحيلُ إلى ضَعفٍ بعدَ قُوَّةٍ، وإلى نَقصٍ بعدَ تَمامٍ[(١)]!

- وفُرِّعَ على الجُمَلِ الشَّرطيَّةِ الثَّلاثِ -﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ و﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ و﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾- وما تفرَّعَ عليها: قولُه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾، استِئنافًا إنكاريًّا لِعَدمِ تأمُّلِهم في عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى الدَّالَّةِ على أنَّه لو شاء لَطَمَسَ على أعيُنِهم، ولو شاء لَمَسَخَهم على مَكانتِهم، وأنَّه إنْ لم يَفعَلْ ذلك فإنَّهم لا يَسْلَمون من نَصْرِه المُسلمينَ عليهم؛ لأنَّهم لو قاسوا مَقدوراتِ اللهِ تعالى المُشاهَدةَ لهم، لَعَلِموا أنَّ قُدرتَه على مَسْخِهم فما دونَه مِن إنزالِ مَكروهٍ بهم أيسَرُ مِن قُدْرتِه على إيجادِ المخلوقاتِ العَظيمةِ المُتْقَنةِ، وأنَّه لا حائلَ بيْن تَعلُّقِ قُدرتِه بمَسخِهم إلَّا عدَمُ إرادتِه ذلك لِحكمةٍ عَلِمَها؛ فإنَّ القُدرةَ إنَّما تَتعلَّقُ بالمقدوراتِ على وَفْقِ الإرادةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ تَنبيهٌ على التَّفكيرِ، وتَوبيخٌ لِمَا لو عَسى أنْ يُنكِرَ مُنكِرٌ أنَّه تعالى كيف يَختِمُ على الأفواهِ يومَ القيامةِ لِتَتكلَّمَ الأيدي، وتَشهَدَ الأرجُلُ[(٣)].

- وقرَأَ نافعٌ، وابنُ ذَكْوانَ عن ابنِ عامرٍ، وأبو جعفرٍ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بتاءِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٢).

الخِطابِ، وهو خِطابٌ للَّذين وُجِّهَ إليهم قولُه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] الآيةَ، وقرَأَ الباقونَ بياءِ الغَيبةِ[١]؛ لأنَّ تلك الجُمَلَ الشَّرطيَّةَ لا تَخْلو مِن مُواجَهةٍ بالتَّعريضِ للمُتحدَّثِ عنهم، فكانوا أحرياءَ أنْ يَعقِلوا مَغْزاها، ويَتفهَّموا مَعناها[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾

- هذه الآيةُ تَرجِعُ إلى ما تَضمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]؛ فالمرادُ بالآياتِ آياتُ القرآنِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فإعراضُهم عن القُرآنِ له أحوالٌ شَتَّى: بعضُها بعَدمِ الامتثالِ لِمَا يأْمُرُهم به مِن الخَيرِ مع الاستهزاءِ بالمسلمينَ، وبعضُها بالتَّكذيبِ لِمَا يُنذِرُهم به مِن الجزاءِ، ومِن إعراضِهم عنه: طَعْنُهم في آياتِ القرآنِ بأقوالٍ شتَّى؛ منها قولُهم: (هو قولُ شاعرٍ)، فلمَّا تَصدَّى القرآنُ لإبطالِ تَكذيبِهم بوَعيدٍ بالجزاءِ يومَ الحشرِ بما تَعاقَبَ مِن الكلامِ على ذلك، عاد هنا إلى طَعنِهم في ألْفاظِ القرآنِ مِن قَولِهم: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ فقَولُهم: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يَقْتضي لا مَحالةَ أنَّهم يقولونَ: القرآنُ شِعرٌ. فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغَرَضِ على الغَرَضِ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُستأْنَفةً استِئنافًا ابتدائيًّا، ويكونَ الواوُ للاستئنافِ؛ ولذلك اقتُصِرَ على تَنزيهِ القرآنِ عن أنْ يَكونَ شِعرًا، والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أنْ يكونَ شاعرًا دونَ التَّعرُّضِ لِتَنزيهِه عن أنْ يكونَ ساحرًا، أو أنْ يكونَ مَجنونًا؛ لأنَّ الغرَضَ

---

(١) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).

الرَّدُّ على إعراضِهم عن القُرآنِ؛ فإنَّه لَمَّا قصَدَ إبطالَ مَقالاتٍ لهم في القرآنِ قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [الحاقة: ٤١، ٤٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ...﴾ بُنِيَ الرَّدُّ عليهم على طَريقةِ الكِنايةِ بنَفْيِ تَعليمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الشِّعرَ؛ لِمَا في ذلك مِن إفادةِ أنَّ القرآنَ مُعلَّمٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِبَلِ اللهِ تعالى، وأنَّه ليس بشِعرٍ، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس بشاعرٍ، وانتصَبَ الشِّعرُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لفِعلِ ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾؛ فتَقديرُ المعنى: نحن علَّمْناهُ القرآنَ وما علَّمناهُ الشِّعرَ؛ فالقرآنُ مُوحًى إليه بتَعليمٍ مِن اللهِ، والَّذي أَوحَى به إليه ليس بشِعرٍ، وإذَنْ فالمعنى: أنَّ القرآنَ ليس مِن الشِّعرِ في شَيءٍ؛ فكانتْ هاتِه الجُملةُ ردًّا على قولِهم: هو شاعرٌ، على طَريقةِ الكِنايةِ؛ لأنَّها انتقالٌ من اللَّازمِ إلى الملزومِ، ودلَّ على أنَّ هذا هو المقصودُ مِن قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ قولُه عَقِبَه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ليس الَّذي علَّمناهُ إيَّاه إلَّا ذِكرًا وقُرآنًا، وما هو بشِعرٍ[2].

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَينِ المتعاطفتَينِ، قُصِدَ منها إتْباعُ نفْيِ أنْ يكونَ القرآنُ المُوحَى به للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شِعرًا بنَفْيِ أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاعرًا فيما يَقولُه مِن غيرِ ما أُوحِيَ به إليه[3].

- وجُملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ نَفْيَ الشِّعرِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥، ٥٦).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٦، ٥٧).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٢).

القُرآنِ يُثيرُ سُؤالَ مُتطلِّبٍ يقولُ: فما هو هذا الَّذي أُوحِيَ به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فكان قولُه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ جوابًا لِطِلْبَتِه[١].

- وجِيءَ بصِيغةِ القَصرِ (إنْ ... إلَّا) المُفيدةِ قصْرَ الوحيِ على الاتِّصافِ بالكَونِ ذِكرًا وقُرآنًا قَصْرَ قلْبٍ[٢]، أي: ليس شِعرًا كما زعَمْتُم؛ فحصَل بذلك استِقصاءُ الرَّدِّ عليهم، وتَأكيدُ قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾[٣].

- والذِّكرُ: مَصدرٌ وُصِفَ به الكتابُ المنزَّلُ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَصفًا للمُبالَغةِ، أي: إنْ هو إلَّا مُذكِّرٌ للنَّاسِ بما نَسُوه أو جَهِلوه[٤]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ حُذِفَ المعمولُ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه مُبِينٌ لجَميعِ الحَقِّ بأدِلَّتِه التَّفصيليَّةِ والإجماليَّةِ، والباطِلِ وأدِلَّةِ بُطلانِه؛ أنزله اللهُ كذلك على رَسولِه[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ باعتبارِ ما اتَّصَلَ به مِن نَفْيِ كَونِه شِعرًا، ثمَّ إثباتِ كَونِه ذِكرًا وقُرآنًا، أي: لأنَّ جُملةَ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ بَيانٌ لِمَا قبْلَها في قُوَّةِ أنْ لو قِيلَ: (وما علَّمناهُ إلَّا ذِكرًا وقُرآنًا مُبينًا؛ لِيُنذِرَ ...)[٦].

- وعلى قراءةِ نافعٍ، وابنِ عامرٍ، وأبي جعفرٍ، ويَعقوبَ: ﴿لِتُنْذِرَ﴾ بتاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٦).

الخِطابِ[١]؛ فيَكونُ فيه التِفاتٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ إلى ضَميرِ الخِطابِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ هذا تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: مَن كان مِثلَ الحيِّ في الفَهمِ، والمقصودُ منه التَّعريضُ بالمعرِضينَ عن دَلائلِ القرآنِ بأنَّهم كالأمواتِ لا انتفاعَ لهم بعُقولِهم[٣]؛ فقولُه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أي: عاقِلًا مُتأمِّلًا؛ فإنَّ الغافلَ بمَنزلةِ المَيتِ، أو مُؤمنًا في عِلمِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ الحياةَ الأبديَّةَ بالإيمانِ. وتَخصيصُ الإنذارِ به؛ لأنَّه المنتفِعُ به[٤].

- وفي قَولِه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ احتِباكٌ؛ حيثُ حُذِفَ الإيمانُ أوَّلًا؛ لِمَا دَلَّ عليه مِن ضِدِّه ثانيًا، وحُذِفَ الموتُ ثانيًا؛ لِما دَلَّ عليه مِن ضِدِّه أوَّلًا[٥].

- وفي ذِكْرِ الإنذارِ عَودٌ إلى ما ابتُدِئَتْ به السُّورةُ مِن قولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦] -فهو كرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، وبذلك تمَّ مَجالُ الاستِدلالِ عليهم وإبطالِ شُبَهِهم- وتخلُّصٌ إلى الامتنانِ الآتي في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] إلى قولِه: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾[٦] [يس: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

- قَولُه: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أفردَ الضَّميرَ هنا على اللَّفظِ؛ إشارةً إلى قِلَّةِ السُّعَداءِ، وجَمَع في الثَّاني ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ على المعنى؛ إعلامًا بكَثرةِ الأشقياءِ[1].

- وقولُه: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: المُصِرِّينَ على الكُفرِ، وجعَلَ الكافرينَ في مُقابَلةِ مَن كان حيًّا؛ إشعارًا بأنَّهم لِكُفْرِهم وسُقوطِ حُجَّتِهم وعَدمِ تأمُّلِهم أمواتٌ في الحقيقةِ؛ لأنَّ الغافلَ كالمَيتِ[2].



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

الآيات (٧١-٧٦)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَنْعَامًا﴾: أي: بَهائِمَ مِن إبلٍ وبقَرٍ وغَنَمٍ، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على ترفُّهٍ، وطِيبِ عَيشٍ؛ لِما فيه مِن الخَيرِ والنِّعمةِ[1].

﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾: أي: سَخَّرْناها، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على خُضوعٍ[2].

﴿رَكُوبُهُمْ﴾: أي: ما يَرْكَبون، والرُّكوبُ -بالضمِّ-: هو الفِعلُ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا المشركينَ ببعضِ النِّعمِ الَّتي أسبَغها عليهم: أوَلم يَرَ أولئك المُشرِكونَ أنَّا خلَقْنا لهم أنعامًا كثيرةً مِن الإبلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فهم يَتصرَّفون فيها تصرُّفَ المالِكِ في مِلكِه؟ وسَخَّرْناها لهم فلا تَمتنِعُ منهم في رُكوبِها ولا ذَبحِها

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤).

للأكلِ، ولهم فيها مَنافِعُ أُخرى ومَشارِبُ، فيَشرَبون مِن ألبانِها؛ أفلا يَشكُرونَ اللهَ على تلك النِّعَمِ؟! فلم يُقابِلوا نِعَمَنا عليهم بالشُّكرِ، وإنَّما قابَلوها بالجُحودِ والبَطَرِ؛ فقد ترَكوا عبادتَنا، واتَّخَذوا مِن دونِنا آلهةً؛ رَجاءَ نُصرتِها لهم!

لا تستطيعُ آلهتُهم هذه نَصْرَهم والحالُ أنَّ هؤلاء المشركين جندٌ مُحضَرونَ لهذه الآلهةِ، فكيف تَنصُرُهم وهي لا تَنصُرُ نَفْسَها؟!

ثمَّ يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فلا يَحزُنْك قَولُهم وخَوْضُهم في شأنِك -يا محمَّدُ- وكُفرُهم باللهِ وتكذيبُهم؛ إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه، وسنُجازيهم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنِ انْقَضَى إبطالُ مَعاقِدِ شِركِ المشركينَ؛ أخَذَ الكلامُ يَتطرَّقُ غرَضَ تَذكيرِهم بنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم، وكيف قابَلوها بكُفرانِ النِّعمةِ، وأعْرَضوا عن شُكرِ المنعِمِ وعِبادتِه[1].

وأيضًا فهي عَطفٌ على قَولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، فذاك استِعطافٌ إلى توحيدِه بالتَّحذيرِ مِن النِّقَمِ، وهذا بالتَّذكيرِ بالنِّعَمِ[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: أوَلم يَرَ المُشرِكونَ أنَّا خلَقْنا لهم أنعامًا مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٢).

يتصرَّفونَ فيها كيف شاؤوا[(١)]؟!

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المِلْكُ لا يَستلزِمُ الطَّواعيَةَ؛ قال تعالى[(٢)]:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: وسَخَّرْنا هذه الأنعامَ مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَم، وجعَلْناها مَقهورةً مُنقادةً لهم، فلا تمتَنِعُ منهم؛ فمنها ما يركَبونَ -كالإبِلِ، يُسافِرونَ عليها-، ويأكُلونَ مِن لحومِها[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾.

أي: ولهم في الأنعامِ مَنافِعُ كثيرةٌ؛ فيَتَّخِذون منها لِباسًا وأثاثًا مِن أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها، ويَنتفِعونَ بنَسْلِها ورُكوبِها، والحَملِ عليها والحِراثةِ بها، والتَّغذِّي منها والتَّزيُّنِ بها، وبَيْعِها... وغيرِ ذلك مِن المنافِعِ، ولهم فيها أيضًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧١).

مَشارِبُ، فيَشرَبونَ مِن أنواعِ ألبانِها[١].

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت هذه الأشياءُ مِن العَظَمةِ بمكانٍ -لو فقَدَها الإنسانُ لتكدَّرت مَعيشتُه- سَبَّب عن ذلك استِئنافَ الإنكارِ عليهم في تخَلُّفِهم عن طاعتِه، بقَولِه[٢]:

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

أي: أفلا يَشكُرونَ اللهَ على تلك النِّعَمِ العَظيمةِ، فيَعبُدوه وحْدَه ويُطيعوه[٣]؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّرَهم نِعَمَه، وحذَّرَهم نِقَمَه؛ عجَّب منهم في سُفولِ نَظَرِهم، وقُبحِ أثَرِهم، فقال مُوبِّخًا ومُقرِّعًا، ومُبكِّتًا ومُعَجِّبًا مِن زيادةِ ضَلالِهم[٤]:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤)﴾.

أي: مع كُلِّ هذه الآياتِ والنِّعَمِ الإلهيَّةِ اتَّخذَ المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مَعبوداتٍ؛ رَجاءَ نُصرتِها لهم[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير =

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ٧٥﴾.

أي: لا تَستطيعُ آلهةُ المُشرِكينَ نَصْرَ عابِديها، والحالُ أنَّ هؤلاء المشركينَ جُندٌ مُحضَرونَ لهذه الآلهةِ[1]؛ ....

= (٦/ ٥٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠، ٧١).

(١) ممَّن اختار المعنى المذكورَ، وهو أنَّ المُشركين في الدُّنيا جُندٌ مُحضَرون لآلهتِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وابنُ القيم، والبِقاعي، والشوكاني، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٣، ٢٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٧٣).

قال القرطبي: (قال الحسَنُ: يَمْنعونَ منهم، ويَدْفَعونَ عنهم. وقال قَتادةُ: أي: يَغضبونَ لهم في الدُّنيا. وقيل: المعنَى أنَّهم يَعبُدونَ الآلهةَ ويَقومونَ بها، فهم لها بمنزلةِ الجُندِ، وهي لا تستطيعُ أنْ تَنصُرَهم. وهذه الأقوالُ الثَّلاثةُ مُتقارِبةُ المعنَى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧).

وقيل: الضَّميرُ الأوَّلُ (هم) للأصنامِ، والثاني ﴿لَهُمْ﴾ للكُفَّارِ، أي: يُحضَرونَ لهم في الآخرةِ عندَ الحسابِ، على جِهةِ التَّوبيخِ والنِّقمةِ. وممَّن اختاره: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤).

قال ابنُ عاشور: (ضَميرُ ﴿وَهُمْ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى ﴿ءَالِهَةً﴾ تبعًا لضمير ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. وضَميرُ ﴿لَهُمْ﴾ للمُشركين، أي: والأصنامُ للمُشركين جندٌ مُحضَرون، والجندُ: العدَدُ الكثيرُ. والمُحضَرُ: الَّذي جيءَ به لِيَحضُرَ مَشهدًا. والمعنى: أنَّهم لا يَستطيعون النَّصرَ مع حضورِهم في موقِفِ المُشركينَ لمُشاهَدةِ تعذيبِهم، ومع كَونِهم عددًا كثيرًا، ولا يَقدِرونَ على نصرِ المتمسِّكينَ بهم، أي: هم عاجزون عن ذلك، وهذا تأييسٌ للمُشركين مِن نفْعِ أصنامِهم. ويجوزُ العكسُ، أي: والمُشركون جُندٌ لأصنامِهم، مُحضَرون لخِدمتِها. ويجوزُ أن يكونَ هذا إخبارًا عن حالِهم =

فكيف تَنصُرُهم وهي لا تَنصُرُ نَفْسَها[١]؟!

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَما رَدَّ على الكافرينَ قولَهم بأنَّ النَّبيَّ شاعرٌ؛ أتى بقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ تَسليةً للنَّبيِّ صَلواتُ اللهِ عليه، يعني: لك التَّأسِّي بربِّك؛ فإنَّه تعالى أراهم تلك الآياتِ الباهرةَ، وأَولاهم تلك النِّعَمَ المُتظاهِرةَ، وعَلِموا أنَّه المتفرِّدُ بها، ومع ذلك كابَروا وعانَدوا واتَّخذوا مِن دُونِه آلهةً أشْرَكوها به في العبادةِ؛ فإذا كان كذلك ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾؛ لأنَّا مُجازوهم على تَكذيبِهم إيَّاك، وإشراكِهم بي[٢].

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾.

أي: فلا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- قولُ هؤلاءِ المُشرِكينَ لك: إنَّك شاعِرٌ، ومجنونٌ، وكاهِنٌ -إلى غيرِ ذلك ممَّا يَقْدَحون به في نُبوَّتِك-، ولا كُفْرُهم باللهِ وباليَومِ الآخِرِ، وتكذيبُهم بآياتِ اللهِ[٣]!

= مع أصنامِهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٣، ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان عِلمُ القادِرِ بما يَعمَلُ عَدُوُّه سببًا لأخْذِه؛ علَّل ذلك بقَولِه، مُهَدِّدًا بمَظهرِ العَظَمةِ[(١)]:

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

أي: إنَّا نَعلَمُ جميعَ ما يُسِرُّه المُشرِكونَ، ونَعلَمُ جميعَ ما يُعلِنونَه، وسنُجازيهم على جميعِ ذلك[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكْرِ اللهِ تعالى على هذه النِّعَمِ؛ ووجْهُه: أنَّه وَبَّخَ مَن لم يَشكُرْ، ولا توبيخَ إلَّا على فِعلِ مُحَرَّمٍ أو تَركِ واجبٍ، وشُكرُ المُنعِمِ كما دَلَّ عليه الشَّرعُ فقد دَلَّ عليه العَقلُ؛ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ مَدينٌ لِمَن أنعَمَ عليه أنْ يَشكُرَه بحَسَبِ ما تقتَضيه الحالُ؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ[(٣)]: ((مَن صَنَعَ إليكم معروفًا فكافِئوه، فإنْ لم تجِدوا ما تُكافِئونَه فادعُوا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) واللفظ له، والنسائي (٢٥٦٧)، وأحمد (٥٣٦٥) من حديث عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما.

صحَّحه النووي في ((المجموع)) (٦/ ٢٤٥)، وابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٥٠)-، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٧٢)، وصحح إسناده =

له حتَّى ترَوا أنَّكم كافأتُموه))[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ أنَّ هذه الأنعامَ مِلكٌ لنا نَنتَفِعُ بها بجَميعِ وُجوهِ الانتفاعاتِ؛ لأنَّها ما دامتْ لنا فنحن فيها أحرارٌ، إلَّا ما قام الدَّليلُ على مَنْعِه، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه يجوزُ أنْ نركَبَ ما لم تَجْرِ العادةُ برُكوبِه، مثلُ: أنْ نركَبَ البقرَ؛ ومِن الفُقَهاءِ مَن قال: يجوزُ الانتِفاعُ بهذه الحيواناتِ في غيرِ ما خُلِقَت له[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ صِحَّةُ نسبةِ العمَلِ إلى اللهِ، لكنْ لا يُسمَّى اللهُ بالعامِلِ، كما لا يُسمَّى بالصَّانعِ أخذًا مِن قَولِه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ

= العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٠٠)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٧/ ١٩٥)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥٣٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٢).

أمَّا الحديثُ الَّذي أخرجه البخاري (٣٤٧١) من حديث أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((بَيْنا رجُلٌ يَسوقُ بقرةً إذ رَكِبَها فضرَبَها، فقالت: إنَّا لم نُخْلَقْ لهذا، إنَّما خُلِقْنا للحَرْثِ)) فقد استُدِلَّ به على أنَّ الدَّوابَّ لا تُستعمَلُ إلَّا فيما جرَتِ العادةُ باستِعمالِها فيه. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٢٠)، ((المُفْهِم لِما أَشْكَلَ من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٦/ ٢٤٥).

لكن قال ابنُ حجر: (ويحتملُ أن يكونَ قولُها: «إنَّما خُلِقْنا للحَرْثِ» للإشارةِ إلى مُعْظَم ما خُلِقَتْ له، ولم تُرِدِ الحصرَ في ذلك؛ لأنَّه غيرُ مُرادٍ اتفاقًا؛ لأنَّ مِن أجَلِّ ما خُلِقَتْ له أنَّها تُذبَحُ وتُؤكَلُ بالاتِّفاقِ). ((فتح الباري)) (٦/ ٥١٨).

وقال المَرْداوي: (يجوزُ الانتفاعُ بالبهائمِ في غيرِ ما خُلِقَتْ له؛ كالبقرِ للحملِ أو الرُّكوبِ، والإبلِ والحميرِ للحَرْثِ...؛ لأنَّ مُقتضى المِلْكِ جوازُ الانتفاعِ به فيما يُمْكِنُ، وهذا مُمْكِنٌ كالَّذي خُلِق له وجرَتْ به عادةُ بعضِ النَّاسِ). ((الإنصاف)) (٩/ ٣٠٦).

شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨]؛ وذلك لأنَّ بابَ الخَبرِ أوسعُ مِن بابِ الإنشاءِ والتَّسميةِ؛ فيجوزُ أنْ نَشتَقَّ مِن كلِّ اسمٍ صِفةً، ولا يجوزُ أنْ نَشتقَّ مِن كلِّ صفةٍ اسمًا؛ ولهذا نقول: «الصِّفاتُ أوسَعُ مِنَ الأسماءِ»، أي: بابُ صفاتِ اللهِ أوسَعُ مِن بابِ الأسماءِ؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ مُتضَمِّنٌ لصِفةٍ، وليس كلُّ صفةٍ تَتضَمَّنُ اسمًا[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ إثباتُ اليدِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهذه اليدُ الَّتي أضافها تعالى إلى نَفْسِه يدٌ حقيقيَّةٌ ثابتةٌ، ولكنْ بدونِ أنْ تكونَ مُماثِلةً لأيدي المخلوقينَ[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابن عثيمين: (إنَّ المرادَ باليدِ هنا نفسُ الذَّاتِ الَّتي لها يدٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، أي: بما كسَبوا، سواءٌ كان من كسبِ اليدِ أو الرِّجْلِ أو اللِّسانِ أو غيرِها من أجزاءِ البدَنِ، لكنْ يُعَبَّرُ بمِثلِ هذا التَّعبيرِ عن الفاعلِ نفْسِه. ولهذا نقولُ: إنَّ الأنعامَ لم يَخلُقْها اللهُ تعالى بيَدِه، وفَرْقٌ بيْنَ قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وبيْن قولِه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ فـ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ كأنَّه قال: ممَّا عَمِلْنا؛ لأنَّ المرادَ باليدِ ذاتُ الله الَّتي لها يدٌ، والمرادُ بـ﴿بِيَدَىَّ﴾: اليَدانِ دونَ الذَّاتِ). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٠٢).

ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧). ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٧١).

وقال ابنُ القيِّم أيضًا: (لفظُ اليَدِ جاء في القرآنِ على ثلاثةِ أنواعٍ: مُفردًا، ومُثنًّى، ومجموعًا؛ فالمفردُ كقَولِه: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، والمُثنَّى كقَولِه: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، والمجموعُ كقَولِه: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ فحيث ذَكَر اليَدَ مُثنَّاةً أضاف الفِعلَ إلى نفْسِه بضميرِ الإفرادِ، وعَدَّى الفِعلَ بالباءِ إليهما، فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، وحيث ذكَرَها مجموعةً أضاف العمَلَ إليها ولم يُعَدِّ الفِعلَ بالباءِ؛ فهذه ثلاثةُ فُروقٍ، فلا يحتمِلُ ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] مِن المجازِ ما يحتَمِلُه ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يَفهَمُ مِن قَولِه: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ما يَفهَمُه مِن قَولِه: عَمِلْنا وخلَقْنا، كما يُفهَمُ ذلك مِن قولِه: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. وأمَّا قولُه: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] فلو كان المرادُ منه مجرَّدَ الفِعلِ لم يكُنْ لذِكرِ اليدِ بعدَ نِسبةِ الفعلِ إلى الفاعلِ معنًى، فكيفَ وقد دخَلتْ عليها الباءُ، فكيفَ إذا ثُنِّيتْ؟! =

٤- إذا قيل: إنَّ لله أكثَرَ من يَدَين؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾، فـ﴿أَيْدِينَآ﴾ هنا جَمْعٌ، فلْنَأْخُذْ بهذا الجَمْعِ، لأنَّنا إذا أخَذْنا بالجَمعِ أخَذْنا بالمُثَنَّى وزيادة، فما الجوابُ؟

الجواب: أنَّ اللهَ ليس له إلَّا يَدانِ اثنَتانِ، كما ثبتَ ذلك بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ.

ففي الكتابِ: قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٥٧]، وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وأمَّا السُّنَّةُ: فإنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((يَأْخُذُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ سَمواتِه وأَرَضِيه بيَدَيْه))[1]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((كِلْتَا يَدَيْهِ يمينٌ))[2].

وأجمَعَ السَّلفُ على أنَّ لله يدَينِ اثنتَينِ فقط بدونِ زيادةٍ. فيكف نجمعُ بيْن هذا وبيْن قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؟!

فنقولُ: الجَمْعُ على أحدِ الوجهَينِ:

فإمَّا أن نقولَ بما ذهب إليه بعضُ العلماءِ من أنَّ أقَلَّ الجَمعِ اثنانِ؛ وعليه فـ﴿أَيْدِينَآ﴾ لا تدُلُّ على أكثَرَ مِنِ اثنتَينِ، يعني: لا يَلزَمُ أن تدُلَّ على أكثَرَ مِن اثنَينِ، وحينَئذٍ تُطابِقُ التَّثنيةَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ولا إشكالَ فيه.

وإمَّا أن نقولَ: إنَّ المرادَ بهذا الجَمعِ التَّعظيمُ، تعظيمُ هذه اليدِ، وليس المرادُ

= وسرُّ الفرقِ أنَّ الفعلَ قد يُضافُ إلى يدِ ذي اليدِ، والمرادُ الإضافةُ إليه، كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]. وأمَّا إذا أُضِيف إليه الفعلُ ثمَّ عُدِّيَ بالباءِ إلى يدِه مُفرَدةً أو مُثَنَّاةً فهو ما باشَرتْه يدُه». ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (١/ ٢٦٨). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

أنَّ لله تعالى أكثَرَ مِن اثنتَين[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ إشارةٌ إلى إتمامِ الإنعامِ في خَلقِ الأنعامِ؛ فإنَّه تعالى لو خلقَها ولم يُملِّكْها الإنسانَ ما كان ينتفعُ بها[٢]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى علينا بتذليلِ هذه الأنعامِ، ولو استعصَتْ علينا ما تَمكَّنَّا مِن الانتِفاعِ بها[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ بيانُ أنَّ أفعالَ المخلوقاتِ مخلوقةٌ للهِ، لكِنَّها مَفعولةٌ للفاعِلِ مُباشَرةً؛ فهي تُنسَبُ لله عزَّ وجلَّ تقديرًا وخَلْقًا، وتُنسَبُ إلى الفاعِلِ كَسبًا وعَمَلًا؛ فهذه الإبِلُ المُذَلَّلةُ: الَّذي ذَلَّلَها هو اللهُ، إذَنْ أفعالُها صادرةٌ بخَلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا هو المذهَبُ الصَّحيحُ في هذه المسألةِ؛ مَسألةِ أفعالِ العبادِ: هل هي مخلوقةٌ للهِ، أو هي للعِبادِ استِقلالًا[٤]؟

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أنَّه يجوزُ تعذيبُ الحيوانِ إذا لم تَتِمَّ المصلحةُ إلَّا به؛ لأنَّ الأكلَ مصلحةٌ؛ ولكنْ لا أكلَ إلَّا بعدَ الذبحِ، والذَّبحُ مِن أعظَمِ ما يكونُ مِن الإيذاءِ، ولأنَّ الشَّرعَ جاء بإباحةِ وَسْمِ البهائمِ بالنَّارِ[٥] من أجْلِ حِفْظِ ماليَّتِها، ولأنَّ الشَّرعَ جاء بمشروعيَّةِ إشعارِ الإبلِ والبقرِ في الهَدْيِ لِيُعْلَمَ أنَّها هَدْيٌ، وإشعارُها هو شَقُّ صفحةِ سَنامِها حتَّى يَسيلَ منها الدَّمُ، وعلى

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) لكنَّ ذلك في غيرِ الوجهِ، قال النَّوويُّ: (وأمَّا الوَسْمُ في الوَجهِ فمَنهيٌّ عنه بالإجماعِ؛ للحديثِ ...). ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٩٧).
ويُنظر ما أخرجه مسلم (٢١١٦)، (٢١١٨).

هذا إذا احْتَجْنا إلى تعذيبِ الحيوانِ مِن أجْلِ حِفظِ ماليَّتِه أو غيرِ ذلك، فإنَّه لا بأسَ به، كنَتْفِ مُقدَّمِ أجنحةِ الحمامِ لئلَّا يطيرَ؛ حتَّى يأْلَفَ المكانَ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَشَارِبُ﴾ حِلُّ ألبانِ هذه البهائمِ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قد يُقالُ: إنَّ الفائدةَ مِن التَّعبيرِ بقَولِه: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مع أنَّهم يَألَهونَ اللهَ تعالى ويَألَهونَ الأصنامَ: هي أنَّ الإنسانَ إذا اتَّخَذَ شَريكًا مع اللهِ فإنَّ اللهَ تعالى يَترُكُه وشِرْكَه، وكأنَّه لم يَألَهِ اللهَ تعالى، كما جاء في الحديثِ القُدسيِّ الصَّحيحِ(٣): أنَّ اللهَ تعالى قال: ((أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ؛ مَن عَمِلَ عَمَلًا أشركَ فيه معي غيري تَرَكْتُه وشِرْكَه))(٤).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ صِحَّةُ إطلاقِ الإلهِ على غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ هل هذه الآلهةُ حقٌّ؟ الجوابُ: لا، هي آلهةٌ باطِلةٌ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، فهي وإنْ سَمَّوها آلهةً، وعَبَدوها كما يَعبُدونَ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، فإنَّها لن تكونَ آلهةً ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾(٥) [النجم: ٢٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ المُبطِلَ لا بُدَّ أنْ يَتعلَّقَ بشَيءٍ يُبرِّرُ به باطِلَه، وهو هنا رَجاءُ النَّصرِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ تَذكيرٌ لهم بنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم، وكيف قابَلوها بالكُفرانِ، وأعْرَضوا عن شُكرِ المنعِمِ وعِبادتِه، واتَّخذوا لِعِبادتِهم آلهةً؛ زَعمًا بأنَّها تَنفَعُهم وتَدفَعُ عنهم، وأُدمِجَ في ذلك التَّذكيرُ بأنَّ الأنعامَ مَخلوقةٌ بقُدْرةِ اللهِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على ما قبْلَها مِن إبطالِ مَعاقِدِ شِركِ المشركينَ عطْفَ الغرَضِ على الغرَضِ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَعجُّبٍ مِن عدَمِ رُؤيةِ الكفَّارِ شواهدَ النِّعمةِ، فإنْ كانتِ الرُّؤيةُ قَلْبيَّةً، كان الإنكارُ جاريًا على مُقْتضَى الظَّاهرِ، وإنْ كانتِ الرُّؤيةُ بَصريَّةً، فالإنكارُ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ بتَنزيلِ مُشاهَدتِهم تلك المذكوراتِ مَنزلةَ عَدمِ الرُّؤيةِ؛ لِعَدمِ جَرْيِهم على مُقْتضى العِلمِ بتلك المشاهَداتِ الَّذي يَنشَأُ عن رُؤيتِها ورُؤيةِ أحوالِها[٢].

- وفيه تَنبيهٌ بالاستِفهامِ لِقُريشٍ؛ لإعراضِها عن عِبادةِ اللهِ، وعُكوفِها على عِبادةِ الأصنامِ[٣].

- قولُه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: ممَّا تَوَلَّيْنا عمَلَه، ولا يُمكِنُ لِغيرِنا أنْ يَعمَلَه، وآثَرَ صِيغةَ التَّعظيمِ والأيدي مَجموعةً؛ لِيَدُلَّ على إبداعِ خَلْقٍ عجيبٍ، وإبداعِ صُنعٍ غريبٍ فيه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٠).

– قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ خَصَّ في ذلك الأنعامَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها كانت جُلَّ أموالِهم، ونبَّه على ما يُجعَلُ لهم مِن منافعِها[1].

– قولُه: ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ مَفعولُ ﴿خَلَقْنَا﴾، وتأْخيرُه عن الجارَّينِ المتعلِّقَينِ به -﴿لَهُم﴾ ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ﴾- مع أنَّ حقَّه التَّقدُّمُ عليهما؛ للاعتِناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ تَبقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً له، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه عليها فضْلَ تَمكُّنٍ، لا سيَّما عندَ كَونِ المقدَّمِ مُنبِئًا عن كَونِ المؤخَّرِ أمْرًا نافعًا خطيرًا، كما في النَّظمِ الكريم؛ فإنَّ الجارَّ الأوَّلَ المُعرِبَ عن كَونِ المؤخَّرِ مِن مَنافِعِهم، والثَّانيَ المُفصِحَ عن كَونِه مِن الأُمورِ الخطيرةِ؛ يَزيدانِ النَّفْسَ شَوقًا إليه ورَغبةً فيه، ولأنَّ في تأْخيرِه جمْعًا بيْنَه وبيْنَ أحكامِه المُتفرِّعةِ عليه بقولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ الآياتِ الثَّلاثَ، أي: فمَلَّكْناها إيَّاهم[2].

– وفي قولِه: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ فُرِّعَ على خلْقِها للناسِ أنَّهم لها مالِكون قادرونَ على استعمالِها فيما يَشاؤون. وهذا إدماجٌ للامتنانِ في أثناءِ التَّذكيرِ[3].

– وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فهمْ مالِكوها) إلى قولِه: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾؛ لِيَتأتَّى التَّنكيرُ، فيُفِيدَ بتَعظيمِ المالكِينَ للأنعامِ الكِنايةَ عن تَعظيمِ المِلكِ، أي: بكَثرةِ الانتفاعِ، وهو ما أشار إليه تَفصيلًا وإجمالًا مِن قولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾، إلى قولِه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٦٩).

- وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾؛ لإفادةِ ثَباتِ هذا المِلكِ ودَوامه[١].

- واللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿مَٰلِكُونَ﴾ مُقوِّيةٌ لِعَمَلِه، أي: فهُم مالِكون لها بتَمليكِنا إيَّاها لهمْ، مُتصَرِّفون فيها بالاستِقلالِ، مُختصُّون بالانتفاعِ بها، لا يُزاحِمُهم في ذلك غيرُهم[٢].

- وأيضًا تَقديمُ ﴿لَهَا﴾ على ﴿مَٰلِكُونَ﴾ الَّذي هو مُتعلَّقُه؛ لِزيادةِ استِحضارِ الأنعامِ عندَ السَّامِعينَ قبْلَ سَماعِ مُتعلَّقِه؛ لِيَقَعَ كِلاهما أمْكَنَ وَقْعٍ بالتَّقديمِ وبالتَّشويقِ، وقَضى بذلك أيضًا رِعايةُ الفاصلةِ[٣].

- وفي خلالِ هذا الامتنانِ إدماجُ شَيءٍ مِن دَلائلِ الانفرادِ بالتَّصرُّفِ في الخلْقِ المبطِلةِ لإشراكِهم إيَّاه غيرَه في العِبادةِ؛ وذلك في قولِه: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾، وقولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وقولِه: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾؛ لأنَّ معناهُ: أودَعْنا لهمْ في أضْراعِها ألبانًا يَشرَبونها، وفي أبدانِها أوبارًا وأشْعارًا يَنتفِعون بها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾

- وقولُه: ﴿لَهُمْ﴾ هو مَحلُّ الامتِنانِ، أي: لِأجْلِهم؛ فإنَّ جميعَ المنافعِ الَّتي على الأرضِ خَلَقها اللهُ لأجْلِ انتفاعِ الإنسانِ بها؛ تَكرِمةً له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨، ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧، ٦٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ الفاءُ فيه لِتَفريعِ أحكامِ التَّذليلِ على التَّذليلِ وتَفصيلِها، أي: فبَعضٌ منها رَكوبُهم، أي: مَركوبُهم، أي: مُعظَمُ مَنافِعِها الرُّكوبُ، وعدَمُ التَّعرُّضِ للحمْلِ؛ لِكَونِه من تَتِمَّاتِ الرُّكوبِ(١).

- وتَقديمُ المَجرورَينِ بـ (مِن) ﴿فَمِنْهَا﴾ ﴿وَمِنْهَا﴾ على ما حَقُّهما أنْ يَتأخَّرَا عنهما؛ لِزيادةِ استِحضارِ الأنعامِ عندَ السَّامعينَ قبْلَ سَماعِ مُتعلَّقِه؛ لِيَقَعَ كلاهما أمكَنَ وَقْعٍ بالتَّقديمِ وبالتَّشويقِ، وقَضى بذلك أيضًا رِعايةُ الفاصلةِ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ بعْدَ أنْ ذَكَّرَهم بنِعَمِ اللهِ، فرَّعَ على هذا التَّذكيرِ والامتِنانِ قولَه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استِفهامًا تَعجُّبيًّا؛ لِتَرْكِهم تَكريرَ الشُّكرِ على هذه النِّعَمِ العِدَّةِ؛ فلذلك جِيءَ بالمُضارِعِ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المفيدِ للتَّجديدِ والاستِمرارِ؛ لأنَّ تلك النِّعمَ مُتتاليةٌ مُتعاقبةٌ في كلِّ حينٍ، وإذ قد عُجِبَ مِن عَدَمِ تَكريرِهم الشُّكرَ، كانت إفادةُ التَّعجيبِ مِن عدَمِ الشُّكرِ مِن أصْلِه بالفَحوى(٣)؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾(٤) [يس: ٧٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ المقصودُ مِن الإخبارِ باتِّخاذِهم آلهةً مِن دُونِ اللهِ: التَّعجُّبُ مِن جَرَيانِهم على خِلافِ حقِّ النِّعمةِ، ثمَّ مُخالَفةِ مُقْتضَى دَليلِ الوَحدانيَّةِ المُدمَجِ في ذِكرِ النِّعَمِ(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ هنا ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩، ٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٧٠).

﴿ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، وأُظهِرَ كذلك في سُورةِ (مَريمَ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، بَيْنَما أُضمِرَ في سُورةِ (الفرقانِ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الإتيانَ باسمِ الجلالةِ العَلَم دونَ ضَميرٍ في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِمَا يُشعِرُ به اسمُه العَلَمُ مِن عَظَمةِ الإلهيَّةِ؛ إيماءً إلى أنَّ اتِّخاذَهم آلهةً مِن دُونِه جَراءةٌ عظيمةٌ؛ لِيَكونَ ذلك تَوطئةً لقولِه بعْدَه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس: ٧٦]، أي: فإنَّهم قالوا ما هو أشدُّ نُكْرًا، وأمَّا الإضمارُ في قولِه في سُورةِ (الفُرقانِ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ فلأنَّه تَقدَّمَ ذِكرُ انفرادِه بالإلهيَّةِ صَريحًا مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1] [الفرقان: ٢].

- قولُه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ وقَعَتْ (لعلَّ) فيه مَوقعًا غيرَ مألُوفٍ؛ لأنَّ شأْنَ (لعلَّ) أنْ تُفيدَ إنشاءَ رَجاءِ المتكلِّمِ بها، وذلك غيرُ مُستقيمٍ هنا، فيَتعيَّنُ: إمَّا أنْ يكونَ شُبِّهَ شأْنُ اللهِ فيما أخبَرَ عنهم بحالِ مَن يَرْجو مِن المخبَرِ عنْهم أنْ يَحصُلَ لهم خبَرُ (لعلَّ)، وذِكرُ حَرْفِ (لعلَّ) رَمزٌ لِرَديفِ المشبَّهِ به؛ فتَكون جُملةُ ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ مُعترِضةً بيْن ﴿ءَالِهَةً﴾ وبيْن صِفَتِه، وهي جُملةُ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، وإمَّا أنْ يكونَ الكلامُ جرَى على معنى الاستفهامِ، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ أو تَهكُّميٌّ، والجُملةُ مُعترِضةٌ أيضًا. وإمَّا أنْ يُجعَلَ الرَّجاءُ مُنصرِفًا إلى رَجاءِ المخبَرِ عنهم، أي: راجينَ أنْ تنصُرَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ١٠٨٦).

تلك الآلهةُ، وعلى تَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قائلينَ: لعلَّنا نُنصَرُ، وحُكِيَ ﴿يُنصَرُونَ﴾ بالمعنى على أحَدِ وَجهينِ في حِكايةِ الأقوالِ، تقولُ: قال: أفعَلُ كذا، وقال: يَفعَلُ كذا، وتكون جُملةُ ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ استئنافًا للرَّدِّ عليهم. وإمَّا أنْ تَجعلَ (لعلَّ) للتَّعليلِ؛ فتكونَ جُملةُ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ استئنافًا، والمقصودُ الإشارةُ إلى أنَّ الكُفَّارَ يَزعُمون أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم عندَ اللهِ في أُمورِ الدُّنيا، وهمْ سالِكون في هذا الزَّعمِ مَسلَكَ ما يأْلَفونَه من الاعتزازِ بالمُوالاةِ والحِلْفِ بيْنَ القبائلِ والانتماءِ إلى قادتِهم، فبِمقدارِ كَثرةِ المَوالي تكونُ عِزَّةُ القبيلةِ، فقاسوا شُؤونَهم مع ربِّهم على شُؤونِهم الجاريةِ بيْنَهم، وقِياسُ أُمورِ الإلهيَّةِ على أحوالِ البَشرِ مِن أعمَقِ مَهاوي الضَّلالةِ[1]!

٥- قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ استِئنافٌ سِيقَ لِبَيانِ بُطلانِ رأْيِهم، وخَيبةِ رَجائِهم، وانعكاسِ تَدبيرِهم[2].

- وأُجْرِيَ على الأصنامِ ضَميرُ جمْعِ العُقلاءِ في قولِه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ...﴾؛ لأنَّهم سَمَّوْهم بأسماءِ العُقلاءِ، وزَعَموا لهم إدراكًا[3].

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: والمشركون جُندٌ لأصنامِهم مُحْضَرون لِخِدْمتِها. وقيل: ضَميرُ ﴿لَهُمْ﴾ للمُشركينَ، أي: والأصنامُ للمُشركين جُندٌ مُحضَرونَ، وهذا تأْييسٌ للمشركينَ مِن نفْعِ أصنامِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا إخبارًا عن حالِهم مع أصنامِهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠، ٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ على القولِ بأنَّ الآلهةَ للكُفَّارِ جُندٌ فقد سمَّاهم جُندًا؛ إذ همْ مُعَدَّون للنِّقمةِ مِن عابِديهم وللتَّوبيخِ[١].

- وفيه وَعيدٌ بعذابٍ لا يَجِدون منه مَلْجأً[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ لِترتيبِ النَّهيِ على ما قبْلَه، وهو عِبارةٌ عن خُسرانِهم، وحِرمانِهم عمَّا عَلَّقوا به أطماعَهم الفارغةَ، وانعكاسِ الأمْرِ عليهم بتَرتيبِ الشَّرِّ على ما رتَّبوه لِرجاءِ الخَيرِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يُهوِّنُ الخَطْبَ، ويُورِثُ السَّلوةَ[٣].

- والنَّهيُ عن الحُزنِ في قولِه: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ نَهْيٌ عن سَببِه؛ وهو اشتِغالُ بالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإعراضِهم عن قَبولِ الدِّينِ الحقِّ، وهو يَستلزِمُ الأمْرَ بالأسبابِ الصَّارفةِ للحُزنِ عن نفْسِه؛ مِن التَّسلِّي بعِنايةِ اللهِ تعالى، وعِقابِه مَن ناوَؤُه وعادَوه، واستِحضارِ صُورةِ حالِه وحالِهم في الآخِرةِ؛ حتَّى يَنقشِعَ عنه الهمُّ، ولا يُرهِقُه الحزنُ، وفي هذا تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والنَّهيُ وإنْ كان بحسَبِ الظَّاهرِ مُتوجِّهًا إلى قولِهم، لكنَّه في الحَقيقةِ مُتوجِّهٌ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَهيٌ له عليه السَّلامُ عن التَّأثُّرِ منه بطَريقِ الكِنايةِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإضافةُ في قولِه: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ مِن إضافةِ اسمِ الجِنسِ؛ فيَعُمُّ، أي: فلا تَحْزُنْك أقوالُهم في الإشراكِ، وإنكارِ البَعثِ، والتَّكذيبِ، والأذى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ؛ ولذلك حُذِفَ المَقولُ، أي: لا يَحْزُنْك قولُهم الَّذي مِن شأنِه أنْ يَحزُنَك[١].

- قولُه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الحُزنِ لِقَولِهم[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تَعميمٌ؛ لِجَعْلِ التَّعليلِ تَذييلًا أيضًا[٣].

- وكذلك في قولِه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كِنايةٌ عن مُؤاخَذتِهم بما يَقولون، أي: إنَّا مُحْصُون عليهم أقوالَهم، وما تُسِرُّه أنفُسُهم ممَّا لا يَجْهَرون به، فنُؤاخِذُهم بذلك كلِّه بما يُكافِئُه مِن عِقابِهم ونَصْرِك عليهم، ونحوِ ذلك[٤]، وفيه مِن التَّهديدِ ما هو ظاهِرٌ؛ فاللهُ تعالى يَعلَمُ ما يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه، وسوف يُجازيهم على ذلك يومَ القيامةِ[٥].

- وتَقديمُ السِّرِّ على العَلَنِ في قولِه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ إمَّا للمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلْمِه تعالى لِجَميعِ المعلوماتِ، وفي هذا المعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٨).

لا يَختلِفُ الحالُ بيْن الأشياءِ البارزةِ والكامنةِ. وإمَّا لأنَّ مَرتبةَ السِّرِّ مُتقدِّمةٌ على مَرتبةِ العلَنِ؛ إذ ما مِن شَيءٍ يُعلَنُ إلَّا وهُو أو مَباديه مُضمَرٌ في القلْبِ قبْلَ ذلك؛ فتَعلُّقُ عِلْمِه تعالى بحالتِه الأُولى مُتقدِّمٌ على تَعلُّقِه بِحالتِه الثَّانيةِ حَقيقةً، أو قدَّمَ السِّرَّ للاهتمامِ به[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٣).

الآيات (٧٧-٨٣)

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي قَلَّ أو كَثُر، وقيل: الماءُ القليلُ، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[١].

﴿خَصِيمٌ﴾: أي: مُخاصِمٌ جَدِلٌ بالباطِلِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ[٢].

﴿رَمِيمٌ﴾: أي: باليةٌ، وأصلُ (رمم): يدُلُّ على بلاءِ الشَّيءِ[٣].

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦).
قال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلطةٌ مِن ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَنْ زَعَم أنَّها مِن ماءِ الرَّجُلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك في موضعٍ آخَرَ، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ من ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، =

﴿مَلَكُوتُ﴾: أي: ملْكُ، أو هو أعظَمُ الملكِ، وهو مختصٌّ بملكِ الله تعالى، والمَلَكوتُ مَصدرٌ مِن المُلْكِ، كالرَّغَبوتِ مِنَ الرَّغبةِ، والرَّهَبوتِ مِن الرَّهبةِ؛ زيدَتْ فيه الواوُ والتاءُ، وبُنِيَ على (فَعَلُوت)، وهو بِناءُ مُبالَغةٍ؛ وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، وصِحَّةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ بإقامةِ الأدلَّةِ على كمالِ قدرتِه، وعلى أنَّ البعثَ حقٌّ، فيقولُ: أوَلم يَرَ الإنسانُ المكذِّبُ بالبَعثِ أنَّا خلَقْناه مِن مَنيٍّ، فإذا هو بالغُ الخُصومةِ، والجَدلِ بالباطِلِ، مُبينٌ عما يريدُه؟! ولم يَكتَفِ بذلك، بل ضرَبَ لنا مَثَلًا، فأنكَر قُدرتَنا على إحياءِ الموتَى، وعلى بَعثِهم يومَ القيامةِ، فقال -دونَ أن يَفطُنَ إلى أصلِ خِلقتِه-: مَن يُحيي العِظامَ وهي باليةٌ؟!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ عليه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهذا المُنكِرِ للبَعثِ: يُحييها اللهُ تعالى الَّذي أوجَدَها مِن العدَمِ أوَّلَ مَرَّةٍ، وهو عليمٌ بخَلقِه، وهو الَّذي جعَلَ لكم مِن الشَّجَرِ الرَّطْبِ الأخضَرِ نارًا مُحرِقةً، فإذا أنتم مِن هذا الشَّجرِ تُوقِدونَ النَّارَ!

أوَلَيس اللهُ الَّذي خلق السَّمَواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يُعيدَ خَلْقَ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم؟! بلى قادِرٌ سُبحانَه على أن يَبعَثَهم، وهو الكثيرُ الخَلقِ لِما يَشاءُ خَلْقَه،

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

الواسِعُ العِلمِ، فلا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه. إنَّما أمرُه تعالى إذا أراد إيجادَ شَيءٍ أن يقولَ له: كُنْ، فإذا هو كائِنٌ في الحالِ.

ثمَّ يختِمُ اللهُ تعالى السُّورةَ الكريمةَ بتنزيهِه عن كلِّ نقصٍ، فيقولُ: فتَنَزَّهَ اللهُ الَّذي بيَدِه مُلكُ كُلِّ شَيءٍ، وإليه وَحْدَه تُرجَعونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى دليلًا على عِظَمِ قُدرتِه، ووُجوبِ عِبادتِه، بقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]؛ ذكَرَ دليلًا مِن الأنفُسِ أبْيَنَ مِن الأوَّلِ[١].

وأيضًا لَمَّا أُبطِلَت شُبَهُ المشركينَ في إشراكِهم بعِبادةِ اللهِ، وإحالتِهم قُدرتَه على البَعثِ، وتكذيبِهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في إنبائِه بذلك إبطالًا كُلِّيًّا؛ عُطِفَ الكلامُ إلى جانبِ تَسفيهِ أقوالٍ جُزْئيَّةٍ لِزُعماءِ المكذِّبين بالبَعثِ؛ تَوبيخًا لهم على وَقاحَتِهم، وكُفْرِهم بنِعمةِ ربِّهم[٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾.

أي: أوَلم يَرَ الإنسانُ المكذِّبُ بالبَعثِ أنَّا خلَقْناه مِن مَنِيٍّ، ثمَّ تنقَّل في الأطوارِ شيئًا فشيئًا، حتَّى كَبِرَ، وتمَّ عقلُه، فإذا هو بالِغُ الخُصومةِ، وفي غايةِ البيانِ عَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٣).

يُريدُه، حتَّى إنَّه لَيُجادِلُ مَن أعطاه العَقلَ والقُدرةَ، مُنكِرًا قُدرتَه على إحيائِه ثانيةً[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٩).
وقد ذهب جمهورُ المفَسِّرينَ -كما قال ابنُ الجوزيِّ- إلى أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا، وفي الآيةِ الَّتي بعدَها: أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ، وصحَّحه ابنُ عطيَّةَ، وذهَبَ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ إلى أنَّه العاصِ بنُ وائلٍ. والأوَّلُ أشهَرُ كما قال السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٣).
وقال ابن كثير: (وعلى كُلِّ تقديرٍ -سواءٌ كانت هذه الآياتُ قد نزلت في أُبيِّ بنِ خلفٍ، أو في العاصِ بنِ وائلٍ، أو فيهما- فهي عامَّةٌ في كُلِّ مَن أنكر البَعثَ، والألِفُ واللَّامُ في قَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للجِنسِ؛ يعُمُّ كُلَّ مُنكِرٍ للبَعثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤).
وقال الشوكاني: (والإنسانُ المذكورُ في الآيةِ المرادُ به جنسُ الإنسانِ، كما في قولِه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾، ولا وجْهَ لتخصيصِه بإنسانٍ مُعَيَّنٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٩).
وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿مُّبِينٌ﴾ على أنَّه اسمُ فاعلِ «أَبَانَ» المُتعدِّيةِ، والمفعولُ محذوفٌ للتَّعميم، أي: مُبينٌ كُلَّ ما يُريدُ بيانَه وإظهارَه بلسانِه مِمَّا في ضميرِه؛ وذلك لأنَّ رَبَّه عَلَّمَه البيانَ، وعلى أنَّه صفةٌ مُشَبَّهةٌ مِن «أَبَانَ» اللَّازمةِ، وأنَّ المعنَى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنُ الخصومةِ ظاهِرُها؛ فكذلك أيضًا؛ لأنَّه ما كان بَيِّنَ الخُصومةِ إلَّا لأنَّ اللهَ عَلَّمه البيانَ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٠).
وممَّن اختار أنَّ المعنى: ظاهِرُ الخصومةِ: السمعاني، وابنُ الجوزي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((نفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٠٠).
وقال البِقاعي: (بَيِّنُ القدرةِ على الخِصامِ، وموضحٌ لِما يُريدُه غايةَ الإيضاحِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ١٠٧).

ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨﴾.

أي: ومثَّلَ الكافِرُ بشَيءٍ يُريدُ به إنكارَ البَعثِ، ونَسِيَ[(١)] ابتِداءَ خَلقِ اللهِ له من نُطفةٍ -فمَن قَدَر على ذلك فهو قادِرٌ على بَعثِه-؛ فقال مُستبعِدًا ذلك: مَن الَّذي يَقدِرُ على إحياءِ عِظامِ الموتى بعدَما بَلِيَت، وصارت ترابًا تَذْرُوه الرِّياحُ، فيَتلاشى[(٢)]؟!

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهذا المُنكِرِ للبَعثِ: الَّذي يُحيي العِظامَ هو الَّذي خلَقَها أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم تكُنْ شَيئًا؛ فالَّذي قدَرَ على ابتِداءِ خَلقِها لن يَعجِزَ عن إعادتِها مرَّةً أُخرى[(٣)]!

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عَليمٌ بجَميعِ خَلقِه[(٤)]، فيَعلَمُ كيف يُحييهم، وكيف يُميتُهم، ويَعلَمُ

(١) قال البقاعي: (النِّسيانُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى الذُّهولِ، وأن يكونَ بمعنى التَّركِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٢، ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

(٤) قال ابن عثيمين: (هل الخَلقُ هنا بمعنى المخلوقِ أو بمعنى الفِعلِ؟... يحتمِلُ الأمْرَين، =

أين تفرَّقَت عِظامُهم، وتفَتَّت أجسادُهم، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه كائِنًا ما كان[1].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾.

أي: الَّذي يُحيي العِظامَ وهي رَميمٌ هو الَّذي خلَقَ بقُدرتِه مِن الشَّجَرِ الرَّطْبِ النَّديِّ البارِدِ نارًا يابِسةً مُحرِقةً[2]!

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٣].

= لكِنِ احتِمالُ الفِعلِ أكثَرُ، يعني: كلُّ خَلقٍ فاللهُ عليمٌ به، ومِن المعلومِ أنَّ العالِمَ بالخَلقِ عالمٌ بالمخلوقِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة يس)) (ص: ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة يس)) (ص: ٢٩٩).

قيل: المرادُ أنَّ الَّذي قدَرَ على إخراجِ النَّارِ اليابسةِ مِن الشَّجَرِ الأخضَرِ الَّذي هو في غايةِ الرُّطوبةِ، مع تَضادِّهما وشِدَّةِ تخالُفِهما: فهو قادِرٌ على إخراجِ الموتى مِن قبورِهم، وإحيائِهم بعدَ موتِهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٩)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٣٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة يس)) (ص: ٢٩٩، ٣٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩).

وقيل: المرادُ أنَّ الذي بدأ خَلْقَ هذا الشَّجرِ مِن ماءٍ حتَّى صار خَضِرًا نَضِرًا ذا ثَمَرٍ ويَنْعٍ، ثمَّ أعاده إلى أن صار حَطبًا يابسًا تُوقَدُ به النَّارُ: كذلك هو فَعَّالٌ لِما يَشاءُ، قادِرٌ على ما يُريدُ، لا يَمْنَعُه شيءٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٦).

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

أي: فإذا أنتم مِن هذا الشَّجَرِ تُوقِدونَ النَّارَ(١).

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تبيَّن الاستِدلالُ بخَلقِ أشياءَ على إمكانِ خَلقِ أمثالِها؛ ارتقَى في هذه الآيةِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ مَخلوقاتٍ عَظيمةٍ على إمكانِ خَلقِ ما دُونَها(٢).

وأيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ بَديعَ جَعْلِه مِن الشَّجرِ الأخضَرِ نارًا؛ ذكَرَ ما هو أبدَعُ وأغرَبُ مِن خلْقِ الإنسانِ مِن نُطْفةٍ، ومِن إعادةِ المَوتَى، وهو إنشاءُ هذه المخلوقاتِ العظيمةِ الغريبةِ مِن صِرْفِ العدَمِ إلى الوُجودِ، فقال(٣):

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

أي: أوَليس الَّذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرضَ بقادِرٍ على أن يُعيدَ خَلْقَ النَّاسِ يومَ القيامةِ؟ فاللهُ الَّذي لم يَعجِزْ عن خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ -وهي أعظَمُ مِن خَلقِ النَّاسِ- لن يَعجِزَ عن إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم(٤)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٥).

قال الزركشي: (قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يظُنُّ بعضُهم أنَّ معناه: مِثل السَّمواتِ والأرضِ، وهو فاسدٌ؛ لوجهينِ: =

كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: بلى، اللهُ الَّذي خلَقَ السَّموات والأرضَ قادِرٌ على أن يَبعَثَهم يومَ القيامةِ أحياءً، وهو الكثيرُ الخَلقِ لِما يَشاءُ خَلْقَه، الواسِعُ العِلمِ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: إنَّما أمْرُ اللهِ إذا أراد إيجادَ أيِّ شَيءٍ أن يقولَ له مرَّةً واحِدةً بلا تكرارٍ: كُنْ، فهو يكونُ في الحالِ كما أراد اللهُ، بلا تأخيرٍ؛ فإعادةُ إحياءِ الموتى أمرٌ هيِّنٌ ويَسيرٌ على اللهِ تعالى[2].

= أحدُهما: أنَّهم ما أنكروا إعادةَ السَّموات والأرضِ حتَّى يَدُلَّ على إنكارِهم إعادَتَهما بابتدائِهما، وإنَّما أنكروا إعادةَ أنفُسِهم، فكان الضَّميرُ راجعًا إليهم؛ لِيَتحَقَّقَ حصولُ الجوابِ لهم، والرَّدُّ عليهم. الثَّاني: لتَبيُّنِ المرادِ في قولِه: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. فإنْ قيل: إنَّما أثْبَتَ قُدرتَه على إعادةِ مِثْلِهم لا على إعادَتِهم أنفُسِهم؛ فلا دَلالةَ فيه عليهم. قُلْنا: المرادُ بمِثْلِهم: هُمْ، كما في قولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقولِهم: مِثلي لا يَفعلُ كذا، أي: أنا). ((البرهان في علوم القرآن)) (٤/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: فتَنَزَّهَ اللهُ الَّذي بيَدِه مُلكُ كُلِّ شَيءٍ وخَزائِنُه: عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، وعَجزٍ وجَهلٍ؛ فهو يَتصرَّفُ في كلِّ شَيءٍ كما يَشاءُ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وعن عَوفِ بنِ مالِكٍ الأَشْجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُمْتُ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً، فقام فقرأَ سورةَ البَقَرةِ، لا يَمُرُّ بآيةِ رَحمةٍ إلَّا وقَفَ فسَألَ، ولا يمُرُّ بآيةِ عذابٍ إلَّا وقَفَ فتعَوَّذَ. قال: ثمَّ ركَعَ بقَدْرِ قيامِه، يقولُ في رُكوعِه: سُبحانَ ذي الجَبَروتِ والمَلَكوتِ، والكِبرياءِ والعَظَمةِ. ثمَّ سجَدَ بقَدرِ قيامِه، ثمَّ قال في سُجودِه مِثلَ ذلك))[٢].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١١٣٢)، وأحمد (٢٣٩٨٠).
صححه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٦٧)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٧٣)، وحسنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٧٤).

أي: وإلى اللهِ تُرَدُّونَ وتَصيرونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم بأعمالِكم[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أنَّ الخُصومةَ بالباطِلِ مَذمومةٌ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ سِيقَتْ مَساقَ الذَّمِّ لا مَساقَ المَدحِ، أمَّا الخُصومةُ لإثباتِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ فإنَّها ممدوحةٌ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢] [النحل: ١٢٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أنَّه ينبغي للمُستدِلِّ المُناظِرِ أنْ يأتيَ بالشَّيءِ الَّذي يُقِرُّ به خَصْمُه؛ مِن أجْلِ أنْ تَقومَ عليه الحُجَّةُ، والخَصمُ هنا لا يُنكِرُ أنَّ اللهَ تعالى أنشَأَها أوَّلَ مَرَّةٍ، وهذا أدبٌ مِن أدَبِ المناظرةِ؛ لأنَّه أقرَبُ إلى الإقناعِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ النِّداءُ على الإنسانِ بالظُّلمِ؛ وجْهُ ذلك: كيف يكونُ هذا الَّذي خُلِقَ مِن هذه النُّطفةِ يَبلُغُ به الحَدُّ إلى أن يكونَ خَصيمًا للهِ عزَّ وجلَّ بَيِّنَ الخُصومةِ؟! إنَّ الإنسانَ يجبُ عليه إذا نَظَرَ إلى أصلِه أنْ يَعرِفَ قَدْرَ نَفْسِه، لا أنْ يكونَ مُخاصِمًا لِرَبِّه عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

٢- إنَّ كُلَّ مَن عارَضَ الوَحيَ بالرَّأيِ والعَقلِ فهو مِن خُصَماءِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه قد خاصَمَ اللهَ في الوَحيِ الَّذي أنزَلَه على رَسولِه، واحتَجَّ على بُطلانِه، ويكفي العبدَ خِذلانًا وجَهلًا وعَمًى أن يكونَ خَصْمَ ربِّه تبارك وتعالى؛ ولهذا أخبَرَ تعالى عن هؤلاء المعارِضينَ للكتابِ بعُقولِهم بذلك؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ لطيفةٌ غَريبةٌ، وهي أنَّه تعالى قال: اختِلافُ صُوَرِ أعضائِه مع تَشابُهِ أجزاءِ ما خُلِقَ منه: آيةٌ ظاهِرةٌ، ومع هذا فهنالك ما هو أظهَرُ، وهو نُطقُه وفَهْمُه؛ وذلك لأنَّ النُّطفةَ جِسمٌ، فهَبْ أنَّ جاهِلًا يقولُ: إنَّه استَحالَ وتكَوَّنَ جِسمًا آخَرَ، لكِنَّ القُوَّةَ النَّاطِقةَ والقُوَّةَ الفاهِمةَ من أين تقتَضيهما النُّطفةُ؟! فإبداعُ النُّطقِ والفَهمِ أعجَبُ وأغرَبُ مِن إبداعِ الخَلقِ والجِسمِ، وهو إلى إدراكِ القُدرةِ والاختيارِ منه أقرَبُ؛ فقَولُه: ﴿خَصِيمٌ﴾ أي: ناطِقٌ، وإنَّما ذُكِرَ «الخصيمُ» مكانَ «النَّاطِق»؛ لأنَّه أعلى أحوالِ النَّاطِقِ؛ فإنَّ النَّاطِقَ مع نَفْسِه لا يُبينُ كَلامَه مِثلَ ما يُبِينُه وهو يتكَلَّمُ مع غيرِه، والمتكَلِّمُ مع غيرِه إذا لم يكُنْ خَصمًا لا يُبينُ ولا يَجتَهِدُ مِثلَ ما يَجتَهِدُ إذا كان كلامُه مع خَصْمِه، وقَولُه: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارةٌ إلى قُوَّةِ عَقلِه، واختار الإبانةَ؛ لأنَّ العاقِلَ عندَ الإفهامِ أعلى درجةً منه عندَ عَدَمِه؛ لأنَّ المُبينَ بانَ عندَه الشَّيءُ ثمَّ أبانَه؛ فقَولُه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أدنى ما كان عليه، وقَولُه: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارةٌ إلى أعلى ما حَصَل عليه[2].

٤- في هذه الآيةِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٨).

قبَّح اللهُ عزَّ وجَلَّ إنكارَهم البعْثَ تَقبيحًا لا تَرى أعجَبَ منه وأبلَغَ، وأدلَّ على تَمادي كُفْرِ الإنسانِ وإفراطِه في جُحودِ النِّعَمِ وعُقوقِ الأيادي، حيثُ قرَّرَه بأنَّ عُنْصُرَه الَّذي خلَقَه منه هو أخسُّ شَيءٍ وأمْهَنُه، وهو النُّطفةُ المَذِرَةُ الخارجةُ مِن الإحليلِ الَّذي هو قَناةُ النَّجاسةِ، ثمَّ عجَّبَ مِن حالِه بأنْ يَتصدَّى مِثلُه -على مَهانةِ أصْلِه، ودَناءةِ أوَّلِه- لِمُخاصَمةِ الجبَّارِ، ويُبرِزَ صَفْحتَه لِمُجادَلتِه، ويَرْكَبَ مَتْنَ الباطلِ ويَلَجَّ، ويقولَ: مَن يَقدِرُ على إحياءِ الميِّتِ بعدَ ما رمت عِظامُه، ثمَّ يكونُ خِصامُه في ألْزَمِ وَصفٍ له وألْصَقِه به، وهو كَوْنُه مُنشَأً مِن مَواتٍ، وهو يُنكِرُ إنشاءَه مِن مَواتٍ، وهي المكابَرةُ الَّتي لا مَطمَحَ وَراءَها[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ...﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: دَليلٌ على استِعمالِ القياسِ والاعتِبارِ، والتَّعلُّقِ بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ الابتداءَ أصعَبُ مِن الإعادةِ، والإعادةَ أيسَرُ مِن الابتداءِ، والقادِرُ على الأعظَمِ قادِرٌ على الأهوَنِ الأدوَنِ لا مَحالةَ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أنَّ هذا الجاحِدَ لو ذَكَرَ خَلْقَه لَمَا ضرَبَ المَثَلَ، بل لَمَّا نَسِيَ خَلْقَه ضرَبَ المَثَلَ؛ فتَحْتَ قولِه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ألطَفُ جوابٍ، وأبيَنُ دَليلٍ، وهذا كما تقولُ لِمَن جَحَدَك أنْ تكونَ قد أعطَيْتَه شيئًا: فُلانٌ جَحَدَني الإحسانَ إليه، ونَسِيَ الثِّيابَ الَّتي عليهِ، والمالَ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٥٥)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٧).

معه، والدَّارَ الَّتي هو فيها؛ حيث لا يُمكِنُه جَحْدُ أنْ يكونَ ذلك منك[١]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، وقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] ما يدُلُّ على إنكارِهم لأصلِ يومِ القيامةِ. وفي سورةِ (يونُسَ) قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وهذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّهم يَرجُونَ شَفاعةَ أصنامِهم يومَ القيامةِ؟

الجوابُ: أنَّهم يَرجُونَ شَفاعتَها في الدُّنيا لإصلاحِ معاشِهم، وفي الآخِرةِ -على تقديرِ وُجودِها-؛ لأنَّهم شاكُّونَ فيها، ويدُلُّ له قَولُه تعالى عن الكافِرِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقَولُه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]؛ لأنَّ «إن» الشَّرطيَّةَ تدُلُّ على الشَّكِّ في حُصولِ الشَّرطِ، ويدُلُّ له قَولُه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ في الآيتَينِ المذكورتينِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بيانُ قوَّةِ الإقناعِ في إقامةِ الحُجَّةِ مِن كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فأقوى ما يَسوقُ الحُجَجَ ويُبيِّنُها هو كلامُ اللهِ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ أبلَغُ الكلامِ وأحسَنُه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]؛ فحديثُ اللهِ عزَّ وجلَّ لا شكَّ أنَّه أصدَقُ الحديثِ وأتَمُّه، وأحسَنُه في الإقناعِ، وإقامةِ الحُجَّةِ[٣].

٩- تعليقُ الإحياءِ بالعظامِ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٦).

فيه دَلالةٌ على أنَّ عِظامَ الحيِّ تحلُّها الحياةُ -كلَحْمِه ودَمِه-، وليست بمنزلةِ القصبِ والخشبِ؛ ولذلك تَنجسُ عِظامُ الحيوانِ الَّذي مات دونَ ذكاةٍ[(١)].

١٠- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فيه بيانُ نعمةِ اللهِ علينا بجَعْلِه من الشَّجرِ الأخضرِ نارًا؛ ووجْهُ الدَّلالةِ أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾، وقد قرَّرَ اللهُ هذه النِّعمةَ بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢]، ولا أحدَ يُنْكِرُ ما في الطَّاقةِ الحراريَّةِ مِن المنافعِ العظيمةِ للخَلْقِ، فأنواعُها -بل أجناسُها- لا تُحصَى، فضلًا عن أفرادِها[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ دَليلٌ على تمامِ قُدرتِه، وإخراجِ الأمواتِ مِن قُبورِهم، كما أخرَجَ النَّارَ من الشَّجَرةِ الخَضراءِ، وفي ذلك جوابٌ عن شُبهةِ مَن قال مِن مُنكِري المعادِ: «الموتُ باردٌ يابسٌ، والحياةُ طَبعُها الرُّطوبةُ والحَرارةُ؛ فإذا حَلَّ الموتُ بالجِسمِ لم يمكنْ أنْ تَحُلَّ فيه الحياةُ بعدَ ذلك؛ لِتَضادِّ ما بيْنَهما»! وهذه شبهةٌ تَليقُ بعقولِ المُكَذِّبينَ الَّذين لا سَمْعَ لهم ولا عقْلَ؛ فإنَّ الحياةَ لا تُجامِعُ الموتَ في المَحَلِّ الواحدِ لِيَلزَمَ ما قالوا، بل إذا أوجَدَ اللهُ فيه الحياةَ وطَبْعَها ارتفعَ الموتُ وطَبعُه[(٣)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ الاستِدلالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨).
والقولُ بنجاسةِ عِظامِ المَيْتةِ هو مذهبُ الجمهورِ: المالكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة. يُنظر: ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (١/ ٨٩)، ((المجموع)) للنووي (١/ ٢٣٦)، ((الإنصاف)) للمرداوي (١/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠).

بالأشَدِّ على الأخَفِّ؛ لأنَّ التَّنافُرَ بيْنَ الرَّطْبِ واليابسِ والحارِّ والباردِ: أعظَمُ مِن أنْ يُعادَ الخَلْقُ، أو تُعادَ العِظامُ بعدَ رَميمِها؛ فالقادِرُ على هذا الشَّيءِ قادِرٌ على إحياءِ الموتى[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تقريرُ الشَّيءِ بالواقعِ، فبدَلًا مِن أنْ نُلْقِيَه تَصَوُّرًا في الذِّهنِ؛ نَذْكُرُ واقعَه بالفعلِ، فهو سُبحانَه وتعالى بَيَّنَ أنَّه جَعَلَ لنا مِن الشَّجرِ الأخضرِ نارًا، ثمَّ حَقَّقَ ذلك بذِكْرِ الأمرِ الواقعِ ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: تُحِسُّونه بواقعِكم، وتَلْمُسُونه بأيديكم[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ جوازُ إجابةِ السَّائلِ نَفْسَه في الأمرِ المُحَقَّقِ المُتقرِّرِ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كثيرًا ما يَقرِنُ تعالى بيْن خَلقِه وعِلمِه؛ لأنَّ خَلْقَ المخلوقاتِ مِن أقوى الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على عِلمِ خالِقِها وحِكمتِه[٤].

١٦- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه في القُدرةِ كامِلٌ، وفي قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عِلمَه شامِلٌ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ فلو كان «كُنْ» مخلوقةً لَزِمَ ألَّا يُوجَدَ شَيءٌ مِن المخلوقاتِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٩).

لأنَّ «كُنْ» تكونُ مخلوقةً بـ«كُنْ» أُخرى، وهَلُمَّ جرًّا، فلا يُوجَدُ شَيءٌ[(١)]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إثباتُ القَولِ والكلامِ للهِ، وأنَّه يكونُ بحَرفٍ؛ لِقَولِه: ﴿كُن﴾؛ فإنَّ «كُنْ» كَلِمةٌ مُكَوَّنةٌ مِن حَرفينِ، وفيه أيضًا إثباتُ أنَّه بصوتٍ؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فهذا الخِطابُ مُوَجَّهٌ لِمَا أراده اللهُ، وهو يقتضي أنْ يكونَ هذا المرادُ سامِعًا لهذا القَولِ، ولا سماعَ إلَّا بصَوتٍ، فيكونُ في الآيةِ رَدٌّ على قولِ الأشاعرةِ في كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث يقولون: إنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائِمُ بنَفْسِه، وأنَّ ما يُسمَعُ مِن الأصواتِ والحروفِ هو عبارةٌ عن كلامِ اللهِ! ويَرَونَ أنَّ هذا المسموعَ مَخلوقٌ[(٢)]!

١٩- أنَّ الصِّفةَ قد تكونُ ذاتيَّةً فِعليَّةً باعتبارينِ، كالكلامِ؛ فإنَّ الكلامَ باعتبارِ أصْلِه صِفةٌ ذاتيَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ مُتكَلِّمًا، وباعتبارِ آحادِ الكلامِ صِفةٌ فِعليَّةٌ؛ لأنَّ الكلامَ يَتعلَّقُ بمشيئتِه سُبحانَه؛ يَتكلَّمُ متى شاء بما شاء، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ بُطلانِ إنكارِهم البعْثَ بعْدَ ما شاهَدوا في أنفُسِهم أوضَحَ دَلائلِه وأعدَلَ شَواهِدِه، والهمزةُ للإنكارِ والتَّعجُّبِ، والواوُ للعَطفِ على جُملةٍ مُقدَّرةٍ

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٨٧).

هي مُسْتتبِعةٌ للمَعطوفِ، أي: ألَمْ يَتفكَّرِ الإنسانُ ولم يَعلَمْ عِلمًا يَقينيًّا ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ...﴾ إلخ، أو هي عَيْنُ الجُملةِ السَّابقةِ؛ أُعِيدتْ تأْكيدًا للنَّكيرِ السَّابقِ، وتَمْهيدًا لإنكارِ ما هو أحقُّ منه بالإنكارِ والتَّعجُّبِ؛ لِمَا أنَّ المنكرَ هناك عدَمُ عِلْمِهم بما يَتعلَّقُ بخَلْقِ أسبابِ مَعايِشِهم، وهاهنا عدَمُ عِلْمِهم بما يَتعلَّقُ بخَلْقِ أنفُسِهم، ولا رَيْبَ في أنَّ عِلْمَ الإنسانِ بأحوالِ نفْسِه أهَمُّ، وإحاطتَه بها أسهَلُ وأكمَلُ؛ فالإنكارُ والتَّعجُّبُ مِن الإخلالِ بذلك أدخَلُ، كأنَّه قِيل: ألَمْ يَعلَمُوا خَلْقَه تعالى لأسبابِ مَعايِشِهم، ولم يَعلَمُوا خَلْقَه تعالى لأنفُسِهم أيضًا، مع كَونِ العِلمِ بذلك في غايةِ الظُّهورِ ونهايةِ الأهمِّيَّةِ؟! على معنًى أنَّ المنكرَ الأوَّلَ بَعيدٌ قَبيحٌ، والثَّانيَ أبعَدُ وأقبحُ. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ لِعَطْفِ الجُملةِ الإنكاريَّةِ الثَّانيةِ على الأُولى، على أنَّها مُتقدِّمةٌ في الاعتِبارِ، وأنَّ تَقدُّمَ الهمزةِ عليها لاقتِضائِها الصَّدارةَ في الكلامِ[1].

- وإيرادُ الإنسانِ في ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مَوردَ الضَّميرِ؛ لأنَّ مَدارَ الإنكارِ مُتعلِّقٌ بأحوالِه مِن حيثُ هو إنسانٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[2] [مريم: ٦٧].

- وذِكْرُ النُّطفةِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تَمهيدٌ للمُفاجأةِ بكَونِه خَصيمًا مُبينًا عقِبَ خلْقِه، أي: ذلك الهيِّنُ المَنشَأِ قد أصبَحَ خَصيمًا عَنيدًا، ولِيُبْنَى عليه قولُه بعْدُ: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، أي: نسِيَ خلْقَه الضَّعيفَ فتطاوَلَ وجاوَزَ، ولأنَّ خلْقَه مِن النُّطفةِ أعجَبُ مِن إحيائِه وهو عَظْمٌ؛ مُجاراةً لِزَعْمِه في مِقدارِ الإمكانِ، وإنْ كان اللهُ يُحْيي ما هو أضعَفُ مِن العِظامِ، فيُحْيي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠).

الإنسانَ مِن رَمادِه، ومِن تُرابِه، ومِن عَجْبِ ذَنَبِه[١]، ومِن لا شَيءَ باقيًا منه[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ عطْفٌ على الجُملةِ المنفيَّةِ، داخِلٌ في حيِّزِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، كأنَّه قِيل: أولمْ يَرَ أنَّا خلَقْناهُ مِن أخَسِّ الأشياءِ وأمْهَنِها، ففاجَأَ خُصومَتَنا في أمْرٍ يَشهَدُ بصِحَّتِه وتَحقُّقِه مَبدأُ فِطرتِه شَهادةً بيِّنةً. وإيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على استِقرارِه في الخُصومةِ، واستمرارِه عليها. وقِيل: معنى قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: فإذا هو بعْدَما كان ماءً مَهينًا رجُلٌ مُميِّزٌ مِنْطِيقٌ قادرٌ على الخِصامِ مُبينٌ، مُعرِبٌ عمَّا في نفْسِه فصيحٌ؛ فهو حينَئذٍ مَعطوفٌ على ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾، غيرُ داخلٍ تحتَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، بلْ هو مِن مُتمِّماتِ شَواهدِ صِحَّةِ البعثِ[٣].

- و(إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ للمُفاجأةِ، ووَجْهُ المُفاجأةِ: أنَّ ذلك الإنسانَ خُلِقَ لِيَعبُدَ اللهَ، ويَعلَمَ ما يَليقُ به، فإذا لمْ يَجْرِ على ذلك فكأنَّه فاجَأَ بما لمْ يكُنْ مُترَقَّبًا منه، مع إفادةِ أنَّ الخُصومةَ في شُؤونِ الإلهيَّةِ كانتْ بما بادَرَ به حين عَقَلَ[٤].

- والخَصيمُ فَعِيلٌ؛ مُبالَغةٌ في معنى مُفاعِلٍ، أي: مُخاصِمٌ شَديدُ الخِصامِ، والمرادُ بـ﴿خَصِيمٌ﴾ في تلك الآيةِ: أنَّه شَديدُ الشَّكيمةِ بعْدَ أنْ كان أصْلُه نُطْفةً[٥].

---

(١) عَجْبُ الذَّنَبِ: العَظمُ بيْنَ الأَلْيَتَينِ الَّذي في أسفَلِ الصُّلْبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ... ﴾ مَعطوفٌ على الجُملةِ المنفيَّةِ، داخلٌ في حيِّزِ الإنكارِ والتَّقبيحِ، أو عطْفٌ على الجُملةِ الفُجائيَّةِ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾، والمعنى: ففاجَأَ خُصومتَنا ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾، أي: أَوْرَدَ في شأْنِنا قِصَّةً عَجيبةً في نفْسِ الأمْرِ، هي في الغرابةِ والبُعدِ عن العُقولِ كالمَثَلِ، وهي إنكارُ إحيائِنا العِظامَ، أو قِصَّةً عَجيبةً في زَعْمِه، واستبْعدَها وعَدَّها مِن قَبيلِ المَثَلِ، وأنْكَرَها أشدَّ الإنكارِ، وهي إحياؤُنا إيَّاها؛ فالمَثَلُ على الأوَّلِ هو إنكارُ إحيائهِ تعالى للعِظامِ؛ فإنَّه أمْرٌ عَجيبٌ في نفْسِ الأمْرِ، حَقيقٌ لِغرابتهِ وبُعْدِه مِن العقولِ بأنْ يُعَدَّ مثَلًا ضَرورةَ جَزْمِ العقولِ بِبُطلانِ الإنكارِ ووُقوعِ المنكَرِ؛ لكَونِه كالإنشاءِ، بلْ أهْوَنُ منه في قياسِ العقلِ، وعلى الثَّاني هو إحياؤُه تعالى لها؛ فإنَّه أمرٌ عَجيبٌ في زَعْمِه قد استبْعدَهُ وعَدَّه من قَبيلِ المثَلِ، وأنْكَرَه أشدَّ الإنكارِ، مع أنَّه في نفْسِ الأمْرِ أقرَبُ شَيءٍ مِن الوُقوعِ؛ لِكَونِه مِثلَ الإنشاءِ أو أهْوَنَ منه، وأمَّا على الثَّالثِ فلا فرْقَ بيْن أنْ يكونَ المَثَلُ هو الإنكارَ أو المنكَرَ[(١)].

وقيل: المَثَلُ: تمثيلُ الحالةِ، فالمعنَى: وأظهَر للنَّاسِ وأتَى لهم بتشبيهِ حالِ قُدرتِنا بحالِ عَجْزِ النَّاسِ؛ إذ أحال إحياءَنا العِظامَ بعدَ أن أرَمَّتْ، فهو كقولِه تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤]، أي: لا تُشَبِّهوه بخَلْقِه فتَجعَلوا له شركاءَ؛ لوُقوعِه بعدَ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[(٢)][النحل: ٧٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٤، ٧٥).

- وقولُه: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ ضَرْبِهِ المثَلَ، كأنَّه قِيلَ: أيَّ مَثَلٍ ضرَبَ؟ أو ماذا قال؟ فقِيل: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، مُؤكَّدٌ بقولِه: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، و﴿مَن﴾ عامَّةٌ في كلِّ مَن يُسنَدُ إليه الخبَرُ؛ فالمعنى: لا أحَدَ يُحْيي العِظامَ وهي رَميمٌ، تَعْجيزًا للهِ تعالى، وتَشبيهًا له بخلْقِه في أنَّهم غيرُ مَوصوفينَ بالقُدرةِ عليه؛ فشَمِلَ عُمومُه إنكارَهم أنْ يكونَ اللهُ تعالى مُحْيِيًا للعِظامِ وهي رَميمٌ، أي: في حالِ كَونِها رَميمًا، وهو بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجَوابٍ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ بحمْلِ استِفهامِ القائلِ على خِلافِ مُرادِه؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ لم يكُنْ قاصدًا تَطلُّبَ تَعيينِ المُحْيي، وإنَّما أراد الاستِحالةَ، فأُجيبَ جَوابَ مَن هو مُتطلِّبٌ عِلْمًا، فقِيل له: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ فلذلك بُنِيَ الجوابُ على فِعلِ الإحياءِ مُسنَدًا للمُحْيي، على أنَّ الجوابَ صالحٌ لأنْ يكونَ إبطالًا للنَّفيِ المرادِ مِن الاستفهامِ الإنكاريِّ، كأنَّه قِيل: بلْ يُحْييها الَّذي أنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، ولم يُبْنَ الجوابُ على بَيانِ إمكانِ الإحياءِ، وإنَّما جُعِل بَيانُ الإمكانِ في جَعلِ المُسنَدِ إليه مَوصولًا؛ لِتَدُلَّ الصِّلةُ على الإمكانِ، فيَحصُلَ الغَرَضانِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥).

فالموصولُ هنا إيماءٌ إلى وَجهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو ﴿يُحۡيِيهَا﴾، أي: يُحْيِيها لأنَّه أَنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، فهو قادرٌ على إنشائِها ثانيَ مرَّةٍ كما أَنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ[1].

- وقولُه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ فيه احتِباكٌ؛ فذِكرُ الإحياءِ أوَّلًا دالٌّ على مِثلِه ثانيًا، والإنشاءِ ثانيًا دالٌّ على مِثلِه أوَّلًا، و ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ في الثَّاني دالٌّ على «ثاني مَرَّةٍ» في الأوَّلِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ إمَّا اعتِراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ الجوابِ للاستِدلالِ، أو مَعطوفةٌ على الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾. والعُدولُ إلى الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عِلْمَه تعالى بما ذُكِرَ أمرٌ مُستمِرٌّ، ليس كإنشائِه للمُنشَآتِ[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ بدَلٌ من ﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ﴾ [يس: ٧٩] بدَلًا مُطابِقًا، وإنَّما لم تُعطَفِ الصِّلةُ على الصِّلةِ -فيُكْتفَى بالعطْفِ عن إعادةِ اسمِ الموصولِ-؛ لأنَّ في إعادةِ الموصولِ بَيانًا لِتَفاوُتِهما في كَيفيَّةِ الدَّلالةِ، وتأْكيدًا للأوَّلِ واهتِمامًا بالثَّاني؛ حتَّى تَستشرِفَ نفْسُ السَّامعِ لِتَلقِّي ما يَرِدُ بعْدَه، فيَفطَنَ بما في هذا الخَلْقِ مِن الغَرابةِ؛ إذ هو إيجادُ الضِّدِّ -وهو نِهايةُ الحرارةِ- مِن ضِدِّه، وهو الرُّطوبةُ، وهذا هو وَجْهُ وَصفِ الشَّجرِ بالأخضَرِ؛ إذ ليس المرادُ مِن الأخضَرِ اللَّونَ، وإنَّما المرادُ لازِمُه، وهو الرُّطوبةُ؛ لأنَّ الشَّجرَ أخضَرُ اللَّونِ ما دام حيًّا، فإذا جفَّ وزالَتْ منه الحياةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦).

استحالَ لَونُه إلى الغُبْرةِ؛ فصارتِ الخُضرةُ كِنايةً عن رُطوبةِ النَّبْتِ وحياتِه[١].

- والجارَّانِ ﴿لَكُم﴾ ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ مُتعلِّقانِ بـ ﴿جَعَلَ﴾، قُدِّما على مَفعولِه الصَّريحِ ﴿نَارًا﴾، مع تأْخيرِهما عنه رُتْبةً؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٢].

- والمُفاجأةُ المُستفادةُ من ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ دالَّةٌ على عَجيبِ إلهامِ اللهِ البشَرَ لاستعمالِ الاقتِداحِ بالشَّجَرِ الأخضَرِ، واهتِدائِهم إلى خاصِّيَّتِه[٣].

- وجِيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا ﴿تُوقِدُونَ﴾؛ لإفادةِ تكرُّرِ ذلك واستِمرارِه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم﴾ استِئنافٌ تَقريريٌّ؛ لِتَحقيقِ مَضمونِ الجوابِ الَّذي أُمِرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُخاطِبَهم به، ويُلزِمَهم الحُجَّةَ. والهَمزةُ في ﴿أَوَلَيۡسَ﴾ للإنكارِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المقامُ، أي: أليسَ الَّذي أنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، وليس الَّذي جعَلَ لهم مِنَ الشَّجرِ الأخضَرِ نارًا، وليس الَّذى خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ مع كِبَرِ جِرْمِهما وعِظَمِ شأْنِهما بقادرٍ...[٥].

- وجِيءَ في هذا الدَّليلِ بطَريقةِ التَّقريرِ الَّذي دَلَّ عليه الاستِفهامُ التَّقريريُّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦، ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٥).

لأنَّ هذا الدَّليلَ -لِوُضوحِه- لا يَسَعُ المُقِرَّ إلَّا الإقرارُ به؛ فإنَّ البَديهةَ قاضيةٌ بأنَّ مَن خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ هو على خلْقِ ناسٍ بعْدَ الموتِ أقدَرُ، وإنَّما وُجِّهَ التَّقريرُ إلى نَفْيِ المُقرَّرِ بثُبوتِه تَوسعةً على المُقرَّرِ إنْ أراد إنكارًا، مع تَحقُّقِ أنَّه لا يَسَعُه الإنكارُ؛ فيَكونُ إقرارُه بعْدَ توجيهِ التَّقريرِ إليه على نَفْيِ المقصودِ شاهدًا على أنَّه لا يَستطيعُ إلَّا أنْ يُقِرَّ[(١)].

- واسمُ الفاعِلِ (قادِر) في قولِه: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ مجرورٌ بالباءِ المَزيدةِ في النَّفيِ؛ لِتأْكيدِه[(٢)].

- والالتِفاتُ مِن الخِطابِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿مِثْلَهُم﴾؛ لِمَزيدِ الاحتقارِ والازدراءِ، أي: مِثلَ أولئك البُعداءِ[(٣)]. وقيل: إيذانًا بأنَّهم صاروا بهذا الجدَلِ أهلًا لغايةِ الغضبِ[(٤)].

- وعُقِّبَ التَّقريرُ بجَوابٍ عن المُقرَّرِ بكَلمةِ ﴿بَلَىٰ﴾ الَّتي هي لِنَقْضِ النَّفيِ، أي: بلى هو قادرٌ على أنْ يَخلُقَ مِثلَهم، وهو جَوابٌ مِن جِهَتِه تعالى، وتَصريحٌ بما أفادَه الاستِفهامُ الإنكاريُّ مِن تَقريرِ ما بعْدَ النَّفيِ، وإيذانٌ بتَعيُّنِ الجوابِ، نَطَقُوا به أو تَلَعْثَموا فيه مَخافةَ الإلزامِ[(٥)].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: هو يَخلُقُ خلائقَ كثيرةً، وواسعُ العِلمِ بأحوالِهم ودَقائقِ تَرْتيبِها؛ فالخلَّاقُ مُبالَغةٌ لِكَثرةِ مَخلوقاتِه، فهو سُبحانه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٠١، ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

المبالِغُ في الخلْقِ والعلْمِ كَيْفًا وكمًّا(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هذه فَذْلَكةُ(٢) الاستِدلالِ، وفَصْلُ المقالِ؛ فلذلك فُصِلَت عمَّا قبْلَها كما تُفصَلُ جُملةُ النَّتيجةِ عن جُملتَي القِياسِ؛ فقد نتَجَ ممَّا تَقدَّمَ أنَّه تعالى إذا أراد شيئًا فإنَّه يقولُ له: (كُنْ)، وهو أخصَرُ كَلِمةٍ تُعبِّرُ عن الأمْرِ بالكونِ، أي: الاتِّصافِ بالوُجودِ(٣).

- وقولُه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ(٤)؛ لِقَلْبِ اعتِقادِهم أنَّه يَحتاجُ إلى جمْعِ مادَّةٍ وتَكييفِها، ومُضِيِّ مُدَّةٍ لإتمامِها، وفي ذلك قَطْعٌ لِمادَّةِ الشُّبهةِ، وهو قِياسُ قُدرةِ اللهِ تعالى على قُدْرةِ الخلْقِ(٥)!

٧- قولُه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذا تَنزيهٌ للهِ ممَّا وصَفَه به المُشرِكون، وتَعجُّبٌ مِن أنْ يَقولوا فيه ما قالوا، وتأْكيدٌ وتَقريرٌ لِمَا سبَقَه(٦).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فَصيحةٌ تدُلُّ على كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا ظهَرَ كلُّ ما سَمِعْتُم مِن الدَّلائلِ على عَظيمِ قُدْرةِ اللهِ، وتَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، وأنَّه يُعيدُكم بعدَ الموتِ؛ فيَنشَأُ تَنْزيهُه عن أقوالِهم في شأْنِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٢) سبق تعريفها (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٤) سبق تعريفه (ص: ٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

المُفْضيةِ إلى نَقْصِ عَظَمتِه؛ لأنَّ بيَدِه المُلْكَ الأتَمَّ لكلِّ مَوجودٍ[١]. وهذه الفاءُ أيضًا للإشارةِ إلى أنَّ ما فُصِّلَ مِن شُؤونِه تعالى مُوجِبةٌ لِتنزُّهِه وتَنْزيهِه أكمَلَ إيجابٍ، كما أنَّ وَصْفَه تعالى بالمالكيَّةِ الكُليَّةِ المُطلَقةِ للإشعارِ بأنَّها مُقْتضيةٌ لذلك أتمَّ اقتضاءٍ[٢].

- قولُه: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الملَكُوتُ: مُبالَغةٌ في المُلكِ، كالرَّحَموتِ والرَّهَبوتِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ التَّسبيحِ عَطْفَ الخبَرِ على الإنشاءِ؛ فهو ممَّا شَمِلَته الفاءُ الفصيحةُ، والمعنى: قدِ اتَّضَحَ أنَّكم صائرون إليه، غيرُ خارجينَ مِن قبْضةِ مُلْكِه، وذلك بإعادةِ خلْقِكم بعدَ الموتِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غَيرِه، وفيهِ مِن الوَعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى؛ فالخطاب عامٌّ للمؤمنينَ والمشركينَ، وقيل: هو وعيدٌ فقط على أنَّ الخطابَ للمشركينَ لا غير توبيخًا لهم[٥].

- وتَقديمُ (إِلَيْه) على ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ للاهتمامِ ورِعايةِ الفاصلةِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَزعُمون أنَّ ثمَّةَ رَجعةً إلى غيرِه، ولكنَّهم يُنكِرون المعادَ مِن أصْلِه[٦].



---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

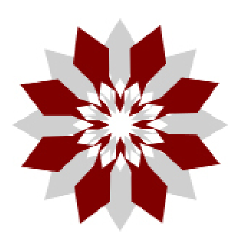
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٥٥).

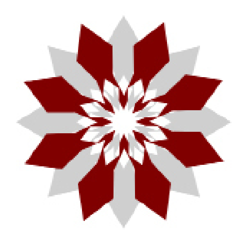
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

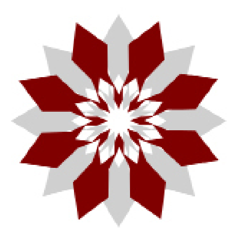


تَفْسِيرُ

سُورَةِ الصَّافَّاتِ







سورةُ الصَّافَّاتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الصَّافَّات)[١].

فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُ بالتَّخفيفِ، ويَؤُمُّنا بالصَّافَّاتِ))[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِن المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى أنَّ البَعثَ حَقٌّ[٤].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بالصَّافَّات؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ بالصَّافَّات، وهم الملائِكةُ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١).

قال ابنُ عاشور: (اسمُها المشهورُ المتَّفَقُ عليه «الصَّافَّات»، وبذلك سُمِّيَتْ في كُتُبِ التَّفسيرِ، وكُتبِ السُّنَّةِ، وفي المصاحفِ كلِّها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١).

(٢) أخرجه النسائي (٨٢٦) واللفظ له، وأحمد (٤٧٩٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٨٢٦)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨٢)، ، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٧٩٦).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١)، ((الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٦٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

١- القَسَمُ بتلك الطَّوائِفِ مِن الملائِكةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

٢- ذِكرُ عَدَدٍ مِن الدَّلائِلِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

٣- ذِكرُ استِراقِ الشَّياطينِ السَّمْعَ، ورَجمِهم بالشُّهُبِ.

٤- حِكايةُ بَعضِ شُبُهاتِ المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ، مع الرَّدِّ عليها.

٥- ذِكرُ بَعضِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، ووَصْفُ حالِ المُشرِكينَ يومَ الجَزاءِ، وما أُعِدَّ لهم، وما يَجري بيْنَهم مِن تَخاصُمٍ، ووَصْفُ حُسنِ أحوالِ المُؤمنينَ، ونَعيمِهم، والمحاوُراتِ الَّتي تَدورُ بيْنَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ.

٦- ذِكرُ جوانِبَ مِن قَصَصِ الأنبياءِ: قِصَّةِ نُوحٍ، وإبراهيمَ مع قَومِه ومع ابنِه إسماعيلَ، وقِصَّةِ موسى وهارونَ، وإلياسَ، ولُوطٍ، ويُونُسَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٧- بيانُ فَسادِ عَقيدةِ المُشرِكينَ وقَولِهم: الملائِكةُ بناتُ اللهِ! وجَعلِهم بيْنَه وبيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا.

٨- بيانُ دَرَجاتِ الملائِكةِ في مَقامِ العِبادةِ، ووَعْدُ اللهِ رَسولَه بالنَّصرِ والتَّأييدِ.

٩- خَتْمُ السُّورةِ بتَنزيهِ اللهِ سُبحانَه وحَمْدِه، والتَّسليمِ على رُسُلِه.



الآيات (١-١٠)

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾: أي: الملائِكةِ المُصطفِّينَ لرَبِّهم في السَّماءِ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ وتَساوٍ[١].

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾: أي: الملائكةِ تَسوقُ السَّحابَ، أو تَزجُرُ وتَنهَى عن معصيةِ اللهِ، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[٢].

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾: أي: الملائكةِ تَتْلو كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتَقرؤُه، وأصلُ (تلو): يدُلُّ على اتِّباعٍ[٣].

﴿مَّارِدٖ﴾: أي: عاتٍ خارجٍ عن الطَّاعةِ، مُتعَرٍّ عن الخَيرِ، وأصلُ (مرد): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يَعلوه مِن شَعَرِه، ومنه الماردُ والمريدُ، كأنَّه تَجَرَّد مِن الخيرِ[1].

﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي: مَلائكةِ اللهِ، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على المُساواةِ والكمالِ، وأصلُ (علو): يَدُلُّ على السُّمُوِّ والارتِفاعِ[2].

﴿دُحُورًا﴾: أي: إبعادًا وطَردًا، وأصلُ (دحر): يدُلُّ على طَردٍ[3].

﴿وَاصِبٌ﴾: أي: دائِمٌ مُستمِرٌّ، وأصلُ (وصب): يدُلُّ على دَوامِ الشَّيءِ[4].

﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾: أي: اختلَسَ واستَرَقَ كلامَ الملائكةِ مُسارَقةً بسُرعةٍ وخِفَّةٍ، وأصلُ (خطف): يدُلُّ على أخْذِ الشَّيءِ بسُرعةٍ واستِلابٍ[5].

﴿شِهَابٌ﴾: أي: كَوكَبٌ أو شُعلةٌ من النَّارِ، وأصلُ (شهب): يدُلُّ على بياضٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢) (٥/ ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

في شَيءٍ مِن سوادٍ[١].

﴿ثَاقِبٌ﴾: أي: خارِقٌ مُضيءٌ شديدُ الإضاءةِ، يَثقُبُ بنُورِه وإضاءتِه ما يَقَعُ عليه، وأصلُ (ثقب): يدُلُّ على نَفاذِ الشَّيءِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾

قولُه تعالى: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ الكواكبُ بَدَلٌ مِن (زِينَةٍ) أو عطْفُ بيانٍ، بمعنى: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بزينةٍ هي الكواكبُ، كأنَّه قال: زَيَّنَّاها بالكواكبِ. وفي قراءةٍ بالإضافةِ: ﴿بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ﴾، على أنَّها بَيانيَّةٌ؛ لِمَا أنَّ الزِّينةَ مُبهَمةٌ، فتَقَعُ الكَواكِبُ بَيانًا لها، والمعنى: بأنَّ زينتَها الكواكبُ. وفي قراءة: ﴿بِزِينَةٍ الكَوَاكِبَ﴾ بنصبِ الكواكبِ[٣]؛ فيحتملُ أن تكونَ الزِّينةُ مصدرًا، والكواكبُ مفعولٌ به، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ * يَتِيمٗا﴾ [البلد: ١٤، ١٥]، والفاعلُ محذوفٌ، أي: بأنْ زيَّنَ اللهُ الكواكبَ في كَونِها مُضيئةً حسَنةً في أنفُسِها، أو أنَّ الزِّينةَ اسمٌ لِما يُزانُ به، فالكواكبُ حينَئذٍ بدَلٌ منها على المحلِ، أو نصب بـ (أعني)، أو بدَلٌ مِن السَّماءِ الدُّنيا بدَلَ اشتِمالٍ، أي: كواكبَ السَّماءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣، ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨).

(٣) قرأ عاصمٌ وحمزةُ ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتَّنوينِ وجرِّ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾، وقرأ شعبةُ عن عاصمٍ بتنوينِ ﴿بِزِينَةٍ﴾ ونصبِ ﴿الكَوَاكِبَ﴾، وقرأ الباقون ﴿بِزِينَةِ﴾ بغيرِ تنوينٍ وبجرِّ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٧٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦١٠)، ((التبيان في =

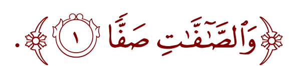
المعنى الإجماليُّ:

أقسَمَ اللهُ تعالى بالملائِكةِ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ صفًّا؛ امتِثالًا لأمرِ رَبِّها، والَّتي تَزجُرُ ما يأمُرُها اللهُ تعالى بزَجرِه، والَّتي تَتْلو ذِكرَ اللهِ تعالى، أقسَمَ اللهُ بذلك على أنَّه سبحانَه واحِدٌ لا شَريكَ له، وأنَّه ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينَهما، وربُّ المشارِقِ.

ثمَّ بيَّن سُبحانَه بعدَ ذلك بعضَ مَظاهِرِ قُدرتِه في خَلقِه لهذه السَّمَواتِ، فقال: إنَّا زيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا الَّتي تَرونَها بأعيُنِكم -أيُّها النَّاسُ- بالكواكِبِ، وحَفِظْناها مِن كُلِّ شَيطانٍ مُتمَرِّدٍ خارجٍ عن طاعتِنا يُريدُ استِراقَ السَّمْعِ.

لا يَستَطيعُ أولئك الشَّياطينُ سَماعَ الملائِكةِ في السَّماءِ إذا تكَلَّموا بما يأمُرُ اللهُ به، فإذا حاوَلوا قذَفْناهم ورَجَمْناهم بالشُّهُبِ والنِّيرانِ مِن كُلِّ جانبٍ مِن جوانبِ السَّماءِ؛ طردًا وإبعادًا لهم عن استِراقِ السَّمْعِ، ولهم عذابٌ دائِمٌ مُستَمِرٌّ، فلا يَستطيعُ أحَدٌ منهم سَماعَ الملائِكةِ في السَّماءِ إلَّا الشَّيطانُ الَّذي خَطِفَ الخَطفةَ مِن كلامِ الملائكةِ بسُرعةٍ وخِفَّةٍ، فيَتبَعُه شِهابٌ مُتوقِّدٌ نافِذٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:


﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١)﴾.

أي: أُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ لِرَبِّها صَفًّا[1].

= ((إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤). =

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٦٤، ١٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ألَا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ رَبِّها؟ فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، وكيف تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ ربِّها؟ قال: يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأُوَلَ، ويَتراصُّونَ

= قال الشنقيطي: (أكثَرُ أهلِ العِلمِ على أنَّ المرادَ بـ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ هنا، و«الزَّاجِرَات»، و«التَّالِيَات»: جماعاتُ الملائِكةِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٣).
وحكى ابنُ جريرٍ الإجماعَ على ذلك، فقال: (... الله تعالى ذِكرُه ابتدَأ القَسَمَ بنوعٍ مِن الملائكةِ، وهم الصَّافُّونَ، بإجماعٍ مِن أهلِ التَّأويلِ، فلأن يكونَ الَّذي بَعْدَه قَسَمًا بسائِرِ أصنافِهم أشْبَهُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧).
وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المقصودَ بالصَّافَّاتِ الملائكةُ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، ومَسروقٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥).
قال الشنقيطي: (ومعنى كونِهم صافِّينَ: أن يَكونوا صُفوفًا مُتراصِّينَ بَعضُهم جَنبَ بَعضٍ في طاعةِ الله تعالى؛ مِن صلاةٍ وغيرِها. وقيل: لأنَّهم يَصُفُّونَ أجنحَتَهم في السَّماءِ، ينتَظِرونَ أمرَ اللهِ. ويُؤيِّدُ القَولَ الأوَّلَ حديثُ حذيفةَ... في صَحيحِ مُسلِمٍ، وهو قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «فُضِّلْنا على النَّاسِ بثلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائكةِ...»). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١).
وممَّن جمَعَ بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢).
قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ تقديرُه: والجَماعاتِ الصَّافَّات، ثمَّ اختُلِفَ فيها؛ فقيل: هي الملائِكةُ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ صُفوفًا لعبادةِ اللهِ. وقيل: هو مَن يَصُفُّ مِن بني آدَمَ في الصَّلَواتِ والجِهادِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨).
وقال البِقاعي: (قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أي: الجَماعاتِ مِن الملائكةِ، والمصَلِّينَ والمجاهِدينَ المُكَمِّلينَ أنفُسَهم بالاصطِفافِ في الطَّاعةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٨٧).

في الصَّفِّ))[1].

وعن حُذَيْفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فُضِّلْنا على النَّاسِ بثلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائِكةِ، وجُعِلَت لنا الأرضُ كُلُّها مَسجِدًا، وجُعِلت تُرْبَتُها لنا طَهورًا إذا لم نَجِدِ الماءَ))[2].

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تَزجُرُ ما يأمُرُها اللهُ تعالى بزَجرِه[3].

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تَتْلو ذِكْرَ اللهِ تعالى[4].

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠).

(٢) رواه مسلم (٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

قال السمعاني: (ذهب أكثَرُ المفَسِّرين أنَّ المرادَ بهم الملائِكةُ تَزجُرُ السَّحابَ؛ لِتَسوقَه إلى الموضِعِ الَّذي يُريدُه الله تعالى). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩١).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ من زَجرِ السَّحابِ، وأنَّها تَزجُرُ السَّحابَ وغَيْرَه بأمرِ اللهِ تعالى: ابنُ جُزَي، وابن القيِّم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢).

قال ابن عاشور: (والمرادُ به: تسخيرُ الملائكةِ المخلوقاتِ الَّتي أمَرَهم اللهُ بتسخيرِها خَلْقًا أو فِعلًا؛ كتكوينِ العناصرِ، وتصريفِ الرِّياحِ، وإزجاءِ السَّحابِ إلى الآفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

وقيل: تَزجُرُ عن المعاصي بالمواعِظِ والنَّصائحِ، أو بالذِّكرِ الَّذي تَتْلوه، أو تُلقيه إلى الأنبياءِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، =

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾.

أي: إنَّ مَعبودَكم المُستَحِقَّ للعبادةِ واحِدٌ لا ثانيَ له، ولا شَريكَ له؛ فأخلِصوا

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤، ٨٥).

قيل: المرادُ: الملائكةُ تَقرأُ كُتبَ الله تعالى وتَتْلو كلامَه. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرسعني، والنسفي، وابن القيم، والسعدي، ونسَبَه ابنُ الجوزي للجمهور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١١٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٥).

وقيل: الملائِكةُ الَّتي تَقرأُ القرآنَ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٣، ١٥).

وقيل: المرادُ بالملائكةِ هنا: جبريلُ وحْدَه عليه السَّلامُ، فيُلقي الذِّكْرَ على الأنبياءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٥).

قال الواحديُّ: (وعلى هذا: المرادُ جِبريلُ، وذُكِرَ بلَفظِ الجَمعِ؛ إشارةً إلى أنَّه كبيرُ الملائكةِ، فهو لا يخلو مِن أعوانٍ وجنودٍ له من الملائكةِ يَعرُجونَ بعُروجِه، ويَنزِلونَ بنُزولِه). ((البسيط)) (١٩/ ٩).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [المرسلات: ٥] كقَولِه تعالى هنا: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾؛ لأنَّ الذِّكرَ الَّذي تَتْلوه تُلقِيه إلى الأنبياءِ، كما كان جِبريلُ يَنزِلُ بالوَحيِ على نَبيِّنا وغيرِه مِن الأنبياءِ صَلَواتُ اللهِ وسلامُه على الجميع). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ المُرَدِّدون لكلام الله تعالى الَّذي يَتلقَّونَه من جانبِ القُدُسِ؛ لتبليغ بَعضِهم بعضًا، أو لِتَبليغِه إلى الرُّسُلِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]... والمرادُ بـ «التَّاليَات»: ما يَتْلونَه من تسبيحٍ وتقديسٍ للهِ تعالى؛ لأنَّ ذلك التَّسبيحَ لَمَّا كان مُلَقَّنًا من لَدُنِ اللهِ تعالى كان كلامُهم بها تِلاوةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤، ٨٥).

له العِبادةَ وَحْدَه، ولا تُشرِكوا به شَيئًا[1].

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾؛ أقام الدَّليلَ على ذلك بقولِه[2]:

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾.

أي: هو خالِقُ ومالِكُ السَّمواتِ السَّبعِ، والأرضِ، وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، وهو الرَّازِقُ والمُدَبِّرُ لذلك كُلِّه[3].

﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾.

أي: وهو خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ المشارِقِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

قيل: المرادُ بالمشارقِ هنا: مشارِقُ الشَّمسِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والكرماني، وابن عطية، والقرطبي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨).

قال الماوَرْديُّ: (فيه [أي: المشارقِ] وجْهانِ؛ الأوَّلُ: قال قَتادةُ: ثلاثُمئةٍ وسِتُّونَ مَشرِقًا، والمغارِبُ مِثلُ ذلك، تَطلُعُ الشَّمسُ كلَّ يومٍ مِن مشرقٍ، وتغرُبُ في مغربٍ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: أنَّها مئةٌ وثمانون مَشرقًا، تَطلُعُ كُلَّ يومٍ في مطلعٍ حتَّى تنتهيَ إلى آخِرِها، ثمَّ تعودُ في تلك المطالعِ حتَّى تَعودَ إلى أوَّلِها. حكاه يحيى بنُ سلَّام). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧). ويُنظر: =

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾.

أي: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الأُولى القريبةَ مِن النَّاسِ بالكواكِبِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧﴾.

أي: وحَفِظْناها بالكواكِبِ مِن كُلِّ شَيطانٍ مُتمَرِّدٍ، عاتٍ في الشَّرِّ، يريدُ استِراقَ السَّمْعِ[2].

= ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٢٣)، ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٨٨).

وقال الألوسي: (إنِ اعتُبر ما كانت عليه وما عادت إليه واحِدًا، كانت مئةً وثمانين، وإن نُظِر إلى تغايُرهما كانت ثلاثَمئةٍ وستِّين، وفي هذا إسقاطُ الكَسرِ؛ فإنَّ السَّنةَ الشَّمسيَّةَ تَزيدُ على ذلك العدَدِ بنحوِ ستَّةِ أيَّامٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٨).

قال ابنُ جرير: (قولُه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ يقولُ: ومدبِّرُ مَشارِقِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ، ومَغارِبِها، والقَيِّمُ على ذلك ومُصلِحُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦).

وقيل: كُلُّ مَوضِعٍ أشرَقَت عليه الشَّمسُ فهو مَشرِقٌ، وكُلُّ مَوضِعٍ غَرَبَت عليه فهو مَغرِبٌ، كأنَّه أراد جميعَ ما أشرَقَت عليه الشَّمسُ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٧٠).

قال الرازي: (ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ مشارِقَ الكواكبِ؛ لأنَّ لكلِّ كوكبٍ مشرِقًا ومغربًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ المشارقَ عامَّةٌ؛ تَشملُ مَشارقَ الشَّمسِ، ومشارقَ القمرِ، ومشارقَ النُّجومِ، ومشارقَ كلِّ ما يشرقُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٩، ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٨).

ويُطلَقُ كلٌّ مِن الكوكبِ والنَّجمِ على الآخرِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

قال الرسعني: (﴿وَحِفۡظٗا﴾ مَحمولٌ على المعنى، تقديرُه: إنَّا خلَقْنا الكواكِبَ زينةً للسَّماءِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⑧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قِيل: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصَّافَّات: ٧]، أي: حَفِظْناها حِفظًا، فقيل: فما يَكونُ إذَنْ[١]؟ فلَمَّا تشوَّفَ السَّامِعُ إلى مَعرفةِ هذا الحِفظِ وثَمَرتِه وبيانِ كيفيَّتِه؛ استأنَفَ قولَه[٢]:

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

أي: حَفِظْنا السَّماءَ الدُّنيا مِن الشَّياطينِ، فلا يُصغُونَ إلى الملائِكةِ إذا تكَلَّموا بما يأمُرُ اللهُ به مِن شَرعٍ أو قَدَرٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢].

= ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾. وقيل: المعنى: وحَفِظْناها حِفظًا). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤).

وقال ابنُ عاشور: (معنى كونِ الكواكبِ حِفظًا مِن الشَّياطين: أنَّ مِن جملةِ الكواكبِ الشُّهُبَ الَّتي تُرجَمُ بها الشَّياطينُ عندَ مُحاوَلتِها استِراقَ السَّمع. والمارِدُ: الخارجُ عن الطَّاعة، الَّذي لا يُلابِسُ الطَّاعةَ ساعةً؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٠، ٩١).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٨، ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٦-٢٩).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الملائِكةَ تَنزِلُ في العَنانِ -وهو السَّحابُ- فتَذكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السَّماءِ، فتَسترِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتَسمَعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّانِ، فيَكذِبونَ معها مِئةَ كَذْبةٍ مِن عندِ أنفُسِهم))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: أخبَرَني رجُلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأنصارِ: ((أنَّهم بَيْنَما هم جلوسٌ ليلةً مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُمِيَ بنَجمٍ فاستنارَ، فقال لهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ماذا كنتُم تقولونَ في الجاهليَّةِ إذا رُمِيَ بمِثلِ هذا؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، كنَّا نقولُ: وُلِدَ اللَّيلةَ رجُلٌ عظيمٌ، ومات رجُلٌ عَظيمٌ! فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فإنَّها لا يُرمَى بها لِمَوتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكِنْ رَبُّنا تبارَكَ وتعالى اسمُه إذا قضى أمرًا سبَّحَ حَمَلةُ العَرشِ، ثمَّ سَبَّح أهلُ السَّماءِ الَّذين يَلُونَهم، حتَّى يَبلُغَ التَّسبيحُ أهلَ هذه السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ قال الَّذين يَلُونَ حَمَلةَ العَرشِ لحَمَلةِ العَرشِ: ماذا قال ربُّكم؟ فيُخبِرونَهم ماذا قال، فيَستخبِرُ بَعضُ أهلِ السَّمَواتِ بَعضًا، حتَّى يَبلُغَ الخبَرُ هذه السَّماءَ الدُّنيا، فتَخطَفُ الجِنُّ السَّمْعَ فيَقذِفونَ إلى أوليائِهم، ويُرمَونَ به، فما جاؤوا به على وَجهِه فهو حَقٌّ، ولكِنَّهم يَقرِفونَ[٢] فيه ويَزيدونَ))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان الجِنُّ يَسمَعونَ الوَحيَ فيَستَمِعونَ الكَلِمةَ فيَزيدون فيها عَشْرًا، فيكونُ ما سَمِعوا حَقًّا، وما زادوه باطِلًا، وكانت النُّجومُ لا يُرمَى بها قبْلَ ذلك، فلمَّا بُعِث النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أحدُهم

(١) رواه البخاري (٣٢١٠).
(٢) أي: يَخلِطونَ فيه الكَذِبَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢٢٧).
(٣) رواه مسلم (٢٢٢٩).

لا يأتي مَقعَدَه إلَّا رُمِيَ بشِهابٍ يُحرِقُ ما أصاب، فشَكَوا ذلك إلى إبليسَ، فقال: ما هذا إلَّا مِن أمرٍ قد حدَث! فبَثَّ جُنودَه، فإذا هُم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصلِّي بيْنَ جَبَلَيْ نَخلةَ، فأتَوه فأخبَروه، فقال: هذا الحَدَثُ الَّذي حَدَث في الأرضِ))[١].

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾.

أي: وهم يُرمَونَ رَميًا شديدًا بالشُّهُبِ مِن كُلِّ جِهةٍ مِنَ السَّماءِ[٢].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٢٤)، وأحمد (٢٤٨٢) واللَّفظُ له.

قال الترمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ. وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٢٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

واخْتُلِف هل كان هذا القذفُ قبْلَ المبعثِ، أو بعدَه لأجْلِ المبعثِ؛ على قولينِ، والجَمْعُ بيْن هذَينِ القولَينِ: أنَّ الرَّمْيَ بالنُّجومِ كان موجودًا قبْلَ مبعثِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمَّا بُعِث شُدِّد ذلك، وزِيدَ في حفظِ السَّماءِ وحراستِها؛ صَونًا لأخبارِ الغيوبِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الزهريُّ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسهيليُّ، والرازي، والقرطبيُّ ونسَبَه للأكثرينَ. واستحسَنَه ابنُ حَجرٍ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٦) و(١٩/ ١٣)، ((فتح الباري)) (٨/ ٦٧٢).

قال السهيلي: (وإنْ وُجِدَ اليَومَ كاهِنٌ فلا يُدفَعُ ذلك بما أخبَرَ اللهُ به من طَردِ الشَّياطينِ عن استراقِ السَّمعِ؛ فإنَّ ذلك التَّغليظَ والتَّشديدَ كان زمَنَ النُّبُوَّةِ، ثمَّ بَقِيَت منه -أعني: مِن استراقِ السَّمعِ- بقايا يسيرةٌ، بدَليلِ وُجودِهم على النُّدورِ في بعضِ الأزمنةِ، وفي بَعضِ البِلادِ). ((الروض الأُنُف)) (٢/ ٣٠٢).

شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩].

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٩﴾.

﴿دُحُورًا﴾.

أي: يُقذَفونَ بالشُّهُبِ؛ طَردًا وإبعادًا لهم عن الوُصولِ إلى السَّماءِ لاستِراقِ السَّمْعِ[1].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

أي: وللشَّياطينِ عَذابٌ دائِمٌ مُستمِرٌّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

قيل: هذا العذابُ في الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

وقال الواحدي: (قال مقاتلٌ: يعني دائمًا إلى النَّفخةِ الأولى، فهي تَجرحُ ولا تَقتُلُ. فقد بيَّنَ مقاتلٌ أنَّ المرادَ بهذا العذابِ عذابُ الدُّنيا). ((البسيط)) (١٩/ ٢٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٢) وليس فيه ذِكرٌ للنَّفخةِ الأولى.

وقيل: في الدُّنيا والآخِرةِ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (يُعَذَّبون في هذه الدُّنيا بهذه الشُّهُبِ، ويُعَذَّبون في الآخرةِ بالعذابِ الدَّائمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

وقال البقاعي: (﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي: في الدُّنيا بهذا وبغيرِه، وفي الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٩٨).

قال ابنُ الجوزي: (وفي «الواصِبِ» قولانِ: =

كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٨ - ٧٠].

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

أي: لا يَسَّمَّعُ الشَّياطينُ شَيئًا مِن الملأِ الأعلى إلَّا مَن تَلَقَّف واختلَس منهم كَلِمةً واحِدةً بسُرعةٍ وخُفيةٍ[(١)]، ....

= أحدُهما: أنَّه الدَّائمُ. قاله: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ.
والثَّاني: أنَّه المُوجِعُ. قاله أبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩).
وعزا الشوكانيُّ القولَ الأوَّلَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٥).
قال الواحدي: (قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ قالوا كلُّهم: دائمٌ... ومَن فَسَّر الواصِبَ بالشَّديد و[الموجِع]، فهو معنًى وليس بتفسيرٍ). ((البسيط)) (١٩/ ٢٠).
وجمَعَ البِقاعي بيْن المعنيَين السَّابقَين، فقال: (﴿وَاصِبٌ﴾ أي: دائمٌ مُمرِضٌ مُوجِعٌ كثيرُ الإيجاعِ، مُواظِبٌ على ذلك ثابتٌ عليه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٩٨).

(١) قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ من سورة الحِجْرِ [١٧، ١٨]: (قال بعضُ العُلَماءِ: هو استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، وجزَم به الفخرُ الرَّازيُّ، أي: لكِنْ مَن استرق السَّمْعَ -أي: الخَطفةَ اليَسيرةَ- فإنَّه يَتبَعُه شِهابٌ فيُحرِقُه، كقولِه تعالَى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.
وقيل: الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ، أي: حَفِظْنا السَّماءَ مِن الشَّياطينِ أن تَسمَعَ شيئًا مِن الوحيِ وغيرِه، ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ فإنَّا لم نحفَظْها من أن تَسمَعَ لخبرٍ مِن أخبارِ السَّماءِ سِوى الوَحيِ، فأمَّا الوَحيُ فلا تَسمَعُ منه شَيئًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. قالَه القُرطبيُّ، ونَظيرُه ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ الآيةَ؛ فإنَّه استثناءٌ مِن الواوِ في قولِه تعالَى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠).
وقال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ قال أهلُ التَّفسيرِ: هذا استثناءٌ منقطِعٌ، =

فيَتبَعُه شِهابٌ مُتوقِّدٌ نافِذٌ(١).

= ومعناه: لكنْ مَن خطِف الخَطفةَ. ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٣). ويُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧١).

وقيل: الاستثناءَ مُتَّصِلٌ، وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبِقاعي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (استثنى مِن نفي سماعِهم إلى السَّماءِ الَّذي يَخطَفُ الخَطفةَ فهو يَسمَعُ، فيَتبَعُه شِهابٌ نافِذٌ يَنفُذُ فيه فيَخْرِقُه أو يحرِقُه أو يَخْبِلُه، ورُبَّما يَنجو من هذا الشِّهابِ إذا أراد اللهُ عزَّ وجلَّ ويَصِلُ إلى الكاهنِ ويُوحي إليه بما سمِع، ثمَّ الكاهنُ يَكذِبُ مع ما سمِع كَذَباتٍ كثيرةً؛ مئةَ كَذْبةٍ أو أكثَرَ أو أقَلَّ... فصار الشَّياطينُ ثلاثةَ أقسام: قِسْمٌ لا يُمكِنُه السَّماعُ إطلاقًا، وقِسمٌ يُمكِنُ أن يَسمَعَ على سبيلِ الخَطفِ ويحرِقُه الشِّهابُ، والقِسمُ الثَّالثُ يَسمَعُ على سبيلِ الخَطفِ ويَنجو، وكلُّ هذا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ وإرادتِه تبعًا لحكمتِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

قال القرطبي: (يَسترِقُ الواحِدُ منهم شيئًا مِمَّا يتفاوَضُ فيه الملائِكةُ ممَّا سيَكونُ في العالَمِ قبْلَ أن يَعلَمَه أهلُ الأرضِ؛ وهذا لخفَّةِ أجسامِ الشَّياطينِ، فيُرجَمون بالشُّهُبِ حينَئذٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٧).

وقال ابنُ كثير: (هي الكَلِمةُ يَسمَعُها من السَّماءِ، فيُلقيها إلى الَّذي تحتَه، ويُلقيها الآخَرُ إلى الَّذي تحتَه، فرُبَّما أدركَه الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها بقَدَرِ اللهِ قبْلَ أن يأتيَه الشِّهابُ فيُحرِقَه، فيَذهَبُ بها الآخَرُ إلى الكاهِنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦، ٧).

وقال ابنُ عاشور: (الثَّاقِبُ: الخارِقُ، أي: الَّذي يَترُكُ ثَقْبًا في الجِسمِ الَّذي يُصيبُه، أي: ثاقِبٌ له. وعن ابنِ عبَّاسٍ: الشِّهابُ لا يَقتُلُ الشَّيطانَ الَّذي يُصيبُه، ولكِنَّه يَحترِقُ ويَخبلُ، أي: يَفسُدُ قِوامُه فتَزولُ خصائِصُه، فإن لم يَضمَحِلَّ فإنَّه يُصبِحُ غيرَ قادرٍ على مُحاوَلةِ استِراقِ السَّمعِ مرَّةً أخرى، أي: إلَّا مَن تمكَّن مِن الدُّنُوِّ إلى محلٍّ يَسمَعُ فيه كلماتٍ مِن كلماتِ المَلأِ الأعلى، فيُردَفُ بشِهابٍ يَثقُبُه فلا يَرجِعُ إلى حيثُ صدَرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣١).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا * وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٨، ٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: إنَّ نبيَّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبت الملائِكةُ بأجنِحَتِها؛ خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلسلةٌ على صَفوانٍ[٢]، فإذا فُزِّعَ[٣] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا: بعضُه فوقَ بَعضٍ -ووصَفَ سُفيانُ بكَفِّه فحَرَفَها، وبدَّد بيْنَ أصابِعِه- فيَسمَعُ الكَلِمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقِيَها على لسانِ السَّاحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقِيَها، وربَّما ألقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مِئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا، فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ الَّتي سَمِعَ مِن السَّماءِ))[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ قَسَمُ اللهِ بمَخلوقاتِه يُومِئُ إلى التَّنويهِ بشَأنِ المُقْسَمِ به، مِن حيثُ هو دالٌّ على عَظيمِ قُدرةِ الخالِقِ، أو كَونِه مُشرَّفًا عِندَ اللهِ تَعالى[٥]، فاللهُ تعالى لا يَحلِفُ بشَيءٍ مِن خَلقِه إلَّا كان هذا الشَّيءُ مِن أعظَمِ آياتِه، فيَكونُ الحَلِفُ بهذا المخلوقِ مُتضَمِّنًا للحَلِفِ بآياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ الَّتي هي

(٢) الصَّفوانُ: الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤١).

(٣) فُزِّعَ: أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٤) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

فِعلُه؛ لأنَّ عِظَمَ المخلوقِ يدُلُّ على عِظَمِ الخالقِ(١).

٢- في قَوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ حَلِفُه سُبحانَه بما شاء مِن خلْقِه؛ لأنَّه المالكُ، كما أنَّه سُبحانَه وتعالى يأمُرُ بما شاء؛ أرَأَيْتَ أمْرَ اللهِ تعالى الملائكةَ أنْ تَسجُدَ لآدَمَ، والسُّجودُ لغيرِ اللهِ شركٌ؟! لكنَّ اللهَ يأمُرُ بما شاء. أرأيْتَ أمْرَه إبراهيمَ الخَليلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَذبَحَ ابنَه، وذَبحُ ابنِه مِن أعظمِ الكبائرِ؟! وصار بأمرِ اللهِ طاعةً لله عزَّ وجلَّ؛ كذلك الحَلِفُ بغيرِ اللهِ شِركٌ؛ ولكنْ مع هذا فلِلَّه أنْ يَحلِفَ بما شاء مِن خَلقِه(٢).

٣- في قَوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ المرادُ به الملائِكةُ، وأُنِّثَتْ باعتِبارِها جماعاتٍ، وجماعاتٌ: مُؤنَّثٌ، فالملائكةُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ جماعاتٌ مُختَلِفةٌ، كلُّ جماعةٍ لها وظيفةٌ مُعيَّنةٌ، وقد أخَذَ الزَّائغونَ بهذا الاشتِباهِ -أي: تأنيثِ الملائكةِ- وقالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ ولهذا تُذكَرُ بصيغةِ التَّأنيثِ! ولكنْ لا شكَّ أنَّ هذا مِن بابِ التَّلبيسِ والتَّشبيهِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ الملائِكةَ بصيغةِ المُذكَّرِ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٥] ولم يَقُلْ: «يُسَبِّحْنَ بحمدِ ربِّهِنَّ»(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أنَّ الملائكةَ تتلو الذِّكْرَ -أي: تتلو القرآنَ، على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا يدُلُّ: على قيامِ الملائكةِ بعبادةِ اللهِ، وعلى فضيلةِ القرآنِ حيثُ تَتْلوه الملائكةُ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤).
والقاعدةُ أنَّه لا يكونُ القَسَمُ إلَّا باسم معظَّم. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٤٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ أهمِّيَّةُ التوحيدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أَقسَمَ بالملائكةِ على ثبوتِ هذا التَّوحيدِ، ولأنَّ اللهَ تعالى أكَّدَه بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ: «القَسَمِ»، «إنَّ»، «اللَّامِ»[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ احتُجَّ به على كَونِه تعالى خالِقًا لأعمالِ العِبادِ؛ لأنَّ أعمالَ العِبادِ مَوجودةٌ فيما بيْنَ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ كُلَّ ما حَصَل بيْنَ السَّمواتِ والأرضِ فاللهُ رَبُّه ومالِكُه؛ فهذا يدُلُّ على أنَّ فِعلَ العَبدِ حصَل بخَلقِ اللهِ[٢].

٧- التَّلازُمُ بيْنَ توحيدِ الألوهيَّةِ وتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ فإنَّ قَولَه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بعدَ قولِه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ كالدَّليلِ على تَوَحُّدِه بالألوهيَّةِ؛ وذلك أنَّه إذا كان مُتوَحِّدًا بالرُّبوبيَّةِ لَزِمَ أن يكونَ مُتوَحِّدًا في الألوهيَّةِ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ٢١]، فكيف تَعبُدونَ غَيْرَه ممَّن لم يَخلُقْكم ولا خَلَقَ أحدًا[٣]؟!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الإشارةُ إلى عِظَمِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما؛ لأنَّ اللهَ أضافَ الرُّبوبيَّةَ إليها في مَقامِ إقامةِ الحُجَّةِ، وهذا يدُلُّ على عِظَمِها، وأنَّها لِعِظَمِها صارتْ كالدَّليلِ المُلزِمِ لتوحيدِ الألوهيَّةِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بخَلْقِه؛ حيث زَيَّنَ لهم السَّقفَ الَّذي فوقَ رُؤوسِهم؛ لأنَّه لو كان مُظلِمًا حالِكًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣، ٢٤).

لا يَرونَ فيه شَيئًا مُنيرًا لَكان في ذلك شَيءٌ مِن الإيحاشِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى اعتنَى بهذا، فزَيَّنَه لهم(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ * وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ جَعَل سُبحانَه المصابيحَ زينةً لظاهِرِها ولباطِنِها بالحراسةِ مِن الشَّياطينِ؛ فهي زينةُ الظَّاهِرِ والباطِنِ(٢).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ * وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ فيه سؤالٌ: الشَّيطانُ مَخلوقٌ مِن النَّارِ؛ قال تعالى حِكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وأخبَرَ أنَّ الشُّهُبَ تَضُرُّهم وتُحرِقُهم، فكيف تُحرِقُ النَّارُ النَّارَ؟!

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه أضاف الشَّياطينَ والجانَّ إلى النَّارِ حَسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حَقِّ الإنسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدَميُّ طينًا حقيقةً، لكِنَّه كان طِينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ(٣)؛ فحقيقةُ النَّارِ لم تَبقَ فيهم على ما هي عليه قبْلَ خَلْقِهم منها، كما أنَّ حَقيقةَ الطِّينِ لم تَبقَ في الإنسِ على ما هي عليه قبْلَ خَلْقِهم منها، والإنسُ خُلِقوا مِنَ الطِّينَ ويَتضَرَّرونَ به كذلك فخَلقُ الشَّياطينِ مِن نارٍ لا يأبَى تضَرُّرَهم بها(٤).

الوَجهُ الثَّاني: يحتملُ أنَّ الشَّياطينَ وإن كانوا مِنَ النِّيرانِ إلَّا أنَّها نيرانٌ ضَعيفةٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٢).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((لقط المرجان في أحكام الجان)) للسيوطي (ص: ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ١١١).

فإذا وصَلَت نيرانُ الشُّهُبِ إليهم، وتلك النِّيرانُ أقوى حالًا منهم؛ لا جَرَمَ صار الأقوى مُبطِلًا للأضعَفِ، فالسِّراجُ الضَّعيفُ إذا رجَعَ في النَّارِ القَويَّةِ فإنَّه يَنطَفِئُ، فكذلك هاهنا(١).

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّه وإن كان الجِنِّيُّ مِن نارٍ فإنَّه ليس نارًا خالِصةً(٢).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾ في وَصْفِه بالمارِدِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يُصيبُ إخوانَه مِن الضُّرِّ بالشُّهُبِ: لا يَعِظُه عن تجديدِ مُحاولةِ الاستِراقِ؛ لِما جُبِلَ عليه طَبعُه الشَّيطانيُّ مِن المداوَمةِ على تلك السَّجايا الخَبيثةِ، كما لا يَنزجِرُ الفَراشُ عن التَّهافُتِ حولَ المِصباحِ بما يُصيبُ أطرافَ أجنحتِه مِن مَسِّ النَّارِ(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ * دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُعطي هذه الأجسامَ اللَّطيفةَ قدرةً يَصِلُونَ بها إلى السَّماءِ، ولا شكَّ أنَّهم قد يَصِلُونَ إلى السَّماءِ؛ وأنَّ لديهم مِن القوَّةِ ما هو أشدُّ مِن قوَّةِ البشرِ ذوي الأجسامِ الكثيفةِ(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ فَضيلةُ الملائكةِ؛ حيث وُصِفوا بأنَّهم الملأُ الأعلى؛ لعُلُوِّ مَكانِهم ومَكانتِهم؛ ففيهم العُلُوُّ الحِسِّيُّ والعُلُوُّ المَعنويُّ(٥).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ * دُحُورٗا ﴾ أنَّ الشَّياطينَ ليست أهلًا لِأنْ تَحُلَّ السَّماءَ، أو تَقعُدَ فيها؛ ولهذا يُقذَفونَ لإبعادِهم دُحُورًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٦- قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائمٌ، وفيه أنَّ الشَّياطينَ مُكلَّفونَ[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أنَّ هؤلاء الشَّياطينَ لا يَسَّمَّعون إلى الملأِ الأعلى السَّماعَ الكامِلَ بحيث يَنالونَ مُرادَهم؛ بسَبَبِ هذه الشُّهُبِ الَّتي تُحرِقُهم، فلا يستطيعُ الواحِدُ منهم أنْ يَسمعَ سماعًا كامِلًا يُصغي إلى الملأِ الأعلَى كما يُصغي الإنسانُ إلى شيخِه وإلى مُحَدِّثِه، بل تَجِدُهم يأتونَ إلى السَّماءِ خَطْفًا، فيَخْطَفون ما يَسمَعونَ دونَ أنْ يكونَ هناك مُهلَةٌ وتَأَنٍّ؛ لأنَّها تخشَى مِنَ الشُّهُبِ[٢].

١٨- أنَّ الشَّياطينَ قد تأتي بخَبرِ السَّماءِ؛ لِقَولِه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾، ولكِنْ قد يقولُ قائلٌ: إنَّ اللهَ قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، وحينَئذٍ لا يَصِلُ إلى مُرادِه؟

فالجوابُ: أنَّه قد دَلَّتِ النُّصوصُ الأُخرى على أنَّه قد يَصِلُ إلى مُرادِه، فيَصِلُ إلى الكاهنِ قبْلَ أنْ يُدْرِكَه الشِّهابُ[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أنَّ الشَّياطينَ أجسامٌ؛ لأنَّه لا يُخرَقُ ولا يُحرَقُ إلَّا ما كان جسمًا، وهو كذلك؛ فإنَّ الشَّياطينَ أجسامٌ، لكِنَّهم أجسامٌ لَطيفةٌ تَختَرِقُ الأجسامَ الكثيفةَ؛ أجسامَ البشرِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ الشَّيطانَ يجري مِن ابنِ آدمَ مَجْرَى الدَّمِ))[٤]، كما أنَّ الرُّوحَ تجري مِن الجَسَدِ مجرى الدَّمِ، والرُّوحُ جِسمٌ لطيفٌ، فكذلك الشَّياطينُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صَفيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها.

أجسامٌ لَطيفةٌ تخترِقُ الأجسامَ الكَثيفةَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾

- فاتِحةٌ مُناسِبةٌ لِأغراضِ السُّورةِ؛ وذلك بأنَّ القَسَمَ بالمَلائكةِ مُناسِبٌ لِإثباتِ الوَحدانيَّةِ؛ لِأنَّ الأصنامَ لم يَدَّعوا لها مَلائكةً، والَّذي تأتمِرُ المَلائكةُ بأمرِه هو الإلهُ الحَقُّ، ولِأنَّ المَلائِكةَ من جُملةِ المَخلوقاتِ الدَّالِّ خَلْقُها على عِظَمِ الخالِقِ، ويُؤْذِنُ القَسَمُ بأنَّها أشرَفُ المَخلوقاتِ العُلويَّةِ، ثمَّ إنَّ الصِّفاتِ الَّتي لُوحِظَتْ في القَسَمِ بها مُناسِبةٌ لِلأغراضِ المَذكورةِ بَعْدَها؛ فالصَّافَّاتُ يُناسِبُ عَظَمةَ رَبِّها، والزَّاجِراتُ يُناسِبُ قَذْفَ الشَّياطينِ عنِ السَّمَواتِ، ويُناسِبُ تَسييرَ الكَواكِبِ وحِفظَها مِنْ أنْ يُدرِكَ بَعضُها بَعضًا، ويُناسِبُ زَجْرَها النَّاسَ في المَحشَرِ، والتَّالياتُ ذِكرًا يُناسِبُ أحوالَ الرَّسولِ والرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما أُرسِلوا به إلى أقوامِهم. وفي الافتِتاحِ بالقَسَمِ تَشويقٌ إلى مَعرِفةِ المُقسَمِ عليه؛ لِيُقبِلَ عليه السَّامعُ بشَراشِرِه -أي: بنَفْسِه- حِرصًا ومحبَّةً؛ فقدِ استَكمَلَتْ فاتِحةُ السُّورةِ أحسَنَ وُجوهِ البَيانِ وأكمَلَها[٢].

- والقَسَمُ لِتأكيدِ الخَبَرِ مَزيدَ تأكيدٍ؛ لِأنَّه مُقتَضى إنكارِهِمُ الوَحدانيَّةَ، وهو قَسَمٌ واحِدٌ، والمُقسَمُ به نَوعٌ واحِدٌ مُختَلِفُ الأصنافِ، وهو طوائِفُ مِنَ المَلائكةِ، وعَطفُ هذه الصِّفاتِ بالفاءِ يَقتَضي أنَّ تلك الصِّفاتِ ثابتةٌ لِمَوصوفٍ واحِدٍ باعتِبارِ جِهةٍ تَرجِعُ إليها وَحْدَتُه، وهذا المَوصوفُ هو هذه الطَّوائِفُ مِنَ المَلائِكةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٢، ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٨٣).

- قَولُه: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ وَصْفُ المَلائِكةِ بهذا الوَصفِ يَجوزُ أنْ يَكونَ على حَقيقَتِه، فتَكونَ المَلائكةُ في العالَمِ العُلويِّ مُصطَفَّةً صُفوفًا، وهي صُفوفٌ مُتقَدِّمٌ بَعضُها على بَعضٍ، باعتِبارِ مَراتِبِ المَلائكةِ في الفَضلِ والقُربِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كِنايةً عن الاستِعدادِ لامتِثالِ ما يُلْقى إليهم مِن أمْرِ اللهِ تَعالى؛ قال تَعالى حِكايةً عنهم في هذه السُّورةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾[١] [الصَّافَّات: ١٦٥، ١٦٦].

- قَولُه: ﴿صَفّٗا﴾ وَ﴿زَجۡرٗا﴾ مَصْدَرانِ مُؤكِّدانِ لِمَا قَبْلَهما، أيْ: صَفًّا بَديعًا، وزَجْرًا بَليغًا. و﴿ذِكۡرًا﴾ في قَولِه: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ مَفعولُ (التَّالياتِ)، وهو أيضًا مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِمَا قَبْلَه؛ فإنَّ التِّلاوةَ مِن بابِ الذِّكرِ[٢].

- وما تُفيدُه الفاءُ في هذه الآياتِ مِن تَرتيبِ مَعطوفِها يَجوزُ أنْ يَكونَ تَرتيبًا في الفَضلِ؛ بأنْ يُرادَ أنَّ الزَّجرَ وتِلاوةَ الذِّكرِ أفضَلُ مِنَ الصَّفِّ؛ لِأنَّ الاصطِفافَ مُقدِّمةٌ لها، ووسيلةٌ، والوَسيلةُ دونَ المُتوَسَّلِ إليه، وأنَّ تِلاوةَ الذِّكرِ أفضَلُ مِنَ الزَّجرِ، باعتِبارِ ما فيها مِن إصلاحِ المَخلوقاتِ المَزجورةِ بتَبليغِ الشَّرائِعِ إنْ كانتِ التِّلاوةُ تِلاوةَ الوَحيِ المُوحَى به لِلرُّسُلِ، أو بما تَشتَمِلُ عليه التِّلاوةُ مِن تَمجيدِ اللهِ تَعالى؛ فإنَّ الأعمالَ تَتفاضَلُ تارةً بتَفاضُلِ مُتعلَّقاتِها، فيَكونَ مِن بابِ التَّرقِّي مِنَ الأدْنَى إلى الأعلى، وإمَّا على العَكسِ، أي: يُمكِنُ أنْ يكونَ الأوَّلُ هو الأفضَلَ، فيَكونَ مِن بابِ التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ لِلاعتِناءِ بالأهَمِّ، وما هو أوْلَى بالعِنايةِ وأجدَرُ بأنْ يَقرَعَ السَّمعَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٥)، =

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۞ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابُ القَسَمِ، وفائِدتُه تَعظيمُ المُقسَمِ به، وتأكيدُ المُقسَمِ عليه، والجُملةُ تَحقيقٌ لِلحَقِّ الَّذي هو التَّوحيدُ، بما هو المَألوفُ في كَلامِهم مِنَ التَّأكيدِ القَسَميِّ، وتَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِنَ البُرهانِ في قَولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾؛ فإنَّ وُجودَها وانتِظامَها على هذا النَّمَطِ البَديعِ مِن أوضَحِ دَلائِلِ وُجودِ الصَّانعِ وعِلْمِه وقُدرَتِه، وأعدَلِ شَواهِدِ وَحْدَتِه، ومَناطُ التَّأكيدِ صِفةُ (وَاحِدٌ)؛ لِأنَّ المُخاطَبينَ كانوا قد عَلِموا أنَّ لهم إلَهًا، ولكنَّهم جَعَلوه عِدَّةَ آلهةٍ، فأبطَلَ اعتِقادَهم بإثباتِ أنَّه واحِدٌ غَيرُ مُتعَدِّدٍ، وهذا إنَّما يَقتَضي نَفْيَ الإلهيَّةِ عنِ المُتعَدِّدينَ، وأمَّا اقتِضاؤُه تَعيينَ الإلهيَّةِ للهِ تعالى فذلك حاصِلٌ بأنَّهم لا يُنكِرونَ أنَّ اللهَ تَعالى هو الرَّبُّ العَظيمُ، ولكنَّهم جَعَلوا له شُرَكاءَ، فحَصَلَ التَّعدُّدُ في مَفهومِ الإلهِ؛ فإذا بَطَلَ التَّعدُّدُ تَعيَّنَ انحِصارُ الإلهيَّةِ في رَبٍّ واحِدٍ هو اللهُ تعالى[1].

- قَولُه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أتبَعَ تأكيدَ الإخبارِ عن وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى بالاستدلالِ على تَحقيقِ ذلك الإخبارِ؛ لِأنَّ القَسَمَ لِتأكيدِه لا يُقنِعُ المُخاطَبينَ؛ لِأنَّهم مُكذِّبونَ مَن بَلَّغَ إليهم القَسَمَ؛ فالجُملةُ

= ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٤٥).

قال الشنقيطي: (والأظهَرُ الَّذي لا يَلزَمُه إشكالٌ: أنَّ التَّرتيبَ بالفاءِ لِمُجَرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكريِّ. والإتيانُ بأداةِ التَّرتيبِ لمجَرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكريِّ فقط دونَ إرادةِ ترتيبِ الصِّفاتِ أو المَوصوفاتِ: أسلوبٌ عَربيٌّ مَعروفٌ جاء في القُرآنِ في مواضِعَ، وهو كثيرٌ في كلامِ العرَبِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٥، ٨٦).

استِئنافٌ بَيانيٌّ لِبَيانِ الإلهِ الواحِدِ، مع إدماجِ الاستِدلالِ على تَعيينه بذِكرِ ما هو مِن خَصائِصِه المُقتَضي تَفرُّدَه بالإلهيةِ، فقَولُه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خَبَرٌ لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ -على قولٍ- جَرَى حَذْفُه على طَريقةِ الاستِعمالِ في حَذفِ المُسنَدِ إليه مِنَ الكَلامِ الوارِدِ بعدَ تَقدُّمِ حديثٍ عنه؛ فإنَّ المُشرِكينَ مع غُلُوِّهم في الشِّركِ لم يَتجَرَّؤوا على ادِّعاءِ الخالِقيَّةِ لأصنامِهم، ولا التَّصرُّفِ في العوالِمِ العُلويَّةِ، وكيف يَبلُغونَ إليها وهمْ لَقًى -أي: مُلْقَون؛ لِهَوانِهم- على وَجهِ الأرضِ، فكان تَفَرُّدُ اللهِ بالخالِقيَّةِ أَفْحَمَ حُجَّةٍ عليهم في بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ، وشَمِلَ قولُه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ جَميعَ العوالِمِ المَشهودةِ لِلنَّاسِ بأجْرامِها وسُكَّانِها والمَوجوداتِ فيها[1].

- وإعادةُ ﴿رَبُّ﴾ في قَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾؛ لِغايةِ ظُهورِ آثارِ الرُّبوبيَّةِ فيها، وتَجدُّدِها كُلَّ يَومٍ مع كُلِّ شُروقٍ[2].

- وتَخصيصُ المَشارِقِ بالذِّكرِ؛ لأنَّها أحوالٌ مَشهودةٌ كُلَّ يَومٍ، ولِأنَّها مَطالِعُ الأنوارِ، والإبصارُ بها أكلَفُ، وذِكرُها يُغْني عن ذِكرِ المَغارِبِ؛ إذْ ذاك مَفهومٌ مِنَ المَشارِقِ[3]، أو أنَّه خصَّها توطئةً لِمَا ذَكَر بعدَها مِن تزيينِ السَّماءِ بزينةِ الكواكِبِ، وجَعْلِها حِفظًا من كلِّ شيطانٍ، فذِكْرُ المشارقِ أنسَبُ بهذا المعنى وألْيَقُ[4]، أو لأنَّ الشُّروقَ أقوى حالًا مِن الغُروبِ، وأكثَرُ نفعًا مِن الغُروبِ؛ فذُكِرَ المشرقُ تنبيهًا على كثرةِ إحسانِ اللهِ تعالى على عبادِه؛ ولهذه الدَّقيقةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

استدَلَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ بالمَشرِقِ، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾[1] [البقرة: ٢٥٨].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث جَمَعَ المَشارِقَ هنا في قَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، وحَذَفَ مُقابِلَه، وثَنَّاه في سُورةِ (الرَّحمنِ)، وجَمَعَه في (المَعارِجِ)، وأفرَدَه في (المُزَّمِّلِ)، مع ذِكرِ مُقابِلِه في الثَّلاثةِ؛ قيل: لِأنَّ القُرآنَ نَزَلَ على المَعهودِ من أساليبِ كَلامِ العَرَبِ وفُنونِه، ومنها الإجمالُ والتَّفصيلُ، والذِّكرُ والحَذفُ، والجَمعُ والتَّثنيةُ والإفرادُ، باعتِبارات مُختلِفةٍ، فأفرَدَ وأجمَلَ في (المُزَّمِّلِ) بقَولِه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المزمل: ٩]، أرادَ مَشرِقَ الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغرِبَهما، وجَمَعَ وفَصَّلَ في (المَعارِجِ) بقَولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، أرادَ جَميعَ مَشارِقِ السَّنةِ ومَغارِبِها، وهي تَزيدُ على سَبع مِئةٍ، وثَنَّى وفَصَّلَ في (الرَّحمنِ) بقَولِه: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، أرادَ مَشرِقَي الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغرِبَيْهما، وجَمَعَ وحَذَفَ هنا بقَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، أرادَ جَميعَ مَشارِقِ السَّنةِ، واقتَصَرَ عليه؛ لِدَلالَتِه على المَحذوفِ، وخَصَّ ما هنا بالجَمعِ مُوافَقةً لِلجُموعِ أوَّلَ السُّورةِ، وبالحَذفِ مُناسَبةً لِلزِّينةِ في قَولِه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافَّات: ٦]؛ إذِ الزِّينةُ إنَّما تَكونُ في الأغلَبِ بالضِّياءِ والنُّورِ، وهما يَنْشآنِ مِنَ المَشرِقِ، لا مِنَ المَغرِبِ، وما في (الرَّحمنِ) بالتَّثنيةِ، مُوافَقةً لِلتَّثنيةِ في ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وفي ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦]، وبذِكرِ المُتقابِلَينِ مُوافَقةً لِبَسطِ صِفاتِه تَعالى وإنْعاماتِه ثَمَّ، وما في (المَعارِجِ) بالجَمعِ؛ مُوافَقةً لِلجَمعِ قَبلَه وبَعْدَه، وبذِكرِ المتقابلَينِ موافقةً لِكثرةِ التَّأكيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧).

في القَسَمِ وجَوابِه، وما في (المُزَّمِّلِ) بالإفرادِ مُوافَقةً لِمَا قَبْلَه مِن إفرادِ ذِكرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما بعْدَه من إفرادِ ذِكرِ اللهِ تَعالى، وبذِكرِ المُتقابِلَينِ مُوافَقةً لِلحَصرِ في قَولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل: ٩]، ولِبَسطِ أوامِرِ اللهِ تَعالى لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ لَطائِفِ صُنْعِه، وبَديعِ خَلقِه[٢].

- جُملةُ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ تَنزِلُ مِن جُملةِ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصَّافَّات: ٥] مَنزِلةَ الدَّليلِ على أنَّه رَبُّ السَّمَواتِ، واقتَصَرَ على رُبوبيَّةِ السَّمَواتِ؛ لِأنَّ ثُبوتَها يَقتَضي رُبوبيَّةَ الأرضِ بطَريقِ الأَوْلى، وأدمَجَ فيها مِنَّةً على النَّاسِ -بأنْ جَعَل لهم في السَّماءِ زينةً؛ الكَواكِبَ، تَروقُ أنظارَهم؛ فإنَّ مَحاسِنَ المَناظِرِ لَذَّةٌ لِلنَّاظِرينَ-، ومِنَّةً على المُسلِمينَ بأنْ جَعَل في تلك الكَواكِبِ حِفظًا مِن تَلَقِّي الشَّياطينِ لِلسَّمعِ؛ لِقَطعِ سَبيلِ اطِّلاعِ الكُهَّانِ على بَعضِ ما سيَحدُثُ في الأرضِ؛ فلا يَفتِنوا النَّاسَ في الإسلامِ، كما فَتَنوهم في الجاهليَّةِ، ولِيَكونَ ذلك تَشريفًا لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنْ قُطِعتِ الكِهانةُ عِندَ إرسالِه[٣]، ولِلإشارةِ إلى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠، ٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٦-٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦، ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٤٣).

(٣) وذلك على القولِ بأنَّه زال استِراقُهم للسَّمعِ؛ ولذلك زالت الكِهانةُ. يُنظر: ((أعلام النبوة)) للماوَرْدي (ص: ١٦٧).

ويُنظَرُ ما تقدَّمَ مِن الخلافِ في قَذفِ الشَّياطينِ: هل كان موجودًا قبلَ مَبعَثِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو كان لأجْلِ مَبعَثِه؟ (ص: ٣٢٢).

فيها مَنفعةً عَظيمةً دينيَّةً، وهي قَطعُ دابرِ الشَّكِّ في الوَحْيِ، كما أنَّ فيها مَنفَعةً دُنيويَّةً، وهي الزِّينةُ، والاهتِداءُ بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ[١].

- قَولُه: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجرِّ، بَدَلٌ مِن (زِينَةٍ)، على أنَّ المُرادَ بها الاسمُ، أيْ: ما يُزيَّنُ به، لا المَصدرُ؛ فإنَّ الكَواكبَ بأنْفُسِها وأوضاع بَعضِها من بَعضٍ زِينةٌ، وأيُّ زِينةٍ. وقُرِئَ بالإضافةِ[٢]؛ على أنَّها بَيانيَّةٌ؛ لِمَا أنَّ الزِّينةَ مُبهَمةٌ صادِقةٌ على كُلِّ ما يُزانُ به، فتَقَعُ الكَواكِبُ بَيانًا لها. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بزينةِ الكَواكِبِ ما زُيِّنتْ هي به، وهو ضَوؤُها[٣].

- قَولُه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ إقْحامُ لَفظِ (زِينَةٍ) تَأكيدٌ، والباءُ لِلسَّببيَّةِ، أيْ: زَيَّنَّا السَّماءَ بسَبَبِ زِينةٍ؛ الكَواكِبِ، فكأنَّه قيل: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بالكَواكِبِ تَزيينًا، فكان ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ في قُوَّةِ: بالكَواكِبِ تَزيينًا، فقَولُه: ﴿بِزِينَةٍ﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِفعلِ ﴿زَيَّنَّا﴾ في المَعنى، ولكنْ حُوِّلَ التَّعليقُ، فجُعِلَ (زِينَةٍ) هو المُتعَلِّقَ بـ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لِيُفيدَ مَعنى التَّعليلِ ومعنى الإضافةِ في تركيبٍ واحِدٍ على طَريقةِ الإيجازِ؛ لِأنَّه قد عُلِمَ أنَّ الكَواكِبَ زِينةٌ مِن تَعليقِه بفِعلِ ﴿زَيَّنَّا﴾ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى إعادةِ (زِينَةٍ) لولا ما قُصِدَ مِن مَعنى التَّعليلِ والتَّوكيدِ[٤].

- وخَصَّ سَماءَ الدُّنيا بالذِّكرِ وبزينةِ الكَواكِبِ، مع أنَّ بَقيَّةَ السَّمَواتِ مُزيَّنةٌ بذلك؛ لِأنَّها الَّتي تُشاهَدُ بالأبصارِ، والحِفظُ مِنَ الشَّياطينِ إنَّما هو فيها وَحْدَها[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٧).

(٢) يُنظر ما تقدم (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَحِفْظًا﴾ إمَّا أنْ يكونَ مَعطوفًا على ﴿بِزِينَةٍ﴾ من حيثُ المَعنى؛ لِأنَّه في الحَقيقةِ مَفعولٌ له لِقَولِه: ﴿زَيَّنَّا﴾، والتَّقديرُ: خَلَقْنا الكَواكِبَ زِينةً وحِفظًا، وإمَّا أنْ يُقدَّرَ النَّاصِبُ ويُؤخَّرَ، وهو (زَيَّنَّاها)؛ لِيُفيدَ الاهتِمامَ، أو يُقدَّمَ، بأنْ يُقالَ: وحَفِظْناها حِفظًا؛ لِيُفيدَ التَّوكيدَ. وفيه تَوكيدٌ آخَرُ، ودَلالةٌ على أنَّ الحِفظَ أهَمُّ مِنَ التَّزيينِ وأعْنَى؛ ولذلك أتْبَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ قَولَه: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] [الصَّافَّات: ٨].

- وقال في سورة (النساء) ﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]، وجاءَتْ لَفظةُ ﴿مَّارِدٍ﴾ هنا؛ مُراعاةً لِلفَواصِلِ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾

- قَولُه: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كلامٌ مُنقَطِعٌ، مُبتَدأٌ، مُستَطرَدٌ لِمَا عليه حالُ المُستَرِقةِ لِلسَّمعِ، بعدَ بَيانِ حِفظِ السَّماءِ عنهم، مع التَّنبيهِ على كَيفيَّةِ الحِفظِ، وما يَعتَريهم في أثناءِ ذلك مِنَ العَذابِ، وأنَّهم لا يَقدِرونَ أنْ يَستَمِعوا إلى كَلامِ المَلائِكةِ، أو يَتسَمَّعوا، وهمْ مَقذوفونَ بالشُّهُبِ، مَدْحُورونَ عن ذلك، إلَّا مَن أُمهِلَ حتَّى خَطِفَ خَطفةً، واستَرَقَ استِراقةً؛ فعِندَها تُعاجِلُه الهَلَكةُ بإتْباعِ الشِّهابِ الثَّاقِبِ[3].

- مِن قَولِه: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ إلى قَولِه تَعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

ثَاقِبٌ ﴾[الصَّافَّات: ١٠] اعتراضٌ بينَ جُملةِ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا ﴾[الصَّافَّات: ٦]، وجُملةِ ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ ﴾[الصَّافَّات: ١١]، قُصِدَ منه وَصْفُ قِصَّةِ طَردِ الشَّياطينِ. وعلى تَقديرِ قَولِه: ﴿ وَحِفۡظٗا ﴾[الصَّافَّات: ٧] مَصدَرًا نائبًا مَنابَ فِعلِه، يَجوزُ جَعلُ جُملةِ ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ ﴾ بيانًا لِكَيفيَّةِ الحِفظِ، فتَكونُ الجُملةُ في مَوقِعِ عَطفِ البَيانِ مِن جُملةِ ﴿ وَحِفۡظٗا ﴾، أي: انتَفَى بذلك الحِفظِ سَمعُ الشَّياطينِ لِلمَلأِ الأعلى[١].

- قَولُه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ لَفظُ (يَسَّمَّعُ) المُعَدَّى بنَفْسِه يُفيدُ الإدراكَ، والمُعَدَّى بـ(إلى) يُفيدُ الإصغاءَ مع الإدراكِ، مُبالَغةً وتَهويلًا لِمَا يَمنَعُهم عنه[٢]. وقيل: حرفُ (إلى) يُشيرُ إلى تضمينِ فِعلِ ﴿يَسَّمَّعُونَ ﴾ معنى (ينتَهونَ)[٣].

- قَولُه: ﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ وَصْفُ المَلأِ بالأعلى؛ لِتَشريفِ المَوصوفِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴾ إسنادُ فِعلِ (يُقْذَفُونَ) لِلمَجهولِ؛ لِأنَّ القاذِفَ مَعلومٌ، وهمُ المَلائِكةُ المُوكَّلونَ بالحِفظِ المُشارِ إليه في قَولِه تَعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴾[الجن: ٨][٥]. وقيل: لأنَّ النَّافِعَ قَذفُهم، لا تعيينُ قاذِفِهم، مع أنَّه أدَلُّ على القُدرةِ الإلهيَّةِ عَزَّت وجَلَّت[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٩٢، ٩٣).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾

- قَولُه: ﴿ دُحُورًا ﴾ عِلَّةٌ لِلقَذفِ، أي: لِلدُّحورِ، أو حالٌ بمَعنى مَدحورينَ، أو مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِلقَذفِ؛ لِأنَّهما مِن وادٍ واحِدٍ[(١)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾

- الخَطفُ: ابتِدارُ تَناوُلِ شَيءٍ بسُرعةٍ، والخَطفةُ: المَرَّةُ منه، فهو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِـ (خَطِفَ)؛ لِبيانِ عَدَدِ مَرَّاتِ المَصدَرِ، أيْ: خَطفةً واحِدةً، وأُريدَ به هنا الإسراعُ بسَمعِ ما يَستَطيعونَ سَمْعَه مِن كَلامٍ غَيرِ تامٍّ[(٢)]، والمُرادُ: اختِلاسُ كَلامِ المَلائِكةِ مُسارَقةً، كما يُعرِبُ عنه تَعريفُ ﴿الْخَطْفَةَ ﴾[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

الآيات (١١-٢١)

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾: أي: سَلْهم، واستَخبِرْهم، وأصلُ (فتي): يدُلُّ على تبيينِ حُكمٍ[١].

﴿ لَّازِبِۭ ﴾: أي: مُلتَصِقٍ ثابتٍ، وأصلُ (لزب): يدُلُّ على ثُبوتِ شَيءٍ، ولُزومِه[٢].

﴿ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴾: أي: يُبالِغونَ في السُّخْريةِ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على احتِقارٍ واستِذلالٍ[٣].

﴿ دَٰخِرُونَ ﴾: أي: صاغِرونَ أذِلَّاءُ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، =

﴿زَجۡرَةٞ﴾: أي: نَفخةٌ، والزَّجرةُ: الصَّيحةُ بشِدَّةٍ وانتهارٍ، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[1].

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾: الوَيْلُ: كَلِمةٌ تُقالُ عند الهَلَكةِ، وهي دعاءٌ بالهلاكِ والعذابِ[2].

﴿ٱلدِّينِ﴾: أي: الجزاءِ والمحاسبةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانقيادِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتوبيخِ هؤلاء المشركينَ: فاسأَلْ -يا مُحمَّدُ- أولئك المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ: أهُم أعظَمُ خَلْقًا أمْ مَن خلَقْنا، كالسَّمواتِ والأرضِ وغَيرِهما؟! إنَّا خلَقْناهم مِن طينٍ مُلتَصِقٍ بَعضُه ببَعضٍ!

بل عَجِبْتَ -يا محمَّدُ- مِن تَكذيبِهم بالبَعثِ، والحالُ أنَّهم يَسخَرونَ مِن تعَجُّبِك ومِن إنكارِك عليهم ذلك، وإذا ذُكِّروا بالقُرآنِ فإنَّهم لا يَنتَفِعونَ بالتَّذكيرِ، وإذا رأوا مُعجِزةً تدُلُّ على صِدقِك يُبالِغونَ في السُّخريةِ وفي الاستِهزاءِ. وقالوا: ما هذا الَّذي جِئْتَنا به إلَّا سِحرٌ واضِحٌ، أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمبعوثونَ بعدَ ذلك، وآباؤُنا الَّذين ماتوا قَبْلَنا كذلك يُبعَثونَ؟!

قُلْ لهم -يا محمَّدُ: نَعَم، سيَبعثُكم اللهُ أحياءً، وأنتم أذِلَّاءُ صاغِرونَ! فإنَّما هي

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

صَيحةٌ واحِدةٌ، فإذا هم قِيامٌ مِن قُبورِهم يَنظُرونَ، يَقولونَ نادِمينَ على تَكذيبِهم بالبَعثِ: يا وَيْلَنا، هذا يَومُ الحِسابِ والجَزاءِ، فيُقالُ لهم: هذا يومُ الفَصلِ والقَضاءِ الَّذي كُنتُم تُكَذِّبونَ به في الدُّنيا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ بإثباتِ ما يَدُلُّ على وحدانيَّته، وهو: خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، وخَلْقُ المشارِقِ والمغارِبِ، فلمَّا أحكَمَ الكلامَ في هذا البابِ؛ فرَّع عليها إثباتَ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ والقيامةِ[1].

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾.

أي: فاسأَلِ المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ -يا محمَّدُ-: أهُم أقوى وأعظَمُ خَلقًا أم مَن خَلَقْنا سِواهم؛ كالسَّمَواتِ والأرضِ والكواكِبِ، والملائكةِ والشَّياطينِ[2]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤، ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٦).

قال الألوسي: (﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ أي: أقوى خِلقةً وأمْتَنُ بِنْيَةً، أو أصعَبُ خَلقًا وأشَقُّ إيجادًا). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٣).

ممَّن اختار في الجملة أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ أي: مَن عَدَدْنا خَلْقَه ممَّن تقدَّم ذِكرُه من الملائكةِ والشَّياطينِ والسَّمواتِ والأرضِ إلى غيرِ ذلك مِن المخلوقاتِ العظيمةِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) =



= (٤/ ٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٣).

قال ابنُ جُزَي: (ومَقصَدُ الآيةِ: إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في إنكارِهم البَعثَ في الآخرةِ، كأنَّه يقولُ: هذه المخلوقاتُ أشَدُّ خَلقًا مِنكم، فكما قَدَرْنا على خَلْقِهم كذلك نَقدِرُ على إعادتِكم بعدَ فَنائِكم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩).

وقال الرازي: (التَّقديرُ كأنَّه تعالى يقولُ: استَفْتِ يا محمَّدُ هؤلاء المُنكِرين أهُمْ أشَدُّ خَلقًا مِن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وخَلقِ المَشارِقِ والمَغارِبِ، وخَلقِ الشَّياطينِ الَّذين يَصعَدون الفلَكَ؟! ولا شكَّ أنَّهم يَعترِفون بأنَّ خَلقَ هذا القِسْمِ أشَقُّ وأشَدُّ في العُرفِ مِن خَلقِ القِسمِ الأوَّلِ، فلمَّا ثبَت بالدَّلائلِ المذكورةِ في إثباتِ التَّوحيدِ كَوْنُه تعالى قادرًا على هذا القِسمِ الَّذي هو أشَدُّ وأصعبُ، فبِأَنْ يَكونَ قادرًا على إعادةِ الحياةِ في هذه الأجسادِ كان أَوْلى، ونظيرُ هذه الدَّلالةِ قولُه تعالى في آخرِ يس: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢).

وقيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: إيجادُهم بعدَ موتِهم أشَدُّ خَلقًا وأشَقُّ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِن هذه المخلوقاتِ؟ فلا بدَّ أن يُقِرُّوا أنَّ خَلقَ السَّمَواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خلقِ النَّاسِ؛ فيَلزَمُهم إذَن الإقرارُ بالبَعثِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

وقيل: المعنى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: مِن الأممِ الخاليةِ. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٠).

والمعنى على ذلك: أهُمْ أشَدُّ خَلقًا أمْ مَن خلَقْنا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ قَبْلَهم، وقد أهلَكْنا أولئك حينَ كذَّبوا وكَفَروا وكانوا أشَدَّ منهم قُوَّةً وأعظَمَ بَطشًا، فما ظَنُّ هؤلاء؟! يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٧٤).

قال الزمخشري: (وليس هذا القولُ بملائم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)

قال الطِّيبي: (لأنَّ ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مُطْلَقٌ يُحمَلُ على المُقيَّدِ، ولم يَسبِقْ للأُمَمِ الماضيةِ ذِكرٌ، وقد سبق ذِكرُ الملائكةِ والسَّمواتِ وغيرِهما؛ فوجَبَ تقييدُه بها... وأيضًا الفاءُ في قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يقتضي ترتُّبَ الثَّاني على الأوَّلِ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٧). =

كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ [النازعات: ٢٧].

ثُمَّ بَيَّن الله تعالى أنَّهم خُلِقوا مِن شَيءٍ ضعيفٍ، فقال[١]:

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾.

أي: إنَّا ابتَدَأْنا خَلْقَ النَّاسِ مِن طينٍ لاصقٍ[٢].

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قرَّر الدَّليلَ القاطِعَ في إثباتِ إمكانِ البَعثِ والقيامةِ؛ حكى عن المُنكِرينَ أشياءَ، أوَّلُها: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتعجَّبُ مِن إصرارِهم على الإنكارِ، وهم يَسخَرونَ منه في إصرارِه على الإثباتِ[٣]!

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿عَجِبْتُ﴾ بضَمِّ التَّاءِ، على معنى: إخبارِ اللهِ تعالى عن نَفْسِه بالعَجَبِ؛ إمَّا مِن إنكارِهم البَعثَ، أو سُخريتِهم مِنَ الرَّسولِ والقُرآنِ، وتَكذيبِهم به، أو مِن اتِّخاذِهم شَريكًا مع اللهِ تعالى، وعلى هذه القِراءةِ فالآيةُ مِن آياتِ الصِّفاتِ، والعَجَبُ صِفةٌ للهِ يجِبُ الإيمانُ بها على الوَجهِ الَّذي يَليقُ باللهِ سُبحانَه وتعالى[٤].

= ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦). =

٢- قِراءةُ ﴿عَجِبْتَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ، خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)﴾.

أي: بل عَجِبْتَ -يا مُحمَّدُ- مِن تكذيبِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ، وهم بخِلافِ ذلك يَسخَرونَ ممَّا تَقولُ في شأنِ البَعثِ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠١، ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٦ - ٦٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠١، ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٦، ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣، ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

قال ابن عطيَّة: (أي: عَجِبتَ يا محمَّدُ مِن إعراضِهم عن الحقِّ، وعَماهُم عن الهُدى، وأن يَكونوا كافرين مع ما جِئتَهم به مِن عندِ الله). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٧).

وقيل: المرادُ: عَجَبُه ممَّا نَزَل عليه مِن القُرآنِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٤).

قال القُرطبي: (﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواوُ واوُ الحالِ، أي: عَجِبتَ منهم في حالِ سُخريتِهم. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قَولِه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾، ثمَّ استأنفَ فقال: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: مِمَّا جئتَ به إذا تَلَوْتَه عليهم. وقيل: يَسخَرونَ منك إذا دعَوْتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١).

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ١٣﴾.

أي: وإذا ذُكِّرَ المُشرِكونَ بالقُرآنِ فإنَّهم لا يَنتَفِعونَ بالتَّذكيرِ[1]!

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إعراضَهم عن المسموعِ؛ أتْبَعَه إعراضَهم عن المرئيِّ[2].

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ١٤﴾.

أي: وإذا رأَوا مُعجِزةً ظاهِرةً تَدُلُّ على صِدقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسخَرونَ منها[3]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣، ٥١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

قال ابن عاشور: (والتَّذكيرُ بأنْ يَذْكُروا ما يَغْفُلونَ عنه مِن قُدْرةِ اللهِ تعالى عليهم، ومِن تنظيرِ حالِهم بحالِ الأُمَمِ التي استأْصَلَها اللهُ تعالى، فلا يَتَّعِظوا بذلك عنادًا، فأَطْلَقَ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ على أثَرِ الفعلِ، أي لا يَحصُلُ فيهم أثَرُ تَذَكُّرِ ما يُذَكَّرونَ به وإنْ كانوا قد ذَكَروا ذلك. ويجوزُ أنْ يُرادَ: لا يَذْكُرونَ ما ذُكِّروا به، أي: لِشِدَّةِ إعراضِهم عن التَّأمُّلِ فيما ذُكِّروا به لاستِقرارِ ما ذُكِّروا به في عقولِهم، فلا يَذْكُرونَ ما هم غافِلونَ عنه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٧).

وقيل: ذُكِّروا ما يَعرِفونَه في فِطَرِهم وعُقولِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٧).

قيل: معنى: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾: يَسْخَرونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: أبو عُبَيدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٦٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١). =

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: ما هذا الَّذي جاءَنا به محمَّدٌ إلَّا سِحرٌ في غايةِ الوُضوحِ(١).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [يونس: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [هود: ٧].

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى يُبيِّنُ السَّبَبَ الَّذي يَحمِلُ الكافِرينَ على الاستِهزاءِ بالقَولِ بالبَعثِ، وعلى عَدَمِ الالتِفاتِ إلى الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على صِحَّةِ القَولِ، وعلى

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥).
وقيل: المرادُ: أنَّهم يَطلُبونَ السُّخريةَ بها، بأن يَدْعُوَ بَعضُهم بعضًا لذلك؛ مِن شِدَّةِ استِهزائِهم.
وممَّن قال بذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٠٣).
وقيل: المعنى: يُبالِغون في السُّخريةِ، فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٦).
قيل: المرادُ أنَّ المُعجِزةَ الَّتي جاءَتهم سِحرٌ. وممَّن قال بذلك: الرازيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١).
وقيل: المرادُ أنَّ دعوى إعادةِ الحياةِ بعدَ البِلى كلامُ سِحرٍ مُبينٌ، أي: كلامٌ لا يُفهَمُ، قُصِدَ به سِحرُ السَّامِعِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٤).

الاستِهزاءِ بجَميعِ المُعجِزاتِ، وهو قَولُهم[١]:

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ استِبعادًا وإنكارًا لوُقوعِ البَعثِ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمبعوثونَ أحياءً مِن بعدِ ذلك[٢]؟!

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: أوَيُبعَثُ أيضًا آباؤُنا الَّذين ماتوا قَبْلَنا، وطال مُكثُهم تحتَ الأرضِ، وتلاشَت أجزاؤُهم، فلم يَبقَ لها أثَرٌ[٣]؟!

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى إمكانَ البَعثِ؛ بيَّنَ وُقوعَه[٤]، فقال:

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: نَعَم، سيَبعثُكم اللهُ أحياءً بعدَ أن تَصيروا تُرابًا وعِظامًا، ويَبعَثُ آباءَكم الأوَّلينَ، وأنتم أذِلَّاءُ صاغِرونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٦، ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦، ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩). =

كما قال تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ ما يدُلُّ على إمكانِ البَعثِ والقيامةِ، ثمَّ أردَفَه بما يدُلُّ على وُقوعِ القيامةِ؛ ذكَرَ في هذه الآياتِ بعضَ تفاصيلِ أحوالِ القيامةِ[1]:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: فإنَّما هي[2] صَيحةٌ واحِدةٌ بلا تَكرارٍ، فيَخرُجونَ مِن الأرضِ أحياءً يَنظُرونَ[3].

= وممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادِرُ السَّابقةُ.

قال القرطبي: (﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغِرونَ أذِلَّاءُ؛ لأنَّهم إذا رأَوا وُقوعَ ما أنكَروه فلا محالةَ يَذِلُّونَ. وقيل: أي: ستَقومُ القيامةُ وإن كرِهتُم، فهذا أمرٌ واقِعٌ على رَغمِكم، وإن أنكَرْتُموه اليومَ بزَعمِكم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ المذكورينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (الضَّميرُ مَرجِعُه مُستفادٌ مِن الخبرِ، أي: فإنَّما الزَّجرةُ لِبَعثِهم زَجرةٌ واحِدةٌ... وقال بَعضُهم ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: البَعثةُ الَّتي يُبعَثونَها، أي: ما بَعْثَتُهم إلَّا زَجرةٌ واحِدةٌ، أي: بزَجرةٍ واحِدةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥١).

وقال ابنُ عاشور: (وضميرُ ﴿هِيَ﴾ ضميرُ القِصَّةِ، وهو ضميرُ الشَّأْنِ. واختيرَ الضَّميرُ المؤَنَّثُ؛ لِيَحْسُنَ عَوْدُه إلى ﴿زَجْرَةٌ﴾، وهذا مِن أحسَنِ استِعمالاتِ ضميرِ الشَّأْنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩، ١٠٠). =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... يُصعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مَطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾))[1].

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ إذا بعَثَهم اللهُ يومَ القيامةِ نادِمينَ ومُتحَسِّرينَ على تَكذيبِهم بالبَعثِ:

يا وَيْلَنا، هذا يومُ الحِسابِ والجَزاءِ[2].

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾.

أي: فيُقالُ لهم يومَ القيامةِ: هذا يومُ حُكمِ اللهِ وقَضائِه بيْنَ عبادِه، الَّذي كنتُم

= قال ابن جُزَي: (﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن النَّظَرِ بالأبصارِ، أو مِنَ الانتِظارِ، أي: يَنتَظِرونَ ما يُفعَلُ بهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨).

وممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٧).

واختلَف أصحابُ هذا القَولِ في هذا النَّظَرِ: إلى أيِّ شَيءٍ يكونُ؟ فقيل: يَنظُرونَ إلى ما كانوا يُوعَدونَه مِن قيامِ السَّاعةِ وأهوالِها، ويُعايِنونَه. وقيل: يُبصِرونَ ما يَفعَلُ اللهُ بهم مِن العَذابِ. وقيل: يَنظُرُ بَعضُهم إلى بعضٍ. تُنظر: المصادرُ السَّابقةُ.

وممَّن اختار أنَّ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: يَنتَظِرونَ: السَّمعانيُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٠).

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

في الدُّنيا تُكذِّبونَ به[١].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨، ٣٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ المخلوقُ مِن الماءِ والطِّين بَشَرٌ ضَعيفٌ، لا يَملِكُ لِنَفْسِه ولا لِمَن تعلَّقَ به: جَلْبَ مَنفعةٍ، ولا دَفْعَ مَضَّرةٍ؛ فإنَّ الماءَ والطِّينَ مُنفَعِلٌ لا فاعِلٌ، وعاجِزٌ مَهينٌ لا قَويٌّ مَتينٌ، فحقيقٌ بابنِ الماءِ والطِّينِ أن يَشْخَصَ عنه القلبُ لا إليه، وأنْ يُعَوِّلَ على خالقِه وحْدَه لا عليه، وأن يَجعلَ رغبتَه كلَّها فيه وفيما لَدَيْه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ أنَّه يَجِبُ على الدُّعاةِ إلى الحَقِّ أن يَصبِروا على ما يَنالُهم مِن النَّاسِ مِن السُّخْريةِ، ولْيَعلَموا أنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ، وإذا كان الرُّسُلُ قد سَخِرَ النَّاسُ منهم؛ فكيفَ بمَن دونَهم[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

قال ابنُ عطيَّةَ: (أجمَعوا أنَّ قولَه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ: ليس مِن قولِ الكَفَرةِ، وإنَّما المعنى: يُقالُ لهم...). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨).

وذكر الزمخشريُّ احتمالًا أن يكونَ مِن كلامِ الكَفَرةِ بعضِهم مع بعضٍ، وجَوَّزَه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

واستظهره أبو حيَّانَ، قال: (والظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ من كلامِ بعضِ الكفَّارِ لبعضٍ، إلى آخِرِ الجُملتَينِ، أقَرُّوا بأنَّه يومُ الجزاءِ، وأنَّه يومُ الفصلِ، وخاطَبَ بعضُهم بعضًا). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٣).

٣- قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥] والتعجُّبُ مِن الباطلِ إنكارًا له، والتعجُّبُ مِن الباطل مبالغةً في إنكارِه واستقباحِه لا يصدرُ إلَّا مِن قلبٍ مملوءٍ بالإيمانِ، منوَّرٍ بالعرفانِ، وهو وسيلةٌ إلى تركِ ما أنكَره[١].

٤- أنَّه يجبُ الرَّدُّ على شُبُهاتِ أهلِ الباطلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَقُلْ: اترُكْهم، بل قال: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ أنَّه ينبغي في المُجادَلةِ أنْ يُؤتَى بما يُقِرُّ به الخَصمُ؛ لِيَكونَ حُجَّةً عليهم؛ لأنَّهم سَيُقِرُّون بأنَّ مَن خَلَقَه اللهُ أشَدُّ خَلقًا منهم؛ فإذا أقَرُّوا بذلك قامَت عليهم الحُجَّةُ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ مَن تأمَّلَ في هذه الآياتِ عَلِمَ أنَّها ورَدَت على أحسَنِ وُجوهِ التَّرتيبِ؛

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (يجبُ أن يُعلَمَ أنَّ الأمورَ المعلومةَ مِن دينِ المسلمينَ لا بُدَّ أن يكونَ الجوابُ عمَّا يُعارِضُها جوابًا قاطعًا لا شُبْهةَ فيه، بخِلافِ ما يَسلُكُه مَن يَسلُكُه من أهلِ الكلامِ الَّذين يَزعُمون أنَّهم يُبَيِّنون العِلمَ واليقينَ بالأدلَّةِ والبراهينِ، وإنَّما يستفيدُ النَّاظرُ في كلامِهم كثرةَ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ... فكلُّ مَن لم يُناظِرْ أهلَ الإلحادِ والبِدَعِ مُناظَرةً تَقطَعُ دابِرَهم؛ لم يكُنْ أعطى الإسلامَ حقَّه، ولا وفَى بموجَبِ العِلمِ والإيمانِ، ولا حصَل بكلامِه شِفاءُ الصُّدورِ، وطُمأنينةُ النُّفوسِ، ولا أفاد كلامُه العِلمَ واليقينَ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٩).

وذلك لأنَّه بيَّن الإمكانَ بالدَّليلِ العَقليِّ، وبيَّن وُقوعَ ذلك المُمكِنِ بالدَّليلِ السَّمعيِ، ومِنَ المعلومِ أنَّ الزِّيادةَ على هذا البَيانِ كالأمرِ المُمتَنِعِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ ﴾ تَفاوُتُ الخَلقِ في العِظَمِ، فتَكونُ المخلوقاتُ مُتفاوِتةً في عِظَمِها ودَلالتِها على قُدرةِ اللهِ؛ لأنَّ ما كان أعظَمَ كان أدَلَّ على القُدرةِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾ الإشارةُ إلى إمكانِ البَعثِ، وأنَّ اللهَ قادِرٌ عليه؛ وَجْهُه: أنَّ القادرَ على هذه المخلوقاتِ الَّتي هي أشَدُّ خَلْقًا مِنهم، وعلى خَلقِهم مِن الطِّينِ- قادِرٌ على إعادتِهم[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾ بَيانُ قُدرةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ حيثُ خَلَقَ هذا الإنسانَ الخَصيمَ المُبينَ مِن هذا الطِّينِ[٤]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ ﴾ عُلُوُّ منزلةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث اعتبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ تَعَجُّبَه تعجُّبًا يُنَوَّهُ عنه، ومعلومٌ أنَّ الَّذي يُنَوَّهُ عن أحوالِه عظيمٌ عندَ مَن نَوَّهَ عنه، بخِلافِ مَن لا يُؤْبَهُ له، ولا يُهْتَمُّ به[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ -على قراءةِ ضمِّ التَّاءِ[٦]-: دَليلٌ على إثباتِ صِفةِ العَجَبِ للهِ تعالى[٧]. وأنواعُ العَجَبِ ثلاثةُ أقسامٍ: عجَبُ استِحسانٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣).

(٦) تقدمَ الكلامُ على هذه القراءة (ص:٣٤٦).

(٧) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٨).

وعجَبُ إنكارٍ، وعَجَبُ استِفهامٍ، والعَجَبُ الَّذي بمعنى الاستِفهامِ لا يكونُ في حَقِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّه يكونُ لخَفاءِ الأسبابِ على هذا المُستَغرِبِ للشَّيءِ المتعَجَّبِ منه، بحيثُ يأتيه بَغْتةً بدُونِ تَوقُّعٍ، وهذا مُستحيلٌ على اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ. مِثالٌ للعَجَبِ الَّذي يَحمِلُ عليه الاستحسانُ: قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قد عَجِب اللهُ من صَنيعِكما بضَيفِكما اللَّيلةَ))[١]، ومِثالُ عجَبِ الإنكارِ من اللهِ تعالى قَولُه: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾، فهذا عَجَبُ إنكارٍ[٢].

٨- أنَّ الجَدَّ يُسمَّى أبًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، وآباؤُهم الأوَّلُون أجدادٌ سابِقونَ، فالجَدُّ يُسمَّى أبًا، ويَتفرَّعُ على ذلك مسألةٌ فَرَضيَّةٌ، وهي: أنَّ الجَدَّ يُسْقِطُ الإخوةَ، أشقاءَ كانوا أمْ لأبٍ أمْ لأمٍّ[٣]. كما يسقطون بالأبِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ أنَّ المكذِّبين بالبعثِ يُحشَرون يومَ القيامةِ صاغِرينَ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾[٤] [الشورى: ٤٥].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ بيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ تَخرُجُ الخلائِقُ كُلُّها بزَجرةٍ واحدةٍ، وتَخرُجُ الخلائِقُ كُلُّها فَورًا بدونِ تأخيرٍ؛ ففيه دَليلٌ على القُدرةِ مِن وَجهَينِ؛ الوَجهُ الأوَّلُ: عدمُ تَكرارِ الأمرِ. والوَجهُ الثَّاني:

---

(١) جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

وهذا المذكورُ -أي: حَجْبُ الجدِّ للإخوةِ- هو قولُ أبي حنيفةَ، وهو خلافُ قولِ مالكٍ، والشَّافعيِّ، وأحمدَ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٠).

سُرعةُ الائتِمارِ والامتِثالِ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم بمُجرَّدِ ما يَخرُجون يكونونَ أحياءً يَعقِلون ويُدرِكون، وليس كالطِّفلِ الَّذي يَخرُجُ مِن بطنِ أُمِّه لا يَعلمُ شَيئًا[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾

- قَولُه: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ الفاءُ تَفريعٌ على قَولِه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافَّات: ٦] باعتِبارِ ما يَقتَضيه مِن عَظيمِ القُدرةِ على الإنشاءِ، أيْ: فسَلْهُم عن إنكارِهمُ البَعثَ، وإحالَتِهم إعادةَ خَلقِهم بعدَ أنْ يَصيروا عِظامًا ورُفاتًا، أخَلْقُهم حينَئذٍ أشَدُّ علينا، أمْ خَلْقُ تلك المَخلوقاتِ العَظيمةِ؟! وضَميرُ الخِطابِ مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أيْ: فسَلْهم، وهو سُؤالُ مُحاجَّةٍ وتَغليطٍ[٣].

- وضَميرُ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ عائدٌ إلى غَيرِ مَذكورٍ؛ لِلعِلْمِ به مِن دَلالةِ المَقامِ، وهم الَّذين أحالوا إعادةَ الخَلقِ بَعدَ المَماتِ[٤].

- وهَمزةُ ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ لِلاستِفهامِ المُستَعمَلِ لِلتَّقريرِ بضَعفِ خَلقِ البَشَرِ بالنِّسبةِ لِلمَخلوقاتِ السَّماويَّةِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ يَؤولُ إلى الإقرارِ؛ حيث إنَّه يُلجِئُ المُستَفهَمَ إلى الإقرارِ بالمَقصودِ مِن طَرَفَيِ الاستِفهامِ، فالاستِفتاءُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَعنى الاستِفهام، فهو يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُستعمَلُ فيه الاستِفهامُ، والهمزةُ أُجريتْ على الاستفهام ظاهرًا؛ لِيُجعَلَ المُقَرَّرُ غيرَ مقرَّرٍ، فيَصِحَّ دخولُ «استَفْتِهم» عليها، والفائِدةُ: الإنكارُ والتَّوبيخُ، كأنَّه لم يَعلَمْ ذلك فاستَفْهَمَ، مع أنَّ هذا الأمرَ المسؤولَ مُقرَّرٌ مُعَيَّنٌ، والأسلوبُ مِن بابِ سَوقِ المَعلومِ مَساقَ غَيرِه[١].

- وقَولُه: ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يَحتمِلُ: أقوى خَلقًا، مِن قَولِهم: شَديدُ الخَلقِ، وفي خَلقِه شِدَّةٌ، على سَبيلِ الإنكارِ، وأصعَبُ خَلقًا وأشَقُّه، على مَعنى الرَّدِّ لإنكارِهمُ البَعثَ والنَّشأةَ الأُخرى، وأنَّ مَن هانَ عليه خَلقُ هذه الخَلائِقِ العَظيمةِ، ولم يَصعُبْ عليه اختِراعُها؛ كان خَلقُ البَشَرِ عليه أهْوَنَ[٢].

- وجاء قَولُه: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مُطلَقًا مِن غيرِ تَقييدٍ بالبَيانِ؛ اكتِفاءً ببَيانِ ما تَقدَّمَه، كأنَّه قال: خَلَقْنا كذا وكذا مِن عَجائِبِ الخَلقِ وبَدائِعِه، فاستَفْتِهم: أهُم أشَدُّ خَلْقًا أمِ الَّذي خَلَقْناه مِن ذلك[٣]؟!

- وجيءَ باسمِ العاقِلِ -وهو (مَنْ) المَوصولةُ-؛ تَغليبًا لِلعاقِلينَ مِنَ المَخلوقاتِ[٤].

- قَولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ قَولٌ في مَوضعِ العِلَّةِ؛ لِمَا يَتوَلَّدُ مِن مَعنى الاستِفهامِ في قَولِه: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِنَ الإقرارِ بأنَّهم أضعَفُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

خَلقًا مِن خَلقِ السَّمَواتِ وعَوالِمِها؛ احتِجاجًا عليهم بأنَّ تَأتِّيَ خَلقِهم بعدَ الفَناءِ أهْوَنُ مِن تَأتِّي المَخلوقاتِ العَظيمةِ المَذكورةِ آنِفًا ولم تَكُنْ مَخلوقةً قَبْلُ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن طينٍ أصلُه تُرابٌ؛ لِأنَّ أصْلَهم -وهو آدَمُ- خُلِقَ مِن طينٍ، كما هو مُقرَّرٌ لَدى جَميعِ البَشَرِ، فكيف يُحيلونَ البَعثَ بمَقالاتِهم الَّتي منها قَولُهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[1] [الصَّافَّات: ١٦]؟!

- قَولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أضافَ الخَلقَ مِنَ الطِّينِ إليهم، والمَخلوقُ منه هو أبوهم آدَمُ؛ إذْ كانوا نَسْلَه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾

- ﴿بَلْ﴾ لِلإضرابِ الانتِقاليِّ مِنَ التَّقريرِ التَّوبيخيِّ إلى أنَّ حالَهم عَجَبٌ، وفِعلُ المُضيِّ مُستَعمَلٌ في مَعنى الأمْرِ، وهو مِن استِعمالِ الخَبَرِ في مَعنى الطَّلَبِ؛ لِلمُبالَغةِ، والمَعنى: اعْجَبْ لهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ العَجَبُ قد حصَلَ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا رأى إعراضَهم، وقِلَّةَ إنصافِهم، فيَكونَ الخَبَرُ مُستَعمَلًا في حَقيقَتِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الكَلامُ على تَقديرِ هَمزةِ الاستِفهامِ، أيْ: بَلْ أعَجِبتَ؟ والمَعنى على الجَميعِ أنَّ حالَهم حَرِيَّةٌ بالتَّعجُّبِ[3].

- وجيءَ بالمُضارِعِ في ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ السُّخريةِ، وأنَّهم لا يَرعَوونَ عنها[4].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٩٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ مُبالَغةٌ في السُّخريةِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ خَصُّوا البَعثَ بالإنكارِ؛ إعلامًا بأنَّه أعظَمُ مَقصودٍ بالنِّسبةِ إلى السِّحرِ[٢].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ إنكاريٌّ، وأصلُه: أنُبعَثُ إذا مِتْنا؟! فبَدَّلوا الفِعليَّةَ بالاسميَّةِ، وقَدَّموا الظَّرفَ، وكَرَّروا الهَمزةَ؛ مُبالَغةً في الإنكارِ، وإشعارًا بأنَّ البَعثَ مُستَنكَرٌ في نَفْسِه، وفي هذه الحالِ أشَدُّ استِنكارًا، وكذا تَحليةُ جُملةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بـ (إنَّ) واللَّامِ، لِتأكيدِ الإنكارِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أيْ: كان بَعضُ أجزائِنا تُرابًا، وبَعضُها عِظامًا. وتَقديمُ التُّرابِ؛ لِأنَّه مُنقَلِبٌ مِنَ الأجزاءِ الباديةِ[٤]، ولأنَّه أدَلُّ على مُرادِهم؛ لأنَّه أبْعَدُ عن الحياةِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾، وقال بَعْدُ في هذه السُّورةِ: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٤).

[الصَّافَّات: ٥١-٥٣]، فقال هنا: ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾، وفيما بَعْدَه: ﴿لَمَدِينُونَ﴾، فاختَلَفا في المَكانَينِ، وإنْ كانا فيما يُرادُ مِن تَحقيقِ الإحياءِ بعدَ المَوتِ سواءً؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: أنَّ ما هنا حِكايةُ ما قاله الكُفَّارُ مِن إنكارِ البَعثِ، والمَبعوثُ هو الَّذي يُبعَثُ مِن قَبرِه، ويَحيا بعدَ مَوتِه، والمَدينُ هو المُجازَى بما كان مِن كَسبِه، والبَعثُ قَبْلَ الجَزاءِ، وهو يُفعَلُ مِن أجْلِه. وحِكايةُ الآخَرِ الَّذي قال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٣] إنَّما هي عِندَ حُصولِه في النَّارِ، وهو الجَزاءُ الَّذي أنكَرَه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصَّافَّات: ٥٤، ٥٥]، فهذا المُؤمِنُ الَّذي حَكى اللهُ تعالى عنه قَولَه، وأنَّه أخبَرَ عن قَرينِه في الدُّنيا بأنَّه كان يُنكِرُ أنْ يُحيَا ويُدانَ بما صَنَعَ هو الَّذي إذا رآهُ في سَواءِ الجَحيمِ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ * وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٦، ٥٧]، فالتَّفريعُ على ما أنكَرَ إنَّما يَقَعُ إذا تَحقَّقَ وحَصَلَ فيه مِن كُفرِه، نَعوذُ باللهِ مِن عِقابِه[١]. وقِيل غيرُ ذلك[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ تَضمَّنَ إنكارًا واستِبعادًا لِلبَعثِ، يَعنونَ أنَّ آباءَهم أقدَمُ؛ فبَعثُهم أبعَدُ وأبطَلُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٨٩-١٠٩١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

- قَولُه: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ -بفَتحِ الواوِ- والواوُ واوُ العَطفِ، والهَمزةُ هَمزةُ استِفهامٍ، فهُما حَرْفانِ، وقُدِّمتْ هَمزةُ الاستِفهامِ على حَرفِ العَطفِ حسَبَ الاستِعمالِ الكَثيرِ، والتَّقديرُ: وأآباؤُنا الأوَّلونَ مِثلُنا، وفي قِراءةٍ (أَوْ آباؤُنَا) -بسُكونِ واوِ (أَوْ)[1]- على أنَّ الهَمزةَ مع الواوِ حَرفٌ واحِدٌ هو (أَوْ) العاطِفةُ المُفيدةُ للتَّقسيمِ هنا، ووَجهُ العَطفِ بـ (أَوْ) هو جَعلُهمُ الآباءَ الأوَّلينَ قِسْمًا آخَرَ؛ فكان عَطفُه ارتِقاءً في إظهارِ استِحالةِ إعادةِ هذا القِسمِ؛ لأنَّ آباءَهم طالَتْ عُصورُ فَنائِهم، فكانتْ إعادةُ حَياتِهم أَوْغَلَ في الاستِحالةِ[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾

(١) وهي قراءةُ نافعٍ، وابنِ عامرٍ. وقرأ الباقون ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ بفتحِ الواوِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨، ٩٩).

قال الشنقيطي: (همزة الاستفهام إذا جاءت بعدَها أداةُ عطفٍ كالواوِ والفاءِ وثمَّ، نحو: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ [يونس: ٥١]- ففي ذلك وجهانِ لعلماءِ العربيَّةِ والمفسِّرينَ؛ الأوَّلُ منهما: أنَّ أداةَ العطفِ عاطفةٌ للجملةِ المُصَدَّرةِ بالاستفهامِ على ما قبْلَها، وهمزةُ الاستِفهامِ متأخِّرةٌ رُتبةً عن حرفِ العطفِ، ولكنَّها قُدِّمَتْ عليه لفظًا لا معنًى؛ لأنَّ الأصلَ في الاستفهامِ التَّصديرُ به كما هو معلومٌ في محلِّه. والمعنى على هذا واضحٌ، وهو أنَّهم أنكَروا بَعْثَهم أنفُسَهم بأداةِ الإنكارِ الَّتي هي الهمزةُ، وعطَفوا على ذلك بالواوِ إنكارَهم بَعْثَ آبائِهم الأوَّلينَ بأداةِ الإنكارِ الَّتي هي الهمزةُ المُقَدَّمةُ عن محلِّها لفظًا لا رُتْبةً. وهذا القولُ هو قولُ الأقدمينَ من علماءِ العربيَّةِ، واختاره أبو حيَّانَ في «البحر المحيط»، وابنُ هشام في «مُغْني اللَّبيب»، وهو الَّذي صِرْنا نميلُ إليه أخيرًا بعدَ أن كنَّا نميلُ إلى غيرِه. الوجهُ الثَّاني: هو أنَّ همزةَ الاستفهامِ في محلِّها الأصليِّ، وأنَّها مُتعلِّقةٌ بجملةٍ محذوفةٍ، والجملةَ المُصَدَّرةَ بالاستفهامِ معطوفةٌ على المحذوفةِ بحرفِ العطفِ الَّذي بعدَ الهمزةِ، وهذا الوجهُ يميلُ إليه الزمخشريُّ في أكثرِ المواضعِ مِن كشَّافِه، ورُبَّما مالَ إلى غيرِه. وعلى هذا القولِ فالتَّقديرُ: أَمَبْعوثون نحنُ وآباؤُنا الأوَّلون؟). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٢٢) بتصرفٍ يسيرٍ. ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٢٢-٢٤).

- جَوابٌ على سُؤالِ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ[١] بصَرفِ قَصدِهم مِنَ الاستِفهامِ إلى ظاهِرِ الاستِفهامِ، فجُعِلوا كالسَّائلينَ: أيُبعَثونَ؟ فقيل لهم: نَعَمْ؛ تَقريرًا لِلبَعثِ المُستَفهَمِ عنه، أيْ: نَعَمْ تُبعَثونَ. وجيءَ بلَفظِ ﴿قُلۡ﴾ غيرَ مَعطوفٍ؛ لِأنَّه جارٍ على طَريقةِ الاستِعمالِ في حِكايةِ المُحاوَراتِ[٢].

- والخِطابُ في قَولِه تَعالى: ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ لهم ولِآبائِهم بطَريقِ التَّغليبِ[٣].

- وقَولُه: ﴿دَٰخِرُونَ﴾ أيْ: صاغِرونَ، وإنَّما اكتَفَى به في الجَوابِ؛ لِسَبقِ ما يدُلُّ على جَوازِه، وقيامِ المُعجِزِ على صِدقِ المُخبَرِ عن وُقوعِه[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾

- فُرِّعَ على إثباتِ البَعثِ الحاصِلِ بقَولِه: ﴿نَعَمۡ﴾ أنَّ بَعْثَهم وَشيكُ الحُصولِ، لا يَقتَضي مُعالَجةً ولا زَمَنًا، إنْ هي إلَّا إعادةٌ تَنتَظِرُ زَجْرةً واحدةً[٥].

- والجُملةُ جَوابُ شَرطٍ مُضمَرٍ، أو تَعليلٌ لِنَهيٍ مُقدَّرٍ، أيْ: إذا كانَ كذلك ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، أو لا تَستَصعِبُوه[٦].

---

(١) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافُ مقتضَى الظاهِرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

-ووَصْفُ الزَّجرةِ بـ﴿ وَٰحِدَةٌ ﴾ تأكيدٌ لِمَا تُفيدُه صِيغةُ الفَعْلةِ مِن مَعنى المَرَّةِ؛ لِدَفعِ توَهُّم أنْ يَكونَ المُرادُ مِنَ الصَّيحةِ الجِنسَ دونَ الوُجود؛ لأنَّ وَزنَ الفَعْلةِ يَجيءُ لِمَعنى المَصدَرِ دونَ المَرَّةِ. وفُرِّعَ عليه ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾، ودَلَّتْ فاءُ التَّفريعِ على تَعقيبِ المُفاجأةِ، ودَلَّ حَرفُ المُفاجَأةِ على سُرعةِ حُصولِ ذلك[1].

- وكُنِيَ عن الحياةِ الكامِلةِ الَّتي لا دَهشَ يُخالِطُها بالنَّظَرِ، في قَولِه: ﴿يَنظُرُونَ ﴾؛ لأنَّ النَّظَرَ لا يكونُ إلَّا مع تَمامِ الحياةِ، وأُوثِرَ النَّظَرُ مِن بَينِ بَقيَّةِ الحَواسِّ؛ لِمَزيدِ اختِصاصِه بالمَقامِ، وهو التَّعريضُ بما اعترَاهم مِنَ البَهتِ لِمُشاهَدةِ الحَشرِ[2].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾

- يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، أي: قائِلينَ: يا ويْلَنا، أي: يقولُ جميعُهم: يا ويلَنا، يقولُه كلُّ أحدٍ عنه وعن أصحابِه. ويجوزُ أن يكونَ عطفًا على جملةِ: ﴿يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات: ١٩]. والمعنى: ونظَروا وقالوا[3].

- قَولُه: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ صِيغةُ الماضي لِلدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ[4].

- قَولُه: ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا ﴾ حَرفُ النِّداءِ لِلاهتِمامِ[5].

- قَولُهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ تَعليلٌ لِدُعائِهم الوَيلَ بطَريقِ الاستِئنافِ، أيْ: اليَومُ الَّذي نُجازَى فيه بأعمالِنا، وإنَّما عَلِموا ذلك؛ لأنَّهم كانوا يَسمَعونَ في الدُّنيا أنَّهم يُبعَثونَ ويُحاسَبونَ ويُجزَوْنَ بأعمالِهم، فلَمَّا شاهَدوا البَعثَ أيْقَنوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

بما بَعْدَه أيضًا[١].

٩- قولُه تعالَى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾

- يَجوزُ أنْ يَكونَ هذا كَلامًا مُوجَّهًا إليهم مِن جانِبِ اللهِ تَعالى جَوابًا عن قَولِهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصَّافَّات: ٢٠]، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ بالوَعيدِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن كَلامِ المَلائِكةِ، وفيه تَوبيخٌ لهم وتَقريعٌ. وقيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن تَمامِ قَولِهم، أيْ: يَقولُ بَعضُهم لِبَعضٍ: هذا يَومُ الفَصلِ[٢].

- وقدَّموا الجارَّ ﴿بِهِۦ﴾؛ إشارةً إلى عَظيمِ تَكذيبِهم به[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٧).

الآيات (٢٢-٣٤)

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾: أي: أشباهَهم وأمثالَهم ونُظَراءَهم، أو أقرانَهم المقتدينَ بهم في أفعالِهم، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لشَيءٍ[(١)].

﴿الْجَحِيمِ﴾: أي: النَّارِ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[(٢)].

﴿وَقِفُوهُمْ﴾: أي: احبِسُوهم، وأصلُ (وقف): يدُلُّ على تمكُّثٍ في شَيءٍ[(٣)].

﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾: أي: مِن قِبَلِ الدِّينِ والحَقِّ. وقيل: مِن ناحيةِ المواثيقِ والأيْمانِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٩٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٣٢، ٣٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٣٣).

واليَمينُ في كلامِ العَرَبِ تُطلَقُ على البَرَكةِ والقُوَّةِ والقُدرةِ، وأصلُها: يمينُ اليَدِ[١].

﴿سُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّةٍ، وأصلُ السُّلطانِ: القُوَّةُ والقَهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

﴿طَاغِينَ﴾: أي: ضالِّينَ مُتجاوِزينَ الحَقَّ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٣].

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾: أي: زَيَّنَّا لكم، وأضلَلْناكم، والغَيُّ: الجَهلُ، والانهِماكُ في الباطِلِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لملائكتِه يومَ القيامةِ: اجمَعوا الظَّالِمين ونُظراءَهم، وما كانوا يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ تعالى، فدُلُّوهم إلى طريقِ جهنَّمَ وسُوقوهم إليها، وقِفوهم جميعًا ليُسأَلوا. فيُقالُ لهم: ما لَكم لا يَنصُرُ بَعضُكم بعضًا كما كنتُم تَتناصَرونَ في الدُّنيا على الباطِلِ؟! بل هم يومَ القيامةِ مُستسلِمونَ مُنقادون لأمرِ اللهِ.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما يدورُ بيْنَهم مِن تَلاوُمٍ يومَ القيامةِ، فيقولُ: وأقْبَلَ هؤلاء الظَّالِمونَ بعضُهم على بعضٍ يَتلاوَمونَ، قال الأتْباعُ منهم للرُّؤساءِ: إنَّكم كنتُم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠، ٧٢٤، ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

في الدُّنيا تأتونَنا عن اليمينِ فتُضِلُّونَنا. قال المَتْبوعونَ لأتْباعِهم: ليس الأمرُ كما تقولون؛ فإنَّكم ما كنتُم مؤمنينَ فردَدْناكم عن الإيمانِ، إنَّما الكُفرُ مِن قِبَلِكم، وما كان لنا عليكم مِن سلطانٍ، بل كنتُم قومًا ضالِّينَ مُتجاوِزينَ الحَدَّ! فوجَبَ علينا جميعًا وَعْدُ رَبِّنا بعَذابِ النَّارِ، فنحنُ جميعًا ذائِقوه، فدَعَوْناكم إلى ما كنَّا عليه، وأضْلَلْناكم عن الهدَى؛ إنَّا كنَّا ضالِّينَ.

ثمَّ يبيِّنُ الله سبحانه حُكمَه العادلَ في الجميعِ؛ في الأتْباعِ والمَتْبوعينَ، فيَقولُ: فإنَّهم هم والَّذين أطاعوهم في الضَّلالةِ شُركاءُ في النَّارِ، إنَّا كذلك نُجازي المجرِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ ...﴾.

أي: يُقالُ للمَلائِكةِ يومَ القيامةِ: اجمَعوا الظَّالِمينَ وأشباهَهم الَّذين عَمِلوا بمِثلِ عَمَلِهم، واجمَعوا معهم مَعبوداتِهم الَّتي كانوا يُواظِبونَ على عبادتِها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ تعالى[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨، ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ(أَزْوَاجَهُمْ): أشباهُهم ونُظراؤُهم: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّاب، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالحٍ، وأبو العاليةِ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧ - ٩٩].

﴿... فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: دُلُّوا الظَّالِمينَ وأشباهَهم وآلهتَهم إلى طريقِ جَهنَّمَ، وسُوقوهم إليها[1].

= قال الشنقيطي: (جمهورُ أهلِ العِلمِ -منهم: عُمَرُ، وابنُ عبَّاسٍ- على أنَّ المرادَ به: أشباهُهم ونُظراؤُهم؛ فعابِدُ الوَثَنِ مع عابدِ الوَثَنِ، والسَّارِقُ مع السَّارِقِ، والزَّاني مع الزَّاني، واليهوديُّ مع اليهوديِّ، والنَّصرانيُّ مع النَّصرانيِّ... وهكذا. وإطلاقُ الأزواجِ على الأصنافِ مَشهورٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العرَبِ...). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠٩).

وقال الواحدي: (وقال جماعةُ المفسِّرينَ: أشباهَهم وأمثالَهم، وأتْباعَهم ونُظراءَهم وضُرَباءَهم. وعلى هذا القولِ يُحمَلُ الَّذين ظلَموا على القادةِ والرُّؤساءِ، وأزواجُهم أتْباعُهم). ((الوسيط)) (٣/ ٥٢٣).

وقيل: المرادُ بهم الزَّوجاتُ الموافِقاتُ لأزواجِهنَّ في الإشراكِ باللهِ تعالى. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه -واستغربها ابنُ كثيرٍ-، ورُوِيَ عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ، وقاله الحسَنُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ليس المرادُ أنَّه يُحشَرُ معهم زَوجاتُهم مُطلَقًا؛ فإنَّ المرأةَ الصَّالحةَ قد يكون زَوجُها فاجرًا بل كافِرًا، كامرأةِ فِرعونَ، وكذلك الرَّجُلُ الصَّالحُ قد تكونُ امرأتُه فاجرةً بل كافِرةً، كامرأةِ نُوحٍ ولُوطٍ، لكِنْ إذا كانت المرأةُ على دينِ زَوجِها دخَلَت في عُمومِ الأزواجِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٦٤).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠). =

﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: يُقالُ للمَلائِكةِ: قِفُوهم[1] مع نُظَرائِهم وآلهتِهم حتَّى يُسأَلوا[2].

= قيل: المرادُ بقوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾: فقُودوهم وسُوقوهم. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٤).

وقيل: المراد: فأَرشِدوهم ودُلُّوهم. وممَّن قال بهذا المعنى: السمعانيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٤).

وقال الشوكاني: (﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: عَرِّفوا هؤلاءِ المحشورينَ طريقَ النَّارِ، وسُوقُوهم إليها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٨).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: دُلُّوهم، وهذه هدايةُ الدَّلالة، وهذا لا يُنافي قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]؛ فإنَّ الَّذي يُساقُ يُهدَى أيضًا، أرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَسوقُ بعيرَه ويَهديها؟ هؤلاء يُساقون وفي نفْسِ الوقتِ يُقالُ: اذهَبوا مِن هنا، اذهبوا مِن هنا، حتَّى يَصِلوا إلى النَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- الصافات)) (ص: ٥٨).

(١) قيل: هذا يكونُ قبْلَ سَوقِهم إلى الجَحيم، أي: قِفوهم للحِسابِ ثمَّ سُوقوهم إلى النَّارِ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١، ٧٠٢).

وقيل: هو أمرٌ بوَقفِهم في ابتداءِ السَّيرِ بهم، أي: احبِسوهم عن السَّيرِ قليلًا؛ لِيُسأَلوا سُؤالَ تأييسٍ وتحقيرٍ وتغليظٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

قال البغوي: (قال المفسِّرون: لَمَّا سِيقوا إلى النَّارِ حُبِسوا عندَ الصِّراطِ؛ لأنَّ السُّؤالَ عندَ الصِّراطِ، فقيل: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢، ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣، ٧٤)، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... يُصعَقُ النَّاسُ، ثم يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مَطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قِيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾))[1].

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)﴾.

أي: فيُقالُ لهم: ما لَكم لا يَنصُرُ بَعضُكم بَعضًا، فيَمنَعَه مِن عذابِ اللهِ، ويَدفَعَ عنه الشَّقاءَ الَّذي هو فيه[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٢).

وقد نقل ابنُ عَطيَّةَ عن جُمهورِ المفَسِّرينَ أنَّ المرادَ: أنَّهم يُسأَلونَ عن أعمالِهم، ويُوقَفونَ على قُبحِها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩).

وقيل: هذا السُّؤالُ هو ما ذُكِر بعدُ، وهو قَولُه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٢٥]. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور، وذكره ابنُ عطيَّةَ احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩).

وذكر مُقاتِلٌ أنَّ خَزَنةَ جَهنَّمَ تَسألُهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر: ٧١]. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٦٠٥).

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢، ١٠٣).

قال الزمخشريُّ: (هذا تهكُّمٌ بهم، وتوبيخٌ لهم بالعَجزِ عن التَّناصُرِ بعدَما كانوا على خِلافِ ذلك في الدُّنيا مُتعاضِدينَ مُتناصِرينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩).

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: بل هم يومَ القيامةِ مُستَسلِمونَ لأمرِ اللهِ، مُنقادونَ إليه، قد أيْقَنوا بعَذابِه؛ فهم ذَليلونَ لا يَنطِقونَ[1].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وأقْبَلَ الَّذين ظَلَموا بعضُهم على بعضٍ يَتخاصَمونَ ويَتلاوَمونَ[2].

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن المُشرِكينَ أنَّه: (أقْبَلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءَلونَ)؛ شرَحَ كيفيَّةَ ذلك التَّساؤُلِ، فقال[3]:

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال الأتْباعُ منهم للَّذين أضَلُّوهم: إنَّكم كُنتُم في الدُّنيا تَأتونَنا عن اليَمينِ[4]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٠).

(٤) قال ابنُ جُزَي: (واليَمينُ هنا تَحتمِلُ ثلاثةَ معانٍ:
الأوَّلُ: أن يُرادَ بها طَريقُ الخَيرِ والصَّوابِ، وجاءت العبارةُ عن ذلك بلَفظِ اليَمينِ، كما أنَّ العبارةَ عن الشَّرِّ بالشِّمالِ، والمعنى: أنَّهم قالوا لهم: إنَّكم كنتُم تأتونَنا عن طريقِ الخَيرِ فتَصُدُّونَنا عنه.
والثَّاني: أن يُرادَ به القُوَّةُ، والمعنى على هذا: أنَّكم كنتُم تأتونَنا بقُوَّتِكم وسُلطانِكم فتَأمُرونَنا =

فتُضِلُّونَنا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ

= بالكُفرِ، وتَمنَعونَنا مِنَ الإيمانِ.

والثَّالثُ: أن يُرادَ بها اليَمينُ الَّتي يُحلَفُ بها، أي: كُنتُم تأتونَنا بأن تَحلِفوا لنا أنَّكم على الحَقِّ، فنُصَدِّقَكم في ذلك ونتَّبِعَكم. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠).

ممَّن اختار نحوَ القَولِ الأوَّلِ، أي أنَّ المرادَ: تأتونَنا مِن قِبَلِ الدِّينِ والحَقِّ، فتَخدعُونَنا بأقوى الوُجوهِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، أي أنَ المرادَ باليمينِ: القُوَّةُ والغَلَبةُ والقَهرُ: البقاعي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠).

وممَّن اختار نحوَ القَولِ الثَّالث، فقال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: عن الجِهةِ الَّتي كنَّا نأمَنُكم منها؛ لحَلِفِكم إنَّكم على الحَقِّ، فصَدَّقْناكم، فأنتم أضلَلْتُمونا: جلالُ الدِّينِ المحلِّي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٣).

وقال القرطبي بعدَ أنْ ذكَرَ هذه المعانيَ وغيرَها: (وكُلُّه مُتقارِبُ المعنَى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥).

وجمَع ابنُ عثيمينَ بيْنَ هذه المعاني الثَّلاثةِ، فقال: (والحقيقةُ أنَّ كُلَّ هذه الوجوهِ واقِعةٌ مِن المتبوعينَ... فالآيةُ شاملةٌ لهذه الوجوهِ الثَّلاثة؛ يَقولُ الأتْباعُ للمَتْبوعينَ: إنَّكم كنتُم تأتونَنا عن هذه الجِهةِ: الحَلِفِ، أو القُوَّةِ، أو الخَيرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (٦٥، ٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٤).

ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: قال المَتْبوعونَ لأتْباعِهم: ليس الأمرُ كما تَقولونَ مِن أنَّنا أضلَلْناكم عن الحَقِّ، ولكِنْ أنتم أضلَلْتُم أنفُسَكم بالكفرِ، فلَمْ تكونوا مُؤمِنينَ باللهِ مِن قَبْلُ، ولم تَقْبَلوا الإيمانَ؛ فالكُفرُ مُتأصِّلٌ في طَبعِكم؛ فلذا تابَعتُمونا فيما أمَرْناكم به، فلا تَلومونا ولُوموا أنفُسَكم[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢].

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٦).

أي: وما كان لنا أيُّ سُلطانٍ[١] على ما نَدْعوكم إليه مِن الضَّلالِ؛ لِنَصُدَّكم به عن اتِّباعِ الحَقِّ[٢].

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾.

أي: وإنَّما كان الطُّغيانُ في طَبعِكم أنتم، فكُنتُم قَومًا مُتجاوِزينَ الحَدَّ، مُتكبِّرينَ عن قَبولِ الحَقِّ، غالِينَ في الكُفرِ، مُسرِفينَ في المعاصي؛ فاستَجبتُم لنا وتَرَكْتُم الحَقَّ الَّذي جاءَتْكم به الأنبياءُ[٣].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: فوَجَب وثَبَت علينا جميعًا ما وعَدَنا به ربُّنا مِن عذابِ النَّارِ؛ فإنَّا وإيَّاكم لَذائِقوه[٤].

---

(١) قيل: السُّلطانُ هنا بمعنى الحُجَّةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦).
وقيل: هو بمعنى القَهرِ والغَلَبةِ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾.

أي: فأضْلَلْناكم عن الهدَى، ودَعَوْناكم إلى ما كنَّا عليه، إنَّا كنَّا ضالِّينَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣﴾.

أي: فإنَّ جميعَ الأتْباعِ والمَتْبوعينَ الضَّالِّينَ مِن الإنسِ والجِنِّ مُشتَرِكونَ في أصلِ العذابِ يومَ القيامةِ، كما اشتَرَكوا في الدُّنيا في سَبَبِه، وإن تَفاوَتَ مِقدارُ عذابِ كُلٍّ منهم، كما تَفاوَتوا في مِقدارِ كُفرِهم وعِصيانِهم لرَبِّهم[(٢)].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾.

أي: إنَّا نُجازي بمِثلِ هذا الجَزاءِ كُلَّ مُتَّصِفٍ بالإجرامِ، يَكتَسِبُ الذُّنوبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٤).

قال البِقاعي: (﴿كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي: في طَبعِنا الغَوايةُ، وهي العُدولُ عن الطَّريقِ المُثلى إلى المهالِكِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٢٢).

وقال الشوكاني: (معنى الآيةِ: أقدَمْنا على إغوائِكم؛ لأنَّا كُنَّا مَوصوفين في أنفُسنا بالغَوايةِ؛ فأقَرُّوا هاهنا بأنَّهم تسَبَّبوا لإغوائِهم، لكِنْ لا بطريقِ القَهرِ والغَلَبة، ونَفَوا عن أنفُسِهم فيما سَبَق أنَّهم قَهَروهم وغَلَبوهم، فقالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٩).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١١).

والآثامَ، ويَختارُ الكُفرَ على الإيمانِ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- النَّهيُ عن مُقارَنةِ الفُجَّارِ ومُزاوجتِهم، كما دلَّ على هذا قولُه تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: وأشباهَهم ونُظراءَهم[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن مُصاحَبةِ أهلِ الغَوايةِ، وقد حَذَّرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مُصاحبةِ الصَّاحِبِ السُّوءِ، فقال: ((إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ والجليسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسكِ ونافخِ الكِيرِ؛ فحامِلُ المسكِ إمَّا أنْ يُحْذِيَك[(٣)]، وإمَّا أنْ تَبتاعَ[(٤)] منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونَافخُ الكيرِ إمَّا أنْ يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه ريحًا خَبيثةً))[(٥)].

٣- أنَّ مَن لم يَكُنْ إيمانُه راسِخًا فإنَّ الدِّعايةَ الباطِلةَ تُؤَثِّرُ عليه؛ لأنَّ المؤمِنَ إيمانًا راسِخًا لا تُضَلِّلُه الدِّعايةُ، ولا يُمكِنُ أنْ يَتحَوَّلَ عن إيمانِه الَّذي كان عليه؛ لِقَولِه: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، ولو كنتُم مُؤمِنينَ حَقًّا إيمانًا ثابتًا ما أثَّرَ عليكم إضلالُنا[(٦)]، فدَلَّ هذا على أنَّ مَن يَنقادُ لهم هو فاسدٌ أصلًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٦).

(٣) يُحذِيَك: أي: يُعطِيَك مجَّانًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٦).

(٤) تبتاعَ منه، أي: تَشتريَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٣)،
والحديث أخرجه البخاريُّ (٢١٠١)، ومسلمٌ (٢٦٢٨) واللَّفظُ له، من حديث أبي موسى الأَشْعَريِّ رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ذكَرَ من صِفاتِ الَّذين ظَلَموا كَوْنَهم عابِدِينَ لِغَيرِ اللهِ تعالى، وهذا يدُلُّ على أنَّ الظَّالِمَ المُطْلَقَ هو الكافِرُ، وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ وَعيدٍ وَرَد في حَقِّ الظَّالم فهو مَصروفٌ إلى الكُفَّارِ، وممَّا يُؤكِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] [البقرة: ٢٥٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إهانةُ هؤلاء المُشرِكينَ بحَشرِ أصنامِهم إلى النَّارِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إهانةَ المعبودِ إهانةٌ للعابِدِ[2].

٣- بالعَدلِ والميزانِ قام الخَلقُ والشَّرعُ، وهو التَّسويةُ بيْنَ المُتماثِلَينِ، والتَّفريقُ بيْن المُختَلِفَينِ. وهذا كما أنَّه ثابتٌ في الدُّنيا، فهو كذلك يومَ القيامةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، فأخبَرَ أنَّ سُنَّتَه لن تُبَدَّلَ ولن تتحَوَّلَ، وسُنَّتُه عادتُه الَّتي يُسَوِّي فيها بيْنَ الشَّيءِ وبيْنَ نَظيرِه الماضي، وهذا يقتَضي أنَّه سُبحانَه يَحكُمُ في الأمورِ المُتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٨).

لكن قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا لفظُ «الظُّلم المُطلَق» فيَدخُلُ فيه الكفرُ وسائرُ الذُّنوبِ؛ قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٦٢).

وقال أيضًا: (الظُّلْمُ المُطْلَقُ يَتناوَلُ الكفرَ، ولا يختصُّ بالكفرِ؛ بل يتناوَلُ ما دونَه أيضًا). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ هذه الآيةُ عامَّةٌ، وفي النَّاسِ مَن يَعبُدُ الملائكةَ والصَّالِحين، فهل يُحشَرُ هؤلاء المعبودونَ مع هؤلاءِ العابِدينَ؟

فالجوابُ: لا؛ لأنَّ هذا العُمومَ مُخَصَّصٌ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وفي ذلك جوازُ ذِكرِ العُمومِ -وإنْ دَخَلَ فيه مَن ليس فيه- إذا بُيِّنَ في موضعٍ آخَرَ، ويَتفرَّعُ على هذا أنَّه لا يُشتَرَطُ في البَيانِ مُقارَنتُه للمُبيَّنِ؛ لأنَّ الَّذي يَمتَنِعُ في البيانِ هو تأخيرُه عن وَقتِ الحاجةِ، فإذا بُيِّنَ في وقتِ الحاجةِ زال هذا المحظورُ، وهذا قد بُيِّنَ في آياتٍ كثيرةٍ في القُرآنِ بأنَّ المؤمِنينَ المُتَّقينَ لا يدخلونَ النَّارَ، وكلُّ الآياتِ الَّتي في وَعْدِ المؤمِنينَ والمتَّقينَ تَمنَعُ مِن دُخولِ هؤلاء في النَّارِ، وإنْ كانوا يُعبَدون مِن دونِ اللهِ[1]. وقيل: المَوصولُ عبارةٌ عن المشْرِكينَ خاصَّةً؛ جِيءَ به لِتَعليلِ الحُكمِ بما في حَيِّزِ صِلَتِه، فلا عمومَ ولا تخصيصَ[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ يدُلُّ على أنَّ الهدَى يُستعمَلُ في الإرشادِ والدَّلالةِ على الشَّرِّ، ونظيرُ ذلك في القُرآنِ قَولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤][3]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في تفسيرِ الهدَى في الآيةِ الكريمةِ.

٦- مراتِبُ الهُدى أربعةٌ:

إحداها: الهُدى العامُّ، وهو هدايةُ كُلِّ نَفْسٍ إلى مَصالِحِ مَعاشِها وما يُقيمُها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٧، ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠).

وهذا أعَمُّ مَراتبِه، قال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، وقال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

المَرتبةُ الثَّانيةُ: الهُدى بمعنى البَيانِ والدَّلالةِ والتَّعليم، والدَّعوةِ إلى مصالح العَبدِ في مَعادِه، وهذا خاصٌّ بالمُكَلَّفينَ؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهَداهم هُدى البَيانِ والدَّلالةِ فلم يَهتَدوا، فأضَلَّهم عُقوبةً لهم على تَركِ الاهتِداءِ أوَّلًا بعدَ أن عرَفوا الهُدى فأعرَضوا عنه، فأعماهم عنه بعدَ أنْ أراهُموه.

المرتبةُ الثَّالثةُ: الهدايةُ المُستَلزِمةُ للاهتداءِ، وهي هدايةُ التَّوفيقِ، ومَشيئةُ اللهِ لِعَبدِه الهدايةَ، وخَلْقُه دَواعيَ الهُدى وإرادتَه والقُدرةَ عليه للعَبدِ، وهذه الهدايةُ الَّتي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

المَرتبةُ الرَّابعةُ: الهدايةُ يومَ المَعادِ إلى طَريقِ الجَنَّةِ والنَّارِ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسُ مُحمَّدٍ بيدِه، لَأَحَدُهم أهْدَى بمَنزِله في الجنَّةِ منه بمَنزِله كان في الدُّنيا))[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقولُه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥- ٨٤).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٥٣٥) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

[يونس: ٤٥] لا يُناقِضُ قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقولَه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]؛ وذلك مِن وُجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُهُ خَمسونَ ألْفَ سَنةٍ؛ ففيه أزْمِنةٌ وأحوالٌ مُختلِفةٌ، فيَتعارَفونَ ويَتَساءلون في بعضِها، ويَتحيَّرونَ في بعضِها؛ لشِدَّةِ الفزَعِ، فقيل: نَفْيُ السُّؤالِ عندَ اشْتِغالِهم بالصَّعقِ والمُحاسَبةِ والجَوازِ على الصِّراطِ، وإثباتُه فيما عَدا ذلك.

الوجه الثَّاني: أنَّه إذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفخةٌ واحدةٌ، شُغِلوا بأنفُسِهم عن التَّساؤُلِ، فإذا نُفِخَ فيه أُخرى، أقْبَلَ بعضُهم على بَعضٍ وقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢]؛ فنَفْيُ السُّؤالِ بعدَ النَّفخةِ الأُولَى وقبْلَ الثَّانيةِ، وإثباتُه بعدَهما معًا.

الوجه الثَّالث: المُرادُ: لا يَتساءَلونَ بحُقوقِ النَّسبِ.

الوجه الرَّابع: أنَّ قولَه: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ صِفَةٌ للكُفَّارِ؛ وذلك لشِدَّةِ خَوفِهم، أمَّا قولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهو صِفةُ أهْلِ الجنَّةِ إذا دَخلوها[(١)].

الوجه الخامس: أنَّ قولَه ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: في التَّناصُرِ، فلا يُناقِضُ نَفْيُ التَّساؤُلِ هنا إثباتَه في غَيرِه؛ لأنَّه في غَيرِ تناصُرٍ، بلْ في التَّلاوُمِ والتَّعاتُبِ والتَّخاصُمِ[(٢)].

الوجه السَّادس: أنَّ السُّؤالَ المَنْفيَّ سُؤالٌ خاصٌّ، وهو سُؤالُ بَعضِهم العفْوَ مِن بَعضٍ فيما بيْنَهم مِنَ الحُقوقِ؛ لقُنوطِهم مِنَ الإعطاءِ، ولو كان المَسؤولُ أبًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦).

أو ابنًا، أو أمًّا أو زوجةً[١].

٨- إطلاقُ الشَّيءِ على مُسَبِّبه؛ لِقَولِهم: ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾؛ لأنَّهم لَيسوا هم الَّذين أغْوَوْهم، وإنَّما هم سَبَبُ إغوائِهم؛ فإنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، لكِنَّ هؤلاء كانوا سببًا في غَوايةِ هؤلاء؛ فأضافوا الفِعلَ إليهم في قَولِهم: ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ﴾[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ﴾ إثباتُ الفِعلِ لله عزَّ وجلَّ، واللهُ سُبحانَه وتعالى فَعَّالٌ لِما يُريدُ، والفِعلُ يقتَضي التَّجَدُّدَ بحَسَبِ المفعولِ؛ فخَلقُ اللهِ للسَّمَواتِ والأرضِ لم يَكُنْ أزَليًّا، وإنَّما كان حينَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ وخَلْقُ اللهِ للجَنينِ في بطنِ أمِّه لم يكُنْ أزليًّا، بل هو حادِثٌ حينَ حُدوثِ هذا الجَنينِ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائِدةِ إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، خِلافًا لِمَن أنكَرَ ذلك، وقال: إنَّ اللهَ لا يَقومُ به فِعلٌ اختياريٌّ[٣]!

١٠- إذلالُ هؤلاء المَتْبوعينَ الَّذين كانوا في الدُّنيا يَعتَلُونَ على الخَلْقِ؛ لأنَّه جَمَعَ بيْنَهم وبيْنَ مَن يَستَعبِدونَهم في الدُّنيا ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لأنَّ الآخرةَ دارُ عَدلٍ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ النَّاسَ عندَ اللهِ سَواءٌ؛ فكُلُّ مَنِ استَحَقَّ عِقابًا أو ثَوابًا فهو له، يعني: لم نَفعَلْ بهؤلاء وَحْدَهم، بل حُكْمُنا

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤، ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا شامِلٌ لكُلِّ مُجرِمٍ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ تَخلُّصٌ مِن الإنذارِ بحُصولِ البعثِ إلى الإخبارِ عمَّا يَحُلُّ بهم عقِبَه إذا ثَبَتوا على شِرْكِهم وإنكارِهم البعثَ والجزاءَ(٢).

- وذِكرُ الأزواجِ إبلاغٌ في الوعيدِ والإنذارِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّ النِّساءَ المشركاتِ لا تَبِعةَ عليهنَّ(٣)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ عُطِفَ بفاءِ التَّعقيبِ؛ إشارةً إلى سُرعةِ الأمْرِ بهم إلى النَّارِ عقِبَ ذلك الحشْرِ(٤).

- والهِدايةُ والهَدْيُ: إرشادٌ إلى مَرْغوبٍ، وقد غلَبَت في ذلك؛ لأنَّ كونَ المَهدِيِّ راغبًا في مَعرفةِ الطَّريقِ مِن لَوازمِ فِعلِ الهدايةِ؛ ولذلك تُقابَلُ بالضَّلالةِ، وهي الحَيرةُ في الطَّريقِ؛ فذِكْرُ ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ هنا تَهكُّمٌ بالمشركينَ(٥)، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الهدَى في الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٢).

والقاعدة: «إذا كان سياقُ الآياتِ في أمورٍ خاصَّةٍ، وأراد الله أن يَحكُمَ عليها، وذلك الحُكمُ لا يختصُّ بها، بل يَشملُها وغيرَها؛ جاء الله بالحُكم العامِّ». يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ أمْرٌ بإيقافِهم في ابتداءِ السَّيرِ بهم؛ لِمَا أفادَهُ الأمْرُ مِن الفَورِ بقَرينةِ فاءِ التَّعقيبِ الَّتي عطَفَتْه ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾؛ كأنَّ الملائكة سارَعوا إلى ما أُمِروا به مِن حَشْرِهم إلى الجحيم -وذلك على قولٍ-، أي: احبِسوهم عن السَّيرِ قليلًا؛ لِيُسْألوا سُؤالَ تأييسٍ وتَحقيرٍ وتَغليظٍ[١].

- وعُلِّل توقيفُهم بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾؛ إيذانًا من أوَّلِ الأمْرِ بأنْ ذلك ليس للعفْوِ عنهم، ولا لِيَسْتريحُوا بتأْخيرِ العذابِ في الجُملةِ، بلْ لِيُسْألوا[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ مُبيِّنٌ لإبهامِ ﴿مَّسْـُٔولُونَ﴾[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والتَّهكُّمِ والتَّعجيزِ، أي: ما لَكم لا يَنصُرُ بعضُكم بعضًا؛ فيَدفَعَ عنه الشَّقاءَ الَّذي هو فيه؟ وأين تَناصُرُكم الَّذي كُنتم تَتناصَرون في الدُّنيا وتَتألَّبون على الرَّسولِ وعلى المؤمنينَ[٤]؟!

- وتأخيرُ هذا السُّؤالِ إلى ذلك الوقتِ؛ لأنَّه وَقتُ تَنجُّزِ العذابِ، وشِدَّةِ الحاجةِ إلى النُّصرةِ، وحالةِ انقطاعِ الرَّجاءِ عنها بالكُلِّيَّةِ؛ فالتَّوبيخُ والتَّقريعُ حينَئذٍ أشَدُّ وَقعًا وتأْثيرًا[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢، ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

٥- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾

- الإضرابُ المُستفادُ مِن ﴿بَلْ﴾ إضرابٌ لإبطالِ إمكانِ التَّناصُرِ بيْنَهم، وليس ذلك ممَّا يَتوهَّمُه السَّمْعُ؛ فلذلك كان الإضرابُ تأْكيدًا لِمَا دلَّ عليه الاستفهامُ مِن التَّعجيزِ. والاستِسلامُ: الإسلامُ القويُّ، أي: إسلامُ النَّفْسِ وتَرْكُ المُدافَعةِ؛ فهو مُبالَغةٌ في (أسلَمَ)[1].

- وذِكرُ اليومِ لإظهارِ النِّكايةِ بهم، أي: زال عنهمْ ما كان لهم مِن تَناصُرٍ وتَطاوُلٍ على المسلمينَ قبْلَ اليومِ، أي: في الدُّنيا؛ إذ كانوا يَقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، أي: نحنُ جماعةٌ لا تُغلَبُ، فكان لِذِكْرِ اليومِ وَقْعٌ بَديعٌ في هذا المقامِ[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

- عُبِّرَ عن إقبالِهم بصِيغةِ الماضي -وهو ممَّا سيَقَعُ يومَ القيامةِ- تَنْبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ لذلك مَزيدَ تأْثيرٍ في تَحذيرِ زُعمائِهم مِن التَّغريرِ بهم، وتَحذيرِ دَهْمائِهم مِن الاغترارِ بتَغريرِهم، مع أنَّ قَرينةَ الاستقبالِ ظاهرةٌ مِن السِّياقِ مِن قولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ الآيةَ[3] [الصَّافَّات: ١٩].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بالواوِ، وقال بعْدَه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٠] بالفاءِ، وكذلك في سُورةِ (ن): ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]؛ ووَجْهُه: أنَّ الأوَّلَ لِعَطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ فحَسْبُ، والثَّانيَ لِعَطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٤).

بيْنَهما مُناسَبةٌ والْتِئامٌ؛ لأنَّه حكَى أحوالَ أهْلِ الجنَّةِ ومُذاكَرتَهم فيها ما كان يَجْري في الدُّنيا بيْنَهم وبيْنَ أصْدقائِهم، وهو قولُه: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٤٨ – ٥٠]، أي: يَتذاكَرون. وكذلك في ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ هو مِن كَلامِ أصحابِ الجنَّةِ لَمَّا رَأَوْها كالصَّريمِ، ونَدِموا على ما كان منهم، وجَعَلوا يَقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩]، بعْدَ أنْ ذَكَّرَهم التَّسبيحَ أوْسَطُهم، ثمَّ قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم:٣٠]، أي: على تَرْكِهم الاستِثناءَ، وتَخافُتِهم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾[1] [القلم: ٢٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ تَساؤُلِهم؛ كأنَّه قِيل: كيف تَساءَلوا؟ فقِيلَ: قالوا...[2].

٨- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

- جوابُ الزُّعماءِ بقَولِهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ إضرابُ إبطالٍ لِزَعمِ الأتْباعِ أنَّهم الَّذين صَدُّوهم عن طَريقِ الخَيرِ، أي: بلْ هم لم يَكونوا ممَّن يَقبَلُ الإيمانَ؛ لأنَّ تَسليطَ النَّفيِ على فِعلِ الكَونِ دونَ أنْ يُقالَ: بلْ لم تُؤمِنوا، مُشعِرٌ بأنَّ الإيمانَ لم يكُنْ مِن شأْنِهم، أي: بلْ كُنتُم أنتم الآبِينَ قَبولَ الإيمانِ[3].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: وما كان

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٢، ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

لنا عليكم مِن قَهرٍ وغَلَبةٍ -وذلك على قولٍ- حتَّى نُكرِهَكم على رَفضِ الإيمانِ؛ ولذلك أكَّدوا هذا المعنى بقولِهم: ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾، أي: كان الطُّغيانُ -وهو التَّكبُّرُ عن قَبولِ دَعوةِ رجُلٍ منكم- شأْنَكم وسَجيَّتَكم؛ فلذلك أقْحَموا لَفظَ ﴿قَوۡمٗا﴾ بيْن (كان) وخَبرِها؛ لأنَّ استِحضارَهم بعُنوانِ القَوميَّةِ في الطُّغيانِ يُؤْذِنُ بأنَّ الطُّغيانَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾

- فرَّعوا على كَلامِهم اعترافَهم بأنَّهم جميعًا استَحقُّوا العذابَ؛ فقولُهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ تَفريعُ الاعتراضِ، أي: كان أمْرُ ربِّنا بإذاقتِنا عذابَ جهنَّمَ حقًّا[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ بيانٌ لـ﴿قَوۡلُ رَبِّنَآ﴾. وحُكِيَ القولُ بالمعنى على طَريقةِ الالتفاتِ، ولولا الالتفاتُ لَقال: إنَّكم لَذائقونَ، أو إنَّهم لَذائقونَ. ونُكتةُ الالتفاتِ زِيادةُ التَّنصيصِ على المَعْنيِّ بذَوقِ العذابِ؛ لأنَّهم مُتكلِّمون بذلك عن أنفُسِهم[٣].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ذائقون)؛ لدَلالةِ المقامِ عليه، وهو الأمْرُ بقولِه تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[٤] [الصَّافَّات: ٢٣].

١١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾

- فرَّعوا على مَضمونِ رَدِّهم عليهم مِن قولِهم: ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

﴿قَوۡمًا طَٰغِينَ﴾؛ قولَهم: ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾، أي: ما أكْرَهْناكم على الشِّرك، ولكنَّا وَجَدْناكم مُتمسِّكينَ به، وراغِبينَ فيه، فأغْوَيْناكم، أي: فأيَّدْناكم في غَوايتِكم؛ لأنَّا كنَّا غاوِينَ، فسَوَّلْنا لكم ما اخترْناهُ لأنفُسِنا؛ فمَوقعُ جُملةِ ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ مَوقعُ العِلَّةِ، و(إنَّ) مُغْنيةٌ غَناءَ لامِ التَّعليلِ وفاءِ التَّفريعِ[1].

- وزيادةُ ﴿كُنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكينِ الغَوايةِ مِن نُفوسِهم، وقد استبانَ لهم أنَّ ما كانوا عليه غَوايةٌ فأقَرُّوا بها[2].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ هذا الكلامُ مِن اللهِ تعالى مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، ويُشبهُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْن حِكايةِ حِوارِ اللهِ أهلَ الشِّركِ في القيامةِ وبيْنَ تَوبيخِ اللهِ إيَّاهم بقولِه: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ [الصَّافَّات: ٣٨]، والفاءُ هي الفصيحةُ؛ لأنَّها ورَدَتْ بعْدَ تَقريرِ أحوالٍ، وكان ما بعدَ الفاءِ نَتيجةً لتلك الأحوالِ، فكانت الفاءُ مُفصِحةً عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا كان حالُهم كما سمِعْتُم فإنَّهم يومَ القيامةِ في العذابِ مُشتركون؛ لاشتراكِهم في الشِّركِ وتَمالُئِهم، أي: لا عُذْرَ للكلامِ للفريقَينِ؛ لا للزُّعماءِ بتَسويلِهم، ولا للدَّهْماءِ بنَصْرِهم، والمقصودُ هنا بَيانُ عَدَمِ إجداءِ مَعذرةِ كِلا الفريقَينِ وتَنَصُّلِه، وهذه الجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن جُمَلِ حِكايةِ مَوقفِهم في الحِسابِ[3].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا اقْتَضَتْه جُملةُ ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾، أي: فإنَّ جزاءَ المجرمينَ يكونُ مِثلَ ذلك الجزاءِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُؤاخَذةِ التَّابعِ والمتْبوعِ[١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وفي (المُرْسَلاتِ): ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨]؛ ووَجْهُه: أنَّ في هذه السُّورةِ حِيلَ بيْنَ الضَّميرِ وبيْن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بقولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الصَّافَّات:٣٣] فأعاد، وفي (المرسَلاتِ) مُتَّصِلٌ بالأوَّلِ وهو قولُه: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات:١٧، ١٨]؛ فلم يُحتَجْ إلى إعادةِ الضَّميرِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦، ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٥).

الآيات (٢٥-٤٩)

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: ماءٍ ظاهِرٍ جارٍ، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ أو غيرِ ذلك[1].

﴿غَوْلٌ﴾: الغولُ: اسمٌ عامٌّ في الأذى والضَّيرِ، فمنه صُداعُ الرَّأسِ، ومنه وجعُ البطنِ إلى غيرِ ذلك، والغَولُ: فَسادٌ يَلحَقُ في خَفاءٍ، وأصلُه: يدُلُّ على أخذٍ من حيثُ لا يُدرَى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧).

واختلفوا في ﴿مَّعِينٍ﴾ هل على وزنِ فَعيلٍ، والميمُ فيها أصليَّةٌ مِن المَعْنِ، أو على وزنِ مفعولٍ من العَينِ والميمُ فيها زائدةٌ، نحو مَبيعٍ ومَكيلٍ؛ فقيل: سُمِّيَت بمَعينٍ: إمَّا من ظُهورِها للعَينِ، يُقالُ: عانَ الماءُ: إذا ظَهَر جاريًا، أو لشِدَّةِ جَريِها؛ من الإمعانِ في السَّيرِ، أو لكَثرتِها؛ منَ المَعْنِ: وهو الكثيرُ، وسُمِّيَ الماعونُ؛ لكثرةِ الانتفاعِ به، ويُقالُ: مَشرَبٌ مَمعونٌ: لا يكادُ يَنقَطِعُ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٢)، =

﴿يُنزَفُونَ﴾: أي: لا يَسكَرونَ، ولا تَذْهَبُ عُقولُهم، والنَّزيفُ: السَّكرانُ، وأصلُ (نزف): يدُلُّ على نَفادِ شَيءٍ وانقِطاعٍ[(١)].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[(٢)].

﴿عِينٌ﴾: أي: واسِعاتُ العُيونِ، الواحِدةُ عَيناءُ، وأصلُ (عين): يدُلُّ على حاسَّةِ البَصَرِ[(٣)].

﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: أي: بَيضٌ مَصونٌ، شُبِّهْنَ ببَيضِ النَّعامِ، تَكُنُّه النَّعامةُ بالرِّيشِ مِن الرِّيحِ والغُبارِ، والعَرَبُ تُشَبِّهُ المرأةَ النَّاعِمةَ في ضِيائِها وحُسنِها وصَفوةِ النِّعمةِ عليها بالبَيضةِ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[(٤)].

= ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّت بالمشركينَ إلى هذا المصيرِ، فيقولُ: إنَّ أولئك المُشركين كانوا إذا قيلَ لهم في الدُّنيا: قُولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَتكبَّرونَ عن قَولِها، ويقولونَ: أنَقولُ ذلك ونَترُكُ عبادةَ آلهتِنا؛ اتِّباعًا لقولِ شاعرٍ مَجنونٍ؟!

ويَرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: ليس الأمرُ كما زعموا، بل جاءهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ مِن عندِ اللهِ، وصدَّق مَن كان قَبْلَه مِن المُرسَلينَ، فكانت بَعثتُه تصديقًا لهم.

ويُقرِّرُ الله تعالى جزاءَهم على قبيحِ أعمالِهم، فيقولُ: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- لَذائِقو العذابِ المُوجِعِ، وما تُجزَونَ إلَّا جزاءَ عَمَلِكم.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينِ، فيقولُ: لكنْ عبادُ اللهِ الَّذين اصطفاهم اللهُ تعالى، وأخلَصَهم لطاعتِه؛ فأولئك لهم عَطاءٌ معلومٌ: فَواكِهُ، وهم مع ذلك مُكرَمونَ في جنَّاتِ النَّعيمِ مُتقابلينَ على السُّرُرِ، فوُجوهُهم مُتقابِلةٌ لا مُتدابِرةٌ. يُطافُ عليهم بخَمرٍ تجرى في أنهارِ الجنَّةِ، بيضاءِ اللَّونِ، لذيذةِ الطَّعمِ والرَّائحةِ عندَ الشَّاربينَ، ليس فيها أذًى أو فسادٌ يُصيبُ شارِبيها، ولا هُمْ بسَبَبِ شُربِها تَذهَبُ عُقولُهم، كما هو الحالُ في خَمرِ الدُّنيا.

وعندَهم نِساءٌ قَصَرْنَ أبصارَهنَّ على أزواجِهنَّ لا يَمُدُّونَها إلى غيرِهم؛ لشِدَّةِ مَحبَّتِهنَّ لهم، ومِن صفاتِهنَّ أنَّهن واسِعاتُ العُيونِ، كأنَّهنَّ بَيضُ النَّعامِ المَصونِ؛ في صفاءِ البَشَرةِ، ونقاءِ الجَسَدِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى يُبيِّنُ أنَّ المُشرِكينَ إنَّما وقَعوا في ذلك العَذابِ؛ لأنَّهم كانوا مُكَذِّبينَ بالتَّوحيدِ وبالنُّبُوَّةِ[(١)]، فعَلَّل تَعذيبَه لهم بقَولِه[(٢)]:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٥﴾.

أي: إنَّ المُشرِكينَ كانوا دائِمًا إذا قِيلَ لهم في الدُّنيا: قُولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَتكبَّرونَ عن قَولِ ذلك، ولا يَستَجيبونَ لِمَن دعاهم إليه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢].

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أخبَرَ أنَّ المُشرِكينَ استكبَروا على توحيدِ الإلهِ؛ أتْبَعَه الإخبارَ بأنَّهم تكَلَّموا في رَسولِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بما لا يَرضاه[(٤)].

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ٣٦﴾.

أي: ويَقولونَ: أنقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ونَترُكُ عِبادةَ آلهتِنا؛ اتِّباعًا لِقَولِ شاعرٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٨، ٧٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٦).

مَجنونٍ[١]؟!

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ مِن أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم شاعِرٌ مَجنونٌ، وإنَّما هو نَبيٌّ جاء بالقُرآنِ مِن عندِ اللهِ، وفيه الأمرُ بتوحيدِ اللهِ؛ وأنَّه صَدَّقَ المُرسَلينَ الَّذين كانوا قَبْلَه، وأخبَروا بمَجيئِه، فكانت بَعثتُه تَصديقًا لهم، وشَهِدَ هو بنُبوَّتِهم، وأخبَرَ بمِثلِ ما أخبَروا به مِنَ التَّوحيدِ وغَيرِه مِن الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وَصَل المُشرِكونَ إلى هذا الحَدِّ مِن الطُّغيانِ، والزُّورِ الظَّاهِرِ والبُهتانِ؛ تشَوَّف السَّامِعُ إلى جَزائِهم، فاستأنَفَ الإخبارَ بذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٠، ٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٧).

وأيضًا لَمَّا كان قَولُ المُشرِكينَ السَّابِقُ: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١] قولًا صادِرًا منهم، يحتمِلُ أن يكونَ صِدقًا أو غَيرَه؛ أخبَرَ تعالى بالقَولِ الفَصلِ الَّذي لا يحتَمِلُ غيرَ الصِّدقِ واليَقينِ، وهو الخبَرُ الصَّادِرُ منه تعالى، فقال[١]:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: إنَّكم لَذائِقو العذابِ المُؤلِمِ المُوجِعِ؛ بسَبَبِ شِركِكم وتكذيبِكم[٢].

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى عذابَ المُشرِكينَ بأنَّه أليمٌ؛ عَطَف عليه إخبارَهم بأنَّ ذلك المِقدارَ لا حَيفَ عليهم فيه؛ لأنَّه على وِفاقِ أعمالِهم الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا مِن آثارِ الشِّركِ[٣].

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وما تُجزَونَ إلَّا الَّذي كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، فلا يَظلِمُكم اللهُ بتَعذيبِكم على ما لم تَعمَلوا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى أحوالَ المتكَبِّرينَ عن قَبولِ التَّوحيدِ، المُصِرِّينَ على إنكارِ النُّبُوَّةِ؛ أردَفَه بذِكرِ حالِ المُخلَصينَ في كيفيَّةِ الثَّوابِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان الخِطابُ في الآيةِ السَّابقةِ لَفظُه عامًّا، والمرادُ به المُشرِكونَ؛ استثنَى تعالى المؤمِنينَ، فقال(٢):

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ، اسمُ مَفعولٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى أخلَصَهم، فصاروا مُخلَصينَ(٣).

٢- قِراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّامِ، اسمُ فاعلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دِينَهم وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) قرأ بها نافِعٌ، وعاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥). =

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾.

أي: لكنْ[(١)] عبادُ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ لطاعتِه، واختارَهم لخاصَّةِ رَحمتِه؛ فإنَّهم لا يَذوقونَ العَذابَ، ويَتجاوَزُ اللهُ تعالى عن سيِّئاتِهم إن كان لهم سيِّئاتٌ، ويُثيبُهم اللهُ تعالى بأعمالِهم الصَّالحةِ أضعافًا مُضاعَفةً[(٢)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١﴾.

أي: أولئك المخلَصونَ مِن عبادِ اللهِ: لهم عَطاءٌ غيرُ مَجهولٍ[(٣)].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه الجنَّةُ. قاله قَتادةُ. والثَّاني: أنَّه الرِّزقُ في الجنَّةِ. قاله السُّدِّيُّ، فعلى هذا في معنى ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه بمِقدارِ الغَداةِ والعَشيِّ. قاله ابنُ السَّائبِ. والثَّاني: أنَّهم حينَ يَشتَهونهُ يُؤْتَونَ به. قاله مُقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٠).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: أنَّ المرادَ الرِّزقُ في الجنَّةِ، أي: أنَّه معلومُ الوقتِ، أي: بمِقدارِ الغَداةِ والعَشيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ٦٢]: السمعانيُّ، والبغوي، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ أي: حينَ يَشتَهونهُ يُؤتَونَ به، فلا يتخلَّفُ عن ميعادِه، ولا يَنتظِرُه أهلُه: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١). =

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ للمُؤمِنينَ رِزقًا؛ بيَّن ذلك الرِّزقَ ما هو، فقال[١]:

﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢)﴾.

أي: لهم فَواكِهُ مُتنوِّعةٌ يَتنعَّمونَ بها ويَتلذَّذونَ، وهم مع ما أعطاهم اللهُ مِنَ الرِّزقِ يُكرَمونَ دائِمًا بأنواعِ الكَراماتِ، فيُعَظَّمونَ ولا يُحتقَرونَ ولا يُهانُونَ[٢].

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣)﴾.

= وذهب البِقاعي وابنُ عثيمينَ إلى العُمومِ؛ فهو مَعلومٌ وَقتُه، ومَعلومٌ نَوعُه، وغيرُ ذلك ممَّا يتعلَّقُ به. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٤، ٩٥).

قال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿مَّعْلُومٌ﴾ معناه: عندَهم، فقد قَرَّتْ عيونُهم بعِلمِ ما يَستَدِرُّ عليهم مِنَ الرِّزقِ، وبأنَّ شهواتِهم تأتيهم لحينِها، وإلَّا فلو كان ذلك معلومًا عندَ الله تعالى فقط لَما تخصَّص أهلُ الجنَّةِ بشَيءٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٦).

قال المظهري: (فواكِهُ: جمعُ فاكِهةٍ، بَدَلٌ أو بيانٌ للرِّزقِ، وهي ما يُقصَدُ به التَّلَذُّذُ دونَ التَّغَذِّي، والقُوتُ ما يُقصَدُ به التَّغذِّي دونَ التَّلذُّذِ، والرِّزقُ يَعُمُّهما). ((التفسير المظهري)) (٨/ ١١٥).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مأكولَهم، وَصَف تعالى مَساكِنَهم[1].

وأيضا لَمَّا كان الإكرامُ لا يَتِمُّ إلَّا مع طِيبِ المُقامِ، قال[2]:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: يُنعَّمُ عِبادُ اللهِ ويُكرَمونَ في جَنَّاتٍ ليس فيها إلَّا النَّعيمُ الحِسِّيُّ والمَعنويُّ؛ فلا بُؤسَ فيها ولا شَقاءَ[3].

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّلَذُّذُ لا يَكمُلُ إلَّا مع الأحبابِ، وكانت عادةُ الملوكِ الاختِصاصَ بالمحَلِّ الأعلى؛ بيَّنَ أنهم كُلَّهم مُلوكٌ، فقال[4]:

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: يُقابِلُ أصحابُ الجنَّةِ بَعضُهم بَعضًا وهم على السُّرُرِ في غايةِ الرَّاحةِ والطُّمأنينةِ وصَفاءِ القُلوبِ، يَتحابُّونَ فيما بيْنَهم، ويَأنَسونَ باجتِماعِهم، ويُنَعَّمونَ بنَظَرِ بَعضِهم إلى بَعضٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).



كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى صِفةَ المأكَلِ والمَسكَنِ؛ ذكَرَ بَعدَه صِفةَ الشَّرابِ[١]، فقال:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: تُدارُ عليهم في مجالِسِهم خمرٌ مِن أنهارِ الخَمرِ الجاريةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: بَيضاءِ اللَّونِ[٣]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).

ويقالُ للزُّجاجةِ فيها الخَمْرُ: كأسٌ، وتُسمَّى الخمرُ نفْسُها كأسًا. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٤).

(٣) قيل: المرادُ: لَونُ الخَمرِ نَفْسِها. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير =

طَعمُها طَيِّبٌ يَتلذَّذُ بها شارِبوها[١].

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد أثبَت لخَمرِ الجنَّةِ الكَمالَ؛ نفَى عنها النَّقصَ، فقال[٢]:

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾.

أي: ليس في خَمرِ الجنَّةِ أيُّ أذًى أو فَسادٌ يُصيبُ شارِبيها؛ مِن وَجعِ بَطنٍ، وصُداعِ رأسٍ، أو غيرِ ذلك مِن الأمراضِ والآلامِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ [الواقعة: ١٩].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يُنْزِفُونَ﴾ بكَسرِ الزَّايِ، قيل: بمعنى: لا يَنفَدُ شَرابُهم. وقيل:

= السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١).

وقيل: المرادُ: كأسُ الخَمرِ، أي: كأسٌ بَيضاءُ اللَّونِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٢، ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).

قال ابن جرير: (لا أذًى فيها، ولا مَكْروهٌ على شارِبيها؛ في جِسْمٍ، ولا عقلٍ، ولا غيرِ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥).

لا يَسكَرونَ[1].

٢- قِراءةُ ﴿يُنزَفُونَ﴾ بفَتحِ الزَّايِ، أي: لا تَزولُ عُقولُهم إذا شَرِبوها[2].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

أي: ولا تَزولُ عُقولُ أهلِ الجنَّةِ؛ بسَبَبِ شُربِهم الخَمرَ، فهم لا يَسكَرونَ بشُربِها[3].

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صِفةَ مَشروبِ أهلِ الجنَّةِ؛ ذكَرَ عَقيبَه صِفةَ مَنكوحِهم[4]، فقال:

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وعندَ عِبادِ اللهِ المُخلَصينَ في الجنَّةِ نِساءٌ قد قصَرْنَ أطرافَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ فلا يَنظُرْنَ إلى غَيرِهم مِنَ الرِّجالِ، ولا يُرِدْنَ غيرَ أزواجِهنَّ، ومن

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).
قال النَّحَّاسُ: (أصلُ نَزَفَ: نَقَص، والمعنى: لا يَلحَقُهم نُقصانٌ بسُكرٍ ولا غَيرِه؛ فنفَى اللهُ جلَّ وعَزَّ عنهم السُّكْرَ؛ لِما فيه مِن الباطِلِ والسَّفَهِ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٣).

صِفاتِهِنَّ أنَّ عُيونَهنَّ حِسانٌ واسِعاتٌ[1].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾.

أي: كأنَّ نِساءَ أهلِ الجنَّةِ كالبَيضِ المَصونِ المَحفوظِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣، ١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ عاشور: (قاصِراتُ الطَّرْفِ، أي: حابِساتٌ أنظارَهنَّ؛ حياءً وغُنْجًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وقال السَّعدي: (قاصِراتُ الطَّرْفِ: إمَّا أنَّها قَصَرت طَرْفَها على زَوجِها؛ لِعفَّتِها وعدَمِ مُجاوزتِه لغَيرِه، ولجمالِ زَوجِها وكمالِه؛ بحيث لا تَطلُبُ في الجنَّةِ سِواه، ولا تَرغَبُ إلَّا به؛ وإمَّا لأنَّها قَصَرت طَرْفَ زَوجِها عليها، وذلك يدُلُّ على كمالِها وجمالِها الفائِقِ الَّذي أوجَبَ لزَوجِها أن يَقصُرَ طَرْفَه عليها، وقَصْرُ الطَّرْفِ أيضًا يدُلُّ على قَصرِ النَّفْسِ والمحبَّةِ عليها، وكِلا المعنيَينِ مُحتملٌ، وكِلاهما صحيحٌ، وكُلُّ هذا يدُلُّ على جمالِ الرِّجالِ والنِّساءِ في الجنَّةِ، ومحبَّةِ بَعضِهم بَعضًا محبَّةً لا يَطمَحُ إلى غيره، وشِدَّةِ عِفَّتِهم كُلِّهم، وأنَّه لا حَسَدَ فيها ولا تَباغُضَ ولا تَشاحُنَ؛ وذلك لانتفاءِ أسبابِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤١).

وقال ابنُ عثيمين: (وكِلا المعنيينِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٠).

وممَّن جمَعَ بيْن كِلا القولَينِ: البقاعي، فقال: (أي: لا تَطرِفُ واحِدةٌ منهنَّ إلى غيرِ زَوجِها، ولا يَدَعُه تناهي حُسنِها وفَرطُ جمالِها يَطرِفُ إلى غَيرِها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٣٢).

وقال ابنُ القيِّم: (وقيل: قصَرْنَ طَرْفَ أزواجِهنَّ، فلا يَدَعُهم حُسنُهنَّ وجمالُهنَّ أن يَنظُروا إلى غَيرِهنَّ. وهذا صحيحٌ مِن جهةِ المعنى، وأمَّا من جهةِ اللَّفظِ فقاصِراتٌ: صفةٌ مُضافةٌ إلى الفاعلِ لِحِسانِ الوُجوهِ، وأصلُه قاصِرٌ طَرْفُهنَّ، أي: ليس بطامِحٍ مُتعدٍّ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٩، ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وُجوبُ الخُضوعِ لِمَا تَقتَضيه هذه الكَلِمةُ؛ لأنَّ اللهَ ساقَها في القَومِ المُستَكبِرينَ عنها مَساقَ الذَّمِّ، وعلى هذا فمَن قَبِلَها وخَضَع لها فقد نَفَى عن نفْسِه الذَّمَّ، وقام بما

= اختلف المفَسِّرون في المرادِ بالبَيضِ المكنونِ؛ فقيل بأنَّه: بَيضُ النَّعامِ الَّذي تَكُنُّه بالرِّيشِ مِن الرِّيحِ والغُبارِ ونحوِ ذلك، وأنَّ لونَها أبيضُ في صُفرةٍ، وأنَّه أحسَنُ ألوانِ النِّساءِ، وأنَّ العَرَبَ تُشَبِّهُ المرأةَ النَّاعِمةَ في بياضِها وحُسنِ لَونِها ببَيضةِ النَّعامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ، وابنُ زَيدٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٩).

قال ابنُ عاشور: (البَيضُ المكنونُ: هو بَيضُ النَّعامِ، والنَّعامُ يُكِنُّ بَيضَه في حُفَرٍ في الرَّملِ، ويَفرُشُ لها مِن دَقيقِ رِيشِه... فيكونُ البَيضُ شَديدَ لَمعانِ اللَّونِ، وهو أبيضُ مَشوبٌ بياضُه بصُفرةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وقيل: هو بَياضُ البَيضِ الَّذي في داخِلِ القِشرِ قبل أن تَمَسَّه يَدٌ أو غيرُها، وليس المرادُ بها القِشرةَ العُليا؛ فإنَّ الطَّائِرَ يمَسُّها، والأيديَ تُباشِرُها، والعُشَّ يَلْقاها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ، وقَتادةُ، وعطاءٌ الخُراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٩).

قال ابنُ عثيمين: (لِرِقَّتِهنَّ وبَياضِهنَّ ونُعومةِ المَلمَسِ كأنَّها البَيضُ، أي: البياضُ الَّذي في البَيضِ، وهو مكنونٌ بقِشرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١١).

وقيل: المرادُ أنَّهنَّ كاللُّؤلؤِ المكنونِ، كما قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]. وممَّن رُوِيَ عنه ذلك: ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤١).

يَجبُ عليه[١]. فتَحَقُّقُ التَّوحيدِ لا يكونُ إلَّا بالانقيادِ؛ فإذا عَلِمْتَ واعتقَدْتَ ولم تَنقَدْ، لم تُحَقِّقِ التَّوحيدَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كمالُ أَدَبِ أهلِ الجنَّةِ؛ حيث كانوا يَتقابَلونَ بحيثُ لا يَقْفو أحدُهم الآخَرَ، بل كلُّهم يَكونونَ مُستقبِلًا بَعضُهم بَعضًا، وهذا لا شَكَّ أنَّه مِن كمالِ الأدبِ، والأدبُ كما أنَّه حَسَنٌ في أهلِ الجنَّةِ فهو حَسَنٌ في أهلِ الدُّنيا أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ولا شَكَّ أنَّ الإنسانَ إذا كان مُؤَدَّبًا كان محبوبًا عندَ النَّاسِ؛ فالجفاءُ وعَدَمُ المبالاةِ بالنَّاسِ خُلُقٌ ذَميمٌ[٣].

٣- مِن صفاتِ المرأةِ الجَميلةِ كَونُها قاصِرةَ الطَّرفِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾[٤]، فامتَدحَ نِساءَ الجنَّةِ بكَونِهنَّ قاصِراتِ الطَّرفِ على أزواجِهنَّ، لا يَنظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهنَّ، فنَظرُ المرأةِ إلى غيرِ زوجِها فِتنةٌ، ويَتفَرَّعُ على ذلك أنَّ على الإنسانِ أنْ يُراعِيَ زوجتَه في هذا البابِ، بحيثُ يَمنَعُها مِن التَّطَلُّعِ إلى غيرِه، سواءٌ كان هذا التَّطَلُّعُ إلى الرَّجُلِ مُباشَرةً، أو بواسطةِ الوَسائلِ الإعلاميَّةِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أيضًا: أنْ يَمنَعَها مِن الخُروجِ إلى الأسواقِ إلَّا لحاجةٍ؛ لأنَّ المرأةَ إذا خرَجَتْ إلى الأسواقِ ورَأَتِ النَّاسَ فرُبَّما تُعجَبُ بأحَدِهم، ويَتَعلَّقُ قلبُها به فتَعزِفُ عن زَوجِها، ويَضعُفُ حبُّها له، ورُبَّما تُبغِضُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٤).
(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٥).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الضَّميرُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائِدٌ إلى المذكورِ السَّابِقِ، وهو قَولُه: ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ لَفظَ (المُجرِم) المُطلَقَ: مختَصٌّ في القرآنِ بالكافِرِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أنَّه لا يَجوزُ صَرفُ شَيءٍ مِن أنواعِ العبادةِ لغَيرِ اللهِ؛ لا صلاةً ولا نَذرًا، ولا سُجودًا ولا ركوعًا، ولا حَجًّا، كلُّه يجبُ أنْ يُصرَفَ لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه هو المعبودُ حقًّا[٢].

٣- أنَّ هؤلاء المُستكبِرين لم يَكْفِهم الاستِكبارُ عن الحقِّ حتَّى قَدَحوا فيمَن جاء بالحَقِّ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾، فلم يَكْفِهم أنْ تَركوا الحَقَّ حتَّى هاجَموا وقَدَحوا فيمَن جاء به، وقد وُرِثَتْ هذه الطَّريقةُ -أي: القَدحُ بمَن جاء بالحَقِّ-؛ فأهلُ البِدَعِ يُسَمُّونَ أهلَ السُّنَّةِ بكُلِّ عَيبٍ ووَصفٍ قَبيحٍ؛ سَمَّوهم المُشبِّهةَ، والمُجَسِّمةَ، والحَشويَّةَ، والغُثاءَ، والنَّوابِتَ، والعامَّةَ... وما أشْبَهَ ذلك مِن الكَلماتِ الَّتي تُفيدُ القَدْحَ، ولكِنْ جَعَلَ اللهُ سُبحانَه وتعالى لكلِّ نبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرمينَ، ولِكُلِّ مُتَّبِعِ نَبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرِمينَ؛ فوَرِثَ هؤلاء الأصفياءُ صَفوةَ الخَلْقِ، وهم الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووَرِثَ هؤلاء الأشقياءُ أشقَى الخَلْقِ الَّذين يَقدَحُون في الرُّسُلِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: صَدَّقَهم في مَجيئِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥، ٨٦).

بالتَّوحيدِ، ونَفيِ الشَّريكِ، وهذا تَنبيهٌ على أنَّ القَولَ بالتَّوحيدِ دِينٌ لكُلِّ الأنبياءِ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الرُّسُلَ السَّابقِين أخبَروا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمجيئُه صلَّى الله عليه وسلَّم تصديقٌ لِما أخْبَروا به مِن أنَّه سيُبعَثُ، وآخِرُهم عيسى عليه السَّلامُ، قال لقومِه: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[(٢)] [الصف: ٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لو لم يَظْهَرْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَبَطَلَتْ نُبُوَّةُ سائرِ الأنبياءِ، فظُهورُ نُبوَّتِه تصديقٌ لشَهادتِهم، وشَهادةٌ لهم بالصِّدقِ، فإرسالُه مِن آياتِ الأنبياءِ قبْلَه؛ فإنَّ المُرسَلينَ بَشَّروا به، وأخبَروا بمجيئِه، فمجيئُه هو نفْسُ صِدْقِ خَبَرِه، فكأنَّ مجيئَه تصديقٌ لهم؛ إذْ هو تأويلُ ما أخبَروا به، ولا تنافيَ بيْنَ هذا وبينَ القولِ الآخَرِ: «أنَّ تصديقَه المُرسَلينَ بشَهادتِه بصِدقِهم، وإيمانِه بهم»، فإنَّه صَدَّقَهم بقولِه وبمجيئِه؛ فشَهِدَ بصِدْقِهم بنفْسِ مجيئِه؛ وشَهِدَ بصِدْقِهم بقولِه، فعادةُ اللهِ في رُسُلِه أنَّ السَّابقَ يُبَشِّرُ باللَّاحقِ؛ واللَّاحقَ يُصَدِّقُ السَّابقَ، فلو لم يَظْهَرْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولو لم يُبْعَثْ؛ لَبَطَلَتْ نُبُوَّةُ الأنبياءِ قبْلَه[(٣)]!

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: أنَّ ما دعاكم إليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن التَّوحيدِ: قد دَعَت إليه الرُّسُلُ مِن قَبْلِه، وهذا احتِجاجٌ بالنَّقلِ عَقِبَ الاحتِجاجِ بأدلَّةِ النَّظَرِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨١، ٨٨).
(٣) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّه يَجِبُ علينا أنْ نُصَدِّقَ مَن سَبَقَ مِن الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ نبيَّنا صلَّى الله عليه وسلَّم صَدَّقَ المُرسَلينَ، فيَجِبُ علينا نحن أنْ نُصَدِّقَ؛ لأنَّه يَجِبُ على المأمومِ مُتابَعةُ الإمامِ، فإمامُنا مُحمَّدٌ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، فيجبُ علينا أنْ نَتَّبِعَه(١).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ مُجازَونَ على أعمالِهم السَّيِّئةِ مِن الأقوالِ والأعمالِ؛ كتَمجيدِ آلهتِهم، والدُّعاءِ لها، وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأذاه وأذى المؤمِنينَ، وقَولِهم في أصنامِهم أنَّهم شُفَعاءُ عندَ اللهِ، وفي الملائِكةِ أنَّهم بَناتُ اللهِ، ومِن قَتلِ الأنفُسِ، والغارةِ على الأموالِ، ووَأْدِ البناتِ، والزِّنا؛ فإنَّ ذلك كُلَّه ممَّا يَزيدُهم عذابًا، وهو يؤيِّدُ قَولَ الَّذين ذَهَبوا إلى أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ، وأنَّ ذلك واقِعٌ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عُبِّرَ عن الجَزاءِ بالعَمَلِ، والفائِدةُ في ذلك أمْرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أنْ يُعلَمَ بأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما تَدينُ تُدانُ، فإذا عُبِّرَ عن الجزاءِ بالعَمَلِ فإنَّ هذا معناه أو مُقتَضاه أنَّ هذا الجزاءَ بقَدرِ العَمَلِ.

الأمرُ الثَّاني: قُوَّةُ التَّوبيخِ لهؤلاء؛ لأنَّ الجزاءَ إذا كان مِن فِعلِ غَيرِهم فإذا عُبِّرَ عنه بالجزاءِ فإنَّه يكونُ أهْوَنَ بَعضَ الشَّيءِ، لكِنْ إذا عُبِّرَ بالعَمَلِ عن الجزاءِ صار أشَدَّ في التَّوبيخِ، كأنَّه يُقالُ لهم: هذا فِعلُكم أنتم بأنفُسِكم؛ ولهذا عُبِّرَ عن الجَزاءِ بالعَمَلِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أنَّ عِبادَ اللهِ عزَّ وجلَّ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ: عِبادٍ مُخلَصينَ، وعِبادٍ غَيرِ مخلَصينَ؛ فالعِبادُ بمعنى: عُبوديَّةِ القَدَرِ، هؤلاءِ غيرُ مُخلَصينَ، بل هم كالأنعامِ -بل هم أضَلُّ-، وأمَّا العِبادُ للهِ تَعَبُّدَ شَرْعٍ فإنَّ هؤلاء هم المُخلَصونَ[١].

١٢- أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَمُنُّ على مَن يَشاءُ فيُخلِصُهم لِنَفْسِه حتَّى لا يَكونوا عَبيدًا لِغَيرِه؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وهذا أبلَغُ مِن «المُخلِصينَ»، وإنْ كان لكلٍّ منهما مَزِيَّةٌ، ولكنَّ المُخْلَصَ الَّذي أخلَصَه اللهُ عزَّ وجلَّ لِنَفْسِه، فلم يكُنْ له إرادةٌ سِوى ربِّه، هذا أبلَغُ[٢].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ وُجودَ إكرامِهم مِن كُلِّ شَيءٍ: أمرٌ حَتمٌ لا يكونُ غَيرُه أصلًا[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أنَّ الجنَّةَ أصنافٌ وأنواعٌ، ولكِنَّها تَشترِكُ كُلُّها في أنَّها جنَّاتُ نَعيمٍ[٤].

١٥- قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، فإنَّ مُقابَلةَ وُجوهِهم تَدُلُّ على تقابُلِ قُلوبِهم، وتأدُّبِ بَعضِهم مع بَعضٍ؛ فلم يَستدبِرْه أو يَجعَلْه إلى جانِبِه، بل مِن كَمالِ السُّرورِ والأدَبِ ما دَلَّ عليه ذلك التَّقابُلُ[٥]. وأيضًا هذا أتَمُّ للأُنسِ؛ لأنَّ فيه أُنسَ الاجتِماعِ، وأُنسَ نَظَرِ بَعضِهم إلى بَعضٍ؛ فإنَّ رُؤيةَ الحَبيبِ والصَّديقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

تُؤنِسُ النَّفْسَ[١].

١٦- قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ السُّرُرُ: جَمعُ سَريرٍ، وهو ككُرسيٍّ واسِعٍ يُمكِنُ الاضطِجاعُ عليه، وكان الجُلوسُ على السَّريرِ مِن شِعارِ الملوكِ وأضرابِهم، وذلك جلوسُ أهلِ النَّعيمِ؛ لأنَّ الجالِسَ على السَّريرِ لا يجِدُ مَلَلًا؛ لأنَّه يُغيِّرُ جِلسَتَه كيف تيسَّرُ له[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ سَعَةُ مَحَلَّاتِ أهلِ الجنَّةِ؛ لِكَونِهم مُتقابِلينَ على السُّرُرِ؛ لأنَّ التَّقابُلَ يؤدِّي إلى سَعةِ المكانِ، لا سيَّما مع كَثرتِهم[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ راحةُ أهلِ الجنَّةِ؛ حيث كانوا مُتَفرِّغينَ على السُّرُرِ، يَتحدَّثُ بعضُهم إلى بَعضٍ، ويَأنَسُ بعضُهم إلى بَعضٍ على وَجهِ التَّقابُلِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾

- استئنافٌ بَيانيٌّ أفاد تَعليلَ جَزائِهم، وبَيانَ إجرامِهم بذِكرِ ما كانوا عليه مِن التَّكبُّرِ عن الاعترافِ بالوَحدانيَّةِ للهِ، ومِن وَصفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما هو مُنزَّهٌ عنه وَصْفًا يَرْمُون به إلى تَكذيبِه فيما جاء به، فحَرْفُ (إنَّ) هنا ليس للتَّأكيدِ؛ لأنَّ كَونَهم كذلك ممَّا لا مُنازِعَ فيه، وإنَّما هو للاهتمامِ بالخبَرِ؛ فلذلك تُفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ، وتُغْني غَناءَ فاءِ التَّفريعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦١).

- وذُكِرَ فِعلُ الكونِ ﴿كَانُوٓاْ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ ما تَضمَّنَه الخَبَرُ وَصفٌ مُتمكِّنٌ منهم، فهو غيرُ مُنقطِعٍ، ولا هُمْ حائِدونَ عنه[١].

- وفاعِلُ القولِ المَبْنيِّ فِعلُه للنَّائبِ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فحُذِفَ للعِلمِ به[٢].

- الاستكبارُ: شِدَّةُ الكِبْرِ، فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، أي: يَتعاظَمون عن أنْ يَقبَلوا ذلك مِن رجُلٍ مِثلِهم، ولك أنْ تَجعَلَ السِّينَ والتَّاءَ للطَّلبِ، أي: إظهارِ التَّكبُّرِ، أي: يَبْدو عليهم التَّكبُّرُ والاشمئزازُ مِن هذا القولِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ﴾

- أتَوا بالنَّفيِ على وَجهِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ إظهارًا لِكَونِ ما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرٌ مُنكَرٌ لا يُطمَعُ في قَبولِهم إيَّاهُ؛ تَحذيرًا لِمَن يَسمَعُ مَقالَتَهم مِن أنْ يَجولَ في خاطِرِه تَأمُّلٌ في قَولِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وقَوَّوا هذا التَّحذيرَ بجَعْلِ حَرْفِ الإنكارِ مُسلَّطًا على الجُملةِ المُؤكَّدةِ بحَرْفِ التَّوكيدِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم إذا أتَوا ما أنْكَروه كانوا قد تَحقَّقَ تَرْكُهم آلهتَهم، تنزيلًا لِبَعضِ المخاطَبينَ مَنزلةَ مَن يَشُكُّ في أنَّ الإيمانَ بتَوحيدِ الإلهِ يُفْضي إلى تَرْكِ آلهتِهم؛ لِيَسُدُّوا على المخاطَبينَ مَنافذَ التَّردُّدِ أنْ يَتطرَّقَ منها إلى خَواطِرِهم[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ اعتراضٌ في آخِرِ الاعتراضِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٧، ١٠٨).

قُصِدَت منه المُبادرةُ بتَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا قالوه، و﴿بَلۡ﴾ إضرابُ إبطالٍ لِقَولِهم: ﴿لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصَّافَّات: ٣٦]، وبإثباتِ صِفَته الحقِّ لِبَيانِ حقيقةِ ما جاء به. وفي وَصفِ ما جاء به أنَّه الحقُّ ما يَكْفي لِنَفي أنْ يكونَ شاعرًا ومَجنونًا؛ فإنَّ المشركينَ ما أرادوا بوَصفِه بشاعرٍ أو مَجنونٍ إلَّا التَّنفيرَ مِن اتِّباعِه، فمَثَّلوه بالشَّاعرِ مِن قَبيلةٍ يَهْجو أعداءَ قَبيلتِه، أو بالمجنونِ يقولُ ما لا يَقولُه عُقلاءُ قَومِه؛ فكان قولُه تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مُثبِتًا لكونِ الرَّسولِ على غيرِ ما وَصَفوه إثباتًا بالبَيِّنة، وأُتبِعَ ذلك بتَذكيرِهم بأنَّه ما جاء إلَّا بمِثلِ ما جاءت به الرُّسلُ مِن قَبْله، فكان الإنصافُ أنْ يُلحِقوه بالفريقِ الَّذي شابَهَهم، دونَ فَريقِ الشُّعراءِ أو المجانينِ[(١)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ * وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- مِن كلامِ اللهِ يومَ القيامةِ الموجَّهِ إلى المشرِكينَ عقِبَ تَساؤُلِهم وتَحاوُرِهم، فيَكونُ ما بيْن هذا وبيْن مُحاورَتِهم المُنْتهيةِ بقولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٣٢] اعتراضًا، أي: فلمَّا انتهَوا مِن تَحاوُرِهم خُوطِبوا بما يَقطَعُ طَمَعَهم في قَبولِ تَنصُّلِ كِلا الفريقينِ مِن تَبِعاتِ الفريقِ الآخَرِ؛ لِيَزْدادوا تَحقُّقًا مِن العذابِ الَّذي عَلِموه مِن قَولِهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٣١]، وهذا ما تَقْتَضيه دَلالةُ اسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ حقيقةٌ في الحالِ، أي: حالِ التَّلبُّسِ؛ فإنَّه لَمَّا قِيلَ لهم هذا كانوا مُشرِفينَ على الوُقوعِ في العذابِ، وذلك زمَنُ حالٍ في العُرْفِ العربيِّ[(٢)].

- في قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٩).

لِمُجابَهتِهم بإظهارِ كَمالِ الغضَبِ، وأنَّه بلَغَ أقْصى آمادِه وحُدودِه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن ضَميرِ (ذَائِقُو)، وما بيْنَهما اعتراضٌ، جِيءَ به؛ مُسارعةً إلى تَحقيقِ الحقِّ ببَيانِ أنَّ ذَوقَهم العذابَ ليس إلَّا مِن جِهَتِهم، لا مِن جِهَةِ غيرِهم أصْلًا[٢].

- وهذا الاستثناءُ المُنقطِعُ في مَعنى الاستدراكِ، وهذا الاستدراكُ تَعقيبٌ على قَولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٣٣]؛ فإنَّ حالَ عِبادِ اللهِ المخلَصينَ تامُّ الضِّدِّيَّةِ لحالِ الَّذين ظَلَموا، وليس يَلزَمُ في الاستدراكِ أنْ يكونَ رَفْعَ تَوهُّمٍ، وإنَّما ذلك غالِبٌ[٣].

- وذِكرُ المؤمنينَ بوَصفِ العُبوديَّةِ المضافةِ للهِ تعالى ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، تَنويهٌ بهم وتَقريبٌ[٤]؛ ففيه شَرَفُ القائِمينَ بأمرِ اللهِ تعالى، ولا شَكَّ أنَّه فَخرٌ للإنسانِ أن يُنسَبَ إلى عبادةِ اللهِ[٥].

- والمُخلَصينَ: صِفةُ مَدْحٍ؛ لأنَّ كَونَهم عِبادَ اللهِ يَلزَمُ منه أنْ يَكونوا مُخلَصينَ[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَا أفادَهُ الاستِثناءُ إجمالًا بَيانًا تَفْصيليًّا[٧].

- والإشارةُ إلى عِبادِ اللهِ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ قُصِدَ منها التَّنبيهُ على أنَّهم استَحقُّوا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

ما بعدَ اسمِ الإشارةِ لِأجْلِ ما أُثبِتَ لهم مِن صِفَةِ الإخلاصِ، وذلك مِن مُقتضياتِ تَعريفِ المسنَدِ إليه بالإشارةِ، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ بعُلوِّ طَبقتِهم، وبُعدِ مَنْزِلَتِهم في الفضلِ[١].

- وقولُه: ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ فيه إيجازٌ؛ فقد نابَتْ هذه الكلمةُ عن الأوقاتِ والمُدَدِ، واندرَجَت فيها العَشايا والأصائلُ والبُكَرُ، كما نابَتْ عن الطُّعومِ المُتفاوِتةِ والرَّوائحِ المُتبايِنةِ الَّتي تَختلِفُ في المَظهرِ، وتَتَّفِقُ في طِيبِها[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ فُسِّرَ الرِّزقُ المعلومُ بالفواكهِ، وهي كلُّ ما يُتلذَّذُ به ولا يُتقوَّتُ لحِفْظِ الصِّحَّةِ، وتَخصيصُها بالذِّكرِ؛ لأنَّهم مُسْتغنُون عن حِفظِ الصِّحَّةِ بالأقواتِ، بأنَّهم أجسامٌ مُحكمةٌ مَخلوقةٌ للأبَدِ، فكلُّ ما يَأكُلونه يَأكُلونه على سَبيلِ التَّلذُّذِ. وقيل: المقصودُ مِن ذِكرِ الفاكهةِ التَّنبيهُ بالأدْنى على الأعلَى، يعني: لَمَّا كانت الفاكهةُ حاضرةً أبدًا، كان الإدامُ أَولى بالحضورِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ عطفٌ على ﴿لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾، أي: يُعامَلون بالحَفاوةِ والبهجةِ؛ فإنَّه وسَّطَ في أثناءِ وَصفِ ما أُعِدَّ لهم مِن النَّعيمِ الجُسمانيِّ أنَّ لهم نَعيمَ الكرامةِ، وهو أهمُّ؛ لأنَّ به انتعاشَ النَّفْسِ، مع ما في ذلك مِن خُلوصِ النِّعمةِ ممَّن يُكدِّرُها؛ وذلك لأنَّ الإحسانَ قد يكونُ غيرَ مُقترِنٍ بمدْحٍ وتَعظيمٍ ولا بأذًى، وهو الغالبُ، وقد يكونُ مُقترِنًا بأذًى، وذلك يُكدِّرُ مِن صَفوِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فإذا كان الإحسانُ مع عِباراتِ الكرامةِ وحُسنِ التَّلقِّي فذلك الثَّوابُ. وهو كالتَّكميلِ للكلامِ السَّابقِ، أو أنَّه كالتَّذييل[١]. فلَمَّا ذكَرَ الأكلَ؛ بيَّنَ أنَّ ذلك الأكلَ حاصِلٌ مع الإكرامِ والتَّعظيمِ؛ لأنَّ الأكلَ الخاليَ عن التَّعظيم يَليقُ بالبَهائِمِ[٢]. فقَولُه تعالى: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ تَتميمٌ بَليغٌ للنَّعيمِ؛ لأنَّه رُبَّ مَرزوقٍ غَيرُ مُكرَمٍ، وذلك أعظَمُ التَّنكيدِ[٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في جنَّاتٍ ليس فيها إلَّا النَّعيمُ، وهو ظرْفٌ أو حالٌ مِن المُسْتَكِنِّ في ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾، أو خبَرٌ ثانٍ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ۞ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ إمَّا استئنافٌ لبيانِ ما يكونُ لهم في مجالسِ أُنسِهم، أو حالٌ مِن الضميرِ في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أو في أحدِ الجارَّينِ، وجُوِّزَ كونُه صفةً لـ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾[٥].

- ووُصِفَ الخمرُ بأنَّه ﴿مِّن مَّعِينِۭ﴾؛ لأنَّه يَجري في الجنَّةِ في أنهارٍ كما يَجري الماءُ في الدُّنيا، أو للإشعارِ بأنَّ ما يكونُ لهمْ بمَنزلةِ الشَّرابِ جامعٌ لِمَا يُطلَبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٤).

مِن أنواعِ الأشربةِ؛ لِكَمالِ اللَّذَّةِ[١].

- والمَعينُ بوَزنِ فَعيلٍ، مِثالُ مُبالَغةٍ مِن المَعْنِ، وهو الإبعادُ في الفِعلِ؛ شُبِّهَ جَرْيُه بالإبعادِ في المشْيِ[٢]. وذلك على قولٍ.

- ووُصِفتْ الكأسُ بالمصدرِ في قولِه: ﴿لَذَّةٍ﴾؛ للمُبالَغةِ، بجَعلِها نفْسَ اللَّذَّةِ، فالوصفُ بالمصدرِ أبلغُ مِن الوصفِ بالمشتقِّ مِن المصدرِ، كاسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ، فقولُك: (فلانٌ عدلٌ) أبلغُ مِن: (فلانٌ عادلٌ). وجُوِّز أن تكونَ ﴿لَذَّةٍ﴾ تأنيثَ (لَذٍّ) بمعنى لذيذٍ، أو على حذفٍ، أي: ذاتِ لَذَّةٍ[٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ دونَ (لهم): إشارةٌ إلى أنَّها يَلتَذُّ بها الشَّاربُ كائنًا مَن كان[٤]، فهو مِن بابِ التَّوكيدِ، يعني أنَّهم في حالِ شُربِهم إيَّاها يَتلذَّذون بها[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١).

وقال ابن عاشور: (يقالُ: لَذَّه ولَذَّ به، والمصدرُ: اللَّذَّةُ واللَّذاذةُ... ويُقالُ: شَيءٌ لَذٌّ، أي: لذيذٌ، فهو وصفٌ بالمصدرِ، فإذا جاء بهاءِ التَّأنيثِ كما في هذه الآيةِ فهو الاسمُ لا مَحالةَ؛ لأنَّ المصدرَ الوصفَ لا يُؤَنَّثُ بتأنيثِ مَوصوفِه، يقالُ: امرأةٌ عَدْلٌ، ولا يُقالُ: امرأةٌ عَدْلةٌ. ووصْفُ الكأسِ بها كالوصفِ بالمصدرِ يُفيدُ المُبالَغةَ في تمكُّنِ الوصفِ، فقولُه تعالى: ﴿لَذَّةٍ﴾ هو أقصَى ما يؤدِّي شِدَّةَ الالتِذاذِ بكلمةٍ واحدةٍ؛ لأنَّه عُدِل به عن الوصفِ الأصليِّ لقصدِ المُبالَغةِ، وعُدِل عن المصدرِ إلى الاسمِ لِمَا في المصدرِ مِن معنَى الاشتقاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨).

١٠- قولُه تعالَى: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ تَقديمُ الظَّرفِ المسنَدِ ﴿فِيهَا﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿غَوۡلٞ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: هو مُنتَفٍ عن خمرِ الجنَّةِ فقطْ دونَ ما يُعرَفُ مِن خمرِ الدُّنيا، فهو قَصرُ قلْبٍ[١]. ووُقوعُ ﴿غَوۡلٞ﴾ -وهو نَكِرةٌ- بعْدَ (لا) النَّافيةِ، أفاد انتفاءَ هذا الجنْسِ مِن أصْلِه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿هُمۡ﴾ على المُسنَدِ ﴿يُنزَفُونَ﴾، والمسنَدُ فِعلٌ؛ لِيُفيدَ التَّقديمُ تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالخبَرِ الفِعليِّ، أي: بخِلافِ شارِبي الخمْرِ مِن أهلِ الدُّنيا[٣].

- وفي الآيةِ إيجازٌ بليغٌ؛ فقدْ جَمَعَت هاتانِ الكلمتانِ ﴿غَوۡلٞ﴾ و﴿يُنزَفُونَ﴾ جميعَ عُيوبِ خمرِ أهلِ النَّاسِ الَّتي حُرِّمَت بسَبَبِها، والمعنى: لا فيها فَسادٌ قَطُّ مِن أنواعِ الفسادِ الَّتي تكونُ في شُرْبِ الخمْرِ؛ مِن مَغْصٍ، أو صُداعٍ، أو خُـمارٍ[٤]، أو عَرْبدةٍ، أو لَغوٍ، أو تأْثيمٍ، أو غيرِ ذلك، ولا همْ يَسْكَرون، وهو أعظَمُ مَفاسدِها؛ فأفْرَزَه وأفرَدَه بالذِّكرِ[٥].

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ * كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾

- ذِكرُ (عِندَ) لإفادةِ أنَّهنَّ مُلابِساتٌ لهم في مَجالِسِهم الَّتي تُدارُ عليهم فيها

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣، ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١١٤).

(٤) الخُمارُ: بَقيَّةُ السُّكْرِ، أو: ما أصابك مِن ألمِها وصُداعِها وأذاها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٧)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٨).

كأْسُ الجنَّةِ، وكان حُضورُ الجواري مَجالِسَ الشَّرابِ مِن مُكمِّلاتِ الأُنسِ والطَّرَبِ عندَ سادةِ العرَبِ(١).

- وفي الآيةِ تَشبيهٌ مُرسَلٌ؛ فالمرادُ بالبَيْضِ هنا بَيضُ النَّعامِ، والمَكنونُ مِن كَنَنْتُه، أي: جعَلْتُه في كِنٍّ، والنِّساءُ يُشَبَّهْنَ بالبَيضِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ أحدُها: بالصِّحَّةِ والسَّلامةِ عن الطَّمثِ. والثَّاني: في الصِّيانةِ والسَّترِ؛ لأنَّ الطَّائرَ يَصُونُ بَيضَه ويُحصِّنُه. والثَّالثُ: في صَفاءِ اللَّونِ ونَقَائِه؛ لأنَّ البيضَ يكونُ صافيَ اللَّونِ نَقيَّه إذا كان تحتَ الطَّائرِ. وقيل: هو تَشبيهٌ عامٌّ؛ شبَّهَ جُملةَ المرأةِ بجُملةِ البَيضةِ، أراد بذلك تَناسُبَ أجزاءِ المرأةِ، وأنَّ كلَّ جُزءٍ منها نِسبتُه في الجودةِ إلى نَوعِه نِسبةُ الآخَرِ مِن أجْزائِها إلى نَوعِه؛ فنِسبةُ شَعرِها إلى عَينِها مُستويةٌ؛ إذ هما غايةٌ في نَوعِها، والبَيضةُ أشدُّ الأشياءِ تَناسُبَ أجزاءٍ؛ لأنَّها مِن حيث حُسْنُها في النَّظرِ واحدٌ(٢).

- وفي الآياتِ السَّابقةِ ترتيبٌ حسَنٌ؛ فقدْ ذكَرَ أوَّلًا: الرِّزقَ ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، وهو ما يَتلذَّذُ به الأجسامُ. وثانيًا: الإكرامَ ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾، وهو ما يَتلذَّذُ به النُّفوسُ -ورِزقٌ بإهانةٍ تَنكيدٌ-. ثمَّ ذكَرَ المحلَّ الَّذي هُمْ فيه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. ثمَّ أشْرَفَ المحلِّ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، وبه لَذَّةُ التَّآنُسِ بأنَّ بعضَهم يُقابِلُ بعضًا، وهو أتَمُّ السُّرورِ وآنَسُه. ثمَّ المشروبَ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، وأنَّهم لا يَتناوَلونَ ذلك بأنفُسِهم، بلْ يُطافُ عليهم بالكؤوسِ. ثمَّ وصَفَ ما يُطافُ عليهم به مِن الطِّيبِ، وانتفاءِ المفاسدِ. ثمَّ ذَكَرَ تَمامَ اللَّذَّةِ الجُسمانيَّةِ، وختَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٩).

بها كما بَدأَ باللَّذَّةِ الجُسمانيَّة مِن الرِّزقِ -وهي أبلَغُ الملاذِّ- وهي التَّآنُسُ بالنِّساءِ ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ﴾، وأُرِيدَ تَتميمُ معنى تلك النِّعمةِ؛ فألْقَى في خَلَدِهم تَذَكُّرَ ما كانوا عليه في الدُّنيا مع القَرينِ السُّوءِ الَّذي كاد أنْ يُفوِّتَ عليهمْ هذا النَّعيمَ المُقيمَ؛ لِيَزيدَ غِبْطَتَهم وتَبجُّحَهم، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾[1] [الصَّافَّات: ٥٧].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠).

الآيات (٥٠-٦١)

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝٦١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرِينٌ﴾: أي: صاحِبٌ وصَديقٌ مُلازِمٌ، والاقترانُ: الازدِواجُ واجتِماعُ شَيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِنَ المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿لَمَدِينُونَ﴾: أي: لَمَجزيُّونَ، ومُحاسَبونَ، وأصلُ (دين): يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الانقيادِ[2].

﴿سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: أي: وَسَطِ النَّارِ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئينِ، وأصلُ (جحم): يدُلُّ على عِظَمِ الحَرارةِ وشِدَّتِها[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و(٣/ ١١٢).

﴿لَتُرۡدِينِ﴾: أي: لَتُهلِكُني، والرَّدَى: الهلاكُ، والتَّرَدِّي: التَّعَرُّضُ للهَلاكِ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ أو تَرامٍ وما أشْبَهَ ذلك[1].

﴿ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾: أي: المُعَذَّبينَ في النَّارِ، وأصلُ (حضر): يدُلُّ على وُرودٍ ومُشاهَدةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه يُقبِلُ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يَتساءَلون، فيقولُ قائِلٌ منهم لأصحابِه: إنِّي كان لي قَرينٌ في الدُّنيا يقولُ لي: أَئِنَّك لَتُصَدِّقُ بوُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ بعدَ المَوتِ؟! أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمُحاسَبونَ على أعمالِنا؟!

فيقولُ هذا المؤمِنُ لأصحابِه في الجنَّةِ: هل أنتم مُطَّلِعونَ؛ لِنَنظُرَ حالَ هذا القَرينِ الَّذي كان يُكَذِّبُ بالبَعثِ؟! فاطَّلَعَ المؤمِنُ فرأى قَرينَه الكافِرَ في وَسَطِ الجَحيمِ. فقال المؤمِنُ له: تاللهِ لقد كِدْتَ أن تُهلِكَني بمُحاوَلةِ إغوائِك، ولولا هِدايةُ رَبِّي لي إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِنَ المُحضَرينَ معك في النَّارِ.

ثمَّ أقبَلَ المؤمِنُ على أصحابِه مِن أهلِ الجنَّةِ مَسرورًا فقال: أئِنَّا لَمُخَلَّدونَ في هذا النَّعيمِ، ولن نموتَ مَوتةً أُخرى غيرَ مَوتَتِنا الأُولى الَّتي كانت في الدُّنيا، ولن نُعذَّبَ في النَّارِ؟! إنَّ هذا لَهُوَ الفوزُ العظيمُ. لِمِثْلِ هذا النَّعيمِ المُقيمِ فلْيَعمَلِ العامِلونَ في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نَعيمَ أهلِ الجنَّةِ، وتمامَ سُرورِهم بالمآكِلِ والمَشارِبِ، والأزواجِ الحِسانِ، والمجالِسِ الحَسَنةِ؛ ذكَرَ تَذاكُرَهم فيما بيْنَهم، ومُطارَحتَهم للأحاديثِ عن الأمورِ الماضيةِ، وأنَّهم ما زالوا في المحادَثةِ والتَّساؤُلِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان ذلك الاجتِماعُ إنَّما هو للسُّرورِ، وكان السُّرورُ لا يَتِمُّ إلَّا بالمُنادَمةِ، وكان أحلى المُنادَمةِ ما يُذَكِّرُ بحُلولِ نِعمةٍ أو انحِلالِ نِقمةٍ؛ تَسَبَّبَ عن ذلك -ولا بُدَّ- قولُه تعالى[(٢)]:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠)﴾.

أي: فأقبَلَ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يَتساءَلونَ فيما بيْنَهم[(٣)].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

قال ابنُ كثير: (ذلك مِن حديثِهم على شَرابِهم، واجتِماعِهم في تَنادُمِهم، وعِشرتِهم في مَجالِسِهم، وهم جلوسٌ على السُّرُرِ، والخَدَمُ بيْن أيديهم يَسعَونَ ويَجيئونَ بكُلِّ خَيرٍ عَظيمٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥).

وقال الألوسي: (وتساؤلُهم عن المعارفِ والفضائلِ، وما جرَى لهم وعليهم في الدُّنيا، وما أحلَى تذكُّرَ ما فاتَ عندَ رفاهيةِ الحالِ، وفراغِ البالِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢).

أي: قال قائِلٌ مِن أهلِ الجنَّةِ لجُلَسائِه: إنِّي كان لي قَرينٌ[١] في الدُّنيا[٢].

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾.

أي: كان القَرينُ يَقولُ لي: أئِنَّك لَمِنَ المُصَدِّقينَ بوُقوعِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ بعدَ الموتِ[٣]؟!

---

(١) قيل: المرادُ به: شَيطانٌ مِن الجِنِّ. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣).

وقيل: المرادُ به: صَديقٌ مُلازِمٌ مِن الإنسِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣).

وممَّن ذهب إلى إمكانِ حَملِ الآيةِ على كِلا القولَينِ: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٥).

قال ابنُ كثير: (﴿كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهِدٌ: يعني شيطانًا. وقال العَوْفيُّ، عن ابنِ عبَّاسٍ: هو الرَّجُلُ المشرِكُ يكونُ له صاحِبٌ مِن أهلِ الإيمانِ في الدُّنيا. ولا تَنافيَ بيْن كلامِ مُجاهِدٍ وابنِ عبَّاسٍ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يكونُ مِن الجِنِّ، فيُوسوِسُ في النَّفْسِ، ويكونُ مِن الإنسِ فيَقولُ كلامًا تَسمَعُه الأُذُنانِ، وكِلاهما مُتعاوِنانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥).

وقيل: المرادُ به صاحِبُ الجنَّتينِ الَّذي قصَّ اللهُ خبَرَه في سورةِ الكَهفِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٢، ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

قيل: يقولُ له ذلك على وَجهِ التَّوبيخِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٨). =

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمُحاسَبونَ ومَجزيُّونَ على أعمالِنا[(١)]؟!

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: قال الرَّجُلُ المؤمِنُ لأصحابِه في الجنَّةِ: هل أنتم مُطَّلِعونَ على النَّارِ وأهلِها، فنَنظُرَ حالَ هذا القَرينِ المكَذِّبِ بالبَعثِ[(٢)]؟

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

أي: فاطَّلعَ المؤمِنُ في النَّارِ فرأى قَرينَه الكافِرَ يُعذَّبُ في وَسَطِ الجَحيمِ[(٣)].

﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: قال المؤمِنُ لَمَّا رأى قَرينَه الكافِرَ في النَّارِ: تاللهِ لقد أوشَكْتَ أن تُهلِكَني

= قال البِقاعي: (يُوبِّخُني بذلك، ويَستقصِرُ باعي في النَّظَرِ؛ استِثارةً لِهِمَّتي، وإلهابًا لِنَخوتي وحَمِيَّتي). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٣٤).

وقيل: يقولُ ذلك على وَجهِ التَّعَجُّبِ والتَّكذيبِ والاستِبعادِ، والكُفرِ والعِنادِ. ومِمَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ كثير، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١٠).

قال ابنُ عثيمين: (الآيةُ تحتمِلُ هذا وهذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٧).

قال ابنُ الجوزي: (فأحَبَّ المؤمِنُ أن يَرى قرينَه الكافِرَ، فقال لأهلِ الجنَّة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: هل تُحِبُّونَ الاطِّلاعَ إلى النَّارِ؛ لِتَعلَموا أين مَنزِلَتُكم مِن مَنزِلَةِ أهلِها؟). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

بمُحاوَلةِ صَرفِك لي عن الإيمانِ بالبَعثِ والجَزاءِ(١).

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)﴾.

أي: ولولا أنَّ رَبِّي أنعَمَ علَيَّ بالهدايةِ إلى الحَقِّ والثَّباتِ عليه، لَكُنتُ مِنَ المُحضَرينَ معك في النَّارِ(٢)!

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لـمَّا تَمَّ كَلامَه مع الرَّجُلِ الَّذي كان قَرينًا له في الدُّنيا، وهو الآنَ مِن أهلِ النَّارِ؛ عاد إلى مُخاطَبةِ جُلَسائِه مِن أهلِ الجنَّةِ؛ قائِلًا(٣):

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)﴾.

أي: قال المُؤمِنُ لأهلِ الجنَّةِ مُغتَبِطًا مَسرورًا بنِعمةِ اللهِ عليهم بالخُلودِ فيها أبدًا: ألَنْ نَموتَ مَوتةً أُخرى غيرَ مَوتَتِنا الأُولى الَّتي كانت في الدُّنيا، ولن نكونَ مِن المُعَذَّبينَ في النَّارِ(٤)؟!

كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٩، ١٣٠).

ٱلۡجَحِيمِ * فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥٦، ٥٧].

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نعيمَ الجنَّةِ ووصَفَه بهذه الأوصافِ الجَميلةِ؛ مَدَحَه وشَوَّق العامِلينَ، وحَثَّهم على العَمَلِ، فقال[1]:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: إنَّ الخُلودَ في الجنَّةِ والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ لَهُوَ الفَوزُ العَظيمُ[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (يحتمِلُ أن يكونَ من خِطابِ المؤمِنِ لِقَرينِه... ويحتمِلُ أن يكونَ مِن خِطابِ اللهِ تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وأمَّتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).

وممَّن ذهب إلى أنَّه مِن كلامِ المؤمِنِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشري، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٩٥).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ مِن قولِ المؤمنِ وأصحابِه جميعًا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٥٣).

وظاهِرُ كلامِ السَّمرقنديِّ والسَّعديِّ أنَّه مِن كلامِ اللهِ تعالى، وهو اختيارُ ابنِ جُزَي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾.

أي: فلْيَعمَلِ العامِلونَ في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ؛ لِيَنالوا مِثلَ هذا النَّعيمِ، والفَوزِ العَظيمِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كمالُ أدبِ أهلِ الجنةِ في أنَّهم عندَ المُحادَثةِ يُقبِلُ بَعضُهم على بَعضٍ، وهذا مِن كَمالِ الأدبِ: أنْ تُقبِلَ إلى مُحَدِّثِك(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

قال القرطبي: (يحتمِلُ أن يكونَ مِن كلامِ المؤمِنِ... ويحتمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ. وقيل: هو مِن قَولِ الله عزَّ وجلَّ لأهلِ الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩١).

ومِمَّن قال بأنَّه مِن كلامِ الله تعالى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

ومِمَّن قال بأنَّه مِن كلامِ المؤمِنِ: الزمخشريُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٢).

فيه عِبرةٌ مِن الحَذَرِ مِن قُرَناءِ السُّوءِ، ووُجوبِ الاحتراسِ مِمَّا يَدْعُونَ إليه، ويُزَيِّنونَه مِن المهالِكِ(١)، فصُحبةُ الأشرارِ فيها ضَرَرٌ عَظيمٌ، كما بيَّنَه اللهُ عزَّ وجَلَّ في هذه الآيةِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أنَّه يُندَبُ للإنسانِ أنْ يَنظُرَ في ضَلالِ مَن ضَلَّ؛ لِيَتبَيَّنَ في ذلك قَدْرَ نعمةِ اللهِ عليه في الهدايةِ؛ فإنَّ الأشياءَ إنَّما تَتبيَّنُ بضِدِّها(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أنَّ التَّحدُّث بنعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ مَشروعٌ ومأمورٌ به؛ بشَرطِ أنْ يكونَ المقصودُ به الثَّناءَ على اللهِ تعالى، لا الافتخارَ على عبادِ اللهِ(٤)!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ فهو أحَقُّ ما أُنفِقَت فيه نفائسُ الأنفاسِ، وأَولى ما شَمَّر إليه العارفونَ الأكياسُ، والحَسرةُ كُلُّ الحَسرةِ أن يَمضيَ على الحازمِ وَقتٌ مِن أوقاتِه وهو غيرُ مُشتَغِلٍ بالعَمَلِ الَّذي يُقرِّبُ لهذه الدَّارِ، فكيف إذا كان يَسيرُ بخطاياه إلى دارِ البَوارِ(٥)؟! فينبغي للعاقِلِ أنْ يُذهِبَ أنفاسَه ونَفيسَه ونَفسَه في العَمَلِ لهذه الغايةِ الحَميدةِ: الوُصولِ إلى الجنَّةِ(٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كمالُ سُرورِ أهلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤١).

الجنَّةِ، وأنَّهم يَتحادَثونَ ويَتساءَلونَ عمَّا جرَى في الدُّنيا، والتَّحَدُّثُ عمَّا جرَى على الإنسانِ فيما سَبَقَ فيه لَذَّةٌ وراحةٌ للنَّفْسِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّاسَ في الآخرةِ تَعودُ إليهم تَذَكُّراتُهم الَّتي كانت لهم في الدُّنيا، مُصَفَّاةً مِن الخواطِرِ السَّيِّئةِ، والأكدارِ النَّفْسانيَّةِ، مُدرِكةً الحقائِقَ على ما هي عليه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أنَّه قد يكونُ أعدَى عَدُوٍّ للإنسانِ مَن كان مُقارِنًا له(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أنَّ أحوالَ يومِ القيامةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدُّنيا؛ فإنَّ هذا يَنظُرُ مِن أعلى عِلِّيِّينَ إلى أسفَلِ السَّافِلينَ، فيَرى صاحبَه في سَواءِ الجَحيمِ، فيَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ كُلَّ ما ورَد مِن أحوالِ يومِ القيامةِ -مِمَّا تَستَبعِدُه النُّفوسُ؛ لِعَدمِ مُشاهَدةِ نَظيرِه في الدُّنيا- لا ينبغي أنْ يكونَ مَحَلَّ استِبعادٍ(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه؛ فلم يَقُلْ: ولولا ربِّي(٥)!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ الهُدى والضَّلالَ مِنَ اللهِ تعالى(٦). وفيه حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ، ألَا ترَى إلى مُخاطَبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٥).

هذا لِقَرينِه الَّذي كان حَريصًا على إغوائِه في الدُّنيا بما يَقولُ له: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، فأعلَمَه أنَّه لم يَنْجُ ممَّا كان يَدْعوه إليه قَرينُه ويُزَيِّنُه له إلَّا بِنعمةِ ربِّه، لا بِطاقتِه واستِطاعةِ نَفْسِه(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أنَّ نجاةَ الإنسانِ مِن عذابِ اللهِ مِن أكبرِ النِّعَمِ، ويدُلُّ لذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]؛ حيث جَعَلَ إكمالَ الدِّينِ مِن إتمامِ النِّعمةِ، وبالدِّينِ تكونُ النَّجاةُ مِن النَّارِ، والفَوزُ بدارِ القَرارِ، فمِن أكبَرِ النِّعَمِ بلا شَكٍّ -بل هي أكبَرُ النِّعَمِ- أن يَمُنَّ اللهُ على الإنسانِ بالنَّجاةِ مِن النَّارِ ودُخولِ الجنَّةِ(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أنَّ الفوزَ حقيقةً هو الوُصولُ إلى دارِ كرامةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فيَترتَّبُ على هذه الفائدةِ: أنَّ الإنسانَ مهما فاز في الدُّنيا، فإنَّ فَوزَه ليس بشَيءٍ بالنِّسبةِ إلى فَوزِ الآخرةِ(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ رَدٌّ على الجَبريَّةِ؛ حيثُ وُجِّهَ الأمرُ إليهم، ونُسِبَ العَمَلُ إليهم؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ لِمَن لا يَستطيعُه: لا شكَّ أنَّه ظُلمٌ وتَكليفٌ بما لا يُطاقُ، وإثباتَ العَمَلِ أيضًا لِمَن لا إرادةَ له يُعَدُّ مَدحًا لغوًا؛ لأنَّ هؤلاء إذا كانوا مُجبَرينَ فلا يَنبغي أنْ يُمدَحوا على مَحبوبٍ، ولا أنْ يُذَمُّوا على مَكروهٍ(٤)!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

- الفاءُ في ﴿ فَأَقْبَلَ ﴾ للتَّفْريعِ؛ لأنَّ شأنَ المُتَجالِسينَ في مَسَرَّةٍ أنْ يَشرَعوا في الحديثِ؛ فإنَّ في الحَديثِ مع الأصحابِ والمُنتَدِمينَ لَذَّةً، فإذا استَشْعروا أنَّ ما صاروا إليه مِن النَّعيمِ كان جزاءً على ما سبَقَ مِن إيمانِهم وإخلاصِهم، تذكَّرَ بعضُهم مَن كان يُجادِلُه في ثُبوتِ البَعْثِ والجَزاءِ، فحَمِدَ اللهَ على أنْ هَداهُ لعَدَمِ الإصغاءِ إلى ذلك الصَّادِّ؛ فلذلك حُكِيَ إقْبالُ بعضِهم على بعضٍ بالمُساءلةِ بفاءِ التَّعْقيبِ[١]. وقيل: قَولُه: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ معطوفٌ على قَولِه: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم ﴾، والمعنى: يَشرَبونَ ويَتحادَثونَ على الشَّرابِ، فيُقبِلُ بَعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلونَ عَمَّا جرَى لهم وعليهم في الدُّنيا[٢].

- وجِيءَ في حِكايةِ هذه الحالةِ بصِيَغِ الفِعلِ الماضي ﴿ فَأَقْبَلَ ﴾ مع أنَّها مُستقبَلةٌ؛ لإفادةِ تَحقيقِ وُقوعِ ذلك وتَأْكيدِه حتَّى كأنَّه قد وقَعَ، والقَرينةُ هي التَّفريعُ على الأخبارِ المُتعلِّقةِ بأحوالِ الآخِرةِ[٣].

- وقيل: سَمَّاه سُؤالًا؛ لأنَّه مع كَونِه أهلًا لِأنْ يُسألَ عنه، لا يخلو عن سُؤالٍ أدناه سُؤالُ المحادَثِ أنْ يُصغِيَ إلى الحَديثِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٣).

- وحُذِفَ المُتَساءَلُ عنه؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه[١]. وقيل: حُذِفَ المعمولُ والمقامُ مقامُ لذَّةٍ وسرورٍ؛ فدلَّ ذلك على أنَّهم يَتساءَلون بكلِّ ما يَلتذُّونَ بالتَّحدُّثِ به[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾

- الاستِفْهامُ في ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: ما كان يحِقُّ لك أنْ تُصدِّقَ بهذا. وسُلِّطَ الاستِفهامُ على حَرفِ التَّوكيدِ؛ لإفادةِ أنَّه بَلَغه تأكُّدُ إسلامِ قَرينِه، فجاء يُنكِرُ عليه ما تحقَّقَ عندَه، أي: أنَّ إنكارَه إسلامَه بعدَ تحقُّقِ خَبَرِه، ولولا أنَّه تحقَّقَه لَمَا ظَنَّ به ذلك[٣].

- جُملةُ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بيانٌ لِجُملةِ ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بيَّنَتِ الإنكارَ المُجمَلَ بإنكارٍ مُفصَّلٍ، وهو إنكارُ أنْ يُبعَثَ النَّاسُ بعدَ تفرُّقِ أجْزائِهم، وتَحوُّلِها تُرابًا بعدَ المَوتِ، ثمَّ يُجازَوْا[٤].

- وجُملةُ ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ جوابُ (إذا)، وقُرِنَت بحَرفِ التَّوكيدِ؛ لإفادةِ أنَّه بَلَغَه أنَّ صاحِبَه يُؤمِنُ بالبَعْثِ؛ فجاءَ يُنكِرُ عليه ما تحقَّقَ عِندَه[٥].

- وقيلَ هُنا: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، وفي أوَّلِ السُّورةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٦]؛ لاختِلافِ القائلينَ[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- الاستِفْهامُ مُستعمَلٌ في العَرْضِ، عَرَضَ على رُفقائِه أنْ يَتطَّلعوا إلى رُؤيةِ قَرينِه وما صارَ إليه؛ وذلك: إمَّا لأنَّه عَلِمَ أنَّ قَرينَه ماتَ على الكُفرِ بأنْ يكونَ قد سَبَقَه بالمَوتِ، وإمَّا لأنَّه أُلقِيَ في رُوعِه أنَّ قَرينَه صارَ إلى النَّارِ، وهو مُوقِنٌ بأنَّ خازِنَ النَّارِ يُطلِعُهم على هذا القَرينِ؛ لعِلمِهم بأنَّ لأهْلِ الجَنَّةِ ما يَتَساءَلونَ. وقيلَ: القائِلُ هو اللهُ، أو بعضُ الملائكةِ، يقولُ لهم: هل تُحِبُّونَ أنْ تَطَّلِعوا على أهْلِ النَّارِ؛ لِأُرِيَكم ذلك القَرينَ، فتَعلَموا أينَ مَنزِلَتُكم مِن مَنزِلَتِهم[١]؟

- وقيل: الاستِفهامُ هو بمعنَى الأمرِ، أي: اطَّلِعوا[٢].

- وحُذِفَ متعلَّقُ ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾؛ لِدَلالةِ آخِرِ الكَلامِ عليه بقَولِه: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، فالتَّقْديرُ: هل أنتُم مُطَّلِعونَ على أهْلِ النَّارِ؛ لِنَنظُرَه فيهم[٣]؟

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- في قَولِهِ: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بـ(الاكتِفاءِ)، أي: فاطَّلَعَ واطَّلَعوا فرآهُ ورَأَوه في سَواءِ الجَحيمِ؛ إذ هو إنَّما عرَضَ عليهم الاطِّلاعَ؛ لِيَعلَموا تَحقيقَ ما حَدَّثَهم عن قَرينِه، واقتُصِرَ على ذِكْرِ اطِّلاعِه هو دُونَ ذِكرِ اطِّلاعِ رُفَقائِه؛ لأنَّه ابتَدَأَ بالاطِّلاعِ؛ لِيُميِّزَ قَرينَه؛ فَيُرِيَه لِرُفَقائِه[٤]. وقيل: لأنَّ النَّافِعَ لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠، ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال السعدي: (الظَّاهِرُ مِن حالِ أهلِ الجنَّةِ، وسُرورِ بَعضِهم ببَعضٍ، وموافَقةِ بَعضِهم بَعضًا: أنَّهم أجابوه لِمَا قال، وذَهَبوا تبَعًا له؛ للاطِّلاعِ على قَرينِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

وقيل: عرَض عليهم الاطِّلاعَ فاعتَرَضوه، فاطَّلع هو بعدَ ذلك. ويحتمِلُ أنَّهم قاموا معه =

إنَّما هو قَولُه فقط في توبيخِ عَدُوِّه، وتَغبيطِ نَفْسِه ووَلِيِّه؛ فلم يُجمَعِ الضَّميرُ لِئَلَّا يلبسَ فيُوهِمَ أنَّه للجَميعِ، وأعاده عليه وَحْدَه لِنَعتبِرَ بمَقالِه، ونتَّعِظَ بما قَصَّ علينا مِن حالِه[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾

- جُملةُ ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ وَصْفَ هذه الحالةِ يُثيرُ في نَفْسِ السَّامِعِ أنْ يَسأَلَ: فماذا حَصَل حينَ اطَّلَعَ؟ فيُجابُ بأنَّه حينَ رأى قَرينَه أخَذَ يُوبِّخُه على ما كان يُحاوِلُه منه حتَّى كاد أنْ يُلقِيَه في النَّارِ مِثلَه، وهذا التَّوبيخُ يَتضمَّنُ تَنديمَه على مُحاولةِ إرْجاعِه عن الإسلامِ[2].

- وقَولُهُ: ﴿تَاللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه التَّعجُّبُ مِن سَلامَتِه منه، إذ كان قَرينُه قارَبَ أنْ يُردِيَه؛ فالقَسَمُ بالتَّاءِ مِن شَأنِه أنْ يَقَعَ فيما جوابُ قَسَمِه غَريبٌ، ومَحَلُّ الغَرابةِ هو خَلاصُه مِن شَبَكةِ قَرينِه، واختِلافُ حالِ عاقِبَتَيْهما مع ما كانا عليه مِن شِدَّةِ المُلازَمةِ والصُّحبةِ، وما حفَّه مِن نِعْمةِ الهِدايةِ، وما تورَّطَ قَرينُه فيه مِن أوْحالِ الغَوايةِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ رُجوعٌ إلى مُحاوَرةِ جُلَسائِه بعدَ إتمامِ الكَلامِ مع

= ولم يَطَّلِعوا. ويحتمِلُ أنَّهم سكَتوا وعرَف أنَّهم لا يُريدون ذلك، ثمَّ تقَدَّمَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧، ١١٨).

قَرينِه؛ تبجُّحًا وابتِهاجًا بما أتاحَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم من الفَضلِ العَظيمِ، والنَّعيمِ المُقيمِ(١).

- قَولُهُ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عَطَفَتِ الفاءُ الاستِفْهامَ على جُملةِ ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٤]، فالاستِفْهامُ مُوجَّهٌ مِن هذا القائِلِ إلى بَعضِ المُتَسائلينَ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقْريرِ المرادِ به التَّذكيرُ بنِعْمةِ الخُلودِ، فإنَّه بعدَ أنْ أطلَعَهم على مَصيرِ قَرينِه السُّوءِ أقبَلَ على رِفاقِه بإكمالِ حَديثِه تَحدُّثًا بالنِّعْمةِ، واغتِباطًا وابتِهاجًا بها، وذِكرًا لها؛ فإنَّ لذِكرِ الأشياءِ المَحْبوبةِ لَذَّةً، فما ظَنُّكَ بذِكْرِ نِعْمةٍ قد انغَمَسوا فيها، وأيْقَنوا بخُلودِها؟! ولعلَّ نَظمَ هذا التَّذكُّرِ في أُسلوبِ الاستِفْهامِ التَّقْريريِّ؛ لِقَصدِ أنْ يُسمَعَ تَكرُّرُ ذِكرِ ذلك حينَ يُجيبُه الرِّفاقُ بأنْ يقولوا: نَعَمْ، ما نحن بِمَيِّتِينَ(٢).

- الهَمْزةُ للتَّقرير، وفيها مَعْنى التَّعجُّبِ، والفاءُ للعَطفِ على مُقدَّرٍ يَقتَضيه نَظْمُ الكلامِ، أي: أنحنُ مُخَلَّدونَ، مُنعَّمونَ، فما نحنُ بميِّتينَ، أي: بمَن شَأْنُه المَوتُ(٣)؟

- الظَّاهِرُ أنَّه مِن كَلامِ القائِلِ: يُسمِعُ قَرينَه على جِهةِ التَّوبيخِ له، أي: لَسْنا أهْلَ الجَنَّةِ بمَيِّتينَ، لكِنَّ المَوْتةَ الأُولى كانت لنا في الدُّنيا، بخِلافِ أهْلِ النَّارِ، ويكونُ في خِطابِه ذلك مُنكِّلًا له، مُقرِّعًا مُحزِنًا له بما أنعَمَ اللهُ به عليه مِن دُخولِ الجَنَّةِ، مُعلِمًا له بتَبايُنِ حالِه في الآخِرةِ بحالِه كما كانَتا تَتبايَنانِ في الدُّنيا مِن أنَّه ليس بعدَ المَوتِ جَزاءٌ ظَهَرَ له خِلافُه يُعذَّبُ بكُفرِه باللهِ، وإنكارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

البَعثِ. ويجوزُ أنْ يكونَ خِطابًا مِن القائِلِ لرُفَقائِه، لَمَّا رَأى ما نزَلَ بقَرينِه، وَقَفَهم على نِعَمِه تَعالى في دَيْمومةِ خُلودِهم في الجَنَّةِ، ونَعيمِهم فيها[١].

- والاستِثْناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ المَوتَ المَنفيَّ هو المَوتُ في الحالِ، أو الاستِقْبالِ كما هو شَأنُ اسْمِ الفاعِلِ، فتعيَّنَ أنَّ المُسْتثنى غيرُ داخِلٍ في المَنفيِّ، فهو مُنقطِعٌ، أي: لكِنَّ المَوتةَ الأُولى، وذلك الاستِدْراكُ تَأكيدٌ للنَّفيِ[٢].

- وعُطِفَ قَولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾؛ لِيَتمحَّضَ الاستِفْهامُ للتَّحدُّثِ بالنِّعْمةِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ أيضًا ما هُم بمَيِّتينَ، ولكِنَّهم مُعذَّبونَ، فحالُهم شَرٌّ من المَوتِ[٣].

- قَولُهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ذلك تمامُ كلامِه لِقَرينِه؛ تَقْريعًا له، أو مُعاوَدةٌ إلى مُكالَمةِ جُلَسائِه؛ تحدُّثًا بنِعْمةِ اللهِ، أو تَبجُّحًا بها، وتَعجُّبًا منها، وتَعْريضًا للقَرينِ بالتَّوبيخِ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- على القولِ بأنَّه حِكايةٌ لِبقيَّةِ كَلامِ القائِلِ لرِفاقِه فهو بمَنزِلةِ التَّذْييلِ والفَذْلَكةِ[٥] لِحالَتِهمُ المُشاهَدِ بعضُها والمُتحَدَّثِ عن بعضِها بقَولِه: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾[٦]. فهذا القولُ يقولُه المُؤمِنُ تَحدُّثًا بنِعْمةِ اللهِ، واغتِباطًا بحالِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١).

(٥) تقدم تعريفها (ص: ٢٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

وبِمَسمَعٍ مِن قَرينِه الَّذي كان مُكذِّبًا بالبَعثِ؛ لِيَكونَ تَوبيخًا له يَزيدُ به تَعذُّبًا، ولِيَحكِيَهُ اللهُ فيَكونَ لنا لُطفًا وزاجِرًا. وعلى القولِ بأنَّه مِن قَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيَكونُ تقريرًا لِقَولِهم، وتَصْديقًا له، والإشارةُ إلى ما هم عليه مِن النِّعْمةِ والخُلودِ والأمْنِ مِنَ العَذابِ[1].

- وقد أُبدِعَ في تَصويرِ حُسنِ حالِهم بحَصرِ الفَوزِ فيه، حتَّى كأنَّ كلَّ فَوزٍ بالنِّسْبةِ إليه ليس بفَوزٍ، فالحَصرُ للمُبالَغةِ؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بغَيرِه، ثمَّ ألْحقوا ذلك الحَصرَ بوَصفِه بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾[2].

٨- قولُه تعالَى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾

- تَذْييلٌ لِحكايةِ حالِ عِبادِ اللهِ المُخلَصينَ، فهو كَلامٌ مِن جانِبِ اللهِ تَعالى -على قولٍ-؛ للتَّنويهِ بما فيه عِبادُ اللهِ المُخلَصونَ، وللتَّحْريضِ على العَمَلِ بمِثلِ ما عَمِلوه ممَّا أوجَبَ لهم إخلاصَ اللهِ إيَّاهم، فالإشارةُ في قَولِه: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾ إلى ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصَّافَّات: ٤١] الآياتِ، أي: لِمِثلِ نَعيمِهم، وأُنسِهم، ومَسَرَّتِهم، ولَذَّاتِهم، وبَهجَتِهم، وخُلودِ ذلك كُلِّه[3].

- واللَّامُ في ﴿لِمِثۡلِ﴾ لامُ التَّعْليلِ، وتَقديمُ المَجرورِ على عامِلِه؛ لإفادةِ القَصرِ، أي: لا لعمَلٍ غَيرِه، وهو قَصْرُ قَلْبٍ[4]؛ للرَّدِّ على المُشرِكينَ الَّذين يَحسَبونَ أنَّهم يَعمَلونَ أعْمالًا صالِحةً يَتَفاخَرونَ بها مِن مثلِ المَيسِرِ، والمَعْنى: لِنَوالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

مِثلِ هذا، فحُذِفَ المُضافُ؛ لِدَلالةِ اللَّامِ على مَعْناهُ[1].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ للتَّفْريعِ على مَضمونِ القِصَّةِ المَذْكورةِ قَبْلَها مِن قَولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٤٠] الآياتِ. والأمْرُ في ﴿فَلْيَعْمَلِ﴾ للإرْشادِ الصَّادِقِ بالواجِباتِ والمَنْدوباتِ[2].

- والمُرادُ بالعامِلينَ: الَّذينَ يَعمَلونَ الخَيرَ، ويَسيرونَ على ما خَطَّتْ لهم شَريعةُ الإسلامِ؛ فحُذِفَ مَفعولُ (يَعْمَل) اختِصارًا؛ لِظُهورِه مِنَ المَقامِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٢-٧٤)

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ نُزُلًا ﴾: النُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِن ضَيفٍ وغيرِه، ومعناه في الأصل: الطَّعامُ الَّذي يَصلُحُ أن يَنزِلوا معه ويُقيموا فيه، والنُّزُلُ: الرِّزقُ الَّذي له سَعةٌ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[1].

﴿ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾: الزَّقُّومُ: قيل: هو ثَمَرُ شَجَرةٍ مُرَّة الطَّعم جِدًّا، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، مِن قَولِهم: تَزقَّمَ هذا الطَّعامَ: إذا تَناوَلَه على تَكَرُّهٍ ومَشَقَّةٍ شَديدةٍ، وقيل: زَقُّومٌ: فَعُّولٌ مِنَ الزَّقْمِ، أي: اللَّقْمِ الشَّديدِ، والشُّربِ المُفْرِطِ، وأصلُ (زقم): يدُلُّ على جِنسٍ مِن الأكلِ[2].

﴿ فِتْنَةً ﴾: الفِتنةُ تُطلَقُ على العذابِ، وعلى الاختبارِ والامتحانِ، وتُطلَقُ أيضًا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٩/ ٦١١١، ٦١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

على الضَّلالِ والشِّرْكِ والكُفرِ، وأصْلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه[1].

﴿أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾: أي: قَعْرِ النَّارِ، وأصلُ (أصل): يدُلُّ على أساسِ الشَّيءِ[2].

﴿طَلۡعُهَا﴾: أي: ما يَطلُعُ منها، وهو الثَّمَرُ، وسُمِّي طَلْعُ النَّخلةِ طَلْعًا؛ لطُلوعِه كُلَّ سَنةٍ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ[3].

﴿لَشَوۡبًا﴾: أي: لخَلْطًا ومِزاجًا، والشَّوبُ: الخَلطُ العامُّ في كُلِّ شَيءٍ، وكُلُّ شَيءٍ خلَطْتَه بشَيءٍ فقد شِبتَه به، وأصلُ (شوب): يدُلُّ على خَلطٍ[4].

﴿حَمِيمٍ﴾: الحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على حَرارةٍ[5].

﴿أَلۡفَوۡاْ﴾: أي: وَجَدوا، وأصل (لفا): يَدُلُّ على انكشافِ شَيءٍ وكَشْفِه[6].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٧)، ((غريب =

﴿ءَاثَرِهِمْ﴾: أي: سُنَّتِهم وطَريقتِهم، وأثَرُ الشَّيءِ: حُصولُ ما يدُلُّ على وُجودِه، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[1].

﴿يُهْرَعُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (هرع): يدُلُّ على حَرَكةٍ واضطِرابٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على شدَّةِ التَّبايُنِ بيْنَ هذا النَّعيمِ الَّذي أعدَّه لعبادِه المُخلَصينَ، وبيْنَ الشَّقاءِ الدَّائمِ الَّذي أُعِدَّ للكافِرين، فيقولُ: أذَلِك النَّعيمُ في الجنَّةِ خَيرٌ ضيافةً أم شَجَرةُ الزَّقُّومِ الَّتي أُعِدَّت لأهلِ النَّارِ؟! إنَّا جعَلْنا تلك الشَّجَرةَ عذابًا للظَّالِمينَ في الآخرةِ، وابتِلاءً لهم في الدُّنيا، إنَّها شَجَرةٌ تَنشَأُ

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦) و(٢٠/ ٥٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

قال ابن قتيبة: (يقال: أُهْرِعَ الرَّجُلُ: إذا أسرَعَ، على لفظِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، كما يُقالُ: أُرعِدَ). ((غريب القرآن)) (ص: ٢٠٦).

قال ابنُ الهائم: (فأوقعَ الفِعلَ بهم، وهو لهم في المعنى، كما قيل: أُولِعَ فُلانٌ بكذا، وزُهِيَ زَيدٌ، وأُرعِدَ عَمرٌو، فجُعِلوا مَفعولِينَ وهم فاعِلونَ؛ وذلك أنَّ المعنى أولَعَه طَبعُه وجِبلَّتُه، وزهاه مالُه أو جَهلُه، وأرعَدَه غَضَبُه أو وجَعُه، وأهرَعَه خَوفُه ورُعبُه؛ فلهذه العلَّةِ خَرَج هؤلاء الأسماءُ مخرَجَ المفعولِ بهم. ويُقالُ: لا يكونُ الإهراعُ إلَّا إسراعَ المذعورِ. وقال الكِسائيُّ والفَرَّاءُ: لا يكونُ الإهراعُ إلَّا إسراعًا مع رِعدةٍ). ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) (ص: ١٩١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٧).

وقال ابن عاشور: (ويُهرَعون: بفَتحِ الرَّاءِ مَبنيًّا للمَجهولِ، مُضارِعُ: أهرَعَه، إذا جعَلَه هارِعًا، أي: حمَلَه على الهَرعِ، وهو الإسراعُ المُفرِطُ في السَّيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).

في قَعرِ النَّارِ، ثَمَرُها يُشبِهُ في قُبحِه رُؤوسَ الشَّياطينِ، وإنَّ هؤلاء المُشركينَ لَآكِلونَ من تلك الشَّجَرةِ فيَملَؤونَ منها بُطونَهم، ثمَّ إنَّ لهم إضافةً على أكْلِهم منها لَخَليطًا مِن شَرابٍ في غايةِ الحَرارةِ، ثمَّ إنَّ مَرجِعَهم -بعدَ الأكلِ مِن الزَّقُّوم وشُربِ الحَميمِ- إلى الجَحيمِ؛ إنَّهم وجَدوا آباءَهم ضالِّينَ، فهم مُسرِعونَ في الاقتِداءِ بهم، واتِّباعِ ضَلالِهم!

ولقد ضَلَّ عن الحَقِّ قَبْلَ مشركي قُرَيشٍ أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ، ولقد أرسَلْنا في تلك الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا يُنذِرونَهم عذابَ اللهِ؛ فانظُرْ كيف كان عاقِبةُ أولئك المُنذَرينَ، إلَّا عبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له؛ فإنَّهم نَجَوْا مِن العذابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال بعدَ ذِكرِ أهلِ الجنَّةِ ووَصْفِها: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، أتْبَعَه بقَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، فأمَرَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُورِدَ ذلك على كُفَّارِ قَومِه؛ لِيَصيرَ ذلك زاجِرًا لهم عن الكُفرِ، وكما وَصَف مِن قَبْلُ مآكِلَ أهلِ الجنَّةِ ومَشارِبَهم، وصَفَ أيضًا في هذه الآيةِ مآكِلَ أهلِ النَّارِ ومَشارِبَهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ المؤمِنِ وقَرينِه، وكان ذلك على سَبيلِ الاستِطرادِ مِن شَيءٍ إلى شَيءٍ؛ عاد إلى ذِكرِ الجنَّةِ والرِّزقِ الَّذي أعَدَّه اللهُ فيها لأهلِها، وعادَلَ بيْنَ ذلك الرِّزقِ وبيْن شَجَرةِ الزَّقُّومِ، فقال تعالى[(٢)]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٦).

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢﴾.

أي: أذَلِك النَّعيمُ الَّذي أُعِدَّ للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ مِن المآكِلِ والمشارِبِ والمَلاذِّ: خَيرٌ ضِيافةً وفَضلًا أم ما أُعِدَّ لأهلِ النَّارِ من شَجَرةِ الزَّقُّومِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ * كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ * كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ * فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا تلك الشَّجَرةَ عذابًا في الآخرةِ للظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).
قال السمعاني: (اختلَفوا في هذه الشَّجَرةِ؛ فالأكثَرونَ أنَّها شَجَرةٌ لا يُعرَفُ لها مِثلٌ في الدُّنيا. وقال قُطْرُبٌ: هي شَجَرةٌ مُرَّةٌ خبيثةٌ تكونُ بتِهامةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠١).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (في بَعضِ البلادِ الجَدْبةِ المجاورةِ للصَّحارى شَجَرةٌ مُرَّةٌ مَسمومةٌ لها لَبَنٌ إنْ مَسَّ جِسمَ أحدٍ تورَّم، ومات منه في أغلَبِ الأمرِ؛ تُسمَّى شَجَرةَ الزَّقُّومِ؛ والتَّزَقُّمُ في كلامِ العَرَبِ: البَلْعُ على شِدَّةٍ وجَهدٍ... اختَلَف النَّاسُ في معناه؛ فقالت فِرقةٌ: شُبِّه بثَمَرِ شَجرةٍ مَعروفةٍ يُقالُ لها: رؤوسُ الشَّياطينِ، وهي بناحيةِ اليَمَنِ يقالُ لها: الأَسْتَن). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).
وقال ابنُ كثير: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك شَجَرةً واحدةً مُعَيَّنةً، كما قال بَعضُهم من أنَّها شَجَرةٌ تمتَدُّ فُروعُها إلى جميعِ محالِّ جَهنَّمَ... وقد يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك جنسَ شَجَرٍ يُقالُ له: الزَّقُّومُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني: الزَّيتونةَ، ويُؤيِّدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨).

وابتلاءً لهم في الدنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ شَجرةٌ تنشأُ وتُوجَدُ في قَعرِ النَّارِ(٢).

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

قال ابنُ كثير: (معنى الآيةِ: إنَّما أخبَرْناك -يا مُحمَّدُ- بشَجَرةِ الزَّقُّوم؛ اختبارًا تَختبرُ به النَّاسَ؛ مَن يُصدِّقُ منهم ممَّن يُكذِّبُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠).

فقيل: المرادُ بفِتنتِهم بها أنَّهم قالوا: كيف تكونُ في النَّارِ شَجرةٌ، والنَّارُ تُحرِقُ الشَّجَرَ؟ وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

وقيل: المرادُ بالفتنةِ هنا: العذابُ، أي: تكونُ شَجَرةُ الزَّقُّومِ عذابًا ومِحنةً ونَكالًا لهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١).

وممَّن جمَع بيْن القولَين، فقال: المعنى: مِحنةً وعذابًا لهم في الآخرةِ، وابتِلاءً لهم في الدُّنيا: الرسعنيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٢).

قال ابنُ القيِّم: (هذه الشَّجرةُ فِتنةٌ لهم فى الدُّنيا بتكذيبِهم بها، وفِتنةٌ لهم فى الآخرةِ بأكْلِهم منها). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٦٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

أي: ثَمَرُ هذه الشَّجَرةِ يُشبِهُ في القُبحِ والبَشاعةِ رُؤوسَ الشَّياطينِ[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها في حديثِ سِحرِ لَبيدِ بنِ الأعصَمِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُشْطٍ ومُشاقَةٍ[٢]، وجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ[٣]، في بِئرِ ذَرْوانَ، فخرَج إليها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ رَجَع، فقال لعائشةَ حينَ رجَع: ((نَخْلُها كأنَّه رُؤوسُ الشَّياطينِ))، ثمَّ دُفِنَت البِئرُ[٤].

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)﴾.

أي: سيأكُلُ المُشرِكونَ مُضطَرِّينَ مُكرَهينَ مِن تلك الشَّجَرةِ رغْمَ خُبثِها وقُبحِها، فيَملؤونَ منها بُطونَهم[٥].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٩).
قال ابنُ كثير: (إنَّما شَبَّهها برُؤوسِ الشَّياطينِ وإن لم تكُنْ مَعروفةً عندَ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه قد استقرَّ في النُّفوسِ أنَّ الشَّياطينَ قَبيحةُ المَنظَرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠).

(٢) المُشطُ: واحِدُ الأمشاطِ؛ وهو الآلةُ الَّتي يُمشَطُ بها الشَّعرُ. والمُشاقَةُ: ما يُستخرَجُ مِن الكَتَّانِ عندَ تسريحِه. وفي روايةٍ: «ومُشاطَةٍ»، وهي ما يُمشطُ مِن الشَّعرِ ويخرجُ في المُشطِ منه. وقيل: المُشاقةُ بمعنى المُشاطة. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٨٨)، ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٩١).

(٣) هو: وِعاءُ طَلعِ النَّخلِ وغِشاؤُه إذا جَفَّ. وأراد بالذَّكَرِ فَحْلَ النَّخلِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٩١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٩٥).

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنَّهم يَملَؤونَ بُطونَهم مِن شَجَرةِ الزَّقُّوم؛ ذكَرَ ما يُسقَونَ لِغَلَبةِ العَطَشِ[(١)]، فالكُفَّارُ إذا شَبِعوا، فحِينَئذٍ يَشتَدُّ عَطَشُهم، ويحتاجُونَ إلى الشَّرابِ؛ فعِندَ هذا وَصَفَ اللهُ شَرابَهم[(٢)].

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّ لهم على ما يَأكُلونَ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ لَخَلْطًا مِن شَرابٍ في غايةِ الحَرارةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥، ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أنَّ طَعامَهم مِنَ الزَّقُّومِ يُخلَطُ بالحَميم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ رجب، والشنقيطي. يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٥).

وقيل: المرادُ به الماءُ المُجَمَّعُ مِن عُصاراتٍ شَتَّى؛ مِن قَيحٍ وصَديدٍ ونَحوِهما. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤١).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: بَعْدَها، أي: بعدَ أكْلِهم منها. والشَّوبُ: أصلُه مَصدرُ شابَ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا خلَطَه به، ويُطلَقُ على الشَّيءِ المَشوبِ به؛ إطلاقًا للمَصدَرِ على المفعولِ، كالخَلقِ على المخلوقِ. وكِلا المعنيينِ محتملٌ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

والحميمُ: قيل: هو الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)﴾.

أي: ثمَّ إنَّ مَرجِعَ المُشرِكينَ بعدَ الأكلِ مِن الزَّقُّومِ وشُربِ الحَميمِ لَإِلَى الجَحيمِ[1].

= وقيل: الحميمُ: هو القَيحُ السَّائِلُ مِن الدُّمَّلِ. ومِمَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: بعدَ أكلِ الزَّقُّوم، وشُربِ الحميمِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، وابن رجب، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٣)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٧).

قيل: يَنتقِلون وَقْتَ الأكلِ وَالشُّرْبِ إلى مكانٍ غيرِ مكانِهم، فيُذهبُ بهم عن دَرَكاتِهم في النَّارِ إلى شجرةِ الزَّقُّومِ والماءِ الحميمِ فيتضَلَّعون منهما، ثمَّ يرجعونَ إلى دَرَكاتِهم في الجحيمِ. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشريُّ، والرسعني، وأبو حيَّان، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٦).

وقيل: بل يُورَدونَ الحَميمَ لِشُربِه، فهو خارجُ الجَحيمِ، كما تُورَدُ الإبلُ إلى الماءِ، ثمَّ يُرَدُّونَ إلى الجَحيمِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، وابن رجب، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٤)، ((التخويف من النار)) لابن رجب =

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ عن عذابِهم هذا، وكان سَبَبُه الجُمودَ مع العادةِ الجاريةِ على غيرِ الحَقِّ، والتَّقَيُّدَ بما ألِفَتْه النَّفْسُ، ومالتْ إليه الطِّباعُ ممَّا أصَّلَه مَن يَعتَقِدونَ أنَّهم أكبَرُ منهم، وأتَمُّ عَقلًا؛ عَلَّل ذلك تحذيرًا مِن مِثلِه؛ لأنَّه كان سَبَبَ هلاكِ أكثَرِ الخَلقِ(١).

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩)﴾.

= (ص: ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٧).

قال البقاعي: (قَولُه تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] يدُلُّ على أنَّ ذلك خارجَها أو خارجَ غَمرتِها، كما تكونُ الأحواضُ في الحِيشانِ خارجَ الأماكنِ المُعَدَّةِ للإبِلِ... ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: بعدَ خُروجِهم مِن دارِ ضيافتِهم الزَّقُّوميَّةِ ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤١).

وذكر ابنُ عاشورٍ أنَّه ينبغي أن يُفسَّرَ المرجِعُ في الآيةِ بالانتقالِ مِن حالةٍ طارئةٍ إلى حالةٍ أصليَّةٍ، لا أنَّهم يُغادِرون الجحيمَ ثمَّ يرجِعون إليه، وأنَّ المرادَ التَّنبيهُ على أنَّ عذابَ الأكلِ مِن الزَّقُّومِ والشَّرابِ مِن الحَميمِ: هو عذابٌ إضافيٌّ زيادةً على عذابِ الجَحيمِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥، ١٢٦).

وردَّ ابنُ عثيمين أيضًا القولَ بأنَّهم يَخرُجونَ مِن الجَحيمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ أنَّ أهلَ النَّارِ لا يَخرُجونَ منها. وذهب إلى أنَّه يحتملُ أن يكونَ المرادُ التَّرتيبَ الذِّكريَّ، أي: أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ أنواعًا مِن العُقوباتِ، ثمَّ بَيَّن أنَّ مآلَهم إلى الجَحيمِ الَّذي فيه العُقوباتُ؛ وأنَّه يحتملُ أن يكونَ المعنى كما قال اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فهم يُقرَّبونَ مِن أبوابِها ويُسقَونَ الحَميمَ، فيُقرَّبونَ لِتَتطَلَّعَ نُفوسُهم للخُروجِ، فإذا أمَّلوا ذلك رُدُّوا إلى أصلِ الجَحيمِ؛ فصار ذلك أشَدَّ لعَذابِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٦).

وقيل: الزَّقُّومُ والحميمُ نُزُلٌ يُقَدَّمُ إليهم قبْلَ دخولِهم. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٢).

أي: إنَّهم وَجَدوا آباءَهم ضالِّينَ عن الحَقِّ[(١)].

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ٧٠﴾.

أي: فهم مَدفوعونَ للإسراعِ والمُبادَرةِ بقُوَّةٍ في الاقتِداءِ بهم، واتِّباعِ ضَلالِهم بغيرِ دَليلٍ ولا بُرهانٍ؛ فلذا استَحَقُّوا ذلك العَذابَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ سبحانه أنَّ المشركين يُهرَعون على آثارِ آبائِهم الأوَّلينَ دونَ نظَرٍ ولا تَدَبُّرٍ؛ أردَفَه ما يوجِبُ التَّسليةَ لرَسولِه على كفرِهم وتكذيبِهم[(٣)].

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٧١﴾.

أي: ولقد ضَلَّ عن الحَقِّ قبلَ مُشرِكي قُرَيشٍ أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ[(٤)]، فعَبَدوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٦٥).

(٤) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يعودُ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: ابنُ جرير، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير =

غيرَ اللهِ[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا في الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا يُنذِرونَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم[٢].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: فانظُرْ[٣] كيف كان آخِرُ أمرِ مُشرِكي الأُمَمِ الماضيةِ الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا برُسُلِهم، ولم ينتَفِعوا بإنذارِهم[٤]؟

= البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٣) قال ابنُ عادل: (هذا الخِطابُ وإن كان ظاهِرُه مع الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا أنَّ المقصودَ منه خِطابُ الكُفَّارِ؛ لأنَّهم سَمِعوا بالأخبارِ ما جَرى على قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ وغَيرِهم مِن أنواعِ العَذابِ؛ فإنْ لم يَعلَموا ذلك فلا أقَلَّ مِن ظَنٍّ وخَوفٍ يحتمِلُ أنْ يكونَ زاجِرًا لهم عن كُفرِهم). ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣١٧). وأصله عند ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨، ١٢٩).

قال ابنُ عاشور: (فالمعنى: فانظُرْ كيف كان عاقِبةُ الضَّالِّينَ الَّذين أنذَرْناهم فلم يَنتَذِروا، كما =

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَّما كان المُنذَرونَ لَيسُوا كُلُّهم ضالِّينَ، بل مِنهم مَنْ آمَنَ وأخلَصَ الدِّينَ لله؛ استثناه اللهُ مِن الهلاكِ[1].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّامِ: اسمُ فاعِلٍ مِن (أخلَصَ)، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ؛ فصارت لله تعالى وَحْدَه دونَ ما سِواه[2].

= فَعَل هؤلاء الَّذين ألْفَوْا آباءَهم ضالِّينَ فاتَّبَعوهم؛ فقد تحقَّق اشتِراكُ هؤلاء وأولئك في الضَّلالِ؛ فلا جَرَمَ أن تكونَ عاقِبةُ هؤلاء كعاقبةِ أولئك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

وقال ابن عثيمين: (قال: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ولم يقل: «ماذا كان»، أي: انظُرْ إلى الكيفيَّةِ وإلى الغاية... لِتَستفيدَ بهذا النَّظَرِ شدَّةَ العقوبةِ ومُلاءمتَها للذَّنبِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ...﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أي: إنَّ عُقوبتَه مُلائِمةٌ لذَنْبه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

٢- قراءةُ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ: اسمُ مَفعولٍ مِن (أخلَصَ)، بمعنى: أنَّ اللهَ أخلَصَهم؛ فصاروا مُخلَصينَ(١).

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ٧٤﴾.

أي: إلَّا(٢) عبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له، واستَخلَصَهم مِنَ الكُفرِ، واختارَهم لرَحمتِه، فآمَنوا باللهِ ورُسُلِه، وأخلَصوا له أعمالَهم؛ فإنَّهم نَجَوا مِنَ الهلاكِ والعذابِ الَّذي حلَّ بقَومِهم المُنذَرينَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).
وقد ذكَر ابنُ عثيمينَ أنَّ إخلاصَهم هم، وإخلاصَ الله لهم متلازمانِ. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٩).

(٢) قال ابن عاشور: (واستُثْنِيَ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ من ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استِثناءً مُتَّصلًا؛ فإنَّ عبادَ اللهِ المُخلَصينَ كانوا من جملةِ المُنذَرينَ، فصَدَّقوا المُنذِرينَ، ولم يُشاركوا المُنذَرينَ في عاقِبَتِهم المنظورِ فيها، وهي عاقِبةُ السُّوءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٤].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ الإشارةُ إلى ذَمِّ التَّقليدِ المخالِفِ للحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذا؛ تنديدًا بهم، وتَوبيخًا لهم أنْ يَجِدوا آباءَهم ضالِّينَ ثمَّ يَتَّبِعوهم، ويَدَعوا طريقَ الحَقِّ(١)! وليس المرادُ: أنَّ تَقليدَ العُلَماءِ في العِلمِ كتَقليدِ هؤلاء آباءَهم مِن جميعِ جِهاتِه، ولكِنَّا نُنَبِّهُ للمُقَلِّدِينَ أنَّ مَن لَهَا عن طَلَبِ الحُجَّةِ، والفَحصِ عن الأشياءِ، وبَذْلِ الجُهْدِ في الاستِقصاءِ في أمرِ الدِّينِ، وعَوَّلَ على التَّقليدِ؛ أدَّاه إلى ما لا تُحمَدُ عاقِبتُه، ولا يُرتَضى طريقُه، كما أدَّى هؤلاء حينَ لَهَوا عن آياتِ الرُّسُلِ، وما أتَوهم به من الحقِّ عن رَبِّهم؛ فظَنُّوا أنَّ آباءَهم أصْدَقُ مِن رُسُلِهم، وأعرَفُ بمواضعِ الحُجَّةِ مِن أنفُسِهم(٢)! ولو لم يُوجَدْ في القُرآنِ آيةٌ غَيرُ هذه الآيةِ في ذَمِّ التَّقليدِ لَكَفى(٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وَصَف الَّذين ضَلُّوا قَبْلَهم بأنَّهم أكثَرُ الأوَّلِينَ؛ لِئَلَّا يَغتَرَّ ضُعَفاءُ العُقولِ بكَثرةِ المُشرِكينَ، ولا يَعتَزُّوا بها؛ لِيَعلَموا أنَّ كَثرةَ العَدَدِ لا تُبَرِّرُ ضَلالَ الضَّالِّينَ، ولا خطَأَ المُخطِئينَ، وأنَّ الهدى والضَّلالَ لَيْسَا مِن آثارِ العَدَدِ كَثرةً وقِلَّةً، ولكِنَّهما حقيقتانِ ثابِتتانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٨).

مُستقِلَّتانِ، فإذا عَرَضت لإحداهما كَثرةٌ أو قِلَّةٌ، فلا تكونانِ فِتنةً لِقِصارِ الأنظارِ، وضُعَفاءِ التَّفكيرِ؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾[1] [المائدة: ١٠٠].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فَضيلةُ الإخلاصِ[2]، وحَثُّ الإنسانِ على أنْ يكونَ مِن هؤلاء العِبادِ لِيَنجوَ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ * أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٠-٦٢] إلى قولِه: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ [الصافات: ٧٠]، وقال أيضًا: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥]، وقال: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

في هذه الآياتِ وأمثالِها في القُرآنِ إشكالٌ مَعروفٌ، وهو أن يُقالَ: لَفظةُ (خير) في الآياتِ المذكورةِ صيغةُ تَفضيلٍ، والمعروفُ في عِلمِ العَربيَّةِ أنَّ صِيغةَ التَّفضيلِ تَقتَضي المُشارَكةَ بيْنَ المَفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه فيما فيه التَّفضيلُ، إلَّا أنَّ المفضَّلَ أكثَرُ فيه وأفضَلُ مِن المفضَّلِ عليه، ومعلومٌ أنَّ المُفضَّلَ عليه في الآياتِ المذكورةِ الَّذي هو عذابُ النَّارِ لا خيرَ فيه البتَّةَ، وإذَنْ فصيغةُ التَّفضيلِ فيها إشكالٌ.

والجوابُ عن هذا الإشكالِ مِن وَجهَين:

الأوَّلُ: أنَّ صِيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلَقُ في القُرآنِ وفي اللُّغةِ مُرادًا بها مُطلَقُ الاتِّصافِ، لا تَفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٢) فإخلاصُهم هم وإخلاصُ الله لهم مُتلازمانِ، كما ذكَر ابنُ عثيمينَ في المصدرِ الآتي.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٩).

الثَّاني: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ أنَّهم إذا أرادوا تَخصيصَ شَيءٍ بالفَضيلةِ دونَ غَيرِه جاؤوا بصيغةِ التَّفضيلِ، يُريدونَ بها خُصوصَ ذلك الشَّيءِ بالفَضلِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فعذابُ النَّارِ شَرٌّ مَحضٌ، لا يُخالِطُه خَيرٌ البتَّةَ كما لا يَخفى، والوَجهانِ المذكورانِ في الجوابِ مُتقاربانِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ إطلاقُ الظُّلْمِ على الكُفرِ، مع أنَّ الظُّلمَ أعَمُّ مِن الكُفرِ، ولكِنَّ المرادَ به هنا الظُّلْمُ المُطلَقُ الَّذي أشار اللهُ إليه في قَولِه: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ فالظُّلمُ المُطلَقُ هو ظُلمُ الكافرِ، والظُّلمُ المُقَيَّدُ هو ظُلمُ الفاسِقِ، فالمعاصي ظُلْمٌ لكِنَّها ظُلْمٌ مُقَيَّدٌ؛ فمَثلًا يُقالُ: هذا ظالِمٌ نَفْسَه بأكلِ الرِّبا، هذا ظالِمٌ نفْسَه بِفِعلِ الزِّنا، هذا ظالِمٌ نَفْسَه بالاعتِداءِ على الخَلْقِ... وهكذا، أمَّا الظُّلمُ المُطلَقُ فهو ظُلمُ الكافرِ؛ لأنَّ الكافرَ -والعياذُ باللهِ- لم يأتِ بعَدْلٍ إطلاقًا حتَّى يُقالَ: إنَّ ظُلمَه ظُلمٌ مُقَيَّدٌ[2]!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُعقَلُ أن تَنبُتَ الشَّجرةُ في جَهنَّمَ، مع أنَّ النَّارَ تُحرِقُ الشَّجرةَ؟

الجوابُ: أنَّ خالِقَ النَّارِ قادِرٌ على أن يمنَعَ النَّارَ مِن إحراقِ الشَّجَرِ، ولأنَّه إذا جاز أن يكونَ في النَّارِ زبانيَةٌ، واللهُ تعالى يمنَعُ النَّارَ عن إحراقِهم، فلِمَ لا يجوزُ مِثلُه في هذه الشَّجَرةِ[3]؟

ووجهٌ آخَرُ: أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ أنَّ تلك الشَّجَرةَ خَرَجت مِن أصلِ الجَحيم وأُنشِئَت منها، والشَّجَرةُ الَّتي أُنشِئَت من النَّارِ لا تأكُلُها النَّارُ ولا تُحرِقُها، وإنَّما

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٦، ٣٣٧).

تأكُلُ غيرَها مِنَ الأشجارِ الَّتي لم تَنشَأْ منها، ومِثلُ هذا جائزٌ: أن يكونَ الشَّيءُ الَّذي يكونُ نُشوؤُه وبَدْؤُه مِن كُلِّ شَيءٍ ألَّا يُهلِكَه كَونُه في ذلك؛ كالسَّمَكِ الَّذي يكونُ أصلُ نُشوئِه في الماءِ لا يُهلِكُه الماءُ، وكذلك جميعُ دوابِّ البَحرِ، وإن كان غيرُها مِنَ الدَّوابِّ في البَرِّيَّةِ يَهلِكُ فيه ويَتلَفُ؛ فعلى ذلك الشَّجَرةُ المُنشأَةُ منها لا تُهلِكُها النَّارُ ولا تُحرِقُها، وإن كان غيرُها مِنَ الأشجارِ تأكُلُها وتُحرِقُها. واللهُ أعلَمُ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الرَّدُّ على مَن يقولُ: «إنَّ الشَّياطينَ والجِنَّ هي قُوَى الشَّرِّ، والملائِكةَ قُوَى الخيرِ، وليس هناك أجسامٌ تُحَسُّ»! ووجهُ الدَّلالةِ أنَّه أثبتَ للشَّياطينِ رُؤوسًا، ولا يُمكِنُ أن يكونَ في الأمورِ المعنويَّةِ الَّتي هي القُوى(٢)!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: إنَّا ما رأَيْنا رُؤوسَ الشَّياطينِ، فكيف يُمكِنُ تَشبيهُ شَيءٍ بها؟

أجابوا عنه مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ النَّاسَ لَمَّا اعتَقَدوا في الملائِكةِ كَمالَ الفَضلِ في الصُّورةِ والسِّيرةِ، واعتَقَدوا في الشَّياطينِ نهايةَ القُبحِ والتَّشويهِ في الصُّورةِ والسِّيرةِ؛ فكما حَسُنَ التَّشبيهُ بالمَلَكِ عندَ إرادةِ تقريرِ الكَمالِ والفَضيلةِ في قَولِه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: ٣١]، فكذلك وجَبَ أن يَحسُنَ التَّشبيهُ برُؤوسِ الشَّياطينِ في القُبحِ وتَشويهِ الخِلقةِ؛ فهذا مِن بابِ التَّشبيهِ لا بالمحسوسِ، بل بالمتَخَيَّلِ، كأنَّه قيل: إنَّ أقبَحَ الأشياءِ في الوَهمِ والخيالِ هو رُؤوسُ الشَّياطينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٠).

فهذه الشَّجَرةُ تُشبِهُها في قُبحِ النَّظَرِ وتَشويهِ الصُّورة، والَّذي يؤكِّدُ هذا أنَّ العُقَلاءَ إذا رأَوا شَيئًا شديدَ الاضطرابِ، مُنكَرَ الصُّورة، قَبيحَ الخِلقةِ؛ قالوا: إنَّه شَيطانٌ، وإذا رأَوا شَيئًا حَسَنَ الصُّورةِ والسِّيرةِ، قالوا: إنَّه مَلَكٌ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المقصودَ بالشَّياطينِ: حيَّاتٌ لها رُؤوسٌ وأعرافٌ، وهي مِن أقبَحِ الحيَّاتِ، وبها يُضرَبُ المثَلُ في القُبحِ، والعرَبُ إذا رأت مَنظَرًا قَبيحًا قالت: (كأنَّه شَيطانُ الحَماطةِ)، والحَماطةُ: شجَرةٌ مُعيَّنةٌ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ رُؤوسَ الشَّياطينِ نَبتٌ مَعروفٌ قَبيحُ الرأسِ[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ إطلاقُ الآباءِ على الأجدادِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ يَشملُ الأبَ الأدنى والأبَ الأعلَى، وإطلاقُ الأبِ على الجَدِّ -ولو كان بعيدًا- مَعروفٌ في الكِتابِ والسُّنَّة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]؛ فسَمَّى اللهُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أبًا مع أنَّه جَدٌّ بَعيدٌ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: ترجيحُ القَولِ بأنَّ الجَدَّ مِن قِبَلِ الأبِ يُسقِطُ الإخوةَ مُطلَقًا -أي: سواءٌ كانوا أشقَّاءَ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ- في بابِ الميراثِ، وهو القَولُ الرَّاجِحُ؛ لأنَّه أبٌ، وهذا القَولُ هو قولُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه، ورُوِيَ عن ثلاثةَ عَشَرَ صَحابيًّا، وهو مَذهَبُ أبي حنيفةَ رحمه اللهُ، واختيارُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رحمه اللهُ[(٢)].

٧- في قَولِه: ﴿أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ضَلالَهم لا يخفَى على النَّاظِرِ فيه لو تُرِكوا على الفِطرةِ العَقليَّةِ، ولم يُغَشُّوها بغِشاوةِ العِنادِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٠). ويُنظر أيضًا: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ عنايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث كان يَضرِبُ له مِن الأمثلةِ ما يُسَلِّيه بها؛ لأنَّ سُلُوَّ الإنسانِ بغَيرِه يُهَوِّنُ عليه الأمرَ، ويَزيدُه قُوَّةً واندِفاعًا فيما يَدعو إليه[1].

٩- أنَّ اللهَ تعالى أقامَ الحُجَّةَ على كلِّ أُمَّةٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ أي: في الأوَّلينَ ﴿مُنْذِرِينَ﴾، ويؤيِّدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ فكلُّ الأُمَمِ قامتْ عليهم الحُجَّةُ[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أنَّ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ فلا حُجَّةَ عليه؛ لأنَّه لم يَبلُغْه الإنذارُ، وهو كذلك[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أنَّ اللهَ لا يُعاقِبُ على الذَّنبِ إلَّا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ؛ فهم أُنذِروا فكانتِ العاقِبةُ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾

- استِئْنافٌ بعدَ تَمامِ قِصَّةِ المُؤمِنِ ورِفاقِه، قُصِدَ منه التَّنْبيهُ إلى البَونِ بيْنَ حالِ المُؤمِنِ والكافِرِ، جرَى على عادةِ القُرآنِ في تَعْقيبِ القَصَصِ والأمْثالِ بالتَّنْبيهِ إلى مَغازيها ومَواعِظِها، فالمقصودُ بالخَبَرِ هو قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي: شَجَرةَ الزَّقُّومِ ﴿فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ إلى آخِرِها. وإنَّما صِيغَ الكلامُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

هذا الأُسلوبِ؛ للتَّشويقِ إلى ما يَرِدُ فيه[١].

- في قَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ لَمَّا اختارَ المُؤمِنونَ ما أدَّى إلى الرِّزْقِ المَعْلومِ في الجَنَّةِ، واختارَ الكافِرونَ ما أدَّى إلى شَجَرةِ الزَّقُّومِ؛ قيلَ لهم ذلك تَوبيخًا على سُوءِ اختيارِهم[٢]. والهَمْزةُ للاستِفْهامِ الإنْكاريِ التَّوْبيخيِّ[٣]. وقيل: للتَّقريرِ، والمرادُ تقريرُ قريشٍ والكفَّارِ[٤].

- الاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ مُكنًّى به عن التَّنْبيهِ على فَضلِ حالِ المُؤمِنِ وفَوزِه، وخَسارِ الكافِرِ، وهو خِطابٌ لكُلِّ سامعٍ[٥].

- والإشارةُ بـ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّمَ مِن حالِ المُؤمِنينَ في النَّعيمِ والخُلودِ. وجِيءَ باسمِ الإشارةِ مُفرَدًا بتَأْويلِ المَذْكورِ، بعلامةِ بُعدِ المُشارِ إليه؛ لِتَعْظيمِه بالبُعْدِ، أي: بُعْدِ المَرتَبةِ وسُمُوِّها؛ لأنَّ الشَّيءَ النَّفيسَ الشَّريفَ يُتخيَّلُ عاليًا، والعالي يُلازِمُه البُعدُ عن المكانِ المُعتادِ، وهو السُّفلُ، وأين الثُّرَيَّا من الثَّرَى[٦]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ استِئْنافٌ لِوَصفِ شَجَرةِ الزَّقُّومِ استِئْنافًا ثانيًا مُكرَّرًا فيه كَلِمةُ ﴿إِنَّهَا﴾؛ للتَّهويلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٢٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾

- في قوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تَشْبيهٌ، ورُؤوسُ هذه الشَّياطينِ غَيرُ مَعْروفةٍ لهم، فالتَّشْبيهُ بها حَوالةٌ على ما تُصَوِّرُ لهم المُخيِّلةُ، وطَلْعُ شَجَرةِ الزَّقُّومِ غَيرُ مَعْروفٍ، فوُصِفَ للنَّاسِ فظيعًا بَشِعًا، وشُبِّهَتْ بَشاعَتُه ببَشاعةِ رُؤوسِ الشَّياطينِ؛ لأنَّ الشَّيْطانَ مَكروهٌ مُستقبَحٌ في طِباعِ النَّاسِ؛ لاعتِقادِهم أنَّه شَرٌّ مَحضٌ لا يَخلِطُهُ خيرٌ، وهذا التَّشْبيهُ مِن تَشْبيهِ المَعْقولِ بالمَعْقولِ، كتَشْبيهِ الإيمانِ بالحَياةِ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]. والمَقْصودُ منه هُنا: تَقْريبُ حالِ المُشبَّهِ، فلا يَمتنِعُ كَونُ المُشبَّهِ به غَيرَ مَعْروفٍ، ولا كونُ المُشبَّهِ كذلك، وهذه الصِّفاتُ الَّتي وُصِفَتْ بها شَجَرةُ الزَّقُّومِ بالِغةٌ حدًّا عَظيمًا مِنَ الذَّمِّ، وهذا تَشْبيهٌ تَخْييليٌّ[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾

- قَولُه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ إنْذارٌ بأنَّهم آكِلونَ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ إنْذارًا مُؤكَّدًا، والمعنى: أنَّهم آكِلونَ منها كَرهًا؛ وذلك من العَذابِ، وإذا كان المَأْكولُ كَريهًا يَزيدُه كَراهةً سُوءُ مَنظَرِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٧، ٢٧٨).

والمرادُ بالتَّخييلِ: أنَّه لا يمكِنُ وُجودُه في المشَبَّهِ به إلَّا على سبيلِ التَّخييلِ والتَّأويلِ، وقد يكونُ صعبَ الوُجودِ في الواقعِ أو متعَذِّرًا. يُنظر: ((أسرار البلاغة)) للجُرْجاني (ص: ٢٦٧)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ فاءُ التَّفريعِ، وفيها مَعْنى التَّعْقيبِ، أي: لا يَلبَثون أنْ تَمتلِئَ بُطونُهم مِن سُرعةِ الالْتِقامِ، وذلك تَصويرٌ لِكَراهَتِها؛ فإنَّ الطَّعامَ الكَريهَ كالدَّواءِ إذا تَناوَلَه آكِلُه أسرَعَ ببَلْعِه، وأعظَمَ لُقَمَه؛ لِئَلَّا يَستقِرَّ طَعمُه على آلةِ الذَّوقِ[(١)].

وقيل: لَمَّا كان الأكْلُ يَعتَقِبُه مَلْءُ البَطنِ، كان العَطفُ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾[(٢)].

- ومَلْءُ البُطونِ كِنايةٌ عن كَثْرةِ ما يَأْكلونَ منها على كَراهَتِها. وإسنادُ الأكْلِ ومَلْءِ البُطونِ إليهم إسنادٌ حَقيقيٌّ، وإنْ كانوا مُكرَهينَ على ذلك الأكْلِ والمَلْءِ[(٣)].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّها عَطَفَتْ جُملةً، وليس للتَّراخي في الإخبارِ مَعنًى إلَّا إفادةُ أنَّ ما بعدَ حَرفِ التَّراخي أهَمُّ أو أعجَبُ ممَّا قَبْلَه، بحيث لم يكُنِ السَّامِعُ يَرقُبُه، فهو أعْلى رُتْبةً باعتبارِ أنَّه زيادةٌ في العَذابِ على الَّذي سَبَقَه، فوَقْعُه أشدُّ منه، وقد أشعَرَ بذلك قَولُه: ﴿عَلَيْهَا﴾، أي: بَعْدَها، أي: بعدَ أكْلِهم منها[(٤)]. وقيل: لَمَّا كان الشُّربُ يَكثُرُ تَراخيهِ عن الأكلِ، أُتِيَ بلَفظِ ﴿ثُمَّ﴾ المُقتَضيةِ المُهْلةَ[(٥)]. ففي العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ سِرٌّ لَطيفُ المَأخَذِ، دَقيقُ المَسلَكِ، قَلَّ مَن يَتَفطَّنُ إليه؛ فإنَّ في مَعنى التَّراخي وَجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّهم يَملَؤون البُطونَ مِن شَجَرِ الزَّقُّومِ، وهو حارٌّ يُحرِقُ بُطونَهم، ويَزيدُ في عَطَشِهم وغُلَّتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

فلا يُسقَونَ إلَّا بعدَ مَليٍّ[١]؛ تَعْذيبًا بذلك العَطَشِ، ثمَّ يُسقَونَ ما هو أحَرُّ من العَطَشِ، وهو الشَّرابُ المَشوبُ بالحَميم. ووَجهٌ آخَرُ في مَعْنى التَّراخي: أنَّه ذُكِرَ الطَّعامُ بتلك الكَراهةِ والبَشاعةِ، ثمَّ ذُكِرَ الشَّرابُ بما هو أوغَلُ في الكَراهةِ وأبعَدُ في البَشاعةِ، فجاء بـ(ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على تَراخي حالِ الشَّرابِ عن حالِ الطَّعامِ، ومُبايَنةِ صِفَتِه لِصِفَتِه في الزِّيادةِ عليه[٢].

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (على) بمَعْنى (مع)، ويَصِحُّ أنْ تكونَ للاستِعْلاءِ؛ لأنَّ الحَميمَ يَشرَبونَه بعدَ الأكْلِ، فيَنزِلُ عليه في الأمْعاءِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾

- مَعنى حَرفِ التَّراخي (ثُمَّ) في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أنَّهم يُذهَبُ بهم عن مَقارِّهم ومَنازِلِهم في الجَحيمِ، وهي الدَّرَكاتُ الَّتي أُسْكِنوها إلى شَجَرةِ الزَّقُّومِ، فيَأكُلونَ إلى أنْ يَتَملَّؤوا، ويُسقَونَ بعدَ ذلك، ثمَّ يَرجِعونَ إلى دَرَكاتِهم -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فدَخَلَتْ (ثُمَّ) للدَّلالةِ على ذلك، والرُّجوعُ دَليلٌ على الانتِقالِ في وَقتِ الأكْلِ والشُّربِ إلى مَكانٍ غيرِ مَكانِهما[٤].

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ المَرجِعُ: مَكانُ الرُّجوعِ، أي: المَكانُ الَّذي يعودُ إليه الخارِجُ منه بعدَ أنْ يُفارِقَه، وقد يُستعارُ للانتِقالِ من حالةٍ طارئةٍ

---

(١) المَلِيُّ: الحينُ الطَّويلُ مِن الزَّمانِ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٣).

إلى حالةٍ أصليَّةٍ؛ تَشبيهًا بمُغادَرةِ المكانِ ثمَّ العَودِ إليه؛ والمُشرِكونَ حينَ يَطعَمون مِن شَجَرةِ الزَّقُّوم، ويَشرَبونَ الحَميمَ، لم يُفارِقوا الجَحيمَ، فأُريدَ التَّنْبيهُ على أنَّ عَذابَ الأكْلِ مِن الزَّقُّوم، والشَّراب مِن الحَميم زيادةٌ على عَذابِ الجَحيم، ألَا ترى إلى قَولِه: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فليس ثَمَّةَ مُغادَرةٌ للجَحيمِ حتَّى يكونَ الرُّجوعُ حقيقةً[(١)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾

- تَعْليلٌ لِمَا جازاهمُ اللهُ به مِن العَذاب، وإبْداءٌ للمُناسَبةِ بيْنَه وبيْنَ جُرمِهم، فعلَّلَ استِحْقاقَهُم للوُقوعِ في تلك الشَّدائدِ كُلِّها بتَقْليدِ الآباءِ في الدِّين، واتِّباعِهم إيَّاهُم على الضَّلال، وتَركِ اتِّباعِ الدَّليل، وإنَّ جُرمَهم كان تَلَقِّيًا لِمَا وَجَدوا عليه آباءَهُم مِن الشِّركِ وشُعَبِه بدُونِ نَظَرٍ ولا اختيارٍ لِما يختارُه العاقِلُ، فكان مِن جَزائِهم على ذلك أنَّهم يُطعَمونَ طَعامًا مُؤلِمًا، ويُسقَونَ شَرابًا قَذِرًا بدُونِ اختيارٍ كما تَلَقَّوْا دِينَ آبائِهم تَقْليدًا واعْتِباطًا؛ فمَوقِعُ (إنَّ) مَوقِعُ فاءِ السَّبَبيَّةِ، ومَعناها مَعنى لامِ التَّعْليلِ، وهي لذلك مُفيدةٌ رَبْطَ الجُملةِ بالَّتي قَبْلَها، كما تَربِطُها الفاءُ ولامُ التَّعْليلِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فيه إشْعارٌ بأنَّهم بادَروا إلى الضَّلالِ والكُفرِ من غَيرِ تَوقُّفٍ على نَظَرٍ وبَحثٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤).

- في قَولِه: ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ الفاءُ فاءُ العَطفِ للتَّفْريعِ والتَّسَبُّبِ، أي: مُتفرِّعٌ على إلفائِهم آباءَهم ضالِّينَ، أنِ اقْتَفَوْا آثارَهم تَقْليدًا بلا تأمُّلٍ، وهذا ذمٌّ لهم(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

- عُقِّبَ وَصْفُ حالِ المُشركينَ في الآخِرةِ، وما عُلِّلَ به مِن أنَّهم أَلْفَوْا آباءَهم ضالِّينَ فاتَّبَعوا آباءَهم بتَنْظيرِهم بمَن سَلَفوا مِن الضَّالِّينَ، وتَذْكيرًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك تَسْليةً له على ما يُلاقيهِ مِن تَكْذيبِهم، واستِقْصاءً لهم في العِبْرةِ والمَوعِظةِ بما حلَّ بالأُمَمِ قَبْلَهم، فهذه الجُملةُ مَعْطوفةٌ على مَضْمونِ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها؛ إكمالًا للتَّعْليلِ، أي: اتَّبَعوا آثارَ آبائِهم، واقْتَدَوا بالأُمَمِ أشْياعِهم(٢).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إكمالٌ للعلَّةِ والتَّسليةِ والعِبْرةِ، والمعنى: ﴿أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي: رُسُلًا يُنذِرونَهم، أي: يُحَذِّرونَهم ما سيَحُلُّ بهم مِثلَ ما أرْسَلْناك إلى هؤلاءِ(٣).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ تَكريرُ القَسَمِ؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مَضمونِ كُلٍّ مِن الجُملتَينِ(٤).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ خصَّ المُرسَلينَ بوَصفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

المُنذِرينَ؛ لِمُناسَبةِ حالِ المُتحدَّثِ عنهم وأمثالِهم[(١)].

- وفُرِّعَ على قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ قولُه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، وهو خِطابٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَرْشيحًا لِمَا في الكَلامِ السَّابِقِ مِن جانِبِ التَّسْليةِ والتَّثْبيتِ، مع التَّعْريضِ بالكَلامِ لِتَهديدِ المُشرِكينَ بذلك. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ لكُلِّ مَن يَسمَعُ القُرآنَ؛ فشَمِلَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٢)].

- والأمْرُ بالنَّظَرِ مُستعمَلٌ في التَّعْجيبِ والتَّهْويلِ، فإنْ أُريدَ بالعاقِبةِ عاقِبَتُهم في الدُّنيا؛ فالنَّظَرُ بَصَريٌّ، وإنْ أُريدَ عاقِبَتُهم في الآخِرةِ كما يَقتَضيهِ السِّياقُ؛ فالنَّظَرُ قَلْبيٌّ، ولا مانِعَ مِن إرادةِ الأمْرَينِ، واستِعْمالِ المُشتَرَكِ في المَعْنَيَينِ[(٣)].

- وفي قَولِهِ: ﴿فَٱنظُرْ﴾ ما يَقتَضي إهْلاكَهم، وسُوءَ عاقِبَتِهم[(٤)].

- قَولُه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تَعريفُ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تَعْريفُ العَهدِ، وهُمُ المُنذَرونَ الَّذين أُرسِلَ إليهم المُنذِرونَ، أي: فهُمُ الضَّالُّون المُعبَّرُ عنهم بأنَّهم أكثَرُ الأوَّلينَ[(٥)].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تَعْجيبيٌّ؛ للتَّفْظيعِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧، ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٥-٨٢)

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى قصصَ بعضِ الأنبياءِ السَّابقينَ مع أقوامِهم، مبتدئًا بنُوحٍ عليه السَّلامُ، فيقولُ: ولقد نادانا نُوحٌ داعِيًا بهَلاكِ قَومِه، فأجَبْناه؛ فنِعْمَ المُجيبونَ نحنُ، ونَجَّيْنا نوحًا وأهلَه المؤمنينَ مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ، وجعَلْنا ذُرِّيَّةَ نوحٍ بعدَ إغراقِ قَومِه هم الباقينَ في الأرضِ، وأنعَمْنا على نوحٍ بالثَّناءِ الباقي فيمَن بعدَه، سَلامٌ عليه في العالَمينَ، مِثلَ هذا الجزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا.

إنَّ نوحًا مِن عبادِنا المُؤمِنينَ، ثمَّ أغرَقْنا قَومَ نُوحٍ الكافِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال مِن قَبْلُ: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]، وقال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات: ٧٣]؛ أتْبَعَه بشَرحِ وقائعِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ[١]. فأُتبِعَ التَّذكيرُ والتَّسليةُ مِن جانبِ النَّظرِ في آثارِ ما حَلَّ بالأُمَمِ المرسَلِ إليهم، وما أُخبِرَ عنه مِن عاقِبتِهم في الآخِرةِ، بتَذكيرٍ وتَسليةٍ مِن جانبِ الإخبارِ عن الرُّسلِ الَّذين كذَّبهم قَومُهم وآذَوْهم، وكيف انتصَرَ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

لهم؛ لِيَزيدَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تثبيتًا، ويُلقِمَ المشركينَ تبكيتًا[١].

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: ولقد دعانا نوحٌ أن نُهلِكَ قومَه المُشرِكينَ، فأجَبْنا دُعاءَه فأهلَكْناهم؛ فلَنِعْمَ المجيبونَ نحنُ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ... ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٨].

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه نِعمَ المُجيبُ على سَبيلِ الإجمالِ؛ بيَّنَ أنَّ الإنعامَ حَصَلَ في تلك الإجابةِ مِن وُجوهٍ[٣]، فقال:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أي: ونَجَّيْنا نوحًا وأهلَه المُؤمنينَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ العَظيمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦، ٧٧].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: وجعَلْنا ذُرِّيَّةَ نُوحٍ بعدَ إغراقِ قَومِه هم الباقِينَ في الأرضِ؛ فجَميعُ الأُمَمِ مِن نَسْلِه[1].

= الماوردي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قيل: المرادُ بالكَربِ العَظيمِ: الغَرَقُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ويحيى بنُ سلام، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والقرطبي، ونسَبَه الرازي إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٠).

قال ابن عاشور: (المعنيُّ به الطُّوفانُ، وهو كربٌ عظيمٌ على الَّذين وقَعوا فيه، فإنجاءُ نوحٍ منه هو سلامتُه مِن الوقوعِ فيه كما عَلِمتَ؛ لأنَّه هَولٌ في المنظرِ، وخَوفٌ في العاقبةِ، والواقعُ فيه موقِنٌ بالهلاكِ. ولا يَزالُ الخوفُ يَزدادُ به حتَّى يَغمُرَه الماءُ، ثمَّ لا يَزالُ في آلامٍ مِن ضيقِ النَّفَسِ ورِعْدةِ القرِّ والخَوفِ وتحقُّقِ الهلاكِ حتَّى يَغرَقَ في الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

وقيل: المرادُ بالكَربِ العَظيم: تكذيبُ قَومِ نُوحٍ الكافِرينَ وأذاهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير، والإيجي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٤٨).

وقيل: المرادُ: مَجموعُ الأمْرَينِ: الغَرَقُ، وأذى الكافِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابن عطيَّة، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٠)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١). =

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) ﴾.

أي: وأثنَيْنا على نُوحٍ، وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين يأتُونَ مِن بَعدِه[1].

= قال ابنُ القيم: (اتَّفق العُلَماءُ أنَّ نُوحًا لَمَّا نَزَل مِنَ السَّفينةِ مات مَن كان معه، ثمَّ مات نَسْلُهم، ولم يبقَ غَيرُ نَسلِ نوحٍ، والدَّليلُ على هذا قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾). ((المنار المُنِيف)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢، ١٣٣).

ممَّن قال إنَّ المعنى: أنَّ الله أبقى له الثَّناءَ الحسَنَ، والذِّكرَ الجميلَ في الآخِرينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

قال البِقاعي: (﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: كُلُّ مَن تأخَّرَ عن زمانِه إلى يومِ الدِّين). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ ﴿الْآخِرِينَ﴾ أنَّها باقيةٌ في جميعِ الأُمَمِ إلى انقضاءِ العالَمِ... فكان نوحٌ مذكورًا بمحامِدِ الخِصالِ، حتَّى قيل: لا تجهَلُ أمَّةٌ من أُمَمِ الأرضِ نُوحًا وفَضْلَه وتمجيدَه، وإن اختَلَفت الأسماءُ الَّتي يُسَمُّونَه بها باختلافِ لُغاتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢).

وقال ابنُ عثيمين: (الظَّاهِرُ مِن الآياتِ الكريمةِ أنَّ جميعَ الأنبياءِ الَّذين جاؤوا مِن بعدِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يُذكَرُ فيهم نوحٌ بالثَّناءِ الحَسَنِ، فتكونُ الأنبياءُ كُلُّهم والأُمَمُ يُطْرُونَ نُوحًا -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بما أثنى اللهُ به عليه؛ لأنَّه مذكورٌ في كلِّ الكُتُبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨١).

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾.

أي: سلامٌ على نوحٍ وثناءٌ حسَنٌ ثابتٌ في العالَمينَ، فلا يُذكَرُ بسُوءٍ، بل يُثْنونَ عليه ثناءً حسَنًا، ويُسلِّمون عليه، ويَدْعون له(1).

(1) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

قيل: المرادُ بالعالَمينَ: كُلُّ حَيٍّ مِن الثَّقَلَين (الجنِّ والإنسِ) والملائكةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، والرازي، والرسعني، والنسفي، وابن القيم، والبِقاعي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ بالعالَمينَ: الأُمَمُ والقُرونُ وجميعُ الطَّوائفِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

وقال ابن عثيمين: (المراد بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هنا مَن بَعْدَ نوحٍ لا مَن قَبْلَه فيما يَظهَرُ، وعلى هذا فيكونُ عامًّا يُرادُ به الخاصُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨١).

واختلف المفَسِّرونَ في قَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هل هو مُفَسِّرٌ للآيةِ السَّابِقةِ: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، أو هو جملةٌ استِئنافيَّةٌ مُستقِلَّةٌ عمَّا قَبْلَها؟

فمِمَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابنُ القيم، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

قال الشوكاني: (المتروكُ هذا هو قَولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾، أي: ترَكْنا هذا الكلامَ بعَيْنِه، وارتفاعُه على الحكايةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

قال الزمخشري: (فإن قلتَ: فما معنى قَولِه ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ [أي: بناءً على هذا القول] قلتُ: معناه الدُّعاءُ بثُبوتِ هذه التَّحيَّةِ فيهم جميعًا، وألَّا يخلوَ أحدٌ منهم منها، كأنَّه قيل: ثبَّتَ اللهُ التَّسليمَ على نوحٍ وأدامَه في الملائكةِ والثَّقلينِ يُسَلِّمونَ عليه عن آخِرِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الثاني: ابنُ جرير، وابن جُزَي، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير =

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى تفاصيلَ إنعامِه على نُوحٍ؛ أخبَرَ أنَّه إنَّما خَصَّص نوحًا عليه السَّلامُ بتلك التَّشريفاتِ الرَّفيعةِ، مِن جَعلِ الدُّنيا مملوءةً مِن ذُرِّيَّتِه، ومِن تَبقيةِ ذِكرِه الحَسَنِ في ألسِنةِ جَميعِ العالَمينَ؛ لأجْلِ أنَّه كان مُحسِنًا[(١)].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به نُوحًا[(٢)] ....

= ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

قال ابن القيِّم: (مَن قال بأنَّ المتروكَ هو السَّلامُ عليهم في الآخِرينَ نَفْسُه فلا ريبَ أنَّ قولَه ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ ﴾ جملةٌ في موضعِ نَصبٍ بـ «تَرَكْنَا»، والمعنى: أنَّ العالَمينَ يُسلِّمونَ على نوحٍ ومَن بَعْدَه من الأنبياءِ. ومَن فَسَّره [أي: قولَه: ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾] بلسانِ الصِّدقِ والثَّناءِ الحَسَنِ نَظَر إلى لازمِ السَّلامِ ومُوجَبِه، وهو الثَّناءُ عليهم وما جُعِلَ لهم [أي: للأنبياءِ] من لسانِ الصِّدقِ الَّذي لأجْلِه إذا ذُكِروا سُلِّم عليهم)، وذكر أنَّهما قولٌ واحدٌ، ولا ينبغي حكايتُهما على أنَّهما قولانِ. يُنظر: ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤٥٧، ٤٥٨).

وذكر ابنُ جُزَي أنَّ معنى ﴿ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ -على القولِ بأنَّ جملةَ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ استئنافيَّةٌ-: تخصيصُه بالسَّلامِ عليه بيْن العالَمينَ، كما تقولُ: أُحِبُّ فُلانًا في النَّاسِ، أي: أُحِبُّه خصوصًا مِن بيْنِ النَّاسِ. قال: (وهذا الخلافُ يجري حيث ما ذُكِر ذلك في هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٢) قيل: المرادُ بجزاءِ الله تعالى له: هو إنجاؤُه مِن الكَربِ العظيمِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

وقيل: المرادُ بالجزاءِ: هو إبقاءُ الثَّناءِ الحَسَنِ عليه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥). =

-لأنَّه كان مِنَ المُحسِنينَ-[١] نَجزي كلَّ مَن كان مُحسِنًا[٢].

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١﴾.

أي: إنَّ نُوحًا مِن عِبادِنا المؤمِنينَ باللهِ، فوحِّدُوا اللهَ تعالى، وأخلِصوا في

= وقيل: جزى الله نوحًا بأمْرَين: بما تَرَك عليه في الآخِرينَ، وبما سَلَّمه في العالَمينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٨).

وممَّن ذهب إلى جميعِ تلك المعاني: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

(١) قال ابن جرير: (كذلك نَجزي الَّذين يُحسِنونَ فيُطيعونَنا، ويَنتَهونَ إلى أمرِنا، ويَصبِرون على الأذى فينا). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (أثنى تعالى على نُوحٍ بالإحسانِ؛ لِصَبرِه على أذى قَومِه، ومُطاوَلَتِه لهم، وغيرِ ذلك مِن عبادتِه وأفعالِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

ويَشملُ الإحسانُ: الإحسانَ في عبادةِ الخالقِ، والإحسانَ إلى المخلوقِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

وذكر ابنُ عاشور أنَّ الإحسانَ هو الإيمانُ الخالِصُ المفسَّرُ في قَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يَراك)) [البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هُرَيرةَ. ومسلم (٨) من حديث عُمَرَ]. ثمَّ قال: (وأيُّ دليلٍ على إحسانِه أجلَى مِن مُصابرتِه في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ والتَّقْوى، وما ناله مِن الأذى مِن قَومِه طُولَ مُدَّةِ دَعوتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

وقيل: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هو بيانٌ لإحسانِ نوحٍ عليه السَّلامُ. وممَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٢-١٨٤).

عبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له(١).

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نجاةَ نُوحٍ ونجاةَ أهلِه؛ إذ كانوا مُؤمِنينَ- ذكَرَ هلاكَ غَيرِهم بالغَرَقِ(٢).

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٨٢﴾.

أي: ثمَّ أغرَقْنا قومَ نُوحٍ الكافِرينَ(٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المقصودُ منه بيانُ أنَّ أعظَمَ الدَّرَجاتِ وأشرَفَ المقاماتِ: الإيمانُ باللهِ، والانقيادُ لطاعتِه(٤).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عَلَّل التَّحيَّةَ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأنَّه كان مُحسِنًا، ثمَّ عَلَّل إحسانَه بكَونِه مُؤمِنًا؛ فدَلَّ على جلالةِ الإيمانِ ومَحلِّه عندَ اللهِ(٥)، وأنَّه أرفَعُ مَنازِلِ العبادِ، وأنَّه مُشتمِلٌ على جميعِ شَرائِعِ الدِّينِ وأصولِه وفُروعِه؛ لأنَّ اللهَ مَدَح به خواصَّ خَلقِه(٦)، وعُلِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

منه أنَّ الإيمانَ هو المرادُ الأقصى مِن الإنسانِ؛ لأنَّه عَلَّل الإنجاءَ بالإحسانِ، والإحسانَ بالإيمانِ[١]. وهذا على القولِ بتفسيرِ الإحسانِ بما بعدَه وهو الإيمانُ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ﴾ في هذه القِصَّةِ عِبرةٌ للمُشرِكينَ بما حَلَّ بقَومِ نُوحٍ، وتسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَعْلُ نوحٍ قُدوةً له، وإيماءٌ إلى أنَّ اللهَ يَنصُرُه كما نصَرَ نُوحًا على قَومِه، ويُنَجِّيه مِن أذاهم، وتنويهٌ بشأنِ المؤمِنينَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ إثباتُ سَمْعِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا إجابةَ إلَّا بعدَ السَّمعِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ تلك الإجابةَ كانت مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ، وبَيانُه مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه تعالى عبَّرَ عن ذاتِه بصيغةِ الجَمعِ، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾، والقادِرُ العَظيمُ لا يليقُ به إلَّا الإحسانُ العَظيمُ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه أعاد صيغةَ الجَمعِ في قَولِه: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾، وذلك أيضًا يدُلُّ على تَعظيمِ تلك النِّعمةِ، لا سيَّما وقد وَصَف تلك الإجابةَ بأنَّها نِعْمَتِ الإجابةُ.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ الفاءَ في قَولِه: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ تدُلُّ على أنَّ حُصولَ هذه الإجابةِ مُرَتَّبٌ على ذلك النِّداءِ، والحُكمُ المرَتَّبُ على الوَصفِ المُناسِبِ:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٥).

يَقتضي كَوْنَه مُعلَّلًا به، وهذا يدُلُّ على أنَّ النِّداءَ بالإخلاصِ سَبَبٌ لحُصولِ الإجابةِ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ جوازُ إطلاقِ العامِّ وإنْ كان مخصوصًا؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ يَشملُ المؤمِنَ والكافِرَ منهم، وقد دلَّت آيةٌ أخرى على أنَّ مِن أهلِه مَن لم يَنْجُ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ هو الَّذي بَقِيَ نَسْلُه مِن بني آدَمَ، فكُلُّ مَن بَقِيَ مِن بعدِ نُوحٍ فهو مِن نَسلِه؛ ولهذا يُسمَّى الأبَ الثَّانيَ للبَشريَّةِ[(٣)]؛ فالآيةُ تُفيدُ الحَصرَ، وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن سِواه وسِوى ذُرِّيَّتِه قد فَنُوا[(٤)]، وهذا جارٍ على أنَّ الطُّوفانَ قد عَمَّ الأرضَ كُلَّها، واستأصَلَ جميعَ البَشَرِ إلَّا مَن حمَلَهم نوحٌ في السَّفينةِ. وعُمومُ الطُّوفانِ هو مُقتضى ظواهِرِ الكِتابِ والسُّنَّةِ[(٥)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا نَزَلَ مِن السَّفينةِ مات مَن كان معه، ثُمَّ مات نَسْلُهم، ولم يَبقَ غيرُ نَسْلِ نُوحٍ، وهذا يُبطِلُ قَولَ مَن قال: «إنَّ الخَضِرَ كان قَبْلَ نوحٍ»[(٦)]!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٧).

والآية هي قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١، ١٣٢).

(٦) يُنظر: ((المنار المُنيف)) لابن القيم (ص: ٧٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فيه تَنويهٌ بنُوحٍ عليه السَّلامُ بأنَّ جَزاءَه كان هو المثالَ والإمامَ لِجزاءِ المحسنينَ على مَراتبِ إحسانِهم، وتَفاوُتِ تَقارُبِها مِن إحسانِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، وقُوَّتِه في تَبليغِ الدَّعوةِ؛ فهو أوَّلُ مَن أُوذِيَ في اللهِ، فسَنَّ الجزاءَ لِمَن أُوذِيَ في اللهِ، وكان على قالَبِ جَزائِه، فلعلَّه أنْ يكونَ له كِفْلٌ مِن كلِّ جَزاءٍ يُجْزاهُ أحدٌ على صَبْرِه إذا أُوذِيَ في اللهِ، فثبَتَ لِنُوحٍ بهذا وَصْفُ الإحسانِ، وثبَتَ له أنَّه مَثَلٌ للمُحسنينَ في جَزائِهِم على إحسانِهم[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ جَعَل لنُوحٍ عليه السَّلامُ ثَناءً حَسَنًا مُستَمِرًّا إلى وقتِ الآخِرينَ؛ وذلك لأنَّه مُحسِنٌ في عبادةِ الخالِقِ، مُحسِنٌ إلى الخَلقِ، وهذه سُنَّتُه تعالى في المحسِنينَ: أن يَنشُرَ لهم مِنَ الثَّناءِ على حَسَبِ إحسانِهم[٢].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ سلَّم اللهُ عليه؛ لِيَقتديَ بذلك البَشَرُ، فلا يَذكُرَه أحَدٌ مِن العالَمينَ بسُوءٍ[٣]. وذلك على القولِ بأنَّ الجملةَ استئنافيَّةٌ.

١٠- يُجزئُ السَّلامُ بقَولِ: «سَلامٌ عليكم» بحذفِ اللَّامِ؛ قال الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، لكِنْ باللَّامِ أَولى -أي: السَّلامُ عليكم-؛ لأنَّها للتَّفخيمِ والتَّكثيرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ المُحسِنَ يُجازى بمِثلِ ما جُوزِيَ به نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك بإنجائِه مِن الهَلاكِ، وسَلامةِ عِرضِه مِن الذِّكرِ السَّيِّئِ، وكُلَّما كان الإنسانُ أكثَرَ إحسانًا كان أكثَرَ ثوابًا وأسلَمَ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الجزاءَ والعقوبةَ، والثَّناءَ والقَدْحَ: على الأوصافِ لا على الأشخاصِ؛ لأنَّه هنا عَلَّقَ الجزاءَ على الإحسانِ؛ ولهذا لم يأتِ شَيءٌ مِن أحكامِ اللهِ سُبحانه وتعالى مُقَيَّدًا بشَخصٍ لِشَخصِه أبدًا، حتَّى خصائِصُ الرُّسُلِ ليست مِن بابِ خَصائصِ الأشخاصِ، لكِنْ مِن بابِ خصائِصِ الأوصافِ؛ لأنَّ فيهم وَصفًا زائدًا على غَيرِهم، وهو وَصفُ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ؛ فخُصُّوا ببعضِ الأحكامِ المناسِبَةِ لِمقامِهم، أمَّا أنْ يُخَصَّ شَخصٌ بعَيْنِه لأنَّه فُلانُ بنُ فُلانٍ مثلًا، فهذا لا يُوجَدُ في الشَّريعةِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الأحكامَ ويُعَلِّقُها على الأوصافِ لا على الأشخاصِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارةُ إلى كَمالِ هذَين الوَصفَين -وهما العُبوديَّةُ والإيمانُ-، وأنَّهما أشرَفُ وَصفٍ يَتَّصِفُ به الإنسانُ: أنْ يكونَ عبدًا للهِ، مؤمنًا به؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: نُوحًا، ونوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أُولي العَزمِ مِن الرُّسُلِ، فإذا كان مِن مَناقِبِه وفَضائلِه أنْ يكونَ مِن عبادِ اللهِ المؤمِنينَ؛ دَلَّ ذلك على فَضيلةِ العُبوديَّةِ والإيمانِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ابتُدِئَ بقِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه؛ فإنَّه أوَّلُ رَسولٍ بعَثَه اللهُ إلى النَّاسِ، وهو الأُسوةُ الأُولى، والقُدْوةُ المُثْلى. وابتداءُ الإخبارِ بذِكرِ نداءِ نُوحٍ ربَّه مَوعظةٌ للمشرِكينَ؛ لِيَحْذَروا دُعاءَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ربَّه تعالى بالنَّصرِ عليهم كما دعا نُوحٌ على قَومِه[1].

- وتأْكيدُ الخبَرِ وتأْكيدُ ما فُرِّعَ عليه بلامِ القَسَمِ ﴿وَلَقَدۡ﴾؛ لِتَحقيقِ الأمْرَينِ؛ تَحذيرًا للمشرِكينَ بعْدَ تَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ نوحًا دعا فاستُجِيبَ له[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ تَفريعٌ على ﴿نَادَىٰنَا﴾، أي: نادانا فأجَبْناهُ، فحُذِف المُفرَّعُ؛ لدَلالةِ ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ عليه؛ لِتَضمُّنِه معنى فأجَبْناهُ جوابَ مَن يُقالُ فيه: نِعمَ المُجيبُ[3].

- وضَميرُ المُتكلِّمِ المشارِكِ في قولِه: ﴿نَادَىٰنَا﴾ ﴿ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ[4].

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: وباللهِ لقدْ دعانا نوحٌ حينَ يَئِسَ مِن إيمانِ قَومِه بعْدَما دَعاهُم إليه أحقابًا ودُهورًا، فلَمْ يَزِدْهم دُعاؤُه إلَّا فِرارًا ونُفورًا، فأجَبْناهُ أحسَنَ الإجابةِ، فواللهِ لَنِعْمَ المُجيبونَ نحنُ. فحُذِفَ ما حُذِفَ مِن المخصوصِ بالمدْحِ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما ذُكِرَ عليه[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

- وذُكِرَ في هذه السُّورةِ ستُّ قِصَصٍ مِن قِصَصِ الرُّسلِ مع أقوامِهم؛ لأنَّ في كلِّ قِصَّةٍ منها خاصِّيَّةً لها شَبَهٌ بحالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قَومِه، وبحالِه الأكمَلِ في دَعوتِه؛ ففي القِصصِ كلِّها عِبرةٌ وأُسوةٌ وتَحذيرٌ، ويَجمَعُها كلَّها مُقاوَمةُ الشِّركِ ومُقاوَمةُ أهْلِه(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ التَّنجيةُ: الإنجاءُ -وهو جَعلُ الغيرِ ناجيًا-، والنَّجاةُ: الخلاصُ مِن ضُرٍّ واقعٍ، وأُطلِقَت هنا على السَّلامةِ مِن ذلك قبْلَ الوُقوعِ فيه؛ لأنَّه لمَّا حصَلَت سَلامَتُه في حينِ إحاطةِ الضُّرِّ بقَومِه، نُزِّلَت سَلامَتُه منه مع قُرْبِه منه بمَنزلةِ الخَلاصِ منه بعْدَ الوُقوعِ فيه؛ تَنزيلًا لِمُقارَبةِ وُقوعِ الفِعلِ مَنزلةَ وُقوعِه(٢).

- والمرادُ بأهْلِه: عائلتُه إلَّا مَن حَقَّ عليه القولُ منهم، وكذلك المؤمنون مِن قَومِه؛ قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]؛ فالاقتِصارُ على أهْلِه هنا؛ لِقلَّةِ مَن آمَنَ به مِن غَيرِهم. أو أُريدَ بالأهْلِ أهْلُ دِينِه، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وأشعَرَ قولُه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أنَّ استجابةَ دُعاءِ نُوحٍ كانتْ بأنْ أُهلِكَ قَومُه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٠).

قال ابن تيميَّةَ: (النَّجاةُ مِنَ الشَّرِّ لا تَستلزِمُ حُصولَه، بل تَستلزِمُ انعِقادَ سَبَبِه؛ فمَن طلَبَه أعداؤه لِيُهلِكوه ولم يَتمكَّنوا منه، يقال: نجَّاه اللهُ منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، ومعلومٌ أنَّ نوحًا لم يَغرَقْ ثمَّ خَلَص، بل نُجِّيَ مِن الغَرَقِ الَّذي أهلَكَ اللهُ به غيرَه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

- ووُصِفَ الكَرْبُ بالعظيمِ؛ لإفادةِ أنَّه عظيمٌ في نَوعِه، فهو غَمٌّ على غَمٍّ، والمعنيُّ به الطُّوفانُ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾

- ضَميرُ الفَصلِ في قولِه: ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ للحصْرِ، أي: لمْ يَبْقَ أحدٌ مِن النَّاسِ إلَّا مَن نجَّاهُ اللهُ مع نُوحٍ في السَّفينةِ من ذُرِّيَّتِه، ثمَّ مَن تَناسَلَ منهم، فلمْ يَبْقَ مِن أبناءِ آدَمَ غيرُ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، فجميعُ الأُمَمِ من ذُرِّيَّةِ أولادِ نُوحٍ الثَّلاثةِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿عَلَيْهِ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ بتَضمينِ هذا الفِعلِ معنى (أنْعَمْنا)، فأفادَ بمادَّتِه معنى الإبقاءِ له، فكان مُقْتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُعدَّى هذا الفِعلُ باللَّامِ، فلمَّا ضُمِّنَ معنى (أنْعَمْنا) أفاد بمادَّتِه معنى الإبقاءِ له، أي: إعطاءَ شَيءٍ مِن الفضائلِ المدَّخرةِ الَّتي يُشْبِهُ إعطاؤُها تَرْكَ أحدٍ مَتاعًا نَفيسًا لِمَن يُخلِّيه هو له ويَخلُفُه فيه. وأفاد بتَعليقِ حَرْفِ (على) به أنَّ هذا التَّركَ مِن قَبيلِ الإنعامِ والتَّفضيلِ، وكذلك شأْنُ التَّضمينِ أنْ يُفيدَ المُضمَّنُ مُفادَ كَلمتينِ، فهو مِن ألْطَفِ الإيجازِ. ثمَّ إنَّ مَفعولَ (تَرَكْنا) لَمَّا كان مَحذوفًا، وكان فِعلُ (أنْعَمْنا) الَّذي ضُمِّنَه فِعلُ (تَرَكْنا) ممَّا يَحتاجُ إلى مُتعلَّقٍ معنى المفعولِ؛ كان مَحذوفًا أيضًا مع عامِلِه، فكان التَّقديرُ: وتَرَكْنا له ثَناءً وأنْعَمْنا عليه؛ فحصَلَ في قولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ حَذْفُ خَمْسِ كَلماتٍ، وهو إيجازٌ بَديعٌ[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- إذا كان معنى ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: تَرَكْنا في الآخرينَ مِن الأُمَمِ أنْ يُسلِّموا عليه تَسليمًا ويَدْعوا له -على أحدِ القولينِ في التَّفسيرِ-، فما معنى ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ فإنَّه كالتَّكرارِ؟

والجوابُ: أنَّ في إعادةِ ذِكرِ العالَمينَ الشُّمولَ والاستغراقَ؛ لئلَّا يَخرُجَ أحدٌ ممَّن يَدخُلُ في العالَمينَ مِن الملائكةِ والثَّقلينِ منه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والحاصلُ أنَّ ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كالتَّتميمِ للمعنى السَّابقِ والمبالَغةِ فيه، ولو اكْتَفى بقولِه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لَقَصَّرَ عن هذا المعنى، فكان معنى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: ثبَّتَ اللهُ التَّسليمَ على نُوحٍ وأدامَه في الملائكةِ والثَّقَلينِ يُسلِّمون عليه عن آخِرِهم[1].

- وتَنوينُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ للتَّعظيمِ[2].

- والمرادُ بالعالَمينَ: الأُمَمُ والقُرونُ، وهو كِنايةٌ عن دَوامِ السَّلامِ عليه[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وبعْدَه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ثم ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وكذلك ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾، ولم يَقُلْ في قِصَّةِ لُوطٍ ولا يُونُسَ ولا إلياسَ: ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وكذلك ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، فقد قال: سلامٌ على كلِّ واحدٍ منهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِقَولِه في آخِرِ السُّورة: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

- وزِيدَ في سَلامِ نُوحٍ وَصْفُه بأنَّه ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ السَّلامِ على غَيرِه، في قِصَّةِ إبراهيمَ، ومُوسى، وهارونَ، وإلياسَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ التَّنويهَ بنُوحٍ كان سائرًا في جَميعِ الأُمَمِ؛ لأنَّهم كلَّهم يَنتمُون إليه، ويَذكُرونه ذِكرَ صِدقٍ[2].

وقيل: لَمَّا كان لِسانُ جَميعِ أهلِ الأرضِ في زَمانه عليه السَّلامُ واحِدًا، فكانوا كُلُّهم قَومَه، ولم يكُنْ في زمانِه نَبيٌّ، فكانت نبُوَّتُه قُطبَ دائرةِ ذلك الوَقتِ، فكانت رِسالتُه عامَّةً لأهلِه، وكان غيرُ النَّاسِ مِن الخَلقِ لهم تَبَعًا: خَصَّه في السَّلامِ بأن قال: ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا: قولُه تعالى في خِتامِ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]، ثمَّ أعقَبَ قِصَّةَ إبراهيمَ وقِصَّةَ مُوسى وهارونَ وقِصَّةَ إلياسٍ بمِثلِ هذا، إلَّا أنَّه ورَدَ في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١٠]، فسَقَطَ منه لَفظُ (إنَّا)، وثبَتَ في القِصَصِ الأُخَرِ؛ ووَجْهُه: أنَّه تَقدَّمَ في قِصَّةِ إبراهيمَ بعَينِها قولُه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤ - ١٠٥]، ثمَّ لَمَّا كرَّرَ لِيَنبَنيَ عليه قولُه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١] كما في نَظائرِه من خِتامِ القصصِ الأُخَرِ، كرَّرَ هنا الجُملةَ بأسْرِها، وهي قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لِيَنْبَنيَ عليها ما ورَدَ عِلَّةً مُوجِبةً لِجَزائهم؛ لِتَجْرِيَ هذه القِصَّةُ مَجْرى نَظائرِها، ولم

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧).

يُكرَّرْ حَرْفُ التَّأكيدِ والضَّميرُ المنصوبُ به إيجازًا واختصارًا؛ لِذِكْرِه فيما تَقدَّمَ في القِصَّةِ نفْسِها[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَذْييلٌ لِمَا سبَقَ مِن كَرامةِ اللهِ نُوحًا. و(إنَّ) تُفِيدُ تَعليلًا لِمُجازاةِ اللهِ نُوحًا بما عدَّه مِن النِّعَمِ بأنَّ ذلك لأنَّه كان مُحسِنًا، أي: متُخلِّقًا بالإحسانِ[2].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن الكَراماتِ السَّنيَّةِ الَّتي وَقَعَتْ جَزاءً له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبته، وبُعدِ مَنزلته في الفضْلِ والشَّرفِ[3].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تَعليلٌ لاستحقاقِ نُوح عليه السَّلامُ المُجازاةَ الموصوفةَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فاختلَفَ مَعلولُ هذه العِلَّةِ، ومَعلولُ العِلَّةِ الَّتي قبْلَها[4].

- وأفادَ وَصْفُه بـ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أنَّه ممَّن استحقَّ هذا الوصفَ، وإضافةُ وصف (عبد) إلى ضَميرِ الجلالةِ مُشعِرٌ بالتَّقريبِ، ورَفْعِ الدَّرجةِ والتَّشريفِ[5].

- واقْتُصِرَ على وَصفِ العِبادِ بالمؤمنينَ؛ تَنويهًا بشَأْنِ الإيمانِ؛ لِيَزدادَ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٩٢-١٠٩٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٠، ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤، ١٣٥).

آمَنوا إيمانًا، ويُقلِعَ المشركونَ عن الشِّركِ. وأُقحِمَ معها ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾؛ لِتَشريفِه بتلك الإضافةِ. وفي ذلك تَنبيهٌ على عَظيمِ قَدْرِ الإيمانِ(١).

- وتَكرَّرَ وَصْفُ الرُّسلِ ومَدْحُهم بأنَّهم مِن المؤمنينَ، فمدَحَ تعالى نُوحًا وغيرَه -كإبراهيم، ومُوسى، وعِيسى عليهم السَّلامُ- بذلك، مع أنَّ مَرتبةَ الرُّسلِ فوقَ مَرتبةِ المؤمنينَ؛ تَنبيهًا لنا على جَلالةِ مَحلِّ الإيمانِ وشَرَفِه، وتَرْغيبًا في تَحصيلِه، والثَّباتِ عليه، والازديادِ منه، كما قال تعالى في مَدْحِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢) [البقرة: ١٣٠].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾

- حَرفُ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ والتَّراخي الرُّتبيَّينِ(٣)؛ لأنَّ بعضَ ما ذُكِرَ قبْلَها في الكلامِ هو ممَّا حصَلَ بعْدَ مَضمونِ جُملتِها في نفْسِ الأمْرِ كما هو بيِّنٌ، ومعنى التَّراخي الرُّتبيِّ هنا أنَّ إغراقَ الَّذين كذَّبوه مع نَجاتِه ونَجاةِ أهْلِه، أعظَمُ رُتبةً في الانتصارِ له والدَّلالةِ على وَجاهتِه عندَ اللهِ تعالى، وعلى عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى ولُطْفِه. ومعنى ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾: مَن عداهُ وعَدا أهْلَه، أي: بقيَّةُ قَومِه، وفي التَّعبيرِ عنهم بالآخَرينَ ضَرْبٌ مِن الاحتقارِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤، ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٣) وقال القرطبي: («ثمَّ» ليس للتَّراخي هاهنا، بل هو لتعديدِ النِّعَم، كقَولِه: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٦، ١٧]، أي: ثمَّ أُخبِرُكم أنِّي قد أغرَقْتُ الآخَرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

الآيات (٨٢-٩٨)

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٧ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ٩٣ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ٩٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِيعَتِهِۦ﴾: أي: أتْباعِه وأهلِ مِلَّتِه ودِينِه ومِنهاجِه، مأخوذٌ مِن الشِّياعِ: وهو الانتِشارُ والتَّقْويةُ، وأصلُ (شيع): يَدُلُّ على مُعاضَدةٍ[1].

﴿أَئِفْكًا﴾: أي: كَذِبًا، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه[2].

﴿سَقِيمٌ﴾: أي: وَجِعٌ مَريضٌ، وأصلُ (سقم): يدُلُّ على مَرَضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧).
وقيل: مأخوذٌ مِن الشِّياعِ، وهو الحطبُ الصِّغارُ الَّذي تُشعَلُ به النَّارُ، ويُعينُ الحطبَ الكبارَ على اتِّقادِ النَّارِ. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠).

﴿ فَرَاغَ ﴾: أي: مال في خُفيةٍ، وأصلُ (روغ): يدُلُّ على مَيلٍ[١].

﴿يَزِفُّونَ ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (زفف): يدُلُّ على خِفَّةٍ في كُلِّ شَيءٍ[٢].

﴿نَنْحِتُونَ﴾: أي: تَصنَعونَ، والنَّحتُ: النَّجْرُ والبَرْيُ، وأصل (نحت): يدُلُّ على نَجرِ شَيءٍ وتَسويتِه[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَبِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾

قوله: ﴿ أَبِفْكًا ﴾: في نصْبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنه مفعولٌ مِن أجْلِه، قُدِّمَ على المفعولِ به ﴿ءَالِهَةً ﴾؛ اهتمامًا، أي: أتُريدون آلِهةً دونَ اللَّهِ إفكًا؟! الثَّاني: أن يكونَ مفعولًا به بـ ﴿تُرِيدُونَ﴾، ويكونَ ﴿ءَالِهَةً ﴾ بدَلًا منه؛ جعَلَ الآلِهةَ نفْسَ الإفكِ مُبالَغةً، فأبدلَها منه. الثَّالثُ: أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿تُرِيدُونَ﴾، أي: أتُريدون آلِهةً آفِكينَ[٤]؟!

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وإنَّ من

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣١٩).

أتْباعِ نُوحٍ وعلى طريقتِه ومِنهاجِه لَإبراهيمَ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ- إذ جاء إبراهيمُ ربَّه بقَلبٍ مُخلِصٍ، سَليمٍ مِنَ الشِّركِ؛ إذ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه: ما هذا الَّذي تَعبُدونَه مِن دونِ اللهِ، أتُريدونَ صَرْفَ الحَقِّ عن وَجهِه الصَّحيحِ باتِّخاذِكم مَعبودًا مِن دونِ اللهِ؟! فما ظَنُّكم برَبِّكم رَبِّ العالَمينَ؟!

فنَظَر إبراهيمُ نَظرةً في النُّجومِ إيهامًا لهم أنَّه يَجري على عادتِهم بالنَّظَرِ في النُّجومِ، واعتقادِ تأثيرِها، ثمَّ قال لِقَومِه بعدَ أن نظَرَ في النُّجومِ: إنِّي مريضٌ! فانصرَفَ قَومُه عنه وتَرَكوه، فتوجَّهَ إلى أصنامِهم في سُرعةٍ وخُفيةٍ، فقال لها مُخاطِبًا: ألَا تأكُلونَ هذا الطَّعامَ الموضوعَ لكم، ما لَكم لا تَنطِقونَ؟!

فأقْبَلَ على الأصنامِ بسُرعةٍ يَضرِبُها بقُوَّةٍ بيدِه اليمنَى، فأقبَلَ قومُ إبراهيمَ إليه مُسرِعينَ، فقال لهم إبراهيمُ: أتَعْبُدونَ أشياءَ تَنحِتونَها بأيديكم، واللهُ خلَقَكم وخلَقَ الَّذي تَعمَلونَه مِن أصنامِكم، فكيف تَعبُدونَها وهي مخلوقةٌ؟! فقال قَومُ إبراهيمَ: ابنُوا له بُنيانًا عاليًا، وأوقِدوا نارًا شَديدةً، فارمُوه فيها؛ جزاءً على ما فَعَل بآلهتِكم. فأرادوا أن يَمكُروا به ويُحرِقوه بالنَّارِ، فأنقَذَه اللهُ تعالى منها، وجعَلَهم الأذَلِّينَ المغلوبينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣﴾.

أي: وإنَّ مِن أتْباعِ نُوحٍ وأهلِ دينِه، وعلى طريقتِه ومِنهاجِه: إبراهيمَ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦).
قال الرسعني: (عامَّةُ المفسِّرينَ ذهَبوا إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ يرجِعُ إلى نوحٍ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٧).

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤﴾.

أي: حينَ جاء إبراهيمُ ربَّه -الَّذي أحسَنَ تَربيتَه-[(١)] بقَلبٍ مُخلِصٍ لله، سَليم مِنَ الشِّركِ والشَّكِّ، والشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ، ومَساوي الأخلاقِ؛ كالغِلِّ، والحِقدِ، والحَسَدِ[(٢)].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٨٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أنَّ إبراهيمَ جاء رَبَّه بقَلبٍ سَليمٍ؛ ذكَرَ أنَّ مِن جُملةِ آثارِ

---

(١) قيل: يحتمِلُ مجيئُه إلى رَبِّه وجهَين؛ أحدُهما: عندَ دعائِه إلى توحيدِه وطاعتِه. الثَّاني: عندَ إلقائِه في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٢).

قال ابن جزي: (﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ عبارةٌ عن إخلاصِه وإقبالِه بكلِّيتِه على الله تعالى، وليس المرادُ المجيءُ بالجسدِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

قال الزَّمخشري: (فإنْ قُلتَ: بمَ تعلَّق الظَّرفُ؟ قُلتُ: بما في الشِّيعةِ مِن معنى المُشايَعةِ، يعني: وإنَّ مِمَّن شايَعَه على دينِه وتَقْواه حينَ جاء رَبَّه بقَلبٍ سليمٍ: لَإبراهيمَ. أو بمحذوفٍ، وهو: اذكُرْ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

وممَّن اختار نحوَ القولِ الأوَّلِ: الرَّازي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢).

وممَّن رجَّح القولَ الثَّانيَ -وهو أنَّ ﴿إِذْ﴾ مُتعلِّقةٌ بفِعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ-: الشوكانيُّ، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

تلك السَّلامةِ: أنْ دعا أباه وقَومَه إلى التَّوحيدِ[1]، فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه الَّذين يَعبُدونَ الأصنامَ: ما هذا الَّذي أنتم تُواظِبونَ على عبادته[2]؟!

كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠ - ٧٧].

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: أتُريدونَ صَرْفَ الحَقِّ عن وَجهِه الصَّحيحِ، باتِّخاذِكم مَعبودًا مِن دونِ اللهِ، الَّذي لا يَستَحِقُّ العبادةَ أحَدٌ سِواه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠).

قال الشَّوكاني: (قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدَلٌ مِن الجُملةِ الأُولى، أو ظرفٌ لـ﴿سَلِيمٍ﴾، أو ظرفٌ لـ﴿جَآءَ﴾، والمعنى: وقْتَ قال لأبيه آزَرَ وقَومِه مِن الكُفَّارِ: أيَّ شَيءٍ تَعبُدونَ؟). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٤، ١٩٥).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: فما الَّذي تَظُنُّونَ أنَّ اللهَ فاعِلٌ بكم إذا لَقِيتُموه وقد عَبدتُم غيرَه؟! وما الَّذي ظَننتُم به مِنَ السُّوءِ والنَّقصِ حتَّى أحوَجَكم ذلك إلى أنْ تجعَلوا له شُرَكاءَ مِن خَلْقِه[1]؟!

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا وَبَّخ قَومَه على عبادةِ غيرِ اللهِ، أراد أن يُرِيَهم أنَّ أصنامَهم لا تَنفَعُ ولا تَضُرُّ؛ فعَهِدَ إلى ما يَجعَلُه مُنفَرِدًا بها حتَّى يَكسِرَها، ويُبَيِّنَ لهم حالَها وعَجْزَها[2].

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: فنَظَر إبراهيمُ عليه السَّلامُ نَظرةً في النُّجوم؛ موهِمًا لقومِه -وكانوا أهلَ تَنجيمٍ- أنَّه يَعتمِدُ عليها، ومُظهِرًا لهم أنَّه يَستدِلُّ بها على شَيءٍ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٥)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨)، =

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ٨٩﴾.

أي: فقال إبراهيمُ لِقَومِه بعدَ أنْ نَظَر نَظرةً في النُّجومِ: إنِّي مريضٌ؛ لِيَترُكوه وَحْدَه، فيَتِمَّ له تنفيذُ ما أراد مِن الكَيدِ لأصنامِهم[1].

= ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١٥).

قال ابن الجوزي: (﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه نظَرَ في عِلمِ النُّجومِ... والثَّاني: أنَّه نظَرَ إلى النُّجوم، لا في عِلْمِها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وقال: (قولُه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى النُّجومِ. وهذا كما يقالُ: فُلانٌ يَنظُرُ في النُّجومِ، إذا كان يَعرِفُ حسابَها، وفُلانٌ يَنظُرُ في الفقهِ والحسابِ والنَّحوِ. وإنَّما أراد بالنَّظَرِ فيها: أن يُوهِمَهم أنَّه يَعلَمُ منها ما يَعلَمون، ويَتعرَّفُ في الأمورِ مِن حيث يَتعرَّفون، وذلك أبلَغُ في المِحالِ، وألْطَفُ في المَكِيدةِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٠١، ٢٠٢).

وقال الزمخشري: (﴿فِي النُّجُومِ﴾: في علمِ النُّجومِ، أو في كتابِها، أو في أحكامِها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي: أنَّه نظَر إلى النجومِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢، ١٤٣).

اختُلف في قولِه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ فقيل: أي: سأسْقَمُ. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيبةَ، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٣).

قال القرطبي: (فالمعنى: إنِّي سَقيمٌ فيما أستقبِلُ، فتَوَهَّموا هم أنَّه سقيمٌ السَّاعةَ، وهذا مِن مَعاريضِ الكلامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٣). =

= واسمُ الفاعلِ يُستعمَلُ بمعنَى المُستقبَلِ كثيرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] أي: ستَمُوتُ، ولقد صَدَق عليه السَّلامُ؛ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ لا بُدَّ أن يَسقَمَ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٩١).

وقيل: أراد أنَّه سَقيمُ القَلبِ لِكُفرِهم، فظهَرَ لهم مِن كلامِه أنَّه أراد سقمًا بالجسدِ حاضرًا، فهذا مِن المَعاريضِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨).

قال البِقاعي: (أوْهَمَ أنَّ مُرادَه أنَّه مريضُ الجسَدِ، وأراد أنَّه مريضُ القلبِ بسببِ آلهتِهم، مُقسَّمُ الفِكرِ في أمْرِهم؛ لأنَّه يريدُ أمرًا عظيمًا، وهو كَسْرُها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٤).

قال ابنُ جُزَي بعدَ ذكرِ هذَينِ القولَينِ -أي: أنَّه سقيمٌ فيما يُستقبَلُ، أو أنَّه سقيمُ النَّفْسِ-: (وهذانِ التَّأويلانِ أَوْلى؛ لأنَّ نَفْيَ الكذِبِ بالجملةِ مُعارِضٌ للحديثِ، والكذبَ الصُّراحَ لا يجوزُ على الأنبياءِ عندَ أهلِ التَّحقيقِ، أمَّا المَعاريضُ فهي جائزةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٤).

وقيل: أوهَمَهم أنَّه مطعونٌ، أي: به مرضُ الطَّاعونِ، فخافوا منه، وتَباعَدوا عنه. وممَّن اختار هذا القولَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الواحديُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧١). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٧٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: كانوا يَتعاطَون عِلمَ النُّجوم، فعامَلَهم مِن حيث كانوا؛ لئلَّا يُنكِروا عليه؛ وذلك أنَّه أراد أن يُكايدَهم في أصنامِهم ليُلزِمَهم الحُجَّةَ في أنَّها غيرُ معبودةٍ، وكان لهم مِن الغَدِ يومٌ يَخرُجون إليه، فأراد أن يَتخلَّفَ عنهم، فاعتلَّ بالسَّقَمِ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٢٨).

قال الألوسي: (﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ... أوهَمَهم أنَّه تفَكَّر في أحوالِها مِن الاتِّصالِ والتَّقابُلِ ونَحوِهما مِن الأوضاعِ الَّتي تدُلُّ بزَعمِهم على الحوادِثِ؛ لِيُرتِّبَ عليه ما يَتوصَّلُ به إلى غرَضِه الَّذي يكونُ وَسيلةً الى إنقاذِهم مِمَّا هم فيه، والظَّاهِرُ بعدَ اعتبارِ الإيهامِ أنَّه إيهامُ التَّفَكُّرِ في إحكامِ طالعِ ولادتِه عليه السَّلامُ، وما يدُلُّ عليه بزَعمِهم ما تجدَّد له مِن الأوضاعِ في ذلك الوَقتِ، وهذا مِن معاريضِ الأفعالِ نَظيرُ ما وقَعَ في قصَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ مِن تفتيشِ أوعيةِ إخوتِه بني عَلَّاتِه قبْلَ وِعاءِ شَقيقِه؛ فإنَّ المُفتِّشَ بدأ بأوعيتِهم مع عِلمِه أنَّ الصَّاعَ ليس فيها، وأخَّرَ تفتيشَ وِعاءِ أخيه مع عِلمِه بأنَّه فيها؛ تعريضًا بأنَّه لا يَعرِفُ في أيِّ وِعاءٍ هو، ونَفْيًا للتُّهمةِ عنه لو =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ النَّبيُّ عليه السَّلامُ قَطُّ إلَّا ثلاثَ كَذَباتٍ[1]: ثِنتَينِ في ذاتِ اللهِ؛ قَولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقَولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وواحِدةً في شأنِ سارةَ))[2].

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠﴾.

أي: فانصَرَف قَومُ إبراهيمَ عنه وخَلَّفوه وراءَ ظُهورِهم، بحيثُ لا يَرَونَه[3].

= بدأ بوعاءِ الأخِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨).

وقال ابنُ عاشور: (لم يكُنْ في لُغةِ قَومِ إبراهيمَ التَّشبيهُ البليغُ، ولا المَجازُ، ولا التَّهَكُّمُ؛ فكان ذلك عندَ قَومِه كَذِبًا، وأنَّ اللهَ أذِنَ له فِعْلَ ذلك، وأعلَمَه بتأويلِه، كما أذِنَ لأيُّوبَ أن يأخُذَ ضِغثًا من عِصِيٍّ، فيَضرِبَ به ضَربةً واحِدةً لِيُبِرَّ قَسَمَه؛ إذ لم تكُنِ الكَفَّارةُ مَشروعةً في دينِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(١) قال ابنُ كثير: (ليس هذا مِن بابِ الكَذِبِ الحقيقيِّ الَّذي يُذَمُّ فاعِلُه، حاشا وكَلَّا، وإنَّما أُطلِقَ الكَذِبُ على هذا تَجَوُّزًا، وإنَّما هو مِن المَعاريضِ في الكَلامِ؛ لِمَقصَدٍ شَرعيٍّ دينيٍّ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤، ٢٥).

وقال ابن تيميَّةَ: (الكَذِبُ على الشَّخصِ حرامٌ كُلُّه، سواءٌ كان الرَّجُلُ مُسلِمًا أو كافرًا، بَرًّا أو فاجرًا .. ولكنْ تُباحُ عندَ الحاجةِ الشَّرعيَّةِ المَعاريضُ، وقد تُسمَّى كَذِبًا؛ لأنَّ الكلامَ يَعني به المتكَلِّمُ مَعنًى، وذلك المعنى يريدُ أن يَفهمَه المُخاطَبُ، فإذا لم يَكُنْ على ما يَعنيه فهو الكَذِبُ المحضُ، وإن كان على ما يَعنيه ولكنْ ليس على ما يَفهَمُه المُخاطَبُ فهذه المعاريضُ، وهي كَذِبٌ باعتبارِ الإفهامِ، وإن لم تكنْ كَذِبًا باعتبارِ الغايةِ السَّائغةِ، ومنه قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَباتٍ...))، وهذه الثَّلاثةُ مَعاريضُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٢٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

وذهب ابنُ جرير إلى أنَّهم تَوَلَّوا عن إبراهيمَ مُدبِرين عنه؛ خَوفًا مِن أن يُعدِيَهم السَّقَمُ الَّذي ذَكَرَ أنَّه به. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٩). =

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ ﴾.

أي: فحاد إبراهيمُ عن الخُروجِ مع قَومِه مُتوجِّهًا إلى أصنامِهم في سُرعةٍ وخُفيةٍ، بنَشاطٍ وهِمَّةٍ وخِفَّةٍ[١].

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قَولَ إبراهيمَ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾.

أي: فقال مُخاطِبًا الأصنامَ[٢]: ألَا تأكُلونَ هذا الطَّعامَ الموضوعَ بينَ أيديكم[٣]؟!

﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

= وقيل: صِيغةُ التَّفَعُّلِ في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوۡاْ ﴾ تدُلُّ على استِبعادِهم مَرَضَه، إلَّا أنَّهم ترَكوه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(٢) قال الكِرماني: (الجمهورُ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قال هذا استِهزاءً بالأصنامِ). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣، ١٤٤).
قال القرطبي: (قيل: كان بيْنَ يَدَيِ الأصنامِ طَعامٌ تَرَكوه؛ لِيأكُلوه إذا رَجَعوا مِنَ العيدِ، وإنَّما تَرَكوه لِتُصيبَه بَرَكةُ أصنامِهم، بزَعمِهم. وقيل: تَرَكوه للسَّدَنةِ. وقيل: قَرَّب هو إليها طعامًا؛ على جهةِ الاستِهزاءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤).
وقيل: كانت السَّدَنةُ تَزعُمُ أنَّ الأصنامَ تأكُلُ الطَّعامَ الَّذي يَضَعونَه بيْنَ يَدَيْها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

أي: ما الَّذي يَمنَعُكم مِن أن تَنطِقوا(١)؟!

﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ٩٣﴾.

أي: فأقْبَلَ إبراهيمُ على الأصنامِ بسُرعةٍ ونَشاطٍ وهِمَّةٍ، يَضرِبُها بيَدِه اليُمنى بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ٩٤﴾.

أي: فأقْبَلَ قَومُ إبراهيمَ إليه وهم يُسرِعونَ في رَكضِهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ * قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ * قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٦٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

قال السمعاني: (قولُه: ﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحَدُها أنَّ معناه: يَضْرِبُهم بيمينِه، ومعنى يَضْرِبُهم أي: يَكسِرُهم. ويقالُ: باليمين أي: بالقوَّة. والقولُ الثَّالثُ: باليمينِ أي: باليمين الَّتي سبَقَتْ منه، وهو قولُه تعالَى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥﴾.

أي: قال إبراهيمُ لهم: أتَعبُدونَ أشياءَ أنتم تَنحِتونَها بأيديكم[1]؟!

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾.

أي: والحالُ أنَّ اللهَ خلَقَكم وخَلَق الَّذي تَعمَلونَه مِن أصنامِكم، فكيف تَعبُدونَها وهي مخلوقةٌ لا خالِقةٌ[2]؟!

عن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٦، ٨٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٢١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

ذهب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ «ما» في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ مَوصولةٌ؛ بمعنى الَّذي. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ تيميَّة، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧٧).

قال ابنُ جُزَي: (وهذا أَلْيَقُ بسياقِ الكلامِ، وأقوَى في قصدِ الاحتجاجِ على الَّذين عبَدوا الأصنامَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

ورجَّح القرطبي أن تكونَ (مَا) مَصدريَّةً، أي: واللهُ خلَقَكم وعمَلَكم، واستظهَرَه ابنُ كثير، وردَّه الزمخشريُّ، وضَعَّفه ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٦- ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٢).

قال ابنُ كثير: (وكِلا القولَينِ مُتلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦).

خلَقَ كُلَّ صانِعٍ وصَنْعتَه))[١].

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا أورَدَ على قَومِه الحُجَّةَ القَويَّةَ، ولم يَقدِروا على الجَوابِ؛ عَدَلوا إلى طريقِ الإيذاءِ[٢].

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: ابنُوا له بُنيانًا[٣] وأوقِدوا نارًا حتَّى تَشتَدَّ، فارمُوا إبراهيمَ فيها؛ جزاءً له على ما فَعَل بآلِهتِهم[٤].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

---

(١) أخرجه البزَّار (٢٨٣٧)، والحاكم (٨٦)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١٨٧) واللَّفظُ له. صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ مُسلمٍ، وصحَّحه أيضًا ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١١٤)، وابنُ حجرٍ في ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٩٨)، والألبانيُّ في تخريج كتاب ((السنة)) (٣٥٧)، ويُنظر: ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٦٣٧). وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٠٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٣) قيل: ﴿بُنْيَٰنًا﴾ عاليًا مُرتَفِعًا، وأوْقَدوا فيه النارَ، والمفسِّرونَ يَذْكرونَ مِن شدَّتِها وارتفاعِ لهبِها، وكثرةِ حطبِها شيئًا هائلًا. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٣). وقيل: بنَوا له بُنيانًا يُشبِهُ التَّنُّورَ، ثمَّ نقلوا إليه الحطبَ، وأوْقَدوا عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥).

وقيل: بل كان البُنيانُ للمَنْجَنيقِ، الَّذي رُمِيَ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: ((«حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]))[١].

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾.

أي: فأراد قَومُ إبراهيمَ أن يَمكُروا به، بتدبيرِ ما فيه هلاكُه، وبُطلانُ أمْرِه، وعلُوُّ أمْرِهم، وذلك بإحراقِه بالنَّارِ؛ فأنقذَه اللهُ تعالى منها، وأبطَلَ كَيْدَ قومِه، وجعَلَهم هم الأذَلِّينَ المغلوبينَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

٩- عِمادُ مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ هو المتفَرِّعُ عن قَولِ الله تعالى: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وذلك جِماعُ مَكارمِ الأخلاقِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنَّ قُربَ النَّسَبِ من أهلِ الخيرِ لا يُفيدُ الإنسانَ شيئًا؛ فإبراهيمُ بالنِّسبةِ لأبيه أقرَبُ

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

شَيءٍ؛ لأنَّه بَضْعةٌ منه، ومع ذلك لم يَنتفِعْ به أبوه، بل كان مُشرِكًا يُحَاجُّ ولدَه على ذلك(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أنَّ مَن يَتعالى على الحقِّ فإنَّ اللهَ تعالى يُجازيه بنَقيضِ قَصدِه؛ لأنَّ هؤلاء أرادوا العُلُوَّ والفَسادَ في الأرضِ، فعامَلَهم اللهُ تعالى بنَقيضِ قَصدِهم؛ فجعَلَهم الأسفَلينَ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أنَّ أصلَ دِينِ الأنبياءِ واحِدٌ؛ فكلُّهم شِيعةٌ للآخَرِ، مُقَوٍّ لِدَعوتِه(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ جُعِل إبراهيمُ مِن شيعةِ نُوحٍ؛ لأنَّ نُوحًا قد جاءت رُسُلٌ على دينِه قبْلَ إبراهيمَ؛ منهم: هودٌ وصالحٌ؛ فقد كانا قبْلَ إبراهيمَ؛ لأنَّ القُرآنَ ذكَرَهما غيرَ مَرَّةٍ عَقِبَ ذِكرِ نُوحٍ، وقَبْلَ ذِكرِ لُوطٍ مُعاصِرِ إبراهيمَ؛ ولِقَولِ هودٍ لِقَومِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ولِقَولِ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقَولِ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]؛ فجعَلَ قَومَ لوطٍ أقرَبَ زَمنًا لِقَومِه دونَ قَومِ هُودٍ وقَومِ صالحٍ، وكان لوطٌ مُعاصِرَ إبراهيمَ؛ فهؤلاء كُلُّهم شيعةٌ لِنُوحٍ، وإبراهيمُ مِن تلك الشِّيعةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ فيه عنايةُ اللهِ سبُحانه وتعالى بإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذلك بإضافةِ الرُّبوبيَّةِ إليه، وهذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، والرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ تقتضي عنايةً أكثرَ مِن الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ؛ لأنَّ المَربوبينَ بالرُّبوبيَّةِ العامَّةِ شَمِلَتْهم الرَّحمةُ العامَّةُ، لكنْ في الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ يكونُ لهم الرَّحمةُ الخاصَّةُ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ صِحَّةُ نسبةِ القَومِ إلى الرَّسولِ وإنْ كَذَّبوه، والانتسابُ بالنَّسَبِ لا يعني التَّبرُّؤَ مِن الدِّينِ، فيَصِحُّ أنْ يَنتَسِبَ الإنسانُ إلى أبيه الكافِرِ، ولا يقالُ: إنَّ هذا مِن بابِ المُوالاةِ، بل هذا مِن بابِ الحقيقةِ، والنَّسَبُ لا يَزولُ باختِلافِ الدِّينِ أبدًا، وانظُرْ إلى قَولِه تعالى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، فأضافَهم إليه مع نِسبةِ تَكذيبِه إليهم، وهذا يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ قد يكونُ مِن قومٍ كافرينَ ويُنسَبُ إليهم، وأنَّ ذلك لا يَخدِشُ في دِينِه[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ بيانُ قُبحِ ما كان عليه المُشركون قبْلَ النَّهيِ، وقبْلَ إنكارِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عليهم؛ ولهذا استَفهَمَ استِفهامَ مُنكِرٍ، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وخَلَقَ ما تَنحِتونَ، فكيف يجوزُ أنْ تَعبُدوا ما تَصنَعونَه بأيديكم، وتَدَعونَ ربَّ العالَمينَ؟! فلولا أنَّ حُسنَ التَّوحيدِ وعبادةِ اللهِ تعالى وَحْدَه لا شريكَ له، وقُبْحَ الشِّركِ: ثابتٌ في نَفْسِ الأمرِ، مَعلومٌ بالعَقلِ؛ لم يُخاطِبْهم بهذا؛ إذْ كانوا لم يَفعَلوا شيئًا يُذَمُّونَ عليه، بل كان فِعلُهم كأكْلِهم وشُرْبِهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨١، ٦٨٢). =

٦- أنَّ الشِّركَ والتَّعطيلَ مَبنيَّانِ على سُوءِ الظنِّ باللهِ تعالى؛ ولهذا قال إبراهيمُ -إمامُ الحُنفاءِ- لخُصَمائِه مِن المُشرِكين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وإنْ كان المعنى: ما ظنُّكم به أنْ يُعامِلَكم ويُجازيَكم به، وقد عبَدْتُم معه غيرَه، وجعلتُم له نِدًّا؟! فأنت تَجِدُ تحتَ هذا التَّهديدِ: ما ظننتُم برَبِّكم مِن السُّوءِ حتَّى عبدْتُم معه غيْرَه[1]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أنَّ الكَذِبَ مَقرونٌ بالشِّركِ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على الخَصمِ بما لا يُنكِرُه؛ لأنَّ العالَمَ يَشملُ حتَّى آلهتَهم الَّتي يَعبُدونَها، فإذا كانت آلهتُهم مَربوبةً فكيف يُمكِنُ أنْ تكونَ مَعبودةً؟! هذا تَناقُضٌ؛ فإنَّ مَن أقرَّ بانفرادِ اللهِ بالرُّبوبيَّةِ لَزِمَه أن يُقِرَّ بانفرادِه بالألوهيَّةِ وإلَّا صار مُتناقِضًا؛ إذْ لا يَستَحِقُّ العبادةَ إلَّا الرَّبُّ الخالِقُ المالِكُ المُدَبِّرُ، ومَن لم يكُنْ كذلك فإنَّه لا يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ جوازُ التَّوريةِ، وهي: أنْ يُظْهِرَ للمُخاطَبِ ما لا يُريدُه، ويَفهَمَ منه المُخاطَبُ معنًى غيرَ المرادِ[4].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾، لم يَقُلْ: (إلى النُّجومِ)، مع

= فالشِّركُ والظلمُ والكذبُ والفواحشُ ونحوُ ذلك قبحُها معلومٌ قبلَ مجيءِ الرَّسولِ، لكنَّ العقوبةَ إنَّما تُستحَقُّ بمجيءِ الرَّسولِ، وعلى هذا عامةُ السَّلفِ وأكثرُ المسلمينَ، وعليه يدلُّ الكتابُ والسُّنةُ؛ فإنَّ فيهما بيانَ أنَّ ما عليه الكفارُ هو شرٌّ وقبيحٌ وسيئٌ قبلَ الرُّسلِ، وإن كانوا لا يستحقُّون العقوبةَ إلَّا بعدَ مجيءِ الرَّسولِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٧).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٠).

أنَّ النَّظَرَ إنَّما يتعدَّى بـ (إلى)، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ وفي ذلك وَجهانِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لأنَّ (في) بمعنى (إلى)، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٩].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ النَّظَرَ هنا بمعنى الفِكرِ، وهو يَتعدَّى بـ (في) كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ فصار المعنى: ففكَّرَ في عِلمِ النُّجومِ[١].

١١- ليس في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ ما يدُلُّ على أنَّ للنجومِ دَلالةً على حدوثِ شَيءٍ مِن حوادثِ الأُمَمِ ولا الأشخاصِ، ومَن يَزعُمْ ذلك فقد ضلَّ[٢]؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما قال هذا لِيَدفَعَ به قَومَه عن نفْسِه، ألَا ترى أنَّه عزَّ وجَلَّ قال بعدُ: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ فبَيَّنَ تبارك وتعالى أنَّه إنَّما قال ذلك لِيَدْفَعَهم به لِمَا كان عَزَمَ عليه مِن أمْرِ الأصنامِ، وليس يَحتاجُ أحَدٌ إلى مَعرفةِ: أَصحيحٌ هو أمْ سقيمٌ مِن النُّجومِ؛ لأنَّ ذلك يُوجَدُ حِسًّا، ويُعلَمُ ضَرورةً، ولا يُحتاجُ فيه إلى استِدلالٍ وبَحثٍ[٣]!

١٢- قَولُه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ فيه جوازُ إسنادِ الوَصفِ إلى الإنسانِ باعتبارِ المستقبَلِ؛ فإنَّه الآنَ ليس بسقيمٍ، لكنْ كلُّ إنسانٍ عُرضةٌ لِأنْ يَسقَمَ[٤]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٨٥، ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١١).

١٣- قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فيه استِعمالُ المعاريضِ؛ للمَصلَحةِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أنَّ الكلامَ صِفةُ كَمالٍ، كما أنَّ العِلمَ والقُدرةَ والسَّمعَ والبَصَرَ صِفةُ كَمالٍ، وأنَّ المتكَلِّمَ أكمَلُ ممَّن لا يتكلَّمُ، كما أنَّ الحيَّ أكمَلُ مِن الجَمادِ؛ ولهذا عاب اللهُ الجَماداتِ المعبودةَ بأنَّها لا تتكلَّمُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩]، وكذلك قَولُ الخَليلِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، سواءٌ كان المرادُ بيانَ أنَّ العابدَ أكمَلُ مِن مَعبودِه، وهذا مُمتَنِعٌ، أو بيانَ أنَّ المعبودَ يجِبُ أنْ يكونَ مُتَّصِفًا بصِفاتِ الكَمالِ[٢].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يُنبِئُ عن رِباطةِ جَأْشِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ إذ لم يَتلَقَّ القَومَ بالاعتِذارِ ولا بالاختِفاءِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الإنكارُ على أهلِ الباطلِ بباطِلِهم عن طريقِ العَقلِ، والاحتِجاجُ على أهلِ الباطلِ بباطِلِهم عن طريقِ العَقلِ، أي: كيف تَنحِتونَه أنتم وتَصنَعونَه أنتم، ثمَّ بعدَ ذلك تَعبُدونَه؟! أليس الأَولى مِن النَّاحيةِ العَقليَّةِ أنْ يكونَ هذا المنحوتُ هو الَّذي يَعبُدُكم؟ لأنَّكم أنتم الَّذين نَحَتُّموه وأوجَدْتُموه، ولكِنَّ عُقولَهم مُنتَكِسةٌ، فصار الأمرُ بالعَكسِ؛ يَعبُدونَ ما يَنحِتونَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

قال النووي: (قال العلماءُ: فإنْ دعَتْ إلى ذلك مصلحةٌ شرعيةٌ راجحةٌ على خداعِ المخاطَبِ أو حاجةٌ لا مندوحةَ عنها إلَّا بالكذبِ، فلا بأسَ بالتَّعريضِ، وإن لم يكنْ شيءٌ من ذلك فهو مكروهٌ وليس بحرامٍ، إلَّا أنْ يُتوصَّلَ به إلى أخذِ باطلٍ أو دفعِ حقٍّ، فيصيرَ حينئذٍ حرامًا، هذا ضابطُ البابِ). ((الأذكار)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ قومَ إبراهيمَ كانوا مُقِرِّينَ بالصَّانعِ(١).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إقامةُ الدَّليلِ على أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الَّذي يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ؛ لِقَولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، فالخالقُ هو الَّذي يجبُ أنْ يُعبَدَ(٢). فهو استدلالٌ بتوحيدِ الربوبيةِ على توحيدِ الإلهيةِ، وهذه طريقةُ القرآنِ، كما في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ أعمالَ العِبادِ مخلوقةٌ لله، سواءٌ جَعَلْنا «ما» مَصدريَّةً أمْ مَوصولةً؛ إنْ جعَلْناها مَصدريَّةً فالأمرُ واضِحٌ: «خَلَقَكم وخَلَقَ عَمَلَكم»، وإن جعَلْناها موصولةً؛ فلأنَّه إذا كان خالِقًا لِما يَعمَلونَه من المنحوتاتِ لَزِمَ أن يكونَ هو الخالِقَ للتَّأليفِ الَّذي أحدَثوه فيها؛ فإنَّها إنَّما صارت أوثانًا بذلك التَّأليفِ، وإلَّا فهي بدونِ ذلك ليست مَعمولةً لهم، وإذا كان خالِقًا للتَّأليفِ كان خالِقًا لأفعالِهم؛ فخَلْقُ المعمولِ فَرعٌ عن خَلقِ العَمَلِ.

وأيضًا فنَفْسُ حَرَكاتِهم تدخُلُ في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾؛ فإنَّ أعراضَهم داخِلةٌ في مُسمَّى أسمائِهم؛ فالله تعالى خلَقَ الإنسانَ بجَميعِ أعراضِه، وحرَكاتُه مِن أعراضِه، فقد تبيَّنَ أنَّه خَلَق أعمالَهم بقَولِه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، وما تولَّدَ عنها مِن النَّحتِ والتَّصويرِ بقَولِه: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ فثَبَت أنَّها دالَّةٌ على أنَّه خالِقُ هذا وهذا، وهو المطلوبُ؛ فهذه الآيةُ فيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين أنكَروا أنْ يكونَ لله سُبحانَه وتعالى شأنٌ في أعمالِ بني آدَمَ، وقالوا: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٥).

وليس لله فيه إرادةٌ ولا خَلْقٌ[(١)]!

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ رَدٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يَقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه! وجْهُ الرَّدِّ: أنَّه أضاف العَمَلَ إليهم، فقال: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وإضافةُ العَمَلِ إلى الإنسانِ تقتضي أنَّه هو العامِلُ، وهو الفاعِلُ حقيقةً، وهو كذلك[(٢)].

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أرادوا بإبراهيمَ عليه السَّلامُ كيدًا، فأبطَلَ اللهُ مَكْرَهم، وجعَلَهم الأخسَرينَ الأسفَلينَ، وكذا عادةُ مَن غُلِبَ بالحُجَّةِ، رجَعَ إلى الكَيدِ[(٣)]!

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ بيانُ ما يُكِنُّه أعداءُ الإسلامِ للمُسلِمينَ وللإسلامِ مِن إرادةِ الكَيدِ بالإسلامِ وأهلِه، وهذا كما أنَّه في الأُمَمِ السَّابقةِ فيكونُ في الأُمَمِ اللَّاحِقةِ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[(٤)] [الفرقان: ٣١].

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ فهم يَنفُونَ أنْ يكونَ للإنسانِ إرادةٌ في فِعلِه؛ لأنَّهم يَرَونَ أنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على الفِعلِ، وأنَّ فِعلَه الواقِعَ بإرادتِه كفِعلِه الواقِعِ بغيرِ إرادتِه، والكلُّ عندَهم سَواءٌ[(٥)]!

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٢١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٦). ويُنظر أيضًا: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ أنَّ الحُكمَ للهِ عزَّ وجَلَّ، وأنَّ بني آدمَ مهما بَلَغوا مِن الطُّغيانِ فإنَّهم تحتَ حُكمِ اللهِ تعالى وسُلْطانِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾

- تَخلُّصٌ إلى حِكايةِ مَوقِفِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مِن قَومِه في دَعْوتِهم إلى التَّوحيدِ، وما لاقاهُ منهم، وكيف أيَّدَه اللهُ ونجَّاهُ منهم، وَقَعَ هذا التَّخلُّصُ إليه بوَصفِه مِن شيعةِ نُوحٍ؛ لِيُفيدَ بهذا الأُسلوبِ الواحِدِ تَأكيدَ الثَّناءِ على نُوحٍ، وابتِداءَ الثَّناءِ على إبراهيمَ، وتَخْليدَ مَنقَبةٍ لِنُوحٍ أنْ كان إبراهيمُ الرَّسولُ العَظيمُ مِن شيعَتِه، وناهيكَ به! وكذلك جمَعَ مَحامِدَ لإبراهيمَ في كَلِمةِ كَونِه مِن شِيعةِ نُوحٍ المُقتضي مُشارَكتَه له في صِفاتِه[٢].

- والواوُ في قوله: ﴿وَإِنَّ﴾ عاطِفةٌ؛ عَطَفَتِ القِصَّةَ الثَّانيةَ على القِصَّةِ الأُولى. ولك أنْ تَجعَلَها استِئْنافيَّةً؛ فتكونَ الجُملةُ مُستَأنَفةً مَسوقةً للشُّروعِ في قِصَّةِ إبراهيمَ بعدَ قِصَّةِ نُوحٍ[٣].

- وفيه تَوكيدُ الخَبَرِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ للرَّدِّ على المُشرِكينَ؛ لأنَّهم يَزعُمونَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ[٤].

- ويَحصُلُ مِن قَولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ إثْباتُ مِثلِ صِفاتِ نُوحٍ لإبراهيمَ على طَريقِ الكِنايةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٨).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

- (إذ) ظرْفٌ للماضي، وهو مُتعلِّقٌ بالكَونِ المُقَدَّرِ للجارِّ والمجرورِ الواقعَينِ خبَرًا عن (إنَّ) في قولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾، أو مُتعلِّقٌ بلَفظِ (شِيعة)؛ لِمَا فيه مِن مَعنى المُشايَعةِ والمُتابَعةِ، أي: كان مِن شِيعَتِه حينَ جاء ربَّه بقلْبٍ سَليمٍ كما جاء نُوحٌ، فذلك وَقتُ كَونِه مِن شِيعَتِه، أي: لأنَّ نُوحًا جاء ربَّه بقَلْبٍ سَليمٍ. وفي ﴿إِذْ﴾ مَعْنى التَّعْليلِ لِكَونِه مِن شِيعَتِه؛ فإنَّ مَعنى التَّعليلِ كثيرُ العُروضِ لـ (إذ)[(١)].

- والباءُ في ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: جاء معه قلْبٌ صِفَتُه السَّلامةُ، فيَؤُولُ إلى مَعنى: إذ جاء ربَّه بسَلامةِ قلْبٍ. وإنَّما ذُكِرَ القلْبُ ابتِداءً، ثُمَّ وُصِفَ بـ (سَليم)؛ لِمَا في ذِكرِ القَلبِ مِن إحْضارِ حقيقةِ ذلك القَلبِ النَّزيهِ؛ ولذلك أُوثِرَ تَنكيرُ (قَلْبٍ) دُونَ تَعْريفٍ[(٢)].

- وأُطلِقَ المجيءُ على مُعامَلتِه به في نفْسِه بما يُرْضي ربَّه على وَجهِ التَّمثيلِ بحالِ مَن يَجيءُ أحدًا مُلْقيًا إليه ما طلَبَه؛ فإنَّ اللهَ أمَرَه بتَزكيةِ نفْسِه فامتثَلَ؛ فأشْبَهَ حالَ مَن دَعاه فجاءَه[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ استِفْهامٌ إنْكاريٌّ على أنْ يَعبُدوا ما يَعبُدونَه؛ ولذلك أتْبَعَه باستِفْهامٍ آخَرَ إنْكاريٍّ، وهو ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

تُرِيدُونَ﴾؟! وهذا الَّذي اقْتَضى الإتيانَ باسْمِ الإشارةِ بعدَ (ما) الاستِفْهاميَّةِ الَّذي هو مُشرَبٌ مَعْنى المَوْصولِ المُشارِ إليه، فاقْتَضى أنَّ ما يَعبُدونَه مُشاهَدٌ لإبراهيمَ، فانْصَرَفَ الاستِفْهامُ بذلك إلى مَعْنى الإنْكارِ، بخِلافِ قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في سُورةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ٧٠]؛ فإنَّه استِفهامٌ على مَعبوداتِهم؛ ولذلك أجابوا عنه: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، وإنَّما أرادَ بالاستِفْهامِ هُنالك التَّمْهيدَ إلى المُحاجَّةِ، فصَوَّرَه في صُورةِ الاستِفْهامِ؛ لِسَماعِ جَوابِهم، فيَنتقِلُ إلى إبْطالِه، كما هو ظاهرٌ مِن تَرتيبِ حِجاجِه هنالك؛ فذلك حِكايةٌ لِقَولِ إبراهيمَ في ابتِداءِ دَعوتِه قَومَه، وأمَّا ما هنا فحِكايةٌ لِبَعضِ أقوالِه في إعادةِ الدَّعوةِ وتأْكيدِها[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، بيَّنَ به مَصَبَّ الإنْكارِ في قَولِه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وإيضاحَه، أي: كيف تُريدونَ آلِهةً إفْكًا[2]؟!

- والهَمْزةُ في قَولِه: ﴿أَئِفْكًا﴾ للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ التَّوْبيخيِّ[3].

- وقُدِّمَ المَفْعولُ ﴿ءَالِهَةً﴾ على الفِعلِ ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ للاهتِمامِ والعِنايةِ به[4].

- وانتَصَبَ (إِفْكًا) على الحالِ مِن ضَميرِ ﴿تُرِيدُونَ﴾ -على قولٍ-، أي: آفِكينَ، والإفْكُ: الكَذِبُ. ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا مِن ﴿ءَالِهَةً﴾، أي: آلِهةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

مَكْذوبةً، أي: مَكذوبٌ تَأْليهُها، بمَعْنى: أتُريدونَ آلِهةً مِن دُونِ اللهِ آفِكينَ؟! وقُدِّمَتِ الحالُ (إفْكًا) على صاحِبِها؛ للاهتِمامِ بالتَّعْجيلِ بالتَّعْبيرِ عن كَذِبِهم وضَلالِهِم، ولأنَّه كان الأهَمَّ عِندَه أنْ يُكافِحَهم بأنَّهم على إفْكٍ وباطِلٍ في شِركِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ (إفْكًا) مَفْعولًا، يَعْني: أتُريدونَ به إفْكًا؟! ثم فُسِّرَ الإفْكُ بقَولِه: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ﴾، على أنَّها إفْكٌ في أنفُسِها؛ للمُبالَغةِ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فما ظَنُّكُم بمَن هو الحَقيقُ بالعِبادةِ؛ لأنَّ مَن كان ربًّا للعالَمينَ استَحَقَّ عليهم أنْ يَعبُدوه، وهو استِفْهامٌ أُريدَ به الإنْكارُ، والتَّوْبيخُ، والتَّحْذيرُ، والتَّوعُّدُ، والتَّوْقيفُ على الخَطَأ[2].

- ولَمَّا كان الظَّنُّ مِن أفْعالِ القَلبِ، فتَعْدِيتُه إلى اسْمِ الذَّاتِ دُونَ إتْباعِ الاسْمِ بوَصفٍ مُتعيِّنةٌ لِتَقْديرِ وَصفٍ مُناسِبٍ، وقد حُذِفَ المُتعلِّقُ هُنا؛ لِقَصدِ التَّوسُّعِ في تَقْديرِ المَحْذوفِ بكُلِّ احتِمالٍ مُناسِبٍ تكثيرًا للمَعاني؛ فيَجوزُ أنْ تُعتبَرَ مِن ذاتِ ربِّ العالَمينَ أوْصافُه، ويجوزُ أنْ يُعتبَرَ منها الكُنْهُ والحَقيقةُ، فاعتِبارُ الوَصفِ على وَجهَينِ؛ أحَدُهما: المَعْنى المُشْتقُّ منه الرَّبُّ، وهو الرُّبوبيَّةُ، وهي تَبْليغُ الشَّيءِ إلى كَمالِه تَدْريجًا ورِفْقًا؛ فإنَّ المَخْلوقَ مُحتاجٌ إلى البَقاءِ والإمْدادِ، وذلك يُوجِبُ أنْ يَشكُرَ المُمَدُّ فلا يَصُدُّ عن عِبادةِ ربِّه، فيكونُ التَّقْديرُ: فما ظَنُّكم أنَّ له شُرَكاءَ، وهو المُنفرِدُ باستِحْقاقِ الشُّكرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩، ١٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

المُتَمَثِّلِ في العِبادةِ؛ لأنَّه الَّذي أمَدَّكم بإنْعامِه؟! وثانيهما: أنْ يُعتَبَرَ فيه مَعْنى المالِكيَّةِ، وهي أحَدُ مَعنَيَي الرَّبِّ، وهو مُستلزِمٌ لِمَعنى القَهرِ والقُدْرةِ على المَمْلوكِ، فيكونَ التَّقْديرُ: فما ظَنُّكم ماذا يَفعَلُ بكُم مِن عِقابٍ على كُفْرانِه، وهو مالِكُكم ومالِكُ العالَمينَ؟! وأمَّا جَوازُ اعتِبارِ حَقيقةِ ربِّ العالَمينَ وكُنْهِه، فالتَّقْديرُ فيه: فما ظَنُّكم بكُنْهِ الرُّبوبيَّةِ؛ فإنَّكم جاهِلونَ الصِّفاتِ الَّتي تَقتَضيها، وفي مُقدِّمَتِها الوَحْدانيَّةُ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾

- التَّعقيبُ الَّذي أفادَتْه الفاءُ مِن قولِه: ﴿فَنَظَرَ﴾ تَعقيبٌ عُرْفيٌّ، أي: لكلِّ شَيءٍ بحَسَبِه، فيُفيدُ كلامًا مَطْويًّا يُشيرُ إلى قِصَّةِ إبراهيمَ الَّتي قال فيها: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، والَّتي تَفرَّعَ عليها قولُه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ...﴾ إلخ[٢].

- وتَقْييدُ النَّظْرةِ بصِيغةِ المرَّةِ في قَولِه: ﴿نَظْرَةً﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ ألْهَمه المَكيدةَ، وأرْشَده إلى الحُجَّةِ، وكان قَصْدُه إيهامَهم حين سَألوه أنْ يَعبُدَ معهم[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالرَّمْزِ والإيماءِ[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٠، ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٤) فنُّ الرمزِ والإيماءِ: هو أن يُريدَ المتكلِّمُ إخفاءَ أمرٍ ما في كلامِه، فيَرمُزَ في ضِمنِه رمزًا؛ إمَّا تعميةً للمُخاطَبِ، وتَبرئةً لنفْسِه، وتَنَصُّلًا من التَّبِعةِ، وإمَّا لِيَهتديَ بواسِطتِه الى طريقِ استِخراجِ ما أخْفاهُ في كلامِه. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٧).

وقد كان قَومُ إبراهيمَ نجَّامينَ، فأَوْهَمَهم أنَّه استَدَلَّ بأمارةٍ في عِلمِ التَّنْجيمِ على أنَّه يَسقَمُ، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: مُشارِفٌ للسَّقَمِ -على قولٍ-، وكانوا يَخافونَ العَدْوى، فقال ذلك لِيُوجَسوا خَوفًا، ويَتَفرَّقوا عنه، فهَرَبوا منه إلى عِيدِهم، وتَرَكوهُ في بَيتِ الأَصْنامِ ليس معه أحَدٌ، ففَعَلَ بالأصنامِ ما فَعَلَ. وقد يُوهِمُ ظاهِرُ الكَلامِ أنَّه ارتَكَبَ بذلك جَريرةَ الكَذِبِ، والأنبياءُ مَعْصومونَ عنه، والصَّحيحُ أنَّ الكَذِبَ حَرامٌ إلَّا إذا عرَّضَ عنه ووَرَّى، ولقد نوى إبراهيمُ أنَّ مَن في عُنُقِه المَوتُ سَقيمٌ، ومنه المَثَلُ: (كَفى بالسَّلامةِ داءً)، أو سَقيمُ القَلبِ عليكم؛ لِعِبادَتِكم للأصنامِ، وهي لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ[١]. وقيل غيرُ ذلك.

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾

- قَولُهُ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ أنَّه تَوَلِّي مُخالَفةٍ وكَراهةٍ دُونَ انتِقالٍ[٢].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

- في قَولِه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تَفريعُ قِصَصٍ بعَطفِ بَعضِها على بَعضٍ، والمَقْصودُ مِن هذه الجُمَلِ المُتعاطِفةِ بالفاءاتِ هو الإفْضاءُ إلى قَولِه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، وأمَّا ما قَبْلَها فتَمْهيدٌ لها، وبَيانُ كيفيَّةِ تَمكُّنِه مِن أصْنامِهم وكَسْرِها؛ لِيُظهِرَ لِعَبَدتِها عَجْزَها[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٠، ٤٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤١).

- وفِعلُ (راغَ) معناه: حادَ عن الشَّيءِ، وقد أُطلِقَ هنا على الذَّهابِ إلى أصنامِهم مُخاتَلةً لهم، ولأجْلِ الإشارةِ إلى تَضمينِه معنى الذَّهابِ عُدِّيَ بـ (إلى)[1].

- وإطلاقُ الآلهةِ على الأصْنامِ في قولِه: ﴿ءَالِهَتِهِمْ﴾ مُراعًى فيه اعتِقادُ عَبَدتِها؛ بقَرينةِ إضافَتِها إلى ضَميرِهم، أي: إلى الآلهةِ المَزْعومةِ لهم. ومُخاطَبةُ إبراهيمَ تلك الأصْنامَ بقَولِه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ وهو في حالِ خَلْوةٍ بها، وعلى غَيرِ مَسمَعٍ مِن عَبَدتِها، قَصَد به استهزاءً بهم، وبانحطاطِها عن حالِ عَبَدتِها، ولكي يُثيرَ في نَفْسِه غَضَبًا عليها إذْ زَعَموا لها الإلهيَّةَ؛ لِيَزْدادَ قُوَّةَ عَزمٍ على كَسرِها، فليس خِطابُ إبراهيمَ للأصنامِ مُستعمَلًا في حَقيقَتِه، ولكنَّه مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو تَذَكُّرُ كَذِبِ الَّذينَ أَلَّهُوها، والَّذينَ سَدَنوا لها، وزَعَموا أنَّها تأكُلُ الطَّعامَ الَّذي يَضَعونَه بيْنَ يَدَيْها، ويَزعُمونَ أنَّها تُكلِّمُهم وتُخبِرُهم[2]!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ بالفاءِ، وفي (الذَّارياتِ): ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] بغَيرِ فاءٍ؛ ووَجْهُه: أنَّ ما في هذه السُّورةِ اتَّصَلَتْ جُملةٌ بخَمْسِ جُمَلٍ مَبْدوءةٍ بالفاءِ على التَّوالي، وهي: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٨٧-٩١]، والخِطابُ للأوْثانِ؛ تَقْريعًا لِمَن زَعَمَ أنَّها تأكُلُ وتَشرَبُ. وفي (الذَّارياتِ) مُتَّصِلٌ بمُضمَرٍ تَقْديرُه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣، ١٤٤).

فقرَّبَه إليهم فلم يَأكُلوا، فلمَّا رَآهُمْ لا يَأكُلون ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، والخِطابُ للمَلائكةِ؛ فجاءَ في كُلِّ مَوضِعٍ بما يُلائِمُه[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾

- التَّعْديةُ بـ (عَلَى) للاستِعْلاءِ، وأنَّ المَيلَ لِمَكْروهٍ[٢].

- قوله: ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ تقييدُه باليمينِ؛ للدَّلالةِ على قوَّتِه؛ فإنَّ قوَّةَ الآلةِ تَستدعي قوَّةَ الفِعلِ[٣]. وجعلَ السِّياقَ للمَصدَرِ؛ إشارةً إلى قُوَّةِ الهِمَّةِ، بحيث صار كُلُّه ضَربًا[٤].

١١- قولُه تعالَى: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾

- لَمَّا عَلِموا بما فعَلَ إبراهيمُ بأصْنامِهم، أرْسَلوا إليه مَن يُحضِرُه في مَلَئِهم حوْلَ أصنامِهم، كما هو مُفصَّلٌ في سُورةِ (الأنبياء) -﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٦١]-، وأُجْمِلَ هنا؛ فالتَّعقيبُ في قولِه: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾ تَعقيبٌ نِسبيٌّ[٥].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ استِئْنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ إقْبالَ القَومِ إلى إبراهيمَ بحالةٍ تُنذِرُ بحَنَقِهم وإرادةِ البَطْشِ به، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامعِ تَساؤُلًا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧، ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

عن حالِ إبراهيمَ في تَلقِّيه بأُولئكَ، وهو فاقِدٌ للنَّصيرِ، مُعرَّضٌ للنَّكالِ، فيَكونُ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ جوابًا وبيانًا لِمَا يَسأَلُ عنه. ولم يَتلقَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ القومَ بالاعتِذارِ، ولا بالاختِفاءِ، ولكنَّه لَقِيَهم بالتَّهكُّمِ بهم، إذْ قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كما في سُورةِ (الأنبياءِ) [٦٣]، ثُمَّ أنْحى عليهم باللَّائمةِ، والتَّوْبيخِ، وتَسفيهِ أحلامِهم؛ إذْ بَلَغوا مِن السَّخافةِ أنْ يَعبُدوا صُورًا نَحتوها بأيْديهم أو نَحَتَها أسْلافُهم؛ فإسْنادُ النَّحْتِ إلى المُخاطَبينَ مِن قَبيلِ إسنادِ الفِعلِ إلى القَبيلةِ إذا فَعَله بعضُها[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ تَوْبيخٌ وإنكارٌ، والإتيانُ بالمَوْصولِ والصِّلةِ؛ لِمَا تَشتمِلُ عليه الصِّلةُ مِن تَسلُّطِ فِعلِهم على مَعْبوداتِهم، أي: أنَّ شَأنَ المَعْبودِ أنْ يكونَ فاعِلًا لا مُنفَعِلًا، فمِنَ المُنكَرِ أنْ تعبُدوا أصنامًا أنتُم نَحتُّموها، وكان الشَّأنُ أنْ تكونَ أقلَّ منكم[٢]!

١٣- قولُه تعالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

- الواوُ في قَولِه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واوُ الحالِ، والحالُ مُستعمَلةٌ في التَّعْجيبِ، ومُؤكِّدةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ لأنَّ في الكَلامِ حَذفًا بعدَ واوِ الحالِ، إذِ التَّقْديرُ: ولا تَعْبُدون اللهَ وهو خَلَقَكُم وخَلَقَ ما نَحتُّموهُ[٣].

- ومَعنى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تَنحِتونَ، وعُدِلَ عن إعادةِ فِعلِ ﴿تَنْحِتُونَ﴾؛ لأنَّ مَعْنى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مُفسَّرٌ بأنَّه تَنحِتونَ، فلم يُعِدْه لكَراهيةِ تَكريرِ الكَلِمةِ، فلمَّا تقدَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

لَفظُ ﴿نَنْحِتُونَ﴾ عُلِمَ أنَّ المُرادَ بـ(مَا تَعْمَلُونَ) ذلك المَعْمولُ الخاصُّ، وهو المَعْمولُ للنَّحْتِ؛ لأنَّ العَمَلَ أعَمُّ، يُقالُ: عَمِلتُ قَميصًا، وعَمِلتُ خاتَمًا(١).

- قَولُه: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إمَّا عِبارةٌ عن الأصنام، فوَضَعه مَوضِعَ ضَمير ﴿مَا نَنْحِتُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَخْلوقيَّتَها للهِ عزَّ وجلَّ ليس مِن حيثُ نَحتُهم لها فقط، بلْ مِن حَيثُ سائِرُ أعْمالِهم أيضًا؛ مِن التَّصوير، والتَّحليةِ، والتَّزيينِ، ونحوِها، وإمَّا على عُمومِه، فيَنتظِمُ الأصْنامَ انتِظامًا أوَّليًّا، معَ ما فيه مِن تَحْقيقِ الحقِّ؛ ببَيانِ أنَّ جَميعَ ما يَعمَلونَه -كائِنًا ما كانَ- مَخْلوقٌ له سُبْحانَه(٢).

١٤- قول الله تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾

- تقدَّمَتْ هذه القِصَّةُ ونَظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ (الأنبياءِ)، ولكِن عُبِّرَ هنا بـ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ وهُنالك بـ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، والأسفَلُ هو المَغْلوبُ؛ لأنَّ الغالِبَ يُتخيَّلُ مُعتَلِيًا على المَغْلوبِ، فهو مُعبَّرٌ به عنِ المَغْلوبِ، والأخسَرُ هُنالك مُعبَّرٌ به عمَّن لا يَحصُلُ مِن سَعْيه على بُغيَتِه(٣)، فأخبَرَ اللهُ تعالى في سورةِ الأنبياءِ عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ثمَّ أخبَرَ عن الكفارِ لَمَّا ألقَوْهُ في النَّارِ وأرادوا به كيدًا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، والكيدُ: سعيٌ في مَضَرَّةٍ لِتُورَدَ على غفلةٍ، فذكَر مُكايَدةً بيْنَهم وبيْنَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فكادَهم ولم يَكيدوه، فخَسِرَتْ تجارتُهم، وعادت عليهم مُكايَدتُهم؛ لأنَّه كسَّرَ أصنامَهم، ولم يَبلُغوا مِن إحراقِه مُرادَهم، فذكَرَ الأخسرينَ؛ لأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦).

خَسِروا فيما عامَلَهم به وعامَلوه مِن المُكايدةِ الَّتي أُضيفَتْ إليهما.

وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (الصَّافَّاتِ) فإنَّ اللهَ تعالى أخبَر عن الكفَّارِ فيها بما اقتضى مِن الأسفلينَ، وهو أنَّه قال: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾، فبَنَوْا له بِناءً عاليًا، ورفَعوه فوْقَه لِيَرموا به مِن هناك إلى النَّارِ الَّتي أَجَّجُوها، فلمَّا عَلَوْا ذلك البناءَ وحَطُّوه منه إلى أسفَلَ، عادُوا هم الأسفلينَ؛ لأنَّهم أُهلِكُوا في الدُّنيا، وسَفُلَ أمرُهم في الأُخْرى، واللهُ تعالى نجَّى نبيَّه عليه السَّلامُ وأعلاهُ عليهم، فانقلب عالي أمْرِهم في صُعودِ البِناءِ وسافِلِ أمرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فلمَّا حُطَّ إلى النَّارِ صار ذلك سافِلًا، وأمْرُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ عاليًا؛ فلذلك اختُصَّتْ هذه الآيةُ بقولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[1].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٠٥، ٩٠٦)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥٠)، ((كشف المعاني)) لابن جَماعة (ص: ٢٥٦)، ((القواعد والأصول وتطبيقات التدبر)) للسبت (ص: ١٠٤، ١٥٣-١٥٤).

الآيات (٩٩-١١٣)

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلسَّعْىَ﴾: أي: العَمَلَ والتَّصرُّفَ وعَوْنَ أبيه، وأصلُ (سعي): يدُلُّ على المَشْيِ السَّريعِ[١].

﴿أَسْلَمَا﴾: أي: استَسْلَما وفَوَّضا الأمرَ للهِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على انقيادٍ[٢].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: أي: أضجَعَه على جَنْبِه على الأرضِ، والجَبينُ: جانِبُ الجَبهةِ، وللوَجهِ جَبينانِ، والجَبهةُ بيْنَهما، فالجَبينُ غيرُ الجَبهةِ، والتَّلُّ هنا: الدَّفعُ والصَّرْعُ[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨١، ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٣٩)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٥٩)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

﴿ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾: أي: الاختبارُ الظاهِرُ، وأصلُ البلاءِ: الاختبارُ والامتحانُ، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف(١).

﴿بِذِبْحٍ﴾: أي: بكَبشٍ، والذِّبْحُ: اسمُ ما ذُبِحَ، فِعلٌ بمعنى مَفعولٍ، وأصلُ (ذبح): يدُلُّ على شَقِّ حَلقِ الحَيَواناتِ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقال إبراهيمُ لَمَّا نجَّاه اللهُ تعالى مِن كَيدِ قَومِه: إنِّي مُهاجِرٌ إلى رَبِّي، وهو سيَهديني إلى طَريقِ الحَقِّ والصَّلاحِ، وقال إبراهيمُ: ربِّ ارزُقْني صالِحينَ مِن لَدُنْك، فبَشَّرْناه بأنَّه سيُولَدُ له غُلامٌ حَليمٌ وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ، فلمَّا بَلَغ ابنُه إسماعيلُ معه السَّعيَ، قال إبراهيمُ له: يا بُنَيَّ إنِّي أرى في المَنامِ أنَّني أذبَحُك، فماذا ترَى؟

قال له ابنُه إسماعيلُ: يا أبتِ افعَلْ ما أمَرَك اللهُ به، ستَجِدُني إن شاء اللهُ صابِرًا؛ وأسْلَمَ إبراهيمُ وابنُه أمْرَهما لله، وأضجَعَ إبراهيمُ ابنَه على جانبِ جبهتِه لِيَذبَحَه، ونادَيْناه فقُلْنا له: يا إبراهيمُ قد حقَّقتَ الرُّؤيا وعَمِلْتَ بها، إنَّا كذلك نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، فنُنَجِّيه مِنَ الكُرَبِ والشَّدائد.

إنَّ هذا الَّذي أمَرْنا به إبراهيمَ لَهُوَ الاختِبارُ الشَّديدُ، وفَدَيْنا ابنَه بكَبشٍ عَظيمٍ، وأنعَمْنا على إبراهيمَ بالثَّناءِ الباقي فيمَنْ بَعْدَه، سَلامٌ على إبراهيمَ. مِثلَ هذا الجزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا. إنَّ إبراهيمَ مِن عبادِنا المؤمنينَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢، ٣٢٧-٣٢٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٩/ ٦١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٤).

ثُمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى مظهرًا آخَرَ مِن مَظاهِرِ فضْلِه على نبيِّه إبراهيمَ، فيقولُ: وبشَّرْناه بِولادةِ ابنِه إسحاقَ، وأنَّه يكونُ نبيًّا مِنَ الصَّالِحينَ، وبارَكَ اللهُ على إبراهيمَ وعلى إسحاقَ، ومِن ذُرِّيَّتِهما مُحسِنٌ بطاعةِ اللهِ، ومِنهم ظالمٌ لِنَفْسِه ظُلمًا بيِّنًا بالكُفرِ والعِصيانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا سَلَّم اللهُ إبراهيمَ مِن قَومِه ومِن النَّارِ الَّتي ألقَوه فيها؛ عَزَم على مُفارَقتِهم؛ لِيَتمكَّنَ مِن عبادةِ رَبِّه، ويَتضَرَّعَ له مِن غَيرِ أن يَلقَى مَن يُشَوِّشُ عليه[1].

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾.

أي: وقال إبراهيمُ لَمَّا نجَّاه اللهُ تعالى مِن كَيدِ قَومِه: إنِّي مُفارِقٌ قَومي وما هم عليه مِنَ الشِّركِ، إلى رَبِّي الَّذي خلَقَني، وهو المحسِنُ إلَيَّ، ومُدبِّرُ أمري[2]، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٥).

(٢) على أنَّ المرادَ أنَّه ذاهبٌ حقيقةً، فقد قيل: المعنى: إنِّي ذاهبٌ إلى حيثُ أتمَكَّنُ مِن عبادةِ الله تعالى. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٧).

وقيل: المعنى: ذاهبٌ إلى المكانِ الَّذي أمَرني ربِّي بالهجرةِ إليه. وممَّن اختاره: الواحديُّ، وابنُ عادل، والشوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٢).

وقد هاجَر إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى الأرضِ المُقَدَّسةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٣١).

ونسَب ابنُ الجوزي إلى الأكثَرينَ أنَّه قال ذلك حينَ أراد هِجرةَ قومِه. يُنظر: ((تفسير ابن =

سيَهديني إلى طَريقِ الصَّوابِ والخَيرِ والصَّلاحِ[1].

كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا * فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٨ - ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿... وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ

= الجوزي)) (٣/ ٥٤٦). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٢).

وقيل: المرادُ أنَّه ذاهبٌ إلى الله بقلبِه وعمَلِه ونيَّتِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢١، ٢٢٢).

وممَّن اختار نحوَ المعنى المذكورِ في قولِه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾: الرسعنيُّ، والقرطبي، والعُليمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٢).

وقال ابنُ جريرٍ: (قولُه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يقولُ: سيُثَبِّتُني على الهدَى الَّذي أبصَرْتُه، ويُعينُني عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧).

وقيل: المعنى: سيُرشِدُني إلى طريقِ الهجرةِ. ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٠٣).

قال ابنُ عاشور: (الظَّاهِرُ: أنَّ هذا القَولَ قاله علَنًا في قَومِه؛ لِيَكُفُّوا عن أذاه... ويحتمِلُ أن يكونَ قال ذلك في أهلِه الَّذين يُريدُ أن يَخرُجَ بهم معه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦).

وقال البِقاعي: («قَالَ» أي: إبراهيمُ عليه السَّلامُ لِمَن يَتوسَّمُ فيه أنَّ كَلامَه يُحْييه مِن مَوتِ الجَهلِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٩).

إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧].

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

أنَّ هذه الجُملةَ بقيَّةُ قَولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه بعدَ أنْ أخبَرَ أنَّه مُهاجِرٌ، استَشْعَرَ قِلَّةَ أهْلِه، وعُقمَ امرأتِه، وثارَ ذلك الخاطِرُ في نَفْسِه عندَ إزْماعِ الرَّحيلِ؛ لأنَّ الشُّعورَ بقِلَّةِ الأهْلِ عِندَ مُفارَقةِ الأوْطانِ يكونُ أقوى؛ لأنَّ المَرءَ إذا كان بيْنَ قَومِه كان له بعضُ السُّلُوِّ بوُجودِ قَرابَتِه وأصدِقائِه[(١)].

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

أي: وقال إبراهيمُ: رَبِّ ارزُقْني صالِحينَ مِن جملةِ الَّذين يُصلِحونَ في الأرضِ بطاعَتِك ولا يَعصُونَك؛ عِوَضًا عن قَومي الكافِرينَ الَّذين فارَقْتُهم[(٢)].

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

أي: فبَشَّرْنا إبراهيمَ بأنَّه سيُولَدُ له ولَدٌ ذَكَرٌ، لا يَعْجَلُ بالعقوبةِ مع القدرةِ، فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

قيل: المرادُ بقَولِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: طَلَبُ الولَدِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧).

وقيل: طَلَب إبراهيمُ عليه السَّلامُ بدُعائِه ما هو أعَمُّ من الولَدِ، أي: هَبْ لي من الصَّالحينَ مَن يكونُ عَونًا لي من الأولادِ وغَيرِهم. ذكر هذا الوجهَ ابنُ عثيمين احتِمالًا، ومالَ إليه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٣).

في غايةِ الرَّزانةِ والثَّباتِ[(١)].

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمَّا قال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ أَتْبَعَه بما يَدُلُّ على حُصولِ ما بُشِّرَ به وبُلوغِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وعَدَه في الآيةِ الأُولى بكَونِ ذلك الغُلامِ حَليمًا؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ ما يدُلُّ على كَمالِ حِلمِه؛ وذلك لأنَّه كان به مِن كَمالِ الحِلمِ وفُسحةِ الصَّدرِ ما قوَّاه على احتِمالِ تلك البَليَّةِ العَظيمةِ، والإتيانِ بذلك الجَوابِ الحَسَنِ[(٢)].

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ ﴾.

أي: فوُهِبَ له الغُلامُ المُبشَّرُ به -وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ-، فكَبِرَ وترَعْرَعَ حتَّى بلَغَ مع والِدِه السَّعيَ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).
قال ابن عاشور: (والحليمُ: الموصوفُ بالحِلْم، وهو اسمٌ يَجمَعُ أصالةَ الرَّأْيِ، ومَكارِمَ الأخلاقِ، والرَّحمةَ بالمخلوقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٥).
قيل: المرادُ ببُلوغِ السَّعيِ هنا: أنَّه صار مُطيقًا للعَمَلِ، فيُعينُ والِدَه على أعمالِه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٩). =

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لابنِه إسماعيلَ: يا بُنيَّ، إنِّي أرَى في النَّومِ أنَّني أذبَحُك؛ أمْرًا مِنَ اللهِ تعالى[1]!

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٣).

وقيل: المرادُ بالسَّعيِ هنا: المَشيُ، أي: فصار يَمشي مع أبيه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٠).

قال السعدي: (﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلامُ ﴿مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: أدرَك أن يَسعى معه، وبلغَ سِنًّا يكونُ في الغالِبِ أحَبَّ ما يكونُ لوالِدَيه، قد ذهَبت مَشَقَّتُه، وأقبَلَتْ مَنفعتُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

وقيل: المرادُ ببُلوغِ السَّعيِ: بُلوغُ السِّنِّ الَّتي يُكَلَّفُ فيها بأداءِ العباداتِ الَّتي فُرِضَت عليه. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٨١، ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٦٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٣ - ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٧).

قال ابن جُزَي: (يحتملُ أن يكونَ رأى في المنامِ الذَّبحَ وهو الفعلُ، أو أُمِر في المنامِ أنْ يَذبَحَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

ممَّن اختار القَولَ بأنَّ الذَّبيحَ هو إسماعيلُ: أبو حاتمٍ الرَّازيُّ، وابن عطية -ونسَبَه للجمهورِ-، وابنُ تيميَّةَ -ونسَبَه لأكثَرِ العُلَماءِ-، وابنُ القَيِّم، وابنُ كثير، والعليمي، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٢ - ٣٣٥)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥١٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٧١ - ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦ - ١٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٣- ٢٤٥). =

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

= وممَّن قال مِن السَّلفِ بهذا القولِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ سَلَام، وأبو الطُّفَيْلِ عامرُ بنُ واثلةَ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البَصريُّ، وسعيدُ بنُ المُسَيِّب، والشَّعبيُّ، ومجاهدٌ، ويوسفُ بنُ مِهْرانَ، وأبو صالحٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ سابطٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٧).

وقيل: الذَّبيحُ هو إسحاقُ عليه السَّلامُ. وممَّن رجَّح ذلك: ابنُ جرير، والنحاسُ ونسَبَه لأكثرِ العلماءِ، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٠، ٥٩٨)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، والعبَّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعودٍ، وأبو موسى الأشعريُّ، وأبو هُرَيرةَ، وأنسٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، وكعبُ الأحبارِ، ووهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، ومَسروقٌ، وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ، والقاسمُ بنُ أبي بَزَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨) (١٩/ ٥٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٧).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَر أسماءَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ الذين يُروَى عنهم القولُ بأنَّ الذَّبيحَ هو إسحاقُ عليه السَّلامُ: (وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ، وهذا عجَبٌ منه، وهو إحدى الرِّوايتَينِ عن ابنِ عبَّاسٍ، ولكنَّ الصَّحيحَ عنه وعن أكثرِ هؤلاءِ أنَّه إسماعيلُ عليه السَّلامُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٨).

وقال أيضًا: (وقد قال بأنَّه إسحاقُ طائفةٌ كثيرةٌ مِن السَّلفِ وغيرِهم، وإنَّما أخَذوه -والله أعلَمُ- مِن كعبِ الأحبارِ، أو صُحُفِ أهلِ الكتابِ، وليس في ذلك حديثٌ صحيحٌ عن المعصوم حتَّى نَترُكَ لأجْلِه ظاهرَ الكتابِ العزيزِ، ولا يُفهَمُ هذا مِن القرآنِ، بل المفهومُ بل المَنطوقُ بل النَّصُّ عندَ التَّأمُّلِ على أنَّه إسماعيلُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧).

وممَّن توقَّف فلم يُرَجِّحْ أحدَ القولَينِ: الزَّجَّاجُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٨).

أي: فما الَّذي تَراه في شأنِ هذه الرُّؤيا الَّتي أخبَرْتُك بها[١]؟

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾.

أي: قال إسماعيلُ لأبيه إبراهيمَ: امتَثِلْ يا أبَتِ ما أمَرَك اللهُ به؛ طاعةً له، وانقيادًا إليه[٢].

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: ستَجِدُني -إن شاء اللهُ- صابِرًا مِن جُملةِ الصَّابِرينَ على حُكمِ اللهِ وبَلائِه، فأحتَسِبُ أجْري عندَ اللهِ، ولا أجزَعُ مِن الذَّبحِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾.

أي: فلَمَّا أسلَمَ إبراهيمُ وابنُه أمْرَهما إلى اللهِ تعالى، وانْقادَا لحُكمِه، ورَضِيَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٤).

بقَضائِه، واستعَدَّا لِتَنفيذِه[١].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾.

أي: ووضَعَ إبراهيمُ ابنَه إسماعيلَ بقوَّةٍ على الأرضِ على جانبِ جَبْهتِه -على هيئةِ ما يُرادُ ذبحُه-؛ لِيَذبَحَه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢، ١٥٣).

وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، وابنُ القيِّم، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ المذكورِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٤).

وقيل: المرادُ: فلمَّا تَشَهَّدا وذكَرَا اللهَ تعالى: إبراهيمُ على الذَّبحِ، والولَدُ على شَهادةِ الموتِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨).

قال ابن عطيَّة: (واختلف النُّحاةُ في جوابِ «لَمَّا»؛ فقال الكوفيُّونَ: الجوابُ «نادَيْناهُ»، والواوُ زائدةٌ. وقالت فِرقةٌ: الجوابُ: «تَلَّهُ»، والواو زائِدةٌ، كزيادتِها في قَولِه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النبأ: ١٩]. وقال البَصريُّونَ: الجوابُ مَحذوفٌ، تقديرُه: فلمَّا أسْلَمَا أسْلَمَ وتَلَّه... وقال بعضُ البَصريِّينَ: الجوابُ محذوفٌ، وتقديرُه: فلمَّا أسْلَمَا وتَلَّه للجَبينِ أجزَلَ أجرَهما، أو نحوُ هذا ممَّا يقتضيه المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨١).

وقال ابنُ جرير: (قَولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ جوابُ قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾، ومعنى الكَلامِ: فلمَّا أسلَمَا وتَلَّه للجَبينِ، نادَيْناه أنْ يا إبراهيمُ، وأُدخِلَت الواوُ في ذلك كما أُدخِلَت في قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٦).

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، تقديرُه: فلمَّا أسلَمَا وتَلَّه للجَبينِ وناديناه أنْ يا إبراهيمُ قد صدَّقْتَ الرُّؤيا، كان ما كان ممَّا تَنطِقُ به الحالُ، ولا يُحيطُ به الوَصفُ؛ مِن استبشارِهما واغتباطِهما، وحَمدِهما لله وشُكرِهما على ما أنعَمَ به عليهما؛ مِن دَفعِ البَلاءِ العظيمِ بعدَ حُلولِه، وما اكتَسَبا في تضاعيفِه بتَوطينِ الأنفُسِ عليه مِنَ الثَّوابِ والأعواضِ، ورِضوانِ اللهِ الَّذي ليس وراءَه مَطلوبٌ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((مدارج =

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ ﴾.

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ... ﴾.

أي: ونادَيناه فقُلْنا له: يا إبراهيمُ، قد حقَّقتَ الرُّؤيا، فصدَّقتَ الأمرَ فيها، وعَمِلْتَ به حينَ أضجَعْتَ ابنَك لِذَبحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧].

﴿ ... إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

أي: إنَّا كما جَزَينا إبراهيمَ ففرَّجْنا عنه كَرْبَه، كذلك نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، فنُنَجِّيه ممَّا هو فيه مِنَ الكُرَبِ والشَّدائِدِ[2].

= السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٣).

قال ابنُ كثير: (﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: على الجَبينِ، وله نظائِرُ في اللُّغةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣).

وقال أيضًا: (معنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: ألْقاه على وجْهِه؛ قيل: أراد أن يَذبَحَه من قفاهُ لئلَّا يُشاهِدَه في حالِ ذبحِه. قاله ابنُ عبَّاس، ومجاهِدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. وقيل: بل أضْجَعه كما تُضْجَعُ الذَّبائحُ، وبَقِيَ طرَفُ جبينِه لاصقًا بالأرضِ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨).

وقال الواحدي: (والصَّحيحُ أنَّه أضْجَعه على أحدِ شِقَّيْه؛ لأنَّ الجبينَ غيرُ الجبهةِ). ((التفسير البسيط)) (١٩/ ٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٣، ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾.

أي: إنَّ أمْرَنا إبراهيمَ بذَبحِ ابنِه لَهُوَ الاختِبارُ الشَّديدُ والمِحنةُ العَظيمةُ الَّتي تَبيَّنَ بها استِسلامُه لأمرِ اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَدَّم ما هو الأهَمُّ مِن نَهيِ إبراهيمَ عن الذَّبحِ، ومِن البِشارةِ بالجَزاءِ؛ ذكَرَ فِداءَه بما جعَلَه سُنَّةً باقيةً، يُذكَرُ بها الذِّكرَ الجَميلَ على مَرِّ الأيَّامِ وتَعاقُبِ السِّنينَ(٢).

﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾.

أي: وفَدَيْنا إسماعيلَ بكَبشٍ(٣) عَظيمٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٧).

(٣) قال ابنُ كثير: (الصَّحيحُ الذي عليه الأكثَرونَ أنَّه فُدِيَ بكَبشٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٧، ٦٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

قيل: معنى ﴿عَظِيمٍ﴾: عَظيمُ الحَجمِ، ضَخمُ الجُثَّةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، والنسفي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٣).

وقيل: المعنى: أنَّه عَظيمُ القَدْرِ، شَريفٌ جليلٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. =

عن صَفيَّةَ بنتِ شَيْبةَ، قالت: أخبَرَتْني امرأةٌ مِن بني سُلَيم وَلَّدت عامَّةَ أهلِ دارِنا، أنَّها سألت عُثمانَ بنَ طَلْحةَ: لِمَ دعاك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال: ((إنِّي كُنتُ رأيْتُ قَرْنَي الكَبشِ حينَ دَخلْتُ البيتَ، فنَسيتُ أن آمُرَكَ أن تُخمِّرَهما[١]، فخَمِّرْهما؛ فإنَّه لا يَنبغي أن يكونَ في البَيتِ شَيءٌ يَشغَلُ المُصَلِّي)). قال سُفْيانُ -هو ابنُ عُيينةَ، أحدُ رواةِ الحديثِ-: لم تَزَلْ قَرْنَا الكَبشِ في البَيتِ حتَّى احترَق البَيْتُ، فاحترَقَا[٢].

﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ ﴾.

أي: وأثنَيْنا على إبراهيمَ، وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين

= يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).
وممَّن جمَع بيْن المعنيَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٦٨).
وقال السعدي: (كان عظيمًا من جهةِ أنَّه كان فِداءً لإسماعيلَ، ومِن جهةِ أنَّه مِن جُملةِ العباداتِ الجَليلةِ، ومِن جِهةِ أنَّه كان قُربانًا وسُنَّةً إلى يَومِ القيامة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).
قال ابنُ جرير: (لا قَولَ في ذلك أصَحُّ مِمَّا قال اللهُ جَلَّ ثناؤه، وهو أن يُقالَ: فَداه اللهُ بِذِبحٍ عَظيمٍ؛ وذلك أنَّ اللهَ عَمَّ وَصْفَه إيَّاه بالعِظَمِ دونَ تَخصيصِه؛ فهو كما عَمَّه به). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٥).

(١) أي: تغطيهما. والتَّخميرُ: التَّغطيةُ، يُقالُ: خَمِّرْ إناءَك. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٧).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٣٠) مختصرًا، وأحمد (١٦٦٣٧) واللَّفظُ له.
حسَّن إسنادَه الذَّهبيُّ في ((المهذب)) (٢/ ٨٦٦)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٣٠).
قال ابنُ كثير: (هذا دليلٌ مُستقِلٌّ على أنَّه [يعني: الذَّبيحَ] إسماعيلُ عليه السَّلامُ؛ فإنَّ قُريشًا تَوارَثوا قَرْنَيِ الكَبشِ الَّذي فَدى به إبراهيمُ خَلَفًا عن سَلَفٍ، وجيلًا بعدَ جيلٍ، إلى أنْ بَعَث اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢).
وقال أيضًا: (وهذا وحدَه دليلٌ على أنَّ الذَّبيحَ إسماعيلُ؛ لأنَّه كان هو المقيمَ بمكَّةَ، وإسحاقُ لا نعلمُ أنَّه قدِمها في حالِ صغرِه، واللهُ أعلمُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٦).

يأتونَ مِن بَعدِه[1].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

أي: سلامٌ على إبْراهيمَ وثَناءٌ حسنٌ، فلا يُذْكَرُ بسوءٍ[2].

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذين جزَيْنا به إبراهيمَ لأنَّه كان مِن المُحسنينَ، نَجْزي به أيضًا كلَّ مَن كان محسنًا[3].

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ مِن عبادِنا المُؤمِنينَ باللهِ؛ فوَحَّدوا اللهَ وأخلَصوا في عبادتِه له وَحْدَه لا شريكَ له[4].

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

وقال ابن جرير: (وقولُه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يقولُ تعالَى ذِكْرُه: أَمَنَةٌ مِن اللهِ في الأرضِ لإبراهيمَ أنْ يُذْكَرَ مِن بَعدِه إلَّا بالجميلِ مِن الذِّكْرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

أي: وبَشَّرْنا إبراهيمَ بولادةِ ابنِه إسحاقَ، وأنَّه يكونُ نبيًّا مِن جُملةِ الصَّالِحينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٤٩].

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثنى اللهُ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ بما عالَجَ مِمَّا لم يَحصُلْ لِغَيرِه مِثلُه، وكان مِن أعظَمِ جزاءِ الإنسانِ البَرَكةُ في ذُرِّيَّتِه؛ قال(٢):

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾.

أي: وأحَلَّ اللهُ بَرَكَتَه على إبراهيمَ(٣) ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٩).

(٣) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ -أي: بارَكَ اللهُ عليه وعلى ابنِه إسحاقَ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٨). =

وعلى إسحاقَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

= وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى إسماعيلَ عليه السَّلامُ، أي: بارَكَ اللهُ على إسماعيلَ وأخيه إسحاقَ. وممَّن رجَّح ذلك: البِقاعي، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

قال البِقاعي مؤيِّدًا هذا الرَّأيَ: (﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الغلامِ الحليم، وهو الذَّبيحُ المُحَدَّثُ عنه الَّذي جرَّ هذا الكلامَ كلَّه الحديثُ عنه، وكان آخِرُ ضميرٍ مُحَقَّقٍ عاد عليه الهاءَ في ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾، ثمَّ في ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾. وهذا عندي أَوْلى مِن إعادةِ الضَّميرِ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه استوفَى مدحَه. ثمَّ رأيتُ حمزةَ الكرمانيَّ صنَع هكذا... ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: الأخَوينِ، ولا شكَّ أنَّ هذا أقرَبُ وأقعَدُ مِن أن يكونَ الضَّميرُ للأبِ والابنِ؛ لأنَّ قِرانَ الأخَوينِ في الإخبارِ عن ذُرِّيَّتِهما أَولَى مِن قِرانِ الابنِ مع أبيه في ذلك، فيَكونُ الابنُ حينَئذٍ من جملةِ المُخبَرِ عنه بذُرِّيَّةِ الأبِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٦٩، ٢٧٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٨).

قال القرطبي: (﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أيْ: [ثَبَّتْنا] عليهما النِّعمةَ. وقيلَ: كَثَّرْنا وَلَدَهما، أي: بارَكْنا على إبراهيمَ وعلى أولادِه، وعلى إسحاقَ حينَ أَخرَج أنبياءَ بني إسرائيلَ مِن صُلْبِه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢).

وقيل: المرادُ: أَفَضْنا عليهما بَرَكاتِ الدِّينِ والدُّنيا. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤١٤).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما أعْطَى إبراهيمَ وإسحاقَ عليهما السَّلامُ؛ نَقَل الكلامَ إلى ذُرِّيَّتِهما[1]، فقال:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

أي: ومِن ذُرِّيَّتِهما مُحسِنٌ في طاعةِ الرَّحمنِ، ومنهم ظالِمٌ لِنَفْسِه ظُلمًا بَيِّنًا بالكُفرانِ والعِصيانِ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أنَّه ينبغي -بل يجِبُ- على الإنسانِ ألَّا يَعتمِدَ على نَفْسِه، بل يَعتمِدُ على ربِّه عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه هنا: ﴿سَيَهْدِينِ﴾[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ تَحَنُّنُ الإنسانِ إلى ربِّه بالدُّعاءِ بأنْ يأتيَ بالعباراتِ الدَّالَّةِ على التَّحَنُّنِ والتَّعطُّفِ والافتِقارِ إلى الرَّبِّ؛ لِقَولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾، فأضافَ الرُّبوبيَّةَ إلى نفْسِه مِن بابِ التَّلَطُّفِ والتَّحَنُّنِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[4].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ دَلَّت هذه الآيةُ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المَوضِعَ الَّذي تَكثُرُ فيه الأعداءُ تَجِبُ مُهاجَرتُه؛ وذلك لأنَّ إبراهيمَ صَلواتُ اللهِ عليه وسَلامُه -مع أنَّ اللهَ سُبحانَه خَصَّه بأعظَمِ أنواعِ النُّصرةِ- لَمَّا أَحَسَّ منهم بالعَداوةِ الشَّديدةِ هاجَرَ مِن تلك الدِّيارِ؛ فلَأنْ يَجِبَ ذلك على الغَيرِ كان أَولى[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ استِحبابُ بشارةِ مَن وُلِد له ولدٌ، وتهنِئتِه، فلمَّا كانت البشارةُ تَسُرُّ العبدَ وتُفرِحُه استُحِبَّ للمسلمِ أن يُبادِرَ إلى مسرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن أراد أنْ يُنَفِّذَ شَيئًا مَكروهًا لِشَخصٍ: أنْ يأتيَ بأُسلوبٍ يدُلُّ على أنَّه لا يُريدُ الإضرارَ به، وإنَّما هو أمرٌ لا بُدَّ منه؛ فإنَّ إتيانَه على صيغةِ التَّلَطُّفِ هو مِن أجْلِ أنْ يُبعِدَ عنه تُهمةَ أنَّه لا يُحِبُّه[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ جوازُ حَثِّ المفضولِ للفاضلِ على فِعلِ الأوامرِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أنْ يَحقِرَ نَفْسَه في الأمرِ بالخَيرِ، فيَقولَ: هذا أَجَلُّ مِنِّي، هذا أعلَمُ منِّي، هذا أكبَرُ منِّي؛ فلن آمُرَه بشَيءٍ! بل نقولُ: مُرْ بالخَيرِ سواءٌ كنتَ أصغَرَ سِنًّا أو شَأْنًا مِن المأمورِ، أو مِثْلَه، أو أكبَرَ منه[4].

٧- أنَّ الصَّبرَ يكونُ على امتِثالِ الأوامرِ، وعلى المصائبِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الصَّابِرينَ على تَنفيذِ هذا الأمرِ، وعلى ما يَقتَضيه من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٧، ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

الآلامِ؛ لأنَّه ذَبحٌ[(١)].

٨- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَلِّقَ كلَّ أمرٍ مُستقبَلٍ على مَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذا أمرٌ مُستقبَلٌ، واللهُ سُبحانَه وتعالى قَصَّه علينا لِنَعتبِرَ به، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، ويُؤيِّدُ هذا أيضًا شَرعُنا؛ فإنَّ اللهَ قال لِنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٢)] [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فلَمَّا كان مِن أخلاقِ الكُمَّلِ عَدَمُ القَطعِ في المُستقبَلاتِ؛ لِما يَعلَمونَ مِن قُدرةِ اللهِ تعالى على نَقضِ العزائِمِ بالحَيلولةِ بيْنَ المَرءِ وقَلبِه؛ قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٣)].

٩- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَحولَ بينَ نَفْسِه وبَينَ كُلِّ شَيءٍ قد يَعوقُه عن تَنفيذِ أمرِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، حتَّى لا يرى وجْهَه حينَ يَذْبَحُه؛ فإنَّ هذا يُهَوِّنُ عليهما الأمرَ، فيَهُونُ عليهما التَّنفيذُ، ورُبَّما يَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ العَمَلُ بسَدِّ الذَّرائعِ ومَنْعِها، أي: الذَّرائعِ الَّتي تَحُولُ بيْنَ المَرءِ وبيْن تَنفيذِ أمرِ اللهِ، أو تُوجِبُ أن يَقَعَ فيما نهَى اللهُ عنه[(٤)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ بيانُ حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يُقَدِّرُه على عبدِه المؤمنِ من مكروهٍ؛ فلا يَقُلِ الإنسانُ: لماذا ابتلاني اللهُ تعالى بهذا دونَ غيري؟! بل يقولُ: للهِ في ذلك حِكَمٌ عظيمةٌ، واللهُ عزَّ وجلَّ يَبتلي المؤمنَ بالمصائبِ؛ فإذا صَبَرَ نال بذلك درجةَ الصَّابرينَ، وإذا احتَسَبَ الأجرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٠، ٢٣٨).

بهذا الصَّبرِ نال بذلك ثوابَ الصَّابرينَ، والصَّبرُ مرتبةٌ عاليةٌ يُوَفَّى فيها العاملُ أجْرَه بلا حسابٍ، ولا يُمكِنُ صَبْرٌ بلا مَصبورٍ عليه! بل لا بُدَّ من ابتلاءٍ وامتحانٍ يُعْلَمُ به قَدْرُ صَبْرِ الإنسانِ حتَّى يُثابَ على قَدْرِ ما حَصَل منه مِن الصَّبرِ[1].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه لا يَلزَمُ مِن كَثرةِ فَضائِلِ الأبِ فَضيلةُ الابنِ[2].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ البَرَّ قد يَلِدُ الفاجِرَ، ولا يَلحَقُه مِن ذلك عَيبٌ ولا مَنقَصةٌ[3]، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ فَسادَ الأعقابِ لا يُعَدُّ غَضاضةً على الآباءِ[4].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ النَّسَبَ لا أثَرَ له في الهُدى والضَّلالِ[5]، وأنَّ الخَبيثَ والطَّيِّبَ لا يَجري أمْرُهما على العِرقِ والعُنصُرِ؛ فقد يَلِدُ البَرُّ الفاجِرَ، والفاجِرُ البَرَّ، وهذا ممَّا يَهدِمُ أمرَ الطَّبائعِ والعناصِرِ[6].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المرءَ إنَّما يُعابُ بسُوءِ فِعلِه، ويُعاتَبُ على ما اجتَرَحت يداه، لا على ما وُجِدَ مِن أصلِه أو فَرعِه[7]، وأنَّ مَناطَ الفَضلِ في الإنسانِ هو خِصالُ الذَّاتِ، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اكتسَبَ المَرءُ مِن الصَّالحاتِ، وأمَّا كرامةُ الآباءِ فتَكمِلةٌ للكَمالِ، وباعِثٌ على الاتِّسامِ بفَضائِلِ الخِلالِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لم يَقُلْ: «إلى اللهِ»؛ لأنَّ المقامَ يَختَصُّ بالرُّبوبيَّةِ أكثَرَ؛ إذْ إنَّ الرُّبوبيَّةَ مُقتضاها التَّدبيرُ، وهو الآنَ يَحتاجُ إلى مُدَبِّرٍ يُدَبِّرُه إلى ما فيه مَصلحتُه، فقال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وهي مِن الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في الهِجرةِ والعُزلةِ، وأوَّلُ مَن فَعَل ذلك إبراهيمُ عليه السَّلامُ(٣).

٣- الصَّلاحُ أفضَلُ الصِّفاتِ؛ بدليلِ أنَّ الخَليلَ عليه السَّلامُ طَلَب الصَّلاحَ لِنَفْسِه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وطَلَبه للوَلَدِ، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وطَلَبَه سُلَيمانُ عليه السَّلامُ بعدَ كَمالِ دَرَجتِه في الدِّينِ والدُّنيا، فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وذلك يدُلُّ على أنَّ الصَّلاحَ أشرَفُ مَقاماتِ العِبادِ(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَصَفه بأنَّه مِن الصَّالِحينَ؛ لأنَّ نِعمةَ الوَلَدِ تكونُ أكمَلَ إذا كان صالِحًا؛ فإنَّ صَلاحَ الأبناءِ قُرَّةُ عَينٍ للآباءِ، ومِن صلاحِهم بِرُّهم بوالِدِيهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٨).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ﴾ لَمَّا كان هذا الوَصفُ رُبَّما أفهَمَ الطَّيشَ، وصَفَه بما أبقى صَفاءَه ونفى كَدَرَه، فقال: ﴿حَلِيمٍ﴾[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ دليلٌ أنَّ إسماعيلَ هو الذَّبيحُ؛ من وجهينِ:

الأوَّل: أنَّه بَشَّرَه بالذَّبيحِ، وذَكَرَ قِصَّتَه أوَّلًا؛ فلمَّا استوفى ذلك قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾؛ فبَيَّنَ أنَّهما بِشارتانِ: بِشارةٌ بالذَّبيحِ، وبِشارةٌ ثانيةٌ بإسحاقَ. وهذا بَيِّنٌ[2].

والثاني: أنَّه ذَكَرَ في الذَّبيحِ أنَّه غُلامٌ حَليمٌ، ولَمَّا ذَكَرَ البِشارةَ بإسحاقَ ذَكَرَ البِشارةَ بغُلامٍ عَليمٍ، في غيرِ هذا الموضِعِ. والتَّخصيصُ لا بُدَّ له مِن حِكمةٍ، وهذا ممَّا يُقوِّي اقترانَ الوَصفَينِ، والحِلْمُ مُناسِبٌ للصَّبرِ الَّذي هو خُلُقُ الذَّبيحِ، وإسماعيلُ وُصِفَ بالصَّبرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وأيضًا فإنَّه قال في الذَّبيحِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقد وَصَفَ اللهُ إسماعيلَ أنَّه من الصَّابرينَ، ووَصَفَ اللهُ تعالى إسماعيلَ أيضًا بصِدْقِ الوَعدِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنَّه وَعَدَ أباه مِن نَفْسِه الصَّبرَ على الذَّبحِ، فوَفَّى به[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أنَّ العِبادةَ هي ما أمَرَ اللهُ به، وإنْ كانت في غيرِ هذا الموضِعِ مَعصِيةً؛ فإنَّ قَتْلَ الابنِ مِن أكبرِ الكبائِرِ، فإذا أمَرَ اللهُ به صار طاعةً، ومِن أفضَلِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٣٣).

الطَّاعاتِ؛ لأنَّ تَنفيذَه مِن أشَقِّ ما يكونُ على النَّفْسِ، فإذا نَفَّذَه الإنسانُ -مع قوةِ الدَّاعي لِمَنعِه- كان ذلك أكمَلَ وأفضَلَ. ولهذا نَظيرٌ؛ فالسُّجودُ لغيرِ اللهِ شِركٌ، ولَمَّا أمَرَ اللهُ الملائِكةَ أنْ يَسجُدوا لآدمَ صار السُّجودُ لآدمَ طاعةً. فالحاصِلُ أنَّ العِبادةَ ما أمَرَ اللهُ به، وإنْ كان جِنسُها قد يكونُ مَعصيةً في مَوضِعٍ آخَرَ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد يَبتلي عبدَه المؤمنَ بِبَلوى عَظيمةٍ شَديدةٍ على النُّفوسِ، وذلك بما أَرَى اللهُ نبيَّه إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن ذَبحِ وَلَدِه، ونحن نعلمُ أنَّ اللهَ لو قَدَّرَ على ولَدِك أنْ يموتَ لَكانت هذه مُصيبةً عظيمةً، لكنْ إذا أمَرَك اللهُ سُبحانَه وتعالى أنْ تَذبَحَه أنت بنَفْسِك صار هذا أعظَمَ وأشَدَّ، وصار الصَّبرُ على هذا الأمرِ أشدَّ وأفضَلَ مِن الصَّبرِ على مَوتِه بقَدَرٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ والمقصودُ مِن هذا الابتِلاءِ إظهارُ عَزمِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإثباتُ عُلُوِّ مَرتبتِه في طاعةِ رَبِّه؛ فإنَّ الولَدَ عَزيزٌ على نَفْسِ الوالِدِ، والوَلَدُ الوَحيدُ الَّذي هو أمَلُ الوالِدِ في مُستقبَلِه: أشَدُّ عِزَّةً على نفْسِه لا مَحالةَ، وقد عَلِمْتَ أنَّه سأل ولَدًا؛ لِيَرِثَه نَسْلُه ولا يَرِثَه مَواليه؛ فبَعْدَ أنْ أقَرَّ اللهُ عَيْنَه بإجابةِ سُؤلِه وتَرعْرُعِ ولَدِه؛ أمَرَه بأن يَذبَحَه فيَنعَدِمَ نَسْلُه، ويَخيبَ أمَلُه، ويَزولَ أُنسُه، ويَتولَّى بيَدِه إعدامَ أحَبِّ النُّفوسِ إليه، وذلك أعظَمُ الابتِلاءِ! فقابَلَ أمْرَ رَبِّه عزَّ وجلَّ بالامتِثالِ، وحصَلَت حِكمةُ اللهِ مِن ابتِلائِه، وهذا معنى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾(٣) [الصافات: ١٠٦]، فلم يكُنِ الذَّبحُ مَصلَحةً، ولا كان هو مَطلوبَ الرَّبِّ في نَفْسِ الأمرِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠).

كان مُرادُ الرَّبِّ سبحانه ابتِلاءَ إبراهيمَ؛ لِيُقَدِّمَ طاعةَ رَبِّه ومَحبَّتَه على محبَّةِ الولَدِ، ولا يَبقَى في قَلبِه التِفاتٌ إلى غيرِ اللهِ؛ فإنَّه كان يُحِبُّ الولَدَ محبَّةً شَديدةً، وكان قد سأل اللهَ أن يَهَبَه إيَّاه، وهو خَليلُ اللهِ؛ فأراد تعالى تَكميلَ خُلَّتِه لله بألَّا يَبقى في قَلبِه ما يُزاحِمُ به مَحبَّةَ رَبِّه(١).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ أُورِدَ هذا التَّكليفُ في النَّومِ لا في اليَقَظةِ، وبيانُ الحِكمةِ في ذلك مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا التَّكليفَ كان في نهايةِ المَشقَّةِ على الذَّابِحِ والمذبوحِ؛ فورَدَ أوَّلًا في النَّومِ حتَّى يصيرَ ذلك كالمُنبِّهِ لوُرودِ هذا التَّكليفِ الشَّاقِّ، ثمَّ يتأكَّدَ حالَ النَّومِ بأحوالِ اليَقَظةِ؛ فحينَئذٍ لا يَهجُمُ هذا التَّكليفُ دَفعةً واحِدةً، بل شَيئًا فشَيئًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى جعَلَ رُؤيا الأنبياءِ عليهم السَّلامُ حَقًّا؛ قال اللهُ تعالى في حَقِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال عن يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقال في حَقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، والمقصودُ مِن ذلك تَقويةُ الدَّلالةِ على كَونِهم صادِقينَ؛ لأنَّ الحالَ إمَّا حالُ يَقَظةٍ وإمَّا حالُ مَنام، فإذا تظاهَرَت الحالتانِ على الصِّدقِ كان ذلك هو النِّهايةَ في بَيانِ كَونِهم مُحقِّينَ صادِقينَ في كُلِّ الأحوالِ(٢).

الوَجهُ الثَّالِثُ: إنَّما كان في المنامِ في هذا الأمرِ الخَطِرِ جِدًّا؛ لِيُعلَمَ وُثوقُ الأنبياءِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٩).

عليهم السَّلامُ بما يأتيهم عن اللهِ في كُلِّ حالٍ(١).

١١- في قَولِ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ والقِصَّةِ جماعةٌ مِن عُلَماءِ الأُصولِ على صِحَّةِ النَّسخِ قبْلَ التَّمَكُّنِ مِن الفِعلِ، خِلافًا لطائفةٍ مِن المُعتزِلةِ، والدَّلالةُ مِن هذه ظاهِرةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى شَرَع لإبراهيمَ ذَبْحَ ولَدِه، ثمَّ نسَخَه عنه وصَرَفه إلى الفِداءِ، وإنَّما كان المقصودُ مِن شَرْعِه أوَّلًا إثابةَ الخليلِ على الصَّبرِ على ذَبحِ ولَدِه، وعَزمِه على ذلك(٢).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ الحِكمةُ في مُشاوَرةِ الابنِ في هذا البابِ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أن يُطلِعَ ابنَه على هذه الواقِعةِ؛ لِيَظهَرَ له صَبرُه في طاعةِ اللهِ، فتَكونَ فيه قُرَّةُ عينٍ لإبراهيمَ؛ حيثُ يراه قد بلَغَ في الحِلمِ إلى هذا الحَدِّ العَظيمِ، وفي الصَّبرِ على أشَدِّ المكارِهِ إلى هذه الدَّرَجةِ العاليةِ، ويَحصُلَ للابنِ الثَّوابُ العَظيمُ في الآخِرةِ، والثَّناءُ الحَسَنُ في الدُّنيا(٣).

الوَجهُ الثَّاني: أن يُصَبِّرَه إن جَزِعَ، ويُوطِّنَ نَفْسَه على مُلاقاةِ هذا البَلاءِ، وتَسكُنَ نَفْسُه لِما لا بُدَّ منه؛ إذ مُفاجَأةُ البلاءِ قبْلَ الشُّعورِ به أصعَبُ على النَّفْسِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠).

ويُنظر أيضًا: ((أصول السَّرَخْسي)) (٢/ ٦٣- ٦٥)، ((كشف الأسرار)) لعلاء الدين البخاري (٣/ ١٦٩- ١٧٤)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٢٦ - ٢٢٨).

ويُنظر في الاعتراضِ على هذه الفائدةِ: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦).

الوجه الثَّالث: لِيَكتسِبَ المَثوبةَ بالانقيادِ لأمرِ الله قبْلَ نزولِه[١].

الوَجهُ الرابع: لِتَكونَ سُنَّةً في المُشاوَرةِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ أنَّه يجوزُ امتِحانُ الشَّخصِ بما لا يُؤخَذُ رأيُه فيه، ولكِنْ للاستِعلامِ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُريدُ أنْ يَنظُرَ إلى ابنِه؛ إنْ قال: لا تذبَحْني، تَرَكَ الذَّبْحَ! بل يريدُ أنْ يَعرِفَ مدى قَبولِه واستِعدادِه؛ فيَكونَ في هذا تَوريةٌ، والتَّوريةُ لا شَكَّ أنَّها جائِزةٌ للاستِعلامِ والاستِخبارِ[٣].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فيه أنَّ رُؤْيا الأنبياءِ وَحيٌ[٤]؛ فإنَّها معصومةٌ مِن الشَّيطانِ، وهذا باتِّفاقِ الأمَّةِ، ولهذا أقدَمَ الخليلُ على ذَبْحِ ابنِه إسماعيلَ عليهما السَّلامُ بالرُّؤيا، وأمَّا رُؤيا غيرِهم فتُعرَضُ على الوحيِ الصَّريحِ، فإنْ وافَقَتْه وإلَّا لم يُعمَلْ بها[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ أنَّ الخَبرَ قد يكونُ بمعنى الأمرِ؛ لأنَّ هذه الرُّؤيا بمَنزلةِ الخَبرِ؛ حيثُ لم يُقَلْ له في الرُّؤيا: اذبَحْ ولدَك، بل رأى نَفْسَه يَذبَحُ الولَدَ -على أحدِ المعنيَينِ في تأويلِ الآيةِ-، ولكِنَّ الخبَرَ قد يكونُ بمعنى الأمرِ، وهل يَحتاجُ إلى قرينةٍ في هذا أمْ لا؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٢).

قال ابن جرير: (لم يكُنْ ذلك منه مُشاورةً لابنِه في طاعةِ اللهِ، ولكِنَّه كان منه لِيَعلَمَ ما عندَ ابنِه مِن العَزمِ: هل هو مِن الصَّبرِ على أمرِ اللهِ على مِثلِ الَّذي هو عليه فيُسَرَّ بذلك، أمْ لا؟ وهو في الأحوالِ كُلِّها ماضٍ لأمرِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٢، ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((صحيح البخاري)) عقب حديث (١٣٨)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٧٥).

الجوابُ: نعم، يَحتاجُ إلى قَرينةٍ؛ لأنَّ الأصلَ في الخبَرِ أنَّه لا يدُلُّ على الطَّلَبِ، ولكِنْ إذا وُجِدَتْ قرينةٌ تقتضي ذلك كان أمرًا[1].

١٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ﴾ لَمَّا كان خِطابُ الأبِ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ على سَبيلِ التَّرحُّمِ، قال هو: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ على سَبيلِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ[2].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ فَضيلةُ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيثُ استَسْلَما لأمرِ اللهِ في هذا الأمرِ العَظيمِ الَّذي لا يُقدِمُ عليه إلَّا أمثالُهما، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن مَناقِبِهما[3].

١٨- أنَّ الشَّارعَ قد يَأمُرُ بشَيءٍ لِيَمتَحِنَ العبدَ هل يُطيعُه أم يَعصيه، ولا يكونُ المرادُ فِعلَ المأمورِ به، كما أُمِر إبراهيمُ بذَبحِ ابنِه، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ حَصَلَ المَقصودُ ففَداه بالذِّبْحِ، وكذلك حديثُ: الأبرصِ والأقرعِ والأعمى؛ لَمَّا بَعَثَ اللهُ إليهم مَن سألَهم الصَّدَقةَ، فلمَّا أجابَ الأعمى قال المَلَكُ: ((أمسِكْ مالَك؛ فإنَّما ابتُليتُم، فقد رَضيَ اللهُ عنك، وسَخِطَ على صاحِبَيْك))[4]؛ فالحِكمةُ مَنشَؤُها مِن نَفْسِ الأمرِ، لا مِن نَفْسِ المأمورِ به[5].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أي: يا إبراهيمُ، قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا؛ وأنَّه بصَوتٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، وبحرفٍ؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٤) واللفظ له، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٣٦).

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى آخِرِه[١].

٢٠- الإنسانُ إذا قَصَدَ العَمَلَ وسَعى إليه كُتِبَ له أجْرُه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾، مع أنَّه لم يَذْبَحْ، لكِنَّه فَعَل ما أُمِرَ به، ولم يَبْقَ إلَّا أنْ يُنَفِّذَه[٢].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ مع أنَّ تَصديقَها إنما يكونُ بالذَّبحِ، ولم يُوجَدْ؟

الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ معناه: قد فَعلْتَ ما في غايةِ وُسْعِك ممَّا يَفعَلُه الذَّابحُ؛ مِن إلقاءِ وَلَدِك، وإمرارِ المُدْيةِ على حَلْقِه، ولكنَّ اللهَ منَعَها أنْ تَقطَعَ.

الثاني: أنَّ الَّذي رآه في النَّومِ مُعالَجةُ الذَّبحِ فقط، لا إراقةُ الدَّمِ، وقد فعَلَ ذلك في اليَقَظةِ؛ فكان مُصدِّقًا للرُّؤيا[٣].

الثَّالث: أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ صدَّقَ الرُّؤيا إلى أنْ نَهاهُ اللهُ عن إكمالِ مِثالِها؛ فأُطلِقَ على تَصديقِه أكثَرَها أنَّه صدَّقَها[٤].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ أنَّ التَّصديقَ إنَّما يَتِمُّ بأمْرَينِ؛ أحدُهما: اعتِقادُ الصِّدْقِ، والثَّاني: محبَّةُ القَلبِ وانقيادُه؛ فإبراهيمُ كان مُعتَقِدًا لِصِدقِ رُؤياه مِن حينِ رآها؛ فإنَّ رُؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ، وإنَّما جَعَلَه مُصَدِّقًا لها بعدَ أنْ فعَلَ ما أُمِرَ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٢، ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٥٠).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ كُلَّ مُحسِنٍ فإنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ له مِن كُلِّ همٍّ فَرَجًا، ويَكتُبُ له أجرَ العبادةِ وإنْ لم يَفعَلْها، إذا سَعَى في أسبابِها(١).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فكما أحسَنَ في عبادةِ اللهِ أحسَنَ اللهُ إليه، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ (الرَّحمنِ): ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، يعني: ما جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ، وبهذا يَتبيَّنُ لك كَمالُ فَضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أحسَنَ إليك أوَّلًا بتوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثُمَّ أحسَنَ إليك ثانيًا بالجَزاءِ عليه(٢).

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ قِصَّةُ الذَّبيحِ هذه تُؤيِّدُ أحَدَ القَولَينِ المَشهورَينِ عندَ أهلِ الأُصولِ في حِكمةِ التَّكليفِ: هل هي للامتِثالِ فقط، أو هي مُترَدِّدةٌ بيْنَ الامتِثالِ والابتِلاءِ؟ لأنَّه بيَّنَ في هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ حِكمةَ تكليفِه لإبراهيمَ بذَبحِه ولَدَه ليست هي امتِثالَه ذلك بالفِعلِ؛ لأنَّه لم يُرِدْ ذَبْحَه كَونًا وقَدَرًا، وإنَّما حِكمةُ تكليفِه بذلك مُجَرَّدُ الابتِلاءِ والاختِبارِ: هل يُصَمِّمُ على امتِثالِ ذلك أو لا؟ كما صَرَّح بذلك في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾؛ فتبيَّنَ بهذا أنَّ التَّحقيقَ أنَّ حِكمةَ التَّكليفِ مُتَرَدِّدةٌ بيْنَ الامتِثالِ والابتِلاءِ(٣).

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ بيانُ أنَّ رَفْعَ الذَّبحِ عن الابنِ جُعِلَ له مُقابِلٌ لِتَكميلِ التَّنفيذِ والامتِثالِ؛ وذلك بأنْ أُمِرَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٨).

والسَّلامُ بأنْ يَذْبَحَ فِداءً عن ابنِه، ويكونَ هذا الذِّبْحُ -أي: المذبوحُ- عَظيمًا؛ فلهذا قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: أمَرْناه أنْ يَذبحَ ذِبْحًا عَظيمًا؛ فِداءً له[1].

٢٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ احتجَّ قَومٌ من العُلَماءِ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن نذَرَ ذَبحَ ولَدِه لَزِمَه ذَبْحُ شاةٍ، وأنكرَ غَيرُهم هذا الاستِدلالَ، ورَأَوْا أنَّ نَذْرَ ذَبحِ الوَلَدِ مَعصيةٌ؛ فلا يكونُ فيه فِداءٌ، بخِلافِ ذَبحِ إبراهيمَ لِوَلَدِه؛ فإنَّه كان مُمتَثِلًا لأمرِ اللهِ تعالى فيه، ثمَّ فداه اللهُ تعالى بالذِّبحِ تفضُّلًا منه، والفَرْقُ بيِّنٌ[2].

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فُسِّرَ الذِّبحُ في الأحاديثِ والآثارِ بكَبشٍ؛ فاستدَلَّ به المالكيَّةُ على أنَّ الغَنَمَ في الضَحيَّةِ أفضَلُ مِن الإبِلِ[3].

وفي الحديثِ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه، قال: ((ضحَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بكَبْشَينِ أمْلَحَينِ[4] أقْرَنَينِ[5]، ذبَحَهما بيَدِه، وسَمَّى وكَبَّرَ، ووضَع رِجْلَه على صِفاحِهما[6]))[7].

٢٩- لَطيفةٌ: مَنْصِبُ الخُلَّةِ مَنصِبٌ لا يَقْبَلُ المزاحَمةَ بغيرِ المحبوبِ، ولمَّا أَخَذ الولَدُ شُعبَةً مِن شِعَابِ القَلبِ؛ أمَرَ الله تعالى إبراهيمَ عليه السَّلامُ بذَبحِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفَرَس (٣/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨). ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٣/ ٣٨).

(٤) الأمْلَح: هو الَّذي فيه بَياضٌ وسَوادٌ، والبياضُ أكثَرُ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٧٠) و (١٣/ ١٢٠).

(٥) أقرنَين: أي: لكلِّ واحدٍ منهما قَرْنانِ حسَنان. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١٢٠).

(٦) صِفاحِهما: أي: صفحةِ العُنُقِ، وهي جانِبُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١٢١).

(٧) رواه البخاري (٥٥٦٥)، ومسلم (١٩٦٦).

فلمَّا أَسلَمَ للامتِثالِ خرَجَتْ تلك المُزاحَمةُ، وخَلَصَتِ المحبَّةُ لأهلِها، فجاءَتْه البُشرى ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾، ليس المرادُ أنْ يُعذَّبَ، ولكِنْ يُبْتَلى لِيُهَذَّبَ. ليس العَجَبُ مِن أمرِ الخَليلِ بذَبحِ الولَدِ، إنَّما العَجَبُ مِن مُباشرةِ الذَّبحِ بيَدِه، ولولا الاستِغراقُ في حُبِّ الآمِرِ لَمَا هانَ مِثلُ هذا المأمورِ؛ فلذلك جُعِلَتْ آثارُها مَثابةً للقلوبِ تَحِنُّ إليها أعظَمَ مِن حنينِ الطُّيورِ إلى أوكارِها[١].

٣٠- قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فُهِمَ مِن ذِكرِ المُحسِنينَ أنَّ الجزاءَ إحسانٌ بمِثلِ الإحسانِ، فصار المعنى: إنَّا كذلك الإحسانِ العظيمِ الَّذي أحسَنْتَه نَجْزي المحسِنينَ، فهذا وَعدٌ بمَراتبَ عَظيمةٍ مِن الفضْلِ الرَّبَّانيِّ، وتضمَّن وَعْدَ ابنِه بإحسانٍ مِثلِه مِن جِهَةِ نَوطِ الجَزاءِ بالإحسانِ، وقد كان إحسانُ الابنِ عَظيمًا ببَذْلِ نَفْسِه[٢].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الثَّناءُ على إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهذينِ الوَصفَينِ، وهما: العُبوديَّةُ والإيمانُ، ويَتفرَّعُ على ذلك: أنَّ مَنِ اتَّصفَ بالعُبوديَّةِ والإيمانِ نالَه مِن الثَّناءِ بقَدْرِ ما اتَّصَفَ به منهما؛ فكُلَّما كان الإنسانُ للهِ أعبَدَ، وبه آمَنَ؛ كان الثَّناءُ عليه أكثَرَ وأعظَمَ، ولا تَغترَّ بما تُلاقيه في الدُّنيا مِن مُجابَهاتٍ؛ فإنَّ هذا قد يَرِدُ، ولكِنْ يكونُ امتِحانًا وابتلاءً واختِبارًا، ويكونُ الثَّناءُ ولو بعدَ مَوتِ الإنسانِ؛ فكم مِن أئمَّةٍ مِن هذه الأُمَّةِ أُوذوا في حياتِهم؟! ولكِنْ بعدَ مماتِهم صار جزاءُ هذه الأذيَّةِ أنَّ اللهَ تعالى رَفَع لهم الذِّكرَ، وصارتِ العاقِبةُ لهم والثَّناءُ الحَسَنُ بعدَ مَماتِهم، والشَّواهدُ على ذلك كَثيرةٌ[٣].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فَضيلةُ العُبوديَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) يُنظر: ((المدهش)) لابن الجوزي (ص: ٨٦، ٨٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٨).

والإيمانِ به؛ لأنَّه لا شَكَّ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثَّناءُ عليه(١).

٣٣- قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ البِشارةُ ورَدَت مَرَّتينِ: مرَّةً في قَولِه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ فهذه الآيةُ قاطِعةٌ في أنَّ المُبَشَّرَ به هو الذَّبيحُ؛ ومرَّةً في قَولِه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] الآيةَ. قد صَرَّح فيها أنَّ المبشَّرَ به إسحاقُ، ولم يكُنْ مِن سُؤالِ إبراهيمَ، بل قالت امرأتُه إنَّها عَجوزٌ، وإنَّه شَيخٌ، وكان ذلك في الشَّامِ، لَمَّا جاءت الملائكةُ إليه؛ بسَبَبِ قَومِ لُوطٍ، وهو في أواخِرِ أمْرِه، وأمَّا البِشارةُ الأُولى لَمَّا انتَقَل مِن العِراقِ إلى الشَّامِ حينَ كان سِنُّه لا يُسْتغرَبُ فيه الوَلَدُ؛ ولذلك سأله، فعَلِمْنا بذلك أنَّهما بِشارتانِ في وَقتَينِ بغُلامينِ: أحَدُهما بغيرِ سُؤالٍ، وهو إسحاقُ، صَريحًا. والثَّانيةُ: قبْلَ ذلك بسُؤالٍ، وهو غيْرُه، فقَطَعْنا بأنَّه إسماعيلُ، وهو الذَّبيحُ(٢).

٣٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في ذِكرِ الصَّلاحِ بعدَ النُّبُوَّةِ تعظيمٌ لِشأنِه، وإيماءٌ بأنَّه الغايةُ لها؛ لتَضمُّنِها معنَى الكَمالِ والتَّكميلِ(٣).

٣٥- ذَكَر اللهُ تعالى لنا في القُرآنِ بَرَكَتَه على إسحاقَ، في مِثلِ قَولِه تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾، مُنبِّهًا لنا على ما حصَلَ في أولادِه مِن نُبُوَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ وغَيرِه، وما أُوتُوه مِنَ الكِتابِ والعِلمِ، مُستَدعيًا مِن عبادِه الإيمانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨٨).

بذلك والتَّصديقَ به، وألَّا يُهمِلوا مَعرِفةَ حُقوقِ هذا البَيتِ المبارَكِ، وأهلِ النُّبوَّةِ منهم، ولا يَقولَ القائِلُ: هؤلاء أنبياءُ بني إسرائيلَ لا تَعلُّقَ لنا بهم! بل يجِبُ علينا احترامُهم وتوقيرُهم والإيمانُ بهم، ومَحبَّتُهم ومُوالاتُهم والثَّناءُ عليهم -صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم أجمَعينَ[(١)].

٣٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه وَعيدٌ لليَهودِ ومَن كان مِن ذُرِّيَّتِهما لم يُؤمِنْ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٢)].

٣٧- قال الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ في هذه التَّكمِلةِ إبطالُ غُرورِ المُشرِكينَ بأنَّهم مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[(٣)].

٣٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ لعَلَّ هذا مِن بابِ دَفعِ الإيهامِ؛ فإنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ اقتضى ذلك البَرَكةَ في ذُرِّيَّتِهما، وأنَّ مِن تمامِ البَرَكةِ: أن تَكونَ الذُّرِّيَّةُ كُلُّهم مُحسِنينَ، فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ مِنهم مُحسِنًا وظالِمًا[(٤)].

٣٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ دخَلَ تحتَ قَولِه: ﴿مُحْسِنٌ﴾ الأنبياءُ والمؤمِنونَ، وتحت قَولِه: (ظَالِمٌ) الكافِرُ والفاسِقُ. واللهُ أعلَمُ[(٥)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥١).

- أجْرى إبراهيمُ عليه السَّلامُ كَلامَه، وبتَّ القَولَ بأنَّ ربَّهُ سيَهْديه؛ جَريًا على سَنَنِ مَوعِدِ ربِّه، أو بناءً على عادةِ اللهِ تَعالى معه في هِدايَته وإرْشادِه، أو أظهَرَ بذلك تَوكُّلَه وتَفْويضَه أمْرَه إلى اللهِ؛ لأنَّه أرادَ إعلامَ قَومِه بأنَّه واثِقٌ برَبِّه، وأنَّه لا تردُّدَ له في مُفارَقَتِهم. ورُبَّما كان مَعْناهُ: إنِّي ذَاهِبٌ إلى حيثُ أمَرَني ربِّي، وهي المُهاجَرةُ للشَّامِ، أو إلى طاعةِ ربِّي ورضاهُ. وقَولُه: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ أي: سيُثَبِّتُني على هُداي، ويَزيدُني هُدًى، ولم يَكُنْ كذلك حالُ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث قصَدَ الرَّجاءَ والطَّمَعَ، فقال حينَ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]؛ فلذلك ذُكِرَ بصِيغةِ التَّوقُّعِ[١].

وقيل: إنَّ العَبدَ إذا تجلَّى له مَقاماتُ رَحمةِ اللهِ، فقد يَجزِمُ بحُصولِ المقصودِ، وإذا تجلَّى له مَقاماتُ كَونِه غَنيًّا عن العالَمينَ، فحينَئذٍ يَستَحقِرُ نَفْسَه، فلا يجزِمُ، بل لا يُظهِرُ إلَّا الرَّجاءَ والطَّمعَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾

- الفاءُ في ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ للتَّعقيبِ، فإنْ كان اللهُ بشَّرَ إبراهيمَ بأنَّه يُولَدُ له ولَدٌ، أو يُوجَدُ له نَسْلٌ عقِبَ دُعائِه -كما هو الظَّاهرُ-؛ فالتَّعقيبُ على ظاهِره، وإنْ كان اللهُ بشَّرَه بغُلام بعْدَ ذلك حِينَ حمَلَتْ منه هاجرُ جاريتُه بعْدَ خُروجِه بمُدَّةٍ طويلةٍ؛ فالتَّعقيبُ نِسبيٌّ، أي: بشَّرْناه حينَ قدَّرْنا ذلك أوَّلَ بِشارةٍ بغُلام، فصار التَّعقيبُ آيِلًا -أي: عائِدًا وراجِعًا- إلى المُبادَرةِ، كما يُقالُ: تَزوَّجَ فوُلِدَ له[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩). =

- في قَولِه: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ إيجازُ قِصَرٍ[١]؛ فقدِ انطَوَتْ هذه البِشارةُ المُوجَزةُ على ثَلاثٍ: أنَّ الوَلَدَ ذَكَرٌ، وأنَّه يَبلُغُ أوانَ الحُلْمِ (أي: البلوغ)، وأنَّه يكونُ حليمًا، وأيُّ حِلمٍ أدَلُّ على ذلك مِن حِلمِه حينَ عَرَض عليه أبوهُ الذَّبحَ فلم يَضطَرِبْ، ولم يَتخاذَلْ، ولم يَعتَرِضْ على مَشيئةِ أبيه، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، ثمَّ استَسْلَم لذلك، ولم يكُنْ لِيَدورَ له في خَلَدِه أنَّ اللهَ سيَفْديه، وسيُهيِّئُ له كَبْشَ الفِداءِ[٢]!

- وهذا الغُلامُ الَّذي بُشِّرَ به إبراهيمُ هنا هو إسماعيلُ ابنُه البِكْرُ، وهذا غيرُ الغلامِ الَّذي بشَّرَه به الملائكةُ الَّذين أُرْسِلوا إلى قَومِ لُوطٍ في قولِه تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣]، وقولِه: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ

= والقاعدة: أنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه. يُنظر: ((شرح قطر الندى وبل الصدى)) لابن هشام (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٢، ٤٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٢٤).

(١) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ من الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغةِ كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه، مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقَتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قَتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ: وهو حذفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشيق (١/ ٢٤٢)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٨).

وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وهو إسحاقُ عليه السلامُ، فذلك وُصِفَ بأنَّه عليمٌ، نَظَرًا لِشَرَفِ العِلمِ، وهذا وُصِفَ بـ ﴿حَلِيمٍ﴾ لِمُناسبَتِه حِلمَ إسماعيلَ عليه السلامُ؛ لِوَعدِه بالصَّبرِ في جَوابِه لسُؤالِ أبيه له في ذَبحِه بقَولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وأيضًا ذلك كانت البِشارةُ به بمَحضرِ سارةَ أُمِّه، وقد جُعِلَت هي المُبشَّرةَ في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ * قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود: ٧٢]، فتلك بِشارةُ كَرامةٍ، والأُولى بِشارةُ استجابةِ دُعائِه، فلمَّا وُلِدَ له إسماعيلُ تحقَّقَ أمَلُ إبراهيمَ أنْ يكونَ له وارِثٌ مِن صُلبِه، فالبِشارةُ بإسماعيلَ لمَّا كانت عَقِبَ دُعاءِ إبراهيمَ أنْ يَهَبَ اللهُ له مِن الصَّالِحينَ، عُطِفت هنا بفاءِ التَّعْقيبِ، وبِشارَتُه بإسْحاقَ ذُكِرَت في هذه السُّورةِ مَعْطوفةً بالواوِ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

- الفاءُ في ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها مُفْصِحةٌ عن مُقدَّرٍ، تَقديرُه: فوُلِدَ له ويَفَعَ وبلَغَ السَّعيَ، فلمَّا بلَغَ السَّعيَ، قال: يا بُنَيَّ... إلخ[2] وحُذِف هذا المقدَّرُ؛ تعويلًا على شَهادةِ الحالِ، وإيذانًا بعَدَمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ به؛ لاستحالةِ التَّخلُّفِ والتَّأخُّرِ بعْدَ البِشارةِ[3].

- قَولُه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: بلَغَ إسماعيلُ سِنَّ السَّعيِ مع أبيه

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩، ٢٠٠).

إبراهيمَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقيل: لما قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: القدرةَ على أنْ يسعَى. فقِيل: معَ مَن يَسعَى؟ فقِيل: معَ أبيه. والفائدةُ في التَّكريرِ: التَّأكيدُ، والمُبالَغةُ في استِصْحابِه إيَّاه كأنَّه بلَغَ معه، واستَكْمَلَ في أخْلاقِه مِن بَدءِ حالِه، واختِصاصُ الأبِ بالمَعيَّةِ؛ لأنَّه أرفَقُ النَّاسِ بابْنِه، وأعطَفُهم عليه في الاستِصْلاحِ، وغَيْرُه رُبَّما عَنَّفَ به في الاستِسْعاءِ فلا يَحتمِلُه؛ لأنَّه لم تَستحكِمْ قُوَّتُه، ولم يَصلُبْ عُودُه، والمُرادُ: أنَّه على غَضاضةِ سِنِّه، وتَقلُّبِه في حدِّ الطُّفولةِ، كان فيه مِن رَصانةِ الحِلمِ، وفُسحةِ الصَّدرِ ما جسَّرَه على احتِمالِ تلك البَليَّةِ العَظيمةِ، والإجابةِ بذلك الجَوابِ الحَكيمِ: أُتِيَ في المَنامِ فقيلَ له: اذْبَحِ ابْنَكَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ورُؤْيا الأنبياءِ وَحيٌ كالوَحيِ في اليَقَظةِ؛ فلهذا قال لابْنِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ على سبيلِ التَّرحُّمِ، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ فذَكَرَ تَأْويلَ الرُّؤْيا، كما يقولُ المُمتَحَنُ -وقد رَأى أنَّه راكِبٌ في سَفينةٍ-: رأيتُ في المَنامِ أنِّي ناجٍ مِن هذه المِحْنةِ[1].

- والنِّداءُ في قَولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ نِداءُ شَفَقةٍ وتَرحُّمٍ[2].

- قيل: إنَّما ذُكِرَ بلَفظِ المضارِعِ ﴿أَرَىٰ﴾؛ لِتكرُّرِ الرُّؤيا، وقيل: لاستحضارِ الصورةِ الماضيةِ لنوعِ غرابةٍ[3].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فاءُ تَفريعٍ، أو فصيحةٌ مُعرِبةٌ عن مُقدَّرٍ قد حُذِفَ؛ أي: إذا عَلِمْتَ هذا فانظُرْ ماذا ترى[4]؟

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((فتح الرحمن))

- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ فيه ابتداءُ الجوابِ بالنِّداءِ، واستِحضارُ المُنادى بوَصْفِ الأُبُوَّةِ، وإضافةُ الأبِ إلى ياءِ المتكلِّمِ المُعوَّضِ عنها التَّاءُ، المُشعِرُ تَعويضُها بصِيغةِ تَرقيقٍ وتَحَنُّنٍ، وفي قولِه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ تَعظيمٌ وتَوقيرٌ لأبيهِ[1].

- والتَّعبيرُ عن الذَّبحِ بالموصولِ -وهو ﴿مَا تُؤْمَرُ﴾- دونَ أنْ يقولَ: اذْبَحْني، يُفيدُ وَحْدَه إيماءً إلى السَّببِ الَّذي جعَلَ جوابَه امْتثالًا لِذَبْحِه. وصِيغةُ الأمْرِ في قَولِه: ﴿ٱفْعَلْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإذْنِ، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: اذْبَحْني، إلى ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ للجمْعِ بيْن الإذنِ وتَعليلِه، أي: أذِنْتُ لك أنْ تَذْبَحني؛ لأنَّ اللهَ أمَرَك بذلك؛ ففيه تَصديقُ أبيه، وامتثالُ أمْرِ اللهِ فيه[2].

- وحُذِفَ المُتعلَّقُ بفِعلِ ﴿تُؤْمَرُ﴾؛ لِظُهورِ تَقديرِه، أي: ما تُؤمَرُ به. وبقِيَ الفِعلُ كأنَّه مِن الأفعالِ المُتعدِّيةِ، وهذا الحذْفُ يُسمَّى بالحذفِ والإيصالِ[3].

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿تُؤْمَرُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَ مُتعلِّقٌ به، مُتوجِّهٌ إليه، مُستمِرٌّ إلى حِينِ الامتثالِ به[4]، وقيل: للإيذانِ بغرابةِ ذلك، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما قاله لم يكُنْ إلَّا عن حلمٍ غيرِ مشوبٍ بجهلٍ بحالِ المأمورِ به، وقيل: لتكرُّرِ الرُّؤْيا، وقيل غيرُ ذلك[5].

- قولُه: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ لم يَقُلْ: يا أبتِ لا مانعَ عِندي، بل قال: ﴿ٱفْعَلْ﴾؛ فحَثَّه

للأنصاري (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١، ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٤).

على أنْ يَفعَلَ. ولم يقُلْ: افعَلْ ما رأيْتَ، بل قال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ حثًّا لإبراهيمَ على أنْ يَفعَلَ؛ لأنَّه إذا ذكَّرَه أنَّ هذا أمْرُ اللهِ، فإنَّه يَزيدُه قُوَّةً في تَنفيذِ هذا الأمْرِ؛ لأنَّ إسماعيلَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- خاف أنْ تُدرِكَ إبراهيمَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- رَحمةُ الولَدِ، فيُراجِعَ اللهَ عزَّ وجلَّ في ذلك، فأشار عليه أنْ يُبادِرَ بفِعلِ ما أُمِرَ به (افْعَلْ)، ولم يقُلْ: ما رأيتَ؛ لِيَكونَ هذا أشدَّ حثًّا لإبراهيمَ على الإقدامِ[1].

- وجُملةُ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ جوابٌ، والجُمَلُ الَّتي قبْلَها تَمهيدٌ لهذا الجوابِ؛ فإنَّ إسماعيلَ عليه السَّلامُ بعْدَ أنْ حثَّ أباهُ على فِعلِ ما أُمِرَ به، وَعَدَه بالامتثالِ له، وبأنَّه لا يَجزَعُ ولا يَهلَعُ، بل يكونُ صابرًا، وفي ذلك تَخفيفٌ مِن عِبْءِ ما عسَى أنْ يَعرِضَ لأبيهِ من الحُزْنِ؛ لِكَونِه يُعامِلُ ولَدَه بما يَكرَهُ، وقد قرَنَ وَعْدَه بقولِه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ استِعانةً على تَحقيقِه. وفي قَولِه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ من المُبالَغةِ في اتِّصافِه بالصَّبرِ ما ليس في الوصفِ بـ(صابرٍ)؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّه سيَجِدُه في عِدادِ الَّذين اشتُهِروا بالصَّبرِ وعُرِفوا به[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾

- جوابُ (لَمَّا) مَحذوفٌ -على قولٍ-؛ إيذانًا بعَدَمِ وَفاءِ التَّعبيرِ بتَفاصيله؛ كأنَّه قيل: كانَ ما كانَ ممَّا لا يُحيطُ به نِطاقُ البَيانِ من استِبْشارِهما، وشُكْرِهما للهِ تعالَى على ما أنْعَمَ به عليهما مِن دَفْعِ البلاءِ بعْدَ حُلولِه، والتَّوفيقِ لِمَا لم يُوفَّقْ أحدٌ لِمِثلِه، وإظهارِ فَضْلِهما بذلك على العالَمينَ، مع إحرازِ الثَّوابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢).

العظيمِ... إلى غيرِ ذلك[1]. وقيل: جوابُ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، وإنَّما جِيءَ به في صُورةِ العطْفِ؛ إيثارًا لِمَا في ذلك مِن مَعنى القصَّةِ على أنْ يكونَ جوابًا؛ لأنَّ الدَّلالةَ على الجوابِ تَحصُلُ بعَطْفِ بعضِ القصَّةِ دونَ العكْسِ، وحَذْفُ الجوابِ في مِثلِ هذا كثيرٌ في القُرآنِ، وهو مِن أساليبِه[2].

- قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: انْقادَا وخضَعَا، وحُذِفَ المُتعلَّقُ؛ لِظُهورِه مِن السِّياقِ، أي: أسْلَمَا لِأمْرِ اللهِ[3].

- وقيل: دلَّ على السُّرعةِ باللَّامِ الواقعةِ مَوقعَ (على) في قولِه: ﴿لِلۡجَبِينِ﴾[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ثَناءٌ مِن اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ بمُبادَرتِه لامتثالِ الأمْرِ، ولم يَتأخَّرْ، ولا سأَلَ مِنَ اللهِ نسْخَ ذلك[5].

- قولُه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّ نِداءَ اللهِ إيَّاهُ تَرْفيعٌ لِشَأْنِه، فكان ذلك النِّداءُ جَزاءً على إحسانِه، أي: مِثلَ عَظَمةِ ذلك التَّصديقِ نَجْزي جَزاءً عظيمًا للمُحسِنينَ، أي: الكامِلينَ في الإحسانِ، أي: وأنتَ منْهم[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٦).

- ولِمَا يَتضمَّنُه لَفظُ الجَزاءِ مِن مَعنى المُكافأةِ ومُماثَلةِ المَجْزيِّ عليه، عَظَّمَ شأْنَ الجزاءِ بتَشبيهِه بمُشبَّهٍ مُشارٍ إليه بإشارةِ البعيدِ، المُفيدِ بُعدًا اعتباريًّا، وهو الرِّفعةُ وعِظَمُ القَدْرِ في الشَّرفِ، فالتَّقديرُ: إنَّا نَجْزي المُحسِنينَ جَزاءً كذلك الإحسانِ الَّذي أحسَنْتَ به بتَصديقِك الرُّؤيا، مُكافأةً على مِقدارِ الإحسانِ؛ فإنَّه بَذَلَ أعزَّ الأشياءِ عليه في طاعةِ ربِّه، فبَذَلَ اللهُ إليه مِن أحسَنِ الخَيراتِ الَّتي بيَدِه تعالى، فالمُشبَّهُ والمُشبَّهُ به مَعقولانِ؛ إذ ليس واحدٌ منهما بمُشاهَدٍ، ولكنَّهما مُتخيَّلانِ بما يتَّسِعُ له التَّخيُّلُ المعهودُ عندَ المُحسِنينَ ممَّا يَقْتَضيهِ اعتقادُهم في وَعْدِ الصَّادقِ مِن جزاءِ القادرِ العظيم. ولِمَا أفاد اسمُ الإشارةِ مِن عَظَمةِ الجزاءِ، أُكِّدَ الخبَرُ بـ (إنَّ)؛ لِدَفْعِ تَوهُّمِ المُبالَغةِ، أي: هو فوقَ ما تَعْهَدُه في العَظَمةِ، وما تُقدِّرُه العُقولُ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ تأْكيدٌ لِمَا قبْلَها، أي: هذا التَّكليفُ الَّذي كلَّفْناك هو الاختبارُ البيِّنُ، أي: الظَّاهرُ دَلالةً على مَرتبةٍ عظيمةٍ مِن امتثالِ أمْرِ اللهِ. وجُملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ في مَحلِّ العِلَّةِ لِجُملةِ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فيه وصْفُ الذِّبحِ بأنَّه عظيمٌ، أي: شرُفَ قَدْرُ هذا الذِّبحِ؛ وهو أنَّ اللهَ فَدَى به ابنَ رسولٍ، وأبْقى به مَن سيَكونُ رَسولًا، فعِظَمُه بعِظَمِ أثَرِه، ولأنَّه سخَّرَه اللهُ لإبراهيمَ في ذلك الوقتِ وذلك المكانِ. أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤، ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٥٥).

وُصِفَ الذِّبحُ بأنَّه عظيمٌ؛ لأنَّه مُتقبَّلٌ يَقينًا[(١)]. وقيل غيرُ ذلك.

- وقد أشارتْ هذه الآياتُ إلى قِصَّةِ الذِّبيحِ، ولم يُسَمِّه القُرآنُ، لعلَّه لئلَّا يُثيرَ خِلافًا بيْن المسلِمينَ وأهلِ الكتابِ في تَعيينِ الذَّبيحِ مِن وَلَدَيْ إبراهيمَ، وكان المَقصدُ تألُّفَ أهلِ الكتابِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم في الاعترافِ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَصديقِ القرآنِ، ولم يكُنْ ثَمَّةَ مَقصدٌ مُهِمٌّ يَتعلَّقُ بتَعيينِ الذَّبيحِ، ولا في تَخطئةِ أهلِ الكتابِ في تَعيينِه، وأمارةُ ذلك: أنَّ القُرآنَ سمَّى إسماعيلَ عليه السَّلامُ في مَواضعَ غيرِ قِصَّةِ الذَّبحِ، وسمَّى إسحاقَ عليه السَّلامُ في مَواضعَ، ومنها بِشارةُ أُمِّه على لِسانِ الملائكةِ الَّذين أُرسِلوا إلى قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، وذكَرَ اسْمَيْ إسماعيلَ وإسحاقَ عليهما السَّلامُ أنَّهما وُهِبَا لإبراهيمَ عليه السَّلامُ على الكِبَرِ، ولم يُسَمِّ أحدًا في قِصَّةِ الذَّبحِ؛ قَصْدًا للإبهامِ مع عَدَمِ فَواتِ المقصودِ مِن الفضْلِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن القِصَّةِ التَّنويهُ بشأْنِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فأيُّ ولَدَيْه كان الذَّبيحَ كان في ابتلائه بذَبْحِه وعَزْمِه عليه، وما ظهَرَ في ذلك مِن المعجزةِ؛ تَنويهٌ عَظيمٌ بشَأْنِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[(٢)] [العنكبوت: ٤٦].

٨- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

- لم تُؤكَّدْ جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بـ (إنَّ) هنا، وأُكِّدَت مع ذِكرِ نُوحٍ وفيما تقدَّمَ مِن ذِكرِ إبراهيمَ؛ لأنَّه لَمَّا تَقدَّمَ في هذه القصَّةِ قولُه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥]، وكان إبراهيمُ هو المَجْزِيَّ؛ اكْتُفِيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

بتأكيدِ نَظيرِه عن تأكيدِه، أي: لأنَّه بالتَّأكيدِ الأوَّلِ حصَلَ الاهتِمامُ، فلمْ يَبْقَ داعٍ لإعادتِه، واقتُصِرَ على تأكيدِ معنى الجُملةِ تأكيدًا لَفظيًّا؛ لأنَّه تَقريرٌ للعِنايةِ بجَزائِه على إحسانِه[1].

- وفي قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى إبقاءِ ذِكرِه الجميلِ فيما بيْنَ الأُمَمِ، لا إلى ما أُشِيرَ إليه فيما سبَقَ؛ فلا تَكرارَ[2].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- هذه بِشارةٌ أُخرى لإبراهيمَ عليه السَّلامُ ومَكرُمةٌ له، وهي غيرُ البِشارةِ بالغلامِ الحليمِ؛ فإسحاقُ غيرُ الغُلامِ الحليمِ، ومعنى البِشارةِ به البِشارةُ بوِلادتِه له؛ لأنَّ البِشارةَ لا تَتعلَّقُ بالذَّواتِ، بل تَتعلَّقُ بالمعاني[3].

- وانتصَبَ ﴿نَبِيًّا﴾ على الحالِ مِن (إسحاقَ)؛ فيجوزُ أنْ يكونَ حِكايةً للبِشارةِ، فيكون الحالُ حالًا مُقدَّرًا؛ لأنَّ اتِّصافَ إسحاقَ بالنُّبوَّةِ بعْدَ زَمنِ البِشارةِ بمُدَّةٍ طويلةٍ، بلْ هو لم يكُنْ مَوجودًا؛ فالمعنى: وبَشَّرْناهُ بوِلادةِ وَلدٍ اسمُه إسحاقُ مُقَدَّرًا حالُه أنَّه نبيٌّ. وإنْ كان وَضْعًا مُعْتَرِضًا في أثناءِ القِصَّةِ، كان تَنويهًا بإسحاقَ، وكان حالًا حاصلةً[4].

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حالٌ ثانيةٌ، وذكَرَها للتَّنويهِ بِشَأْنِ الصَّلاحِ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١، ١٦٢).

الأنبياءَ مَعْدودون في زُمْرةِ أهْلِه، وإلَّا فإنَّ كلَّ نَبيٍّ لا بُدَّ أنْ يكونَ صالحًا، والنُّبوَّةُ أعظَمُ أحوالِ الصَّلاحِ؛ لِمَا معها مِن العَظَمةِ(١).

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾

- ضرَبَ اللهُ قِصَّةَ إبراهيمَ وبَنِيه مَثلًا لحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ثَباتِه على إبطالِ الشِّركِ، وفيما لَقِيَ مِنَ المشْرِكينَ، وإيماءً إلى أنَّه يُهاجِرُ مِن أرْضِ الشِّركِ، وأنَّ اللهَ يَهْديهِ في هِجرتِه، ويَهَبُ له أُمَّةً عظيمةً كما وهَبَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أتْباعًا(٢).

- وفي قَولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ مَثَلٌ لحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ معه مِن أهْلِ مكَّةَ، ولحالِ المشركينَ مِن أهْلِ مكَّةَ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٤-١٢٢)

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَنَنَّا﴾: أي: تَفضَّلْنا وأنعَمْنا، وأصلُ (منن): يَدُلُّ على النِّعمةِ[1].

﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾: أي: البَيِّنَ الواضِحَ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على الانكِشافِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد مَنَنَّا على موسى وهارونَ، ونجَّيْناهما وقَومَهما مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ الَّذي أصابَهم بسَبَبِ الخَوفِ مِن الغَرَقِ، ومِن فِرعَونَ وقَومِه؛ ونصَرْناهم على فِرعَونَ وقَومِه، فكانوا هم الغالِبينَ، وآتَيْنا موسى وهارونَ الكِتابَ الواضِحَ، وهو التَّوراةُ، وهَدَيْناهما الطَّريقَ المُستَقيمَ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، وأثنَيْنا على موسى وهارونَ بالذِّكرِ الجَميلِ الباقي فيمَن بَعْدَهما، سَلامٌ على موسى وهارونَ. مِثلَ هذا الجَزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، إنَّهما مِن عِبادِنا المؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى نوحًا وهو القُدوةُ الأولَى، وإبراهيمَ وهو رسولُ المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ الَّتي هي نواةُ الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ شجرةِ الإسلامِ؛ ذكَر موسَى لِشِبْهِ شريعته بالشَّريعةِ الإسلاميَّةِ في التَّفصيلِ والجمعِ بيْنَ الدِّينِ والسُّلطانِ، فهؤلاءِ الرُّسلُ الثَّلاثةُ أُصولٌ[1].

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

أي: ولقد مَنَنَّا بنِعمَتِنا على موسى وهارونَ[2].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾[3]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

قيل: المرادُ: نِعمةُ النُّبُوَّةِ. وممَّن قال بهذا: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

وقيل: المرادُ: أنْعَمْنا عليهما بالنُّبوَّةِ وهلاكِ عدوِّهما. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٦).

وقيل: المرادُ: أنْعَمْنا عليهما بالنُّبوَّةِ وغيرِها مِن المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ. وممَّن اختاره: البيضاوي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، (تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٢).

قال ابنُ عطيَّة: (المِنَّةُ على موسى وهارونَ هي في النُّبُوَّةِ، وسائِرِ ما جرى معها، مِن مكانتِهما عندَ الله تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٣).

(٣) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ذكَرَ جلَّ وعلا مِنَّتَه عليهما في =

[طه: ٣٦، ٣٧].

﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه مَنَّ على موسى وهارونَ؛ فصَّلَ أقسامَ تلك المِنَّةِ[(١)].

﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥)﴾.

أي: ونَجَّيْنا موسَى وهارونَ وقَومَهما بني إسرائيلَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ العَظيمِ الَّذي أصابَهم؛ بسبَبِ الخَوفِ مِن الغَرَقِ، ومِن فِرعَونَ وقَومِه[(٢)].

= غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه في «طه»: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه: ٣٦، ٣٧]؛ لأنَّ مِن سُؤلِه الَّذي أُوتيَه إجابةَ دَعوتِه في رسالةِ أخيه هارونَ معه، ومعلومٌ أنَّ الرِّسالةَ مِن أعظَمِ المِنَنِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٩).

قال القرطبي: (قَولُه: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قيل: مِنَ الرِّقِّ الَّذي لَحِقَ بني إسرائيلَ. وقيل: مِنَ الغَرَقِ الَّذي لحِقَ فِرعَونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: البغويُّ، وابنُ عطيَّة، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٦). =

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن نِعمةَ النَّجاةِ مِن الأسْرِ؛ أتْبَعَها نِعمةَ الالتِذاذِ بالنَّصرِ(١).

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

أي: ونصَرْناهم على فِرعونَ وقَومِه حينَ أغرَقَهم اللهُ، فكانوا هم الغالِبينَ لهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت فائدةُ النُّصرةِ التَّمكُّنَ مِن إقامةِ الدِّينِ؛ قال(٣):

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

أي: وآتَيْنا موسى وهارونَ الكِتابَ الواضِحَ الجَليَّ، وهو التَّوراةُ الَّتي جَعَل

= وممَّن جمَع بيْن المعنيينِ السَّابِقَينِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١).

اللهُ فيها المواعِظَ والأحكامَ، وفصَّل فيها كُلَّ شَيءٍ يحتاجُ إليه بنو إسرائيلَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١١٨﴾.

أي: وهدَيْنا موسى وهارونَ الطَّريقَ المُستَقيمَ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، الموصِلَ إلى اللهِ تعالى، وهو دينُ الإسلامِ الحَقُّ الَّذي بَعَث اللهُ به أنبياءَه، وشرَعَه لعِبادِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ١١٩﴾.

أي: وأثنَيْنا على موسى وهارونَ، وأنعَمْنا عليهما بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين يأتُونَ من بَعدِهما[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير =

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

أي: سلامٌ على موسَى وهارُونَ وثَناءٌ حسَنُ، فلا يُذْكَرانِ بسُوءٍ[1].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جزَيْنا به موسى وهارونَ -لأنَّهما كانا مِنَ المُحسِنينَ- نَجْزي أيضًا كلَّ مَن كان مُحسِنًا[2].

﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أي: إنَّ موسى وهارونَ مِن عِبادِنا المُؤمِنينَ بالله؛ فوَحَّدوا اللهَ، وأخلَصوا العبادةَ له وَحْدَه لا شَريكَ له[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ أنَّ الغَلَبةَ صارَت في النِّهايةِ لِموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقَومِه، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أخْذُ العِبرةِ مِن ذلك بأنَّ النَّصرَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قد يَنصُرُ مَن هو ضَعيفٌ، وقد يُذِلُّ مَن هو قَويٌّ،

= الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٢٥٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣، ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] [آل عمران: ٢٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أنَّ كُلَّ إنسانٍ مُفتقِرٌ إلى اللهِ تعالى في الهدايةِ مهما بلَغَتْ مَرتبتُه؛ فهذا موسى وهارونُ مَنَّ اللهُ عليهما بهدايتِهما الصِّراطَ المُستقيمَ، فيجِبُ على العبدِ أنْ يَرى قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عليه بالهدايةِ، وألَّا يُعجَبَ بعِلمِه أو عمَلِه أو عبادتِه، فكم مِن أُناسٍ أضَلَّهم اللهُ وهم أقوى منه ذَكاءً[2]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَجزي العامِلَ لِشَخصِه، وإنَّما يَجزيه لِعَمَلِه؛ ولهذا بَيَّنَ أنَّ هذا الجزاءَ لا يَختَصُّ بموسى وهارونَ، بل هو لكُلِّ إنسانٍ مُحسِنٍ[3].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المقصودُ التَّنبيهُ على أنَّ الفَضيلةَ الحاصِلةَ بسَبَبِ الإيمانِ: أشرَفُ وأعلى وأكمَلُ مِن كُلِّ الفَضائِلِ، ولولا ذلك لَما حَسُنَ خَتمُ فضائِلِ موسى وهارونَ بكَونِهما مِنَ المؤمنينَ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في بدايةِ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]، وفي بدايةِ قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وقال هنا عزَّ وجَلَّ في بدايةِ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

اختِلافِ مَبادئِ القِصَصِ الثَّلاثِ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ يَغضَبُ لأوليائِه: إمَّا باستِجابةِ دَعوةٍ، وإمَّا لجزاءٍ على سَلامةِ طَوِيَّةٍ وقَلبٍ سَليمٍ، وإمَّا لِرَحمةٍ منه ومِنَّةٍ على عبادِه المُستَضعَفينَ[1].

٢- وُجوهُ الإنعامِ وإن كانت كثيرةً فإنَّها مَحصورةٌ في نوعَينِ: إيصالُ المنافِعِ للمُنعَمِ عليه، ودَفعُ المَضارِّ عنه، واللهُ تعالى ذكَرَ القِسمَينِ في حَقِّ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ؛ فقَولُه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ إشارةٌ إلى إيصالِ المنافِعِ إليهما، وقَولُه: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إشارةٌ إلى دَفعِ المَضارِّ عنهما[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ أنَّ هلاكَ عدوِّك يُعتبَرُ غَلَبَةً لك -سواءٌ كان هلاكُه على يَدِك أو بعذابٍ من عندِ اللهِ-، فإنَّه بلا شكٍّ لم يكنْ هلاكُ فِرعَونَ وقومِه على يدِ موسى وقَومِه، بل كان بفِعلِ اللهِ؛ ومع ذلك جَعَل اللهُ سُبحانَه وتعالى إنجاءَ موسى وقومِه مِن فِرعونَ غَلَبَةً، والتَّخلُّصُ من العدوِّ يُسمَّى نصرًا وفتحًا وغَلَبَةً، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في غزوةِ مُؤْتَةَ: ((أخَذَ الرَّايةَ زَيْدٌ فأُصِيبَ، ثمَّ أخَذَها جَعفرٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخَذَها عبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ فأُصيبَ، ثمَّ أخَذَها خالدُ بنُ الوليدِ مِن غَيْرِ إمْرةٍ ففُتِحَ له))[3]، مع أنَّه لم يَنتصِرْ على الرُّوم ولم يَغلِبْهم! ولكنْ نجا منهم، فسمَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم هذه النَّجاةَ فَتْحًا، كما سَمَّى اللهُ تعالى هنا نجاةَ موسى وهارونَ وقَومِه من فِرعونَ نصرًا وغَلَبَةً[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٦) من حديث أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٧).

٤- مادَّةُ «نَصَرَ» تتعدَّى أحيانًا بـ «مِن»، وأحيانًا تتعدَّى بـ «على»؛ فإنْ تَعَدَّتْ بـ «مِن» فمعناها المنعُ والإنجاءُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، نصَرْناه منهم، أي: مَنَعْناه منهم؛ وإنْ تَعَدَّتْ بـ «على» صار معناها الظُّهورَ والغَلَبَةَ، كما قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وأحيانًا لا تَتَعدَّى بـ «مِن» ولا بـ «على»، فتَشملُ المعنيَينِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، وقَوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[1] [غافر: ٥١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ بيانُ عَظيمِ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بإيتاءِ الكتابِ لموسى وهارونَ، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لأنَّ إيتاءَ الكِتابِ أعظَمُ منه. ويَتفرَّعُ على هذا: أنَّ مَن آتاه اللهُ عِلْمَ كتابِه وسُنَّةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فله نَصيبٌ مِن هذه المِنَّةِ[2].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ -أي: البالغَ البَيانِ- فيه الثَّناءُ على التَّوراةِ، ولا شَكَّ أنَّ التَّوراةَ هي أعظمُ كِتابٍ أنزَلَه اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنزِلُ الكِتابَ تِبيانًا للنَّاسِ، فيُؤخَذُ مِن ذلك أنَّ العُقولَ لا تَستَقِلُّ بمَعرفةِ ما يَجِبُ لله مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحُقوقِ، ولا بمَعرفةِ ما يجِبُ له مِن الصِّفاتِ، ولا بمَعرفةِ ما يجوزُ عليه ولا ما يمتَنِعُ، فيَكونُ في ذلك رَدٌّ على مَن حَكَّموا العُقولَ في بابِ أسماءِ اللهِ وصِفاتِه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «إلى الصِّراطِ»؛ لأنَّ المرادَ بذلك هِدايةُ التَّوفيقِ، وهدايةُ الدَّلالةِ، وانظُرْ إلى قَولِه تعالى في سُورةِ (الفاتِحةِ): ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال في حقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فإذا كانتِ الهِدايةُ بمعنى الدَّلالةِ تعَدَّتْ بـ «إلى»، وإذا كانت بمعنى الدَّلالةِ والتَّوفيقِ تَعَدَّتْ بنَفْسِها[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ جوازُ تَعَدُّدِ الرُّسُلِ في آنٍ واحدٍ، وهذا قَبْلَ بَعثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أمَّا بعدَ بَعثتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ فهو خاتَمُ النَّبيِّينَ، ولا نَبيَّ بَعْدَه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ البَشَرَ مهما عَلَتْ مَنزِلتُهم ومَرتبتُهم فَهم داخِلونَ ضِمنَ العُبوديَّةِ؛ لأنَّ موسى وهارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أكابرِ الأنبياءِ، ومع ذلك فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَهما بالعُبوديَّةِ له سُبحانَه وتعالى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

للشُّروعِ في القِصَّةِ الثَّالثةِ[(١)]. أو عطْفٌ على قولِه: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ [الصافات: ٧٥]، وذُكِرَ هنا ما كان مِنَّةً على مُوسى وهارونَ، وهو النُّبوَّةُ؛ فإنَّها أعظَمُ دَرجةً يُرفَعُ إليها الإنسانُ، ولذلك اكْتُفِيَ عن تَعيينِ المَمْنونِ به؛ لِحَمْلِ الفِعلِ على أكْمَلِ مَعناهُ، وجُعِلَت مِنَّةً مِنَ اللهِ عليهما؛ لأنَّ مُوسى لم يَسألِ النُّبوَّةَ؛ إذ ليستِ النُّبوَّةُ بمُكتسَبةٍ، وكانت مِنَّةً على هارونَ أيضًا؛ لأنَّه إنَّما سأَلَ له مُوسَى ذلك، ولم يَسأَلْه هارونُ؛ فهي مِنَّةٌ عليه، وإرضاءٌ لِمُوسى[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللامُ جوابٌ للقسمِ المحذوفِ، و(قد) حرفُ تحقيقٍ[(٣)]، وهو مِن حروفِ توكيدِ الخبرِ[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: بعدَ أنْ كان قَومُهما في أَسْرِ فِرعونَ وقَومِه وقَسْرِهم، مَقْهورينَ تحتَ أيْديهم العاديةِ، يَسُومُونهم سُوءَ العذابِ، وهذه التَّنجيةُ وإنْ كانتْ بحسَبِ الوُجودِ مُقارِنةً لِمَا ذُكِرَ مِن النَّصرِ والغَلَبةِ، لكنَّها لَمَّا كانتْ بحسَبِ المفهومِ عِبارةً عن التَّخليصِ مِن المكْروهِ، بُدِئَ بها، ثمَّ بالنَّصرِ الَّذي يَتحقَّقُ مَدلُولُه بمَحْضِ تَنْجيةِ المنصورِ مِن عَدُوِّه مِن غيرِ تَغليبِه عليه، ثمَّ بالغَلَبةِ؛ لِتَوفيةِ مَقامِ الامتِنانِ حَقَّه، بإظهارِ أنَّ كلَّ مَرْتبةٍ مِن هذه المراتبِ الثَّلاثِ نِعمةٌ جَليلةٌ على حِيالِها[(٥)].

- و(هم) مِن قولِه: ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ضَميرُ فَصْلٍ، وهو يُفِيدُ قصْرًا، أي: همُ الغالِبينَ لِغَيرِهم، وغيرُهم لم يَغْلِبوهم، أي: لم يُغلَبوا ولو مرَّةً واحدةً؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢، ٢٠٣).

فإنَّ المُنتصِرَ قد يَنتصِرُ بعْدَ أنْ يُغلَبَ في مَواقعَ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾

- الكِتابُ المُستبينُ: هو التَّوراةُ، والمُسْتبينُ: القويُّ الوُضوحِ، البليغُ في البَيانِ والتَّفصيلِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، يُقالُ: استبانَ الشَّيءُ؛ إذا ظهَرَ ظُهورًا شَديدًا(٢).

- وتَعديةُ فِعلِ الإيتاءِ إلى ضَميرِ مُوسى وهارونَ عليهما السَّلامُ، مع أنَّ الَّذي أُوتِيَ التَّوراةَ هو موسى؛ مِن حيث إنَّ هارونَ كان مُعاضِدًا لِمُوسى في رِسالتِه، فكان له حظٌّ مِن إيتاءِ التَّوراةِ، كما قال اللهُ في الآيةِ الأُخرى: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً** ﴾ [الأنبياء: ٤٨](٣). ولأنَّه مِثلُه في تَقبُّلِ الكتابِ، والعمَلِ بجَميعِ ما فيه، والثَّباتِ على ما يَدْعو إليه، وإنْ كان نُزولُه خاصًّا بمُوسى عليه السَّلامُ(٤).

- وفي ذِكرِ قِصَّةِ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ عِبرةُ مَثَلٍ كاملٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ في رِسالتِه، وإنزالِ القُرآنِ عليه، وهِدايتِه، وانتِشارِ دِينِه وسُلطانِه بعْدَ خُروجِه مِن دِيارِ المشْرِكينَ(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٥).

الآيات (١٢٣-١٣٢)

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَعْلًا﴾: أي: رَبًّا، أو: هو اسمُ صنمٍ، والبَعْلُ: المالِكُ والسَّيِّدُ والرَّبُّ، ومنه سُمِّيَ الزَّوجُ بَعلًا، وأصلُ (بعل) هنا: يدُلُّ على الصَّاحِبِ[1].

﴿وَتَذَرُونَ﴾: أي: تَترُكونَ، وتَدَعُونَ، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه؛ لِقِلَّةِ اعتِدادِه به[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ إلياسَ لَمِن جُملةِ المُرسَلينَ، إذ قال لِقَومِه: ألا تتَّقونَ اللهَ تعالى؟! أتَعْبُدونَ صنمًا، وتَجعلونه ربًّا، وتَترُكونَ عِبادةَ اللهِ أحسَنِ الخالِقينَ؛ رَبِّكم ورَبِّ آبائِكم الأوَّلينَ؟! فكذَّبَه قَومُه فإنَّهم لَمُحضَرونَ العذابَ، إلَّا عِبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له؛ فإنَّهم ناجونَ مِن العَذابِ. وأثنَيْنا على إلياسَ بالذِّكرِ الجَميلِ الباقي فيمَن يأتي مِن بَعدِه؛ سَلامٌ على «إل ياسين»، مِثلَ ذلك

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

الجزاءِ الَّذي جزَينا به «إل ياسينَ» نَجزي كلَّ مَن كان مُحسِنًا. إنَّ إلياسَ مِن عِبادِنا المؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُتْبِعَ الكلامُ على رُسلٍ ثلاثةٍ أصحابِ الشَّرائعِ: نوحٍ، وإبراهيمَ، ومُوسى؛ بالخبَرِ عن ثلاثةِ أنبياءَ: إلياسَ، ولُوطٍ، ويُونسَ، وما لَقُوه مِن قَومِهم؛ وذلك كلُّه شَواهدُ لِتَسليةِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقَوارعُ مِن الموعظةِ لِكُفَّارِ قُريشٍ[1].

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

أي: وإنَّ إلياسَ لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ اللهِ تعالى[2].

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٥، ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الرسعني: (قال عامةُ المفسرينَ وأهلِ العلمِ بالتاريخِ: هو نبيٌّ مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤١٦).

وقال البِقاعي: (كان أحدَ بني إسرائيلَ عندَ جميعِ المفَسِّرينَ إلَّا ابنَ مَسعودٍ وعِكْرِمةَ، وهو من سِبْطِ لاوي، ومِن أولادِ هارونَ عليه السَّلامُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (إلياسُ هو إيلياءُ، من أنبياءِ بني إسرائيلَ التَّابِعينَ لِشَريعةِ التَّوراةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

ورُويَ عن ابنِ مَسعودٍ أنَّ إلياسَ هو إدريسُ، وقاله عِكرَمةُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٥).

أي: حينَ قال لِقَومِه: ألا تَجعَلونَ بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا، بعبادتِه وَحْدَه لا شريكَ له(١)؟!

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٣).

قيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: حِينَ قالَ لقومِه... وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

قال ابن عاشور: (أي: إنَّه مِن حينِ ذلك القَولِ كان مُبَلِّغًا رِسالةَ اللهِ تعالى إلى قَومِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ لِفِعلٍ محذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. أي: اذكُرْ يا محمَّدُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والرازي، والنيسابوري. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٤).

ممن اختار أنَّ المعنى: ألا تَتَّقون الله: ابنُ جرير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥).

وقال السمرقندي: (اللفظُ لفظُ الاستفهامِ، والمرادُ به الأمرُ. يعني: اتَّقوا الله تعالى). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١).

وممن اختار أنَّ المعنى: ألا تَتَّقون عذابَ الله: البيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٢٥).

وممن اختار أنَّ المعنى ألا تخافونَ الله: الواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والرازي، والنسفي، وابن كثير، والشربيني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٢).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّه حُذِف مفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ ليعمَّ، فيشملَ المعنى: ألا تَتَّقونَ الله، ألا تَتَّقونَ النار، ألا تَتَّقونَ يومَ الحسابِ. يُنظر: ((تفسيرابن عثيمين- الصافات)) (ص:٢٧٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَوَّفَهم أوَّلًا على سَبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَ ما هو السَّبَبُ لذلك الخَوفِ، فقال[1]:

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾.

أي: أتَعْبُدون صنمًا مِن دونِ الله، وتَجعلونه رَبًّا[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

قيل: ﴿بَعْلًا﴾ أي: ربًّا. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابن عادل، ونسَبَه الواحديُّ للأكثَرينَ مِن المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بهذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١١٩).

قال البِقاعي: (﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: إلهًا وربًّا، وهو صنمٌ كان لهم في مدينةِ بَعْلَبَكَّ... ويحتملُ أن يكونَ علَمًا على الصَّنمِ المذكورِ، فيكونَ المفعولَ الثَّانيَ مَنْويًّا، وحُذِف لِيُفهِمَ الدُّعاءَ الَّذي لا دُعاءَ يُشبِهُه، وهو الدُّعاءُ بالإلهيَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨٤).

وقيل: هو اسمُ صَنَمٍ لهم كانوا يَعبُدونَه. وممَّن قال بهذا القَولِ: القرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١١٩).

قال القرطبي: (وبذلك سُمِّيَت مَدينتُهم: بَعلَبَكَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦).

وقال مقاتل: (﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتَعْبُدون ربًّا، بِلُغةِ اليمَنِ الإلهُ يُسمَّى بعلًا، وكان صنَمًا مِن ذهبٍ ببَعْلَبَكَّ بأرضِ الشَّامِ، فكسَرَه إلياسُ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٧). =

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

أي: وتترُكونَ عِبادةَ اللهِ أحسَنِ الخالِقينَ، المُستَحِقِّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له[١]؟!

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا عابَهم على عبادةِ غيرِ اللهِ؛ صرَّحَ بالتَّوحيدِ، ونَفيِ الشُّرَكاءِ[٢].

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: أتترُكونَ عِبادةَ رَبِّكم المحسِنِ إليكم، ورَبِّ آبائِكم الَّذين مِن قَبلِكم[٣]؟!

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

أي: فكذَّب قَومُ إلياسَ رَسولَهم، فهم مُحضَرونَ في العَذابِ قَهرًا وكَرهًا[٤].

= وقال النَّحَّاسُ: (عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: صنَمًا. وروَى عطاءُ بنُ السَّائبِ عن عِكْرِمةَ عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: ربًّا. قال أبو جعفرٍ: [أي: النَّحَّاسُ]: القولانِ صَحيحانِ، أي: تَدْعون صنَمًا عَمِلْتُموه ربًّا). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الماوَرْدي: (فيه وَجْهانِ؛ أحدُهما: مَن قيلَ له: خالِقٌ. الثَّاني: أحسَنُ الصَّانِعينَ؛ لأنَّ النَّاسَ يَصنَعونَ ولا يَخلُقونَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((الهداية)) لمكِّي (٩/ ٦١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) =

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أي: إلَّا عِبادَ اللهِ مِن قَومِ إلياسَ ممَّن أخلَصَهم اللهُ له، واستخلَصَهم مِنَ الكُفرِ، واختارَهم لخاصَّةِ رَحمتِه، فآمَنوا باللهِ ورَسولِه، وأخلَصوا له أعمالَهم؛ فإنَّهم مُنجَّونَ من العَذابِ[1].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا جاهَدَ في اللهِ تعالى، وقام بما يجِبُ عليه مِن حُسنِ الثَّناءِ؛ جازاه سُبحانَه[2].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: وأثنَيْنا على إلياسَ وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ والثَّناءِ الباقي في الَّذين يَأتُونَ مِن بَعدِه[3].

﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿آلِ يَاسِينَ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ ومَدِّها، وبَعْدَها لامٌ مَكسورةٌ، فتكونُ

= للبقاعي (١٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((الهداية)) لمكِّي (٩/ ٦١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(آل) كَلِمةً مضافةً إلى (ياسين)، والمرادُ آلُ إلياسَ: وهم أتْباعُه. وقيل: أهلُه[(١)]. وهو داخلٌ فيهم[(٢)].

٢- قِراءةُ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ بكَسرِ الهَمزةِ، وبعدَها لامٌ ساكِنةٌ. قيل: هو اسمُ إلياسَ، كان يُسمَّى باسمَينِ: إلياسَ، وإلياسينَ، مِثلُ: إبراهيمَ، وإبراهامَ، وميكالَ وميكائيلَ. وقيل: هو جمْعُ إلياسَ، والمرادُ: إلياسُ وأمَّتُه المؤمِنونَ[(٣)].

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، ويَعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٠)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

وقيل: المرادُ بآلِ ياسينَ: آلُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم. وقد ردَّ هذا القولَ وضَعَّفه: ابنُ جرير، والسُّهَيليُّ، وابنُ القيِّم، والفيروزابادي، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢١)، ((غوامض الأسماء المبهمة)) للسهيلي (ص: ١٥٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٦/ ٧٨).

(٢) فالرَّجُلُ حيثُ أُضيفَ إلى آلِه دخَل فيه هو، كقولِه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وقولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أَوْفَى)). وهذا إذا لم يُذكَرْ معه مَن أُضيفَ إليه الآلُ. يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

قال ابنُ عاشور: (والأظهرُ أنَّ المرادَ بـ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ أنصارُه الذين اتَّبعوه وأعانوه... فيكون المعنى: سلامٌ على ياسينَ وآلِه؛ لأنَّه إذا حصَلت لهم الكرامةُ؛ لأنَّهم آلُه فهو بالكرامةِ أولَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١١)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

قال ابن القيِّم: (والصَّوابُ -واللهُ أعلَمُ- في ذلك: أنَّ أصلَ الكَلِمةِ (آل ياسين) كآلِ إبراهيمَ، =

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾.

أي: سلامٌ على إلْ ياسينَ وثَناءٌ حسنٌ، فلا يُذكَرُ بسُوءٍ[١].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أظهَرَ اللهُ سُبحانَه شَرَفَ إلياسَ عليه السَّلامُ، أو الأنبياءِ الَّذين هو أحَدُهم؛ عَلَّله مُؤَكِّدًا له، تَنبيهًا على أنَّه لا بُدَّ مِن إعلاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعِه على كُلِّ مَن يُناوِئُهم وإن كَذَّبت بذلك قُرَيشٌ، فقال[٢]:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جزَيْنا به إلْ ياسينَ نَجزي أيضًا كُلَّ مَن كان مُحسِنًا[٣].

= فحُذِفَت الألفُ واللَّامُ مِن أوَّلِه؛ لاجتماعِ الأمثالِ، ودَلالةِ الاسم على موضِعِ المحذوفِ، وهذا كثيرٌ في كلامِهم: إذا اجتمَعَت الأمثالُ كَرِهوا النُّطقَ بها كُلِّها، فحذَفوا منها ما لا إلباسَ في حَذفِه، وإن كانوا لا يَحذِفونَه في موضِعٍ لا تجتمِعُ فيه الأمثالُ... ولا سيَّما عادةُ العربِ في استِعمالِها للاسم الأعجميِّ، وتغييرُها له؛ فيقولون مرَّةً: إلياسينَ، ومرةً إلياسَ، ومرَّةً ياسين، ورُبَّما قالوا: ياس، ويكونُ على إحدى القراءتَينِ قد وقَع على المُسَلَّمِ عليه، وعلى القراءةِ الأُخرى على آلِه). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابن كثير: (﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ أي: سلامٌ على إلياسَ، والعربُ تُلحِقُ النُّونَ في أسماءٍ كثيرةٍ، وتُبدِلُها مِن غيرِها، كما قالوا: إسماعيلُ وإسماعينُ، وإسرائيلُ وإسرائينُ، وإلياسُ وإلياسينُ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٧، ٢٠٨، ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣، ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى علَّلَ الحُكمَ بإحسانِه، مُؤكِّدًا لِما مضى في مِثلِه، بقَولِه[1]:

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ ﴾.

أي: إنَّ إلياسَ مِن عِبادِنا المُؤمِنينَ باللهِ؛ الموحِّدينَ الَّذين أخْلَصوا العِبادةَ لله وَحْدَه لا شَريكَ له[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ مهما بَلَغ في عَرْضِ الدَّعوةِ إلى اللهِ وبَيانِها والبَلاغةِ في العِظةِ؛ فإنَّه لا يَستَلزِمُ أنْ يُؤَثِّرَ فيمَن وَجَّهَ الخِطابَ إليه؛ لأنَّ إلياسَ عليه السَّلامُ عَرَض الدَّعوةَ عليهم عَرضًا رَقيقًا، وبَيَّنَ لهم الأدِلَّةَ على أنَّ اللهَ وَحْدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ، ومع ذلك كَذَّبوه! ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ إذا رُدَّ قولُه ألَّا يَعتبِرَ نَفْسَه مُقصِّرًا أو فاشِلًا؛ لأنَّه أدَّى ما عليه، وهو البَلاغُ، والهدايةُ على اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فلو أرادَ اللهُ بهؤلاء خَيرًا لَانقادوا للهُدى، أمَّا أنت فقد أرادَ اللهُ بك خيرًا؛ لأنَّك بَلَّغتَ ما عليك[3].

= (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦، ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ أنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ بما يكونُ سَببًا لاتِّعاظِهم، فيُذَكِّرهم بأنَّ آباءَهم قد فَنُوا وذَهَبوا، وأنَّكم أنتم سوف تَذهَبونَ كما ذَهَبَ الآباءُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُثْني على عِبادِه بما يَستَحِقُّونَ مِن الأوصافِ في الآخِرينَ؛ لِيبقَى ذِكرُهم مُخَلَّدًا؛ فإنَّه لولا أنَّ اللهَ ذَكَرَ هؤلاء الأنبياءَ لَطُوِيَت صَحائِفُهم، وما عُلِمَ عنهم شَيءٌ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ بيانُ تَلَطُّفِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ في دَعوةِ قَومِهم؛ لأنَّه قال: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، وهذا للعَرضِ والحَثِّ -على قولٍ-، ولم يَقُلْ لهم: اتَّقوا اللهَ، مع أنَّ الرُّسُلَ قد يَقولون: اتَّقوا اللهَ، لكِنْ يُنَزِّلُ كلَّ مُخاطَبٍ مَنزِلتَه بما يَليقُ به[٣].

٣- إنْ قيلَ: كيف الجَمعُ بيْنَ قَولِه: ﴿ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، وقَولِه: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؟ **فالجوابُ**: أنَّ الخَلقَ يكونُ بمعنى الإيجادِ -ولا مُوجِدَ سِوى اللهِ-، ويكونُ بمعنى التَّقديرِ، كقَولِ زُهَيرٍ[٤]:

ولَأنــتَ تَفْري ما خَلَقْــتَ وبعـــ ... ـــضُ القَومِ يَخلُقُ ثُـمَّ لا يَفْري[٥]

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((ديوان زهير بن أبي سُلْمى)) (ص: ٥٦).

(٥) يَخلُقُ: أي: يُقَدِّرُ الأديمَ ويُهَيِّئُه للقَطعِ. ويَفري: أي: يَشُقُّه كما قَدَّر. ومعنى البيتِ: أنت إذا قدَّرْتَ أمرًا وتهَيَّأْتَ له أمضَيْتَه وأنفَذْتَه بعَزمِك وقدرتِك ولم تَعجِزْ عنه، بخِلافِ غيرِك؛ فإنَّ بعضَ القومِ يُقَدِّرُ ثمَّ لا قوَّةَ له ولا عزيمةَ على إنفاذِ ما قدَّره وإمضائِه، فالخَلْقُ: التَّقديرُ، والفَرْيُ: التَّنفيذُ. =

فهذا المرادُ هاهنا: أنَّ بني آدَمَ قد يُصَوِّرونَ ويُقَدِّرونَ ويَصنَعونَ الشَّيءَ؛ فاللهُ خَيرُ المصَوِّرينَ والمقَدِّرينَ. وقال الأخفَشُ: (الخالِقونَ هاهنا هم الصَّانِعونَ، فاللهُ خيرُ الخالِقينَ)(١)، فخَلْقُ الخالقِ إيجادٌ مِن عدَمٍ على ما يُريد اللهُ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، أمَّا خَلْقُ المخلوقِ: فهو تحويلُ مخلوقِ اللهِ إلى صِفةٍ أخرى(٢).

٤- تَرَتُّبُ الجَزاءِ على العَمَلِ، وتُؤخَذُ مِن الفاءِ الدَّالَّةِ على السَّبَبيَّةِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ فالجَزاءُ مُترتِّبٌ على العَمَلِ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ زيادةٌ مِنَ اللهِ في عِدادِ كَرامةِ نبيِّه عليه السَّلامُ؛ فتلك نِعمةٌ وشرَفٌ مِنَ اللهِ؛ بأنْ أبْقَى نِعَمَه عليه في أُمَمٍ بعْدَه(٤). وفيه بيانُ أنَّ اللهَ تعالى يُجازي المُحسِنَ بالإحسانِ حتَّى بعدَ مَوتِه؛ لِقَولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾، والواقِعُ شاهِدٌ بذلك؛ فإنَّ أئمَّةَ الإسلامِ أبقَى اللهُ عليهم ثَناءً حَسَنًا في الآخِرينَ، وصَدَّ كلَّ لسانٍ يَقدَحُ فيهم؛ فجَعَلَ فيهم الثَّناءَ، وسَلَّمَهم مِن القَدْحِ(٥).

٦- لَفظُ «آلِ فُلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ، دَخَلَ فيه فُلانٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ آلِ يَاسِينَ﴾(٦) على إحدى القراءتينِ.

= يُنظر: ((شرح ديوان زهير)) لثعلب (ص: ٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٣٨١)، ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٥٣)، ((معارج القبول)) لحافظ حكمي (١/ ١٣٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٤).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢)، ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٧٨).

٧- في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مدحَ اللهُ تعالى نَبيَّه بالإيمانِ، مع أنَّ مَرتبةَ الرُّسلِ فَوقَ مَرتبةِ المؤمنينَ؛ تنبيهًا لنا على جَلالةِ محلِّ الإيمانِ وشَرَفِه، وترغيبًا في تحصيلِه، والثَّباتِ عليه، والازديادِ منه(١).

٨- في قِصَّةِ إلياسَ عليه السَّلامُ إنباءٌ بأنَّ الرَّسولَ عليه أداءُ الرِّسالةِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يُشاهِدَ عِقابَ المكذِّبينَ ولا هَلاكَهم؛ للرَّدِّ على المشْرِكينَ الَّذين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣- ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾(٢) [مريم: ٤٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

- ابتُدِئَ ذِكرُ هؤلاء الثَّلاثةِ (إلياسَ، ولُوطٍ، ويُونسَ) بجُملةِ ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّهم سَواءٌ في مَرْتبةِ الدَّعوةِ إلى دِينِ اللهِ، وفي أنَّهم لا شَرائعَ لهم. وتأْكيدُ إرسالِهم بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبَرِ؛ لأنَّه قد يُغفَلُ عنه؛ إذ لمْ تكُنْ لهؤلاء الثَّلاثةِ شَريعةٌ خاصَّةٌ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَا﴾ كَلمتانِ: همْزةُ الاستِفهامِ للإنكارِ، و(لا) النَّافيةُ -على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦٥، ١٦٦).

قولٍ-، إنكارٌ لِعَدَمِ تَقْواهم(١).

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

- الهمْزةُ في قَولِه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا ...﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ(٣).

- وجِيءَ في قَولِه: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ بذِكرِ صِفَةِ اللهِ دونَ اسْمِه العَلَمِ؛ تَعريضًا بتَسفيهِ عُقولِ الَّذين عَبَدوا بَعْلًا؛ بأنَّهم تَرَكوا عِبادةَ الرَّبِّ المتَّصِفِ بأحسَنِ الصِّفاتِ وأكمَلِها، وعَبَدوا صَنَمًا ذاتُه وَخْشٌ -وهو الرَّديءُ من كُلِّ شيءٍ- فكأنَّه قال: أتَدْعُون صَنَمًا بَشِعًا جمَعَ عُنْصرَيِ الضَّعفِ -وهُما: المَخْلوقيَّةُ، وقُبْحُ الصُّورةِ- وتَتْرُكون مَن له صِفةُ الخالقيَّةِ والصِّفاتُ الحُسْنى(٤)؟! فالنُّكتةُ في العُدولِ عن اسمِ اللهِ الَّذي يَختَصُّ به، وهو «الله»: هي إقامةُ الحُجَّةِ عليهم بعدَمِ صَلاحيةِ مَعبودِهم للعبادةِ؛ لأنَّه لا يَستطيعُ الخَلْقَ، واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يَقدِرُ على الخَلْقِ، وعلى أحسَنِ الخَلْقِ(٥).

- ولم يقُلْ: (وتَدَعون أحسَنَ الخالقينَ)؛ لأنَّ فِعلَ (يَدَعُ) قَليلُ الاستِعمالِ في كَلامِ العرَبِ؛ ولذلك لم يقَعْ في القرآنِ إلَّا في قِراءةٍ شاذَّةٍ لا سنَدَ لها، خِلافًا لِفِعلِ (يَذَرُ)، وسبَبُ ذلك: أنَّ فِعلَ (يَذَرُ) يَدلُّ على تَرْكٍ مع إعراضٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٤).

عن المتْروكِ، بخِلافِ (يَدَعُ)؛ فإنَّه يَقْتضي تَرْكًا مُؤقَّتًا[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قُرِئَ برَفْعِ اسمِ الجَلالةِ وما عُطِفَ عليه[2]، فهو مُبتدأٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على الخطَأِ بأنْ عَبَدوا بَعْلًا. وقُرِئَ بنَصْبِ اسمِ الجلالةِ على عَطْفِ البَيانِ لـ ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، والمقصودُ مِن البَيانِ زِيادةُ التَّصريحِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ إيضاحٍ لأصْلِ الدِّيانة. وعلى كِلْتا القِراءتين فالكلامُ مَسوقٌ لِتَذْكيرِهم بأنَّ مِن أُصولِ دِينِهم أنَّه لا ربَّ لهم إلَّا اللهُ، وهذا أوَّلُ أُصولِ الدِّينِ؛ فإنَّه ربُّ آبائِهم؛ فإنَّ آباءَهم لمْ يَعبُدوا غيرَ اللهِ مِن عهْدِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهو الأبُ الأوَّلُ مِن حيثُ تَميَّزَتْ أُمَّتُهم عن غَيرِهم، أو هو يَعقوبُ عليه السَّلامُ. وجمَعَ هذا الخبَرُ تَحريضًا على إبطالِ عِبادةِ الصَّنمِ (بَعْل) -على قولٍ-؛ لأنَّ في الطَّبْعِ مَحبَّةَ الاقتداءِ بالسَّلفِ في الخيْرِ[3].

- والتَّعرُّضُ لِذِكْرِ رُبوبيَّتِه تعالى لِآبائهم في قَولِه: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ﴾؛ لِتأْكيدِ إنكارِ تَرْكِهم عِبادتَه تعالى، والإشعارِ ببُطلانِ آراءِ آبائِهم أيضًا[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: مُحْضَرون في العذابِ، وإنَّما أطْلَقَه؛ اكتِفاءً منه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٩).

(٢) قرأ يعقوبُ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ وحفصٌ بالنَّصبِ في الأسماء الثَّلاثة ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿رَبَّكُمْ﴾ ﴿وَرَبَّ﴾، وقرأ الباقون برفعِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٧، ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤).

بالقَرينةِ، أو لأنَّ الإحضارَ المُطلَقَ مَخصوصٌ بالشَّرِّ عُرْفًا[(١)]. وقد كثُرَ إطلاقُ المُحضَرِ ونَحوِه على الَّذي يُحضَرُ لأجْلِ العِقابِ، وإحضارِ السُّوءِ؛ ولذلك حذَفَ مُتعلَّقُ (مُحْضَرُونَ)[(٢)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾

- قوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استِثناءٌ يدُلُّ على أنَّ مِن قَومِه مُخلَصينَ لم يُكَذِّبوه، فهو استِثناءٌ مُتَّصِلٌ مِن ضمير ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾. ولا يَجوزُ أنْ يَكونَ استِثناءً مِن ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾؛ لأنَّه يَلْزَمُ أنْ يكونوا مُندرِجينَ فيمَن كذَّبَ، لكنَّهم لم يُحْضَروا لكونِهم عبادَ اللَّهِ المُخْلِصين! وهو بَيِّنُ الفسادِ. ولا يُناسِبُ أنْ يَكونَ استِثناءً مُنقطِعًا؛ إذْ يصيرُ المعنى: لكنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ مِن غيرِ قَومِه لا يُحضَرونَ للعَذابِ! ولا حاجةَ إلى هذا بوجهٍ، إذ به يَفْسُدُ نَظْمُ الكلامِ[(٣)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ يَتعلَّقُ لفظُ ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بفِعلِ ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾، بتَضمينِ هذا الفِعلِ معنَى (أنعَمْنا)، فأفادَ بمادَّته معنَى الإبقاءِ له، أي: إعطاءِ شَيءٍ مِنَ الفضائلِ المُدَّخَرةِ الَّتي يُشبِهُ إعطاؤُها تَرْكَ أحَدٍ مَتاعًا نفيسًا لِمَن يُخَلِّيه هو له ويَخلُفُه فيه، وشأنُ التَّضمينِ أنْ يُفيدَ المُضَمَّنُ مُفادَ كَلِمتَينِ، فهو مِن ألْطَفِ الإيجازِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٨، ١٦٩، ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

- في قَولِه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لَمَّا كان مفعولُ (تَرَكْنا) مَحذوفًا، وكان فِعلُ (أنعَمْنا) الَّذي ضُمِّنَه فِعلُ (تَرَكْنا) ممَّا يَحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ معنَى المفعولِ، كان محذوفًا أيضًا مع عامِلِه؛ فكان التَّقديرُ: (وتَرَكْنا له ثَناءً وأنعَمْنا عليه)؛ فحصَلَ في قَولِه: (تَرَكْنَا عَلَيْهِ) حذْفُ خَمسِ كَلِماتٍ، وهو إيجازٌ بديعٌ[(١)].

- قَولُه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال عَقِبَه ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ [الصافات: ٧٩]، وبعدَه ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ثمَّ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، وكذلك ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] فيمَن جعَله لغةً في إلياسَ، ولم يقُلْ في قصَّةِ لوطٍ ولا يونسَ: ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ لأنَّه لما قالَ: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فقد قال: سَلامٌ على كلِّ واحِدٍ مِنْهم؛ لقولِه في آخرِ السُّورةِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[(٢)].

٨- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- في قَولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تَعليلٌ لمُجازاةِ إلياسَ عليه السَّلامُ بتلك التَّكْرِمةِ السَّنيَّةِ مِن تَبقيةِ ذِكرِه، وتَسليمِ العالَمينَ عليه إلى آخرِ الدَّهرِ بأنَّه كان مُحسِنًا، ثمَّ علَّلَ كَونَه مُحسِنًا بأنَّه كان عبدًا مؤمنًا؛ لِيُريَك جَلالةَ محلِّ الإيمانِ، وأنَّه القُصارَى من صِفاتِ المدحِ والتَّعظيمِ، ويُرَغِّبَك في تَحصيلِه والازديادِ منه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

الآيات (١٣٣-١٣٨)

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقِينَ في العَذابِ، وقيل: الماضينَ الَّذين قد هلَكوا، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يكونُ بمعنَى الماضي، وبمعنَى الباقي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البَقاءِ[1].

﴿مُّصْبِحِينَ﴾: أي: داخِلينَ في وَقتِ الصَّباحِ، وأصلُ (صبح): لونٌ مِن الألوانِ، وهو الحُمرةُ، وسُمِّيَ الصُّبحُ صُبحًا لِحُمرتِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ لُوطًا لَمِنْ جُملةِ المُرسَلينَ إذ نجَّيْناه وأهلَه المُؤمنينَ مِن العذابِ إلَّا زَوجتَه العَجوزَ؛ كانت مع قَومِها الباقينَ في العذابِ، ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ جَميعًا.

وإنَّكم لَتَمُرُّونَ عليهم أثناءَ سَفَرِكم وأنتم داخِلونَ في وقتِ الصَّباحِ، وباللَّيلِ، أفلا تَعقِلونَ فتَتَّعِظوا وتخافوا أنْ يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه ما أراد مِن أُمورِ المُحسِنينَ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ المُرسَلينَ إلى ذُرِّيَّتِه في التَّسليةِ والتَّرجيةِ، وقدَّمَهم لأنَّ المِنَّةَ عليهم مِنَّةٌ عليه، والإنسانُ بابنِه أسَرُّ منه بقَريبِه، وهم الَّذين أظهَرَ اللهُ بهم ما تَرَك عليه مِن لِسانِ الصِّدقِ في الآخِرينَ- أتْبَعَهم قِصَّةَ ابنِ أخيه، فقال[(١)]:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣ ﴾.

أي: وإنَّ لُوطًا لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ اللهِ تعالى[(٢)].

﴿ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٣٤ ﴾.

أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ نجَّيْناه وأهلَه المُؤمِنينَ مِن العذابِ الَّذي أصاب قَومَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قيل: ﴿ إِذۡ ﴾ ظَرفٌ لِفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، وابن الجوزي، والرسعني، وجلال الدين المحلي، والشوكانيُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٧، ٢٨٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الكُفرُ قاطِعًا للسَّبَبِ القَريبِ، كما أنَّ الإيمانَ واصلٌ للسَّبَبِ البَعيدِ؛ قال[1]:

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥﴾.

أي: إلَّا زَوجتَه العَجوزَ لم نُنَجِّها؛ فكانت مع القَومِ الباقينَ في العَذابِ[2].

= قال الشوكاني: (الظَّرفُ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ هو اذكُرْ، ولا يصِحُّ تعلُّقُه بالمرسَلينَ؛ لأنَّه لم يُرسَلْ وقتَ تَنجيتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٢).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: إنَّه في حينِ إنجاءِ اللهِ إيَّاه، وإهلاكِ اللهِ قَومَه: كان قائمًا بالرِّسالةِ عن اللهِ تعالى، ناطِقًا بما أمَرَه اللهُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٨).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لـ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الشوكاني: (الغابرُ يكونُ بمعنى الماضي، ويكونُ بمعنى الباقي، فالمعنى: إلَّا عجوزًا في =

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ [الحجر: ٥٩، ٦٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ جَميعًا، فلم يَبقَ منهم أحَدٌ[1].

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

أي: وإنَّكم[2] لَتَمُرُّونَ أثناءَ سَفَرِكم على الموضِعِ الَّذي كان فيه قَومُ لُوطٍ، وأنتم داخِلونَ في وَقتِ الصَّباحِ في أوَّلِ النَّهارِ[3].

= الباقينَ في العذابِ، أو الماضينَ الَّذين قد هلَكوا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٨).

(٢) قيل: الخِطابُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

وقيل: يُمكِنُ أن يكونَ الخِطابُ عامًّا لكُلِّ مَن يَمُرُّ بِقُراهم إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾.

﴿وَبِٱلَّيۡلِ﴾.

أي: وتَمُرُّونَ عليهم باللَّيلِ أيضًا[1].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفلَيسَتْ لديكم عُقولٌ تَتفكَّرونَ بها، فتَعتَبِروا وتتَّعِظوا، وتَخافوا أن يُصيبَكم اللهُ بعَذابِه كما أصابَ قَومَ لوطٍ الَّذين كذَّبوا رَسولَه وخالَفوه[2]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أنَّه قد تكونُ المرأةُ الكافِرةُ تحتَ الرَّجُلِ المؤمِنِ مِن غيرِ أنْ يَعلَمَ بها، وقد بَيَّنَ اللهُ سببَ ذلك -أي: سبَبَ وقوعِ العَذابِ عليها- بأنَّها كانت قد خانتْ زَوجَها بالكُفرِ مِن غيرِ أنْ يَعلَمَ؛ كما في قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٩، ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١، ١٧٢).

قال ابنُ عاشور: (وكان أهلُ مكَّةَ إذا سافَروا في تجارتِهم إلى الشَّام يمُرُّونَ ببلادِ فِلسطين، فيَمُرُّونَ بأرضِ لوطٍ على شاطئِ البَحرِ الميِّتِ المسمَّى بُحيرةَ لُوطٍ...، وكانوا يمُرُّونَ بديارِ لُوطٍ بجانبِها؛ لأنَّ قُراهم غمَرَها البَحرُ الميِّتُ، وآثارُها باقيةٌ تحت الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠]، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَتفقَّدَ أهْلَه، وأنْ يَتحرَّى، وأنْ يَسبُرَ أمورَهم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ * وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ذكَرَ هذه القِصَّةَ؛ لِيَعتبرَ بها مُشرِكو العَرَبِ؛ فإنَّ الَّذين كفَروا مِن قَومِه هلَكوا، والَّذين آمَنوا نَجَوْا[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ أنَّ القُربَ مِن الأنبياءِ والأولياءِ لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا؛ لأنَّ هذه زَوجةُ نَبيٍّ، ومع ذلك هَلَكَت مع مَن هَلَكَ، فكَوْنُ الإنسانِ قريبًا مِن إنسانٍ وَليٍّ للهِ: لا يُفيدُه شيئًا؛ فأبو لهبٍ عَمُّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ومع ذلك ما نزَلَ القُرآنُ في أحدٍ مُعَيَّنٍ مِن الكُفَّارِ سِوى أبي لهبٍ عَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وما نزَلَ القُرآنُ في تَسميةِ شَخصٍ بعَينِه مِن المُسلِمينَ إلَّا في زيدِ بنِ حارثةَ - مَولًى مِن الموالي- مِن أبعَدِ ما يكونُ عن الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ! وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ قُربَ النَّسَبِ وقُربَ المصاهرةِ لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا[٣]!

٢- الإشارةُ إلى أنَّ الإنسانَ إذا رأى الشَّيءَ بعَينِه كان ذلك أقوى يَقينًا ممَّا إذا أُخبِرَ به؛ لِقَولِه: ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴾ وتُشاهِدونَ آثارَهم، وهذا يُسمَّى عَيْنَ اليَقينِ، والخُبْرُ به يُسمَّى عِلْمَ اليَقينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٣).

٣- أنَّ العَقلَ حقيقةً هو ما أرشَدَ صاحبَه إلى فِعْلِ الخيرِ وتَرْكِ الشَّرِّ، وليس العَقلُ هو الذَّكاءَ؛ فالعَقلُ شَيءٌ، والذَّكاءُ شيءٌ آخَرُ، وكلُّ مَن كان مُكَذِّبًا للرُّسُلِ، مُستكبِرًا عمَّا جاؤوا به؛ فإنَّه ليس بعاقِلٍ حتَّى وإنْ كان مِن أدهَى النَّاسِ، أو كان ذا شَرَفٍ وجاهٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقد قال اللهُ مثلَ هذا في بَني إسرائيلَ الَّذين يأمُرونَ النَّاسَ بالبِرِّ ويَنسَونَ أنفُسَهم وهم يَتْلونَ الكِتابَ، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (إذ) ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: واذكُرْ، أي: اذكُرْ وَقتَ تَنْجيتِنا إيَّاهُ. وعلى القولِ بأنَّ (إذ) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ فالمعنى: أنَّه في حِينِ إنجاءِ اللهِ إيَّاهُ وإهلاكِ اللهِ قَومَه، كان قائمًا بالرِّسالةِ عن اللهِ تعالى، ناطقًا بما أمَرَه اللهُ، وإنَّما خُصَّ حِينُ إنجائه بجَعْلِه ظَرْفًا للكَونِ مِن المرسَلينَ؛ لأنَّ ذلك الوقتَ ظَرْفٌ للأحوالِ الدَّالَّةِ على رِسالتِه؛ إذ هي مُماثِلةٌ لأحوالِ الرُّسلِ مِن قبْلُ ومِن بعْدُ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾

- الخِطابُ لِقُريشٍ الَّذينَ سِيقَتْ هذه القصصُ لِعِظَتِهم، وتَعديةُ المرورِ بحرْفِ (على) يُعيِّنُ أنَّ الضَّميرَ المجرورَ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: على أرْضِهم، يُقالُ: مَرَّ عليه، ومرَّ بِه، وتَعديتُه بحرْفِ (على) تُفيدُ تَمكُّنَ المرورِ أشَدَّ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

تَعْديته بالباءِ[(١)].

- والخبَرُ الَّذي في قَولِه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ والاعتبارِ، لا في حَقيقةِ الإخبارِ، وتأْكيدُه بحرْفِ التَّوكيدِ وباللَّامِ تأْكيدٌ للمَعْنى الَّذي استُعْمِلَ فيه[(٢)].

- قَولُه تعالى: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أي: داخِلينَ في الصَّباحِ؛ الوَقتِ الَّذي قَلَبْنا مَدائِنَهم عليهم فيه، ونَصَّ عليه؛ للتَّذكيرِ بحالِهم فيه[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- نَبَّههم بقَولِه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيْلِ﴾ لِيَعتَبِروا؛ لأنَّ القَومَ كانوا يُسافِرونَ إلى الشَّامِ، والمسافِرُ في أكثَرِ الأمرِ إنَّما يَمشي في اللَّيلِ وفي أوَّلِ النَّهارِ؛ فلهذا السَّبَبِ عيَّن تعالى هذَينِ الوَقتَينِ[(٤)].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ مِن عَدَمِ فِطنةِ قُريشٍ لِدَلالةِ تلك الآثارِ على ما حلَّ بقَومِ لُوطٍ مِن سَخَطِ اللهِ، وعلى سبَبِ ذلك؛ وهو تَكذيبُ رسولِ اللهِ لُوطٍ عليه السَّلامُ[(٥)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٢).

الآيات (١٣٩-١٤٨)

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَبَقَ﴾: أي: هَرَب وفَرَّ، وأصلُ (أبق): يدُلُّ على التَّباعُدِ[١].

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السُّفنِ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيتْ فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[٢].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: المملوءِ، وأصلُ (شحن): يدُلُّ على الملءِ[٣].

﴿فَسَاهَمَ﴾: أي: قارَعَ، والسَّهمُ: ما يُرمَى به وما يُضرَبُ به مِن القِداحِ، وأصلُه: يدُلُّ على الحَظِّ والنَّصيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾: أي: المَغلُوبينَ في القُرعةِ، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ وزَلَقٍ(١).

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ﴾: أي: فابتَلَعَه، وهو افتِعالٌ مِن اللَّقْمِ، وأصلُ (لقم): يدُلُّ على تَناوُلٍ(٢).

﴿ٱلۡحُوتُ﴾: الحوتُ: العظيمُ مِن السَّمكِ، أو: السَّمكُ كلُّه، وأصلُ (حوت): مِن الاضْطِرابِ والرَّوَغانِ، والحوتُ مُضطرِبٌ أبدًا غيرُ مستقرٍّ(٣).

﴿مُلِيمٞ﴾: أي: مُسيءٌ مُذنِبٌ آتٍ بما يُلامُ عليه، وأصلُ (لوم): يدُلُّ على عَتْبٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤)، ((المخصص)) لابن سيده (٣/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١).

قال الزَّيْنُ الرَّازيُّ: (الْحُوتُ: السَّمَكةُ... ويُؤَيِّدُ كَوْنَه مُطْلَقَ السَّمكةِ قولُه تعالَى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] والمنقولُ في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّها كانَتْ سمكةً في مِكْتَلٍ. وما ظَنُّكَ بزَوَّادَةِ اثنينِ خُصوصًا موسَى وصاحِبَه؟! وأدَلُّ مِنْ هذا قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. وأمَّا قولُه تعالَى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾ فإنَّه يدُلُّ على صِحَّةِ إطلاقِ الحوتِ على السَّمكةِ الكبيرةِ، لا على حَصْرِ مُسَمَّى الحوتِ فيها كما يَظُنُّه العامَّةُ. وقال ابنُ فارِسٍ: الحوتُ: العَظيمُ مِنَ السَّمكِ). ((مختار الصحاح)) (ص: ٨٣). ويُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾: أي: فألقَيْناه وقذَفْناه بمَكانٍ خالٍ لا يَتوارى فيه بشَجَرٍ ولا غَيرِه، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على الطَّرحِ والإلقاءِ، وأصلُ (عري) هنا: يدُلُّ على خُلُوٍّ ومُفارَقةٍ[١].

﴿يَقْطِينٍ﴾: اليَقطينُ: الدُّبَّاءُ (القرعُ). وقيل: هو كُلُّ شَجَرٍ لا يَقومُ على ساقٍ؛ مِثلُ: القَرعِ، والبِطِّيخِ، ونَحوِهما[٢].

﴿حِينٍ﴾: أي: مُنتهى آجالِهم، وأصلُ (حين): يدُلُّ على زَمانٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ يُونُسَ لَمِن جُملةِ المُرسَلينَ إذ هَرَب إلى السَّفينةِ المملوءةِ بالرُّكَّابِ والأمتِعةِ، فقارَعَ يُونُسُ مع رُكَّابِ السَّفينةِ؛ لِيَختاروا مَن يُلقُونَه في البَحرِ؛ لِيَخِفَّ حِملُ السَّفينةِ حينَ خافوا الغَرَقَ، فكان يونُسُ من جُملةِ المغلوبينَ الَّذين أُلقُوا في البَحرِ، فابتَلَعه الحوتُ والحالُ أنَّه قد فَعَل ما يُلامُ عليه!

فلولا أنَّه كان مِن المُسَبِّحينَ اللهَ تعالى لَبَقِيَ في بَطنِ الحُوتِ إلى يَومِ البَعثِ، فألقَيْنا يونُسَ في مَكانٍ مُقفِرٍ خالٍ مِن كُلِّ شَيءٍ، وهو مَريضٌ، وأنبَتْنا عليه شَجَرةً مِن يَقطينٍ؛ لِيَأكُلَ منها، وأرسَلْناه إلى مِئةِ ألْفِ إنسانٍ أو يَزيدونَ على ذلك، فآمَنوا بما جاءَهم به يُونُسَ، فمَتَّعَهم اللهُ في الدُّنيا إلى حينِ بُلوغِ آجالِهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أكمَلَ اللهُ سُبحانَه ما أرادَ مِن أُمورِ مَن كان على أيديهم هَلاكٌ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، خَتَم بمَن آلَ أمرُ قَومِه إلى سَلامةٍ وإيمانٍ، ونِعمةٍ وإحسانٍ؛ تغليبًا للتَّرجيةِ على التَّأسيةِ والتَّعْزيةِ[١].

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾.

أي: وإنَّ يُونُسَ لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ اللهِ تعالى[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: يعني: اللهَ تبارك وتعالى: ((لا ينبغي لعبدٍ لي أن يَقولَ: أنا خَيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى عليه السَّلامُ))[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما يَنبغي لأحَدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى[٤]))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) واللَّفظُ له.

(٤) يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ أنَّ العبدَ القائلَ هو الَّذي لا يَنبغي له أن يقولَ ذلك، أي: ليس لأحدٍ أن يُفضِّلَ نفسَه على يونسَ عليه السلامُ. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بقولِه: ((أنا)) رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقاله تواضعًا، أي: ليس لأحدٍ أنْ يُفضِّلَني عليه، ودلَّ حديثُ أبي هريرة السابقُ على أنَّ الاحتمالَ الأوَّلَ أوْلَى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦٧)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ٢٩٣).

(٥) رواه البخاري (٤٦٠٣).

﴿ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ ﴾.

أي: حينَ هَرَب إلى السَّفينةِ المَملوءةِ[١].

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦، ٢٩٧).

قيل: ﴿ إِذۡ ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عاشور، وذكره ابنُ عثيمينَ احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

وذهب ابنُ عثيمين إلى أنَّ المعنى على القَولِ بأنَّ ﴿ إِذۡ ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بالمُرسَلينَ: هو أنَّ إباقَه لم يَسلُبْه الرِّسالةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

وقيل: ﴿ إِذۡ ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. واستحسَنه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

قال البغوي: (واختلَفوا في أنَّ رِسالةَ يونُسَ بنِ متَّى: متى كانت؟ فروى سعيدُ بنُ جُبَيرٍ عن ابنِ عبَّاس: أنَّها كانت بعدَ أن أخرَجَه اللهُ مِن بطنِ الحوتِ؛ بدليلِ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ ذكَرَ في سورةِ الصَّافَّات ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾، ثمَّ ذكر بَعْدَه: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧]. وقال الآخرون: إنَّها كانت مِن قَبْلُ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾ [الصافات: ١٣٩، ١٤٠]). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٥).

قال ابنُ جُزَي: (وسببُ هروبِه غضَبُه على قَومِه حينَ لم يؤمِنوا. وقيل: إنَّه أخبَرَهم أنَّ العذابَ يأتيهم في يومٍ مُعَيَّنٍ حسبَما أعلمه اللهُ، فلمَّا رأى قَومُه مَخايلَ العذابِ آمَنوا، فرفَع اللهُ عنهم العذابَ، فخاف أن يَنسبوه إلى الكذبِ فهرَب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧).

وقال السعدي: (ولم يَذكُرِ اللهُ ما غاضَبَ عليه، ولا ذَنْبَه الَّذي ارتكَبَه؛ لعَدمِ فائدتِنا بذِكرِه، وإنَّما فائدتُنا بما ذُكِّرْنا عنه أنَّه أذنَبَ، وعاقَبَه اللهُ مع كَونِه مِن الرُّسُلِ الكرامِ، وأنَّه نجَّاه بعدَ ذلك، وأزال عنه المَلامَ، وقيَّض له ما هو سَبَبُ صلاحِه. فلمَّا أَبَقَ لجأَ إلى الفُلكِ المشحونِ بالرُّكَّابِ والأمتعةِ، فلَمَّا رَكِبَ مع غيره، والفُلكُ شاحِنٌ، ثَقُلَتِ السَّفينةُ، فاحتاجوا إلى إلقاءِ بَعضِ الرُّكْبانِ، وكأنَّهم لم يَجِدوا لأحَدٍ مَزِيَّةً في ذلك، فاقتَرَعوا على أنَّ مَن قُرِعَ وغُلِبَ أُلقِيَ في البَحرِ؛ عَدلًا مِن أهلِ السَّفينةِ، وإذا أراد اللهُ أمرًا هيَّأ أسبابَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

أي: فقارَعَ يُونُسُ مع ركَّابِ السَّفينةِ؛ لِيَختاروا مَن يُلقونَه في البَحرِ؛ لِتَخِفَّ بهم السَّفينةُ حينَ خافوا الغَرَقَ، فكان يُونُسُ مِن جُملةِ المغلوبينَ الَّذين أُلقُوا في البَحرِ[١].

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢﴾.

أي: فابتَلَعَه الحوتُ، والحالُ أنَّه قد فعَلَ ما يُلامُ عليه[٢].

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾.

أي: فلولا أنَّ يُونُسَ كان مِنَ المُسَبِّحينَ اللهَ تعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٥)، ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٧، ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (كان غرَقُه في البَحرِ المسَمَّى بحرَ الرُّوم، وهو الَّذي نُسَمِّيه البحرَ الأبيضَ المتوسِّطَ، ولم يكُنْ بنَهرِ دِجلةَ كما غَلِطَ فيه بعضُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

قال ابن الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: مِنَ المُصَلِّينَ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. والثَّاني: مِنَ العابِدينَ. قاله مجاهِدٌ، ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ. والثَّالثُ: قولُ «لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانَك إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمين». قاله الحَسَنُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونَسَبه إلى قَولِ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤١١) و (١٩/ ٦٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٤).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ﴾ يعني: يونُسَ ﴿كَانَ مِنَ﴾ المُصَلِّينَ لله قبْلَ البَلاءِ الَّذي ابتُلِيَ به مِن العُقوبةِ بالحَبسِ في بطنِ الحُوتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٧). =

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

أي: لَبَقِيَ في بَطنِ الحُوتِ إلى اليَومِ الَّذي يُبعَثُ فيه العِبادُ[1].

﴿ فَنَبَذۡنَـٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

= وممَّن اختار القَولَ الثَّالثَ: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥).

قال ابن الجوزي: (فعلى هذا القَولِ يكونُ تسبيحُه في بطنِ الحوتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٢).

وقيل: مِن الذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا بالتَّسبيحِ والتَّقديسِ. وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴾ أي: مِنَ المُصَلِّينَ لله تعالى والذَّاكرينَ إيَّاه: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٥).

قال ابنُ الجوزي: (وجمهورُ العُلَماءِ على أنَّه أراد: لولا ما تقدَّم له قبْلَ الْتِقامِ الحَوتِ إيَّاه؛ من التَّسبيحِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٣).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: السعديُّ، فقال: (﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴾ أي: في وقتِه السَّابقِ، بكَثرةِ عبادتِه لرَبِّه، وتسبيحِه، وتحميدِه، وفي بَطنِ الحوتِ؛ حيث قال: ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٨).

قال الشوكاني: (﴿ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ أي: لَصار بطنُ الحوتِ له قبرًا إلى يومِ البعثِ. وقيلَ: لَلَبثَ في بَطْنِه حَيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧١).

وقال الرازي: (واختَلَفوا في أنَّه كم لَبِثَ في بطنِ الحوتِ، ولفظُ القرآنِ لا يدُلُّ عليه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٧).

أي: فألقَيْنا يُونُسَ في مَكانٍ مُقفِرٍ خالٍ مِنَ الشَّجَرِ والبناءِ، وهو مَريضٌ[1].

﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ ﴾.

أي: وأنبَتْنا عليه شَجَرةَ يقطينٍ[2]؛ ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١، ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) قيل: المرادُ باليَقطينِ: كُلُّ شَجَرةٍ لا تقومُ على ساقٍ؛ كالدُّبَّاءِ -أي: القَرعِ-، والبِطِّيخِ، والحَنظلِ، وغيرِ ذلك. وممَّن قال بهذا القول: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١٤).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣).

وممَّن اختار أنَّها الدُّبَّاءُ (القرع): ابنُ القيِّم، والبِقاعي، وابنُ عاشور، وذكر ابنُ عطيَّةَ أنَّ القَولَ بأنَّ اليقطينَ هو القَرعُ هو المشهورُ في اللُّغةِ، ونسَبَه الواحديُّ والسَّمعانيُّ إلى جميعِ المفَسِّرينَ، ونسَبَه أبو السُّعودِ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بهذا القولِ: عبدُ الله بنُ مسعود، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ الأَوْديُّ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُغيرةُ، والضَّحَّاكُ، ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، وهلالُ بنُ يَسافٍ، وعبدُ الله بنُ طاوسٍ، وعَطاءٌ الخُراسانيُّ، والسُّدِّيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠).

قال ابنُ جُزَي: (﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ أي: أنبَتْناها فوقَه؛ لِتُظِلَّه وتَقيَه حَرَّ الشَّمسِ، واليَقطينُ: القَرعُ، وإنَّما خَصَّه اللهُ به؛ لأنَّه يجمَعُ بَردَ الظِّلِّ، ولِينَ اللَّمسِ، وكِبَرَ الوَرقِ، وأنَّ الذُّبابَ لا يَقرَبُه؛ فإنَّ لحمَ يُونُسَ لَمَّا خرَج مِن البَحرِ كان لا يحتَمِلُ الذُّبابَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (وهي كثيرةُ الوَرَقِ، تتسَلَّقُ أغصانُها في الشَّيءِ المُرتَفِعِ، فالظَّاهِرُ أنَّ أغصانَ اليَقطينةِ تسَلَّقَتْ على جسَدِ يُونُسَ فكسَتْه وأظلَّتْه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧). =

لِيَقتاتَ منها، ويَنتفِعَ بها[١].

﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

أي: وأرسَلْنا يُونُسَ إلى مِئةِ ألْفِ شَخصٍ أو[٢] ....

= وقال القرطبي: (قولُه: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ يعني ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: عندَه، كقولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] أي: عندي. وقيل: ﴿عَلَيْهِ﴾ بمعنى: له). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) قيل: ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى: بَلْ؛ فهي تُثبِتُ وُجودَ زيادةٍ في العدَدِ على مئةِ ألْفٍ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدةَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٣)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٣).

وقيل: هي بمعنى الواوِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ قُتَيْبَةَ، والخازنُ، ونسَبَه البَغَويُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٤٨).

وممَّن قال من السَّلفِ: إنَّ المعنى أنَّهم يَزيدون على مِئةِ ألْفٍ -وإنِ اختَلفوا في مِقدارِ الزِّيادةِ-: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ، والربيعُ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ، ومكحولٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١).

وقيل: هي على أصلِها، والمعنى: أو يَزيدونَ في تَقديرِكم إذا رآهم الرَّائي منكم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الأخفَشُ، والزمخشريُّ، والنَّسَفي، وأبو السعود. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣١٤).

ومِن قواعدِ التَّفسيرِ: أنَّه قد يَرِدُ الخِطابُ بالشَّيءِ في القرآنِ على اعتقادِ المُخاطَبِ دُونَ ما في نفْسِ الأمرِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

وقيل: المرادُ بها التَّحقيقُ والتَّأكيدُ، أي: إنَّ عدَدَهم مِئةُ ألْفٍ لا يَنقُصونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٥٠)، ((مدارج السالكين)) =

يَزيدونَ عليهم[(١)].

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾.

أي: فآمَنوا كُلُّهم بما جاءَهم به يُونُسُ، ووحَّدوا اللهَ، فلم يُعَذِّبْهم، ومتَّعَهم في الدُّنيا إلى حينِ بُلوغِ آجالِهم[(٢)].

= لابن القيم (١/ ٣٢٦) و (٣/ ٣٠٢).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان العددُ الكثيرُ لا يُمكِنُ ناظِرَه الوُقوعُ فيه على حقيقةِ عدَدِه، بل يَصيرُ -وإن كان أثبَتَ النَّاسِ نظرًا- يقولُ: هم كذا، يَزيدونَ قليلًا أو يَنقُصونَه، وتارةً يَجزِمُ بأنَّهم لا يَنقُصونَ عن كذا وأمَّا الزِّيادةُ فمُمكِنةٌ، وتارةً يَغلِبُ على ظنِّه الزِّيادةُ، وهو المرادُ هنا؛ قال: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾؛ لأنَّ التَّرجيةَ في كثرةِ الأتْباعِ أقَرُّ لِلْعَينِ، وأسَرُّ للقَلبِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٩٦).

ومِن معاني (أو): الشَّكُّ بالنسبةِ إلى المخاطبين، أي: إن الرائي يَشُكُّ عندَ رؤيتِهم.

ومِن معانيها: الإبهامُ بالنسبةِ إلى أنَّ الله تعالى أبْهَم أمْرَهم.

ومِن معانيها: الإباحةُ أي: أنَّ الناظرَ إليهم يُباحُ له أن يَحْزِرَهم بهذا القَدْرِ، أو بهذا القَدْرِ.

ومن معانيها: التخييرُ أي: هو مُخَيَّرٌ بين أنْ يَحزِرَهم كذا أو كذا. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ١٦٧) و (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٦) و(٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قال الزمخشري: (﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ المرادُ به ما سَبَق مِن إرسالِه إلى قَومِه، وهم أهلُ نِينَوَى. وقيل: هو إرسالٌ ثانٍ بعدَ ما جرى عليه إلى الأوَّلِينَ، أو إلى غيرِهم. وقيل: أسلَموا فسألوه أن يَرجِعَ إليهم فأبى؛ لأنَّ النَّبيَّ إذا هاجَرَ عن قَومِه لم يرجِعْ إليهم مُقيمًا فيهم، وقال لهم: إنَّ اللهَ باعِثٌ إليكم نَبيًّا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢).

وقال البِقاعي: (لَمَّا لم يَتعلَّقِ الغَرَضُ بتَعيينِ المُرسَلِ إليهم، وهل هم الَّذين أبَقَ عنهم أوْ لا؟ قال: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾، والجُمهورُ على أنَّهم الَّذين أُرسِلَ إليهم أوَّلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٩٥، ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

الفَوائِدُ التَّربَوِيَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيه بَيانُ فَضلِ التَّسبيحِ، والعَمَلِ في الرَّخاءِ(١). وفيه إشارةٌ إلى حديث: ((تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْك في الشِّدَّةِ))(٢). قال الضَّحَّاكُ: (اذكُروا اللهَ في الرَّخاءِ، يَذكُرْكم في الشِّدَّةِ؛ إنَّ يُونُسَ عليه السَّلامُ كان عَبدًا صالِحًا، وكان يَذكُرُ اللهَ، فلمَّا وَقَع في بَطنِ الحُوتِ سأل اللهَ، فقال اللهُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وإنَّ فِرعَونَ كان عَبدًا طاغيًا ناسيًا لذِكرِ اللهِ تعالى، فلمَّا أدركَه الغَرَقُ قال: آمَنْتُ، فقال اللهُ: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١]؟!)(٣)، ففيه تَرغيبٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ في إكثارِ المؤمِنِ مِن ذِكرِه بما هو أهْلُه،

= كثير)) (٧/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٣، ٢٩٤).

والحديث أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣)، والطَّبَرانيُّ (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكمُ (٦٣٠٣) -واللفظُ له- مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

صحَّح الحديثَ عبدُ الحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبيُّ في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٩٦١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨٠٣).

وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حَجَرٍ في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، والسَّخاويُّ في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨)، وحسَّنَ إسنادَه الصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٦٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٣٤٨).

وإقبالِه على عِبادتِه، وجمْعِ هَمِّه لِتَقْييدِ نِعمتِه بالشُّكرِ في وَقتِ المُهلةِ والفُسحةِ؛ لِيَنْفَعَه ذلك عِندَه تعالى في المَضايقِ والشَّدائدِ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ...﴾ الغَرَضُ مِن ذِكرِ يُونُسَ عليه السَّلامُ هنا تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يَلْقاه مِن ثِقلِ الرِّسالةِ، بأنَّ ذلك قد أثقَلَ الرُّسُلَ مِن قَبْلِه، فظَهَرت مَرتبةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في صَبرِه على ذلك، وعَدَمِ تذَمُّرِه، ولإعلامِ جميعِ النَّاسِ بأنَّه مأمورٌ مِن اللهِ تعالى بمُداوَمةِ الدَّعوةِ للدِّينِ؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا يَلومونَه على إلحاحِه عليهم، ودَعوتِه إيَّاهم في مُختلِفِ الأزمانِ والأحوالِ، ويَقولونَ: (لا تَغْشَنا في مجالِسِنا، فمَن جاءك مِنَّا فأسمِعْه)، كما قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ[2]. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ فلِذِكرِ قِصَّةِ يُونُسَ أثَرٌ مِن مَوعِظةِ التَّحذيرِ مِن الوُقوعِ فيما وقَعَ فيه يُونُسُ مِن غَضَبِ رَبِّه؛ ألَا ترى إلى قَولِه تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٨، ٤٩]، ولِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ اللهَ إذا اصطفى أحدًا للرِّسالةِ لا يُرَخِّصُ له في الفُتورِ عنها، ولا يَنسَخُ أمْرَه بذلك؛ لأنَّ اللهَ أعلَمُ حيثُ يجعَلُ رِسالاتِه[3].

٢- أنَّ مَقامَ النُّبُوَّةِ لا يَمنَعُ مِن فِعْلِ بَعضِ ما لا يكونُ مَحبوبًا إلى اللهِ، أي: أنَّ الرَّسولَ قد يقومُ بشَيءٍ لم يُؤمَرْ به. دَليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٨).

ﱡﭐ ٱلۡمَشۡحُونِ ﱠ، فعَبَّرَ عن خُروجِه بالإباقِ؛ لأنَّه خُروجٌ لم يُؤمَرْ به[١].

٣- قولُه تعالى: ﱡﭐ فَسَاهَمَ ﱠ استُدِلَّ به على جوازِ المُساهَمةِ -يعني: القُرْعةَ-، وذلك على أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شرعٌ لنا ما لم يَرِدْ شرعُنا بخلافِه؛ وقد وَرَدَ شرعُنا بوفاقِه؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أراد سفرًا أَقْرَعَ بيْنَ نسائِه؛ فأيَّتُهنَّ خَرَج سَهْمُها خَرَج بها[٢].

٤- حُبُّ الإعذارِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه يُحِبُّ الإعذارَ مِن خَلقِه -أي: إقامةَ العُذرِ لِمَا فَعَلَه عزَّ وجلَّ- حتَّى لا يُنسَبَ فِعلُه للظُّلمِ وللسَّفَهِ، وتُؤخَذُ مِن قولِه تعالى: ﱡﭐ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﱠ، يعني: ليس في حالٍ لا يُلامُ عليها حتَّى يُقالَ: إنَّ في هذا ظُلمًا له أو سفهًا في حقِّه! بلِ التَقَمَه الحوتُ في حالٍ هو مُستَحِقٌّ فيها لذلك؛ ولهذا قال: ﱡﭐ وَهُوَ مُلِيمٌ ﱠ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﱡﭐ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﱠ دَليلٌ على أنَّ المرءَ يُحفَظُ بصالحِ عَمَلِه، ويَنجُو به مِن المُهلِكاتِ[٤]، فالطَّاعاتُ السَّابقةُ تكونُ سَبَبًا للنَّجاةِ مِن المُهْلِكاتِ اللَّاحقةِ، فيكونُ في هذا شاهِدٌ لِقَولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٩).

والحديث رواه البخاري (٢٦٨٨)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

لكن قال ابنُ عاشور: (ليس في الآيةِ دَليلٌ على مشروعيَّةِ القُرعةِ في الفَصلِ بيْن المُتساوِيَينِ؛ لأنَّها لم تَحْكِ شَرعًا صحيحًا كان قبْلَ الإسلامِ؛ إذْ لا يُعرَفُ دينُ أهلِ السَّفينةِ الَّذين أجرَوُا الاستِهامَ على يُونُسَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٤).

وقال أيضًا: (ما أُجرِيَ الاستِهامُ عليه قد أجمَعَ المُسلِمونَ على أنَّه لا يَجري في مِثلِه استِهامٌ). ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٣٩).

النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((تعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ))[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أنَّه لو بَقِيَ في بَطنِ الحوتِ لَكان فيه آيةٌ مِن آياتِ اللهِ؛ أنْ يَبقى هذا الحوتُ مِن ذلك الوَقتِ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ هذا ظاهِرُ اللَّفظِ؛ أنَّه يَبقى في بَطنِه إلى البَعثِ[(٢)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ فيه سؤالٌ: في هذه الآيةِ التَّصريحُ بنَبذِ يُونُسَ بالعَراءِ -عليه وعلى نَبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- وقد جاءتْ آيةٌ أُخرَى يُتوَهَّمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]؟

الجوابُ: أنَّ الامتِناعَ المدلولَ عليه بحَرفِ الامتِناعِ الَّذي هو: (لولا) مُنصَبٌّ على الجُملةِ الحاليَّةِ، لا على جوابِ (لولا). وتقريرُ المعنى: لولا أنْ تداركه نِعمةٌ مِن رَبِّه لَنُبِذَ بالعَراءِ في حالِ كونِه مَذمومًا، لكِنَّه تداركَتْه نِعمةُ رَبِّه، فنُبِذَ بالعراءِ غيرَ مذمومٍ؛ فهذه الحالُ عُمدةٌ لا فَضلةٌ، لأنَّ المرادَ بالفَضلةِ ما ليس رُكنًا في الإسنادِ وإن توقَّفَت صِحَّةُ المعنى عليه. ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقَولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]؛ لأنَّ النَّفيَ فيهما مُنصَبٌّ على الحالِ لا على ما قَبْلَهما[(٣)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ فيه إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٢).

والحديثُ تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٨).

لأنَّ هذه الشَّجَرةَ تُظِلُّه -على قولٍ- وتُبرِّدُ عليه، وهي لَيِّنةُ المَلمَسِ، ويُقالُ: إنَّ الذُّبابَ لا يَقَعُ عليها، واللهُ قادرٌ على أنْ يُظِلَّه بغَمامةٍ، وقادِرٌ على أنْ يُبقيَه في الشَّمسِ في العراءِ ولا يَتأثَّر، لكِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُبيِّنُ لعِبادِه أنَّ الأشياءَ تكونُ بأسبابِها، فالأسبابُ مُؤثِّرةٌ، لكِنْ لا بنَفْسِها، ولكِنْ بما أودَعَه اللهُ بها مِن أسبابِ التَّأثيرِ(١).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ فيه سؤالٌ: وهو: أنَّ الشَّجَرةَ في كلامِ العَرَبِ إنَّما تُقالُ لِما كان على ساقٍ مِن عُودٍ، واليقطينُ لا ساقَ له؟

والجوابُ مِن أوجُهٍ:

منها: أنَّ قولَه تعالى: ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ جاء تجوُّزًا.

ومنها: أنَّ اللهَ أنبَتَها عليه ذاتَ ساقٍ؛ خَرقًا للعادةِ ليُونُس عليه السَّلامُ، فأخرجها عن عادةِ أمثالِها حتَّى تصيرَ عليه كالعريشِ؛ ليَحصُلَ له ظِلٌّ؛ لأنَّه لو كان مُنبَسِطًا على الأرضِ لم يُمكِنْ أن يَستَظِلَّ به(٢).

ومنها: أنَّ الشَّجَرَ إذا أُطلِق كان ما له ساقٌ يقومُ عليه، لكِنْ إذا قُيِّد بشَيءٍ تقيَّدَ به؛ فمُسَمَّى الشَّجَرةِ على إطلاقِه هو: ما له ساقٌ يقومُ عليه، ولكِنْ لَمَّا تقَيَّدَت هنا باليَقطينِ، فتكونُ بلا ساقٍ(٣).

١٠- في قَوْلِه: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ إنْ قُلْتَ: ﴿يَزِيدُونَ﴾ فِعْلٌ ولا يَصِحُّ عطفُه على المجرورِ بـ﴿إِلَىٰ﴾؛ فإنَّ حرفَ الجرِّ لا يَصِحُّ تقديرُه على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧٠، ٣٧١).

الفعلِ، ولذلكَ لا يجوزُ: مَرَرْتُ بقائِمٍ ويَقْعُدُ، على تأويلِ: قائِمٍ وقاعِدٍ.

فالجوابُ: أنَّ ﴿يَزِيدُونَ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ في محلِّ رفعٍ والتقديرُ: أو هم يَزيدونَ، وجازَ عطفُ الاسميَّةِ على الفعليَّةِ بـ﴿أَوْ﴾ لاشتراكِهما في مُطْلَقِ الجملةِ[١].

١١- استدلَّ بعضُ المتأخِّرينَ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ على إثباتِ الإحصاءِ السُّكَّانيِّ؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، فأحصاهم عَدَدًا، مع أنَّه لو قال: «فأرسَلْناه إلى قومِه» كفَى، لكنْ عَدَّهم عَدًّا، ولا نَعلَمُ لهذا فائِدةً إلَّا الإحصاءَ، ولا شكَّ أنَّ الإحصاءَ إذا كان فيه فائِدةٌ فإنَّه يكونُ مَطلوبًا[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ظاهِرُ تَرتيبِ ذِكرِ الإرسالِ بعدَ الإنجاءِ مِن الحُوتِ: أنَّه إعادةٌ لإرسالِه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: هرَبَ إليه، وأصْلُه الهرَبُ مِن السَّيِّدِ، ويُونسُ هو عبْدٌ للهِ، وخرَجَ فارًّا مِن غيرِ إذْنٍ من اللهِ؛ فحسُنَ إطلاقُ وَصفِ الإباقِ عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي(٤/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣).

- وفي قِصَّةَ يُونسَ عليه السَّلامُ جُمَلٌ مَحذوفةٌ مُقدَّرةٌ قبْلَ ذِكرِ فِرارِه إلى الفُلْكِ، كما في قِصَّتِه في سُورةِ (الأنبياءِ) في قَولِه: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جُمَلٌ مَحذوفةٌ أيضًا، وبمَجموعِ القَصصِ يَتبيَّنُ ما حُذِفَ في كلِّ قِصَّةٍ منها[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ * فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾

- تَفريعُ ﴿فَسَاهَمَ﴾ يُؤْذِنُ بجُمَلٍ مَحذوفةٍ، تَقْديرُها: فهاجَ البَحرُ، وخاف الرَّاكبونَ الغرَقَ؛ فساهَمَ[2].

- قَولُه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ لَمَّا آلَ وُقوعُ القُرعةِ عليه إلى رَمْيِه مِن السَّفينةِ مِن محلِّ علوٍ إلى أسفَلَ، عبَّر عن ذلك بما يدُلُّ على الزَّلَقِ الَّذي يكونُ مِن علوٍ إلى سفلٍ، فقال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾[3].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ عبَّرَ بالجَمعِ؛ لإفادةِ عُمومِ البَعثِ. ولو أفرَدَ لم يُفِدْ بَعثَ الحيواناتِ العُجْمِ، ولو ثَنَّى لَظُنَّ أنَّ ذلك له ولِلحُوتِ خاصَّةً لِمعنًى يَخُصُّها، فلا يفيدُ بَعثَ غيرِهما[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ * وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، فالتَّقديرُ: يُسبِّحُ ربَّه في بطْنِ الحوتِ: أنْ لا إلهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٩٣).

إلَّا أنتَ سُبحانَكَ، إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمينَ، فاستجابَ اللهُ له ونجَّاهُ، كما في سُورةِ (الأنبياءِ)، والمعنى: فلَفَظَه الحوتُ وقَاءَه، وحمَلَه المَوجُ إلى الشَّاطئِ[1].

- والنَّبذُ: الإلْقاءُ، وأُسنِدَ نَبْذُه إلى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي سخَّرَ الحوتَ لِقَذْفِه مِن بَطنِه إلى شاطئٍ لا شجَرَ فيه[2].

- وتَعديةُ فِعلِ (أَنْبَتْنَا) بحَرْفِ (على)، أفاد أنَّها مُسْتعليةٌ عليه فوقَه مُظِلَّةٌ له، كما يُطَنَّبُ البيتُ على الإنسانِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾

- قيل: رِسالتُه هذه هي الأُولى الَّتي أبَقَ بعْدَها، ذكَرَها آخِرَ القَصصِ؛ تَنبيهًا على رِسالتِه، ويَدُلُّ عليه قولُه: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾، وتَمتيعُ تلك الأُمَّةِ هو الَّذي أغضَبَ يُونسَ عليه السَّلامُ حتَّى أبَقَ. وقيل: المرادُ إرسالُه السَّابقُ؛ أخبَرَ أوَّلًا بأنَّه مِن المرسَلينَ على الإطلاقِ، ثمَّ أخبَرَ بأنَّه قدْ أُرسِلَ إلى أُمَّةٍ جَمَّةٍ، وكأنَّ تَوسيطَ تَذكيرِ وَقْتِ هَرَبِه إلى الفُلْكِ وما بعْدَه بيْنَهما؛ لِتَذكيرِ سَببِه، وهو ما جَرَى بيْنَه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وبيْن قَومِه؛ مِن إنذارِه إيَّاهم عَذابَ اللهِ تعالى، وتَعيينِه لِوَقْتِ حُلولِه، وتَعلُّلِهم وتَعليقِهم لِإيمانِهم بِظُهورِ أماراتِه؛ لِيُعلَمَ أنَّ إيمانَهم الَّذي سيُحْكى بعْدُ لم يكُنْ عَقيبَ الإرسالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

-كما هو المُتبادَرُ مِن تَرتيبِ الإيمانِ عليه بالفاءِ-، بلْ بعْدَ اللَّتيَّا والَّتي[(١)].

- وإذا كان المرادُ بإرسالِه أنَّه على رِسالتِه الأُولى، فيكونُ قولُه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ عَطْفًا على قولِه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ على سَبيلِ البَيانِ؛ لأنَّه دلَّ على ابتداءِ الحالِ وعلى انْتِهائِها، وعلى ما هو المقصودُ بالإرسالِ مِن الإيمانِ، واعترَض ما بيْنَهما قِصَّةٌ مِن قَصَصِه اعتِناءً بشَأْنِها؛ لِاحتِوائِها على أمْرٍ عَجيبٍ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ حَرْفُ (أو) ليس للشَّكِّ؛ فهو على اللهِ مُحالٌ، وهي بمعنى (بلْ)، أو بمعنى الواوِ، أو المعنى: أوْ يَزيدون في نَظَرِهم؛ فالشَّكُّ إنَّما دخَلَ في قَولِ المخلوقينَ. وقيل: هي للإبهامِ على المخاطَبِ. وقيل: هي إضرابٌ لِمَا في الواقعِ ونفْسِ الأمْرِ، فالمعنى: أرسَلْناهُ إلى جَماعةٍ يَحزُرُهم النَّاسُ مِئةَ ألْفٍ، وهمْ أزيَدُ مِن ذلك، وفيه نُكتةٌ جَليلةٌ، وهي الانتقالُ مِن الأدْنى إلى الأعْلى؛ لِمَا له مِنَ الوقْعِ في النَّفْسِ، ولَفْتِ النَّظرِ إليه، بخِلافِ ما إذا أخبَرَ بالأعْلى مِن أوَّلِ الأمْرِ[(٣)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ للتَّعقيبِ العُرْفيِّ؛ لأنَّ يُونسَ عليه السَّلامُ لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٩).
وبعْدَ اللَّتيَّا والَّتي: أي: بعدَ جَهدٍ وشِدَّةٍ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٤، ٣١٥).

أُرسِلَ إليهم ودَعاهم، امتَنَعوا في أوَّلِ الأمْرِ، فأخْبَرَهم بوَعيدٍ بهَلاكِهم، ثمَّ خافوا فآمَنوا[١].

- ولعلَّه إنَّما لم يَختِمْ قِصَّةَ يُونسَ وقِصَّةَ لُوطٍ بما ختَمَ به سائرَ القِصصِ بالسَّلامِ عليهم؛ أو اكتِفاءً بالتَّسليمِ الشَّاملِ لكلِّ الرُّسلِ المذكورينَ في آخِرِ السُّورةِ، وقيل غيرُ ذلك[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

الآيات (١٤٩-١٦٣)

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٥٧ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾: أي: سَلْهُم واستَخبِرْهم، وأصلُ (فتي) هنا: يدُلُّ على تَبيينِ حُكمٍ[(١)].

﴿ إِفۡكِهِمۡ ﴾: أي: كَذِبِهم، والإفكُ: أَسوأُ الكَذِبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[(٢)].

﴿ سُلۡطَٰنٞ ﴾: أي: حُجَّة ظاهِرةٌ، وسُمِّيتِ الحُجَّةُ سُلطانًا؛ لِمَا يَلحَقُ مِن الهُجومِ على القُلوبِ، وأصلُ (سلط): يدلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣).

﴿الْجِنَّةِ﴾: أي: الجِنِّ أو الملائِكةِ، قيلَ لهم: جِنَّةٌ؛ لأنَّهم لا يُرونَ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ(١).

﴿نَسَبًا﴾: النَّسَبُ والنِّسْبَةُ: اشتراكٌ مِن جِهةِ أحَدِ الأبوينِ، كالاشتِراكِ مِن الآباءِ والأبناءِ، والنِّسْبة بيْن بَني الإخْوةِ وبَني الأَعْمامِ، وأصلُ (نسب): يدُلُّ على اتِّصالِ شيءٍ بشَيءٍ، وسُمِّي النَّسَبُ بذلك لاتِّصالِه وللاتِّصالِ به(٢).

﴿بِفَاتِنِينَ﴾: أي: بمُضِلِّينَ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتِلاءٍ واختِبارٍ، ثمَّ استُعْمِل فيما أخرَجه الاختبارُ إلى المكروهِ، ثمَّ أُطلِق على كُلِّ مَكروهٍ أو آيلٍ إليه، كالكُفرِ والإثمِ والتَّحريقِ، وغيرِ ذلك(٣).

﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾: أي: مُقاسٍ حَرَّ النَّارِ، وأصلُ الصلي: الإيقادُ بالنَّارِ(٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾

(ما) في قولِه: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَعطوفٌ على اسمِ (إنَّ)، وهو الكافُ في ﴿فَإِنَّكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

و(ما) في قولِه: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ حِجازيَّةٌ نافيةٌ، و﴿أَنتُمۡ﴾ اسمُ (ما) مَرفوعٌ، و﴿عَلَيۡهِ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ (فاتِنينَ).

و﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ (فَاتِنينَ) خبَرُ (ما) العامِلةِ عَمَلَ (ليس)، مجرورٌ لَفظًا، مَنصوبٌ محلًّا، والباءُ زائدةٌ فيه.

وجُملةُ: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ في محلِّ رَفعٍ خبَرُ (إنَّ).

﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿إِلَّا﴾ للحَصرِ. ﴿مَنۡ﴾ مَوصولةٌ أو مَوصوفةٌ، مَبْنيَّةٌ في مَحَلِّ نَصبِ مَفعولُ (فاتِنين)، والاستِثناءُ مُفَرَّغٌ، والتقديرُ: فإنَّكم وآلهتَكم ما أنتُم وهم فاتِنينَ ومُفسِدينَ على اللهِ إلَّا الذين سَبَقَ في عِلْمه تعالَى أنَّهم مِن أهلِ الجَحيمِ. ويجوزُ أن تُقَدِّرَ مَفعولًا لـ (فاتنين)، أي: أحدًا، فتكونَ ﴿إِلَّا﴾ أداةَ استِثناءٍ، و﴿مَنۡ﴾ مُستثنًى مِنَ المفعولِ المحذوفِ. ﴿صَالِ﴾ خبرُ ﴿هُوَ﴾ مَرفوعٌ، وعلامةُ رَفعِه الضَّمَّةُ المقدَّرةُ على الياءِ المحذوفةِ لالتِقاءِ السَّاكِنينَ؛ حمْلًا للخَطِّ على اللَّفظِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ تعالَى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتوبيخِ المشركين والرَّدِّ على جَهالاتِهم، فيقولُ: فاسأَلْ -يا مُحمَّدُ- مُشرِكي قَومِك الذين يَزعُمونَ أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ تعالَى: ألِرَبِّك البناتُ التي يَكرَهونَها، ولهم البَنونَ؟! أم خلَقْنا الملائِكةَ إناثًا وهؤلاء المُشرِكون شاهِدونَ خَلْقَهم؟!

ثمَّ يخبِرُ اللهُ تعالَى عن كَذِبهم، ويرُدُّ عليهم، فيقولُ: ألَا إنَّهم لَيَقولونَ -مِن كَذِبِهم وقَلْبِهم للحَقائِقِ-: ولَدَ اللهُ! وإنَّهم لكاذِبونَ فيما زَعَموا.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٨/ ٣١٨).

أختارَ اللهُ تعالَى لِنَفسِه البَناتِ دونَ البَنينَ؟! ما لكم كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائِرَ؛ أفلا تَتذكَّرونَ؟! أمْ لكُم حُجَّةٌ ظاهِرةٌ تُبيِّنُ صِحَّةَ دَعواكم؛ فأْتُوا بكِتابٍ فيه بيانُ حُجَّتِكم إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا أحدَ أكاذيبِهم: وجعَلَ أولئك المُشرِكونَ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا، ولقدْ عَلِمَ الجِنُّ أنَّهم مُحضَرونَ يومَ القِيامةِ.

ثمَّ يُنزِّهُ اللهُ تعالَى نفْسَه عن هذه الافتراءاتِ، فيقولُ: تنزَّه اللهُ عمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ، إلَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصَهم لطاعتِه؛ فإنَّهم لا يَصِفونَ اللهَ تعالى بالنَّقائِصِ.

ثمَّ يقولُ تعالَى مخاطبًا المشركينَ: فإنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- وما تَعبُدونَه من الآلهةِ المَزعومةِ لَستُم بمُضِلِّينَ أحدًا إلَّا مَن سَبَق في عِلمِ اللهِ تعالَى أنَّه مِن أهلِ النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أقاصيصَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، عاد إلى شَرحِ مَذاهِبِ المُشرِكينَ، وبيانِ قُبحِها وسَخافتِها؛ ومِن جُملةِ أقوالِهم الباطِلةِ أنَّهم أثبَتوا الأولادَ للهِ سُبحانَه وتعالَى، ثمَّ زَعَموا أنَّها مِن جِنسِ الإناثِ، لا مِن جِنسِ الذُّكورِ[1].

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾.

أي: فاسأَلْ -يا محمَّدُ- مُشرِكي قَومِك الذين يَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾.

أي: اسألْهم أيَجعَلونَ لِرَبِّك ما يَكرَهونَ مِنَ البَناتِ، ويَجعَلونَ لأنفُسِهم ما يَرغَبونَ مِن البَنين(١)؟!

كما قال الله تعالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ...﴾ إلى قوله تعالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٦٢].

وقال تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

أي: أمْ خلَقَ اللهُ الملائِكةَ إناثًا وقدْ حضَر المُشرِكونَ خَلْقَه لهم، فأخبَروا أنَّهم بَناتُ اللهِ عن عِلمٍ ومُشاهَدةٍ(٢)؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ...﴾.

أي: ألَا إنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ لَيَقولونَ -مِن قَلْبِهم للحَقائقِ، وصَرْفِها عن وَجهِها الصَّحيحِ-: ولدَ اللهُ، حِينَ زعَموا أنَّ الملائكةَ بَناتُه(٣)!

= (٧/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن =

﴿... وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

أي: وإنَّهم في قَولِهم هذا لَمُخبِرونَ بخِلافِ الحَقِّ والصِّدقِ المُطابِقِ للواقِعِ[1].

كما قال تعالَى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠، ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالَى: ﴿أَصْطَفَى﴾ قِراءتان:

١- قراءة ﴿اصْطَفَى﴾ بوصْلِ الهَمزةِ على لَفْظِ الخَبرِ، وفيه وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه على نِيَّةِ الاستفهامِ، وإنَّما حُذِفَ للعِلمِ به. والثاني: أنَّ هذه الجُملةَ بدَلٌ مِن الجُملةِ المحكيَّةِ بالقولِ، وهي ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، أي: يقولون كذا،

= كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

و﴿مِّنْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ قيل: هي للتَّبعيضِ، أي: هذا الإفكُ المذكورُ هو من جُملةِ إفكِهم الكثيرِ.

وقيل: هي للسَّبَبيَّةِ، أي: قالوا ذلك بسَبَبِ أنَّ صَرْفَ الأمورِ عن وَجهِها الصَّحيحِ هو دَيدنُهم وعادتُهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

ويقولون: اصْطَفى هذا الجِنسَ على هذا الجِنسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: وإنَّهم لكاذبون؛ قالوا: اصطفَى البناتِ، فحذف (قالوا)[1].

٢- قِراءة ﴿أَصْطَفَى﴾ بقَطْعِ الألفِ على الاستفهامِ، على طريقةِ الإنكارِ والاستبعادِ[2].

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

أي: أَخْتارَ اللهُ تعالى لِنَفسِه البناتِ اللَّاتي يَستَنكِفُ المُشرِكونَ مِن إلحاقِهنَّ بهم، دونَ البنينَ[3]؟!

كما قال تعالَى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

أي: ما لكُم، كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائِرَ؛ إذ جعَلْتُم لِرَبِّكم ما لا تَرضَونَه لأنفُسِكم، واستَأثَرتُم دونَه بما تُحِبُّونَ[4]؟!

---

(١) قرأ بها أبو جَعفر. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠). ويُنظر لمعنى القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠). ويُنظر لمعنى القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٥-٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

أي: أفلا تتذَكَّرونَ، فتُدرِكونَ بُطلانَ قَولِكم[١]؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

أي: أمْ لكُم حُجَّةٌ واضِحةٌ تُبيِّنُ صِحَّةَ دَعواكم[٢]؟!

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

أي: فأْتُوا بكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ فيه بيانُ حُجَّتِكم على ما تَقولونَ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم[٣].

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾.

أي: وجعَلَ المُشرِكونَ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قال البقاعي: (فإنَّ الأمرَ في غايةِ الظُّهورِ؛ لِما في عُقولِكم وطِباعِكم مِن أنَّكم لا تَرضَونَ لأنفُسِكم أخَسَّ المنازِلِ، فكيف يختارُه لِنَفسِه رَبُّكم الذي بيَدِه كُلُّ شَيءٍ؟! وإنَّه لا يكونُ الوَلَدُ مُطلَقًا إلَّا ممَّن له جِنسٌ، فيكونُ مُحتاجًا إلى جِنسِه، والمحتاجُ لا يكونُ إلهًا بوَجهٍ!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤، ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٥، ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٩). =

= قيل: المرادُ بالجِنَّةِ: الجِنُّ. وفي هذا التَّفسيرِ وَجهانِ:
الأوَّلُ: هو أنَّ المُشرِكينَ جَعَلوا بيْن اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا حينَ قالوا: إنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ، وأمَّهاتِهنَّ مِن الجِنِّ. ومَّمن ذهَب إلى هذا المعنى: ابن القيِّم، وابن كثير، والبقاعي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عُثَيمين. يُنظر: المصادر السابقة.
عن مُجاهدٍ قال: (قال كُفَّارُ قُرَيشٍ: الملائِكةُ بناتُ اللهِ، فسألَ أبو بكرٍ: مَن أمَّهاتُهنَّ؟! فقالوا: بناتُ سَرَواتِ -أي: ساداتِ وخَواصِّ- الجِنِّ). أخرجه البُخاريُّ مُعَلَّقًا في صحيحِه (كتاب بدء الخلق) (بابُ ذكرِ الجِنِّ وثوابِهم وعقابِهم) قبل حديث (٣٢٩٦).
واستبْعَده الرازيُّ بناءً على أنَّ القَولَ بأنَّ أمَّهاتِ الملائكةِ مِن الجِنِّ يُسمَّى مُصاهرةً لا نَسَبًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٠).
الثاني: هو أنَّ قومًا مِن الزَّنادقةِ يَقولون: اللهُ وإبليسُ أخوانِ؛ فالله الخيِّرُ الكريمُ، وإبليسُ هو الأخُ الشِّرِّيرُ الخَسيسُ!! فقَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ المرادُ منه هذا المذهَبُ، وهو مذهَبُ المجوسِ القائِلينَ بيَزدان وإهرمن. وهذا القَولُ هو أقربُ الأقوالِ عند الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٠).
ومَّمن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وقَتادةُ في رواية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١).
وقيل: المرادُ بالجِنَّةِ هنا الملائِكةُ. ومَّمن قال بهذا المعنى: الفرَّاء، والزَّجَّاج، والواحدي، والزمخشري، ونَسَب السمعانيُّ والقرطبيُّ هذا القَولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤).
ومَّمن قال مِن السلفِ بهذا القولِ: مجاهدٌ، وقَتادة في روايةٍ، والسُّدِّي، وعِكرمة، وأبو صالح، وابن زيد، وأبو مالك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٣٣).
قال القرطبيُّ: (قال أهلُ الاشتقاقِ: قيل لهم «جِنَّةٌ»؛ لأنَّهم لا يُرَونَ. وقال مجاهدٌ: إنَّهم بَطنٌ مِن بُطونِ الملائكةِ يُقالُ لهم الجِنَّةُ. ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وروى إسرائيلُ عن السُّدِّي عن أبي مالكٍ قال: إنَّما قيل لهم جِنَّةٌ؛ لأنَّهم خُزَّانٌ على الجِنانِ، والملائكةُ كُلُّهم جِنَّةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤). =

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

أي: ولقد عَلِمَ الجِنُّ أنَّهم مُحضَرونَ يومَ القِيامةِ[1].

= وقيل: إنَّ النَّسَبَ الذي جَعَلوه هو أنَّهم أشركوا الشَّيطانَ في عِبادةِ اللهِ. وذهب القرطبيُّ إلى أنَّ هذا القَولَ هو أحسَنُ الأقوالِ، واستدَلَّ له بقَولِه تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٨]، أي: في العِبادةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥).

وممَّن رُويَ عنه ذلك مِن السَّلَف: الحسن البصري. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

ذكَر ابنُ الجوزي أنَّه على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾: الجنُّ: فيكون المرادُ: ولقَدْ عَلِمَت الجنُّ ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: إنَّ الجنَّ أنفُسَها ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ الحِسابَ. وأنَّه على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾: الملائِكةُ، يكونُ المعنى: ولقَدْ عَلِمَت الملائكةُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النَّارَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالجِنَّةِ: الجِنُّ، وأنَّ معنى مُحضَرون: أنَّهم مُحضَرونَ للحِسابِ يومَ القِيامةِ: ابنُ القيِّم، والبقاعي، والسعدي؛ قال ابنُ القيِّم: (أي: قد عَلِمَت الجنَّةُ إنَّهم لَمُحضَرونَ الحِسابَ. قاله مجاهِدٌ، أي: لو كان بيْنه وبيْنَهم نَسَبٌ لم يَحضُروا للحِسابِ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، فجعَلَ سُبحانَه عُقوبتَهم بذُنوبِهم وإحضارَهم للعَذابِ مُبطِلًا لدَعواهم الكاذِبةِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

وقال يحيى بن سلَّام: (قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾: الجنُّ ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: مُدخَلونَ في النَّارِ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٦).

وقيل: المعنى: ولقد عَلِمَت الجِنُّ أنَّ المُشرِكينَ مُحضَرونَ للعذابِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالجِنَّةِ: الملائكةُ -وأن المعنى: ولقد علِمت الملائكةُ أنَّ المشركينَ الذين قالوا هذا القولَ لمحضرونَ في النَّارِ-: مقاتل بن سليمان، والزَّجَّاج، والواحدي، والنَّسَفي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ عمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ مِن أنَّ لهُ تعالَى وَلَدًا، ومِن أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ؛ فتعالَى اللهُ وتبرَّأَ مِن كُلِّ نَقصٍ يَنسُبونَه إليه[1].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ ما وصفَه به هؤلاءِ الظَّالِمونَ المُتَعَدُّونَ، بَيَّنَ أنَّ هناك أُناسًا لَيسُوا على هذه الحالِ، وهُم عِبادُ اللهِ الذين أخلَصَهم اللهُ تعالَى لِنَفسِه، وأخْلَصوا له ما يَجِبُ له؛ فهذا القُرآنُ الكريمُ مَثانٍ تُثَنَّى فيه الأشياءُ؛ فإذا ذُكِرَ فيه صِفةُ قَومٍ مَذمومةٌ، ذُكِرَ بَعدَها صِفةُ الأقوامِ المحمودةُ[2].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾.

أي: لكنْ عِبادُ اللهِ الذين أخلَصَهم لطاعتِه، واختارَهم لِرَحمتِه؛ فإنَّهم لا يَصِفونَ اللهَ تعالَى بالنَّقائصِ، بل يَنسُبونَ إليه ما يَليقُ به تعالَى مِن صِفاتِ الكَمالِ[3].

= (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

وذهَب ابنُ عاشور إلى أنَّ ضميرَ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ عائدٌ إلى المشركين، أو إلى الجنَّة، وأنَّ الوجهينِ مرادانِ؛ فإنَّ الفريقينِ مُعاقَبانِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٨، ٤٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن =



﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذكَرَ الدَّلائِلَ على فَسادِ مَذهَبِ الكُفَّارِ، أتْبَعَه بما نبَّهَ به على أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ لا يَقدِرونَ على حَملِ أحَدٍ على الضَّلالِ، إلَّا إذا كان قد سَبَق حُكمُ اللهِ في حَقِّه بالعَذابِ والوُقوعِ في النَّارِ(١).

وأيضًا لَمَّا نَزَّه اللهُ نَفسَه المُقدَّسةَ سُبحانَه عن كُلِّ نَقصٍ، دَلَّ على ذلك بأنَّهم

= كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قيل: الاستِثناءُ مُنقطِعٌ نَشأ عن قولِهم: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: ولقد عَلِمَتِ الجِنَّةُ أنَّ الَّذين قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ لَمُحضَرونَ للعَذابِ، إلَّا عِبادَ اللهِ الَّذينَ أخلَصَهم لرحمَتِه، وخلَقَهم لجَنَّتِه. وممَّن ذهَب إلى ذلك: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جَرير، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ نَشأ عن قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: لكنَّ عبادَ اللهِ المُخلَصينَ لا يَصِفونَه بما يَصِفُه المُشرِكونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الخَطيبُ الشِّربينيُّ، والشَّوْكانيُّ، وابنُ عاشور، إلَّا أنَّ ابن عاشور جعَل عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ همُ الملائكةَ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨).

وقيل: الاستِثناءُ متَّصِلٌ على اعتبارِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائدٌ إلى جميعِ النَّاسِ، ثمَّ استَثْنى منهمُ المُخلَصينَ. وممَّن ذكَرَ هذا القولَ احتمالًا: ابنُ كَثير، والبقاعيُّ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٣).

أو يكونُ متَّصِلًا من وجهٍ آخَرَ لقولِه تعالَى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: مَن أخلَص منهم، وآمَنَ؛ فإنَّه بَريءٌ ممَّا يَصِفُه؛ لأنَّه قد يُسلِمُ منهم نفَرٌ فيَصِفونَه بما يَليقُ به؛ لأنَّ المؤمِنَ والمُخلِصَ لا يصِفُ ربَّه إلَّا بما يَليقُ به. ذكَرَ هذا الوجهَ: الماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦١).

وجَميعَ ما يَعبُدونَه مِن دُونِه: لا يَقدِرونَ على شَيءٍ لم يُقَدِّرْه(١).

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١﴾.

أي: فإنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- والذين تَعبُدونَهم مِن الآلِهةِ المَزعومةِ(٢).

﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ١٦٢﴾.

أي: لَستُم بمُضِلِّينَ أحَدًا، بحَمْلِه على عِبادةِ ما تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ(٣).

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ١٦٣﴾.

أي: إلَّا مَن سَبَق في عِلمِ اللهِ أنَّه سيَدخُلُ الجَحيمَ ويُعذَّبُ فيها في الآخِرةِ؛ فهو الذي يُفتَنُ ويَضِلُّ بإضلالِكم له(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٠-٣٤١).

قال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ يجوزُ أن يكونَ عائِدًا إلى اسمِ الجلالةِ في قَولِه تعالى: ﴿لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، أو في قَولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ [الصافات: ١٦٠]، ويجوزُ أن يعودَ إلى «مَا تَعْبُدُونَ» بمراعاةِ إفرادِ اسمِ الموصولِ، وهو: «ما»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٠-٣٤١).

قال النَّحَّاسُ: (أهلُ التَّفسيرِ مُجمِعونَ -فيما عَلِمتُه- على أنَّ المعنى: ما أنتم بمُضِلِّينَ أحدًا إلَّا مَن قدَّرَ اللهُ -جلَّ وعَزَّ- عليه أن يَضِلَّ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢٩٩). =

كما قال تعالَى عن إبليسَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أنَّ على العاقِلِ تَصحيحَ العمَلِ بالإخلاصِ[(١)].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإنَّ مَن يَقولُ قَولًا لا يُقيمُ عليه حُجَّةً شَرعيَّةً؛ فإنَّه كاذِبٌ مُتعَمِّدٌ، أو قائِلٌ على اللهِ بلا عِلمٍ[(٢)].

٣- الإشارةُ إلى أنَّ مَن تابعَ أهلَ السُّوءِ في سُوئِهم؛ فإنَّه يُخشَى أنْ يكونَ ممَّن كُتِبَ عليه أنَّه مِن أصحابِ الجَحيمِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بيانُ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ قَسَموا قِسْمةً ضِيزَى؛ حيثُ جَعَلوا للهِ البناتِ وهُم يَرغَبونَ في الأبناءِ الذُّكورِ، ويَكرَهونَ الإناثَ، فجَعَلوا للهِ ما يَكرَهونَ، وقدْ

= وقال السعدي: (المقصودُ مِن هذا بيانُ عَجزِهم وعَجزِ آلهتِهم عن إضلالِ أحدٍ، وبيانُ كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، أي: فلا تَطمَعوا بإضلالِ عبادِ اللهِ المُخلَصينَ وحِزبِه المُفلِحينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٣).

جاؤُوا في مَقالِهم هذا بأنواعٍ مِن الكُفرِ؛ منها: إيثارُ أنفُسِهم بالأفضَلِ، وجَعْلُهم لله الأقَلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

ومنها: أنَّهم جَعَلوا للمَلائِكةِ المُقَرَّبينَ وَصْفَ الأُنوثةِ، وهم يَتعيَّرونَ بـ (أبي الإناثِ)؛ ولذلك كرَّر اللهُ تعالى هذه الأنواعَ مِن كُفرِهم في كِتابِه غيرَ مَرَّةٍ[1]؛ فهؤلاءِ زادُوا على الشِّركِ ضَلالاتٍ أُخَرَ، كتَفضيلِ أنفُسِهم عليه، واستِهانَتِهم بالملائكةِ؛ حيثُ أنَّثُوهم[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ذكَرَ اللهُ عنهم في الملائِكةِ ثلاثةَ أقوالٍ في غايةِ الكُفرِ والكَذِبِ؛ فأوَّلًا: جَعَلوهم بَناتِ اللهِ، فجَعَلوا لله ولَدًا. وجَعَلوا ذلك الوَلَدَ أُنثى، ثمَّ عَبَدوهم مِن دُونِ اللهِ. وكُلٌّ منها كافٍ في التَّخليدِ في نارِ جَهَنَّمَ[3].

٣- أنَّ كلَّ مَنِ ادَّعى دَعوى فإنَّه يُطالَبُ بالبَيِّنةِ عليها؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾؛ فهل هم شاهِدونَ حتى يَدَّعُوا ذلك[4]؟!

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ فعَدَلَ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى اسمِ الجَلالةِ العَلَمِ على الذَّاتِ الجامِعةِ لجَميعِ الصِّفاتِ؛ إشارةً إلى أنَّ كُلَّ صِفةٍ مِن صِفاتِه، ونَعتٍ مِن نُعوتِه: يأبَى الوَلَدِيَّةَ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ الاستِدلالُ على هؤلاءِ بدَلالةِ العَقلِ، وهو أنْ يُقالَ: كيف يَصْطفي اللهُ البَناتِ على البَنينَ؟! هذا ليس بعَقلٍ وليس بمَعقولٍ، ولكنْ هم يَجعَلونَ هذا الشَّيءَ أمرًا مَعقولًا وواجبًا أيضًا: أنْ يكونَ للهِ البناتُ ولهم البَنونَ[١]!

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ الحُجَّةَ سُلطانٌ لِصاحِبِها؛ لأنَّه يَكونُ بها السُّلطةُ على خَصْمِه الذي يُحاجُّه[٢].

٧- قَولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ فيه إظهارُ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مُجادلةِ العَدُوِّ والخَصمِ؛ فلمْ يَقْتَصِرِ اللهُ عزَّ وجَلَّ على أنْ كَذَّبَهم، بل طَلَبَ منهم الحُجَّةَ إنْ كانوا صادِقينَ في دَعواهم، ومِن المعلومِ أنَّهم لن يُقِيموا الحُجَّةَ؛ ولهذا قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ أنَّ مَن تَحدَّى غَيرَه فله طَلَبُ البَيِّنةِ على ما قال ذلك الغَيرُ[٤].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جوازُ تَحَدِّي الخَصمِ بما يَعْجِزُ عنه، وأنَّ ذلك طريقٌ مِن طُرُقِ إفحامِه؛ وذلك أنَّ الخَصمَ عِندَ المناظرةِ يمكنُ إبطالُ حُجَّتِه بعدةِ أساليبَ؛ منها: التحدِّي، ولكنْ يجبُ أنْ يكونَ التحدِّي بما لا يُمكنُ أنْ يُقِيمَ عليه البُرهانَ والدليلَ[٥].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ حُجَّةَ القُرآنِ حُجَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

دامِغةٌ مُلزِمةٌ لا يُمكِنُ التخَلُّصُ منها؛ ولهذا تأتي دائِمًا بصُورةِ التَّحَدِّي؛ إظهارًا لِعَجزِ المُعَارِضِ وعَدَمِ قُدرتِه على المُعارضةِ[(١)].

١١- أنَّ صِفاتِ اللهِ تعالَى تكونُ سَلبيَّةً -أي: دالَّةً على النَّفيِ-، وتكونُ ثُبوتيَّةً -أي: دالَّةً على الإيجابِ-؛ فقَولُه تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا مِن صِفاتِ النَّفيِ؛ لأنَّه تَنزيهٌ، وصِفاتُ النَّفيِ التي وَصَفَ اللهُ بها نَفسَه لا تَدُلُّ على النَّفيِ المُجَرَّدِ؛ لأنَّ النَّفيَ المُجَرَّدَ ليس بشَيءٍ فَضلًا عن أنْ يكونَ مَدحًا، وإنَّما تَدُلُّ على ثُبوتِ كَمالِه المُنَزَّهِ عن هذا العَيبِ، فتَنزيهُ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به يَتضَمَّنُ كَمالَه فيما يَختَصُّ به سُبحانَه وتعالى، وهذه قاعِدةٌ في جَميعِ الصِّفاتِ المَنفيَّةِ[(٢)].

١٢- في قولِه تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بيانُ أنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ هم الَّذين يَنجُونَ مِن السَّيِّئاتِ التي زَيَّنها الشَّيطانُ[(٣)].

١٣- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لأجْلِ أنَّ هذه السُّورةَ سُورةُ المتجَرِّدينَ عن علائِقِ العوائِقِ عن السَّيرِ إلى اللهِ تعالَى، كرَّر وَصفَ الإخلاصِ فيها كثيرًا[(٤)].

١٤- أنَّ التَّوحيدَ الحَقَّ هو ما نَعَتَ اللهُ به نَفسَه على ألْسِنةِ رُسُلِه؛ فهُمْ لم يَنعَتوه مِن تِلقاءِ أنفُسِهم، وإنَّما نَعَتوه بما أَذِنَ لهم في نَعتِه به، وقد صَرَّحَ سُبحانَه بهذا المعنَى في قَولِه تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فنَزَّه نفْسَه عمَّا يَصِفُه به العِبادُ إلَّا المُرسَلينَ؛ فإنَّهم لم يَصِفوه مِن عندِ أنفُسِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩).

وكذلك قَولُه تعالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١] [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

١٥- لا يَسلَمُ على مَحكِّ العقْلِ الصَّحيحِ الَّذي لا يَكذِبُ، إلَّا ما جاءَتْ به الرُّسُلُ صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم، كما قالَ تَعالَى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، فنَزَّه سُبْحانَه وتعالَى نفْسَه عَمَّا يَصِفُه به كلُّ أَحدٍ إلَّا المُخلَصينَ مِن عِبادِه، وهُم الرُّسُلُ ومَن تَبِعَهُم، كَمَا قالَ في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ تَفريعٌ وعطْفٌ على ما تَقدَّمَ مِنَ الإنكارِ على المُشركينَ، وإبطالِ دَعاويهم، وضَربِ الأمثالِ لهم بنُظَرائِهم مِنَ الأُمَمِ؛ ففَرَّعَ عليه أمْرَ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإبْطالِ ما نَسَبَه المُشركونَ إلى اللهِ مِنَ الولدِ، وأمْرَه باستِفتاءِ قُرَيشٍ عن وجْهِ إنكارِ البَعثِ أوَّلًا، ثمَّ ساق الكلامَ موصولًا بعضَه ببعضٍ، ثمَّ أمَرَه باستِفتائِهم عن وجهِ القِسمةِ الضِّيزَى الَّتي قَسَموها، والاستِفتاءُ هنا سُؤالٌ على جِهةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على قَولِهمُ البُهتانَ على اللهِ؛ حيثُ جَعَلوا للهِ الإناثَ ولأنفُسِهمُ الذُّكورَ في قولِهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ! مع كراهَتِهمُ الشَّديدةِ لهُنَّ، ووَأْدِهم إيَّاهُنَّ، واستِنكافِهم من ذِكْرِهِنَّ. والمرادُ التَّهَكُّمُ عليهم بصُورةِ الاستِفتاءِ؛ إذْ يَقولونَ: ولَدَ اللهُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) =

- وفي قولِه: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ...﴾ أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هاهنا بتَبكيتِهم بطريقِ الاستِفتاءِ عن وجهِ أمرٍ مُنكَرٍ خارجٍ عن العقولِ بالكلِّيَّةِ، وهي القِسمةُ الباطلةُ اللَّازمةُ لِما كانوا عليه مِنَ الاعتِقادِ الزَّائغِ؛ حيثُ كانوا يَقولونَ كبعضِ أجناسِ العربِ؛ جُهَيْنةَ وبَني سَلِمةَ وخُزاعةَ وبَني مُلَيح: الملائكةُ بناتُ اللهِ! والفاءُ لترتيبِ الأمرِ على ما سبَقَ مِن كَونِ أولئك الرُّسلِ الَّذينَ هُم أعلامُ الخَلقِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ عِبادَه تعالَى؛ فإنَّ ذلك ممَّا يؤكِّدُ التَّبكيتَ، ويُظهِرُ بُطْلانَ مَذهَبِهمُ الفاسِدِ، ثمَّ أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَبكيتِهم بما يَتضمَّنُه كُفْرُهمُ المذكورُ مِنَ الاستِهانةِ بالملائكةِ بجَعْلِهم إناثًا، ثمَّ أَبْطَلَ أصْلَ كُفرِهمُ المُنطويَ على هذَينِ الكُفرَينِ، وهو نِسبةُ الولدِ إليه سبحانَه وتعالَى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، ولم يَنظِمْهُ في سلكِ التَّبكيتِ؛ لمُشاركتِهمُ النَّصارَى في ذلك[1].

- ووجْهُ اتِّصالِ هذا الاستِفتاءِ بفاتحةِ السُّورةِ من وَجْهِ كَونه تعالَى رَبَّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، وأنَّه منافٍ للمُجانَسةِ، كما تقرَّرَ في قَولِه تعالَى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ ﴾[2] [الأنعام: ١٠١].

- وضَميرُ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾ عائدٌ على غيرِ مَذكورٍ يُعلَمُ مِنَ المَقامِ[3].

- وجُملةُ ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾ بيانٌ لجُملة ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾. وبدأ أوَّلًا بتوبيخِهم

= (٩/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

على تَفضيلِ أنفُسِهم بقَولِه: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾، وعدَلَ عن قَولِه: (أَلِرَبِّكم)؛ لِما في تَركِ الإضافةِ إليهم مِن تخسيسِهم، وشَرفِ نَبيِّه بالإضافةِ إليه، وثَنَّى بأنَّ نِسبةَ الأُنوثةِ إلى الملائكةِ يَقتضي المُشاهَدةَ، فأنكَرَ عليهم بقولِه: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، أي: خَلَقْناهم وهُم لا يَشهَدونَ شَيئًا مِن حالِهم، ثمَّ أخبَرَ عنهم ثالثًا بأعظَمِ الكُفرِ، وهو ادِّعاؤُهم أنَّه تعالى قد ولَدَ، فبلَغَ إفْكُهم إلى نِسبةِ الولدِ! ولَمَّا كان هذا فاحشًا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. واحتمَلَ أنْ تُخَصَّ هذه الجُملةُ بقَولِهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، ويَكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، واحتمَلَ أنْ يَعُمَّ هذا القول[١].

وقيل: ضميرُ (لِرَبِّكَ) مُخاطَبٌ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو حِكايةٌ للاستِفتاءِ بالمعنى؛ لأنَّه إذا استَفتاهُم يقولُ: ألِرَبِّكُم البَناتُ؟! وكذلك ضميرُ ﴿وَلَهُمُ﴾ مَحْكيٌّ بالمعنى؛ لأنَّه إنَّما يقولُ لهم: ولكمُ البَنونَ؟! وهذا التَّصرُّفُ يقَعُ في حِكايةِ القَولِ ونَحوِه ممَّا فيه مَعنَى القَولِ، مِثلُ الاستِفتاءِ[٢].

- ومُجادَلتُهم بهذِه الجُمَلِ المُتَفَنِّنةِ رُتِّبَتْ على قانونِ المُناظَرةِ؛ فابتَدأَهم بما يُشبِهُ الاستِفسارَ عن دَعْوَيَينِ: دَعْوى أنَّ المَلائكةَ بناتُ اللهِ، ودَعْوى أنَّ الملائكةَ إناثٌ؛ بقولِه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩، ١٥٠]، ثمَّ لَمَّا كان تفسيرُهم لذلك معلومًا من مُتكرِّرِ أقوالِهم نُزِّلوا مَنزلةَ المُجيبِ بأنَّ المَلائكة بناتُ اللهِ، وأنَّ المَلائكةَ إناثٌ، وإنَّما أُريدَ مِنَ استِفسارِهم صورةُ الاستِفسارِ؛ مُضايقةً لهم، ولِيُنتَقَلَ مِن مَقامِ الاستِفسارِ إلى مَقامِ المُطالَبةِ بالدَّليلِ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

دَعْواهم، فذلك الانتِقالُ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠] وهو اسمُ فاعِلٍ مِن: (شَهِدَ)، إذا حضَرَ ورأى، ثمَّ قَولِه: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فرَدَّدَهُم بيْنَ أنْ يَكونوا قدِ استَنَدوا إلى دليلِ المُشاهَدةِ أو إلى دليلٍ غَيرِه، وهو هنا مُتعَيِّنٌ لأنْ يَكونَ خبرًا مقطوعًا بصِدقِه، ولا سبيلَ إلى ذلك إلَّا مِن عِندِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ مِثلَ هذه الدَّعْوى لا سبيلَ إلى إثباتِها غيرُ ذلك؛ فدليلُ المُشاهَدةِ مُنتَفٍ بالضَّرورةِ، ودليلُ العقلِ والنَّظرِ مُنتَفٍ أيضًا؛ إذْ لا دليلَ مِنَ العقلِ يدُلُّ على أنَّ المَلائكةَ إناثٌ ولا على أنَّهم ذُكورٌ؛ فلمَّا عُلِم أنَّ دليلَ العقلِ غَيرُ مَفروضٍ هنا، انحصَرَ الكلامُ معهم في دليلِ السَّمعِ، وهو الخبرُ الصادِقُ؛ لأنَّ أسبابَ العِلمِ للخَلقِ مُنحصِرةٌ في هذه الأدلَّةِ الثَّلاثةِ: أُشيرَ إلى دَليلِ الحِسِّ بقَولِه: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، وإلى دَليلَيِ العقلِ والسَّمعِ بقَولِه: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾، ثمَّ فرَّعَ عليه قَولَه: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهو دليلُ السَّمعِ، فأسقَط بهذا التَّفريعِ احتمالَ دَليلِ العقلِ؛ لأنَّ انتِفاءَه مَقطوعٌ؛ إذْ لا طريقَ إليه، وانحصَرَ دَليلُ السَّمعِ في أنَّه مِن عِندِ اللهِ؛ إذْ لا يَعلَمُ ما في غَيبِ اللهِ غَيْرُه. ثمَّ خُوطِبوا بأمرِ التَّعجيزِ بأنْ يأْتوا بكِتابٍ، أيْ: بكِتابٍ جاءَهم مِن عِندِ اللهِ، وإنَّما عَيَّنَ لهم ذلك؛ لأنَّهم يَعتَقِدونَ استِحالةَ مَجيءِ رسولٍ مِن عِندِ اللهِ، واستِحالةَ أنْ يُكَلِّمَ اللهُ أحَدًا مِن خَلقِه؛ فانحصَرَ الدَّليلُ المفروضُ مِن جانبِ السَّمعِ أنْ يَكونَ إخبارًا مِنَ اللهِ في أنْ يُنَزِّلَ عليهم كِتابٌ مِنَ السَّماءِ؛ لأنَّهم كانوا يُجَوِّزونَ ذلك؛ لقَولِهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ولن يَستَطيعوا أنْ يأْتوا بكِتابٍ فلا جرَمَ قد اتَّضَحَ إفحامُهم بهذه المُجادَلةِ الجاريةِ على القَوانينِ العَقليَّةِ؛ ولذلك صارُوا كالمُعترِفينَ بأنْ لا دَليلَ لهم على ما زَعَموه، فانتقَلَ السَّائلُ المُستَفتِي مِن مَقامِ الاعتِراضِ في المُناظَرةِ

إلى انقِلابِه؛ مُستدِلًّا باستِنتاجٍ مِن إفحامِهم، وذلك هو قولُه: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، الواقعِ مُعترِضًا بيْن التَّرديدِ في الدَّليلِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ إضرابٌ وانتِقالٌ مِنَ التَّبكيتِ بالاستِفتاءِ السَّابقِ إلى التَّبكيتِ بهذا(٢).

- و﴿ أَمْ ﴾ مُنقطِعةٌ، بمعنَى (بلْ)، وهي لا يُفارِقُها معنَى الاستِفهامِ؛ فالكلامُ بعْدَها مُقدَّرٌ بهَمزةِ الاستِفهامِ، أي: بلْ أخَلَقْنا الملائكةَ إناثًا؟! والاستِفهامُ إنكاريٌّ وتعجُّبيٌّ مِن جُرأتِهم وقَولِهم بلا عِلمٍ(٣).

- وضميرُ ﴿ خَلَقْنَا ﴾ الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وهو إذا استَفتاهُم يقولُ لهم: أمْ خَلَق الملائكةَ...؟!(٤).

- قَولُه: ﴿ وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ استِهزاءٌ بالمُشركينَ، وتَجهيلٌ لهم، والإشعارُ بأنَّهم لفَرْطِ جَهلِهم يَبُتُّونَ به كأنَّهم قدْ شاهَدوا خَلْقَهم! وهو في مَوضِعِ الحالِ، وقَيْدٌ للإنكارِ، أيْ: كانوا حاضِرينَ حِينَ خَلَقْنا الملائكةَ فشَهِدوا أُنوثةَ الملائكةَ؛ لأنَّ هذا لا يَثبُتُ لأمثالِهم إلَّا بالمُشاهَدةِ؛ إذْ لا قِبَلَ لهم بعِلمِ ذلك إلَّا المُشاهَدةُ؟! وبَقيَ أنْ يَكونَ ذلك بالخَبرِ القاطِعِ، فذلك ما سيَنفيه بقَولِه: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات: ١٥٦]؛ وذلك لأنَّ أُنوثةَ المَلائكةِ ليستْ مِنَ المُستحيلِ، ولكنَّه قولٌ بلا دَليلٍ. وضميرُ ﴿ وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣- ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَحكيٌّ بالمَعنى في الاستِفتاءِ، والأصلُ: وأنتُم شاهِدونَ؟ ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى: أنَّهم يَقولونَ ذلك، كالقائلِ قَولًا عن ثَلَجِ صَدرٍ وطُمأنينةِ نفْسٍ؛ لإفراطِ جَهلِهم، كأنَّهم قد شاهَدوا خَلْقَهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ استِئنافٌ مِن جِهتِه تعالَى غيرُ داخلٍ تحتَ الأمْرِ بالاستِفتاءِ، مَسوقٌ لإبطالِ أصْلِ مَذهَبِهمُ الفاسدِ؛ ببَيانِ أنَّ مَبْناهُ ليس إلَّا الإفكَ الصَّريحَ، والافتِراءَ القَبيحَ، مِن غيرِ أنْ يَكونَ لهم دليلٌ أو شُبهةٌ قَطعًا[٢].

- وهو ارتِقاءٌ في تَجهيلِهم بأنَّهم يَقولونَ المُستحيلَ، فضْلًا على القولِ بلا دَليلٍ؛ فلذلك سَمَّاهُ إفْكًا[٣].

- وحرفُ (أَلَا) تَنبيهٌ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ جُملةُ اعتِراضٍ بيْن مَقالَتَيِ الكُفرِ مِن جُمَلِ الاستِفتاءِ؛ جاءتْ للتَّشديدِ والتَّأكيدِ في كَونِ مَقالَتِهم تلك هي مِن إفْكِهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ عَوْدٌ إلى الاستِفتاءِ؛ ولذلك لم تُعطَفْ لأنَّ بيْنَها وبيْنَ ما قَبلَها كَمالَ الاتِّصالِ؛ فالمعنى: وقُلْ لهم: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ ﴾؟ والكلامُ ارتِقاءٌ في التَّجهيلِ، أيْ: لو سَلَّمْنا أنَّ اللهَ اتَّخذَ ولَدًا، فلماذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢).

اصْطَفى البَناتِ دُونَ الذُّكورِ، أي: اختارَ لِذَاتِه البَناتِ دُونَ البَنينَ، والبَنونَ أفضَلُ عِندَكم[١]؟!

- وأيضًا قولُه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ هو بمَنزلةِ التَّسليمِ في أثناءِ المُناظَرةِ، وهذا يُسمَّى المُعارَضةَ، وإنَّما أُقحِمَ في أثناءِ الاستِدلالِ عليهم ولم يُجعَلْ مع حِكايةِ دَعْواهُم؛ لِيَكونَ آخِرُ الجَدَلِ معهم هو الدَّليلَ الَّذي يَجرُفُ جميعَ ما بَنَوْهُ، وهو قولُه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ * فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. فهذا مِن بديعِ النَّسيجِ الجامِعِ بيْن أُسلوبِ المُناظَرةِ، وأُسلوبِ المَوعِظةِ، وأُسلوبِ التَّعليمِ[٢]. - قولُه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ: استِفهامٌ على طَريقِ الإنكارِ والاستِبعادِ. وفيه إثباتٌ لإفْكِهم، وتقريرٌ لكَذِبِهم فيما قالوا، ببيانِ استِلزامِه لأمْرٍ بَيِّنِ الاستِحالةِ، هو اصْطِفاؤُه تعالى البناتِ على البَنينَ. وقُرِئ ﴿اصْطَفَى﴾ بهمزةِ وَصْلٍ[٣]، على الإثباتِ بإضمارِ القَولِ، أيْ: لَكاذِبونَ في قَولِهم: (اصْطَفى)، أو جعَلَه مِن كلامِ الكَفَرةِ بدلًا عن قَولِهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾. وقيل: إنَّ قِراءةَ ﴿اصْطَفَى﴾ إخبارٌ بأنَّه سُبحانَه اصْطَفى البناتِ، وجَعْلُ النَّظمِ إخباريًّا لا يَمنَعُ مِن أنْ يَكونَ مِن كلامِ اللهِ على سَبيلِ الإنكارِ أيضًا[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ، واستِفهامٌ عن البُرهانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٥).

(٣) يُنظر ما تقدم (ص: ٦٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

والحُجَّةِ[١].

- وهو بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾؛ فإنَّ إنكارَ اصْطِفاءِ البناتِ يَقتَضي عدَمَ الدَّليلِ في حُكمِهم ذلك، فأُبدِلَ ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ مِن إنكارِ ادِّعائِهمُ اصْطِفاءَ اللهِ البناتِ لنفْسِه. وقولُه: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ (مَا) استِفهامٌ عن ذاتٍ، وهي مُبتدَأٌ و﴿لَكُمۡ﴾ خبرٌ، والمعنى: أيُّ شَيءٍ حصَلَ لكم؟ وهذا إبهامٌ، وفي الآيةِ استِفهامانِ: أحَدُهما: عنِ الشَّيءِ الَّذي حصَلَ لهم فحَكَموا هذا الحُكمَ، وثانيهما: عنِ الحالةِ الَّتي اتَّصَفوا بها لَمَّا حُكيَ هذا الحُكمُ الباطلُ. وهذا إيجازُ حَذفٍ؛ إذِ التَّقديرُ: ما لكم تَحكُمونَ هذا الحُكمَ، كيف تَحكُمونَه؟! وحُذِف مُتعلَّقُ ﴿تَحۡكُمُونَ﴾؛ لِما دَلَّ عليه الاستِفهامانِ مِن كَونِ ما حَكَموا به مُنكَرًا يَحِقُّ العَجَبُ منه، فكِلا الاستِفهامَينِ إنكارٌ وتعجُّبٌ[٢].

- وعبَّرَ بالحُكمِ؛ لاشتِهارِه فيما يُبَتُّ، فيأبَى النَّقضَ؛ فكان التعبيرُ به أعظَمَ في تقريعِهم، حيثُ أطلَقوه على ما لا أوهَى منه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وهو إنكارٌ عن عدَمِ تذَكُّرِهم، أي: استِعمالِ ذُكْرِهم -بضمِّ الذَّالِ، وهو العقلُ- أي: فمُنكَرٌ عدَمُ تفَهُّمِكم فيما يَصدُرُ مِن حُكمِكم[٤].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للعَطفِ على مُقدَّرٍ، أي: ألَا تُلاحِظونَ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢، ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٤).

فلا تَتَذَكَّرونَ بُطلانَه؛ فإنَّه مَركوزٌ في عقلِ كلِّ ذكيٍّ وغبيٍّ(١)؟!

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ إضرابٌ وانتِقالٌ مِن تَوبيخِهم وتَبكيتِهم بما ذُكِر إلى تَبكيتِهم بتَكليفِهم ما لا يَدخُلُ تحتَ الوُجودِ أصلًا، والاستِفهامُ الَّذي تَقتَضيه ﴿أَمۡ﴾ بعْدَها إنكاريٌّ، والمَعنى: بلْ ألَكُم حُجَّةٌ واضِحةٌ نزلَتْ عليكم مِنَ السَّماءِ بأنَّ المَلائكةَ بناتُه تعالَى؛ ضَرورةَ أنَّ الحُكمَ بذلك لا بُدَّ له مِن سنَدٍ حِسِّيٍّ أو عقليٍّ؟! وحيثُ انتَفى كِلاهُما فلا بُدَّ مِن سنَدٍ نقليٍّ(٢).

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ تفرَّعَ على إنكارِ أنْ تَكونَ لهم حُجَّةٌ بما قالوا أنْ خُوطِبوا بالإتيانِ بكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ على ذلك إنْ كانوا صادِقينَ فيما زَعَموا، أيْ: فإنْ لم تأْتوا بكِتابٍ على ذلك فأنتم غَيرُ صادِقينَ. والأمرُ في قَولِه: ﴿فَأۡتُواْ﴾ أمْرُ تَعجيزٍ(٣).

- وذِكرُ لفظِ (كِتَابِكُمْ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فأْتُوا به، أيْ: السُّلطانِ المُبينِ؛ فإنَّه لا يَحتمِلُ إلَّا أنْ يَكونَ كِتابًا مِن عِندِ اللهِ. وإضافةُ (كِتابٍ) إلى ضَميرِهم مِن إضافةِ ما فيه مَعنَى المَصدرِ إلى مَعنَى المفعولِ، على طريقةِ الحذفِ والإيصالِ، والتَّقديرُ: (بكِتابٍ إليكم)؛ لأنَّ ما فيه مادَّةُ الكِتابةِ لا يَتعدَّى إلى المكتوبِ إليه بنفْسِه، بلْ بواسطةِ حرفِ الجَرِّ، وهو (إلى)(٤).

- وفي هذه الآياتِ مِنَ الإنباءِ عنِ السُّخطِ العظيمِ، والإنكارِ الفظيعِ لأقاويلِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٤، ١٨٥).

والاستِبعادِ الشَّديدِ لأباطيلِهم، وتَسفيهِ أحلامِهم، وتَركيكِ عقولِهم وأفهامِهم، مع استِهزاءٍ بهم وتَعجُّبٍ مِن جَهلِهم ما لا يَخفَى على مَن تأمَّلَ فيها[١].

٩- قولُه تعالَى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ الواو استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإنحاءِ علَيهِم باللَّائمةِ واستِرْكاكِ عُقولِهم؛ بأنَّ مَن نَسَبوهم إلى اللهِ تعالَى يَعلَمونَ مَصائرَهمُ المُحْزِنةَ[٢].

- وأيضًا قَولُه: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١]، أي: شَفَّعوا قَولَهم: ﴿ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ [الصافات: ١٥٢]، فجَعَلوا بيْنَ اللهِ وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا بتلك الوِلادةِ، أي: بَيَّنوا كيف حصَلَتْ تلك الوِلادةُ بأنْ جَعَلوها بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا، والجِنَّةُ: الجَماعةُ مِنَ الجِنِّ؛ فتأنيثُ اللَّفظِ بتأويلِ الجَماعةِ مِثلَ تأنيثِ رَجْلَةٍ؛ الطَّائفةِ مِنَ الرِّجالِ؛ ذلك لأنَّ المُشرِكينَ زَعَموا أنَّ المَلائكةَ بناتُ اللهِ مِن سَرَواتِ الجِنِّ، أي: مِن فَريقِ نِساءٍ مِنَ الجِنِّ مِن أشرافِ الجِنِّ[٣]. وذلك على قَولٍ في تَفسيرِ الآيةِ.

- وفي قَولِه: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ بانقطاعِهم عن الجوابِ، وسُقوطِهم عن دَرجةِ الخِطابِ، واقتِضاءِ حالِهم أنْ يُعرَضَ عنهم، وتُحكَى جِناياتُهم لآخَرينَ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ تَسميةُ الملائكةِ (جِنَّةً) -على قولٍ-؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٥، ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

لأنَّ الجِنسَ واحِدٌ، فذكَرَهم في هذا الموضعِ باسمِ جِنسِهم، وإنَّما ذكَرَهم بهذا الاسمِ؛ وَضْعًا منهم وتقصيرًا بهم، وإنْ كانوا مُعَظَّمينَ في أنفُسِهم أنْ يَبلُغوا مَنزِلةَ المُناسَبةِ الَّتي أضافوها إليهم. وإنَّما أُعيدَ ذِكرُ هذا الادِّعاءِ؛ تَمهيدًا لِما يَعقُبه مِن قَولِه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾[1].

- والنَّسَبُ: القَرابةُ العَموديَّةُ أو الأُفُقيَّةُ -أي: مِنَ الأطرافِ- والكلامُ في قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذَوي نَسَبِ اللهِ تعالَى، وهو نَسَبُ البُنوَّةِ؛ لزَعمِهم أنَّ المَلائكةَ بَناتُ اللهِ تعالَى، أي: جَعَلوا للهِ تعالَى نَسَبًا للجِنَّةِ، ولِلْجِنَّةِ نَسَبًا للهِ[2].

- والمرادُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ المُبالَغةُ في التَّكذيبِ؛ ببيانِ أنَّ الَّذين يَدَّعي هؤلاء لهم تلك النِّسبةَ، ويَعلَمونَ أنَّهم أَعْلَمُ منهم بحَقيقةِ الحالِ، يُكَذِّبونَهم في ذلك، ويَحْكُمونَ بأنَّهم مُعَذَّبونَ لأجْلِه حُكْمًا مؤكَّدًا[3].

- وقَولُه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾، وبيْن جُملةِ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]. والمُحضَرونُ: المَجلُوبونَ للحُضورِ، والمرادُ: مُحضَرونُ للعِقابِ؛ بقرينةِ مَقامِ التَّوبيخِ؛ فإنَّ التَّوبيخَ يَتْبَعُه التَّهديدُ، والغالبُ في فِعلِ الإحضارِ أنْ يُرادَ به إحضارُ سُوءٍ، كما في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]؛ ولذلك حذَفَ مُتعلَّقُ (مُحْضَرُونَ)، فأمَّا الإتيانُ بأحدٍ لإكرامِه فيُطْلَقُ عليه المَجيءُ. والمعنَى -على قولٍ-: أنَّ الجِنَّ تَعلَمُ كَذِبَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

المُشركينَ في ذلك كَذِبًا فاحِشًا يُجازَوْنَ عليه بالإحضارِ للعَذابِ، فجعَلَ (مُحْضَرُونَ) كِنايةً عن كَذِبهم؛ لأنَّهم لو كانوا صادِقينَ ما عُذِّبوا على قولِهم ذلك، وظاهِرُه أنَّ هذا العِلمَ حاصِلٌ للجِنِّ فيما مضَى، ولعلَّ ذلك حصَلَ لهم مِن زمانِ تَمَكُّنِهم مِنَ استِراقِ السَّمعِ[١].

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ مِنَ استِعمالِ الماضي في مَوضِعِ المُستقبَلِ؛ لتحقُّقِ وُقوعِه، أي: ستَعلَمُ الجِنَّةُ ذلك يَومَ القِيامةِ، والمقصودُ: أنَّهم يَتحقَّقونَ ذلك، ولا يَستَطيعونَ دَفْعَ العَذابِ عنهم؛ فقد كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ لاعتِقادِ وَجاهَتِهم عِندَ اللهِ بالصِّهرِ الَّذي لهم[٢]!

وقيل: الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للكَفَرةِ، والمعنَى: أنَّهم يَقولونَ ما يَقولونَ في المَلائكةِ، وقدْ عَلِم المَلائكةُ أنَّهم في ذلك كاذِبونَ مُفْتَرونَ، وأنَّهم مُحضَرونَ النَّارَ مُعَذَّبونَ بما يَقولونَ، والمرادُ: المُبالَغةُ في التَّكذيبِ؛ حيثُ أُضيفَ إلى عِلمِ الَّذينَ ادَّعَوْا لهم تلك النِّسبةَ، يعني: كَذَّبَهمُ اللهُ بقَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾؛ حيثُ سَمَّاهم بالجِنَّةِ، ولَمَّا أُريدَ التَّتميمُ ومَزيدُ المُبالَغةِ قيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ حيث أَوقَعَ الجُملةَ القَسَميَّةَ حالًا وأُعيدَ لفظُ ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾؛ للتَّوضيعِ والتَّكذيبِ، وجَعلِهم عالِمينَ بأنَّ مُعْظَمَهم مُعَذَّبونَ بتلك المَقالةِ. ويَجوزُ إذا فُسِّر الجِنَّةُ بالشَّياطينِ: أنْ يَكونَ الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لهم، والمعنَى: أنَّ الشَّياطينَ عالِمونَ بأنَّ اللهَ يُحضِرُهمُ النَّارَ ويُعَذِّبُهم، ولو كانوا مُناسِبينَ له أو شُركاءَ في وُجوبِ الطَّاعةِ لَمَا عَذَّبَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

١٠- قولُه تعالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

- أُتبِعَتْ حِكايةُ قَولِهِمُ الباطِلِ والوَعيدِ عليه باعتِراضٍ بيْنَ المُستَثْنى منه والمُستَثْنى، يَتضمَّنُ إنشاءَ تَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا نَسَبوهُ إليه؛ فهو إنشاءٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ لتَنزيهِه، وتَلقينٌ للمؤمنينَ بأنْ يَقتَدوا باللهِ في ذلك التَّنزيهِ، وتعجُّبٌ مِن فَظيعِ ما نَسَبوه إليه. وقيل: هو حِكايةٌ لتَنزيهِ المَلائكةِ إيَّاهُ تعالَى عمَّا وصَفَه المُشركونَ به بعْدَ تَكذيبِهم لهم في ذلكَ بتقديرِ قَولٍ معطوفٍ ﴿عَلِمَتِ﴾[١].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِنَ (المُحضَرينَ)، مَعناهُ: ولكنَّ المُخلَصينَ ناجُونَ[٢].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ١٥٩] وجُملةِ ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الصافات: ١٦١] الآيةَ، والاستِثناءُ مُنقطِعٌ، والوجهُ: أنْ يَكونَ استِثناءً مُنقطِعًا نَشأَ عن قَولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]، فهو مُرتبِطٌ به؛ لأنَّ (مَا يَصِفُونَ) أفادَ أنَّهم يَصِفونَ اللهَ بأنَّ الملائكةَ بناتُه، كما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾[٣] [الصافات: ١٤٩].

- وهذه الجُملةُ شَهادةٌ ببَراءةِ المُخلَصينَ مِن أنْ يَصِفُوه تعالى بذلك، مُتَضمِّنةٌ لتَبَرُّئِهم منه بحُكمِ اندراجِهم في زُمرةِ المُخلَصينَ على أبْلَغِ وجهٍ وآكَدِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٧، ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨).

على أنَّه استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن واوِ ﴿يَصِفُونَ﴾، كأنَّه قيل: ولقد عَلِمَتِ المَلائكةُ أنَّ المُشركينَ لَمُعَذَّبونَ؛ لقَولِهم ذلك، وقالوا: سُبحانَ اللهِ عمَّا يَصِفُونَه به، لكنْ عِبادُ اللهِ -الَّذينَ نحنُ مِن جُملتِهم- بُرآءُ مِن ذلك الوَصفِ[1].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ عُقِّبَ قَولُهم في الملائكةِ والجِنِّ بهذا؛ لأنَّ قَولَهم ذلك دَعاهُم إلى عِبادةِ الجِنِّ وعِبادةِ الأصنامِ الَّتي سَوَّلَها لهم الشَّيطانُ، وحَرَّضَهم عليها الكُهَّانُ خَدَمةُ الجِنِّ؛ فعُقِّبَ ذلك بتأييسِ المُشرِكينَ مِن إدْخالِ الفِتنةِ على المؤمنينَ في إيمانِهم بما يُحاوِلونَ منهم مِنَ الرُّجوعِ إلى الشِّركِ. أو هي فاءٌ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إذا عَلِمْتُم أنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ مُنَزَّهونَ عن مِثلِ قَولِكم، فإنَّكم لا تَفتِنونَ إلَّا مَن هو صالِي الجَحيمِ[2].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ للكافِرينَ، وفيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الحُضورِ؛ لأنَّ الكافَ للمُخاطَبِ، والمُخاطَبُ حاضِرٌ، وما سبَقَ الضَّميرُ فيه عائدٌ إلى غائبٍ ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩]، فكلُّها بضَميرِ الغَيبةِ. والالْتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ أو العَكسِ له فائدةٌ، وهي تَنبيهُ المُخاطَبِ، وإظهارُ كَمالِ الاعتِناءِ بتَحقيقِ مَضمونِ الكلامِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الخِطابَ إذا كان على وَتيرةٍ واحدةٍ لم يكُنْ فيه ما يَدْعو إلى الانتِباهِ، فإذا تغيَّرَ الأُسلوبُ انتبَهَ الإنسانُ، وهذه الفائدةُ مُطَّرِدةٌ في كلِّ مَوضِعٍ فيه الْتِفاتٌ. وهناك فائدةٌ أُخرى تكونُ بحسَبِ السِّياقِ وليستْ مُطَّرِدةً في كلِّ مَوضِعٍ، والفائدةُ هنا ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ هي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨، ١٨٩).

أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى لَمَّا تَحدَّثَ عنهم بصيغةِ الغَيبةِ وكان الَّذي بعْدَ ضَمائرِ الغَيبةِ أمْرًا يَظُنُّ صاحِبُه أنَّه قادرٌ عليه، خاطَبَه مُخاطَبةَ الحاضِرِ؛ إفادةً إلى ذُلِّه وعدَمِ قُدرتِه على ما يَقصِدُ؛ فالكُفَّارُ يُحاوِلونَ فَتْنَ النَّاسِ عن دِينِهم بكُلِّ وسيلةٍ؛ تارةً بالدِّعايةِ لمَعبوداتِهم، وتارةً بالقَدْحِ في عِبادةِ اللهِ، وتارةً بالقَدْحِ في المُسلمينَ، وغيرِ ذلك، فيَظُنُّونَ أنَّهم على شَيءٍ، فخاطَبَهمُ اللهُ تعالى بخِطابٍ صريحٍ؛ إذلالًا لهم، فقال ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ -أيُّها المُشرِكونَ- ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ مِنَ الأصنامِ، وعَبَّرَ بـ (ما) الَّتي تُستعمَلُ غالبًا في غيرِ العاقِلِ؛ لأنَّ أكثَرَ مَعبودِ المُشركينَ مِن غيرِ العاقِلِ. ويَحتمِلُ أنْ تَكونَ (ما) مَصدريَّةً، أيْ: فإنَّكم وعِبادتَكم ما أنتُم فاتِنينَ عليه أحدًا[1].

- قَولُه: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ تعليلٌ وتحقيقٌ لبراءةِ المُخلَصينَ ممَّا ذُكِر؛ ببيانِ عَجْزِهم عن إغوائِهم وإضلالِهم[2].

- قَولُه: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عِبارةٌ عن الشَّياطينِ الَّذين أَغْوَوْهُم، وفيه إيذانٌ بتَبرِئتِهم عنهم وعن عِبادتِهم، كقَولِهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾[3] [سبأ: ٤١].

- و﴿أَنتُمْ﴾ ضَميرٌ لهم ولآلهتِهم، غُلِّب فيه المُخاطَبُ على الغائبِ، (وعلى) مُتعلِّقةٌ ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾، يُقالُ: فَتَنَ فُلانٌ على فُلانٍ امرأتَه، أي: أفسَدَها عليه، والمعنى: ما أنتُم على ما تَعبدونَه ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بباعِثينَ على طَريقِ الفِتنةِ إلَّا ضالًّا مُستوجِبًا للنَّارِ مِثلَكم، ولَسْتُم بفاتِنينَ عليه تعالى بإفسادِ عِبادِه وإضلالِهم. وقيل:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٩،٣٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حرفُ (على) يَتعلَّقُ بـ «فاتِنينَ»؛ إمَّا لتَضمينِ (فاتِنينَ) معنَى مُفسِدينَ إنْ كان الضَّميرُ المجرورُ بها عائدًا إلى اسمِ الجَلالةِ، وإمَّا لتَضمينِه معنَى حامِلينَ ومَسْؤولينَ، ويَكونُ (على) بمعنَى لامِ التَّعليلِ، كقَولِه: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويَكونُ تقدير مُضافٍ بيْن (على) ومَجرورِها، تَقديرُه: على عِبادةِ ما تَعبدونَ، والمعنَى: أنَّكم والشَّياطينَ لا يَتبَعُكم أحدٌ في دِينِكم إلَّا مَن عَرَّضَ نفْسَه ليَكونَ صالي الجَحيمِ، وهذا في معنَى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] [الحجر: ٤٢، ٤٣].

- وحُذِف مَفعولُ ﴿بِفَـٰتِنِينَ﴾؛ لقَصدِ العُمومِ، والتَّقديرُ: بفاتِنينَ أحَدًا[2].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

الآيات (١٦٤-١٧٠)

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾: أي: الملائِكةُ صَفُّوا أقدامَهم، ووقَفوا صُفوفًا في السَّماءِ للعِبادةِ، كصُفوفِ النَّاسِ في الأرضِ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ وتَساوٍ بينَ شَيئَينِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾

﴿مِنَّآ﴾ شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومجرورٌ (مِن - نَا) مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ هو مُبتدأٌ، والخبَرُ الجُملةُ مِنْ قولِه: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ تَقديرُه: ما مِنَّا إلَّا له مَقامٌ؛ فحُذِفَ الموصوفُ وأُقيمَت صِفتُه مَقامَه. وحَذْفُ المبتدأِ مع (مِنْ) جيِّدٌ فَصيحٌ. وقيل في إعرابه غيرُ ذلك[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى طاعةَ الملائكةِ له ومُداومتَهم على عِبادتِه وتسبيحِه، فيُخبِرُ عنهم أنَّهم يقولونَ: وما مِنَّا إلَّا وله مَقامٌ مَعلومٌ لا يَتجاوَزُه، وإنَّا لنحنُ الذين نَقِفُ في السَّماءِ صُفوفًا عندَ اللهِ تعالَى، وإنَّا لنحنُ المُسَبِّحونَ اللهَ، والمُنَزِّهونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٩).

عن النَّقائِصِ. والحالُ أنَّ أولئك المُشرِكينَ الضَّالِّينَ كانوا يَقولونَ قَبلَ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أنَّ عِندَنا كِتابًا مِن السَّابِقينَ، لكُنَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصَهم اللهُ لعِبادتِه. فلمَّا أتاهم ما تمَنَّوه مِن الكِتابِ كَفَروا به، فسوفَ يَعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ عاقِبةَ فِعلِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الملائِكةَ وَصَفوا أنفُسَهم بالمُبالَغةِ في العُبوديَّةِ؛ فإنَّهم يَصطَفُّونَ للصَّلاةِ والتَّسبيحِ، والغَرَضُ منه التَّنبيهُ على فَسادِ قَولِ مَن يَقولُ: إنَّهم أولادُ اللهِ؛ وذلك لأنَّ مُبالغتَهم في العُبوديَّةِ تَدُلُّ على اعتِرافِهم بالعُبوديَّةِ للهِ تعالَى رَبِّهم وإلهِهم[1].

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾.

أي: يَقولُ الملائِكةُ عليهم السَّلامُ: وما مِنَّا إلَّا وله مَقامٌ مُحَدَّدٌ مَعلومٌ لا يَتجاوَزُه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٧٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩١).

قال الرازيُّ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾: (الجُمهورُ على أنَّهم الملائِكةُ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

وقيل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ مِن قولِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ للمُشرِكينَ، أي: لكلِّ واحدٍ منَّا ومنكم في الآخرةِ مقامٌ معلومٌ، وهو مقامُ الحسابِ. وقيل: أي منَّا مَن له مقامُ الخوفِ، ومنَّا مَن له مقامُ الرَّجاءِ، ومنَّا مَن له مَقامُ الإخلاصِ، ومنَّا مَن له مَقامُ الشُّكرِ. إلى غيرِها مِن المقاماتِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).

قال ابنُ جُزي: (والمقامُ المَعلومُ: يحتَمِلُ أن يرادَ به المكانُ الذي يقومونَ فيه؛ لأنَّ منهم مَن هو في السَّماءِ الدُّنيا، وفي الثَّانيةِ، وفي السَّمواتِ، وحيثُ شاء اللهُ، ويحتَمِلُ أنْ يُرادَ به المنزلةُ مِن =

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾.

أي: وإنَّا لَنحنُ الذين نَقِفُ في السَّماءِ صُفوفًا متراصِّينَ في طاعةِ الله[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وعن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خرَجَ علينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

= العِبادةِ والتَّقريبِ والتَّشريفِ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٩).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والخازنُ، وابنُ كَثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٣).

وقيل: المرادُ أنَّ للملائكةِ مَقامًا مَكانيًّا ومَقامًا زمانيًّا، أي: لهم مَوضِعٌ ووَقتٌ يقومون فيه للهِ تعالى؛ فعِبادتُهم مُؤقَّتةٌ بزمنٍ، ومُقيَّدةٌ بمكانٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٤).

وقيل: المرادُ أنَّه ما مِنهم مِن أحدٍ إلَّا له مَقامٌ وتدبيرٌ قدْ أمَرَه اللهُ به، لا يَتعدَّاه ولا يَتجاوزُه، وليس لهم مِن الأمْرِ شَيءٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٤-٣٤٥).

قيل: يَصُفُّونَ لعِبادةِ اللهِ تعالَى. وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطاب، وعبدُ الله بنُ مَسعودٍ، وابن عبَّاس، وقَتادة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣٢).

وقيل: يَصُفُّونَ في الصَّلاةِ والجِهادِ، ويَصُفُّونَ أجنِحَتَهم في الهواءِ، وغيرِ ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢).

عليه وسلَّم فقال: ألَا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ رَبِّها؟ فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، وكيف تَصُفُّ الملائِكةُ عِندَ رَبِّها؟ قال: يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأُوَلَ، ويَتراصُّونَ في الصَّفِّ))[1].

وعن حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فُضِّلْنا على النَّاسِ بثَلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائِكةِ، وجُعِلَتْ لنا الأرضُ كُلُّها مَسجِدًا، وجُعِلَت تُربتُها لنا طَهُورًا إذا لم نَجِدِ الماءَ))[2].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾.

أي: وإنَّا لَنحنُ الذين نُسَبِّحُ اللهَ ونُنَزِّهُه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِن عُيوبٍ ونقائِصَ[3].

---

(١) رواه مُسلِم (٤٣٠).

(٢) رواه مُسلِم (٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٥-٣٤٦).

قال الشوكاني: (﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: المُنزِّهُونَ لِلَّهِ المُقَدِّسونَ له عَمَّا أضافَه إليه المشركونَ، وقيلَ: المصلُّونَ، وقيلَ: المرادُ بقولِهم: ﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾ مجموعُ التَّسبيحِ باللِّسانِ وبالصَّلاةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٦).

ممن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾: المُنزِّهونَ لِلَّهِ عن النقائصِ وعمَّا لَا يَليقُ به: الواحدي، والبغوي، والسمعاني، والبيضاوي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

وممن اختار أن المراد المصلون؛ لأنَّ الصلاةَ يقالُ لها تسبيحٌ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٥).

وممن جمع فقال: المرادُ: المصلونَ المنزهونَ الله عن السوءِ: الواحدي، والبغوي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾.

مُناسَبةُ الآياتِ لِمَا قبلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن ذِكرِ كُفرِ المُشركينَ؛ بتَعدُّدِ الإلهِ، وبإنكارِ البَعثِ، وما وصَفوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ السِّحرِ والجُنونِ، ثمَّ بما نَسَبوا للهِ ممَّا لا يَليقُ بإلهيَّتِه، وما تَخلَّلَ ذلك مِنَ المَواعِظِ والوَعيدِ لهم، والوَعدِ للمُؤمنينَ، والعبرةِ بمَصارِعِ المُكذِّبينَ السَّابقينَ، وما لَقِيَه رُسلُ اللهِ مِن أقوامِهم؛ فانتقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ ما كفَرَ به المُشرِكونَ مِن تَكذيبِ القُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ هُدًى لهم(١)، وإلى ذِكرِ إخلافِهم للوَعدِ، والنقضِ لِمَا أكَّدوه مِن العَهدِ(٢).

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦٨)﴾.

أي: ضلَّ مُشرِكو قُرَيشٍ عن الحَقِّ، ولم يُنزِّهوا اللهَ تعالى كما يَنبغي له سُبحانَه، والحالُ أنَّهم كانوا يَقولونَ قَبلَ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أنَّ عِندَنا

= قال القُرطبيُّ: (المرادُ أنَّهم يُخبِرونَ أنَّهم يَعبُدونَ اللهَ بالتَّسبيحِ والصَّلاةِ، وليسوا مَعبودينَ ولا بَناتِ اللهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢-٣١٣).

كِتابًا مِن السَّابِقينَ[1].

كما قال تعالَى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢-٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).
ممَّن اختارَ أنَّ معنَى ﴿ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: كِتابًا مِن كُتُبِ الأوَّلين: الواحدي، والزمخشري، والرازي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٣).
وقيل: المعنى: كتابًا مثلَ كتبِ الأوَّلين، وممَّن اختارَه: الثَّعلبي، والسَّمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٣٩).
قال ابنُ عاشور: (الذِّكْرُ: الكتابُ المقروءُ، سُمِّي ذِكْرًا لأنَّه يُذَكِّرُ النَّاسَ بما يَجِبُ عليهم، مُسَمًّى بالمصدَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).
وقيل: المرادُ بقَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبَرُ الأُمَمِ الخاليةِ: كيف أُهلِكوا، وما كان مِن أمْرِهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مُقاتِل بن سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣).
وقيل: المعنى: لو بُعِث إلينا نبيٌّ ببَيانِ الشَّرائعِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).
وقيل: المراد: لو أنَّ عندَنا كِتابًا أُنزِلَ مِن السَّماءِ، كالتَّوراةِ والإنجيلِ، أو نبيًّا أتانا مِثلَ الذي أتَى اليهودَ والنَّصارى. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥).
وقيل: المعنى: لو كان عِندَهم مَن يُذَكِّرُهم بأمْرِ اللهِ، وما كان مِن أمْرِ القُرونِ الأُولى، ويأتيهم بكتابِ اللهِ. وممَّن ذهب إليه: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٩).
وقيل: المرادُ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي: على أيِّ حالٍ كان مِن أحوالِه مِن كِتابٍ أو غيرِه ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مِن الرُّسُلِ الماضين. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣١٣).

﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٩﴾.

أي: لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصوا للهِ تعالَى، وأخلَصَهم لعِبادتِه وطاعتِه، واختارَهم لجَنَّته(1).

كما قال تعالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فلمَّا أتاهم ما تمَنَّوه كفَروا بالقُرآنِ الذي جاءَهم به مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(2).

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسَوفَ يَعلَمُ هؤلاءِ الكُفَّارُ ما يأتيهم مِنَ الخِزْيِ والعَذابِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم برَبِّهم، وإعراضِهم عن كِتابِه، وتكذيبِهم رَسولَه(3).

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٠).

(2) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥١-٣٥٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

أنَّه يَنبغي تأكيدُ الخِطابِ إذا كان المُخاطَبُ مُنكِرًا، أو مُترَدِّدًا، أو كان المعنى ذا أهميَّةٍ يَحتاجُ إلى التَّوكيدِ؛ لِقَولِه تعالَى مُخبِرًا عن الملائكةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾؛ وذلك مِن أجْلِ تَقريرِ هؤلاء المُنكِرينَ الذين يَدَّعونَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ؛ فيَقولونَ: نحن نَصُفُّ للهِ تَعبُّدًا له وتَعظيمًا[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ بيانُ أنَّ الملائِكةَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنَزَّهُون عمَّا يَدَّعيه هؤلاء مِن كونِهم بَناتِ اللهِ، ووجهُ ذلك: أنَّهم مُكَلَّفونَ بالعِبادةِ على حَدٍّ مَعلومٍ -على قولٍ في التفسيرِ-، ومَن كان مُكَلَّفًا بالعِبادةِ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ ابنًا أو ولَدًا للمَعبودِ[2]!

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ مِن صِفاتِ الملائِكةِ أنَّ لكُلِّ واحدٍ منهم مَرتبةً لا يَتجاوَزُها، ودرجةً لا يتعدَّاها[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فيه بيانُ بَراءةِ الملائِكةِ عليهم السَّلامُ ممَّا قالَه فيهم المُشرِكونَ، وأنَّهم عِبادُ اللهِ لا يَعصُونَه طَرفةَ عَينٍ؛ فما منهم مِن أحدٍ إلَّا له مَقامٌ وتَدبيرٌ قدْ أمَرَه اللهُ به لا يَتعدَّاه ولا يَتجاوزُه -وذلك على قَولٍ في التفسيرِ-، وليس لهم مِنَ الأمرِ شَيءٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ۞ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۞ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك أفظَعُ الكُفرِ؛ لأنَّه كُفرٌ بما كانوا على بَصيرةٍ مِن أمْرِه، إذ كانوا يتمنَّونَه لأنفُسِهم، ويَغبِطونَ الأُمَمَ التي أُنزِلَ عليهم مِثلُه، فلم يكُنْ كُفرُهم عن مُباغَتةٍ، ولا عن قِلَّةِ تمكُّنٍ مِن النَّظَرِ(١).

٥- أنَّ النَّاسَ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ لهم استِقامةٌ إلَّا بكُتُبٍ نازلةٍ مِن السَّماءِ، حتى المُشرِكونَ الكُفَّارُ يُقِرُّون بهذا؛ لقَولِه تعالَى: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، وهذه الفائدةُ يَشهَدُ لها الواقِعُ؛ فإنَّ الأُمَمَ الذين لم تَنزِلْ عليهِمُ الكتُبُ تَجِدُهم في فَوضَى مُطَّرِدةٍ، لا يَستقيمُ لهم حالٌ، ولا يَمشونَ على خَطٍّ مُستقيمٍ، بخِلافِ الأُمَمِ التي تَنزِلُ عليها الكُتُبُ؛ فإنَّها تكونُ مُستقيمةً بقَدرِ تَمَسُّكِها بهذه الكُتُبِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ حِكايةُ اعترافِ الملائكةِ بالعُبوديَّةِ للرَّدِّ على عَبَدتِهم. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ هذا وما قبْلَه مِن قَولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ١٥٩] مِن كَلامِهم؛ لِيَتَّصِلَ بقَولِه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ﴾ [الصافات: ١٥٨]، كأنَّه قال: ولقدْ عَلِمَتِ المَلائكةُ أنَّ المُشركينَ مُعَذَّبونَ بذلك، وقالوا: سُبحانَ اللهِ؛ تَنزيهًا له عنه، ثمَّ استَثْنَوُا المُخلَصينَ؛ تَبرئةً لهم منه، ثمَّ خاطَبوا المُشركينَ بأنَّ الافتِتانَ بذلك للشَّقاوةِ المُقدَّرةِ، ثمَّ اعترَفوا بالعُبوديَّةِ، وتَفاوُتِ مَراتِبِهم فيها لا يَتجاوَزُونَها؛ فحُذِف المَوصوفُ وأُقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَه(٣)، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠).

على قولٍ في التَّفسير.

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ مِن قَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلى هذا يَكونُ قَولُه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ اعتراضًا، وكلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استِطرادًا؛ لأنَّه تعالى لَمَّا أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالاستِفتاءِ عن وجهِ تلك القِسمةِ الضِّيزَى الَّتي قَسَموها بقَولِه: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩]، وبالإنكارِ البَليغِ واستِجهالِ النُّفوسِ واستِركاكِ العُقولِ سُخطًا عليهم وغضَبًا على تلك المقالةِ الشَّنيعةِ؛ أتَى بما دَلَّ على ضِدِّ ذلك مِن مَعنى الرِّضا عن المؤمِنينَ لأجْلِ أعْمالِهمُ الصَّالحةِ؛ مِنَ الصَّلاةِ في الجَماعاتِ، وتَسبيحِ اللهِ وتَنزيهِه عمَّا أَضافَ إليه الكَفَرةُ[1].

- قولُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ (المَقامُ): أصْلُه مكانَ القِيامِ، ولَمَّا كان القِيامُ يَكونُ في الغالِبِ لأجْلِ العَملِ؛ كثُرَ إطلاقُ المَقامِ على العَملِ الَّذي يَقومُ به المرءُ. و(المعلومُ): المُعَيَّنُ المَضبوطُ، وأُطلِقَ عليه وصْفُ مَعلومٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُعَيَّنَ المَضبوطَ لا يَشتبِهُ على المُتبَصِّرِ فيه، فمَن تأمَّلَه عَلِمَه. والمعنى -على قولٍ في التَّفسيرِ-: ما مِن أحدٍ مِنَّا -مَعشَرَ المؤمِنينَ- إلَّا له صِفةٌ وعمَلٌ نحوَ خالِقِه لا يَستزِلُّه عنه شَيءٌ، ولا تَرُوجُ عليه فيه الوَساوِسُ؛ فلا تَطْمَعوا أنْ تُزِلُّونا عن عِبادةِ ربِّنا، فالمَقامُ هو صِفةُ العُبوديَّةِ للهِ؛ بقرينةِ وُقوعِ هذه الجُملةِ عَقِبَ قَولِه: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ * مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦١، ١٦٢]، أي: ما أنتم بفاتِنينَ لنا، فلا يَلتبِسُ علينا فضْلُ الملائكةِ فنَرفَعه إلى مَقامِ البُنوَّةِ للهِ تعالَى، ولا نُشَبِّهُ اعتِقادَكم في تَصرُّفِ الجِنِّ أنْ تَبلُغوا بهم

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢١٩).

مَقامَ المُصاهَرةِ للهِ تعالَى والمُداناةِ لجَلالِه، كقَولِه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾(١) [الأنعام: ١٠٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ فيه تَحليةُ كلامِهم بفُنونِ التَّأكيدِ -بـ (إنَّ) واللَّامِ، وتَوسيطِ الفَصلِ (نحن)- مِنَ التأكيدِ والاختِصاص؛ لأنَّهم المُواظِبونَ على ذلك دائمًا مِن غيرِ فَترةٍ دُونَ غَيرِهم، ولإبرازِ أنَّ صُدورَه عنهم بكَمالِ الرَّغبةِ والنَّشاطِ(٢).

- وحُذِف مُتعلَّقُ «الصَّافُّونَ المُسبِّحونَ»؛ لدَلالةِ قَولِه ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢] عليه، أي: الصَّافُّونَ لعِبادتِه، المُسَبِّحونَ له؛ فإنَّ الكلامَ في هذه الآياتِ كلِّها مُتعلِّقٌ بشُؤونِ اللهِ تعالَى(٣).

- قَولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ تعريفُ جُزْأيِ الجُملةِ، وضميرُ الفَصلِ مِن قَولِه: ﴿لَنَحْنُ﴾ يُفيدانَ قَصْرًا مؤكَّدًا؛ فهو قَصرُ قَلبٍ، أي: دُونَ ما وصَفْتُموهُ به مِنَ البُنوَّةِ للهِ(٤).

- وعبَّرَ في قَولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ بالجُملةِ الاسميةِ، وهي تفيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ؛ فدَلَّ على أنَّ دَأْبَ الملائكةِ التسبيحُ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٨).

ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

- انتقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ ما كفَرَ به المُشرِكونَ مِن تَكذيبِ القُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ هُدًى لهم؛ فالمقصودُ مِن هذا هو قَولُه: ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾، أي: الذِّكرِ، وإنَّما قُدِّم له في نَظْمِ الكلامِ ما فيه تَسجيلٌ على الكافِرينَ بتَهافُتِهم في القَولِ؛ إذْ كانوا قبْلَ أنْ يأتيَهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالكِتابِ المُبينِ يَوَدُّون أنْ يُشَرِّفَهمُ اللهُ بكِتابٍ لهم كما شرَّفَ الأوَّلينَ، ويَرْجونَ لو كان ذلك أنْ يَكونوا عِبادًا للهِ مُخلِصينَ له، فلمَّا جاءَهم ما رَغِبوا فيه كَفَروا به[(١)].

- قَولُه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾ تأكيدُ الخَبرِ بـ (إنْ) المُخفَّفةِ مِنَ الثَّقيلةِ، وبلامِ الابتِداءِ الفارِقةِ بيْن المُخفَّفةِ والنَّافيةِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بتَحقيقِ وُقوعِ ذلك منهم؛ لِيُسَدَّ عليهم بابُ الإنكارِ[(٢)]؛ فقد كانوا جادِّينَ في ذلك، ثمَّ ظهَرَ منهمُ التَّكذيبُ والنُّفورُ البَليغُ، فكَمْ بيْن أوَّلِ أمْرِهم وآخِرِه[(٣)]!

- وإقحامُ فِعلِ ﴿ كَانُوا۟ ﴾ في قَولِه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ خبَرَ (كان) ثابتٌ لهم في الماضي[(٤)].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في (يقولونَ)؛ لإفادةِ أنَّ ذلك تكرَّرَ منهم[(٥)].

- قولُه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۞ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ... ﴾ ﴿ مِّنَ ﴾ ابتدائيَّة، أي: ذِكرًا جائيًا مِن الرُّسُلِ الأوَّلينَ، أي: مِثل موسى وعيسى، ومُرادُهم بهذا أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٠، ١٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرُّسلَ الأوَّلينَ لم يَكونوا مُرسَلينَ إليهم، ولا بَلَّغوا إليهم كِتابَهم، ولو كانوا مُرسَلينَ إليهم لآمَنوا بهم، فكانوا عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ، فذُكِرَ في جَوابِ (لو) ما هو أخَصُّ مِنَ الإيمانِ؛ ليُفيدَ معنَى الإيمانِ بدَلالةِ الفَحْوى[١].

- وفي جُملةِ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صِيغةُ قَصرٍ؛ مِن أجْلِ كَونِ المُسنَدِ إليه مَعرِفةً بالإضمارِ، والمُسنَدِ مَعرِفةً بالإضافةِ، أي: لَكُنَّا عِبادَ اللهِ دُونَ غَيرِنا، ولَمَّا وُصِف المُسنَدُ بـ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهو مُعرَّفٌ بلامِ الجِنسِ، حصَلَ قَصرُ عِبادِ اللهِ الَّذينَ لهم صِفةُ الإخلاصِ في المُسنَدِ إليه، وهذا قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣، ١٩٤).
وفحْوَى الخطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القنطارِ؛ ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاح البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصْرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا من قصْرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه.
يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

لِلمُبالَغةِ في ثُبوتِ صِفةِ الإخلاصِ لهم حتَّى كانوا شَبيهينَ بالمُنفرِدينَ بالإخلاصِ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بإخلاصِ غَيرِهم في جانبِ إخلاصِهم، وهو يَؤولُ إلى معنَى تَفضيلِ أنفُسِهم في الإخلاصِ للهِ حينَئذٍ[1].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّعقيبِ على فِعلِ ﴿لَيَقُولُونَ﴾، أي: استَمَرَّ قَولُهم حتَّى كان آخِرُه أنْ جاءَهمُ الكِتابُ فكَفَروا به. أو للفَصيحةِ، والتَّقديرُ: فكان عِندَهم ذِكرٌ فكَفَروا به، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الذِّكرِ، وهو القُرآنُ، وبهذا كان للوَعيدِ بقَولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ مَوقِعُه المُصادِفُ المَحَزَّ مِنَ الكَلامِ، وهَولُه بما ضُمِّنَه مِنَ الإبهامِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧١-١٨٢)

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أي: فأعْرِضْ عنهم، والفِعلُ (تولَّى) يتعدَّي بحُروفِ الجرِّ، فإذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتضى معنى الوِلايةِ والقُربِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُرْب، يُقالُ: تباعَدَ بعْدَ ولْيٍ، أي: قُربٍ[(١)].

﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾: أي: بفِنائِهم، والسَّاحَةُ: المكانُ الواسِعُ، ومنه: سَاحَةُ الدَّارِ[(٢)].

﴿فَسَاءَ﴾: أي: فقَبُحَ، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبشِّرًا المؤمِنينَ بنَصرِه، ومُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابَه مِن أعدائِه: ولقدْ سَبَق قَضاؤُنا لِرُسُلِنا بأنَّهم هم المنصورونَ، وأنَّ العاقِبةَ لهم، وأنَّ حِزبَنا هم الغالِبونَ؛ فأعرِضْ عن أولئك الكافِرينَ -يا مُحمَّدُ- إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وأبصِرْهم -يا مُحمَّدُ- فسوف يُبصِرونَ ما يَحُلُّ بهم، أفيَستَعجِلُ أولئك المجرِمونَ بعَذابِنا؟!

فإذا نزَلَ العَذابُ بفِنائِهم، فساءَ صَباحُ أولئك الذين أنذَرَهم رُسُلُنا فأعرَضوا عنه، ودَعْهم -يا محمَّدُ- إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وأبصِرْ -يا مُحمَّدُ- فسوف يَرَونَ ما يَحُلُّ بهم جزاءَ كُفرِهم، تنزَّهَ ربُّك رَبُّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُه به أولئك الكُفَّارُ، وسَلامٌ مِنَ اللهِ على المُرسَلينَ، والحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا هدَّدَ الكُفَّارَ بقَولِه: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ -أي: عاقِبةَ كُفرِهم-؛ أردَفَه بما يُقوِّي قَلبَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

وأيضًا فهو تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تضَمَّنَه قَولُه: ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [الصافات: ١٧٠]، وبيانٌ لِبَعضِ الوَعيدِ الذي في قَولِه: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٠]، بمنزلةِ بدَلِ البَعضِ مِن الكُلِّ، ولكِنَّه غُلِّبَ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١)﴾.

أي: ولقدْ تَقدَّمَ منَّا القولُ والقَضاءُ والوَعْدُ لِرُسُلِنا[1].

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)﴾.

أي: بأنَّهم هُم الَّذينَ يَنصرُهم اللهُ في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّ العاقِبةَ تكونُ لهم[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥).

قيل: المرادُ بالكَلِمةِ: قَولُه تعالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]. وممَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: مقاتل بن سليمان، والثعلبيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠).

وقيل: المرادُ بها ما ورَد في الآيتَينِ بَعدَها: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣]. وممَّن قال بهذا القول: البقاعيُّ، والشوكانيُّ، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).

وقيل: المعنى: مضَى القَضاءُ والحُكمُ في أمِّ الكِتابِ، بأنَّ لهم النُّصرةَ والغَلَبةَ والعاقِبةَ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابن جَرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٤-٣٥٥).

قال ابن عثيمين: (المرادُ بالعبادِ هنا العبوديةُ الخاصةُ، بل أخصُّ الخاصةِ، وهي عبوديةُ الرسالةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢١).

قال الزَّمخشريُّ: (المرادُ: المَوعِدُ بعُلُوِّهم على عَدُوِّهم في مَقاوِمِ الحِجاجِ وملاحِمِ القِتالِ في الدُّنيا، وعلوِّهم عليهم في الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]. ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

ﭐلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾.

أي: وإنَّ حِزبَنا المُؤمِنينَ المُدافِعينَ عن دِينِ رَبِّ العالَمينَ، هُمْ أصحابُ الغَلبةِ والظَّفَرِ على الكافِرينَ(١).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٦-٣٥٧).

قيل: المرادُ بالجُندِ: المُرسَلونَ وأتْباعُهم. وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: البقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤٨).

وقيل: يَعْني حِزْبنا المؤمنين وأهلَ ولايتِنا، وممَّن قال بذلك في الجُملة: مقاتل بن سليمان، وابنُ جَرير، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ثَبَت لا محالةَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو المنصورُ؛ لأنَّه مِن المُرسَلينَ ومِن جُندِ اللهِ، بل هو أعلاهم؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه(١):

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤﴾.

أي: فأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن الذين كَفَروا إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه(٢).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

قال الشوكانيُّ: (﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: أعرِضْ عنهم إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وهي مُدَّةُ الكفِّ عن القِتالِ. قالَ السُّدِّيُّ ومجاهِدٌ: حتَّى نأمُرَكَ بالقِتالِ. وقالَ قتادَةُ: إلى الموتِ. وقيلَ: إلى يوم بَدرٍ، وقيلَ: إلى يومِ فتحِ مَكَّةَ. وقيلَ: هذه الآيةُ منسوخَةٌ بآيةِ السَّيفِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ: إلى يوم بدرٍ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والبيضاوي، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٠).

وقال السعديُّ: (أمَرَ رَسولَه بالإعراضِ عمَّن عانَدوا، ولم يَقبَلوا الحَقَّ، وأنَّه ما بَقِيَ إلَّا انتِظارُ ما يَحُلُّ بهم مِنَ العَذابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٥).

وممن اختار أنَّ المرادَ: مدةُ الكفِّ عن القتالِ: الزمخشري، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

وقال العليمي: (﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: حين نأمُرُكَ بقتالِهم، فالآيةُ محكمةٌ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٦).

وقال السمعاني: (﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: حينِ الموتِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١).

كما قال تعالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠].

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾.

أي: وأبصِرْهم -يا مُحمَّدُ- فسوف يُبصِرونَ ما يَحُلُّ بهم؛ جزاءَ كُفرِهم(١).

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

أي: أفيَطلُبُ المُشرِكونَ أن يُعَجِّلَ لهم عَذابُ اللهِ، فيَأتيَهم قبْلَ أوانِه الذي ضُرِبَ لهم(٢)؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

قيل: المرادُ بـ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ انظُرْ إليهم إذا عُذِّبوا. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦١).

قال مقاتل: (﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ إذا نزَل بهم العذابُ ببدرٍ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣).

وقال ابنُ عاشور: (وليسَ المرادُ النَّظَرَ إلى ذواتِهم لكِنْ إلى أحوالِهم، أي: تأمَّلْ أحوالَهم ترَ كيفَ ننصرُك عليهم، وهذا وَعيدٌ بما حَلَّ بهم يومَ بدْرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ: أنظِرْهم، وارتَقِبْ ماذا يحُلُّ بهم مِنَ العذابِ والنَّكالِ على مُخالفَتِك وتكذيبِك. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملة: مكي، وابن كثير. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥).

وقيل: المعنى: وأبصِرْهم ببَصَرِك وبَصيرتِك عِندَ الحِينِ الذي ضرَبْناه لك وقَبلَه، كيف تُؤدِّيهم أحوالُهم وتقَلُّباتُهم كُلَّما تقَلَّبوا إلى سُفولٍ. قاله البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[١] [ص: ١٦].

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

أي: فإذا نزَلَ العَذابُ بفِناءِ أولئك المُستَعجِلينَ به، فما أسوَأَه مِن صَباحٍ هذا الذي يَحُلُّ فيه العَذابُ على مَن أنذَرَهم رَسولُهم، فأعرَضوا عنه ولم يلتَفِتوا إلى إنذارِه[٢]!

عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتَى خيبَرَ ليلًا، وكان إذا أتَى قَومًا بلَيلٍ لم يُغِرْ[٣] بهم حتى يُصبِحَ، فلمَّا أصبَحَ خَرَجت اليَهودُ بمَسَاحِيهم[٤] ومَكاتِلِهم[٥]، فلمَّا رأَوْه قالوا: محمَّدٌ واللهِ، محمَّدٌ والخَميسُ[٦]!

(١) معنَى ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾: أي: نصيبَنا المقدَّرَ لنا مِن العذابِ الَّذي تزعُمُ وُقوعَه بنا إنْ لم نُصَدِّقْكَ ونُؤْمِنْ بك. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٣-٣٦٤).

(٣) مِن الإغارةِ، وهي الهُجومُ على العَدوِّ على وجْهِ الغَفلةِ، أو: تبييتُ العَدوِّ ليلًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٣١)، ((عمدة القاري)) للعيني (٦/ ٢٦٥).

(٤) المَسَاحي: جمْع مِسْحاة، وهي المِجرَفةُ مِن الحَديدِ، وهي مِن آلاتِ الحرْث. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٩). ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٨).

(٥) المَكاتِل: جمْع مِكْتَل، وهو الزِّنْبيلُ -وهو ما يُعمَلُ مِن الْخُوصِ- والقُفَّةُ الكَبيرةُ التي يُحْمَلُ فيها التَّمْرُ وغَيْرُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ٢٢٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٢٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٨).

(٦) الخميس: الجيشُ؛ قيل: سُمِّيَ خميسًا لأنَّه خمسةُ أقسامٍ: مُقدِّمة، وساقة، ومَيْمنة، ومَيْسرة، وقلْب. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ٢١٩).

فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خَرِبَت خَيبرُ، إنَّا إذا نزَلْنا بساحةِ قَومٍ فساءَ صَباحُ المُنذَرينَ))(١).

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾.

أي: وأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عنهم إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه(٢).

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

أي: وأبصِرْ -يا مُحمَّدُ- فسوفَ يَرَونَ ما يَحُلُّ بهم؛ جَزاءَ كُفرِهم(٣).

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالَى في هذه السُّورةِ كَثيرًا مِن أقوالِ المُشرِكينَ الشَّنيعةِ التي

---

(١) رواه البخاري (٤١٩٧) واللَّفظُ له، ومُسلِمٌ (١٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

قال الشوكاني: (حَذْفُ مفعولِ «أَبْصِرْ» هاهنا وذِكرُه أوَّلًا؛ إمَّا لدَلالةِ الأوَّلِ عليه، فترَكَه هنا اختِصارًا، أو قَصدًا إلى التَّعميمِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما يُبصِرُه من أنواعِ عذابِهم لا يُحيطُ به الوَصفُ. وقيل: هذه الجُملةُ المرادُ بها أحوالُ القِيامةِ، والجُملةُ الأُولى المرادُ بها عذابُهم في الدُّنيا، وعلى هذا فلا يكونُ مِن بابِ التَّأكيدِ، بل مِن بابِ التَّأسيسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٨).

وقيل: المرادُ: أَبصِرْ ما تُريدُ مِن شُؤونِك التي يُهِمُّك النَّظَرُ فيها، وأمَّا هُم فصاروا بحيثُ لا يُبالَى بهم، ولا يُفكَّرُ في أمرِهم، ولا يُلتَفتُ إليهم. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٨).

وَصفوه بها؛ نزَّه نَفسَه عنها، فقال تعالى[١]:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾.

أي: تنزَّهَ ربُّك -يا مُحمَّدُ- المُختَصُّ بالعِزَّة، ذو القُوَّةِ والمَنَعةِ، والغَلَبةِ والقَهرِ، وعَظَمةِ القَدْر: عمَّا يَصِفُه به الكُفَّارُ من الشَّريكِ والوَلَدِ والصَّاحِبةِ، وغيرِ ذلك ممَّا يَفترونَ مِن أوصافٍ لا تَليقُ باللهِ تعالَى[٢].

كما قال تعالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١﴾.

أي: وسَلامُ اللهِ في الدُّنيا والآخِرةِ علَى رُسُلِه؛ لسَلامةِ ما قالوه عنِ اللهِ تعالَى مِن كُلِّ نقْصٍ وعَيبٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٦-٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩). =

كما قال تعالَى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾.

أي: وجَميعُ أنواعِ المحامِدِ ثابتةٌ، ومُختصَّةٌ بالمُدَبِّرِ المالِكِ الخالِقِ لجَميعِ أصنافِ الخلائِقِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فيه بِشارةٌ عَظيمةٌ لِمَن اتَّصَف بأنَّه مِن جُندِ اللهِ بأنْ كانتْ أحوالُه مُستقيمةً، وقاتَلَ مَن أُمِرَ بقِتالِهم: أنَّه غالِبٌ مَنصورٌ[٢].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أنَّهم لو آمَنوا في هذا الوَقتِ فلنْ يَنفَعَهم؛ لأنَّه لو نَفَعهم الإيمانُ لم تَصدُقْ عليهم هذه الجُملةُ صِدْقًا كامِلًا؛ لأنَّه لو نَفَعَهم الإيمانُ لزال عنهم هذا السُّوءُ، ولكِنَّ الإيمانَ لنْ يَنفَعَهم، وهذه سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في عِبادِه: إذا نَزَلَ بهِمُ العَذابُ فآمَنوا: ألَّا يَنفَعَهم إيمانُهم؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

= والمرسَلونَ هنا: قيلَ: هم المُرسَلونَ مِن البَشَرِ إلى أُمَمِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جَرير، والسمعاني، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠).

وقيل: وَصفُ المُرسَلينَ يَشمَلُ الأنبياءَ والملائكةَ. وممَّن قال بهذا: البقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

ﱡﭐ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﱠ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وكلُّ هذا يُوجِبُ للإنسانِ العاقلِ أنْ يُبادِرَ بالتَّوبةِ، وألَّا يتأخَّرَ وألَّا يُهمِلَ؛ لأنَّه لا يَدري متى يُفاجِئُه الموتُ، وإذا نَزَلَ به الموتُ فإنَّه لنْ تَنفَعَه التَّوبةُ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ التَّوبةُ في وَقتٍ تُقبَلُ فيه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ هذه الآياتُ الكَريماتُ تَدُلُّ على أنَّ الرُّسُلَ -صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم- وأتْباعَهم: مَنصورونَ دائِمًا على الأعداءِ بالحُجَّةِ والبَيانِ، ومَن أُمِرَ منهم بالجِهادِ مَنصورٌ أيضًا بالسَّيفِ والسِّنانِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على هذا كَثيرةٌ[2]، وفيها تَثبيتُ مَن دعا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أتْباعِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّ لهم الغَلَبةَ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3] [المنافقون: ٨].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ تَهديدُ أعداءِ الرُّسُلِ، وأنَّهم مَخذولون؛ لأنَّه إذا كَتَبَ النَّصرَ للرَّسولِ فسيكونُ الخِذلانُ لأعدائِهم[4].

٣- قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ إنْ قيل: هذه الآيةُ تتعلَّقُ بغلبةِ الرُّسلِ ونصرِهم على مَن ناوَأهم، وقد رأيْنا الحربَ بينَهم وبينَ أعدائِهم سجالًا، وفي أُحُدٍ كانت الغلبةُ للمشركينَ، وفي الأنبياءِ مَن قُتِل؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فالجوابُ من أوجهٍ:

منها: أنَّ الغلبةَ للرُّسلِ ولمن تبِعهم في العاقبةِ، وإن وقَع في غضونِ الأمرِ خلافُ ذلك ابتلاءً وامتحانًا، فمعنى ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ و(غَالِبُونَ): أي في أكثرِ الأحوالِ، وباعتبارِ العاقبةِ؛ فلا يُنافي أنَّهم يُغلَبونَ نادِرًا، ثم تكونُ لهم العاقِبةُ، وكفَى بمَشاهِدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ مَثَلًا يُحتذَى عليها، وعِبَرًا يُعتبَرُ بها

ومنها: أن يقالَ: إنَّ النصرَ المطلقَ هو نصرُ الآخرةِ، أمَّا نصرُ الدنيا فليس بمضمونٍ.

ومنها: أنَّ المرادَ بالنصرِ انتصارُهم بالحجةِ، وظهورُ ما جاؤوا به، لا الغلبةُ الحسيةُ، وقيل غير ذلك[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يُعَذَّبَ أحَدٌ إلَّا بعدَ إبلاغِه، وهل يَكفي بُلوغُ الحُجَّةِ أو لا بُدَّ مِن فَهْمِ الحُجَّةِ؟ لا بُدَّ مِن فَهمِ الحُجَّةِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]؛ لأنَّهم لا يَفهَمونَه، وإذا لم يُؤمِنوا به لعَدَمِ فَهمِهم فهُم مَعذورونَ، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي: بِلُغَتِهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ فلا بُدَّ مِن بَيانِ الحُجَّةِ[2].

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٨).

ذَكَر تَنزيهَه لِنَفسِه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، ثمَّ سَلامَه على رُسُلِه، وفي اقْترانِ السَّلامِ عليهم بتَسبيحِه لنَفْسِه سِرٌّ عظيمٌ مِن أسرارِ القُرآنِ، يَتضَمَّنُ الرَّدَّ على كُلِّ مُبطِلٍ ومُبتَدِعٍ؛ فإنَّه نَزَّهَ نفسَه تنزيهًا مُطلَقًا، كما نَزَّهَ نفسَه عمَّا يَقولُ خَلقُه فيه، ثم سَلَّمَ على المُرسَلينَ، وهذا يَقتَضي سَلامتَهم مِن كلِّ ما يَقولُ المُكَذِّبونَ لهم المُخالِفونَ لهم، وإذا سَلِمُوا من كلِّ ما رماهم به أعداؤُهم لَزِمَ سَلامةُ كلِّ ما جاؤُوا به مِن الكَذِبِ والفَسادِ، وأعظَمُ ما جاؤوا به التَّوحيدُ ومَعرِفةُ اللهِ تعالَى، ووَصفُه بما يَليقُ بجلالِه ممَّا وَصَفَ به نَفسَه على ألسِنتِهم، وإذا سَلِمَ ذلك مِن الكَذِبِ والمُحالِ والفَسادِ فهو الحقُّ المَحضُ، وما خالَفَه هو الباطِلُ والكَذِبُ والمُحالُ[1].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ سبَّح نَفسَه عمَّا يَصِفُه المُفتَرونَ المُشرِكونَ، وسَلَّم على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما قالوه مِن الإفكِ والشِّركِ، وحَمِدَ نفسَه؛ إذْ هو سُبحانَه المُستَحِقُّ للحَمدِ بما له مِن الأسماءِ والصِّفاتِ وبَديعِ المَخلوقاتِ[2].

٧- يُستَحَبُّ للدَّاعي أنْ يَقولَ في آخِرِ دُعائِه كما قال أهلُ الجَنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وحسُنَ أن يقرأَ آخرَ الصَّافَّاتِ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]؛ فإنَّها جمَعَت تنزيهَ الباريِّ تعالى عمَّا نُسِبَ إليه، والتَّسليمَ على المُرسَلينَ، والخَتمَ بالحَمدِ للَّه ربِّ العالَمينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٩-١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ للوَعيدِ، وتَصديرُه بالقَسَمِ؛ لغايةِ الاعتِناءِ بتحقيقِ مَضمونِه، أي: وباللهِ لقدْ سبَقَ وَعْدُنا لهم بالنُّصرةِ والغَلَبةِ[١].

- وهي أيضًا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ [الصافات: ١٧٠]، وبيانٌ لبعضِ الوعيدِ الَّذي في قَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٧٠]، بمنزلةِ بَدَلِ البعضِ مِنَ الكُلِّ، ولكنَّه غلَبَ عليه جانبُ التَّسليةِ؛ فعُطِفَ بالواوِ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ[٢].

- و(الكَلِمةُ) في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ مُرادٌ بها الكَلامُ، عُبِّرَ عنِ الكَلامِ بكَلِمةٍ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنتظَمٌ في معنًى واحِدٍ دالٍّ على المقصودِ دَلالةً سريعةً، فشُبِّهَ بالكَلِمةِ الواحِدةِ في سُرعةِ الدَّلالةِ، وإيجازِ اللَّفظِ، وبُيِّنَت الكَلِمةُ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بجُملةِ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾، أي: الكَلامِ المُتضمِّنِ وَعْدَهم بأنْ يَنصُرَهمُ اللهُ على الَّذينَ كَذَّبوهم وعادَوْهم، وهذه بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَقِبَ تَسليتِه؛ لأنَّه داخِلٌ في عُمومِ المُرسَلينَ[٣].

- ووَصَفَهم اللهُ بالعُبوديَّةِ قَبْلَ الرِّسالةِ في قولِه: ﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾، مع أنَّ الرِّسالةَ شَرَفٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ كَونَهم عِبادًا للهِ عزَّ وجلَّ أشرَفُ وأعظَمُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤، ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٣٦٤).

- قولُه: ﴿لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ لم يُبيِّنْ مَنِ النَّاصِرُ؛ لِيكونَ هذا أشمَلَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [الأنفال: ٦٢].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ عطْفٌ على ما قَبْلَه، وفيه بِشارةٌ للمُؤمِنينَ؛ فإنَّ المؤمِنينَ جُندُ اللهِ، أي: أنصارُه؛ لأنَّهم نَصَروا دِينَه، وتَلَقَّوْا كَلامَه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَنفيسٌ عنه[3].

- وقولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مُفرَّعٌ على التَّسليةِ الَّتي تَضمَّنَها قَولُه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ [الصافات: ١٧١]. والتَّولِّي حقيقتُه: المُفارَقةُ، واستُعمِلَ هنا للدَّلالةِ على عدَمِ الاهتِمامِ بما يَقولونَه، وتَرْكِ النَّكدِ مِن إعراضِهم[4].

- والحِينُ: الوقتُ، وأُجمِلَ هنا إيماءً إلى تَقليلِه، أي: تَقريبِه؛ فالتَّنكيرُ للتَّحقيرِ المَعنويِّ، وهو التَّقليلُ[5].

- وقَولُه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تهديدٌ ووَعيدٌ للمُشرِكينَ، كأنَّه قال: أَبصِرْهم على أسوأِ حالٍ، وأفظَعِ نَكالٍ حَلَّ بهم مِنَ القتلِ والأَسْرِ[6]. وذلك على قولٍ.

- وصِيغةُ الأمرِ في ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإرشادِ[7].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ عُبِّر عن ترتُّبِ نُزولِ الوعيدِ بهم بفِعلِ الإبصارِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥، ١٩٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).
(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

للدَّلالةِ على أنَّ ما تُوُعِّدوا به واقِعٌ لا مَحالةَ، وأنَّه قريبٌ حتَّى إنَّ المَوعودَ بالنَّصرِ يَتشَوَّفُ إلى حُلولِه، فكان ذلك كِنايةً عن تَحقُّقِه وقُربِه؛ لأنَّ تَحديقَ البَصرِ لا يَكونُ إلَّا إلى شَيءٍ أَشرَفَ على الحُلولِ، أو كأنَّها قُدَّامَ ناظِرَيه، والمعنَى: إنَّما أمَرَ اللهُ نبيَّه -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- بقَولِه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، والمُبصَرُ مُنتظَرٌ بعدُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ وعْدَ اللهِ الآتيَ بمَنزلةِ الكائنِ؛ استِحضارًا لتلك الحالةِ الآتيةِ[1]. وقيل: معناه: انظُرْ إليهم، أي: مِنَ الآنَ، وعُدِّيَ (أَبصِرْ) إلى ضَميرِهِمُ الدَّالِّ على ذَواتِهم، وليس المُرادُ النَّظرَ إلى ذَواتِهم، لكنْ إلى أحوالِهم، أي: تأمَّلْ أحوالَهم تَرَ كيف نَنصُرُك عليهم. وحُذِفَ ما يَتعلَّقُ به الإبصارُ مِن حالٍ أو مفعولٍ معه، بتقدير: وأَبصِرْهم مأْسُورينَ مَقتولينَ، أو: وأَبصِرْهم وما يُقضَى به عليهم مِن أَسْرٍ وقَتلٍ؛ لدَّلالةِ ما تقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣] عليه؛ إذ ليس المأمورُ به ذَواتَهم، وهذا مِن دَلالةِ الاقتِضاءِ[2].

- وتفريعُ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ على ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ تَفريعٌ لإنذارِهم بوَعيدٍ قَريبٍ على بِشارةِ النَّبيِّ بقُربِه؛ فإنَّ ذلك المُبصَرَ يَسُرُّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُحزِنُ أعداءَه، ففي الكلامِ اكتِفاءٌ، كأنَّه قيل: أَبصِرْهم وما يَنزِلُ بهم، فسوف تُبصِرُ ما وَعَدْناك، ولْيُبْصِروا ما يَنزِلُ بهم فسوف يُبصِرُونَه. وحُذِفَ مَفعولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

ودَلالةُ الاقتضاءِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على مَقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تَقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

﴿يُبۡصِرُونَ﴾؛ لدَلالةِ ما دلَّتْ عليه دَلالةُ الاقتِضاءِ[1].

– قَولُه: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ أعادَه في قَولِه: ﴿وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٩]؛ تأكيدًا، أو لأنَّ الأوَّلَ في الدُّنيا، والثانيَ في الآخِرةِ[2].

– وأيضًا قال تعالَى: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٩]، فعَدَّى هذا الفِعلَ الأوَّلَ وهو: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾، وحذَفَ ما تعَدَّى إليه (أَبْصِرْ) في الثَّانيةِ، وكرَّرَ ﴿وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ هذا بعْدَما بَشَّرَ اللهُ تعالى به عِبادَه، حيثُ قال: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ – ١٧٣]، ومعناهُ: إنَّ المُرسَلينَ ومَن تَبِعَهم مِنَ المؤمنينَ إذا حارَبوا أعداءَ اللهِ بأمرِ اللهِ، فإنَّ اللهَ قدْ حكَمَ لهم بالظَّفَرِ والنَّصْرِ في عاقِبةِ أُمورِهم، وإنْ كان بعْدَ مُدَّةٍ. فقَولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٧٤]، أيْ: أَعرِضْ عن مُحارَبتِهم إلى الحِينِ الَّذي يَعلَمُ اللهُ أنَّه يُظفِرُك بهم، ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ في الوقتِ الَّذي تُنصَرُ فيه عليهم، ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ قَهْرَكم لهم وذُلَّهم.

فأمَّا حَذْفُ (هُمْ) في (أَبْصِرْ) الثَّانيةِ؛ فلِذِكْرِها في الأُولى، ولأنَّ هناك معانيَ أُخرى تَنضَمُّ إلى ذِكرِهم، فيُترَكُ ذِكرُ المفعولِ ليَشرعَ الفِعلُ إلى تلك المعاني كلِّها، ويَبينُ ذلك في الجوابِ عن فائدةِ تَكرارِ العامِلِ، وهي أنَّ قَولَه: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٧٤] إنَّما يُرادُ به الحِينُ فى الدُّنيا، وهو الوقتُ الَّذي يُنصَرُ فيه المُسلِمونَ عليهم ويُقهَرونَ بأيديهم.

وقولُه ثانيًا: ﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ * وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٨،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤).

١٧٩]، أي: بعْدَ أنْ تُنصَرَ عليهم، فيَهلِكوا في الدُّنيا، تَوقَّعْ ما يَحُلُّ بهم في الأُخرى، ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ هناك وأنواعَ العَذابِ الَّتي تُصَبُّ عليهم، وعمَلَ النَّارِ فيهم، ثمَّ ما لهم فيها مِنَ البقاءِ والخُلودِ، ومع تَبديلِ الجُلودِ وسائرِ ما أعَدَّ اللهُ تعالى للكفَّارِ في عذابِ النَّارِ، فقَولُه: ﴿وَأَبۡصِرۡ﴾ مُودَعٌ فيه كلُّ ذلك: ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ تهديدٌ لهم، أي: سوف يَلْقَوْنَ ما أَوعَدَ اللهُ به أهلَ معصيتِه مِن أليمِ عُقوبتِه[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾

- تَفريعٌ على التَّأجيلِ المذكورِ في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٧٤]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا أنذَرَهم بعَذابٍ يَحُلُّ بهم تُوُقِّعَ أنَّهم سيَقولونَ على سَبيلِ الاستِهزاءِ: أَرِنا العَذابَ الَّذي تُخوِّفُنا به، وعَجِّلْهُ لنا. أو أنَّهم قالُوه، فلُوحِظَ ذلك، وفُرِّعَ عليه استِفهامٌ تعجُّبيٌّ مِنَ استِعجالِهم ما في تأخيرِه والنَّظْرةِ به؛ رأفةً بهم، واستِبقاءً لهم حينًا[٢].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ[٣]، أو للتَّهديدِ والوعيدِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾

- الفاء في قَولِه: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ ...﴾ فاءُ الفَصيحةِ، أي: إنْ كانوا يَستعجِلونَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٩٦-١٠٩٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٢، ٤١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٣).

بالعَذابِ، فإذا نزَلَ بهم فبئسَ وقتُ نُزولِه[١].

– وفي قَولِه: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ مُثِّلَ العَذابُ النَّازِلُ بهم بعْدَ ما أُنذِرُوه فأَنكَرُوه، بجَيشٍ أَنذَرَ بهُجومِه قَومَه بعضُ نُصَّاحِهم، فلمْ يَلتَفِتوا إلى إنذارِه، ولا أخَذوا أُهْبَتَهم، ولا دَبَّروا أمْرَهم تدبيرًا يُنجيهم، حتَّى أناخَ بفِنائِهم بَغْتةً، فشَنَّ علَيهمُ الغارةَ وقطَعَ دابِرَهم. وما فَصُحَتْ هذه الآيةُ، ولا كانتْ لها الرَّوعةُ الَّتي تُحِسُّ بها، ويَروقُك مَورِدُها على نفْسِك وطبعِكَ إلَّا لمَجيئِها على طريقةِ التَّمثيلِ[٢].

– قَولهُ: ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ أي: غلَبَ عليها؛ لأنَّ ذلك شأنُ النَّازِلِ بالشَّيءِ مِن غيرِ إذنِ صاحِبِه، ولا يَغلِبُ عليها إلَّا وقد غلَبَ على أهلِها فبرَكَ عليهم بُروكًا لا يَقدِرونَ معه على البُروزِ إلى تلك السَّاحةِ، وهي الفِناءُ الخالي عن الأبنيةِ كأنَّه مُتحدَّثُ القَومِ، ومَوضِعُ راحتِهم، في أيِّ وقتٍ كان بُروكُه مِن لَيلٍ أو نَهارٍ[٣].

– وخَصَّص الصَّباحَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه كان مِن عادةِ العَربِ الإغارةُ في الصَّباحِ؛ فسُمِّيَت الغارةُ صباحًا؛ لأنَّها تقَعُ فيه عادةً، ولأنَّه مِن عَلائقِ الهَيئةِ المُشَبَّهِ بها؛ فإنَّ شأنَ الغارةِ أنْ تَكونَ في الصَّباحِ؛ ولذلك كان نذيرُ المَجيءِ بغارةِ عَدُوٍّ يُنادي: يا صَباحاهْ! نِداءَ نُدبةٍ وتَفجُّعٍ؛ ولذلك جعَلَ جوابَ (إذا) قَولَه: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أي: بِئسَ الصَّباحُ صَباحُهم؛ ولهذا استَفصَحَ العربُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٦).

هذه الآيةَ[١].

- وفي وَصْفِهم بالمُنذَرينَ تَرشيحٌ للتَّمثيلِ[٢]، وتَوريةٌ في اللَّفظِ؛ لأنَّ المُشبَّهينَ مُنذَرونَ مِنَ اللهِ بالعَذابِ، والَّذينَ يَسوءُ صَباحُهم عِندَ الغارةِ هُمُ المَهزومونَ، فكأنَّه قيل: فإذا نُزِلَ بساحَتِهم كانوا مَغلوبينَ. وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لتَفريقِ أجزائِه في التَّشبيهِ؛ بأنْ يُشَبَّهَ العَذابُ بالجَيشِ، وحُلولُه بهم بنُزولِ الجَيشِ بساحةِ قَومٍ، وما يَلحَقُهم مِن ضُرِّ العَذابِ بضُرِّ الهزيمةِ، ووقتُ نُزولِ العَذابِ بهم بتَصبيحِ العَدُوِّ مَحلَّةَ قَومٍ[٣].

- وأيضًا في اختيارِ هذا التَّمثيلِ البَديعِ معنًى بديعٌ؛ مِن إيماءٍ إلى أنَّ العَذابَ الَّذي وُعِدوه هو -على قولٍ- ما أصابَهم يَومَ بَدرٍ مِن قتلٍ وأَسْرٍ على طريقةِ التَّوريةِ[٤].

- وقَولُه: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أقام فيه الظاهرَ مقامَ المُضْمَرِ، ومُقتضَى السِّياقِ أنْ يَقولَ: «فإذا نَزَلَ بساحتِهم فساءَ صباحُهم»! لكنَّه قال: ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ فأقام الظاهرَ مقامَ المُضْمَرِ، وهنا إقامةُ الظاهرِ مقامَ المُضْمَرِ له فائدةٌ لفظيةٌ ومعنويةٌ، فاللفظيةُ هي: مراعاةُ فواصِلِ الآياتِ، أمَّا المعنويةُ فهي التَّعميمُ، وانطباقُ الوَصفِ عليهم، وإقامةُ الحُجَّةِ على هؤلاء الذين نَزَلَ العذابُ بساحتِهم؛ وهي أنَّهم قد أُنْذِروا ولم يكُن لهم عُذْرٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٩٨).

واستحقُّوا العَذابَ بعَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[(١)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ الآية [الصافات: ١٧٧]؛ لأنَّ معنَى المَعطوفِ عليها: الوعدُ بأنَّ اللهَ سيَنتقِمُ منهم، فعطَفَ عليه أمْرَه رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بألَّا يَهتَمَّ بعِنادِهم، وهذه نَظيرُ الَّتي سبَقَتْها المُفرَّعةِ بالفاءِ؛ فلذلك يَحصُلُ منها تأكيدُ نَظيرتِها، على أنَّه قد يَكونُ هذا التَّولِّي غيْرَ الأوَّلِ، وإلى حِينٍ آخَرَ وإبصارٍ آخَرَ، فالظَّاهِرُ أنَّه تَولٍّ عمَّن يَبقَى مِنَ المُشركينَ بعْدَ حُلولِ العَذابِ الَّذي استُعجِلوهُ، فيَحتمِلُ أنْ يَكونَ حينًا مِن أوقاتِ الدُّنيا، فهو إنذارٌ بفتحِ مكَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ إلى حِينٍ مِن أحيانِ الآخِرةِ، وإنَّما جُعِل ذلك غايةً لتَولِّي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم؛ لأنَّ تَوليةَ العَذابِ عنهم غايةٌ لتَولِّي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم؛ لأنَّ تَولِّيَه عنهم مُستمِرٌّ إلى يَومِ القِيامةِ؛ فإنَّ مُدَّةَ لَحاقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالرَّفيقِ الأعْلى لَمَّا كانتْ مُتَّصِلةً بتَولِّيهِ عنهم جُعِلَتْ تلك المُدَّةُ كأنَّها ظَرفٌ للتَّولِّي يَنتهي بحِينِ إحضارِهم للعِقابِ، فيَكونُ قَولُه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مُرادًا به الأبدُ[(٢)].

- وكَرَّر الأمرُ بالتَّولِّي؛ تأنيسًا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولِيَكونَ ذلك تَسليةً على تَسليةٍ، وتأكيدًا لوُقوعِ الميعادِ إلى تأكيدٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، تَذييلًا لخِطابِه المُبتدَأ بقَولِه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ ﴾ الآيةَ [الصافات: ١٤٩]؛ فإنَّه خُلاصةٌ جامِعةٌ لِما حَوَتْه مِن تَنزيهِ اللهِ، وتأييدِه رُسُلَه. وهذه الآيةُ فَذْلَكةٌ[١] لِما احتَوَتْ عليه السُّورةُ مِنَ الأغراضِ؛ جمَعَتْ تَنزيهَ اللهِ، والثَّناءَ على الرُّسلِ والملائكةِ، وحَمْدَ اللهِ على ما سبَقَ ذِكرُه مِن نِعَمِه على المُسلِمينَ؛ مِن هُدًى، ونَصرٍ، وفَوزٍ بالنَّعيمِ المُقيمِ[٢].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُعْرِبةِ عن التَّربيةِ والتَّكميلِ والمالِكيَّةِ الكُلِّيةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تشريفًا له بإضافتِه وخِطابِه أوَّلًا، وإلى العِزَّةِ ثانيًا، كأنَّه قيلَ: سُبحانَ مَن هو مُرَبِّيكَ ومُكَمِّلُكَ ومالِكُ العِزَّةِ والغَلَبةِ على الإطلاقِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ به مِنَ الأشياءِ الَّتي منها تَرْكُ نُصرتِكَ عليهم، كما يدُلُّ عليه استِعجالُهم بالعَذابِ[٣]، وأيضًا في إضافةِ الرَّبِّ إليه وإلى العِزَّةِ إشارةٌ إلى اختِصاصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وكُلِّ مَن وافَقَه في أمْرِه عن جميعِ الخَلقِ بالعِزَّةِ، وإنْ رُئِيَ في ظاهِرِ الأمرِ غيرُ ذلك[٤].

- وأُضيفَ الرَّبُّ إلى العِزَّةِ؛ لاختِصاصِه بها، مع التَّوصيفِ بصِفاتِ الكَمالِ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ: أنَّه ما مِن عِزَّةٍ لأحدٍ مِنَ الملوكِ وغَيرِهم إلَّا وهو ربُّها

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٩).

ومالِكُها؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦][(١)].

- و(رَبُّ) هنا بمعنَى: مالِك، ومعنَى كَونِه تعالى مالِكَ العِزَّةِ: أنَّه مُنفرِدٌ بالعِزَّةِ الحقيقيَّةِ، وهي العِزَّةُ الَّتي لا يَشوبُها افتِقارٌ؛ فإضافةُ ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿ٱلۡعِزَّةِ﴾ على معنَى لامِ الاختِصاصِ، كما يُقالُ: صاحِبُ صِدقٍ، لِمَن اختُصَّ بالصِّدقِ وكان عريقًا فيه. والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡعِزَّةِ﴾ هو تعريفُ الجِنسِ؛ فيَقتضِي انفِرادَه تعالى به؛ لأنَّ ما يَثبُتُ لغَيرِه مِن ذلك الجِنسِ كالعدَمِ[(٢)].

- قَولُه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تعميمٌ للرُّسلِ بالتَّسليمِ، بعْدَ تَخصيصِ بعضِهم[(٣)]، وفيه تَشريفٌ لهم عليهم السَّلامُ، وتَنويهٌ بشأنِهم، وإيذانٌ بأنَّهم سالِمونَ عن كلِّ المَكارِه، فائِزونَ بجَميعِ المآرِبِ[(٤)].

- وتَنكيرُ (سَلام) للتَّعظيم. ووصفُ المُرسَلينَ يَشملُ الأنبياءَ والمَلائكةَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فإنَّ المَلائكةَ مُرسَلونَ فيما يَقومونَ به مِن تَنفيذِ أمْرِ اللهِ[(٥)].

- قَولُه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: والحَمدُ للهِ علَى ما أفاضَ عليهم وعلى مَنِ اتَّبَعَهم مِنَ النِّعَمِ وحُسنِ العاقبةِ؛ ولذلك أخَّرَه عن التَّسليمِ. ولعلَّ تَوسيطَ التَّسليمِ على المُرسَلينَ بيْن تَسبيحِه تعالَى وتَحميدِه؛ لخَتْمِ السُّورةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩، ٢٠٠).

الكريمةِ بحَمدِه تعالَى، مع ما فيه مِنَ الإشعارِ بأنَّ توفيقَه تعالى للتَّسليم عليهم مِن جُملةِ النِّعَمِ المُوجِبةِ للحمدِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا كانتْ النُّفوسُ وإنْ تفاوتَتْ في مراتِبِ الكَمالِ لا تَسلَمُ مِن نقْصٍ أو حَيرةٍ، كانتْ في حاجةٍ إلى مُرشِدينَ يُبَلِّغونَها مَراتِبَ الكمالِ بإرشادِ اللهِ تعالَى، وذلك بواسِطةِ الرُّسلِ إلى النَّاسِ، وبواسِطةِ المُبَلِّغينَ مِنَ المَلائكةِ إلى الرُّسلِ، وكانتْ غايةُ ذلك هي بُلوغَ الكمالِ في الدُّنيا، والفوزَ بالنَّعيمِ الدَّائمِ في الآخِرةِ، وتلك نِعمةٌ تَستَوجِبُ على النَّاسِ حَمْدَ اللهِ تعالى على ذلكَ؛ لأنَّ الحمْدَ يَقتَضي اتِّصافَ المحمودِ بالفضائلِ، وإنعامَه بالفَواضِلِ، وأَعْظَمُها نِعمةُ الهِدايةِ بواسِطةِ الرُّسلِ؛ فهُمُ المُبلِّغونَ إرشادَ اللهِ إلى الخَلقِ[1].

- وفي قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى وَصْفِه عزَّ وجلَّ بصِفاتِه الكَريمةِ الثُّبوتيَّةِ بعْدَ التَّنبيهِ على اتِّصافِه تعالى بجَميعِ صِفاته السَّلبيةِ، وإيذانٌ باستِتباعِها للأفعالِ الجَميلةِ الَّتي مِن جُملتِها إفاضتُه عليهم مِن فُنُونِ الكراماتِ السَّنيَّةِ، والكمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وإسباغُه عليهم وعلى مَن تَبِعَهم صُنوفَ النَّعماءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، المُوجِبةِ لحَمدِه تعالَى، وإشعارٌ بأنَّ ما وُعِدَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ النُّصرةِ والغَلَبةِ قد تحقَّقتْ، والمرادُ: تَنبيهُ المؤمِنينَ على كَيفيَّةِ تَسبيحِه تعالَى وتَحميدِه، والتَّسليمِ على رُسلِه الَّذين هُم وسائطُ بيْنهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

وبيْنه -عزَّ وعَلا- في فَيَضانِ الكَمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ عليهم[1].

- وأيضًا في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حَمِدَ اللهُ نَفسَه بَعدَ أنْ نَزَّهَها في قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لأنَّ في الحَمدِ كمالَ الصِّفاتِ، وفي التَّسبيحِ تَنزيهًا عنِ العُيوبِ؛ فجَمَعَ في الآيةِ بينَ التَّنزيهِ عنِ العُيوبِ بالتَّسبيحِ، وبينَ إثباتِ الكَمالِ بالحَمدِ[2]؛ فالتَّسبيحُ لَمَّا كان يَتضمَّنُ التَّنزيهَ والتَّبرِئةَ مِنَ النَّقصِ بدَلالةِ المُطابَقةِ، ويَستلزِمُ إثباتَ الكمالِ، كما أنَّ الحمدَ يدُلُّ على إثْباتِ صِفاتِ الكَمالِ مُطابَقةً، ويَستلزِمُ التَّنزيهَ مِنَ النَّقصِ؛ قرَنَ بيْنهما في هذا الموضِعِ، وفي مواضِعَ كَثيرةٍ مِنَ القُرآنِ[3].

- وفي الانتِقالِ مِنَ الآياتِ السَّابقةِ إلى التَّسبيحِ والتَّسليمِ في قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إيذانٌ بانتِهاءِ السُّورةِ، على طَريقةِ بَراعةِ الخَتمِ، مع كَونِها مِن جَوامعِ الكَلِمِ[4].

- وقد اشتمَلَتِ هذه السُّورةُ العظيمةُ على ذِكرِ ما قاله المُشرِكونَ في اللهِ ونَسَبوا إليه ممَّا هو مُنَزَّهٌ عنه، وما عاناهُ المُرسَلونَ مِن جِهَتِهم، وما خُوِّلوه في العاقبةِ مِنَ النُّصرةِ عليهم، فختَمَها بجَوامعِ ذلك؛ من تَنزيهِ ذاتِه عمَّا وصَفَه به المُشرِكونَ، والتَّسليمِ على المُرسَلينَ، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

على ما قَيَّضَ لهم مِن حُسنِ العَواقِبِ. والغرضُ: تعليمُ المؤمِنينَ أنْ يَقولوا ذلك، ولا يُخِلُّوا به، ولا يَغفُلوا عن مُضَمَّناتِ كِتابِه الكريمِ، ومُودَعاتِ قُرآنِه المَجيدِ(١).



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السَّابعُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الثَّامنُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ ص

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).









الفهرس







الفهرس




تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net
٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠